

ول وایر نیل دیورات

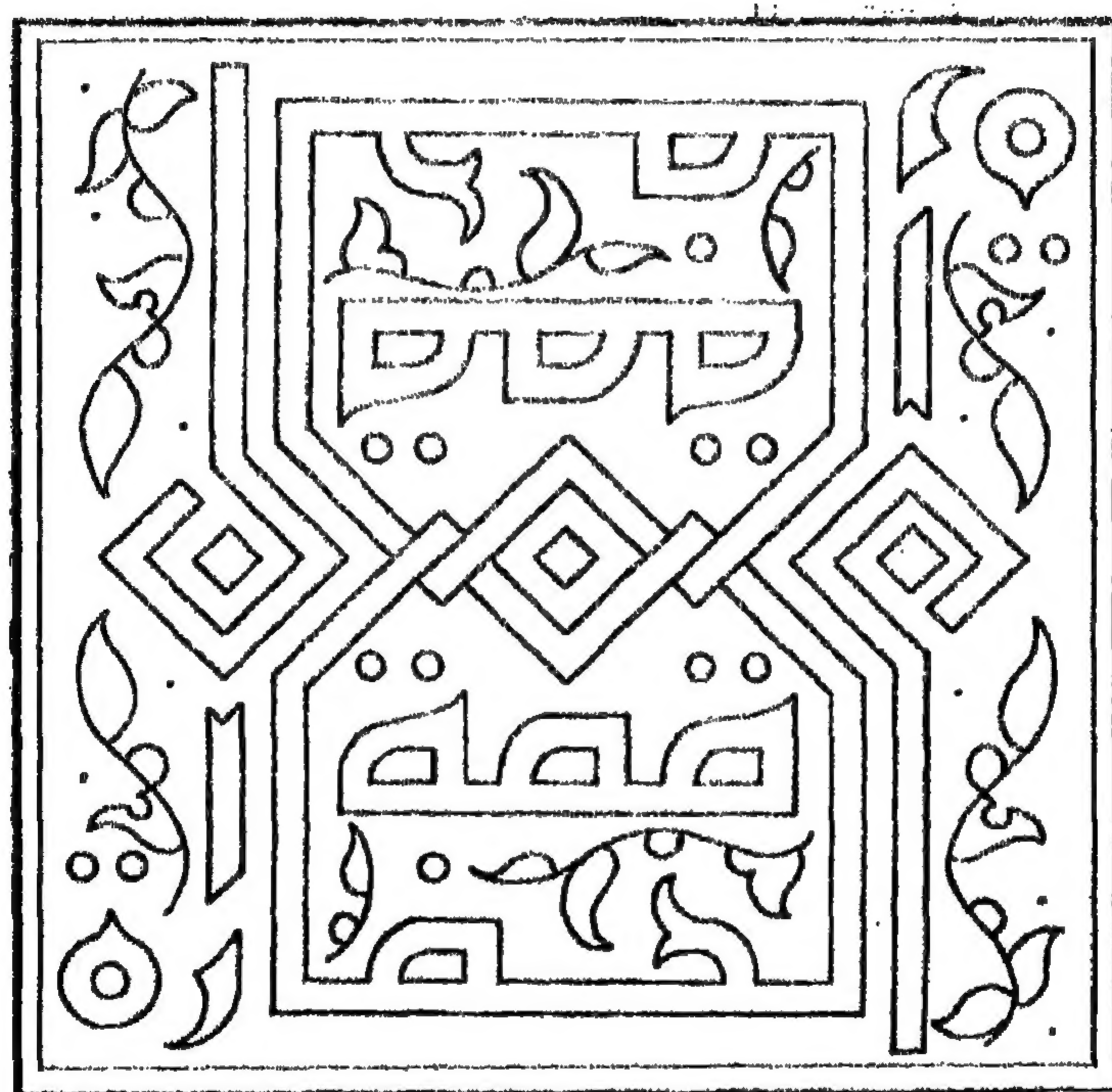
قصه انصاره

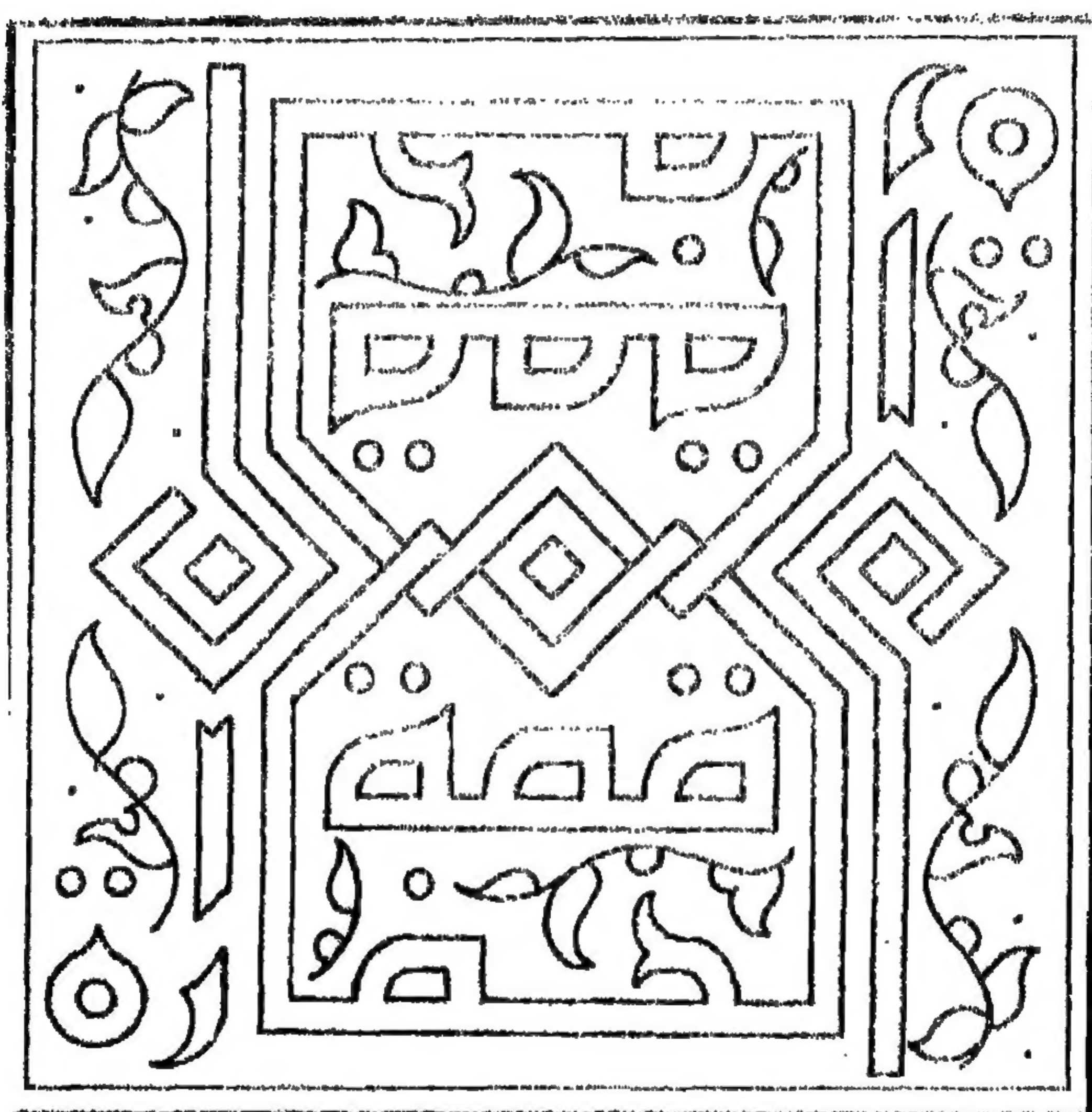
عبر شول



0159784

Bibliotheca Alexandrina





قصة الحضارة

ول وَايرنيل ديورانت

عصر قولتير

تاريخ الحضارة في أوروبا الغربية من ١٧١٥ إلى ١٧٥٦
مع التنويه الخاص بالصراع بين الدين والفلسفة

مراجعة
عماد أدهم

ترجمة
فؤاد أندراوس

المجلد الأول من المجلد التاسع



تونس

٣٥



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

فلا الجيـد : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت. ٢٦٦١٥٨ = ٢٦.٤٦٥ - تلخس، ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي، دار ميلاد - بيروت - لبنان

إلى حفيدنا المحبوب

جم

محتويات الكتاب

٥	كلمة اعتذار
٧	مقدمة
٩	الفصل الأول : فرنسا : الوصاية : ١٧١٥ - ٢٣
٩	١ - فولتير الشاب
١٢	٢ - الصراع على الوصاية
١٨	٣ - ازدهار ثم انهيار
٢٧	٤ - الوصي
٣٤	٥ - المجتمع في عهد الوصاية
٣٨	٦ - فأتو والفنون
٤٤	٧ - المؤلفون
٤٨	٨ - الكردينال العجيب
٥١	٩ - فولتير والباستيل

الكتاب الأول

انجلترا ١٧١٤ - ٥٦

٦٥	الفصل الثاني . الشعب
٦٥	١ - التمهيد للثورة الصناعية
٦٥	أ (المؤيدون
٦٩	ب (الصناعة
٧٢	ج (الاختراع
٧٥	د (رأس المال والعمال
٧٨	هـ (النقل والتجارة
٨٠	و (المال

٨٥	٢ - مظاهر الحياة فى لندن
٨٩	٣ - المدارس
٩٢	٤ - الأخلاق
١٠٠	٥ - الجريمة والعقاب
١٠٨	٦ - آداب السلوك
١١٨	٧ - تشترفيد

الفصل الثالث . الحكام

١٢٩	١ - جورج الأول
١٣٦	٢ - جورج الثانى والملكة كارولين
١٣٨	٣ - روبرت ولبول
١٤٣	٤ - بولنبروك
١٤٦	٥ - كيف تنزلق الدول الى الحرب
١٤٩	٦ - ارلندة
١٥٤	٧ - اسكتلندة
١٥٧	٨ - الأمير تشارلى الجميل
١٦٣	٩ - صعود وليم بت

الفصل الرابع . الدين والفلسفة

١٦٧	١ - الموقف الدينى
١٦٧	٢ - التحدى الربوبى
١٧٢	٣ - الدفع الدينى
١٧٧	٤ - جون وسلى
١٨٤	٥ - فى النحل والبشر
١٩٨	٦ - ديفد هيوم
٢٠١	أ (الفيلسوف الشاب
٢٠١	ب (الغض من شأن العقل
٢٠٤	ج (الأخلاق والمعجزات
٢١٠	د (الداروينية والمسيحية
٢١٤	هـ (الشيوعية والديمقراطية
٢١٩	و (التاريخ
٢٢٣	ز (الفيلسوف العجوز
٢٢٧	

٢٣٢	الفصل الخامس • الأدب والمسرح
٢٣٢	١ - دولة القلم
٢٣٥	٢ - الكسندر بوب
٢٥٥	٣ - أصوات الوجدان
٢٦٢	٤ - المسرح
٢٦٩	٥ - الرواية
٢٧٠	أ (صموئيل رتشردن
٢٧٧	ب (هنرى فيلدنج
٢٨٦	ج (طوبياس سمولت
٢٩٣	٦ - الليدى مارى
٣٠٧	الفصل السادس • التصوير والموسيقى
٣٠٧	١ - المصورون
٣١٢	٢ - وليم هوجارث
٣٢٢	٣ - الموسيقيون
٣٢٦	٤ - هندل
٣٢٦	أ - نشأته
٣٣٠	ب (غزو انجلترا
٣٣٨	ج (هزيمته
٣٤٢	د (الاوراتوريو
٣٤٧	هـ (بروميثيوس
٣٥٣	٥ - فولتير فى انجلترا

كلمة اعتذار

يجب أن يُلقى اللوم لطول هذا المجلد على المؤلفين اللذين أغراهما بالاسهاب الشديد افقتانهما بموضوعه المحسورى - ونعنى به الصراع الغالب ، المتصل ، بين الدين والعلم ، مضافا اليه الفلسفة ، ذلك الصراع الذى استحال الى مسرحية حية فى القرن الثامن عشر ، وتمخض عن علمانية عصرنا الممتدة . فكيف حدث أن شطرا كبيرا من الطبقات المتعلمة فى أوربا وأمريكا فقد الايمان بلاهوت ظل خمسة عشر قرنا يقدم خوارق الدعائم والاسانيد للقانون الاخلاقى القلق ، المتنافر ، الذى أرسيت فوقه الحضارة الغربية ؟ وأى آثار - فى الاخلاق والادب ، والسياسة - سيسفر عنها هذا التغيير ، الاساسى رغم صمته ؟

لقد ازداد التفصيل فى كل مجلد بتكاثر أحداث الماضي وشخصياته التى لا تزال اليوم حية فى تأثيرها وتشويقها . ولعل هذا التكاثر ، بالاضافة الى تعدد الموضوعات - التى تنتظم جميع مناحى الحضارة فى أوربا الغربية من ١٧١٥ الى ١٧٥٦ - ينهض عذرا عن طول القصة وتشعبها . وهكذا فجر « عصر فولتير » ضفاه وفاض بجزء عاشر ننوى اصداره عن « روسو والثورة » يبلغ بالقصة عام ١٧٨٩ . وسيتناول هذا الجزء العاشر التغيير الذى أحدثته حرب السنوات السبع فى خريطة العالم ، والسنين الأخيرة التى اختتمت بها حياة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٦ - ٧٤ ، وعصر جونسون ورينولدز فى انجلترا ، وتطور الثورة الصناعية وازدهار الأدب الالماني من لسنج الى جوته ، والفلسفة الالمانية من هردر الى كانط ، والموسيقى الالمانية من جلوك الى موتسارت ، وانهيار الاقطاع فى فرنسا لويس السادس عشر ، وتاريخ تلك الأمم المحيطة بالقارة - وهى السويد ، والدنمرك ، وبولنده ، وروسيا ، وتركيا ، وايطاليا ، والبرتغال ، وأسبانيا - التى أرجأنا تناولها فى هذا المجلد قصدا فى المساحة من جهة ، ولعدم تورطها مباشرة فى الصراع العظيم بين العقل والايمان من جهة أخرى (الا عن طريق البابوية) . وسينظر هذا المجلد الختامى فى مراحل ذلك الصراع

اللاحقة ، متمثلة فى ثورة روسو على العقلانية ، وجهد ايمانويل كانط: البطولى لانقاذ اللاهوت المسيحى عن طريق الاخلاق المسيحية . وسوف تستكمل لوحة عصر فولتير فى ذلك الجزء العاشر من « قصة الحضارة » . وتعرض خاتمة هذا المجلد التاسع الدفاع عن الدين ، أما خاتمة « روسو والثورة » التى تلقى نظرة محيطية على المجلدات العشرة كلها ، فستتصدى لسؤال يبلغ بموضوع الكتاب ذروته : ما هى عظات التاريخ وعبره ؟ .

ولقد حاولنا أن نصور الواقع بالمزج بين التاريخ والسير . وستثير هذه التجربة نقد الناقدين - ولا ضير فى هذا ، ولكنها تحقق هدف « التاريخ المتكامل » . ذلك أن الأحداث والاشخاص تسير جنباً الى جنب خلال الزمن دون اعتبار لايها كانت الاسباب وايها النتائج ، والتاريخ يتكلم فى الأحداث ، ولكن خلال الأفراد . وليس هذا المجلد سيرة لفولتير ، انما هو يستخدم حياته الجواله الثائرة نسبجا يربط بين الأمم والأجيال ، ويقبله بوصفه أعظم الاعلام دلالة وأكثرهم ايضاحاً فى الفترة بين موت لويس الرابع عشر وسقوط الباستيل . فمن من بين جميع الرجال والنساء الذين عاشوا فى تلك الحقبة المضطربة أنصح من فولتير صورة فى ذاكرة الناس ، وأحظى بقراءتهم الكثيرة لأعماله ، وأبقى تأثيراً فيهم اليوم ؟ يقول جيورج برانديس « ان فولتير خلاصة قرن من الزمان (١) » . ويقول فكتور كوزان « ان الملك الحقيقى للقرن الثامن عشر هو فولتير (٢) » . فلنسر اذن خلف ذلك اللهب المتوهج خلال القرن الذى عاش فيه .

مقدمه

الفصل الأول

فرنسا : للوصاية

١٧١٥ - ٢٣

١ - فولتير الشاب : ١٦٩٤ - ١٧١٥

لم يكن اسمه بعد فولتير ، بل كان حتى إطلاق سراحه من
الباستيل في ١٧١٨ يدعى فرانسوا ماري آرويه . وقد ولد بباريس في
٢١ نوفمبر ١٦٩٤ ، وأصبح خلاصتها المصفاة حتى ١٧٢٨ . أما الرجل
الذي يفترض أنه أبوه ، واسمه فرانسوا آرويه ، فكان محاميا ميسور
الحال ، عرف الشاعر بوالو والغانية نينون دلانكلو ، وكتب وصيتهما ،
وعرف المسرحي بيير كورنيي ، ووصفه بأنه « أثقل من لقي من الناس
ظلا (١) » . وأما أمه ، ماري مارجريت دومار ، فكان يجسرى في
عروقتها قدر طفيف من الدم النبيل ، وكانت ابنة موظف في « البرلمان »
وأخت المراقب العام للحرس الملكي ، ومن طريقهما استطاعت الوصول
إلى بلاط لويس الرابع عشر . وقد جعلت حيويتها وذكائها المرح من
بيتها صالونا صغيرا . وذهب فولتير إلى أنها ملكت كل ما وهبت أسرته
من ذكاء ، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية ، وقد استوعب
الابن الموهبتين جميعا فيما ورثه . وماتت أمه في الأربعين وهو لم
يجاوز السابعة . وكان أكبر أبنائها الخمسة أرمان ، الذي كان غيورا
على لاهوت الجانسنيين حريصا على ميراث الأسرة . أما أصغر الأبناء
فرانسوا ماري ، فكان معتلا في عامه الأول ، حتى أن أحدا لم يصدق
أن ستكتب له الحياة . وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته
المبكر ويذيعه على الناس .

وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة « آباء » abbés وهو لقب
كان يخلع على أي كنسي علماني ، سواء كان قسيسا مرسوما أو لم يكن .
وقد أصبح كثير من هؤلاء الآباء رجال دنيا لا دين ، لمعوا في المجتمع
رغم تمسكهم برداء الكهنوت ، ومنهم من ألفوا المشاركة للسافرة في

مجالس خلت من الوقار ، ومنهم من عاش كما يشتهي متسترا وان حافظ على مظهر لقيه . مثال ذلك الأبیه دشاتو نوف ، آخر عشاق نينون دلائكلو وأول معلم لفولتير . وكان رجلا واسع الثقافة ، رحب الأفق ، وقد أشرب تلميذه وبنية نينون وارتياحية مونتيني . وفي رواية قديمة مشكوك فيها انه قدم للصبي ملحمة هازلة تدعى « الملحمة الموسوية » كانت تتداول في مخطوطات سرية ، ومؤداها ان الدين ، اذا استثنينا الايمان بكائن أعظم ، ليس الا ذريعة يتذرع بها الحكام لاختضاع المحكومين وارهابهم (٢) .

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه « الأبیه » في زيارة لفينون ، وكانت الغانية الشهيرة يومها (١٧٠٤) في الرابعة والثمانين . ووجدها فرانسوا « يابسة كالومياء » ولكنها مازالت فياضة برقة المرأة وعطفها . وقد تذكر في تاريخ لاحق صنيعها فقال « لقد طاب لها أن تذكرني في وصيتها ، فتركت لي ألفي فرنك لأشتري بها كتبها (١٣) » . وماتت بعد ذلك بقليل .

ورغبة في موازنة هذا الغذاء ألحق الصبي وهو في العاشرة طالبا مقيما بكلية لوى - لجران اليسوعية على شاطئ باريس الأيسر ، التي اشتهرت بأنها أفضل مدرسة في فرنسا . وكانت تضم بين تلاميذها الألفين من أبناء الأشراف كل من أطاق أن يتعلم ، وفي السنوات السبع التي أنفقها فولتير في مدرسته صنع الكثير من الأصدقاء الارستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته باللفة الطبيعية معهم . وقد تلقى تدريبات حسنا في الدراسات الكلاسيكية ، والأدب ، ولا سيما المسرحية ، ومثل في مسرحيات عرضت هناك ، وكتب هو نفسه تمثيلية وهو بعد في الثانية عشرة . وكان متقدما في دراسته ، وظفر بجوائز كثيرة وأبهج معلميه وأقزعههم . فلقد أعرب عن عدم ايمانه بالجحيم ، وسمى السماء « عنبر نوم الدنيا الكبير (٤) » . وتنبا أحد معلميه في حزن بأن هذا المفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية - أي الدين الذي يرفض كل لاهوت تقريبا فيما عدا الايمان بالله . على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة ، وبادلهم هذا الصنيع باحتفاظه - طوال مرطقاته كلها - باحترام وعرفان بالجميل

دافئتين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام
كتب وهو فى الثانية والخمسين يقول :

« تلقيت العلم سبع سنين على يد رجال بذلوا جهودا مضنية لم
ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم ... ولقد أشربونى
ميلا الى الأدب ، وعواطف ستكون عزاء لى الى نهاية عمرى . وما من
شيء سيمحو من قلبى ذكرى الأب بوريه ، الذى هو عزيز بالمثل على
كل من أخذوا عنه العلم . فان أحدا من المعلمين لم يحبب تلاميذه فى
الدرس والفضيلة كما فعل ذلك الأب ... وقد أسعدنى الحظ بتلقى
العلم على أكثر من أب يسوعى جملة أخلاق الأب بوريه .. فما الذى
رايته خلال السنين السبع التى قضيتها مع اليسوعيين ؟ أكثر ضروب
الحياة جدا وقصدا وتنظيما ، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبدلونهم
لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة . وانى لأستشهد بالآلاف الذين علموهم
كما علمونى وليس بين هؤلاء فرد يكذبنى (٥) » .

وبعد أن تخرج فرانسوا نوى أن يجعل الأدب مهنته ، ولكن أباه
أصر على أن يدرس القانون ، محذرا أياه من احتراف الأدب الذى هو
كلمة المرور السحرية الى الفقر والعوز . وظل فرانسوا ثلاث سنين
« يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبيلا لمعرفة مهنة المحاماة
الباريسية » على حد قوله . وقد كره « كثرة الأشياء عديمة الجدوى
التي أرادوا أن يشحنوا بها ذهنى ؛ ان شعارى هو : التركيز على
صميم الموضوع (٦) » . وبدلا من أن يستغرق فى مجموعات القوانين
والسوابق القانونية ، سعى لصحبة جماعة من شكاك الأبيقوريين كانوا
يجتمعون فى التاميل - وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل
(الداوية) فى باريس . وكان امامهم فيليب دفاندوم ، كبير رؤساء
أديار فرنسا ، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والايمان الدينى الهزيل ،
ومعه الآباء سيرفيان ، ودبوسى ، ودشوليو ، ومركيز دلافار ، وأمير
كوفتى ، وغيرهم من الأعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحياسة
مرحة وكان الآبيه دشوليو يجهر بأن الخمر والنساء أطيب النعم
التي جادت بها على الانسان طبيعة حكيمة خيرة (٧) . وقد لاعم
فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء ، وصدم أباه بالسهر خارج

البيت مع أمثال هؤلاء السملر المعريدين حتى العاشرة مساء ، وكانت
تعد يومها ساعة متأخرة تأخيرا منكرا .

وعين فولتير ملحقا للسفير الفرنسي بلاهاي (١٧١٣) ، ربما
بناء على طلب الأب . ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساسية
فى غرام أوليمب دنواييه ، وكيف لاحقها بأشعاره ، وقطع لها العهد
بعبادتها الى الأبد . كتب لها يقول : « لم يوجد حب يعدل حبنى ، لأنه
لم يوجد انسان أجدر بالحب منك (٨) » . وأبلغ السفير أرويه الأب
بان فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية . فاستدعى ولده الى وطنه ، وحرمه
من ميراثه ، وهدد بنفيه على مركب الى جزر الهند الغربية . وكتب
فرانسوا من باريس الى « بامبيت » بأنه قاتل نفسه ان لم تبادر بالحضور
اليه . واذا كانت أعقل منه بسنتين اثنتين ، وبجنس واحد ، فقد ردت
عليه بأن من الخير له أن يصلح أباه ، ويصبح محاميا فالحا . وصفح
عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام ويقيم معه ، فوافق . اما بامبيت
فتزوجت كونتا . ويبدو أنها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية .
لقد كان انسانا مرهف الشعور كأي شاعر ، كله أعصاب وحساسية ، ولكنه
لم يكن عارم الشهوة ، وسوف يقع بعد ذلك فى غرام مشهور ، ولكنه
لن يكون تجاذبا بين جسدين بقدر ما هو تألف بين عقليين . لقد فاضت
طاقته من خلال قلمه . كتب الى المركيزة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة
والعشرين يقول « ان الصداقة أثمن ألف مرة من الحب . ويخيل الى
أننى لم أخلق قط للغرام . فأننى أجد فى الحب شيئا سخيلا نوعا ما . .
وقد قررت أن أطلقه الى الأبد (٩) » .

وفى أول سبتمبر ١٧١٥ مات لويس الرابع عشر ، فتنفست أوروبا
البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء . لقد كان موته خاتمة ملك
ونهاية عصر : ملك اتصل اثنتين وسبعين سنة ، وعصر - عصر القرن
العظيم - بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية ، وبهاء الروائع الأدبية ،
وفخامة فن الباروك ، وانتهى بانحلال الفنون والآداب ، وارهاق الشعب
وافقاره ، وهزيمة فرنسا واذلالها . وتطلع الجميع فى أمل وشك الى
الحكومة التى ستخلف الملك المهيب الذى راح غير مبكى عليه .

٢ - الصراع على الوصاية : ١٧١٥

كان هناك ملك جديد ، هو لويس الخامس عشر ، ابن حفيد

لويس الرابع عشر ، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة . مات جده ،
وأبوه ، وأمه ، وأخوته ، وأخواته ، وأخيرا جد أبيه . فمن يكون وصيا
عليه ؟ .

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس الى الموت : ابنه لويس الذى
مات فى ١٧١١ ، وحفيده دوق برجنديا الذى مات فى ١٧١٢ . وقبل
حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكا على اسبانيا ، شريطة تنازله عن
جمع حقوقه فى عرش فرنسا ، وبقي على قيد الحياة بعد موت الملك
الشيخ ابنان غير شرعيين ، وكان قد اعترف ببنتوتهما شرعا ، وأصدر
مرسوما بأن يرثا تاجه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهم
الدم الملكى . أما أكبرهما وهو لوى أوجست ، دوق مين ، البالغ
آنئذ الخامسة والأربعين ، فكان رجلا هزيل الجسم لطيف المعشر زادت
قدمه المشوهة من حيائه وجبنه ، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته
الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة) ، والتي بلغ ثمنها
٩٠٠.٠٠٠ جنيه ، من ترف ودعة ، لولا أن زوجته البطموح كانت تحثه
على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية على العرش . ذلك أن دوقة
مين لم تنس قط أنها حفيدة كونديه الكبير ، فاحتفظت فى سو ببلاط
أشبه ببلاطات الملوك ، بسطت فيه رعايتها على الفنانين والشعراء
(ومنهم فولتير) ، وأحاطت نفسها بحاشية مريحة وفيه تمهيدا للملك
وسبيلا للوثب اليه ، وكان لها مفاتنها ، امرأة لا عيب فى جسمها
ولا شائبة فى هندامها ، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر
صبية ، ذكية ماهرة ، تلقت تعليما كلاسيكيا طيبا ، وأوتيت بديهة
حاضرة وحيوية لا تعيا وان أعيت غيرها . وكانت واثقة أن زوجها سيكون
وصيا رائعا ما دام خاضعا لسلطانها . وبلغت بالحاحها من اقناع القوى
المحيطة بالملك المحتضر مبلغا كفى لاستخلاص وصية منه (١٢ أغسطس
١٧١٥) تركت لدوق مبن الاشراف على شخص الصبى لويس ، وتعليمه ،
وعلى جنود القصر ، ومنحته كرسيها فى مجلس الوصاية . ولكن ملحقا
للوصية (٢٥ أغسطس) عين فيليب الثانى ، دوق أورليان ، رئيسا
للمجلس .

وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الاول (المسيو) الاخ الخنثوى
للكل الشيخ من زوجة ثانية - هى شارلوت اليزابث أميرة البالاتين

الخشنة الواقعية النزعة . وكان تعليم الفتى قد نيط بأب دينى تصفه « مذكرات » سان - سيمون ، كما تصفه « المذكرات السرية لفترة الوصاية » « لدكلو » بأنه « بالوعة نتنة » من الرذائل . فلقد كان جيوم دبوا هذا ابنا لصيدلانى اقليمى ، بذل جهدا كثيرا فى الدرس ، وكسب قوته بالاشتغال مدرسا خصوصيا ، وتزوج ، ثم ترك زوجته برضاها ليلتحق بكلية سان - ميشيل بباريس ، حيث كان يدفع نفقات تعليمه ياداء الأعمال الحقيرة بهمة لا تفتر . فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لسان - لوران ، ضابط بيت « المسيو » وجز شعر رأسه ليترهب ، ورسم كاهنا صغيرا ، ناسيا فيما يبدو زوجته . فلما مات سان - لوران عين دبوا مدرسا خصوصيا للوصي المستقبل . يقول دكلو - الذى قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل « ان الابيه احس أن تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفسد أخلاقه ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق هذا الهدف ، وأفلح فى هذا فوق ما دبر لسوء الحظ (١٠) » . أما سان - سيمون الذى كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل ، فكان يجد متعة فى وصف دبوا ، قال فيه :

« رجل قصير القامة ، حقير الهيئة ، ذابل الوجهه ، مخلوع القلب ، يلبس باروكة صفراء باهتة ، له وجه عرسية يضئيه بعض الذكاء . لقد كان - فى كلمتين مألوفتين - وغدا أصيلا . اضطرعت فى داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة ، حتى ملأ ذهنه الضجيج المتصل - آلهته الحرص والفجور والطمع ، ووسائله الغدر والمسلق والتذلل ، ودينه الفسوق المطلق ، ورأيه الذى دان به كانه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الأوهام التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود . . . كان فيه ذكاء ، وعلم ودراية بشئون الدنيا ، ورغبة شديدة فى ارضاء الناس والتودد اليهم ، ولكن هذا كله أفسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم ارادته من مسام جسده كلها . . . شرير . . . خائن ، عاق ، خبير بأخبث الخبائث ، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره . يشتهى كل شيء ، ويحسد كل شيء ، ويود أن يظفر بكل شيء (١١) » .

وكان سان - سيمون وثيق الصلة بأسرة فيليب ، وعلينا ألا نتعجل

فى تكذيبه ، ولكن لابد أن نضيف أن هذا الأبىه كان دارسا كفىا ،
ومساعدا قديرا ، ودبلوماسيا حكىما موفقا ، وأن فيليب لخبرته بالرجل
ظل وفيا له الى النهاية .

اما التلميذ ، الذى ربما كان نسبة من ناحية الأب قد أفسده ، فقد
تلقف تعليمات أستاذة وبزها عقلا ورذيلة . أبهج معلمه بذاكرته القوية ،
وفطنته العقلية ، وذكائه الثاقب ، وفهعه وتذوقه للأدب والفن . واتاه
دبوا بفونتنيل ليعلمه أصول العلوم ، وبهومبيرج ليعلمه أصول الكىمياء ،
وسىكون لفليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثانى ملك
انجلترا ولفولتير فى سيريه ، وسيلتمس فى التجارب الكىمىائية بعض
الراحة من حياة الزنا والفجور . وكان يرسم صوراً لا بأس بها ، ويعزف
على القيثارة ، ويحفر الرسوم للكتب ، ويجمع التحف جمع ذواقة
خبير ولم يتعمق واحدا من هذه الميادين ، فقد كانت اهتماماته شديدة
التنوع ، وملاهيه تستأثر بوقته . وكان بريئا كل البراءة من الإيمان
الدينى ، وحتى أمام الناس « تظاهر باستهتار مخز بالدين (١٢) »
وفى هذا ، كما فى إباحته الجنسية ، كان رمزا وحافزا لبلده وللقرن
الذى عاش فيه .

لقد كان كاكثرا خليطا مضطربا من الشخصيات . يكذب فى سر
وفى ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطارئة ، وينفق ملايين
الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيه وهواياته الشخصية ؛ على
أنه كان جوادا عطوفا ، بشوشا متسامحا ، « بطبيعته طيب القلب
عطوف ، رموف (كما قال سان - سيمون (١٣)) أكثر وفاء لأصدقائه
منه لخليلاته . وكان يثمل بالشراب كأن السكر شعيرة يؤديها كل ليلة
قبل أن يمضي الى فراشه (١٤) . فاذا وبخته أمه أجابها « من السادسة
صباحا حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضنى ، ولولا أنى الهو
بعد ذلك لما أطقته ، ولت كمدا (١٥) » .

وربما كان له من اجهاض حبه الأول عذر فى اسرافه فى الجنس .
ذلك أنه شغف حبا بالأنسة سبرى ، وكانت وصيفة شرف لأمه ، عريقة
المولد . فراح ينظم لها القوافى ، ويغنى لها ، ويزورها مرتين فى

اليوم ، وأراد أن يتزوجها . ولكن لويس الرابع عشر عبس ، وزكى له ابنه غير الشرعية ، دوق بلوا ، تزكية قوية . وأطاع فيليب (١٦٩٢) ، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالآنسة سيري حتى ولدت له ابنا . فنفاها الملك الغاضب من باريس . وبعث لها فيليب بالمال الكثير ، ولكنه حاول أن يكون وفيا لزوجته ، دون أن يوفق في ذلك طويلا . ومنحته ابنة ، هي دوق بيري المستقبل ، التي أصبحت أغلى حب له . وأمر مأساة في حياته .

وبعد موت أبيه (١٧٠١) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثروة الأسرة ، دون أن يلتزم بشيء ، إلا أن يستمتع بحياته في السلم ويخاطر بها في الحرب . وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضد الحلف الأعظم (١٦٩٢ - ٩٧) ، وأصابته من جراء ذلك جراح كبيرة . ثم نال الآن مزيدا من الامتياز ببسالته المستهترة في حروب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ - ١٣) . فلما نجا من الموت كافأ نفسه بوليمة من البغايا . وكان في آثامه كلها ، وفي غير استهتاره الدينى ، يحتفظ بلطف في السلوك وتهذيب وأدب في الحديث يذكر الناس بشباب « الملك الشمس » الحال .

ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه أن يطالب بالوصاية على العرش إلا بعد أن أزيح جميع الورثة المباشرين من الطريق ، أما بالموت وأما بالمعاهدة . واهتمته الشائعات بأنه ستم أمراء البيت المالكي ليخلو له الطريق الى الملك ، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الفرية . وبدأت عدة جماعات ترى فيه شرا أهون من دوق مين ودوقتها . فالبروتستانت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الاكراه بالتهديد تمنوا ارتقاءه الى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ الى التسامح . كذلك الجانسنيون الذين قاسموا من الاضطهاد الملكى والمراسيم البابوية ، وكذلك أصحاب « العقول القوية » أو أحرار الفكر الذين أبهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنسا ، وكذلك جمهور باريس الذى سئم صرامة الملك المتوفى وتزمته الذى جاء متأخرا ، وكذلك جورج الأول ملك إنجلترا ، الذى عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها ، وأهم من هؤلاء جميعا أن « نبلاء السيف » -

أى الأسر الذبيلة التى أنزلت عن سلطانها القديم بأمر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح أفرادها طفيليات تعيش عالة على البلاط - هذه الأسر راودها الأمل بأنها عن طريق فيليب ستثار لنفسها من الاهانة الملكية ، اهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين فى الحكم ، وللتجار فى الادارة . وحث سان - سيمون فيليب على التخلّى عن تبطله وفجسوره ، وعلى الكفاح فى سبيل حقه فى الوصاية ، وكان هو نفسه واحدا من أكبر النبلاء مقاما .

وأما فيليب فكان يحب اللهو أكثر من السلطة ، ولعله كان يؤثر أن يترك شأنه . أما وقد راح أصحابه يحضونه ، فقد همز همته لتفور فورة قصيرة ، فاشترى هو - أو هم - تأييد جنود القصر الملكى (تحت بصر دوق مين) ، وكسبوا كبار السياسيين والعسكريين بوعدهم بالوظائف ، واسترضوا البرلمان بأمال رد امتيازاته السابقة . وفى ٢ سبتمبر ١٧١٥ - غداة موت لويس الرابع عشر - دعا فيليب برلمان باريس ، وقادة النبلاء ، وكبار موظفى الدولة ، للاجتماع فى قصر العدالة . وذهب دوق مين مؤملا الظفر بمنصب الوصي ، ولكن جسارة دوق أورليان ، وكذبه ، وفصاحته ، كلها غلبته فى هذه اللعبة . قال فيليب فى معرض بذل الوعود « لن يكون لى هدف غير التخفيف من آلام الشعب ، وتوطيد النظام الحسن من جديد فى مالية الدولة ، والمحافظة على السلام فى الوطن وفى الخارج ، وإعادة الوحدة والهدوء الى الكنيسة ، وسيعيننى على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليل الحكيمة ، وهانذا أتمسها سلفا (١٦) » . أى أنه عرض أن يرد للبرلمان « حق الاعتراض » (على المراسيم الملكية) الذى أنكره الملك السابق وأغفله . وتحقق النصر لهذه الحركة البارعة ، وباع البرلمان فيليب بالاجماع تقريبا وصيا على العرش وأعطاه الاشراف الكامل على مجلس الوصاية . واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل ، وأنه والحالة هذه لا يمكن ان يظل بعد ذلك مسئولاً عن شخص الملك الصبى ، وأنه مضطر الى طلب اعفائه من ذلك الواجب . فاخذه فيليب والبرلمان عند كلمته ، وانكفا مين ساخطا عاجزا الى ضيعته فى سو ، والى تقريعات زوجته العنيفة . وأصبح فيليب أورليان وصيا على عرش فرنسا ثمانية أعوام ، وكان يومها فى الثانية والأربعين .

٢ - قصة الحضارة

٣ - ازدهار ثم انهيار : ١٧١٦ - ٢٠

كانت مهمته الأولى إعادة النظام والاستقرار الماليين الى الدولة .
لقد ورث حكومة مفلسة ، بلغ دينها ٢٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ رطل ٢٤٠٠ جنيه ، اضيف
اليه دين قصير الاجل بلغ ٥٩٠ مليون جنيه على شكل « سندات على
الدولة » - وهى كمبيالات ملكية تتداولها الأمة ، ولم تكد تساوى آنثذ
ثلث قيمتها الاسمية . وكان صافى ايرادات الحكومة عام ١٧١٥
لا يتجاوز ٦٩ مليون جنيه ، ومصروفاتها ١٤٧ مليون . وكان اكثر
الدخل المنتظر فى ١٧١٦ قد أنفق مقدما (١٧) .

واشار سان - سيمون بأن تشهر الحكومة افلاسها . ولكن الدوق
أدريان موريس دنواى احتج . ووفق الوصي بين الرايين باجراءات
اقتصاد واصلاح معتدلة . فخفض الجيش الى ٢٥.٠٠٠ مقاتل ، وأعفى
الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات ، وأعفى آباء الاطفال
الثمانية اعفاء دائما . وخفضت ضرائب « التاي » ، والجاييل ،
والرموس ، وغيرها من الضرائب . وندد بالفساد الذى استشرى فى
جميعها ، وعولج بعض هذا الفساد ، ورفعت مئات من شاغلى الوظائف
الحكومية الزائدين عن الحاجة - ومنهم ٢٤٠٠ فى باريس وحدها .
وانشئت « غرفة عدالة » (مارس ١٧١٦) دعى للمثول امامها كل
الماليين ، والتجار ، واصحاب مصانع الذخيرة ، وغيرهم ممن اشتبه
فى أنهم غشوا الحكومة . وهنا أقام نواى ، الذى ألف الاجراءات
العسكرية ، حكم ارهاب حقيقيا ، فوعد بالرافة كل من يكشف عن زملائه
من المذنبين ، ووعد المبلغون بخمس المبالغ التى تسترد بفضل
مساعدهم . وشرعت عقوبة الاعدام لكل من يعوق عمل المبلغين ،
وتقررت مصادرة الاملاك والحكم بالتشغيل على سفن الاسرى والعبيد
مدى الحياة عقابا لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالى . وشسنى
بعض من حكم عليهم ، ووضع البعض الآخر فى المشهرات امام جمهور
مبتهج ، وانتحر بعض رجال المال بعد أن يثسوا من تبرئة أنفسهم . على
أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل . ذلك أن اكثر المذنبين
اشتروا الاعفاء من الفحص او الادانة برشوة موظفى الغرفة ، او اصدقاء
الوصي ، او خلياته . وتفاقم الفساد حتى بلغ حدا كان افراد الحاشية

بیسعون فيه الى الرشوة بدلا من أن يعرضها المذنبون عليهم ، من ذلك أن أحد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرها ١٢٠٠٠ فرنك ، فوعده أحد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه . قال له رجل المال « سيدى الكونت العزيز ، لقد تأخرت كثيرا ، لأنى أبرمت للتو اتفاقا مماثلا مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (١٨) » . وأعلن المرسوم الذى ألغى غرفة العدالة (مارس ١٧١٧) ، فى صراحة . ندر أن تتحلى بها الحكومات ، أن « الفساد استشرى حتى وصلت عدواه الى جميع الطبقات تقريبا ، بحيث لا يمكن توقيع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الاخلال بالخطر بالتجارة والنظام العام والدولة » . وكان صافى ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحو سبعين مليون فرنك (١٩) .

فلما خاب أمل الوصي فى هذه النتائج ، استمع الى رجل اسكتلندى ممتاز اقترح عليه نظاما جديدا للمالية . واسم الرجل جون لو ، وقد ولد لمصرفى من أدنيره فى ١٦٧١ ، ودرس علم المصارف فى لندن ، وشهد افتتاح بنك إنجلترا فى ١٦٩٤ ، واشتبك فى مبارزة بسبب الحب ، وقتل غريمه ، ثم فر الى القارة يحمل على رأسه حكما بالأعدام . وكان وسيما ، بشوشا ، مولعا بالعلوم الرياضية ، ضارب بنجاح فى سوق النقد الأجنبى ، وأعانتته قدرته على حساب ارتباطات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته فى مختلف الاقطار . وقد راقب الطرق التى تعمل بها المصارف فى أمستردام ، وهامبورج ، والبندقية ، وجنوة . وفى أمستردام على الأخص أخذ بسحر نظام الائتمان ، الذى أتاح للمصرف أن يصدر أوراقا نقدية بأضعاف القيمة الذهبية لرصيده ، بحيث شغل عشرة جولدنات بغطاء جولدن واحد ، وبهذه الطريقة حفز الأنشطة الصناعية والتجارية ، ويسرها ، وضاعفها . ورأى هناك كيف يمكن ، فى مصرف يثق به رجال الاعمال ، اجراء المعاملات بمجرد نقل الارصدة المصرفية ، دون عناء حمل القضة أو الذهب أو مبادلتها . وساعل نفسه : لم لا يمكن انشاء مصرف قومى ونظام ائتمان كهذين فى فرنسا ؟ وراح يفكر فى وضع « نظامه » - وهو الاسم الذى أطلق عليه بعد ذلك .

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد باصدار أوراق النقد ، بضمان الحكومة ، لمثللى قيمة الاحتياطييات القومية من الفضة والذهب .

والارض ، ويخفض معدل الفائدة ، تشجيعا لرجال الاعمال على اقتراض المال للمشروعات والطرق الجديدة فى الصناعة والتجارة . وبهذه الطريقة تخلق النقود الاعمال ، وتزيد الاعمال من التوظيف والانتاج ، وتزداد الايرادات والاحتياطيات القومية ، ويتيسر اصدار المزيد من النقود ، ويتصاعد الخير والنفع . ولو أمكن اقناع الشعب - عن طريق المدفوعات من الفوائد - بايداع مدخراته فى مصرف قومى بدلا من اختزان المعدنين النفيسين ، لاضيفت هذه المدخرات الى الاحتياطيات ، وأصدر المزيد من العملة ، وهكذا يشغل المال العاطل ، ويزداد رخاء البلاد .

وفى عام ١٧٠٨ شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية ، فرفضها لويس الرابع عشر . فلما أصبح فيليب أورليان وصيا ، عرض لو أن ينقذ بنظامه هذا مالية فرنسا المفلسة . وتساعل : لم تنفرد فرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، دون سائر دول أوربا الكبرى بخلوها الى ذلك الحسين من المصارف القومية ؟ ولم تردت فرنسا فى مهاوى الركود الاقتصادى برغم ما تميزت به تربتها من خصب وأهلها من ذكاء ؟ ووافق فيليب على السماح له بأن يؤسس « مصرفا عاما » (١٧١٦) على أن يكون هذا مشروعاً أهلياً . وقبل المصرف الودائع ، ودفع الفوائد ، وأقرض المقروض ، وأصدر أوراق نقد - من فئات عشرة ومائة و ألف فرنك - سرعان ما أصبحت وسيطاً مفضلاً فى المبادلة بفضل قيمتها الثابتة ، المربوطة بوزن ثابت من الفضة . وكانت هذه الاوراق النقدية اول نقود ورقية قانونية ، وهكذا وضع مصرف لو ، وفروعه الاقليمية ، اول طرق الائتمان المنتظمة فى فرنسا . وفى ابريل ١٧١٧ تقرر قبول اوراق المصرف سداداً للضرائب .

وفى سبتمبر تقدم لو الى مرحلة من أفكاره اشد مغامرة . ذلك انه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها « شركة الغرب » لاستغلال حوض المسبى باكملة ، وكان يومها خاضعاً لفرنسا . وباع للجمهور ٢٠٠ر٠٠٠ سهم فى شركة الغرب هذه سعر السهم منها ٥٠٠ جنيه ، وكان الثمن عالياً ، ولكن يجوز دفع ثلاثة ارباعه سنداً حكومياً بقيمتها الاسمية ، التى بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعلية .

وبإدراك الجمهور إلى شراء الأسهم كلها مغتبطا بهذه الفرصة التي أتاحته له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسهما في مشروع يرجى من ورائه الربح . وأصدر لو - في تفاؤل متزايد - تعليماته لمصرفه بأن يشتري الاحتكار الملكي للتبغ ، وجميع الشركات الفرنسية التي تشتغل بالتجارة الخارجية ، ثم ضم هذه الشركات إلى شركة الغرب فالف منها « شركة جزر الهند » التي ستحتكر كل التجارة الخارجية . وبدأ لبعض رجال الأعمال أن الاشتراك في التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية في الإنتاج والتوزيع الداخليين ، فبدأت تختمر حركة معارضة للو .

وفي ٤ ديسمبر ١٧١٨ أعيد تأسيس مصرف لو باسم « المصرف الملكي » ، واعترف بأوراقه أوراقا نقدية قانونية ، وأعطى الإشراف الكامل تقريبا على مالية الأمة . وأصدر لو إصدارا جديدا من الأسهم في شركة الهند بسعر السهم منها ٥٥٠ جنيها . وسرعان ما تم الاكتتاب . وزاد توقع الناس للأرباح المرتفعة في تقديرهم لقيمة الأسهم ، فتبادلوها بأسعار مطردة الزيادة في موجة مضاربة ، حتى طلبت بسعر ٥٠٠٠ رة جنية ، أي بتسعة أو عشرة أمثال قيمتها الاسمية . وتصادف أن مرت بباريس في ١٧١٨ الليدي ماري ورتلي مونتاجيو ، فابتسمت لرؤية فرنسا تترك التصرف في حياتها الاقتصادية لرجل بريطاني . وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزا صواب حكمه . فلم يكتف المصرف الملكي الجديد بتسلم دار سك النقود وكل جبايات الضرائب ، بل تلقى الدين القومي باعطائه حصة في شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها ٥٠٠٠ رة جنية في تعهدات الحكومة ، وخيل إليه أن رأس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملا في مشروعاته الموسعة . ثم عرض قسرة المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخطر باعطائه منحة للوصي قدرها ٢٤٠٠ سهم .

وظلت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة ، واشتدت حماسهم للشركة ، وزايد المشترون بأسعار أعلى وأعلى على أسهمها . وزاد المزيفون هذه الضجة بانزال شهادات أسهم مزيفة إلى السوق . وظل شارع كانكمبوا ، الضيق القذر ، الذي اختار « النظام » فيه مكانه ، يهدى هامين المركز المالي الرئيسي لباريس (أشبه ببول مسترريت في

نيويورك) . وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميع الطبقات ، والدوقات والمومسات ، والباريسيون والريفيون والاجانب ، فى أعداد مطردة وانفعال اشتد يوما بعد يوم . ومات البعض تحت الأقدام وسط الزحام ، أو داستهم مركبات النبلاء . وكان المريشال الشيخ « دفيالر » يمر بالمكان راكبا ، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جشعه المفرط . وكانت الأكشاك الصغيرة المقامة فى هذا الزقاق تغل كل شهر ايجارا أكثر مما تغله البيوت فى عشرين عاما . وشكا السكان من شدة الضجيج الذى لا يحتمل . ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن المزايدة بأصوات مرتفعة ، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريبا ، بل أحيانا كل ساعة ، فبيع بعض الأسهم فى نهاية عام ١٧١٩ بمبلغ ١٢ر٠٠٠ جنيه ، وبلغت القيمة السوقية لكل الاسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين فى فرنسا (٢٠) . واذا كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز عشرة فى المائة من قيمته الاسمية ، فان نقل الاسهم من مالك لآخر كان مريعا ، وحقق البعض ثروات فى يوم واحد . فكسب مصرف ١٠٠ مليون جنيه ، وخادم فى فندق ثلاثين مليونا (٢١) . وسمع الناس لأول مرة كلمة « المليونير (٢٢) » .

وكان لو رجل الساعة . ففى ١٧٢٠ عين مراقبا عاما للمالية . وكان أساطين النبلاء والنبيلات يذرعون حجرة انتظاره ملتسمين نصحه فى شئون المال أو تأييده فى دسائس البلاط . وقد كتب فولتير مستعيدا ذكرى ذلك العهد فقال « رأيت يمينى يخترق ابهاء البالية - رويال ومن ورائه الأدواق والاشراف - وماريشالات فرنسا ، وأساقفة الكنيسة (٢٣) » . وقبلت إحدى الدوقات يده فى تذلل .

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار أفكاره الظاهر أفسده ، أو أن استفحال سلطانه الشخصى أطفاه ، والواقع أنه ربح للقيمة المفرطة التى أوصل جشع الجمهور أسهم الشركة اليها (٢٤) . ولم يستغل مركزه ليثرى . وقد صرح سان - سيمون ، الذى كان يعارض هذا « النظام » بقوله :

« لم يكن فى طبعه جشع ولا لؤم . فلقد كان رجلا رقيقا طيبا »

محترما ، لم تفسده زيادة الثقة وكثرة المال ، ولم يكن فى مسلكه ، ولا فى بطانته ، ولا فى ملئدة طعامه ، ولا فى أثائه ، ما يصدى الناس . وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التى سببتها عملياته ، حتى اذا قارب النهاية . . . أصبح سريع الغضب حاد الطبع » .

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لانه أجنبى وبروتستانتى ، ولاحظوا أنه هو وزوجته الانجليزية لم يكونا متزوجين زواجا شرعيا رغم ما بدا من اخلاصهما الواحد لصاحبه . ورغبة منه فى التخفيف من هذا العداء ، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثولى الرومانى .

واستعمل سلطانه مهمازا يحفز به رضاء وطنه الثانى ، فخفض الضرائب ، وأنهى النظام السقيم الفاسد الذى كانت الوكالات الاهلية تتبعه فى جمع الضرائب ، وأظهر نحو جماهير الشعب عطفًا لم يعهد فى رجال المال . وقسم ضياعا كبيرة ملكا للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون ، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقبا عاما الزام الكنيسة ببيع جميع الاملاك التى اقتنتها بعد عام ١٦٠٠ - أعنى نصف جميع ممتلكاتها الفرنسية (٢٥) - وسبق طورجو بالغائه الرسوم المفروضة على نقل الأغذية والسلع داخل فرنسا ، ونظم بناء الطرق والكبارى والقنوات أو ترميمها ، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة ، وشجع التوسع الصناعى بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض ، وزادت المشروعات الفرنسية ستين فى المائة فى مدى العامين (١٧١٩ - ٢٠) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته ، وأحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع فى التجارة مع آسيا وأفريقيا ، وأمريكا ، وكانت السفن الفرنسية التى تحمل التجارة الخارجية ، تبلغ ست عشرة فى مارس ١٧١٩ ، فأصبحت ٣٠٠ فى يونيو ١٧٢٠ ، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية فى عهد لو الى الأوج الذى أدركته تحت كولبير . وأقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل انتاج البن والتبغ فى لويزيانا ، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر أركنساس . وفى ١٧١٨ أسست نيو أورليانز ، واتخذت لها اسما من اسم أسرة الوصي .

على أن المشروع الأمريكى لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

وفيليب المتعددة النواحي . فلقد كان شطر كبير من وادي المسبى لا يزال برية لم تفتح ، وعرض لو مهور العرائس و ٤٥٠ فسدانا على الأسر المهاجرة الى الوادي . فلما تبين أن الهجرة أقل اغراء من المضاربة ، رحل المسجونون والمتشردون والبغايا الى لويزيانا ، ودفع الشبان والشابات (أمثال مانون ليسكو في رواية بروس ت) الى هذه المغامرة بالحيلة أو القوة . وكان هؤلاء الضحايا يطعمون أسوأ الطعام حتى مات كثير منهم في الطريق . وأوقفت مراسيم مايو ١٧٢٠ هذا الاكراه الهمجي . أما في المستعمرة ذاتها فان التجهيز الرديء ، والادارة السيئة ، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد ، وجعلت ارباح « شركة المسبى » (كما سماها الناس) أقل كثيرا مما افترضه المضاربون . واتضح أن آمال استخراج الذهب أو الاحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم في وهم ، رغم أن لو نفسه راوده هذا الحلم .

ولا بد أن نبا هذه الصعوبات قد وصل الى فرنسا . وحكم اذكي المضاربين أن أسهم الشركة قد بلغت قممتها ، أما غيرهم ممن لم يقلوا عن هؤلاء جشعا وان افتقروا الى المعلومات أو الحكم الصائب ، فقد حل بهم الخراب لأنهم تأخروا في بيع أسهمهم . وفي ديسمبر ١٧١٩ أصبح التهافت والتنافس على البيع أكثر مما كان على الشراء . ففي بحر شهر واحد باع الدوق بوربون أسهما بعشرين مليون جنيه ، وأمير كوندية بأربعة عشر مليونا ، وتطلب الأمر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذي لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمننا لأوراقه النقدية وأسهم الشركة (٢٦) . وأفرغ مضارب بروسيا ما يملكه منها ، ثم مضى بثلاثين مليونا من الجنيهات ذهبا . وصرف غير هؤلاء ثمن أسهمهم ليشترؤا أرضا أو بيوتا أو حليا أو أشياء أخرى مما تستند قيمته على أساس مكين من حاجة البشر و غرورهم . أما المليون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انتقموا لانفسهم بصرف ثمن أوراقهم وارسل الذهب خارج فرنسا . وحاول لو أن يقف تدفق الذهب من الخزائن ، فحصل من الوصي على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعساذن النفيسة أو الاتجار فيها أو تصديرها ، وتحتم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك الى المصرف الملكي . وخول لندوبي المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء ، ومثل هذا

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر . يقول سان - سيمون « لقد أخفى الكثيرون أموالهم فى تكتم شديد حتى أنهم - بعد أن ماتوا دون الافضاء بمكمن كنوزهم الصغيرة - ظلت هذه مدفونه وضاعت على ورثتهم (٢٧) » .

فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه ٩٠٠٠ جنيه (بأوراق النقد) ثلثا للسهم ، ولكن الزيادة المطردة فى أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع . فلم يحل مايو ١٧٢٠ حتى كانت الاسعار قد ارنفعت مائة فى المائة ، والأجور خمسة وسبعين فى المائة بالمقارنة بسنة ١٧١٦ ، وفى يوليو كان زوج الجوارب الحريرية الطويلة يباع بأربعين جنيها . وبدأ الذعر من التضخم ، فاندفع الناس الى تغيير أوراق النقد وشهادات الأسهم بالبضائع ، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع ، وكدس المريشال ديستري كميات ضخمة من البن والكافور . ولكى يحد لو من هذا الهروب من النقود الى السلع ، أعلن (٢١ مايو) تخفيض ٥٠ ٪ فى القيمة الرسمية لأوراق النقد وأسهم الشركة . وكان هذا خطأ كبيرا - ربما كان السبب فيه ضغط الوصي المرتاع على لو ، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (٢٨) ، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه فى الشركة الى المصرف (٢٩) .

ومع ذلك استمرت موجة البيع . وفى يوليو اضطر المصرف الى وقف الدفع على أى ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف . وطالبوا فى صخب وضجيج برد قيمة أوراقهم ذهباً أو فضة . وفى باريس اشتد تزاحم القوم حتى ديست عشر نساء تحت الاقدام وسط الفوضى ، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن فى موكب غاضب تحت نوافذ الوصي . واعتبر الشعب لو مسئولاً عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هى التى سببت انهيار « النظام » . وحاول بعضهم القبض عليه وقتله ، فلما فشلت المحاولات هشمت مركبته تهشيماً فى فناء الباليه - رويال - وأعربت حوادث الشغب المتكررة عن شعور الشعب بأنه كان ضحية الخدع المالية ، وبأن الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة . وشارك البرلمان فى الحملات

على لو ، فنفى فيليب البرلمان الى بونتواز (٢٠ يوليو) ، ودافع
الشعب عن البرلمان .

وفى اغسطس هبطت اسهم شركة المسبى الى ٢٠٠٠ جنيه بعد
أن بلغت فى أوج ارتفاعها ١٢٠٠٠ جنيه ، أما الأوراق النقدية فهبطت
الى عشرة فى المائة من قيمتها الأصلية . وفى أكتوبر تسرب نبا - سرى
من فم الى فم - بأن الوصي سحب من المصرف الملكى اiban ازدهاره أوراقا
بلغت قيمتها الاسمية ثلاثة بلايين من الفرنكات ، انفق أكثرها على
الهدايا السخية للأصدقاء والمحظيات وحوالى هذا التاريخ هرب احد
صيارفة المصرف الى بروميا حاملا كمية ضخمة من الذهب . فهبطت
اسهم شركة المسبى الى ٢٠٠ جنيه . وفى ديسمبر ألغى الوصي
المصرف ، وطرد لو ، وأعاد البرلمان . وفى الرابع عشر من أكتوبر غادر
لو فرنسا مع ابنه . وكان قد وظف ثروته فى شركة جزر الهند الخاسرة ،
وشارك مصير معظم حملة الأسهم ، ولم يكن قد أودع مالا فى الخارج ،
فلم يأخذ الآن معه سوى ألفى جنيه وبعض الجواهر غير القيمة . وفى
بروكسل تلقى من بطرس الاكبر دعوة بالحضور الى روسيا والاضطلاع
بشئون ماليتها ، فرفض ، واعتكف فى البندقية ، حيث لحقت به زوجته
وابنته ، وعاش مغمورا فقيرا ، وهناك مات فى ١٧٢٩ .

لقد كانت المبادئ التى أقام عليها مصرفه سليمة نظريا ، ولولا
جشع المضاربين المفرط واسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء
بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء . وحين فحصت حسابات لو الخاصة
وجدت سليمة لا غبار عليها . وترك الاقتصاد الفرنسى مؤقتا خربا فى
ظاهر الأمر ، فحملة الأسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها
والدفع مستحيل ، وتداول النقود أصابه الشلل تقريبا ، والصناعة
محجمة ، والتجارة الخارجية أصابها الركود ، والاسعار فوق طاقة
الشعب . ودعا الوصي اخوان « باريس » ليشيعوا شيئا من النظام وسط
هذه الفوضى . فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المتنوعة
بحقوق على الدخل القومى ، بخسارة على أصحابها تفاوتت من ستة
عشر الى خمسة وتسعين فى المائة ، أما الجمهور الذى استنفد مسورة
غضبه فقد أذعن لهذا الافلاس العملى فى صبر واحتمال .

على أن شيئاً بقي بعد هذا الانهيار . فالزراعة أفادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة . وأفادت الصناعة سريعا لأنها وجدت حافزا من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار ، وظهرت المشاريع الجديدة فى كل مكان . وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية ، واستأنفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضى . وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة - وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعى وضرورى . وتضاعف عدد المائين وازدادوا قوة على قوة . وكسب الذبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص ، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لأنهم أبدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل افتضاها عنها فى أى طبقة . وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول وسط الخراب الشامل . وقال ناقد مجهول الاسم فى معرض الشكوى من الحال « لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذى يسال عنه لو ، لأنه عود الناس الدعة والترف ، وجعلهم غير قانعين بحالهم ، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوى ، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع الى أرباح باهظة (٣٠) » ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها ، رغم هبوطها بالجو الأخلاقى للمجتمع الفرنسى . فما حل عام ١٧٢٢ حتى انتعش الاقتصاد الفرنسى بقدر أتاح للوصى على العرش أن يعود ، باطمئنان ضمير الحاكم ، الى أساليبه المعهودة من الحكم العطوف ، والفجور الفاضح .

٤ - الوصى

لقد نبهته أمه الألمانية الى ضرورة الحد من لطفه مع الناس ، فقالت له « ان العطف خير من القسوة ، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالثواب ، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيتهم سيخشاهم بعد قليل ، لأنهم يحتقرون من لا يخيفونهم (٣١) » . أما فليب ، الذى شكله مونتيني ، فكان يعجب بالحرية الانجليزية ، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء ، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعى التى تبرر قوانينه . ورمز لروح نظامه بتركه فرساي وسكنى البالييه - رويال ، فى قلب باريس ومعماها .

وكان يكره مراسم حياة البلاط والاعلان عنها ، فترك ذلك كله وراء ظهره . ورغبة في المزيد من التيسير والخلوة رتب ألا يسكن الملك الصبي فرساي بل القصر الريفى فى ضاحية فانسين . وبدلا من أن يدس له فليب السم كما أرجفت الشائعات ، عامله أرق معاملة ، وأبدى نحوه كل الخضوع الواجب له ، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكرا للرعاية التى أغدقها عليه الوصي (٣٢) .

بعد أن دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالافراج عن جميع المسجونين فى الباستيل فيما عدا أولئك الذين عرف عنهم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع . وكان مئات من هؤلاء الرجال قد سجنوا بمقتضى أوامر القبض المختومة lettres de cachet التى أصدرها الملك الراحل ، وأكثرهم جانسنيون لم تكن تهمتهم سوى الانشقاق الدينى ، ومنهم من طال العهد بهم فى السجن حتى لم يعرف أحد ، حتى ولا هم أنفسهم ، السبب فى سجنهم . مثال ذلك أن رجلا قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاما لم يحاكم قط أو ينبا بسبب سجنه ، فلما أفرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائرا مذهولا ، فهو لا يعرف انسانا فى باريس ، ولا يملك فلسا واحدا ، وعليه فقد التمس أن يبقى فى الباستيل الى آخر عمره ، وأجيب الى ملتصقه .

ونفى من باريس ميشيل لوتلييه ، كاهن الملك الذى تعقب الجانسنيين من قبل . ونصح الوصي على العرش الحزبين المتخاصمين فى الكنيسة بأن يهدئا من خلافاتهما . وأغضى عن البروتستنت المتسترين ، وعين عددا منهم فى وظائف ادارية . وأراد أن يجدد مرسوم نانت السماح ، ولكن اليسوعيين والجانسنيين اتحدا فى التنديد بمثل هذا التسامح ، كذلك فناه عن ذلك وزيره دويوا الذى كان يحتال للظفر بقبعة الكردينالية (٣٣) . « ولم ينل البروتستنت الانصاف الذى أنكره عليهم الحزبان المتنافسان فى الكنيسة الا بفضل الفلسفة (٣٤) » فلقد كان الوصي فولتيرا قبل فولتير . ولم يكن له عقيدة دينية واضحة ، وكان على عهد لويس الرابع عشر التقى يقرأ رابليه فى الكنيسة (٣٥) ، أما الآن فقد سمح لفولتير ، وفونتنيل ، ومونتسكيو ، بنشر كتب لو صدرت قبل بضع سنوات لحرم تداولها فى فرنسا لما تخطوى عليه من تهديد للإيمان المسيحى .

وكان فيليب - من الناحية السياسية - حاكما متحررا مستنيرا حتى حين زج بفولتير في السجن ، وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والاخلاص مبلغا حدا بميثليته الى أن يرى فيها ارهاضا بجمعية ١٧٨٩ التأسيسية (٣٦) . وامتلات مكاتب الحكومة بالرجال الأكفاء دون نظر الى عدائهم للوصي ذاته ، فعين رجل كان قد هددته بالاغتيال رئيسا لمجلس المالية (٣٧) ، أما فيليب ، الذي كان بطبيعته أبيقوريا - فكان يظل رواقيا حتى الخامسة مساء ، يقول سان - سيمون انه كان الى تلك الساعة « ينصرف بكليته الى أعمال الدولة ، واستقبال الوزراء والمجالس الخ . ولا يتناول طعامه أبدا خلال ذلك النهار ، بل يكتفى بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة ، حين يسمح للجميع بدخول غرفته وقد أبهجت الناس جدا ألفته وسهولة الوصول اليه ، ولكنهم أساءوا استعمالهما (٣٨) » . وكان فيليب أورليان ، دون سلائل هنرى الرابع جميعا ، أى جميع البوربون ، فى رأى فولتير « أشبههم بذلك الملك فى شجاعته ، وطيبة قلبه ، وصراحته ، ومرحه ، وبشاشته ، وسهولة الوصول اليه ، مع فهم أكثر تهذيبا وصقلا (٣٩) » . وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة ، وفكره الثاقب ، وحكمه الصائب (٤٠) . ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم - وهو القدرة والرغبة فى رؤية جوانب كثيرة جدا للموضوع الواحد ، بحيث يضيع الوقت فى النقاش ويؤجل العمل الحاسم .

ولم يكن على سماحته يطيق أى اختزال للسلطة الملكية التقليدية . فلما رفض البرلمان - الذى أراد استخدام حق الاعتراض الذى وعده به - أن يسجل بعض مراسيمه (أى أن يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها) ، دعاه (٢٥ أغسطس ١٧١٨) الى « سرير عدالة » مشهور - وهى جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على « سرير » القضاء سلطته فى الالتزام بتسجيل مرسوم ملكى . ومضى القضاء البائع عددهم ١٥٣ ، وقورين مهيين فى عبااتهم القرمزية ، الى التويلرى سيرا على الاقدام . واتباعا لتعليمات فيليب ، أمرهم الملك الصبى بتسجيل مراسيم الوصي ، ففعلوا . وانتهاز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء فى المجلس الملكى أو بالتآمر عليه ، فحرم أبناء الملك وحفدته غير الشرعيين من وضعهم كامراء من الدم الملكى . ورد

الادواق الشرعيون الى سابق ترتيبهم وحقوقهم ، الأمر الذى أبهج الدوق سان - سيمون ، الذى رأس فى هذه الخطوة أعظم انجاز للوصاية ، ركنات أسس اللحطات فى « مذكراته » .

على أن دوق مين لم تقبل الهزيمة . فمولت بعض الطرفاء الذين راحوا ينزحون الوصي باهاجيهم اللاذعة . واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان ، النهم الا « الفليبيات » وأهاجى « الأشياء التى شأنتها » المنسوبة لفولتير . وفى ديسمبر ١٧١٨ اشتركت الدوقة فى مؤامرة مع كيلمار ، السفير الأسباني ، والبيرونى رئيس الوزراء الأسباني ، والكردينال ملشور دبولنيك ، للاطاحة بالوصي وتنصيب فليب الخامس الأسباني ملكا على فرنسا ، على أن يكون الدوق مين كبير وزرائه . وكشف أمر المؤامرة ، وطرد السفير ، وزج بالدوق والدوقة فى سجنين منفصلين ، وأفرج عنهما فى ١٧٢١ . وادعى الدوق أنه يجهل أمر المؤامرة . وعادت الدوقة الى بلاطها ومؤامراتها فى سو .

فى وسط هذه المضايقات ، وفى نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خياله الشخصي ، قام فليب ببعض الاصلاحات المعتدلة . فشق فى حكمه القصير من الطرق أكثر مما شق فى نصف القرن الذى حكمه لويس الرابع عشر . ووفر ملايين الفرنكات بتركه قصرى مارلى وفرساي ، واحتفاظه بحاشية متواضعة العدد . وقد بقى الكثير من ابتكارات « لو » ممثلا فى حياية للضرائب أشد قسرا وأكثر رحمة ، وفى طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبديد . وفكر فليب فى ضريبة دخل تصاعدية : وجربها فى نورمنديه ، وفى باريس ، وفى لاروشيل ، ولكنها أبطلت بموته المبكر . وقد جاهد ليبقى فرنسا بنجوة من الحرب ، فصرح آلاف الجند ، ووطنهم فى الأراضى غير المزروعة . وأسكن الباقين فى ثكنات بدلا من أن يسكنهم فى بيوت الشعب . وبمنظرة سمحة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجميع الطلبة المؤهلين دون أجر ، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم (٤١) . وأعان بمال الدولة الأكاديمية الملكية للعلوم ، والأكاديمية الملكية للماثورات والآداب البحتة ، والأكاديمية الملكية للعمارة ، ومول نشر المؤلفات العلمية ، وأنشأ فى اللوفر أكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضا بالاختراع والفنون الصناعية (٤٢) . وأجرى

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء ، وهيا لهم غرفا فى القصور الملكية ، وكان يحب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهنهم المختلفة . ولم تؤت تدابيره واصلاحاته ثمارها كاملة من جراء كابوس الدين وانهيار ثورة لو المالية من جهة ، وعيوب الوصي البدنية والخلقية من جهة أخرى .

ومن أفجع المآسي فى تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذى وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لوته وأضعفه فجور طبقته وفسق جيله . فهذا الابن الذى أنجبه أب منحرف جنسيا ، ورباه رجل فاجر من رجال الكنيسة ، شب وهو يكاد يكون عاجزا عن كبح جماح شهوة الجنس التى انغمس فيها . أقول دكلوا « كان يمكن أن تكون له فضائل اذا كانت الفضائل ميسورة لانسان بغير مبادئ (٤٣) » . واذا كان قد أكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر ، وافترق الحب أو السلوى فى زوجته ، فإنه أولع بالسكر الكثير ، وبمعاشرة الخليلات فى اسراف لم يعدله فيه حاكم خارج حريم السلاطين . واختار اصدقاءه من بين المعريدين الذين كان يصفهم بكلمة noués (أى الفاسقين) ، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور ، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغالى ويزودونها بالمثيرات الجنسية (٤٤) . وكان فليب يلحق باصحابه فى الباليه - رويال ، أو فى فللته فى سان - كلو ، ومعظمهم من شباب الاشراف ، وفيهم أيضا بعض الانجليز المثقفين امثال اللوردين ستير وستانهوب - فى حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقفات كمدام دوديفان بالممثلات ومغنيات الاوبرا ، والخليلات ، فى توفير اثاره الانثى لذكاء الرجل . يقول سان - سبمون ، ربما فى شيء من التلوين المناق :

« فى هذه الحفلات كانت تعرض أخلاق كل انسان ، الوزراء وأصحاب الحظوة كغيرهم سواء بسواء ، بحرية هى الاباحية المطلقة : غزليات البلاط والمدينة فى الماضى والحاضر ، وكل قديم من القصص والخصومات والفكاهات والسخافات ينبش من مكانه ، ولم يعف من هذا النبش أحد ، وكان الدوق أورليان يدلى برأيه كالباقين . ولكن نادرا جدا ما كانت هذه الأحاديث تؤثر فيه أقل تأثير . وكان هؤلاء الاصحاب يسكرون ما شاء لهم السكر ، ويلهبون أنفسهم ، ويتكلمون بأقذر الاشياء

دون تحرج ، ويتنافسون فى التفوه بأفحش العبارات ، حتى اذا فرغوا من احداث الكثير من الضجيج وئملوا بالخمر ، مضوا الى فراشهم ليعاودوا اللعبة ذاتها فى الغد (٤٥) » .

وقد افصحت روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها فى قصر تسلط محظياته عليه ، فندر أن سيطرت عليه احداهن أكثر من شهر ، ولكن المبعديات منهن كن يتربقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة أخرى . وكان خدمه الخصوصيون ، وحتى أصدقاؤه ، يجلبون له العشيقات الجديديات فى غير توقف . فنساء الطبقة العليا ، كالكونتيسة بارابير ، والنساء المغامرات كمدام تنسان ، والمغنيات والراقصات من الأوبرا ، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التى أثار « سمتها الرائع » و « وجهها الذى لا يدانيه فى الحسن وجه فى العالم » حتى مشاعر رجل فاضل كسان - سيمون) - هؤلاء كلهن وهبن أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان ، أو لقاء الرواتب أو الاعانات أو المجوهرات ، وكان يغدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التى على شفا الافلاس . على أنه برغم اهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن منه أسرار الدولة ، أو أن يناقشن شئونها ، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر الى صورتها فى المرآة ثم سألها ، « أيمكن للانسان أن يتحدث حديثا جادا الى مثل هذا الوجه الجميل ؟ اننى لا أحب ذلك أبدا (٤٦) » . وما لبث سلطانها عليه أن زال .

هذا العرييد ذاته كان يحب أمه ، فيزورها مرتين كل يوم ، ويحتمل توبيخها الحزين فى حلم . ومع أنه لم يحب زوجته ، فأنه بذل لها العناية والمجاملة ، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال . وكان يحب أبناءه ، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدير ، ولم يمر به يوم دون أن يزور فى قصر اللكسمبورج كبرى بناته ، التى كانت حياتها فضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو .

ذلك ان زواجها بشارل ، دوق بيرى ، سرعان ما غدا تارجحا بين الحرب والهدنة . فبعد ان أمسكته متلبسا بين أحضان امرأة ، وافقت على أن ترضي عن خياناته شريطة أن يغضي عن خيانتها ، ويضيف تاريخ اخبارى معاصر أنهما « تعهدا » بأن يحمى الواحد صاحبه (٤٧) -

هذه الحفيدة - حفيدة « المسيو » ، « اللوطى » - وسليلا أسرة بافاريتة ورثت الجنون فى دمها ، وجدت أن ثبات الذهن واستقرار الخلق أمر يفوق طاقتها ، وزاد وعيها بعيوبها وأخطائها من حدة طبع عات أربب كل من كان لهم صلة بحياتها . وقد استغلت نبالة أصلها استغلالا كاملا ، فكانت تركب عربتها مخترقة باريس كأنها ملكة ، وتحفظ فى اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحيانا ثمانمائة خادم (٤٨) . فلما مات زوجها (١٧١٤) راحت تستضيف سلسلة من العشاق . وصدمت كل انسان بسكرها وفجورها ، ولغتها النابية ، وعجبها وغطرستها ، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى ، ومن الهجمات الشكاكة على الدين .

ويبدو أنها لم تحب انسانا قط محبتها لأبيها ، وأنه لم يحب انسانا قط محبته لها . ولقد شاركته ذكائه ، ورهافة حسه وظرفه كما شاركته خلقه ، وكان حسنهما فى شبابها يضارع حسن أجمل خليلاته . واتهمتهما شائعات باريس - التى لا قلب لها ولا حرمة - بسفاح القربى ، لا بل زادت بانه اقترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعا (٤٩) . وأغلب الظن ان بعض هذه الشائعات أطلققتها « شلة » مدام مين (٥٠) . وقد رفضها سان - سيمون ، وهو أقرب الناس الى الموقف ، لانها افتراءات قاسية وضيقة . أما فليب ذاته فلم يعبا بنفيها . وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (١٥١) ، وعدم غيرتها من خليلاته (٥٢) ، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستاثرة (٥٣) .

ولم يقو على فصلها عن أبيها سوى رجل واحد - هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها ، الذى سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الاماء . ففى ١٧١٩ حبست نفسها فى اللكسمبورج مع بعض اتباعها ، وولدت ابنة للكبتن . ثم ما لبثت أن تزوجته سرا . وتوسلت الى أبيها أن يأذن لها باعلان هذا الزواج ، فرفض ، فانقلب حبها له غيظا مجنونا . ومرضت ، وأهملت نفسها ، فأصابتها حمى أنذرت بالخطر ، وماتت وهى فى الرابعة والعشرين اثر مسهل أعطاه اياه طبييها (٢١ يوليو ١٧١٩) . وقد كشف تشريح جثتها عن تشوهات فى مخها . ولم يرض أى أسقف بالصلاة عليها فى جنازتها ، وكان فليب

شاكرًا أعمق الشكر حين سمح رهبان سان - دنى بإيداع جثمانها في المدافن الملكية في كنيسة ديرهم . أما الأم فقد اغتبطت بموت ابنتها ، وأما الأب فقد دفن نفسه في فراغ السلطة .

ه - المجتمع في عهد الوصاية

كان ازدياد الثروة في فرنسا في الفترة بين صدور مرسوم نانت (١٥٩٨) والغائه (١٦٨٥) ، وانتشار حياة الحضر ، واضمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسية - كان هذا كله قد جر على طبقة الاشراف تحللاً في الاخلاق رمز له لويس الرابع عشر في شباب حكمه . وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (١٦٨٥) ، واهتداؤه الى القناعة بامرأة واحدة والى حياة الفضيلة ، وما أحدثته الكوارث الحربية من تأثير منبه ، كل أولئك أكره بلاطه على أن يغير على الأقل من سلوكه الخارجى ، وكانت اصلاحات الاكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلاً ، وفرض أحرار الفكر الرقابة على مؤلفاتهم ، وستر الأبيقوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس . ولكن حين جاء بعد الملك الصارم التائب هذا الوصي الشاك الاباحى المتسامح ، تداعت هذه الضوابط ، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة في موجة من الزندقة والاستغراق في اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التى أصابت المجتمع الانجليزى عند عودة الملكية عقب جيل من تسلط البيورتان (١٦٤٢ - ٦٠) . وأصبح التحلل من الاخلاق شارة التحرر ورقى الثقافة ، وغدا الفجور نوعاً من « الاتيكيت (٥٤) » .

كانت المسيحية آخذة في الاضمحلال قبل أن تهاجمها « الموسوعة » بزمان طويل ، لا بل قبل أن يصوب اليها فولتير أول سهام قلمه . ففي ١٧١٧ شكا دبوى من كثرة الماديين في باريس (٥٥) ، وقال ماسيون في ١٧١٨ « يكاد الكفر اليوم يضىء على أصحابه مظهر التميز والفخار ، انه فضيلة توصل الى العظماء ... وتجلب للمغمورين شرف الالفسة بامير الشعب (٥٦) » وقد كتبت أم ذلك الامير قبيل موتها في ١٧٢٢ تقول « لست أعتقد أن في باريس ، سواء بين رجال الدين أو الدنيا ، مائة شخص يدينون بايمان مسبحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا ، وهذا يجعلنى أرتعد فرقا (٥٧) » وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر

نفس التسويل عن الكاثوليكية الى البروتستنتية ، فقد تحولوا الى الالحاد ،
النسبى كان أسلم لهم . وكان مقهى بروكوب ، ومقهى جراندو ، شأنهما شأن
القامل ، ملتقيات للمفكرين الملحدين .

وإذا كان المروق عن الدين قد شارك فى اطلاق الإستهتار الخلقي فى
الطبقة العليا ، فإن الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعى على أحداث
الفوضى الخلقية بين دهما باريس . وقد حسب العالم لأكروا ان « الاشخاص
الخطرين ، والمتسولين ، والمتشردين ، واللصوص ، والنصابين من شتى
الأنواع ، ربما الفوا سدس مجموع الشعب (٥٨) » . ولذا أن نفترض أن
الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن ، شأنه بين أغنيائها .
وأفترخت الجريمة فى شتى أشكالها ، من النشالين فى باريس الى قطاع
الطريق العام . حقا كان لباريس شرطة منظمة ، ولكنها لم تستطع
ملاحقة الجريمة ، وكان رجالها أحيانا يقنعون بشطر من الغنيمة (٥٩) .
وفى ١٧٢١ نجحت وزارة الحرب على الأقل فى القبض على كارتوتن ،
قاطع الطريق الفرنسى الأشهر (قريع جاك شبرد الانجليزى) وحاصرت
خمسمائة من رجال عصابته التى جعلت السفر خطرا حتى على الملوك .
ولم يبق على الاستقرار الخلقي للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين
والطبقات الوسطى .

أما فى طبقة الاشراف بباريس ، وبين أعيان المدن الطليقيين ،
ومدمنى الأدب أو الفن ، ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخيليات ،
فقد بدأ أن المبادئ الاخلاقية باتت نسيا منسيا ، ولم تذكر المسيحية
الا ساعة يلتقى فيها الناس فى الكنائس أيام الاحاد . فاذا وفدت الزوجات
على باريس أو فرساي تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقي المناق ،
الذى حاول أن يحمى ميراث الاملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجهما
جريمة أخطر كثيرا من خيانة الزوج لزوجته ، هناك كانت الزوجة التى
تقصر وصالها على زوجها تعد من الطراز القديم ، وهناك ناقست النساء
الرجال فى ربط الروابط وفكها . وكان الزواج يقبل للحفاظ على
الاسرة ، وأملاتها ، واسمها ، اما بعد هذا فلا يطالب عرف العصر
بوالطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء (٦٠) . لقد كان الزواج فى العصور
الوسطى يعتمد عليه فى أن يقود الى الحب ، أما الآن فنادرا ما كان

الزواج. يقود إلى الحب أو الزواج ، وحتى في الزنا لم يكن
هناك. كبير ادعاء للحب . على أن العهد لم يخل من زوجين وفيين.
يتالقان كأنهما استثناء جرى للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق ، مثال
ذلك دوق ودوقة سان - سيمون ، وكونت وكونتيسة تولوز ، ومسيو
ومدام لون ، ومسيو ومدام بونشارتران ، ومسيو ومدام بيل - ايل .
وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات الى جدات هادئات مثاليات
وانكفا بعضهن ، بعد ان بليت مفاتنهن من كثرة التداول ، الى اديرة
مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات .

ومن أجراً نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دتنسان ، التي
أطلقت فجأة من الدير وهي في الثانية والثلاثين الى سلسلة متلاحقة
من العلاقات الغرامية . وكان لها أعارها : فابوها زير نساء موفق
ورئيس برلمان جرينويل ، وامها لعوب طائشة ، وكلودين ذاتها كانت
واعية بجمالها الذي يتلف على أن يباع . وكانت أختها الأكبر منها ،
مدام دجروليه ، لا تقل عنها كثيرا في فوضي علاقاتها الغرامية ، وقد
قالت في اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة
مسلكها « كنت شابة ، وكنت جميلة ، وكان الرجال يقولون لي ذلك
فاصدقهم ، وعليكم أن تحزروا الباقي بعد هذا (٦١) » . ورسم أخو
كلودين الأكبر منها قسيسا ، وشق طريقه الى قبعة الكردينالية والى منصب
رئيس أساقفة ليون متوسلا الى هدفه بالعديد من النساء ، أما الأب
فادخل كلودين ديرا في منفلوري ليوفر مهرها . هنالك ظلت متبرمة
سنة عشر عاما في حياة تقوى فرضت عليها كرها . وفي ١٧١٣ ، حين
بلغت الثانية والثلاثين ، هربت واختبأت في حجرة الشفالييه ديتوش ،
وهو ضابط في المدفعية ، أصبحت بمعونته (١٧١٧) أم الفيلسوف
دامبير . على أنها لم تتوقع انبعاث « الموسوعة » من هذا الوليد ،
فتركته على سلم كنيسة سان - جساك - لرون بباريس . وانتقلت الى
ماتيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنسون ،
وبعد أن جلست الى مثال ينحت لها تمثالا عاريا (٦٢) فيما روى ارتمت
بين أحضان الوصي نفسه . وكان مقامها هناك قصيرا ، وقد حاولت أن
تحول قبلاتها الى وظيفة كهنوتية ذات أيراد لأخيها المحبوب ، واجاب
فليب أنه لا يحب الغواني اللاتي يتحسذن في شسئون العمل في

«الفراش» (١٧٣٧) « فولتير بأن توصل أبوابه في وجهها . ثم نهضت من
كبروتها تلك وغزت قلب ديو . وسنلتقى بها مرة أخرى .

وفي وسط هذا القلب الأخلاقى السريع واصلت بعض نساء باريس
تلك الفضيلة الفرنسية المميزة ، فضيلة الجمع بين أصحاب الألقاب ،
والذكاء ، والجمال ، في الصالونات . وكان أكثر المجتمعات تهاديا في
العاصمة يلتئم شمله في مبنى الاوتيل دصلى الرائع العمارة ، هناك كان
يحضر الساسة والماليون والشعراء - فونتنيل في ستيناته الصامتة ،
وفولتير في عشريناته المتدفعة . وكانت جماعة أكثر جذلا تجتمع في
الاوتيل دويون ، الذى خلده لساج في لحظة غضب ، ذلك أنه دعى
هناك ليقرأ مسرحيته «توكاريه» ، فوصل متأخرا ، فويخته الدوقة في
خيلاء قائلة « لقد ضيعت علينا ساعة » ، فأجاب « ساجعلكم تكسبون
ضعفى هذا الوقت » ثم غادر المنزل (٦٤) . وقد مر بنا من قبل صالون
مدام دمين في سو . وكانت مرجريت جان كوردييه دلونيه ، التى
ستصبح البارونة دسقال فيما بعد ، تخدم الدوقة وصيفة شرف ، وقد
كتبت « مذكرات » بارعة (نشرت في ١٧٥٥) تصف المهازل ،
والنزوات ، والمهرجانات الليلية ، والحفلات التنكرية التى لم تترك
مكانا يذكر للاحاديث التى تخللت « ملاهى سو » .

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذى أدارته آن تيريز
دكورسيل ، ماركيزة دلامبير ، فى الاوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة
الاهلية) . وقد واصلت هذه المرأة الغنية الصارمة ، خلال عصر الوصاية
الصاحب ، تلك العادات الرزينة الجليلة التى سادت سنوات لويس
الرابع عشر الاخيرة . فلم تشجع لعب الورق ، ولا الشطرنج ، ولا حتى
الموسيقى ، بل كانت بجملتها نصيرا للفكر . وقد أولعت ، كالمركيزة
دشاتليه ، بالعلم والفلسفة ، وكانت أحيانا (كما يقول فولتير) تتكلم
فوق ما يفقهه رأسها ، ولكن الرأس كان جميلا يحمل لقبا نبيلًا ، ويحرك
مشاعر أى ميتافيزيقى ، وكانت فى كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبل ،
وفى كل أربعاء الكتاب والفنانين والأدباء ومنهم فونتنيل ومونتسكيو
وماريفو . وفى اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقيسون المحاضرات.
والمؤلفون يقرعون ما يزمعون إصداره من كتب ، والشهرة الأدبية.

تكتسب ، ومن « ندوة العقل » تلك ، قامت هذه المضيئة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لادخال من بسطت عليهم حمايتها فى عضوية الاكاديمية الفرنسية . لقد كانت واحدة من مئات النساء المهديات ، المثقلات ، المتحضرات ، اللاتى يجعلن تاريخ فرنسا أكثر البقص فتنة فى العالم .

٦ - فانتو والفنسون

عكست ثورة فى الفن ذلك التغيير الذى طرأ على السياسة والاخلاق. فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الامبريالية فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٣) ، تحولت روح فرنسا من دماء المجد الحربى الى مياهج السلام . فلم يجد مزاج العصر حاجة للكنايس الجديدة ، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالأوتيل ماتينيون وقصر بوربون (١٧٢١ - ٢٢) . واذا استئذينا هذه العماثر الضخمة ، وجدنا ان المساكن والحجرات أصبحت الآن أصغر حجما ، وحليتها أكثر رقة وصقلا . وبدأ الباروك يتحول الى الروكوكو* ، أى أن طراز الاشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه أناقة تكاد تكون هشة ، تصل الى حد الخيال الجامع العابت الذى لا يمكن التنبؤ به . وأصبح الولع بالصقل البديع ، والألوان الزاهية ، وتطويرات التصميم المدهشة ، طابعا لطراز الوصاية . وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الانيقة ، وأخفيت الأركان ، ونقشت الحلى والقوالب المعمارية فى اسراف . وهجر النحت فخامه فرساي الاولبية الى صور أصغر ، صور الحركة الرشيقة والأغراء العاطفى . وتجنب الأثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، واستهدف الراحة أكثر من الوقار . فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسندين ، وهو المقعد المصمم للصديقين والحببيين اللذين يكرهان عاطف البعد . وأرسي شارل كرسان كبير نجارى الوصى ، طراز أثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد ، وموائد ، ومكاتب وخزائن ذات ادراج ومرايا ، تسطع بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المتعمد .

* ربما كانت هذه الكلمة rococo أصلها rocallie وهو لفظ استعمل فى فرنسا فى القرن السابع عشر للدلالة على بناء المغارات أو تجويلها بالصخور والاصداف .

ولقد رمز فليب ذاته ، فى شخصه وعاداته وميوله ، الى الانتقال الى البروكوك . فحين نقل الحكومة من فرساي الى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكى الى روح العاصمة الأكثر خفة ، ووجه ثروة الطبقة البورجوازية الى رعاية الفن . وكان راعيا للفن بحكم منصبه وبثفرده فى هذا المضمار ، فهو غنى بثروته أصلا ، سخرى فى البذل للفنانين . ولم يكن يسيغ الفخامة أو الضخامة ، ولا مواضيع التصوير التقليدية - مواضيع الدين أو الأساطير أو التاريخ ، بل الروائع الصغيرة ذات الصنعة المتقنة التى تغرى الأصابع وتفتح العيون ، أمثال علب الحلوى المرصعة بالجواهر ، والأنية الفضية ، والطاسات الذهبية ، والخزفيات البصينة الغريبة الأشكال ، ورسوم النساء الفاتنات اللاتى يلبسن روبنز أو تترينانو رداء الطبيعة أو يرفلن فى أبواب فيرونيزى الفاخرة . وقد فتح أبواب مجموعته الخاصة فى الباليه - رويال على مصاريعها لجميع الزوار المسئولين ، ولولا خيلاته اللاتى يطلبن وينلن ما يطلبن منها لضارعت مجموعته أفضل نظائرها . ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ ، وذهب فليب الى مراسمهم لينظر ويتعلم . تحدث الى كبير مصوريه ، شارل أنطوان كوابيل ، فى أدب وتواضع تميز بهما فقال : « اننى يا سيدى لسعيد وفخور بأن أتلقى نصيحتك وأنتفع بدروسك (٦٥) » . ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عات له لكان رجلا رفيع التحضر .

وأفصحت روح العصر عن نفسها بأجلى بيان فى التصوير . فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو ، وباتير ، ولانكريه ، وليموان ، القواعد التى وضعها لبرون فى الاكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حررهم الوصي ورعاتهم الجدد . واستجابوا عن طريب خاطر للطلب على الصور التى تعكس فهم الوصي للجمال والمتعة ، وحسن نساء عهد الوصاية الفياض بالحيوية والمرح ، والألوان الدافئة لأثاث الوصاية وسجفها ، والحفلات المرحية فى غابة بولونيا ، والألعاب والتنكريات فى قصر سو ، والأخلاق المتراخية التى اتسم بها الممثلون والممثلات ومغنيات الاوبرا والراقصات . وحلّت الأساطير الوثنية محل قصص القديسين . القائمة المتجهمة ، وسمحت الأشكال العجيبة المستوردة من الصين ، أو تركيا ، أو فارس ، أو الهند ، للعقل الذى أطلق من عقاله بأن

يجوب فى حرية خلال احلام غريبة ودخيلة ، واخذت الرهويات الحالة مكان « التواريخ » البطولية ، وحلت صور اشخاص المشترين محل صور مآثر الملوك وجلال اعمالهم .

وواصل بعض الرسامين الذين اشتهروا فى عصر لويس الرابع ازدهارهم فى عصر الوصاية ، ومنهم انطوان كوابيل ، فبعد ان زخرف فرساي بالطراز نفسه الذى زين به القصر القديم ، رسم فى الباليه - رويال نساء فى اثواب طويلة فضفاضة ساحرة . اما نيكولا دلارجلير ، الذى كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم ، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة اخرى ، وصورته معلقة فى اللوفر الذى لا تنضب صورته ، وهو يبدو فى خيلائه وفى باروكته ، بصحبة زوجته وابنته . وراح الكساندر فرانسوا ديبورت ، الذى مات عام ١٧٤٣ وهو فى الثامنة والثمانين ، يرسم الآن مشاهد طبيعية عريضة ، كلوحسة « منظر اليل دفرانس » المحفوظة بمتحف كومبيين . وزخرف فرانسوا لوان ، الذى انتحر فى التاسعة والاربعين (١٧٣٧) ، كنيسة سان - سوليبيس بروح الخشوع والورع ، ثم اشاع الدفء فى صالون هرقل بفرساي باجساد شهوانية سيقلدها بوشيه من بعده . وادخل كلود جيو ، مصمم مناظر المسرح وملابسه ، ونقاش المناظر الطبيعية واللوحات المسرحية ، أسلوب « المهرجانات الريفية » الذى يرتبط عندنا بتلميذه انطوان فاتو .

وانطون هذا فلمنكى ، ولد لصانع بلاط فى فالنسيين (١٦٨٤) ، وشكلته اول الامر التأثيرات الفلمنكية - صور روبنز ، وأستاذ ، وتثنيه ، وتعليم مصور محلى يدعى جاك جيران . فلما مات جيران (١٧٠٢) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك شروى نقير . وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر ، ثم بالعمل فى مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصورا دينية . وكان أجره ثلاثة فرنكات فى الاسبوع مضافا اليها من الطعام ما يمسك ريقه يفضي لأصابته بالسل . ولكن حمى اخرى كانت تعتمل فى صدره وتكويه كيا - وتلك هى الجوع للعظمة والشهرة . فكرس امسياته وعطلاته لرسم الاشخاص والاماكن من الطبيعة . واستهوى أحد هذه الرسوم التخطيطية جيو ، الذى كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدي - ايتاليين ، فدعا فاتو للانضمام اليه . وجاء انطوان ، ووقع فى غرام الممثلين ، فرسم احداثا

من حياتهم البطولية ، وغرامياتهم المتقلبة الطائشة ، وألعابهم ونزهاتهم الخلوية ، وفزعهم الأكبر حين قصرتهم مدام دمانتنون على البانتوميم (التمثيل الايمائي) بعد أن ساءها هجاؤهم . والتقط فاتو ما فى قلقهم وعدم استقرارهم من أسي ، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم ، وطيات ثيابهم الغريبة ، ثم أضفى على هذه الصور نسيجا ذا ومض لعله أثار بعض الغيرة فى نفس جيو . على أية حال تشاجر الأستاذ والتلميذ وافترقا ، وانتقل انطوان الى مرسم كلود أودران فى اللكسمبورج . وهناك درس فى رهبة صور روبنز التى مجد بها مارى مديتشي ، ووجد فى الحدائق مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلمه أو ريشته .

تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل الى المعركة تلو المعركة فى حرب الوراثة الاسبانية الطويلة . وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغى من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للأسى . وقد وصفها فاتو فى لوحته . « رحيل الجنود » برقة فى الشعور والاسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتو عليه . ودخل انطوان مسابقة نظمها الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت فى ١٧٠٩ أملا فى نيل « جائزة روما » . فلم ينل الجائزة الثانية ، ولكن الأكاديمية ألحقت عضوا بها فى ١٧١٢ . وبعد جهود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته « الأبحار الى جزيرة سيتير (١٧١٧) » وهى اليوم من أروع كنوز اللوفر . وصفقت لها باريس كلها ، وعينه الوصي المغتبط مصورا رسميا للملك ، وكلفته الدوقة ببرى بزخرفة قصرها الريفى « لاموييت » . وراح يعمل كالمحموم ، وكأنه أدرك أن لن يفسح له فى الأجل سوى أربع سنين آخر . وقدّم انطوان كروزا ، منافس فليب ذاته فى رعاية الفن ، الى فاتو المأكل والمسكن فى قصره المترف . هناك درس انطوان المصور (أصغر الانطوانين سنا) أروع مجموعة جمعها مواطن الى ذلك الحين . ورسم لكروزا أربع لوحات زخرفية ، سماها « الفصول » . وسرعان ما ضاق ذرعا بالتurf، فراح يتنقل من مكان الى مكان ، حتى الى لندن (١٧١٩) ، ولكن غبار الفحم والضباب رداه الى باريس ، حيث سكن فترة مع تاجر التحف جرسان . ورسم له انطوان فى ثمانية أصباح جانبى لافتة ظهر فيها باريسيون عصريون يفحصون صورا فى حانوت ، وفوق الذرعة

الواقعية العرضية ألقت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوء الواهن الذى تميز به فاتو . وكان سعال سله يزداد سوءا يوما بعد يوم ، فاتخذ بيتا فى نوجن ، قرب فانسين ، معللا نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرم . وهناك ، بين أحضان جيرسان والكنيسة ، مات (١٨ يوليو ١٧٢١) غير متجاوز السابعة والثلاثين .

وقد سرت عدوى مرضه الطويل الى خلقه وفنه . وكان ، وهو الرجل النحيل الممرض العصبى الحى ، السريع الاعياء ، النادر الابتسام ، القليل المرح - يقمصى حزنه عن فنه ، قصور الحياة كما رأتها أحلامه وأمانيه - مشهدا عريضا من الممثلين المرحين والنساء اللدنات ، وأغنية للفرح الملهوف . واذا كان أضعف من أن يجرى وراء شهوات الحس ، فإنه يحتفظ وسط اباحية عهد الوصاية بلياقة فى الخلق انعكست فى مزاج انتاجه . صحيح انه رسم بعض النسوة العاريات ، ولكنهن خلون من اغراء اللحم ، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثيابا مشرقة تخطر فى خفة وحذر خلال دهاليز الحب . وتنقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين ، ومراسم الغزل ، ومشكال الجو . فأضفى على شخص « غير المكترث (٦٦) » أغلى وأشف ما استطاع تخيله من ثياب . وصور « الكوميديين الفرنسيين (٦٧) » فى مشهد درامى ، والتقط صورة الممثل الايطالى جوزيبى باليتى فى دور المهرج جيل (٦٨) ، غارقا فى التفكير مرتديا سراويل بيضاء . وقابجا « عازف جيتار (٦٩) » فى لحظة اكتئاب غرامى ، ورأى « حفلة موسيقية (٧٠) » مسحورة بعزف العود . وقد وضع شخصياته أمام خلفيات حالة ، من نوافير عابثة ، وأشجار متمائلة ، وغيوم سابحة ، يتخللها هنا وهناك تماثيل وثنى يردد به صدى بوسان ، كما نلاحظ فى « مهرجان الحب (٧١) » أو « الفراديس السعيدة (٧١) » كان يحب النساء على بعد متهيّب ، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلتمس ودهن ، وقد انفعل بأعطافهن الدافئة أقل من انفعاله ببهاء شعورهن وانسياب ألوابهن المتمسوج . فالتقى على ثيابهن كل سحر ألوانه ، وكأنه يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس ذلك السر الغامض الذى بعث نصف ذكاء العالم ، وشعره ، وأعجابه الشديد ، فضلا عن انجابه النوع الانسانى .

ومن ثم سكب روحه فى أشهر صورة قاطبة ، وهى « الابحار الى جزيرة سيتير » وفيها نساء رشيقات استسلمن لاثارة الرجال فركبن السفينة مع عشاقهن الى جزيرة صغيرة قيل ان لفينوس فيها معبدا ، وانها طلعت هناك من البحر وهى تقطر جمالا . هنا يكاد الرجال يكسفون النساء فى بهاء ملابسهم ، ولكن الشيء الذى فتن الأكاديمية فى اللوحة هو جلال الاشجار المتدلى ، والقمة الثلجية للجزيرة البعيدة تصبغها الشمس والغيوم الملامسة لها . وقد أحب فاتو هذا الموضوع الدقيق حبا أغراه برسمه فى ثلاثة مناظر متنوعة - واستجابت باريس باختيارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية ، ويحيى مباحج الحياة فى نظام حكم سيموت حالما يسلم شبابه . وغدا بلقبه الرسمى « مصور الاعياد المرحية » ، رسام العشاق من أهل المدن يتنزهون نزهات حاملة فى ريف هادىء مطمئن ، ويمزجون بين « ابروس » (اله الحب) و « بان » (اله المراعى والغابات) فى الدين الوحيد الذى دان به العهد . على ان نسمة اكتئاب تهب على هذه المشاهد التى توهم بخلو البال ، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطيعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا أنهن خبرن شيئا من الألم ، أو ربما لم يساورهن الظن فى قصر برهة الهيام بهن . تلك هى ميزة فاتو - الترجمة المرحفة للحظات الكمال التى لا بد ان تنقضي .

وعاجله الموت قبل ان ينعم بشهرته . وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية ، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية ، لأن الطباشير أو القلم بلغ هنا دقة فى تفصيل الايدى والشعر ، ورهافة تميز فى رسم العيون والوقف والمروحة المعابثة لم تكشف عنها قط ألوان الزيت كل الكشف (٧٣) . واغرمت نساء باريس غراما شديدا بأنفسهن كما راينها فى أشواق الفنان الميت . واليست « دنيا المجتمع الراقى » نفسها بأسلوب فاتو (ألا فاتو) ، ومشت واتكات بأسلوب فاتو ، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه فى أشكال خياله وألوانه . ودخل طراز فاتو فى تصميم الاثاث ، وفى وحدات الزخرفة الريفية و « أرابسك » الركوك الرشيق . وتلقف الفنانون أمثال لانكريه وياتير تخصص فاتو ، وصورا المهرجانات الريفية ، وأحاديث الغزل ، وحفلات الموسيقى فى المنتزهات وحفلات الرقص على الخضرة ،

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب . ان نصف تصوير فرنسا خلال المائة
السنة التالية كان ذكرى لقاتو . وقد استمر تأثيره حتى بوشيه ، ثم
فراجونار ، ثم ديلاكروا ، ثم مينوار ، ووجد التأثيريون فى أسلوب
ارهاصات موحية بنظرياتهم فى الضوء والظل والمزاج . لقد كان كما قال
جونكور المفتون به « الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر (٧٤) » .

٧ - المؤلفون

زكا الادب فى ظل أخلاقيات عصر الوصاية الهيئة اللينة وما ساد
من تسامح ، ووجدت الهرطقة موطئا لقدمها لم تجل عنه قط بعدها .
وأفاقت المسارح والأوبرا من عبسات الملك الراحل ومدام دمانتون ،
وكان فليب ، أو بعض أهل بيته ، يختلفون كل مساء تقريبا الى الأوبرا ،
أو الأوبرا - الهزلية ، أو « المسرح الفرنسى ، أو مسرح الايطاليين .
واحتفظ المسرح الفرنسى بتمثيليات كورنى ، وراسين ، وموليير ،
ولكنه فتح أبوابه لتمثيليات جديدة كمسرحية فولتير « أوديب » ، التى
سمع فيها صوت عصر جديد متمرد .

ونحن اذا استثنينا فولتير وجدنا أعظم كتاب هذا العصر محافظين
شكلوا فى ظل الملك العظيم . فكان ألان رينيه لساج المولود عام ١٦٦٨ ،
ينتمى روحا وأسلوبا للقرن السابع عشر وان عاش حتى ١٧٤٧ . وقد
على باريس بعد أن تلقى العلم على يد اليسسوعيين فى فان ، فدرس
فيها القانون - وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (٧٥) . وبعد أن
قضى فى خدمة جاب للضرائب فترة بغضته فى رجال المال ، تكفل باعالة
زوجته وأبنائه بتأليف الكتب ، ولعله كان يموت جوعا لولا أن رئيسا
دينيا عطوفا أجرى عليه معاشا قدره ستمائة جنيه فى السنة . وقد ترجم
بعض التمثيليات عن الاسبازية ، والتتمة التى كتبها افيلانيدا لرواية
« دون كخوته » . ثم استوحى قصة « الشيطان الأعرج » لفيليت
دى جويغارا ، فوفق كل التوفيق فى قصته « الشيطان الأعرج » (١٧٠٧)
التى صورت شيطانا مؤذيا يدعى اسمودوس ، يحط على قمة جبل فى
باريس ، ويرفع اسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية ، ويكشف
لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقبطان الغافلين .
والحصيلة فضح مرج لكائد البشر القذرة ، ونفاقهم ، ورذائلهم ،

وحيلهم . فترى مثلا سيدة تفاجأ بزوجها فى الفراش مع خادمه الخاص فتجمل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بان الخادم يعتدى على عفافها ، ويقتل الزوج الخادم ، وتنقذ السيدة عرضها وحياتها ، والموتى لا يتكلمون . واندفع كل انسان تقريبا لشراء الكتاب أو استعارته ، وقد ابهجه أن يرى اقتضاح غيره من الناس . كتبت مجلة فردان فى عدد ديسمبر ١٧٠٧ تقول « أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيوف فى دكان باربان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (٧٦) » . وقد وجد سانت - بوف شبه خلاصة للعهد فى ملاحظة قالها أسمودوس عن شيطان من اخوانه تشاجر معه « لقد تعانقنا ، ومن وقتها ونحن خصمان لدودان (٧٧) » .

وبعد عامين كاد لساج يسمو الى مستوى مولير بهزلية تهجو رجال المال . وقد نمت الى بعض هؤلاء نبا « توركاريه » هذه سلفا فحاولوا منع تمثيلها ، وقد صورتهم قصة - ولعلها أسطورة - وهم يعرضون على المؤلف ١٠٠.٠٠٠ فرنك ليسحب المسرحية (٧٨) ، وأمر الدوفان ، ابن لويس الرابع عشر ، باخراجها . وتوركاريه هذا مقاول وتاجر ومراب يحيا حياة الترف وسط الفاقة التى جرتها الحرب . وهو لا يسخو الا على خليلته التى تبتز ماله بنفس المثابرة التى يبتز بها الناس . يقول الخادم فرونتان « عجبا لمسار حياة البشر . نحن نلتقط مغناجا ، والمغتاج تلتهم رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخيلها (٧٩) » .

وربما كان الهجو هنا ظالما مرهقا بشهوة الانتقام . وقد وفق لساج ، فى أشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية ، فى رسم شخصية أكثر تعقيدا ، وبموضوعية أكبر . وروايته هذه « مغامرات جيل بلاس دى سانتلانى » التى نسج فيها أيضا على منوال الروايات الاسبانية ، تتحرك - بأسلوب روايات التشرد - خلال عالم من اللصوصية ، ونوبات السكر ، وخطف الناس ، واغواء النساء ، والسياسة - عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى ، والنجاح يغتفر كل شيء . و « جيل » هذا يستهل حياته فتى بريئا ، رقيقا ، مثاليا ، محبا للناس ، ولكنه ساذج ، ثرثار ، مغرور . يقبض عليه اللصوص ، فينضم الى عصاباتهم ويتعلم حيلهم

وإساليبهم ، ويشق طريقه الى البلاط الاسباني ، ويخدم دوق ليرما مساعدا وقوادا . يقول « قبل أن التحق بالقصر كانت طبيعتي مترفة عطوفا ، ولكن رقة القلب ضعف يعدونه هناك صفة عتيقة ، لذلك أصبح قلبي أقسى من أى صخر . فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الأحاسيس الرومانسية للصدقة (٨٠) » . ويولى ظهره لابويه ويرفض أن يعينهما . ويتعثر حظه ، فيودع السجن ، ويعتزم اصلاح ذاته ، ثم يفرج عنه ، فينزوى فى الريف ، ويتزوج ، ويحاول أن يكون مواطنا صالحا . ولكنه يجد هذا عبئا لا يطاق ، فيعود الى القصر وناموسه ، ويخلق عليه لقب الفروسية ، ويتزوج ثانية ، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته بأطفالها « الذين أومن مخلصا بأننى أبوهم (٨١) » .

وأصبحت « جيل بلاس » أحب الروايات للقراء الفرنسيين ، إلى أن تحدثت « بؤساء » هوجو (١٨٦٢) ضخامتها وتفوقها . وأحب لساج كتابه حبا جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الأولان فى ١٧١٥ ، والثالث فى ١٧٢٤ ، والرابع فى ١٧٣٥ ، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن أولها . وقد استعان على معاشه فى شبخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبى يدعى « مسرح السوق » وفى ١٧٣٨ أصدر رواية أخرى تسمى « أعزب سلمنقة » ، وأطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها ، وهى عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح أصم تقريبا فى الأربعين ، ولكن كان فى قدرته أن يسمع ببوق ، فىا له من رجل محظوظ . يستطيع أن يصم أذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا . وقرب نهاية حياته فقد القدرة على استعمال مواهبه العقلية « الا فى منتصف النهار » بحيث « بدا أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس (٨٢) » ، كما قال أصدقائه . ومات عام ١٧٤٧ شيخا فى الثمانين .

وقصة لساج « جيل بلاس » تجد اليوم قراء أقل ممسا تجسده « مذكرات » لوى دروفروا ، دوق سان - سيمون . وما من انسان يحب هذا الدوق الآن ، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على اخفاء غروره . فهو لم ينس قط أنه كان واحدا من « أدواق ونبلاء » فرنسا ، الذين لا يبرزهم فخامة غير أعضاء الاسرة المالكة ذاتها ، ولم يغتفر قط للويس

الرابع عشر تفضيله كفاية البورجوازيين على عجز الاشراف فى ادارة الحكومة ، ولا رفعه الأبناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فسوق « الأدواق والنبلاء » فى مراسم البلاط وولاية العرش . يقول لنا فى أول سبتمبر ١٧١٥ :

« نمت الى نبا موت الملك حين استيقظت . فذهبت من فورى لتقديم احترامى للملك الجديد . . ومن هناك ذهبت الى دوق أورليان ، وذكرته بوعده قطعه على نفسه ، وهو أن يسمح للأدواق بأن يحتفظوا بقبعاتهم على رعوسهم حين يطلب اليهم التصويت (٨٣) » .

وقد أخلص فى حب الوصي ، وخدمه فى مجلس الدولة ، ونصحه بالاعتدال فى أمر خليلاته ، وواساه فى أحزانه وهزائمه . واذ كان على كذب من الأحداث مدى خمسين عاما ، فقد بدأ تسجيلها فى ١٦٩٤ - من زاوية طبقته - منذ مولده عام ١٦٧٥ الى وفاة الوصي عام ١٧٢٣ . أما هو فقد مد فى أجله الى عام ١٧٥٥ ، حتى أدرك عهدا لا يوافق طبيعته . وقد حكمت عليه المركيزة كريكى بأنه « غراب مريض هرم ، يحرقه الحسد ويأكله الغرور (٨٤) » . ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله ، ولم تطق تشبثه بالحياة .

فاما الدوق الثرثار فكان دائما متحيزا ، وكثيرا ما كان ظالما فى أحكامه ، ومرات مهملا فى التاريخ (٨٥) ، وأحيانا غير دقيق الرواية عن وعى (٨٦) ، كان يتجاهل كل شيء الا السياسة ، ويتوهم بين الحين والحين فى ثرثرة لا غناء فيها عن الارستقراطية ، ولكن مجلداته العشرين سجل مفصل نفيس لكاتب ذى عين لمحة ثاقبة وقلم سيال ، فهى تمكننا من أن نرى مدام دمانتون ، وفنيلون ، وفليب أورليان ، وسان - سيمون ، رؤية ناصعة نابضة بالحياة ، وسان - سيمون يقرب فى هذا من بوريين اذ يتيح لنا رؤية نابليون . ورغبة فى اطلاق العنان لتحيزه ، حاول أن يخفى مذكرته ، ومنع نشرها قبل أن ينقضي قرن على موته ، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام ١٧٨١ ، وكثير منها لم يصلها قبل عام ١٨٣٠ . ومن بين جميع المذكرات التى تنير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع .

٨ - الكرديفالى العجيب

لو صدقنا سان - سيمون لكانت سيرة جيوم دبوا النقيض لأعظم مبادئ شبابنا الهاما . فقد جمع كل رذيلة ، وحقق كل نجاح الا « نجاح الاحترام » . فلنستمع مرة أخرى الى سان - سيمون يقول فى زميله عضو المجلس :

« كان ذكاؤه من النوع العادى جدا ، ومعارفه من أكثر المعارف شيوعا ، وكفايته صفرا ، مظهره مظهر العرسية ، مظهر الرجل المتحذلق ، حديثه ثقيل ، متقطع ، غامض أبدا ، زيفه مكتوب على قسماات وجهه ، ... ما من شيء فى رأيه جدير بالتقديس ... يجهر باحتقاره للإيمان ، والعهود ، والشرف ، والاستقامة ، والصدق ، ويلذه أن يهزأ بهذه الأشياء كلها ، تستوى فيه الشهوة والطمع ... والى هذا كله كان ناعما ، ذليلا ، ليئا ، منافقا ، كاذبا فى اعجابه ، يتخذ كل لبوس بيسر كثير ... حكمه معوج برغم ارادته ... ومن عجب أنه لم يستطع ، وفيه هذه النقائص ، أن يغوى من الناس انسانا الا دوق أورليان ، الذى أوتى نصيبا موفورا من الذكاء واتزان العقل ، ووهب الكثير من الادراك الواضح السريع لأخلاق الناس (٨٧) » .

وكان هذا خليقا بأن يؤدى بالمؤلف القاسى الى التشكك فى صواب غيرته . على أننا يحب أن نعترف بأن دكلو يتفق مع سان - سيمون (٨٨) .

كان دبوا فى عامه الستين حين قلدته الوصاية السلطة ، متهدما بعض الشيء بعد أن أصيب بعدة أمراض تناسلية (٨٩) ، ولكنه كان قادرا على الترفيه عن مدام دتنسان حين وقعت من أحضان فليب . على أية حال لابد أنه أوتى شيئا من الفطنة العقلية ، لأنه أدار الشؤون الخارجية ادارة لا بأس بها . وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظنه خبرا لفرنسا . ذلك أن حزب الأحرار فى انجلترا ، والامبراطور شارل السادس فى النمسا ، كانا يتآمران للتنكر لمعاهدة أوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا . وكان فليب الخامس يتحرق شوقا لعرش فرنسا غير قانع بعرش إسبانيا ، وخيل اليه أن ابرام اتفاق مع انجلترا سيزيح العقبات عن طريقه . فلو أن انجلترا ، وإسبانيا ، والنمسا

والأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلف أعظم جديد «
لطوقت فرنسا بالامضاء من جديد ، ولأبطلت كل سياسات ريشليو ولويس
الرابع عشر وانتصاراتهما . ومنعا لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب
اتفاقا مع إنجلترا والأقاليم المتحدة (هولنده) في ٤ يناير ١٧١٧ .
وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا ، ولتوازن القوى الأوربي ، ولبريطانيا؛
فلو أن فرنسا وإسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدى أسطولهما الموحد
سيطرة إنجلترا على البحار . كذلك كان نعمة للملكية الهانوفرية
الجديدة غير الآمنة في إنجلترا ، لأن فرنسا تعهدت الآن بالآ تبذل مزيدا
من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الانجليزي

وتغلبت الحكومة الأسبانية على أمرها ، ولم ترقها هذه الهزيمة
فاشترك البيروني ، وزيرها الحاكم ، في مؤامرة كيلمار ودوقة مين
للإطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكا على فرنسا . واكتشف دبوا
المؤامرة ، واقتنع الوصي على كره منه بأن يحذو حذو إنجلترا في إعلانها
الحرب على إسبانيا (١٧١٨) . وأنهت معاهدة لاهاي (١٧٢٠) هذا
الصراع . ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس
الخامس عشر ، وبنات الوصي بأبناء فليب . وعقدت الزيجات على
جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (٩ يناير ١٧٢٢) واحتفل بها في
حفل لأحراق المهرطقين (٩٠) . ولما كانت الأميرة الأسبانية ماريا آنا
فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها ، فلا بد أن ينقضي زمن قبل أن
ينجب منها لويس الخامس عشر وريثا للعرش ، فإذا حدث أن مات
الملك الصبي خلال هذه الفترة ، فإن الوصي يصبح ملكا على فرنسا ،
ويصبح دبوا وزيره الدائم .

وتسلق بدهاء خطوة فخطوة . ففي ١٧٢٠ عيّن رئيس أساقفة
على كمبري ، وبمفارقة مضحكة من مفارقات التاريخ طلب ملك
بروتستنتي هو جورج الأول ، الى الوصي الشاك ان يقنع البابا بأن
يخلع على دبوا هذا الكرسي الرياسي الشهير ، الذي شرفه قبيل ذلك
فنيلون ، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقى الورع ماسيون في
الاحتفالات التي أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من
٤ - قصة الحضارة.

الفرنسيين. جماع الرخائل - لما دبوا فلجس بأنه لم يكافأ بما يكفى جزاء على خدماته لفرنسا ، واستخدم المال الفرنسى ليُجلِس على عرش البابوية مرشحا تعهد بأن يبعث اليه بقبعة حمراء (أى قبعة الكردينال) . وأوفى أنوسنت الثالث عشر بوعده وهو آسف ، وأصبح رئيس الأساقفة الكردينال دبوا (١٦ يوليو ١٧٢١) ، وبعد سنة عين وزيراً أول للملكة براتب قدره ١٠٠.٠٠٠ جنيه . وإذا كان يتقاضى إيرادات قدره ١٢٠.٠٠٠ جنيه من منصب رئيس الأساقفة ، و ٢٠٤.٠٠٠ من سبعة أديرة ، و ١٠٠.٠٠٠ من نظارته على البريد ، ومعاشا انجليزيا قدره سيمون بمبلغ ٩٦.٠٠٠ ، فقد بلغ إيراده السنوى الآن نحو ١.٥٠٠.٠٠٠ جنيه (٩١) . ولم يكن له من هم الا خوفه من أن ترفض زوجته - التى كانت لا تزال على قيد الحياة - ما يبعثه اليها من الرشا ، وتكشف عن وجودها ، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية (٩٢) .

ولكن الزمن أدركه . ففى ٥ فبراير ١٧٢٣ بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية . وحين كان الملك لا يتجاوز الثالثة عشرة ، وكان ينعم بالعيش فى فرساي ، طلب الى فليب أن يواصل حكمه للمملكة ، وظل دبوا أكبر مساعدى فليب . ولكن حدث فى أول أغسطس أن انفجرت مئانة الكردينال ، ومات فجأة وهو مثقل بأمواله . واضطلع فليب بالادارة ، ولكن فسحة أجله هو أيضا انتهت . ذلك أنه بعد أن اتخم بالنساء ، وتخذّر بادمان السكر ، وكف بصره ، وفقد حتى عاداته المهذبة ، تقبل ، فى نصف وعى ، ازدراء الناس لذلك النظام الذى بدا فى جو شامل من الود والارتياح ، وقارب نهايته فى انحدار رسمى واحتقار شعبى . واندره الأطباء بأن أسلوب حياته سيقضى عليه ، ولكنه لم يكثرث ، فلقد أترع بخمر الحياة حتى الثمالة ، ومات بنوبة فالج فى ٢ ديسمبر ١٧٢٣ ، وتلقفته ذراعاً خليلته مؤقتاً . وكان يومها فى التاسعة والأربعين .

على ان فليب أورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه . فرخائله رخائل الجسد لا النفس : كان متلافا سكيما فاسقا ، ولكنه لم يكن أنانيا ، ولا قاسيا ، ولا خسيسا ، بل كان رحيماً ، شجاعاً ، لطيفاً . كسب مملكة بمقامرة ، وتركها بقلب خلى ويد مبسوطة . وقد

أتاح له ثراؤه كل الفرص ، ولم تتح له سلطته أى انضباط . انه لمنظر محزن حقا - منظر رجل لامع الذكاء ، سمح الراى ، يكافح لاصلاح ما أفسده فى فرنسا تعصب الملك العظيم ، ثم يترك الاهداف السامية تغرق فى سكر لا معنى له ، ويضيع الحب فى دوامة من الفسق .

كانت فترة الوصاية ، من الناحية الاخلاقية ، اشد الفترات خزيا وعارا فى تاريخ فرنسا . فالدين الذى كان نافعا فى القرى جلب على نفسه العار فى القمة لانه شرف رجالا من أمثال دبوا وتنسان ، ففقد بذلك احترام الفكر الذى أطلق عقاله ، وقد حظى الذهن الفرنسى بحرية نسبية ، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الرحيم المتسامح بقدر ما استخدمها لاطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية التى تتطلبها الحضارة ، ونسيت الارتياحية فلسفة أبيقور ، وانصرفت الى اللذات الأبيقورية (أى الحسية) . ولقد كانت الحكومة فاسدة ، ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بأن تفيق من عهد مدمر، عهد الفخامة والحرب . وقد انهار « نظام » لو وانتهى بالافلاس ، ولكنه أعطى الاقتصاد الفرنسى حافزا قويا . وشهدت تلك السنوات الثمان انتشار التعليم المجانى ، وتحرر الفن والأدب من الوصاية والسيطرة الملكيتين ؛ لقد كانت سنوات « الأبحار الى سيقيرا » ، و « جيل بلاس » و « أوديب » و « رسائل موتسكيو الفارسية » . ولقد زجت الوصاية بفولتير فى السجن ، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح ما لن يعرفه أبدا فى فرنسا حتى فى ساعة انتصاره وموته .

٩ - فولتير والباستيل : ١٥١٧ - ٢٦

فى مذكرات سان - سيمون فقرة مميزة تصف شابا محدثا أثار ضجيجا كثيرا أيام الوصاية :

« نفى آرويه ، وهو ابن موثق كنا نعامله أنا وأبى حتى توفى .. الى تل فى ذلك الحين (١٧١٦) لنظمه أبياتا من الشعر فيها هجو شديد ووقاحة بالغة . وما كنت لألهو بتدوين هذا الحدث التافه لولا أن آرويه هذا ، الذى أصبح شاعرا وأكادمية كبيرا باسم فولتير ، قد أصبح كذلك شخصية فى دولة الأدب ، لا بل بلغ شيئا من الأهمية بين بعض الناس (٩٣) » .

هذا الشاب المحدث ، الذى بلغ الآن الحادية والعشرين ، وصف نفسه بأنه « نحيل ، طويل ، لالحم فيه ولا أرداف (١٤) » ولعله بسبب هذا العيب كان يثب من مضيف (أو مضيفة) الى آخر ، ويجد الترحيب حتى فى الدوائر العليا ، بفضل شعره المتألق وذكائه الحاضر ، يتشرب الهرطقة وينشرها ، ويمثل دور زير النساء . واذ لمع فى قصر سو على الأخصى ، فانه أثلج صدر دوقة مين بهجسوه للوصي . وكان فليب قد اختزل الى النصف خيول المرباط الملكية ، فعلق آرويه على هذا بأنه كان خيرا له أن يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموه . وأسوأ من ذلك أنه فيما يبدو اذاع أبياتا عن أخلاق دوقة بيرى (ابنة الوصي) وانكر فولتير أنه كاتبها ، ولكن الأبيات نشرت بعد ذلك فى « أعماله » وقد واصل خطة الإنكار هذه الى قرب ختام حياته ، باعتبارها حماية مغتفرة من رقابة مصلته على أصحاب الأقلام . أما الوصي فكان فى وسعه أن يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه ، لأنها كثيرا ما كانت كاذبة ، ولكنه كان يجرح جرحا عميقا من السخریات الموجهة لابنته ، لأنها كانت صادقة فى أغلبها . وعليه ففى ٥ مايو ١٧١٦ أصدر أمرا « بارسال السيد آرويه الابن الى تل » - وهى مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس ، اشتهرت بمدابغها الكريهة الرائحة ، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق « التل » الذى نسب اليها فى تاريخ لاحق . واقنع الأب آرويه الوصي بأن يغير المنفى من تل الى صلى - سير - لوار ، على مائة ميل من العاصمة . وذهب اليها آرويه ، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلى آنثذ ، سليل الوزير الأكبر لهنرى الرابع ، ضيفا فى بيته .

وقد استمتع هناك بكل شيء الا الحرية . وما لبث أن وجه شعرا « رسالة للدوق أورليان » يؤكد فيه براعته ويلتمس اطلاق سراحه . واستجاب الوصي ، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد الى باريس وراح يتنقل فى أرجائها تنقل الطائر وينظم الشعر ، فى بذاعة حيناً ، وفى سطحية فى كثير من الأحيان ، وفى ذكاء دائما - حتى نسب اليه كل هجو بارع يسرى على موائد المقاهى دون معرفة كاتبه . وفى مطلع عام ١٧١٧ ظهر هجاء لاذع جدا ، بدأت كل جملة فيه بكلمة « رأيت J'ai vu » مثال ذلك :

« رأيت الباستيل وألف سجن آخر مملوءة بمواطنين شجعان ورعايا أوفياء . رأيت الناس أشقياء يرسفون في عبودية قاسية . رأيت الجند يهلكون جوعا ، وعطشا ... وسخطا ، رأيت شيطانا في زي امرأة ... يحكم المملكة ... رأيت البور - رويال وقد هدم ... رأيت - وهذا ينتظم كل ما رأيت - يسوعيا يعبد ... رأيت كل هذه الشرور ، وأنا لم أجاوز العشرين بعد (٩٥) » .

وواضح أن هذه الابيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام همانتون ، ولابد أن كاتبها عدو جانسني لليسوعيين لا شك مستهتر لا يزال يحتفظ ببعض الحب في قلبه لجماعة اليسوعيين . أما الكاتب الحقيقي فهو أ. ل. لبرون ، الذي التمس بعد ذلك الصفح من فولتير لأنه تركه يتحمل تبعه كتابتها (٩٦) . ولكن السن المتقولين امتدحت آرويه على القصيدة ، وألحت عليه الجماعات الأدبية في القائها ، ولم يصدق أحد انكاره تاليفها (الا صاحبها) . واتهمته الشائعات التي نقلت الى الوصي بكتابة عبارة لاتينية - وبحق فيما يبدو - فضلا عن قصيدة « رأيت » المذكورة ، ومطلعها *Puero regnante* . يقول كاتبها ما ترجمته « صبي (لويس الخامس عشر) يملك ، ورجل مشهور بتسميم خصومه وغشيان المحارم يحكم ، .. وثقة الشعب تنتهك (افلاس مصرف لو) .. والبلاد يضحى بها طمعاً في تاج ، وميراث - يعجل ميقاته بخسه ، وفرنسا على شفا الدمار (٩٧) » . وفي ١٦ مايو ١٧١٧ أمر خطاب ملكي مختوم بأن « يقبض على السيد آرويه ويودع الباستيل » . وفوجيء الشاعر في مسكنه ، ولم يسمح له بأن يأخذ غير الثياب التي يرتديها .

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك ، واسمها سوزان دليفريه ، واتخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها ، واغتفر لها آرويه « خيانتها في تفلسف - » علينا أن نحتمل هذه التواقة (٩٨) « وبعد سنوات مات لفيفر فنظم فولتير في ذكراه أبياتا تبين موهبة الشاعر الشاب في قرض الشعر الجميل ، والعواطف الرقيقة التي كانت دائما أعمس في نفسه من الشكوك : « انه يتذكرك ، أنت والجميلة ايجيرى (سوزان) في أيام حياتنا الحلوة ، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضا . فالفكر

والطيش ، والحب ، وسحر الأخطاء الرقيقة ، كل أولئك ربط بين قلوبنا الثلاثة . إلا ما كان أسعدنا ، إذ لم يقو على تقدير صفونا حتى الفقر ، رفيق السعادة الحزين . كنا شبابا ، مرحين ، قنوعين ، خالين من الهموم ، لا يشغلنا التفكير في المستقبل ، رغباتنا كلها تحددّها مباهجنا الراهنة - فأى حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه ؟ لقد كنا نملك شيئا أفضل منه جدا ، كنا نملك السعادة (٩٩) » .

وتزوجت سوزان رجلا غنيا يدعى المركيز جوفرينه ، وأبت أن تدخل فولتير بيتها حين أتى لزيارتها . وعزى نفسه بهذه الفكرة ، وهى أن « كل الماسات واللاوىء التى تزينها الآن لا تعدل قبلة من قبلاتها فى الأيام الخالية (١٠٠) » . ولم يرها ثانية حتى عاد إلى باريس بعد احدى وخمسين سنة ليموت ، عندها أصر وهو فى الثالثة والثمانين على زيارة المركيزة الأرملة ، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين . لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان ، ولكن كان يسكنه أيضا أرق قلب فى الوجود .

على أنه لم يجد الباستيل سجنًا لا يطاق . فقد سمح له بأن يرسل فى طلب الكتب ، والأثاث ، والثياب الداخلية ، وطاقيّة النوم ، والعطر ، وأن يدفع ثمن هذا كله ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه مع مأمور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس ، وقد كتب فيه ملحمة « الهنريادة » . لقد كانت الألياذة من الكتب التى أرسل فى طلبها ، وسأله نفسه : لم لا يناقش هومر ؟ ولم تقصر الملاحم على الأساطير ؟ إن فى التاريخ الحى رجلا هو هنرى الرابع ، انسان مرح ، جسر ، بطل ، فاسق ، متسامح ، كريم ، فلم لا تصلح تلك الحياة المتغامرة الفاجعة لشعر الملاحم ؟ ولم يكن مسموحا للسجين بورق الكتابة لأنه قد يستحيل فى يده سلاحا فتاكا ، لذلك كتب النصف الأول من ملحمة بين سطور الكتب المطبوعة .

وأفرج عنه فى ١١ أبريل ١٧١٨ ، ولكنه منع من البقاء فى باريس ومن شاطئيه القريبة من سو كتب إلى الوصى رسائل يلتمس فيها الصلح ، ولأنت قناة الوصى ثانية ، وفى ١٢ أكتوبر أصدر اذنا « للسيد أرويه دقولتير بالمجئ إلى باريس حين يشاء (١٠١) » .

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد ؟ الظاهر أن هذا كان حوالى فترة سجنه فى الباستيل ، فنحن نلقاه أول مرة فى المرسوم الذى ذكرناه آنفا . وظن بعضهم (١٠٢) انه جناس تصحيفى anagram أى تغيير فى ترتيب أحرف كلمة Arovet L(e) J(eune باعتبار الـ U هى حرف V والـ I هى حرف J - أما المركيزة دكريكى (١٠٣) فردته الى كلمة « فولتير » ، وهى مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن أحد أبناء عمومته ، ولم يرث معها أى حقوق سيادية ، ولكن آرويه ، كبلزاك ، اتخذ الاضافة التى يلحقها السادة باسمائهم "de" بحق العبقرية ، ووقع - كما فى اهداء تمثيليته الاولى - بهذا الاسم « آرويه دفولتير » (ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه فى أى بلد فى أوربا .

وكانت تلك التمثيلية - أوديب - حدثا فى تاريخ فرنسا الأدبى . لقد كانت وقاحة صارخة من فتى فى الرابعة والعشرين ألا يكتفى بتحدى كورنىي ، الذى أخرج تمثيلية « أوديب » فى ١٦٥٩ ، بل يتحدى سوفوكليس أيضا ، الذى ظهرت مسرحيته « أوديب ملكا » فى ٣٣٠ ق م . أضف الى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم ، يمكن أن تحمل على محمل التعريض بالعلاقات بين الوصي وابنته - وهى بالضبط . التهمة التى سجن بسببها آرويه . وقد فسرتها هذا التفسير دوقة مين واعتبطت بها ، وكان الشاعر قد فكر فى تمثيليته أثناء وجوده فى قصرها . وطلب فولتير بجراته المألوفة الى الوصي أن يأذن له باهدائه التمثيلية ، وتردد الوصي ، ولكنه أذن باهدائها لأمه . وأعلن أن حفلة الافتتاح ستكون فى ١٨ نوفمبر ١٧١٨ . وتكون حزبان من رواد مسارح باريس - أنصار الوصي ، وأنصار دوقة مين ، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين فى صيحات الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاخبة . ولكن المؤلف الذكى كان قد ضمن مسرحيته أبياتا تسر أحد الفريقين ، وأخرى تسر الفريق الآخر . فأرضت الفريق المناصر للوصي فقره تصف كيف طرد الملك لايوس حرس القصر الغالى النفقة (كما فعل فليب) ، وأرضي اليسوعيين أن يروا كيف أحسن تلميذهم الافادة من المسرحيات التى كانوا يخرجونها فى كلية لوى - لجران ؛ أما احرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبيتين من الشعر وردا فى المشهد

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (١٠٥) « . وكان بطلنا من استغلاليى الحرب . وظل بعيدا عن « نظام » لو ، واستثمر ثروته بحكمة ، وأقرض النقود بالريا . وفى ١٧٢٢ مات أبوه ، واحتكم فولتير الى القضاء فى أمر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية ، ففاز بوراثة دخل سنوى قدره ٢٥٠ رء فرنكا . وفى تلك السنة ذاتها أجرى عليه الوصى معاشا قدره ٢٠٠٠ جنيه ، وغدا الآن رجلا موسرا . وعما قليل سيصبح مليونيرا ، وعلينا ألا نفكر فيه ثائرا ، الا فيما يتصل بالدين .

وقد أعان على تربيته وتهذيبه سقوط مسرحيته الثانية - آرتمير - (١٥ فبراير ١٧٢٠) . فجرى من مقصورته الى خشية المسرح وناقش النظارة فى مزايا المسرحية ، وصفقوا لخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها ، وبعد ان مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح ، وفى تاريخ لاحق من تلك السنة قرأ قسما من « الهنريادة » على نفر فى اجتماع ، ووجه اليها بعض النقد ، وبحركة فرجيلية القى بالمخطوطة فى النار ، وخطف اينو الأوراق من اللهب ، وشبه نفسه بأوغسطس وهو يستنقذ انيادة فرجيل ، وقال ان فولتير مدين له الآن بملحمة و « طوقى كم لطيفين (١٠٦) » . واستعاد الشاعر كبريائه فى غير مشقة حين استمع الوصى نفسه الى قراءة من القصيدة . وكان حينما ذهب يقرأ جزءا منها . وفى ١٧٢٣ زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية فى فللتها ، لاسورس قرب أورليان ، فأكدا له أن ملحمة تبرز « جميع الأعمال الشعرية التى صدرت فى فرنسا (١٠٧) » . وتظاهر بأنه يشك فى صدق هذا الزعم .

وتبادل خلال ذلك الفلسفات مع ذلك الشاك النبيل ، وسمع بالربوبيين الذين يكدرون صفو المسيحية فى بريطانيا . وخامرته الظنون بأن انجلترا سبقت فرنسا فى العلم والفلسفة . ولكنه كان قد انتهى الى هرطقات بولنبروك قبل ان يلتقى به أو يقرأ للربوبيين الانجليز . وفى ١٧٢٢ قبل دعوة من الكونتيسة مارى دروبلموند بأن يصحبها الى الأرض المنخفضة . وكانت أرملة فى الثامنة والثلاثين ، من نساء الفكر ، ولكنها جميلة ، وقد قبل دعوتها وهو فى الثامنة والعشرين . وفى بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيست روسو ، اتنى على « أوديب » ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الدينى .

أما فولتير ، الذى قلما كان يطبق النقد ، فقد علق على قصيدة لروسو
عنوانها « قصيدة غنائية للأجيال القادمة » بقوله « أتعلم يا سيدى اننى
لا أعتقد أن هذه القصيدة ستصل أبدا الى من وجهت اليهم ؟ (١٠٨) »
وقد ظلا ينهش أحدهما الآخر حتى وفاة روسو . وبينما كان فولتير
وكونتيسة يواصلان رحلتهم الى هولندا كشفت له عن شكوكها الدينية ،
وسألته عن آرائه . واذا كان فولتير جياشا بالشعر ، فقد رد بقصيدة
شهيرة سماها « رسالة الى أورانى » لم تنشر الا سنة ١٧٣٢ ، ولم يعترف
بها فولتير الا بعد أربعين سنة . وكل شاب مسيحي مرهف الحس
سيقتبين فيها مرحلة فى تطوره . يقول فولتير « اذن أنت تودين أيتها
الجميلة أورانى (اسم لأفروديت) وقد بعثت بامرك فى هيئة لوكريتيوس
جديد ، أن أمزق أمام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات ، وأن
أعرض عليك ذلك المشهد الخطر ، مشهد الأكاذيب المقدسة التى تزخر
بها الأرض ، وأن تعلمك فلسفتى ازدراء أهوال القبر ومخاوف الحياة
الآخرة » .

ويسير الشاعر بـ « خطى ملؤها الاحترام » . فيقول « انى أريد
أن أحب الله ، والتمس فيه أبى » ، ولكن أى نوع من الاله يقدمه لنا
اللاهوت المسيحى ؟ « طاغية ينبغى أن نكرهه . خلق البشر » على
صورته « ليجعلهم حقراء ، وأعطانا قلوبا آثمة ليكون له حق عقابنا .
جعلنا نحب اللذة لكى يعذبنا بالآلام رهيبه ... ابدية » . وما ان خلقنا
حتى فكر فى اهلاكننا . فامر المياه بأن تغرق الأرض . وارسل ابنه ليكفر
عن خطايانا ، لقد مات المسيح ، ولكنه مات عبثا فيما يبدو ، اذ يقال
لذا اننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء ، وابن الاله الذى يمتدح
كثيرا على رحمته ، يمثل لنا وكأنه ينتظر بروح النار أن يقذف باكثرنا
الى الجحيم ، بما فينا أناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط « لست أتبين
فى هذه الصورة المخزية الاله الذى على أن أعبد ، وسأشينه بمثل هذه
الاهانة والولاء » . ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبل والالهام الحى
فى الفكرة المسيحية عن المخلص :

« انظرى الى هذا المسيح ، القوى المجيد .. يدوس الموت تحت
قدميه الظافرتين ، ويخرج منتصرا من ابواب الجحيم . ان مثله

مقدس ، وفضيلته الهية . ويعزى سرا تلك القلوب التى يضيئها بنوره .
وفى أفدح الكوارث يهبها العون ، واذا كان قد أقام تعليمه على وهم
وخداع ، فان من النعم أن نخدع معه .

وفى الختام يدعو الشاعر أورانى أن نستقر على رأى فى الدين
واثقة كل الثقة بأن الله « الذى وضع الدين الطبيعى فى قلبك ، لن
يسوءه العقل البسيط الصريح . ثقى أن نفس الانسان البار ثمينة أمام
عرشه ، فى كل زمان ومكان . ثقى أن الراهب البوذى المتواضع ،
والولى المسلم العطوف ، يجدان نعمة فى عينيه أكثر مما يجده جانسنى
(قدرى) صارم ، أو بابا يلوث الطمخ روحه . »

ولما عاد فولتير الى باريس أقام فى الأوتيل دبيرنيير بشارع بون
وطريق فولتير الحالى (١٧٢٣) . وفى نوفمبر ذهب الى اجتماع
للأعيان فى الشاتودميزون (على تسعة أميال من باريس) ، حيث كانت
أعظم ممثلات العصر أدريين لكوفرير ستقرا تمثيليته الجديدة «ماريان»
ولكن قبل أن يحل موعد الحفل أصيب بالجدرى ، وكان فى تلك الايام
يفتك بنسبة عالية من ضحاياه . وكتب وصيته ، واعترف ، وراح ينتظر
الموت . وهرب الضيوف الآخرون ، ولكن المركيز دميزون «استدعى
الدكتور جريفيه من باريس » وبدلا من المنبهات التى تعطى عادة فى
هذا المرض ، جعلنى أشرب مائتى باينت من عصير الليمون (١٠٩) «
ولعله كان لهذه الاكراب المائتين الفضل فى « انقاذ حياتى » . ولم
يتمثل للشفاء الا بعد شهور كثيرة ، والواقع أنه بعد هذا كان يعالج
نفسه علاج عليل عاجز ، يمرض تلك الحياة المتقطعة التى يحيها ذلك
البدن الهش الذى فرض عليه أن يؤوى نار صاحبه الأكلة .

وفى ١٧٢٤ بدأ تداول ملحمة الهنريادة سرا بين الصفوة المثقفة .
لقد كانت اذاعة سياسية على مستوى ملحمة . واتخذت الملحمة مذبحة
القديس برتلميو نصا لها ، وتتبع الجرائم الدينية خلال العصور ؛
الامهات يقدمن أبذاءهن محرقات على مذابح الآله ملخ ، وأغا ممنون
يتهيا لتقديم ابذته قربانا للآله التماسا لقليل من الريح ، والمسيحيون
يضطهدهم الرومان ، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون ، والمتعصبون

« يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم » ؛ والاتقياء يوحى اليهم بقتل الملوك الفرنسيين . وأشادت القصيدة باليزابيث لتقديمها المعونة لهنرى خافار ، ووصفت معركة أفرية ، وشفقة هنرى ، وعشقه لجابرييل ديستريه ، وحصاره لباريس ، وامتدحت تحوله للكاتوليكية ، ولكنها انتقدت البابوية لأنها « قوة لا ترحم المغلوبين ، ويلين جانبها للغالبين ، على استعداد للمغفران أو الادانة حسبما تمليه المصلحة » .

وكان فولتير يأمل أن تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا ، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من أن تجعلهم يستقبلون القصيدة ملحمة لروحهم . ثم ان أخطاءها كانت تثب الى العين الدارسة . فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل - فى مشاهد القتال ، وفى زيارة البطل للجحيم ، وفى ادخال التجريدات المجسدة فى الحركة على غرار الآلهة الهومرية - كل أولئك ضحى بمفاتن الابتكار والأصالة ، ومع أن الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد ، فقد افتقد أخيلة الشعر المنيرة . أما المؤلف ، الذى أسكره مداد المطبعة ، فلم يخامره ظن فى هذا . فكتب الى تييريو يقول « ان شعر الملاحم موطن قوتى ، والا كنت واهما جدا (١١٠) » ولقد كان واهما جدا .

ومع ذلك بدأ أن المديح الذى ظفر به يبرر افتخاره بملحمته . فقد صرح ناقد فرنسي بأنها تسمو على الانبياء ، وذهب فردريك الأكبر الى « ان أى انسان تحرر من الهوى سيفضل الهنريادة على قصيدة هومر (١١١) » . ونفدت الطبعة الأولى سريعا ، ونشرت طبعة منتحلة فى هولنده وصدرت الى فرنسا ، وحظر البوليس الكتاب ، ولكن جميع الناس اشتروه . وترجم الى سبع لغات ، وسنراه يحدث ضجة فى انجلترا . وقد لعب دورا فى احياء شعبية هنرى الرابع . وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية ، وتنقد النظريات اللاهوتية التى اشعلت فى الناس نيران هذه القسوة الضارية .

واستمتع الآن فولتير حينما بالشهرة والمال دون أن يكدرهما مكر . فقد اعترف به الناس أعظم شاعر حى فى فرنسا ، واستقبل فى بلاط لويس الخامس عشر ، وبكت الملكة من تعليلاته ، ونفحتسه بالف وخمسمائة جنيه من جيبها الخاص (١٧٢٥) . وكتب أكثر من عشرة

خطابات يشكو حياته عضوا في الحاشية ويفاخر بهذه الحياة . وراح يتحدث في ألفة طبيعية مع النبلاء ، سواء منهم الشريف والخسيس . ولا شك أنه أسرف في الحديث ، وهذا أيسر شيء في الوجود . وحدث ذات ليلة وهو في الأوبرا (ديسمبر ١٧٢٥) أن الشفالييه دروهان - شابو سمعه يسترسل في الحديث في بهو الانتظار فسأله في خيلاء شديدة « مسيو فولتير ، مسيو آرويه - ما اسمك ؟ » ولا علم لنا بم أجاب الشاعر . وبعد يومين التقيا في الكوميدي - فرانسيز ، وأعاد دروهان سؤاله . ويختلف الرواة في الجواب الذي أجابه به فولتير ، قالت رواية انه أجاب « انسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم ، بل يعرف أن يشرف الاسم الذي يحمله (١١٢) » ، وتقول رواية أخرى انه أجاب « ان اسمي يبدأ بى ، واسمك ينتهى بك (١١٣) » . ورفع السيد النبيل عصاه ليضربه ، وأتى الشاعر بحركة ليستل سيفه . وكانت أدريين لكوفرير تشهد المعركة ، وكان لها من حضور البديهة ما جعلها تقع مغشيا عليها ، وتهادن الخصمان .

وفي ٤ فبراير كان فولتير يتغدى في بيت الدوق صلى ، واذا رسالة تنبئه أن بباب القصر من يريد أن يراه ، فذهب ، واذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه في شيء من الترفق . وحذرهم دروهان الذي كان يدير العملية من مركبته قائلا « لا تضربوا رأسه ، فعسى أن يخرج منه شيء صالح (١١٤) » . واندفع فولتير عائدا الى البيت ، وطلب الى صلى أن يعينه على اتخاذ اجراء قانونى ضد دروهان . ولكن صلى أبى . فاعتكف الشاعر في ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة . ثم ظهر في فرساي ، مصمما على المطالبة بـ « ترضية » من الشفالييه . وكان القانون يعد المبارزة جريمة كبرى . وصدر أمر ملكى للشرطة بأن تراقبه ، ورفض دروهان لقاءه . في تلك الليلة قبضت الشرطة على الشاعر ، مما أراح كل من له صلة بالأمر ، ووجد فولتير نفسه نزيل الباستيل ثانية . وقال القائد العام لشرطة باريس في تقريره « ان أسرة المسجين أثنت بالاجماع ... على حكمة الأمر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة (١١٥) » وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مسلكه ، وعرض أن ينفى نفسه في انجلترا مختارا اذا أفرج عنه . وقد عومل كما عومل من قبل ، فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية .

وقبل اقتراحه ، وأفرج عنه بعد خمسة عشر يوما ، ولكن حارسا
أمر أن يوصله الى كاليه . وأعطاه أعضاء الحكومة خطابات تعريف
وتوصية لبعض الانجليز البارزين ، وواصلت الملكة دفع معاشه . وفي
كاليه استضافه أصدقاؤه ريثما يقلع المركب التالي . وفي ١٠ مايو ركب
البحر ، مسلحا بالكتب لدراسة الانجليزية ، راغبا في رؤية البلد الذي
سمع أن الناس والعقول فيه أحرار . فلنر ماذا وجد فيه .

الكتاب الأول

انجستره

٥٦ - ١٧١٤

الفصل الثاني

الشعب

١٧١٤ - ٥٦

كانت انجلترا النى وجدها فولنبر أمة تنمتع بربع قرن من السلام النسبى عقب جيل من انتصارانها الغالية على فرنسا ، أمة غدت الآن سيدة البحار ، واذن فسيده التجارة ، واذن فسيده المال ، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة ، منتصرة فى كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليها الكتلكة ، وعلى ملوك هانوفرين كانوا خداما لجيب البرلمان المنفخ . تلك هى انجلترا التى احرزت قبل ذلك التفرق العالمى فى العلم بفضل نيوتن ، وأنجبت لوك الثائر دون عمد منه ، والتى كانت نقوض المسيحية بالربوبية ، والتى ستحل الشاعر الكسندر « بوب » (= بابا) محل بابوات روما أجمعين ؛ والتى سنرقب بعد قليل فى فلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة . ادبا انجلترا النى أحبها الفنان هوجارث وسحبها بقوة فى محفوراته ، انجلترا التى وجد فيها هندل وطنا وجمهورا مستمعا ، وحجب فيها ضوءه كل موسيقار من آل باخ اذ غدا أعظم « مايسترو » أنجبه العصر . ثم هنا ، فى هذه « القلعة التى ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات .. هذه البقعة المباركة .. فى انجلترا هذه (١) » - بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شيء الا الانسان .

١ - التمهيد للثورة الصناعية

١ - المؤيسدون

رسم ديفو ، بعد أن جاب أرجاء انجلترا فى ١٧٢٢ ، صورة مفعمة بمشاعر الوطنية لـ « أكثر بلاد الدنيا ازدهارا وثراء » ، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة ، والمراعى تهيم فيها الخراف الذهبية الفراء ، والعشب النضر الغزير يتحول أبقارا سمنا ، والفلاحين يضجون فى العابهم الريفية ، وكبار الملاك فى الريف ينظمون شئونهم . ٥ - قصة الحضارة

الفلاحين ، والنبلاء ينظمون شئون الملاك ، وكبار حكام الأقاليم يتولون القضاء ويقررون النظام فى القرى ، ثم هى الى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (٢) . ان تجار الكلام ينزعون الى تصوير الريف بصورة مثالية اذا أعفوا من مضايقات هذا الريف ، وملله ، وحشراته ، وكده وكدحه .

لقد كانت الحياة الريفية فى انجلترا سنة ١٧١٥ شديدة الشدة بما كانته منذ ألف سنة . كل قرية - بل كل ببت تقريبا - وحدة مكتفية بذاتها ، تزرع دلعاميا ، وتصنع ثيابها . وتتطاع انسابها للبناء والوقود . من الغابات المجاورة . وكل أسرة تخبز خبزها ، وتصيد غزلانها ، وتملح لحومها ، وتصنع زبدتها وعلامها وجبنها ، وتشزل وتنسج وتخطط وتدبغ الجلد وشرقة الأسمانية ، وتصنع أكثر انبتها وادواتها والاتها . وهكذا وجد البنى والبناء العمل والتعبير عن ذواتهم لا فى حقول الصيف فحسب ، بل فى امسيات الشتاء الطويلة أيضا ، وكان البيت مركزا للصناعة والزراعة على السواء . فالزوجة هى الخبير المكرم بفقون كثيرة ، من تمرىض الزوج وتربية نحو اثنى عشر طفلا ، الى حياكة الفساتين وصنع الجعة . وهى تحفظ وتصرف الادوية المنزلية ، وتعنى بالحدبة والخنازير والدايور . والزواج هو اتحاد بين رفيقين منعازين والأسرة كائن حى اقتصادى كما انها كائن حى اجتماعى ، وهذا توافق لها مبرز قوى وأساس مكين لوحدتها وتكاثرها واستمرارها .

ولو قد ترك الفلاحون أحرارا فى الابتداء على "سالبهم القديمة فى الحقول لثنعوا بما فى بيوتهم من حيوية متنوعة . لقد تذكروا أياما كان مالك الأرض فيها يسمح لهم ، أو لأسلافهم ، بأن يهالقوا قدامهم لترعى فى حقول المنطقة المشاعة ، ربان بصطادوا السمك كما يشاءون فى غدرانها ، وأن يقطعوا الخشب فى غابتها ، أما الآن ، واثر عملية بدىء بها فى القرن السادس عشر ، فقد سرور المسلاك معظم الاراني المشاعة ، ووجد الفلاحون عناء فى العيش على قدر دخولهم . صحيح أنه لم يكن هناك أثر لرق الأرض ، ولا لضرائب اقطاع رسمية ، ولكن الملاك المغامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم فى الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع ، براسمال أكبر ، وبادوات أفضل ، ومهارة

أعظم ، وأسواق أوسع مما أتيح لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة . وقد قدر جريجورى كنج أنه كان بانجلترا فى ١٦٨٨ نحسو ١٨٠٠٠ من هؤلاء الملاك الأحرار . وذكر فولتير حوالى ١٧٣٠ أن « فى انجلترا عددا كبيرا من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحد منهم ٢٠٠٠٠ فرنك ، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحه الأرض التى أغنتهم ، والتى يعيشون فيها أحرارا » ، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية ، حفزا لهمم الفرنسيين ، أيا كان الأمر ، فإنه بحلول سنة ١٧٥٠ كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (٣) . فالملاك السمان يشترون المساحات العجاف ، والبيت الصغير وما حوله من ارض ، المقصود به اعالة الأسرة أو الأسواق المحلية ، يخلق مكانه لمزارع أكبر قادرة على الافادة من الوسائل والآلات المحسنة . والمزارع يصبح مساجرا أو « يدا » أجيرة ، أضف الى ذلك أن نظام الفلاحة الذى ساد انجلترا عام ١٧١٥ قسم ارض القرية الى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول اليها ، وتسلم كل مزارع شريطا أو أكثر فى النواحي المنفصلة ، وكان التعاون ضروريا ، واحبطت المبادرة الفردية ، وتخلف الانتاج . وكانت حجة مسو رى الأزامي أن التشغيل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه أن يزيد الانتاج الزراعى ، وييسر رعى الأغنام ، ويتيح ناتجا مربحا من الصوف ، ولا ريب انهم كانوا على حق . وأغمض التقدم الاقتصادى عينا واحدة على الأقل عما أصاب الناس من اضطراب شديدا فى حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال .

وتركز التقدم فى التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموسعة . فاستصلح حافظ الكسب الأراضى البور وزرعها ، ودرب العمال على كفاية أعظم ، وشجع اختراع الآلات والوسائل الجديدة وحفز اجراء التجارب على تربية الحيوان ، ودعم الجهد المبذول فى صرف المستنقعات والحد من تعرية التربة وتطهير الغابات . واصيف بين عامى ١٦٩٦ و ١٧٩٥ نحو مليونى فدان الى المساحة المزروعة فى انجلترا وويلز . وفى ١٧٣٠ أدخل تشارلز تاونشند النظام الرباعى لدورة المحاصيل بدلا من الخطة المسرفة التى كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بورا كل سنة ؛ فزرع القمح أو الشوفان فى السنة الأولى ، والشعير أو الشوفان فى الثانية ، والبرسيم والجاودار والنباتات العلفية واللفت الأصفر والكرنب فى

الثالثة ، واللفت فى الرابعة . ثم جاء بالأغنام لتاكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الأرض بينما يخصب روثها التربة ، وبذلك أعدت الأرض لمحصول وفير من القمح فى السنة الثانية . وسخر منه جيرانه ، وأطلقوا عليه لقبا هو « تيرنب تاونشند » (أى تاونشند اللفت) ، الى أن حملهم على تقليده زيادة فى محاصيله بلغت ٣٠ ٪ . واذ كان تاونشند فيكونتا ، فقد حذا حذوه نفر آخر من الطبقة الأرستقراطية فى تحسين أرضهم ، وشاع بين أشراف الانجليز أن يهتم الواحد منهم اهتماما شخيصا بالزراعة ، وانتقل حديث الضياع من الصيد والكلاب الى اللفت والسماذ (٤) .

وكان جثرو تل محاميا ، اعتلت صحته فعاد الى مزرعة أبيه ، واستهوت ذهنه المرفه معجزة النماء وارباح الزرع ، ولكن صدمه ما رأى من طرق الفلاحة المسرفة ، - المزارعون ينثرون تسعة او عشرة أرطال من البذار على الفدان باهمال شديد يترك « ثلثى الأرض خالية من الزرع ، فى حين تكتظ البذار فى الباقي اكتظاظا يمنع الزرع من أن يزكو (٥) » . ودرس أساليب الزراعة أثناء رحلاته فى فرنسا وإيطاليا ، فلما عاد الى وطنه اشترى مزرعة ، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الانتاج . وقد بدا (حوالى ١٧٣٠) بصنع محراث ذى أربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها فى التربة بدلا من مجرد ازاحتها جانبا . ولكن أكثر مخترعاته حسما (حوالى ١٧٣٣) كان آلة حفر تجرها الخيل ، تنثر الحب خلال أنابيب مسننة على مسافات وأعماق معينة فى خطين متوازيين ، ثم تغطى الحب بمسحاة متصلة بالحفار . ووفرت الآلة الحب والعمال ، واتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبدورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش . وقد شارك هذا التغير فى بذر الحب ، الذى يبدو تافها ، وتحسين المحراث ، فى أحداث ما سعى بعد ذلك بالثورة الزراعية ، التى يمكن أن تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم فى حسابنا) بارتفاع قيمة الأراضي التى استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشرة أضعاف خلال القرن الثامن عشر . ومكنت الزيادة فى انتاجية التربة المزارع من أن تطعم المزيد من الصناع فى المدن ، واتاحت ذلك العدد النامى من سكان المدن ، الذى لولاه لاستحالت الثورة الصناعية .

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصيب من الثروة
النامية . فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالمنافسة
المواسعة النطاق ، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر
الضئيل الذى أكرههم خوف التعطل على قبوله . فلنستمع الى ما يقوله
العلامة الرفيع المقام تريفليان :

« كان الثمن الاجتماعى الذى دفع نظير الكسب الاقتصادى هو
تناقص عدد الزراع المستقلين ، وازدياد عدد العمال الذين لا يملكون
أرضا ، وكان هذا الى حد كبير شرا لا بد منه ، ولو وزع الربح الزائد
الذى حققته دنيا الزراعة توزيعا عادلا لخف الضرر . ولكن بينما ارتفع
ايجار المالك ، وعشور القسيس ، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعا
سريعا ، فان فاعل الحقل ، الذى حرم حقوقه الصغيرة فى الأرض المشاع
وحقوق أسرته بتشغيلها فى الصناعة الى جانب الزراعة ، لم يجز الجزاء
الواجب بأجر أعلى ، وكثيرا ما انحدر فى المقاطعات الجنوبية الى درك
التبعية والفاقة (٦) » .

ومما خفف الى حد ما من التركيز الطبيعى للثروة دفع الضرائب
والاحسان المنتظم . ذلك أن أغنياء الانجليز ، بعكس النبلاء الفرنسيين
كانوا يدفعون النصيب الاكبر من الضرائب التى أعالت الحكومة . فقد
الزمت « قوانين اعانة الفقراء » التى بدأت فى ١٥٣٦ كل أبرشية بانقاذ
الأشخاص الذين فى خطر الموت جوعا . وكان المتعطلون من القادرين
صحيا يرسلون الى الاصلاحيات ، والعجزة الى الملاجىء ، والأطفال
يشغلون صبيانا لمن يرغبون فى ايوائهم واطعامهم لقاء خدماتهم . وكانت
نفقات هذا النظام تؤدى من ضريبة تفرض على أسر الأبرشية . وقد ذكرت
لجنة برلمانية فى تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال
المولودين فى الاصلاحيات ، أو الذين استقبلتهم فى حداثة سنهم ، فى
الأعوام ١٧٦٣ - ٦٥ ، الا سبعة فى المائة فى ١٧٦٦ (٧) . حقا لقد كان
قرنا قاسيا .

ب - الصناعة

عطل البيت الريفى المكتفى بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

سواء كان هذا التعطيل خيرا أو شرا . فلم يمول الرجل حديث العهد برأس المال مصنعا ما دام فى قدرته أن يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج نه تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الأوتوماتى ؟ لقد أنتجت هذه الصناعة البيتية فى قسم « وست رايدنج » ببوركشير ١٠٠ر٠٠٠ قطعة قماش للسوق فى ١٧٤٠ ، و ١٤٠ر٠٠٠ قطعة فى ١٧٥٠ ، وإلى عام ١٨٥٦ لم يرد من المصانع سوى نصف انتاج الصوف ، أما النصف الثانى فحل يرد من البيوت (٨) . على أن تلك البيوت الشاغية بالحرثة كانت فى ألوانع مصانع وليدة ، قرب البيت يدعو الخدم والغرباء لينساركوا فى العمل ، والحجرات الاضافية تجهز بدواليب الغزل وأنوال النسيج . فلما ازداد حجم تلك العمليات البيتية واتسعت السوق بفضل الطرق المحسنة والسيطرة على البحار ، خلقت الصناعة البيتية ذاتها الطلب على آلات أفضل . وكانت الاختراعات الأولى أدوات أكثر منها مكنة . وكان فى الامكان تركيبها فى المنزل ، مثل مكوك « كى » الطائر ، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية الا حين صنع المخترعون آلات تتطلب القسوة الميكانيكية .

وكان الانتقال تدريجيا ، فقد اقتضى قرنا تقريبا (١٧٣٠ - ١٨٣٠) ، وربما كانت كلمة « ثورة » لفظا أعنف مما يحتمله تغيير بطيء كهذا . ولم يكن الانتفاض على الماضي جامدا بالدرجة التى رُحبت بها فى الماضي النزعة الروائية فى كتابة التاريخ ، فالصناعة القديمة قدم الحضارة ، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر ، وكانت المصانع فى فلورنسة على عهد دانتي كثيرة كثرة الشعراء ، والرأسماليون فى هولنده أيام رمبرانت كثيرين كثرة المصورين . ولكن التغيير الصناعى الذى طرا فى القرنين الأخيرين (١٧٦٠ - ١٩٦٠) اذا نظرنا اليه فى مراحل المتصاعدة ، من البخار الى الكهرباء الى النفط الى الالكترونيات والطاقة الذرية ، بالقياس الى معدل التغيير الاقتصادى فى أوربا قبل كولبس - هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييرا أساسيا ، بل غيرت كذلك السياسة والعادات والأخلاق والدين والفلسفة والفن .

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعى . فالحروب التى أعقبت سقوط وزارة ولبسول (١٧٤٣) حثت على زيادة سرعة

الانتاج والتوزيع . ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقا داخلية متضخمة للزراعة والصناعة ، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق أفضل . وقد تطلبت الآلات المهارات ، مما أفضى الى تخصص وتقسيم للعمل نهضا بالقوة الانتاجية . وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين الى انجلترا ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا اليها حرفهم ، ومخترع أول آلة للنسيج (١٧٣٨) كان سليلا للهيجونوت . وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت - أى الشيت - الصادر فى ١٧٢١ ، والذي حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفضل فى الحد من المنافسة الاجنبية ، واثاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الانجليزية على السوق الداخلية ، فى حين أعان نفوذ التجار المتزايد فى التشريع على توسيع الاقتصاد البريطانى . وشجعت التقاليد البيورتانية - التى سئدعما بعد قليل حركة المثوديين - فضائل الجد والاقدام والاقتصاد فى الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال ، وأجيز الاثراء ، وبدا أن الله اختص البورجوازية بنعمته .

واتاح تطوير التعدين فى الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقودا للصناعة . وكان الخشب الى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر ، ولكن الغابات كانت تقتضاعل حتى أوشكت على الانقراض ، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفت انجلترا الوسيطة ، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر (٩) . واقتضى الحال استيراد الخشب من اسكندناوة أو أمريكا ، وكان يكلف أكثر فاكثرا ، وظهر الطلب على وقود أرخص . ولكن تعدين الفحم كان لايزال عملية بدائية ، وكانت المناجم ضحلة ، والتهوية رديئة ، والميثان وغاز الكربون يخنقان المعدنين ، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافرى ونيوكومن البخارية . والواقع أن هذه المشكلة كانت أكبر حافز لتطوير هذه الآلات . على أن انتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات ، فما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان الفحم الذى يشعل فى البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (١٠) .

كانت أهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص فى استعماله :

لتنقية خام الحديد ليصبح حديدا أصفى وأقوى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به . والتنقية استلزمت الصهر ، الذى استلزم درجة عالية من الحرارة ؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتج بأشغال الفحم النباتى (وهو الخشب المتفحم) فى أفران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء ؛ ولكن الفحم النباتى أصبح الآن أغلى ثمنا بسبب تناقص موارد الخشب . وفى ١٦١٢ أشار سيمون ستورتنفانت باستخدام الفحم الحجري وقودا صاهرا . وزعم « دد » ددلى (أى الفاشل) فى ١٦١٩ أنه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوسائل الى النصف ، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتى تضافروا لاقصائه عن هذه الصناعة . وأخيرا (حوالى ١٧٠٩) وفق أبراهام داربى الأول ، الذى استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير ، فى صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة ، وذلك بتسخينه بفحم الكوك - أى الفحم المحرق بقدر يكفى لتخليصه من عناصره الطيارة . أما الكوك فكان معروفا منذ عام ١٥٩٠ . وطور أبراهام داربى الثانى استعمال الفحم أو الكوك فى الصهر ، وحسن الأفران العالية بمنفاخ يشغله دولاب مائى ، وسرعان ما استطاع أن يفوق فى مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد فى إنجلترا وفى ١٧٢٨ أنشئ أول مصنع انجليزى للحديد لتمرير الحديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لإخراج الأشكال المطلوبة . وفى ١٧٤٠ اخترع بنيامين هنتسمان طريقة البوتقة التى كان ينتج بها الصلب العالى الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته فى قدور من الفخار . هذه التطورات فى المزاوجة بين الفحم والحديد هى التى يسرت اختراع آلات الثورة الصناعية .

ج - الاختراع

لم يشهد النصف الأول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للأنظار فى سرعة الاختراع بالقياس الى القرنين السابقين ، وقد نحتاج الى نصف مجلد لنعدد الاختراعات التى ورثها هذا العصر من سابقه . مثال ذلك أن الساعة الكبيرة ، التى لا غنى عنها فى العلم والصناعة والملاحة ، أبلغت مرتبة الكمال تقريبا فى القرن السابع عشر ، وبحلول عام ١٧٥٨ وصلت الى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

يوم) لم تتجاوز الا فى ١٨٧٧ (١١) . وكان العمال أنفسهم يثبطون المخترعات ، وان كانوا فى كثير من الاحيان مصدرها ، خشية أن تهددهم بالتعطيل التكنولوجى ، وهكذا فرض عدااء العمال هجر أول منشرة خشب انجليزية (١٦٦٣) ، ولم تجدد المحاولة بنجاح الا سنة ١٧٦٧ . وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعى ، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الانتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق . على أن النقل البحرى كان آخذا فى التحسن ، وكانت المستعمرات ، التى غلبت عليها الزراعة ، تتهافت على طلب المنتجات المصنوعة ، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع . وقد أعان عليه دافع الربح ، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة . وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية فى تجارة الصادر ، فحثت منسوجات الهند ، التى أنتجتها عمال مهرة مذخضو الأجور أصحاب المصانع الانجليز على الاقتصاد فى الانتاج باستعمال الأجهزة المكنية المحسنة . فصناعة النسيج اذن هى التى افتتح الاختراع فى ميدانها ذلك التغيير العظيم .

كان « المكوك الطائر » الذى ابتكره جسون كى (١٧٣٣) أول اختراع بارز فى انتاج المنسوجات ، ولنا أن نعتبر هذا التاريخ بداية للثورة الصناعية . فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدودا بطول ذراعى النسيج باستثناءات صغيرة - اذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الأداة التى تمرر خيوط اللحام خلال خيوط السدى) من أحد جانبيه النول بيد ، ويلقفه باليد الأخرى فى الجانب المقابل . ورتب كى جهازا من العجلات ، والمطارق ، والعصى ، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين الى وقفة أوتوماتيكية عند أى عرض محدد سلفا ، مما ينجم عنه وفر كبير فى الوقت . فلما حاول تركيب اختراعه فى مصنع بكونتشترا اتهمه النساجون بأنه يحاول حرمانهم من قوتهم اليومى . ففر الى ليدز (١٧٣٨) وعرض اختراعه المسجل على أصحاب مصانع القماش لقاء رسم ، فآخذوا اختراعه ، ولكنهم قبضوا عنه اتاوته ، فرفع أمره الى القضاء ، واستنزفت مصاريف التقاضى كل ماله . فذهب الى وطنه فى برى ، ولكن الأهالى هاجبوا عليه هناك (١٧٥٣) ، ونهبوا بيته ، وهددوه بالقتل . غير أن امرأة رحبت بآلته فى حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية « حسنا ، حسنا ،

ان أعمال الله عجيبة ، ولكن حيل الانسان تغلبه تعالى في النهاية (١٢) «
ووجد كى قبولا أكثر في فرنسا ، التي تبذت حكومتها اختراعه وكافاته
بمعاش . ولم يتغلب المكوك الطائر على كل معارضة ويعم استعماله
الا عام ١٧٦٠ .

وعطل صناعة النسيج أن النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط
بأسرع مما يستطيع الغزالون غزلها وامدادهم بها . وكان الغزل الى
سنة ١٧٣٨ غزلا يدويا ، على دواليب مازالت تجميل البيوت التي تجمد
الماضي . في ذلك العام سجل لويس بول ، وهو ابن مهاجر هيجونوتي ،
آلة غزل يبدو أنها مبنية على أسس اقترحها جون فيات ، وهي مجموعة
من البكر تسحب للخارج حبال القطن أو الصوف المشدودة لتصبح خيوطا
بأى رفع مطلوب ، وتغزلها على مغازل ، وذلك كله بأقل جهد . وباع
بول وفيات براءة الاختراع الى ادورد كيف ، صديق الدكتور جونسون ،
واقام كيف خمس آلات بمصنع نورثامبتن في ١٧٤٢ - وهو الأول في
سلسلة طويلة من مصانع الغزل في انجلترا القديمة والجديدة .

اما وقد تيسر الآن علاج الحديد لصنع الآلات القوية ، وتطلبت
الأحوال الاقتصادية الانتاج الواسع النطاق ، فقد بقيت مشكلة العثور
على قوة ميكانيكية يستعاض بها ، بثمن رخيص ، عن عضلات الرجال
وصبر النساء . واقدام الحلول استخدم القوة المائية . ففي مائة قطر كان
الدولاب المائى العنليم ، الذي يدور على مهل مع جريان الأنهار ، يسير
منذ زمن سحق المضخات ، والمنافخ ، والبكر ، والمطارق ، لا بل
الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام ١٥٠٠ . وظل المصدر الأهم للطاقة
الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر . وقد عاش الى القرن العشرين ،
وما التركيبات الهيدروليكية في زماننا سوى قوة مائية حولت الى كهرباء
قابلة للنقل . ولا يمكن الركون الى القوة المحركة للرياح بهذا القدر ،
ولم ينتفع بها الا انتفاعا قليلا نسبيا في بلاد الجنوب الهادئة الريح ،
ولكن في العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية في ادارة طواحين
هواء توجه « قلوها » الى « عين الريح » بونش في أسفلها يدار
باليد . وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة ، التي لا يركن اليها ، أوجها في
الأقاليم المتحدة في القرن الثامن عشر ، ثم بدأت اضمحلالها الرائع .

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبلغوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية . وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطا طويلا ، من أبواب ولعب « هيرو » التى يشغلها البخار فى القرن الثالث الميلادى ، مرورا بجيرون كاردان (١٥٥٠) ، وجامباتستا ديلابورتا (١٦٠١) ، وسالمون دى كاوس (١٦١٥) ، وجوفانى برانكا (١٦٢٩) ، ومركيز ورستور (١٦٦٣) ، وصموئيل مورلاند (١٦٧٥) وكريستيان هويجنز (١٦٨٠) ، ودنى بابان (١٦٨١) ، وتوماس سافرى (١٦٩٨) ، الى آلة توماس نيوكومن البخارية فى ١٧١٢ ؛ تلك قصة رويت ألف مرة . وهنا أيضا ، أى فى عام ١٧١٢ ، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية ، لأن آلة نيوكومن « النارية » كانت مجهزة بمكبس ، وذراع متذبذب ، وصمام أمن ، واستخدمت بنجاح فى نزح الماء فى المناجم العميقة . وقد ظلت النموذج الأساسى للطللمبات مدى ثلاثة أرباع القرن .

د - رأس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجما وتكلفة ، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية ، وجد نفر من المغامرين أنه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة فى البيوت مصانع تجمع الرجال النساء فى أبنية يحسن اختيار مواقعها قرب أنهار توفر الطاقة والنقل معا . والمصانع ، كما سلف ، لم تكن بدعا ، فقد كان منها مئات فى انجلترا اليزابيث وفرنسة كولبير . غير أن « نظام » المصانع - اذا عرفناه بأنه اقتصاد صناعى يتم فيه الانتاج بصفة رئيسية فى مصانع - لم يكد يوجد فى أى مكان قبل القرن التاسع عشر . ولكن بعد اختراعات كى وبول بدأت مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذى كان يتم فى البيوت ، وفى ١٧١٧ أنشأ توماس لوم فى داربى مصنع نسيج طوله ٦٦٠ قدما ، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على ٢٦٠٠٠ دولاب . وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة فى ستوكبورت ، وليك ، وبرمنجهام ، وليومنستر ، ونورثامتن .

وشراء الآلات واياؤها ، والحصول على الخامات ، واستئجار العمال والادارة ، ونقل الناتج وتسويقه ، كل هذا يتطلب رأس المال . كذلك كان الرأسمالى - مقدم رأس المال أو مديره - ظاهرة قديمة ، ولكن بزيادة الطلب على رأس المال ازدادت الأهمية الاقتصادية والقوة السياسية

للرجال الراغبين فى المخاطرة بتقديمه . وقاومت الطوائف الحرفية ، التى كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الاوربية ، التنظيم الرأسمالى للانتاج والتوزيع . ولكن نظام الطوائف الحرفية بنى على الحرف اليدوية لا الآلات ، وقد هبىء لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلا عن السوق الدولية ، ولم يستطع تلبية المطالب المتزايدة للجيش ، والمدن ، والمستعمرات ، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية ، وأخذ ينحدر الى درك « الشلل » من معلمى الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية . وكان الرأسمالى أقدر على تنظيم الانتاج الكبير والتوزيع البعيد ؛ فلقد كان عليما بذلك الفن البالغ الرهافة ، فن جعل المال يلد المال ؛ وظاهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب .

وبانتشار المصانع والرأسمالية تغيرت علاقة العامل بعمله . فلم يعد يملك أدوات حرفية ، ولا يحدد ساعات كده وظروفه . ولم يكن له غير نصيب صغير فى تقرير معدل اجوره او نوعية ناتجه . ولم يعد حانوته مدخلا الى بيته ، ولا صناعته جزءا من حياته الأسرية . ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة فى جميع مراحلها ، بل أصبح بحكم تقسيم العمل - الذى سيعجب آدم سميث كثيرا - التكرار اللا شخصي ، الممل ، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتفننه ؛ انه لم يعد صانعا ماهرا ، بل « يدا » أجيرة . وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة . فإذا كان عاملا فى منجم فمتوسط أجره شلن وستة بنسات فى اليوم ، وإذا كان فاعلا فى البناء تقاضى شلنين ، وسمكيا ثلاثة شلنات ، وقد اختلفت هذه المعدلات اختلافا يسيرا بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٧٠ (١٣) . وكان النسيج يتقاضى حوالى سنة ١٧٥٠ ستة شلنات فى الاسبوع ، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات ، والطفل شلنين وستة بنسات . أما النساء الغزالات فمن شلنين الى خمسة فى الاسبوع ، وأما البنات من السادسة الى الثانية عشرة فشلن الى شلن ونصف (١٤) . على أن الأسعار كانت منخفضة ، وظلت ثابتة حتى ١٧٦٠ (١٥) . وكان يضاف الى هذه الأجور أحيانا علاوة للخبز والجمعة أثناء العمل ، وكان معظم عمال المناجم يعطون الفحم مجانا .

وكانت حجة أصحاب العمل أن عمالهم لا يستحقون أكثر من هذه الأجور ، لأنهم أدمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور . وزعم أحدهم (١٧٣٩) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين « أن تفرض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذى يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة (١٦) » . وقال كاتب فى ١٧١٤ « ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة ، وهذه حال من الحكمة تخفيفها ، ولكن من حماقة شفاؤها (١٧) » أما يوم العمل العادى فيمتد من احدى عشرة ساعة الى ثلاث عشرة ، ستة أيام فى الأسبوع ، ويهون من طول هذه الفترة ساعة ونصف لتناول الوجبات ، ولكن المتباطئين بلا مبرر فى تناولها يفقدون ربع اجر اليوم (١٨) . وشكا أصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلفوا الى المهرجانات ، أو مباريات الملاكمة التكبسية ، أو مشاهد الشنق ، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء . ورغبة فى حماية أنفسهم من هذه المخالفات وأشباهها كان أصحاب العمل يحبون أن يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين فى المنطقة ، يستطيعون أن يعتمدوا عليه فى الطوارئ أو أوقات الطلب المتزايد (١٩) . فاذا كسدت الأحوال كان فى الامكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين .

ونشأت فى المدن ببطء برولتاريا تابعة . وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضى قانون قديم أصدره أدورد السادس ، فجدد البرلمان هذا الحظر فى ١٧٢٠ . ولكن عمال اليومية مضوا فى تنظيم انفسهم ، ولجأوا الى البرلمان لتحسين أجورهم ، وأصبحت اتحادات هؤلاء العمال - لا الطوائف الحرفية - هى الرائدة لحركة النقابات العمالية التى تشكلت فى انجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر . وفى ١٧٥٦ ، بناء على التماس من عمال النسيج فى جلوسترشير ، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الأدنى القانونى للأجر ، ويمنع تخفيض الأجور فى الصناعة ، ولكن هذا الأمر سحب بعد عام ، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجور للعرض والطلب على العمل (٢٠) . لقد بدأ عهد « المشروع الحر » وسياسة « عدم

التدخل "Laissez - Faire"

هـ - النقل والتجارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات فى المواصلات والنقل . وكانت إنجلترا تتمتع بميزة ساحلها البحرى وأنهارها ، وكان نصف السكان يعيشون على أبعاد معقولة من البحر ، ويستطيعون استخدامه فى نقل السلع ؛ وتغلغلت الانهار مسافات بعيدة فى الداخل ، فاتاحت بذلك طرقا مائية طبيعية . ولكن حال الطرق الانجليزية كانت دائما قذى فى عين الحياة الانجليزية . فتربة هذه الطرق لينة ، وإخاديدها صلبة يغمرها الماء ، وكثير منها حولته أمطار الربيع أو الصيف الى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيرا بحيث اقتضى اخراج المركبات من فوقها استخدام أعداد اضافية من الخيل أو الثيران ، وكان على المسافرين على الأقدام أن ينحولوا الى الحقول أو الغابات القريبة . ولم تتكفل الحكومة ، لأغراض حربية ، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية « صالحة لمرور الجنود والخيل والمركبات على مدار السنة (٢١) » (١٧٥١) الا بعد أن قاد « الأمير تشارلى الجميل » رجاله الاسكتلنديين الثائرين وأوغل جنوبا حتى داربى فى ١٧٤٥ ، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده . ومع ذلك ظل اللصوص يعيشون فسادا فى الطرق ، وكانت تكاليف النقل غالية .

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل أو فى مركباتهم الخاصة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان فى امكانهم استئجار الخيل الجديدة فى نقط أو مواقع على الطريق Posts فى الرحلات الطويلة ، وانتشرت هذه البيوت Post - houses فى جميع أرجاء أوروبا الغربية . ثم استخدمت كاحة « بوست » (البوسطة) للدلالة على نقل البريد ، لأنه فى مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد أو تسلمه وتغيير الخيل ؛ وبفضل هذا النظام أمكنهم أن يقطعوا ١٢٠ ميلا فى اليوم . ومع ذلك كتب تشستر فيلد (١٧٤٩) يشكو الحال « أن رسائلنا على أحسن تقدير تنقل نقلا مضطربا ، وكثيرا ما تضيع تماما (٢٢) » . وذهب الى أن من « السرعة غير المألوفة » أن يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل الى لندن . وكان أكثر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان أو أربعة ولها سائق وحارس

مسلح خارجها ، وبداخلها ستة ركاب يترنحون . وكانت المركبات تغادر لندن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة في الاسبوع قاصدة كبريات مدن جنوبى انجلترا ، ومعدل سرعتها سبعة أميال فى الساعة ، ورحلتها من لندن الى نيوكاسل تستغرق ستة أيام .

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوفة بدائية على نحو جدير بالتصوير . فكان تاجر الجملة يرافق عادة جياذ الحمل التى تنقل بضاعته من بلد الى بلد ، والباعة الجوالون يسرحون بسلعهم من بيت الى بيت . أما الحوانيت فتميز عن البيوت بعلامات أهمها اللافتات الحافلة بالألوان ، وتحفظ السلع بداخلها ، وليس هناك عادة « أى عرض فى الفترينات » . وكل متجر تقريبا متجر عام لمختلف السلع ، مثال ذلك أن « الخردجى » كان يبيع الثياب ، والعقاقير ، والمصنوعات الحديدية ، والبداى سعى باسم grocer لأنه يبيع بالجملة . gross ؛ فالبدال هنرى كوارد مثلا كان يبيع كل شىء من السكر الى المسامير . وكان لكل مدينة يوم سوق يعرض فيه التجار - اذا سمح الجو - عينات من بضائعهم . ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الاسواق السنوية التى تنعقد فى لندن ، ولين ، وبوسطن ، وجينزبورو ، وبفرلى ، وأهم منها كلها ستوربريدج . فى هذه الاسواق ، فى أغسطس وسبتمبر من كل عام ، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها ومحاكمها ، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الانجليزية تقريبا ، ويلتقى فيها رجال الصناعة من جميع أرجاء الجزيرة ليتبادلوا الحديث عن الأسعار والنوعيات والكوارث .

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها الى التوسع لأن بريطانيا تسلطت على البحار . وزادت الصادرات الى أكثر من مثليها قيمة وكمية فى النصف الأول من القرن ، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغور الانجليزية من ٣١٧ر٠٠٠ طن فى عام ١٧٠٠ الى ٦٦١ر٠٠٠ فى عام ١٧٥١ الى ١ر٤٠٥ر٠٠٠ فى عام ١٧٨٧ (٢٣) . وضاعفت لفربول حجمها وأرصفتها كل عشرين سنة . واقبلت الواردات من عشرات الأقطار لتداعب أحلام الأغنياء أو بطونهم ، أو تزين تسريحات كرائم السيدات بالعطور ومساحيق التجميل التى تخلب الألباب . وبلغت

أرباح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة في الهند ، وبيعها غالية في أوروبا ، حدا أتاح لها أن تغرى بالانضمام الى مساهميتها خمسة عشر دوقا أو ايرلا ، واثنى عشرة كونتيسة ، واثنين وثمانين فارسا ، وستة وعشرين قسا وطبيبا (٢٤) . ولم تنظر الطبقة الأرستقراطية في إنجلترا الى التجارة نظرة ستعلاء والازدراء كما فعلت في فرنسا ، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت في رخائها . وقد أبهج رجلا من الطبقة الوسطى كفولتير أن يجد نبلاء الانجليز يهتمون اهتماما نشيطا بالتجارة . قال موجهها حديثه الى فرنسا في ١٧٣٤ « ان لولع الانجليز بالتجارة وحده الفضل في أن بزت لندن باريس حجما وسكانا ، وفي أن إنجلترا استطاعت أن تملك مائتى بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها (٢٥) » .

وأصبح كبار التجار ينافسون الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراء وسلطانا ، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية ، ويثيرون ويمولون الحروب ، في سبيل الاسواق والموارد والطرق التجارية . وسيطر القائمون على التجارة الانجليزية في السكر ، والتبغ ، والعبيد ، على حياة برستول ، وحكم اصحاب السفن لفربول ، وساد اصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل . وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب ٥٠٠٠٠ سهم في شركة الهند الشرقية ، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحداائقه في وانستد من أشهر مشاهد إنجلترا . كتب هيوم في ١٧٤٨ يقول « في معظم اقطار أوروبا ترى املاك الأسرة - أي الاملاك الوراثية - التي تميزها الألقاب والشارات التي يخلعها عليها الملك ، هي أهم أسباب التمايز . أما في إنجلترا فان الاعتبار الأكبر للثراء الراهن (٢٦) » . وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى ، فتزوجت بنات التجار الأغنياء بابناء النبلاء ملاك الأرض ، واشترى أبناء التجار ضياعا من الأرستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميادين التجارة والقضاء والادارة . لقد كانت الأرستقراطية تتحول الى بلوتوقراطية (أي حكومة الاغنياء) ، والمال يحل محل النسب سبيلا شرعيا الى السلطان .

و - المال

كان المصرفيون الاوربيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

تقريبا ، يتسلمون الودائع ، ويحمونها من الحريق والسرقة ، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد الى حساب الآخر ، ويصدرون أوراق النقد التي يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب . واذ لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال في وقت واحد ، فقد كان في استطاعة المصارف أن تصدر أوراقا بلغت من خمسة الى عشرة أضعاف قيمة احتياطياتها المشتركة . وأتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال اضافيا للمشروعات التجارية ، وشارك في توسيع الاقتصاد الأوربي . وحفز المصرفيون الصناعة باقراض النقود بضمان الأرض أو المبنى أو المواد ، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما . ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفي حتى عبر حدود معادية .

وتألفت في انجلترا شركات محاصة كما حدث في هولنده وايطاليا وفرنسا . ونظم مؤسسوها ، الذين كانوا وقتها يسمون « أصحاب المشروعات » الاتحادات الصناعية أو التجارية ، وأصدروا أسهما ، ووعدوا بدفع أرباحها ، وأمكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص الى آخر ، ولهذا الغرض أسست في لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) في ١٦٩٨ . وشهد مطلع القرن الثامن عشر نموا سريعا في المضاربة بأسهم الشركات ، وسמاسة للأوراق المالية يتلاعبون في أسعار السوق رفعا وخفضا . وقد وصف ديقو في ١٧١٩ واحدا من هؤلاء المتلاعبين فقال :

« لو خطر للسير جوسيا تشايلد أن يشتري ، فإن أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بأن يتكلفوا العبوس والتجهم ، ويهزوا رموسهم ، ويلمحوا بأن هناك أخبارا سيئة من الهند . . وربما باعوا فعلا بعشرة آلاف أو ربما بعشرين ألف جنيه . وللتو ترى السوق . . وقد امتلأت بالبائعين ، ولا أحد يشتري ولو بشلن ، حتى تهبط الأسهم ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة في المائة ، وأحيانا أكثر . هنا يكون لدى السماسر الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه . . في الشراء ، ولكن في ٦ - قصة الحضارة

تكتتم وتحوط ، حتى يشتري - بعد أن باع بعشرة آلاف جنيه بخسارة أربعة أو خمسة في المائة - أسهما بمائة ألف جنيه ، بأقل من السعر بعشرة أو اثنتى عشرة في المائة . وفى ظرف أسابيع ، بعكس هذه الطريقة لا أكثر ، يدفعهم جميعا للتهافت على الشراء ، فيبيعهم أسهمهم ثانية بربح يبلغ عشرة أو اثنتى عشرة في المائة (٢٧) « .

ولم تكد تفتتح أسواق الأوراق المالية ، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش . وقد جاء تضخم « فقاعة » بحر الجنوب (أى مشروعه الوهمى) فى انجلترا ، ثم انهيار المشروع تاليا ، فى اتفاق غير عادى ، لظهور وسقوط « فقاعة المسبى » وصاحبها جون لو فى فرنسا . ذلك أن الحكومة الانجليزية ، التى تأثرت بشكاوى بولنبروك ، وسويفت ، وغيرهما من أن الدين القومى - البالغ ٥٢٠٠٠ر٠٠٠ جنيه فى عام ١٧١٤ - يفرض على الدولة عبئا سنويا مدمرا قدره ٣٠٠ر٠٠٠ جنيه من الفائدة - فكرت فى خطة لتحويل ٣١٠٠٠ر٠٠٠ جنيه من الدين الى شركة بحر الجنوب . وكانت الشركة قد أسست فى ١٧١١ بمنحها احتكارا للتجارة الانجليزية مع المستعمرات الأسبانية فى أمريكا وجزر المحيط الهادى . ودعى حملة الأوراق الحكومية ليستبدلوا بها أسهما فى الشركة ، وأصبح الملك جورج الأول « محافظا » لها ، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بأن مرسوم احتكارها يعد بأرباح عالية . وسرت العدوى من النجاح الظاهرى لنظام لو فى فرنسا المعاصرة الى انجلترا ، فاعتقرتها حمى مضاربة مماثلة . وما مضت ستة أيام على عرض الشركة قبولها الأوراق الحكومية ثمنا لأسهمها حتى قبل الاقتراح ثلثا حملة الأوراق واشتري كثيرون غيرهم أسهما ارتفعت فى ظرف شهر واحد من ٧٧ جنيها إلى ١٢٣ر٥ (١٧١٩) . ولكى يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومى قرروا تقديم هدايا سخية من الأسهم لأعضاء الوزارة ولانثنين من خليات الملك (٢٨) . وقد حذر روبرت ولبول ، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد ، مجلس العموم من المشروع لأنه « مضاربة ... مؤذية » ، وقال أن المشروع يستهدف رفع قيمة الاسهم رفعا مفتعلا باثارة تهافت الناس عليها والابقاء عليه ، وبالوعد بأرباح من أموال لن تفى بالعرض ، وتنبا ، فى دقة عجيبة ، بأن المشروع سيفشل ، وأنه لو ترك

ليورط جماهير الشعب لجر فشله سخطا شاملا وخطرا (٢٩) . وقال انه ينبغي وضع حد ما على الأقل لارتفاع أسهم الشركة . ولكن مجلس العموم أبى الاستماع الى تحذيره . وفي ٧ أبريل ١٧٢٠ وافق كلا مجلسي البرلمان على اقتراحات الشركة .

وفي ١٢ أبريل أصدرت الشركة أسهما جديدة بسعر ٣٠٠ جنيه للسهم ، فتم الاكتتاب فيها على الفور . وفي ٢١ أبريل أعلنت ، وهي منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الأوراق الحكومية التي أصبحت الآن ملكا للشركة ، أنها ستدفع أرباحا صغيرة تبلغ عشرة في المائة ، واستغلت الحماسة التي أثارها هذا الاعلان لطرح اصدار آخر من الاسهم بسعر ٤٠٠ جنيه (٢٣ أبريل) . قلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه . ورفع التهافت على شراء الاسهم ثمنها الى ٥٥٠ جنيها في ٢٨ مايو ، والى ٨٩٠ جنيها في ٢ يونيو ، وفي يوليو بيع اصدار جديد بسعر ١٠٠٠ ر جنيه للسهم . وتهافت المجتمع الراقى كله على الاكتتاب . الادواق والقساوسة والسياسيون والموسيقيون والشعراء ، فأصبح شارع البورصة مشهدا لمنافسة هائجة مائجة على الشراء لم ير لها نظير الا في شارع كانكبوا بباريس في الفترة ذاتها تقريبا ؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود . وكان الناس يعقدون صفقات الاسهم في الحانات ، ومشارب القهوة ، ودكاكين صانعات القبعات ، وفي كل ليلة يحسب الرجال والنساء أي ثراء أصابوا ، وما كان يمكن أن يصيبوا من مزيد لو أنهم اشتروا في تاريخ سابق ، أو قدرا أكبر من الاسهم .

وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغا أغرى الشركة بطرح اصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين اصدارا . وبيعت أسهم اصدارتها شركات انشئت لتحويل المعادن الى فضة ، ولتشبيد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين ، ولإستخراج الزيت من الفجل ، ولاحداث الحركة الدائمة ، ولإستيراد الحمير من إسبانيا . وأعلن مؤسس عن « شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع ، ولكن أحدا لن يعرف كنهه » الا فيما بعد ، فتلقى ألف اكتتاب كل منها بجنيهن قبل أن ينتصف النهار ، ثم اختفى بعد الظهر (٣٠) .

وكان شطط بعض هذه « الفقاعات » الصغرى (وهو الوصف الذى وصفهم به ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجنوب . وجدد ولبول وغيره تحذيراتهم وباعوا أسهمهم . وفى ١١ يونيو حرم الملك جميع اصدارات الأسهم الا للشركات التى رخص لها البرلمان بذلك . وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى ، فهدأ فشلها من حمى المضاربة . وانتشرت شائعة بأن الحكومة الاسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة فى المستعمرات الامريكية تضيقا شديدا . وفى يوليو وصل نبأ بأن مشروع لو أو « فقاعة المسبى » قد انفجرت فى باريس . وباع السير جون بلاونت وغيره من مديري شركة بحر الجنوب أسهمهم سرا بربح كبير . وخلال أغسطس كله توالى هبوط الأسهم حتى اذا جاء ٢ سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمائة جنيه .

هنا استحال التهافت على البيع ضربا من الهلع والذعر الجماعى ، فازدحمت مداخل شارع البورصة ازدحاما خانقا . وهبطت الأسهم الى ٥٧٠ جنيها ، ثم الى ٤٠٠ جنيه ، ثم الى ١٥٠ جنيها ، ثم الى ١٣٥ جنيها (٢٩ سبتمبر) . وخسرت مئات الأسر الانجليزية مدخراتها فى هذا الانهيار . وسرت بين الناس قصص الافلاس والانتحار (٣١) . وأفلست المصارف التى كانت قد أقرضت المال بضمان شهادات أسهم شركة بحر الجنوب . وطالبت الاجتماعات العامة فى جميع أرجاء انجلترا بعقاب المديرين ، ولكنها غفرت للجمهور غروره وجشعه . وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمان للانعقاد . وفر أمين صندوق الشركة الى فرنسا مصطحبا الكثير من السجلات التى كانت ستدين المديرين . وفى يناير ١٧٢١ وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة ، « صورة للظلم والفساد (٣٢) » مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، حين كان التشريع عن طريق افساد البرلمان كانه جزء من دستور انجلترا . والظاهر ان المديرين كانوا قد اتفقوا ٥٧٤,٠٠٠ جنيه فى رشوة كبار رجال الحكومة .

وطالب بعض أعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة ، واقترح احدهم بان يخاطب المديرون المذنبون فى زكية ويلقوا أحياء فى التيمز (٣٣) . وحمى وطيس الجدل حتى تحدى الأعضاء بعضهم بعضا للمبارزة ،

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات فى الغد . ودعى المديروى
ووزراء الحكومة الى المحاكمة أمام المجلس . فحكم على جون ايزلابى ،
وزير الخزانة ، بالسجن فى برج لندن ، وصودرت ممتلكات المديرين -
منهم ادورد جبون ، جد المورخ - فلم يترك لهم سوى عشرة فى المائة
من ثروتهم . ولوحظ أن السير جون بلاونت ، الذى كان من أوائل
منظمى الشركة ، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم ، كان رجلا « ذا
مسلك غاية فى التقوى » وكان « دائما يهاجم ما يشين العصر من سرقة
وفساد » ويندد بجشع الأغنياء (٣٤) .

أما روبرت ولبول الذى برر الحدث تنبوءاته ، فقد أشار بالاعتدال
فى روح الثأر الذى اتسم به رد الفعل ، وخفف من انهيار الشركة باقناع
مصرف انجلترا وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو ١٨٠٠٠٠٠٠
جنيه من الأسهم الخاسرة . وقد وجد فى شركة بحر الجنوب من
الاحتياطات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين فى المائة لحملة أسهمها فى
وقت مبكر . وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها ، ولكنها كانت
تكسب من بيع العبيد ، فظلت على قيد الحياة ، فى حيوية هابطة
حتى عام ١٨٥٣ .

٢ - مظاهر الحياة فى لندن

يندر الإحصائيون التجرباء سكان أوروبا بنحو ١٠٠ مليون نسمة
فى ١٦٥٠ ، و ١٤٠ فى ١٧٥٠ . وقد قدر فولتير فى ١٧٥٠ سكان
فرنسا بعشرين مليوناً ، وألمانيا والنمسا باثنين وعشرين ، وبريطانيا
العظمى وأيرلنده بعشرة ، وروسيا الاوربية بعشرة ، وأسبانيا والبرتغال
بثمانية ، وبولنده بستة ، وخص كلا من تركيا أوروبا ، والسويد ،
والدنمرك (مضافا اليها النرويج) والاقاليم المتحدة ، بثلاثة
ملايين (٣٥) . وذهب قانونى ألمانى الى أن الزيادة فى سكان شمالى
أوروبا مردها الى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة
الى الأبوة والامومة نتيجة لحركة الاصلاح البروتستنتى ، وحض على
« اقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الانسانى » (٣٦) . ولكن
علينا ألا نغالى فى عفة رهبان العصر الوسيط . واغلب الظن أن زيادة

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التى زادت من كميات الطعام وتوزيعه ، وخطوات النهوض بالصحة العامة والعلاج الطبى التى خفضت نسبة الوفيات فى الاطفال والبالغين . ويبدو أن سكان انجلترا وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين فى ١٥٠٠ ، بلغوا أربعة فى ١٦٠٠ وستة فى ١٧٠٠ ، وتسعة فى ١٨٠٠ (٣٧) . وكل الزيادة تقريبا كانت من نصيب المدن التى غدت الصناعة والتجارة وتغذت منهما . وفى عام ١٧٤٠ فاخرت لندن بنحو ٧٢٥٠٠٠ من الاهالى ، فاصبحت الان أحفل مدن العالم بالسكان ، وندد بها ديفو فى ١٧٢٢ لأنها « تضخمت » (٣٨) وتلتها باريس التى بلغ سكانها ٦٧٥٠٠٠ فى ١٧٥٠ ، ثم امستردام وفينا ، ونابلى ، وبلرمو ، وروما . وبلغ سكان لندن عشرة أضعاف سكان برستول ، التى كانت ثانى أكبر المدن الانجليزية ، وثمانية عشر ضعف سكان نورثى ، ثالث أكبر المدن الانجليزية . وكانت مراكز العواصم تجمع فى يدها خيوط الحياة الاقتصادية للأمة ، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنتجاتها الى أرباح المال اللطيفة الرقيقة .

وأعان لندن موقعها على النمو مع نمو التجارة والمستعمرات الانجليزية . فكان فى استطاعة السفن عابرة المحيط أن تبحر مصعدة فى التيمز ، ومع أن أرصفة الميناء (حتى ١٧٩٤) لم يكن فى طاقتها أن تؤويها ، فإن جيشا من عمال التفويغ والشحن الغلاظ ، يستخدم اسطولا من ثلثمائة صندل ، كان مهيا لنقل البضائع من السفينة الى الساحل أو الى سفينة أخرى ، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شاغيا بالحركة لاعادة تصدير الواردات من وراء البحار الى القارة . ولم يكن شاطئ النهر أنيقا كما نجده الآن ، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولى العضل ، والملاحين المتعطشين للجنس ، والنساء المتحلات ملابسا وخلقاً ، القدرات مظهرها ولفظا ، الساكنات الأكواخ والحانات ، المنافسات للبحارة فى السكر والعنف (٣٩) . أما النهر نفسه فكان عجيب المنظر ، فيه خليط من السفن التى تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية الى البوارج الضخمة ، بينما تعبر المعديات الصغيرة النهر غسدا ورواحا . وكان الملك ، وعمدة لندن ، ونفر من الاعيان ، يملكون « ذهبيات » انيقة ، ويستخدمونها للرحلة صعدا الى ونزور أو غيرها من البلاد - وظل كوبرى لندن حتى ١٧٥٠ الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الاقدام

من شمالها الى جنوبها ، ولكن فى ذلك العام تم بناء كوبرى وستمنستر ، وفى ١٧٥٧ أزيل عن كوبرى لندن عبء البيوت والمتاجر الذى كان يثقله . وقد أعجب الرسام البندقى أنطونيو كاناليتو ، الذى زار لندن فى ١٧٤٦ و ١٧٥١ ، بمشاهد الحركة التى يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور الشهيرة التى ترينا التيمز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون .

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها ، مع أنها كانت لاتزال سيئة الاضاءة رديئة الرصف ، لا ينظفها فى الغالب سوى ماء المطر الهاطل عليها . وكان قد تقرر فى ١٦٨٤ نظام لاضاءة الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت ، ولكن المصابيح لم تضا الا فى الليالى التى يحتجب فيها القمر ، وحتى منتصفه الليل فقط ، ومن عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر) الى عيد السيدة العذراء فقط (٢٥ مارس) . وفى ١٧٣٦ وافقت سلطات المدينة على اقامة خمسة عشر ألف مصباح زيتى فى أنحاء لندن كلها ، تظل مضيئة من غروب الشمس الى شروقها ، وكان هذا حدثا مشهودا فى حياة العاصمة . حسن كثيرا من أمن شوارعها فى الليل .

كان أكثر الشوارع منذ حريق ١٦٦٦ الكبير مرصوفا بالحجارة الصغيرة المدوّرة ، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة الى القرن التاسع عشر . وكانت تجرى فى وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفاية . وتصرف المطر . ولم يكن هناك أفاريز بل صف من الشواخص حدد طريقا للمشاة عرضه ستة أقدام . وكانت الشوارع تعج بأصوات عربات النقل ، وخيول الجر ، والحناطير ، والمركبات الخاصة ، وكلها تجرها الخيل التى تقعقع حوافرها على أحجار الرصف ، كذلك كان هنالك الباعة الجوالون - وكثير منهم نساء - يصرحون بعشرات الأطعمة أو الثياب ، والصناع المهرة المتنقلون يعرضون اصلاح ما فسد ، وسائقو العربات يتشاجرون والكلاب تنبح ، والمتسولون يستجدون ، ومغنىو الشوارع يصيحون بالأغاني الشعبية ، والأراغن تقفز بالحانها من جدار الى جدار . وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها ، فهى السبيل الذى لا غنى عنه الى معاشهم . ولم يعمل من الناس فى صمت سوى النشالين والمومسات .

وبدا تثبيت أرقام الشوارع على البيوت فى سنة ١٧٠٨ . وكان أكثرها فى سنة ١٧٥٠ مزودا بالمياه المجارية . واخذت وسائل النظافة تتحسن . وكان القانون يطالب رب كل أسرة بأن يحتفظ برصيف الشارع نظيفا أمام بيته ، ولكل حى زبال ينظم جمع القمامة . أما المراحيز فكانت عادة مراحيز خارجية توضع وتستتر فى الحديقة أو الحوش . وكان لبعض المناطق مجار ، ولكن لم يتح للندن نظام مجار عام إلا سنة ١٨٦٠ . أما المداخن فيظهرها منظفو المداخن ، الذين يتسلقونها بضبط كيغانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب أو بالحجر ، واستمر هذا التشويه القاسى لأجسام الأطفال حتى عام ١٨١٧ .

وكان شطر كبير من السكان يحشرون فى أحياء فقيرة مزدحمة تلوئها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (٤٠) . وفى حين من أحياء لندن - هما وابنج ولايمهاوس - كان واحد من كل اثنين من السكان تقريبا يعيش عيش الكفاف ، معتمدا على الاحسان ، أو السرقة ، أو البغاء ، فى الحصول على المسكن والطعام . أما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعنا فى الشوارع لا تسترهم غير أسمال ولا يتعلمون غير الاجرام . فى هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر ، وسلعة تسوق دون احتفال أو قانون . ولم يكد يوجد فى هذه الأحياء كنائس على الاطلاق ، أما دكاكين الجعة والحانات فكثيرة . وفيها أيضا كانت يؤر اللصوص ، والنشالين ، وقطاع الطرق ، والقتلة المحترفين . وكان كثير من المجرمين ينتظمون فى عصابات . فاذا تعرض لهم الحراس جدعوا أنوفهم . وألفت جماعة منهم يدعون « الموهوك » أن يخرجوا الى الشوارع سكارى ، ويخزوا المارة بالسيوف ، ويكرهوا النساء على الوقوف على رعوسهن ، ويسملوا عيون من يقاومونهم من ضحاياهم . أما لصوص العصابات الأقل ضراوة فكانوا يقنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت . ذكر سموليت فى ١٧٣٠ « أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتارا وضراوة مما كانوا فى أى عهد منذ عرف البشر الحضارة (٤١) » . وفى ١٧٤٤ حرر عمدة لندن وحاكمها خطابا للملك قررا فيه أن « عصابات شتى قوامها اعداد كبيرة من الأشخاص ذوى النزعة الشريرة ، المسلحين بالهسراوات ، والطبنجات ، والسيوف ، وغيرها من الأسلحة الخطرة ، يعيشون فسادا

لا فى الازقة والممرات الخاصة فحسب ، بل فى الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية ، ويقتربون أخطر الاعتداءات على أشخاص رعايا جلالكم (٤٢) » . وقال هوراس ولبول فى ١٧٥٢ : « ان المرء ليضطرب الى السفر ، حتى فى الظهيرة ، وكأنه ماض الى ساحة قتال (٤٣) » .

وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئاً أكثر كثيراً من هذه الحصيلة المتكاثرة من الفقر والجريمة ، فلقد كانت الى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية ، ووطن ألف محام وتاجر وصحفى وشاعر وروائى وفنان وموسيقى ومعلم وكاهن ورجل بلاط . ويجب ونحن ماضون فى طريقنا أن نضيف الى رؤيتنا للندن القرن الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الفخمة وأخلاقها وعاداتها ، وجمهور المصلين فى الكنائس ، والشكاك ، والعلماء ، والفلاسفة ، وظرفاء « المجتمع الراقى » وحسانه وعشاقه ، وحدائق اللهو فى فوكسهول ورينلاج ، والمتنزهين فى الحدائق العامة وشارع بل مل ، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز ، والأحاديث المتدولة فى مشارب القهوة والنوادر ، ودكاكين الحرفيين ، وتجار الملابس ، والجواهرية ، وأسباب الترويج فى البيت والرياضة فى الخلاء ، والجموع المحتشدة فى معارك الديكة ، ومباريات الملاكمة التكبسية ، وعروض الدمى ، والمسارح ، والأوبرا - عندها فقط تكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة الى حد معقول ، تتيح لنا أن نحس التاريخ فى كل نواحيه ينساب خلال أجساد وأرواح جيلين و ٧٠٠٠٠٠ نفس .

٣ - المدارس

كانت الحياة فى انجلترا كما فى غيرها من الأقطار فى هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الاطفال ، يموت ٥٩ ٪ من مجموع الاطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٦٤ ٪ قبل العاشرة (٤٤) . وكان كثير من الاطفال يلقون خارجاً عقب ولادتهم ، ومن بقى من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة الدولة ثم يوضعون فى اصلاحيات للأحداث . ونجم الكثير من التشوهات الجسمية من اهمال المولدات والأمهات .

فاذا كان الابوان فقيرين لم ينل الطفل حظا من التعليم فى المدرسة اطلاقا . وكان هناك « مدارس خيرية » تقدم التعليم الاولى للجنسين ولجميع الطبقات مجانا ، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز ٢٨٠٠٠ فى ١٧٥٩ ، وكانت لا تقبل المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ولا تصل الا لنسبة ضئيلة من الفلاحين ، ولا تكاد تصل الى فقراء المدن اطلاقا . يقول حجة انجليزى « ان الكثرة العظمى من الانجليز كانوا يمضون الى قبورهم دون تعليم » (٤٥) . اما فى طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم . واما اطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة « رجال محطمو الاعصاب ، او مفلسون ، او مطرودون من وظائف اخرى » (٤٦) والى ذلك « مدارس نسوية » تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادئ القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع آباؤهم دفع مصروفاتهم . وفى جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب القناعة بمرتبتهم التى ولدوا فيها ، وابداء الخضوع الواجب للطبقات العليا .

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان ان يضيفوا شيئا من اللاتينية واليونانية الى مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوصيع فى السلم الاجتماعى . وكان النظام صارما ، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة الى الحادية عشرة والنصف صباحا ، ومن الواحدة الى الخامسة والنصف مساء . واجود من هذه المدارس المدارس الخاصة ، وأشهرها ابنون ، ووستمنستر ، وويشستر ، وشروزبرى ، وهسارو ، ورجبى - حيث بسنطبع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة نظير ستة وعشرين جنيها أو نحوها فى العام ، وادخار شارات كلاسيكية يتفخرون بها فى المستقبل . واذا كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الانجليكانية ، فان المنشقين على هذه الكنيسة - من معمدانيين ، ومشيخيين ، ومستقلين ، وتوحيديين ، وكويكريين ، ومجمعيين ، ومثوديين - هؤلاء انشأوا اكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة ، وازداد على اللغات الحديثة ،

والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والملاحة - وهو تعليم أنسب
لأبناء الطبقة الوسطى .

وحرّم المنشقون من دخول الجامعات . وكان أكثر طلابها ينتمون
إلى أسر موسرة ، ولكن بعض الصبيان رقيقى الحال تلقوا منحا دراسية
من المحسنين أو المؤسسات الخيرية ، وبعض الطلاب الذين يقومون
بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون servitors أو sizars)
مثل نيوتن ، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق
الطبقية . وقد عانت أكسفورد وكمبردج من الركود فى هذه الفترة بسبب
الزعة المحافظة فى المناهج والطرق والأفكار . وأبدت كمبردج استعدادا
أكبر للتوسع فى الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية
واللاهوت ، ومع ذلك وصفها تشسترفيلد بأنها « غارقة فى أحلك
الظلمات » . أما أكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وبأسرة ستيوارت
الساقطة ، ولم تسمح لملوك أسرة هانوفر الغشم بزيارتها . وقال آدم
سمث ، الذى كان يطلب العلم بأكسفورد فى ١٧٤٥ ، انه لم يتعلم فيها
إلا القليل ، أما جبون الذى درس فيها فى ١٧٥٢ ، فقد ندّد بمدرسيها
لأنهم سكيرون جهلة ، وندم على السنين التى ضيعها فى الجامعة .
وآثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين (٤٧) .

أما البنات فكان يتلقين تعليما أوليا فى مدارس القرية أو المدارس
الخيرية - فيتعلمن القراءة والكتابة ، والخياطة ، وأشغال الإبرة ،
والغزل ، وقليلًا من الحساب ، وكثيرًا من الدين . وتلقى بعضهن
التعليم على يد معلمين خصوصيين ، ومنهن من درس اللغات والآداب
الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدى ماري ورتلى مونتايجو . قالت الليدى
ماري « ان بنات جنسي تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع ،
والجهل يعد مجالنا المناسب لنا ، بحيث أن أى اسراف فيه من جانبنا
يغتفر لنا أكثر مما يغتفر أقل تظاهر بمعرفة القراءة أو بالادراك السليم
... وليس فى الوجود مخلوق ... أشد تعرضا للسخرية العامة من
المرأة المثقفة » . وكانت تميل الى الظن بأن الرجال كانوا يبقون النساء
فى جهلهن ليستطيعوا اغواءهن بتكلفة أقل (٤٨) . وإذا كان لنا أن
نحكم من دخول محظيات الملك ، فإن النساء وفقن كل التوفيق بغير

الدراسات الكلاسيكية ، ولم يكن بهن حاجة الى شاعر كاوفيد ليعلمهن لعبة الحب .

٤ - الاخلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء اقل شيوعا في ذلك العهد مما هي اليوم (١٩٦٥) ، ولكن البغاء ازدهر الى حد لم يكده يعرف ثانيا حتى يومنا هذا . وقد قدر مراقب اجنبي عدد المومسات بخمسين ألف في لندن ، يوجدن في حانات المدينة ، وفي الفنادق الصغيرة على الطرق ، وفي حدائق المدينة ، وفي المراقص العامة ، وحفلات الموسيقى ، والمسارح ، وكن في شارع اكستر وحى ستراند يجلسن الى النوافذ تشجيعا للمترددين من الزبائن . وفي « درورى لين » (شارع المسارح بلندن) - كما تغنى الشاعر جون جاي في تمثيليته « تريفيا » : هي التي تمشي في الليل بخطى وثيدة ، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس ، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهرجة ، والمعطف حديث التنخيف ، وسيماء المومس ... وباصوات التملق تستميل الأذن الساذجة قائلة « يا فارسي الهمام ! يا فاتنى ! يا حبيبى ! يا عزيزى ! » (٤٩) .

ولم تأخذ القانون بهن رحمة . فاذا أمسكت احداهن وهي تتحرش برجل ، زج بها في السجن وضربت بالسوط ووضعت في المشهرة (آلة التعذيب) . وقد وصفت « مجلة جرب ستريت » في عدد ٦ مايو ١٧٣١ مصير احدى هؤلاء « المدامات » فقالت « وقفت أمس الأم نيدهام في المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهور تذكيلا شديدا . وقد اشتد بها الاعياء حتى استلقت بطول المشهرة ، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة ، ويظن انها ستموت بعد يوم او يومين (٥٠) .

ولكن لم يكن يصل الى المشهرة غير افقر البغايا . فقد كن يتفادين القانون عادة بانرشا ، او يخرجهن صاحبهن بكفالة ، واحسن بعض حفظة القانون - ربما لانهم تعرفوا فيهن على « مضيفات » سابقات لهم - بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجال .

وإغلب الظن أنه لم يأت الى فراش الزوجية محتفظا بعفته عشرة من كل مائة ذكر من أهل لندن . لقد ندد القوم بالرديلة علانية ، ولكنهم احتقروا الفضيلة سرا . . . وكتاب جون كليلاند المسمى « مذكرات غانية » (١٧٤٩) ، والذي عرف فيما بعد باسم « فانى هل » ، وهو سلسلة من الاغواءات المفصلة ، كان (وما زال) من أفحش كتب ذلك القرن وأكثرها شعبية .

وآلف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهم . وروت جريدة لندن فى عددى ٢٣ و ٣٠ أبريل ١٧٢٥ نبأ القبض على سبعة لوطين ، وفى ١٤ مايو سجلت نبأ شنق ثلاثة آخرين بتهمة اللواط ، ثم أضافت « نرى الينا أنهم (أى الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتا أو ناديا يجتمع فيها اللوطيون ، وهم يراقبون أيضا منتديات ليلية يلتقى فيها هؤلاء الوحوش فى جمع كبير » . وفى ٧ يوليو روت الجريدة أدانة « روبرت هويل ويورك هورنر بفتحهما بيوتا فى وستمنستر يستقبلان فيها هواة الرديلة المنكرة » . وفى ٢٣ يوليو أعلنت أن : « مرجريت كلاب ، التى أدينت بفتحها بيتا سرىا يستخدمه اللوطيون . . . حكم عليها بوضعها فى المشهرة ، ويدفع غرامة قدرها تسعون ماركا ، وبالسجن سنتين » (٥١) .

وينبئنا مصدر وثيق بان « نسبة كبيرة جدا من أهل لندن كانوا يعاشرون النساء حراما دون زواج (٥٢) » . وكانت زيجات الحب فى ازدياد ، على الأقل فى روايات رتشردن وفيلدن ، ولكن معظم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس الى دخل العريس الفعلى أو المنتظر . وقد حرم قانون صدر فى ١٧٥٣ على الأشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقة والديهم أو الأوصياء عليهم . ولما كان هذا القانون لا ينطبق الا على انجلترا ، فان كثيرين من العشاق الفارين من آبائهم كانوا يعبرون الحدود الى اسكتلنده ، حيث يتبع القساوسة فى قرية جريتنا جرین قانونا أكثر يسرا . وكان هناك مزيد من التيسيرات على العاشقين المتلفين يوفرها رجال الدين الجشعون الذين يعقدون الزيجات السرية فى الحانات أو المواخير أو العليات أو غير ذلك من الأماكن فى شارع فليت أو على

مقربة منه (وفى الشارع سجن للمدينين) . وكان فى كل حانة تقريبا فى تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج أى انسان لقاء رسم ، دون أن توجه اليه أسئلة أو يطالب بترخيص . وشاع عن أحد هؤلاء القساوسة أنه كان يعقد ستة آلاف قران فى السنة . وكانت الزيجات تبرم فى عاطفة مشبوبة ، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها ؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن ، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوما على البر ، ويحبسون ، ثم يرحلون . ورغبة فى القضاء على هذا المنكر أصدر البرلمان قانونا (١٧٥٣) بالا يعتبر أى زواج شرعيا ، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود ، ما لم يعقده قسيس أنجليكانى فى كنيسة أبرشية ، بعد نشر اعلان بالزواج فى الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة ؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالذنى الى المستعمرات .

ولم يكن الطلاق مسموحا به فى انجلترا (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (٥٣) ، وكانت تكاليف هذا الاجراء تجعل منه ترفا مقتصرا على الأغنياء . وفشا الفسق فى جميع الطبقات الا الوسطى ، وضرب جورج الأول والثانى مثالا فى ذلك - والناس على دين ملوكهم . وفى عام ١٧٠٠ كتب كونجرىف يقول « كل انسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (٥٤) » . ولم تتغير الحال الا قليلا فى ١٧٢٨ ، حين جعل الكاتب المسرحى « جاي » السيدة بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » تسأل زوجها عن ابنتها « بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللى عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها ؟ » . كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزداد عشقهم للمرأة ان كانت ملك رجسلى اخر (٥٥) « . على أنه يمكن القول عموما بان اخلاق النساء كانت فى انجلترا خيرا منها فى فرنسا ، وأنه فى الطبقات الوسطى ، التى ظلت التقاليد البيورتانية فيها قوية ، أوشكت العفة أن تكون افراطا فى الاحتشام ، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذى يحسب به الرجال - صبورات ، مجدات ، وفيات . وكان المعيار ذو الوجهين مفروضا ومقبولا . فكانت النساء المتهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابى ويقران فيلدنج وسموليت ، ولكن كان ينتظر منهن أن تحسرن وجوههن خفرا مغريا ، وأن ينشى عليهن فى لمح البصر .

وكان ينظر الى المرأة فى جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل الى رده . ولقد ارتضت هذه النظرة حتى الملىدى مارى المتكبرة المتمردة ، ولو ساخرة كارهة :

« لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين ، اذ لا شك فى أن الله والطبيعة قد ألقيا بنا فى مرتبة أخط ، فنحن جزء أدنى من الخليقة ، وعلينا اطاعة الجنس الأعلى والاذعان له ، وكل امرأة تسمح لغرورها وحمافتها أن ينكرا ذلك اذا تتمرّد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذى لا ينازع (٥٦) » .

وكانت فترة حكم البيورنان قد أنزلت المرأة عن مقامها الذى ارتقت اليه أيام اليزابيث . وحكم أحد الطلاب بأنه « حوالى عام ١٧٥٠ كانت النساء هى انجلترا قد نزلن الى مستوى منحط جديد لم يكد يفضل وضعهن فى القرن الثانى عشر (٥٧) » .

وتردّت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى الدرك الأسفل . فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد الى الحظوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى . وكان موظف خاص يسمى « الحاجب » منوطا بالاشراف على القمار فى البلاط الملكى . وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء ، وندر أن برىء من المراهنة ، وكثيرا ما شابه الغش . ولم يكن من غير المألوف للمتبحل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتى جنيه فى جلسة واحدة ، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته فى لعبة واحدة ؛ وكان اللورد نينسترفيلد بقامر باستهتار فيما بين المحاضرات التى يلقيها على ابنه ، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين فى عهد جورج الأول الى درجة لعلها لم تضارع بعده . وفتحت ملاعب القمار فى نادى هوايت ، وفى تشيرنج كروس ، وفى لستر فيلدز ، وفى جولدنز سكوير ، وفى باث . وفى محفورة للمصور هوجارت سماها « رحلة الفاجر » نرى رجلا ونساء يقامرون فى نادى هوايت ، ولا يعباون بانذار بنبتهم بأن المبنى يحترق ، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة الى نهايتها الحاسمة★ . وقد

★ احترق النادى الشهير عام ١٧٣٣ ، ولكنه رمم سريعا .

حظر جورج الثانى هذا القمار المنظم ، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة .
الذى كان قد تقرر فى ١٥٦٩ وعمر حتى ١٨٢٦ . وكانت تذاكر اليانصيب .
تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج ، واشتد الانفعال والتحمس
لها الى حد أغرى الخدم بسرقة سادتهم ، والكتبة بسرقة أرباب عملهم ،
طمعا فى نصيب من الغنيمة (٥٨) .

ولعل السكر كان أكثر انتشارا من القمار . وكانت الجعة بنوعيتها
(البيرة والمزر ale) هى الشراب الوطنى . وكان الرجل اللندنى
يستهلك مائة جالون منها فى السنة ، أو ربع جالون فى اليوم ،
باعتبارها أسلم وألطف مذاقا من الماء . وخلق المناخ الرطب طلبا على
الروم ، والبنش ، والبرندى ، والجن ، والكورديال ، والوسكى ،
وكان النبيذ دواء مفضلا . وانتشرت الحانات ومخازن الخمر فى كل
مكان ، وكان ١٣٥٠ بيتا من بين ٧٠٦٦ فى أبرشية هوبورن تباع
الخمر . وأغضى ملاك الأراضي - والبرلمان اذن - عن تجارة الوسكى ،
لأنها فتحت سوقا اضافية لشعيرهم وقمحهم (٥٩) ، وكان ثلث الأرض
المنزوعة فى انجلترا تقريبا يزرع شعيرا . وأخذ الوسكى يحل عذد عليه
القوم محل النبيذ لأن الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بوردو
وأوبورتو ، وأدخل الهولنديون والالمان الى البلاد تفضيل الخمور
القوية . وهنا ، كما فى القمار ، ضربت الحكومة المثل للشعب . فقد
روى عن هارلى ، رئيس وزراء المملكة آن ، انه كان يمثل بين يدي الملكة
مخمورا . وكان بولنبروك يسهر أحيانا الليل كله وهو يحتسي الخمر ،
أما روبرت ولبول فقد علمه السكر أبوه ، الذى عقد النية على ألا يراه
مخمورا ابن له صاح (٦٠) .

وأزعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن . فقد زادت الخمور
المقطرة فى بريطانيا من ٥٢٧٠٠٠ جالون فى ١٦٨٤ الى
٥٣٩٤٠٠٠ فى ١٧٣٥ ، دون ارتفاع مقابل فى عدد السكان ؛ لا بل
ان الأطباء أُنذروا الحكومة بأن شرب الجن قد زاد معدل الوفيات
بسرعة فى لندن ؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس الكثير من
فقر العاصمة وجرائمها الى ذلك المسكر . وعلق باعة الجن بالتجزئة
لافتات تعهدوا فيها لزيائتهم بأن يسكروهم نظير بنس ، وعرضوا عليهم
النوم على حصر من القش مجانا فى قبو المؤونة .

وحاول الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب .
فقرض قانون أصدره البرلمان في ١٧٣٦ رسماً على الجن قدره
عشرون شلناً للجالون ، واشترط دفع خمسين جنيهاً في العام نظير
الترخيص ببيعه . وقام الفقراء الظالمون باضطرابات عنيفة . وأفضى
الحظر ، كما تنبأ ولبول ، الى تهريبه وتقطيره خفية والانجاس به
سراً . وارتفع عدد دكاكين بيع الجن الى سبعة عشر ألفاً ، وعدد
الجالونات المقطرة الى نيف وسبعة ملايين ، واستشرت الجريمة .
فتخلت الحكومة عن التجربة ، وخفض رسم الرخصة الى عشرين
جنيهاً ، والضريبة الى بنس للجالون ؛ واعتبداً التسعير وراح يشرب
ما شاء . وفي ١٧٥١ أفضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل
الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للإلغاء أمام القضاء) الى
تحسين خفيف (٦١) . وأثار الفيلسوف باركلي الموقف بننديده بالطبقات
التالية لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيئ ، وبإذاره إياهم بأن
« أمة تشتعل عند طرفيها لابد أن تحترق سريعاً (٦٢) » .

بذلك كان المسئو الخلقى محتلاً في ميدان المال والأعمال ،
فجنى بعضهم أموالاً طائلة من التهريب ، والقرصنة ، واقتناص العبيد
أو بيعهم . وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالأقذار والنفايات
التجارية والبشرية ، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب ،
ومن خلط الخبز بالشب والجير ، ومن تنضير بشرة اللحوم الكبيرة
السن بالكيماويات الخطرة على الصحة والحياة . فلما بذلت محاولات
للحد من هذه الأعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق
« كل إنسان . . في العيش على طريقته دون قيد (٦٣) » .

وتدخلت الحكومة في الحريات ، ولكن تدخلها كان أكثره لإكراه
الرجال على الخدمات العسكرية . فلما أخفقت مختلف المرغبات المالية
في تزويد البحرية بالرجال ، جردت الدولة (من ١٧٤٤ فصاعداً)
« كتائب تجنيد » لاقتناص الرجال أو تخديرهم ، أو لاقتناعهم
بالانخراط في سفن صاحب الجلالة . وكان أيسر هذه الوسائل أسكار
الضحية ، إذ كان في الامكان وهو على هذه الحال أن يحمل على النزول

عن سنة أو أكثر من حياته . ذكر الأميرال فيرنون (١٧٤٦) أن هؤلاء الرجال ، بعد أن يؤتى بهم الى السفينة ، كانوا فى الواقع محكوما عليهم بالموت ، اذ لا يسمح لهم بتاتا بان تطأ أقدامهم البرّ ثانية ، ولكنهم ينقلون من سفينة الى أخرى . . دون أى اعتبار للمشاق التى يتكبدونها (٦٤) . ويقول صموئيل جونسون « لا يرضى رجل بان يكون بحارا اذا كان له من الحيلة ما يكفى لأن يدخل نفسه السجن . . فالسجين يحظى بمكان وطعام احسن وبرفقة أفضل عادة (٦٥) » . وكان أكثر البحارة الذين يجندون كرها ضعاف الاجسام والعقول ، ولكن النظام الصارم والانتقاء القاسي بامتحان النار والجلد (كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك فى قصة سموليت « رودريك راندوم ») جعل الباقين منهم على قيد الحياة أصعب المقاتلين فى البحر مراسا وأشدّهم اعتدادا بأنفسهم .

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الاغضاء عنها بوصفها ضربا من التجارة ، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحریات . أما تجارة العبيد فقد زكت ، وتنافست السفن الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بيع الزوج الأفريقيين للمسيحيين الأمريكيين . وبمقتضى معاهدة أوترخت (١٧١٣) نقلت اسبانيا عقد « الأزينتو » ، الذى تمد بمقتضاه المستعمرات الاسبانية سنويا بـ ٤٨٠٠ عبد ، من فرنسا الى انجلترا . ومن بين ٧٤٠٠٠ عبد نقلوا الى أمريكا فى سنة واحدة (١٧٩٠) نقل الفرنسيون ٢٠٠٠٠ ، والهولنديون ٤٠٠٠ ، والدنمركيون ٢٠٠٠ ، والبرتغاليون ١٠٠٠٠ ، والبريطانيون ٣٨٠٠٠ - وهو أكثر من نصف المجموع (٦٦) . يقول مصدر انجليزى وثيق « ان الانجليز وحدهم ، على أقل تقدير ، حملوا أكثر من مليونى زنجى الى أمريكا فى الفترة بين ١٦٨٠ و ١٧٨٦ (٦٧) » . واقتنت بعض الأسر الانجليزية عبيدا من الزوج للخدمة فى البيوت . واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الأبقين ، وعرض اعلان « صبيا زنجيا يناهز الثانية عشرة . . للبيع (٦٨) » ، وكان العبيد يباعون فى باريس حتى سنة ١٧٦٢ ، وحتى البابوات كانوا يقتنون عبيدا من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر الى الثامن عشر (٦٩) . وفى ١٧٢٧ بدأ الكويكرز حركة لانهاء مشاركة بريطانيا فى تجارة العبيد . وناصرهم ستيل وبوب ، ودعم المثوديون هذه الحرب

الدينية ، ولكن الحملة لالغاء الرق لم تتقدم تقدما يذكر قبل ١٧٧٢ .

كانت الاخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة . فلم يكد عمل ينجز دون رسوة ولكل موظف تقريبا ثمنه ، والمناصب تباع ، والاصوات فى البرلمان تشتري كالسلع سواء بسواء . وقد باع أعضاء البرلمان امتياز اعفاء رسائلهم من أجرة البريد ، وباع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم (٧٠) ، و « وضعوا العراقيل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان ، أو شراء أعضاء مجلس العموم (٧١) » . وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة rotten boroughs التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى الى البرلمان عددا من الممثلين بعدل العدد الذى أرسلته أقاليم تزخر بالسكان والصناعة وأرسلت « أولد سارم » التى لا يسكنها انسان واحد ، ممثلين لها ، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحسب أو المال . وكان رجال الأعمال ، توسلا لنفوذ سياسي مكافئ لسلطانهم الاقتصادي ، يشترون الترشيحات أو المرشحين للبرلمان بنحو ١٥٠٠ جنيه للمرشح (٧٢) . ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذى نحن بصددده كان أقسى العهود فى التاريخ الانجليزى ، ومن العسير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيا أن تنهض من فساد ذلك العصر - حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بأمانة رجال أعمالها ونزاهة حكومتها .

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمة يتخلل انحطاط الاخلاق والسياسة . فهناك ملاجىء - وان كانت سيئة الادارة - للمشيوخ والعجزة والفقراء ؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيها آباء رحماء على صبيانهم ؛ وهناك أسر تؤوى الأيتام وتربيتهم ؛ وهناك جمعيات - تسمى « أندية الصندوق » - للمعونة المتبادلة فى أيام العسرة . وضربت انجلترا مثلا رائعا - هو الأول فى التاريخ الحديث - للبر الدولى حين اكتتبت بمائة ألف جنيه للبرتغال ، حليفها الاقتصادية لاغاثة منكوبى زلزال لشبونة الذى وقع فى ١٧٥٥ (٧٣) ، وقد فتح فى الفترة بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ مائة وأربعة وخمسون مستشفى ومستوصف جدد فى بريطانيا ، منها أربعة فى لندن فى جيل واحد

(١٧٠٠ - ٤٥) . وكان أكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة .
وخير ما أسس منها فى النصف الاول من القرن الثامن عشر مستشفى
اللقطاء الذى نظمه الكبتن توماس كورام ، وقد صور هوجارث هذا
الكبتن عام ١٧٤٠ صورة أهداها الى المستشفى ، رجلا ممتلئ البدن ،
أبيض الشعر ، لطيفا ، يمسك بيمناه المرسوم الملكى ، وعند قدميه كرة
أرضية ، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطا فى البحرية التجارية . فلما
تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى لندن ، وكثرة الأطفال الذين
يلقون فى العراء أو تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم أو اسم
أب يطلق عليهم ، وأقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس
بإنشاء مستشفى للقضاة ، وحصل من جورج الثانى على مرسوم وألفى
جنيه ، ولقى البدء الذى ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير
متوقع ، وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحظه « المسية »
التي عظمت قيمتها الآن ، وأدار حفلاته موسيقية غلت عشرة آلاف
جنيه . وفى ١٧٣٩ مهد الأوصياء الى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة
فسيحة من المباني والملاعب أصبحت من أروع مشاهد لندن .

٥ - الجريمة والعقاب

كان أهل انجلترا فى القرن الثامن عشر سلالة صلبة تمرست
بالمشاق والفت العنف ، سلالة قادرة على مغالبة كل صعب عسير
الا الموت . ومن الأمثلة على هذه الصفات أن عريقين اقتتلا بغير سلاح
حتى مات كلاهما ؛ وأن رقيبين تبارزا حتى أصيب كلاهما بجراح
مميقة ؛ وأن جنديا استأذن فى الزواج من إحدى مومسات الجيش فعوقب
بمائة جلدة . ثم مثل فى الغد وظهره كله مثخن بالجراح أمام الضابط
نفسه وأعاد الطلب ، فأجيب اليه هذه المرة . وفاخر قارع طبل بأنه
جلد ٢٦٠٠٠ جلدة فى الأعوام الأربعة عشر التي خدم فيها الجيش ،
ثم جلد أربعة آلاف أخرى فى عام واحد (١٧٢٧) وأفاق منها وهو
مبتهج . وقيل فى وصف حالته بعد قليل انه « صحيح معافى ، لا يكدره
مكدر على الإطلاق (٧٤) » .

وكانت العقوبات الوحشية التي وقعت علنا مشجعا على انتشار

الوحشية بين الشعب . مثال ذلك أن قانونا ألغى فى ١٧٩٠ كان يقضى على المرأة التى تدان بخيانة وطنها أو بقتل زوجها بالحرق حية ، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل أن تحرق (٧٥) . أما الرجال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء ، وتخرج أمعاؤهم وتحرق أمام أعينهم ، ثم تفصل رءوسهم ويقطعون أرباعا . وعلقت المشانق فى كل أحياء لندن ، وكانت الاجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير . وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت . على أنه كان من المألوف أن تخدر بالبرندى حواس المحكوم بإعدامه ، وإذا كان الجلاد عطوفا شد ساقيه المتدليتين ليعدل بموته .

وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبي الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات إلى تيبيرن ، وتبيع الأكشاك والباعة المتجولون الجن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ؛ وينشد المغنون الجوالون الاغاني الشعبية دون أن يجيدوا اجادة الكبتن مكبت فى « أوبرا الشحاذ » . وكانت الجماهير ، التى لم تتحمس قط للقوانين أو الشرطة ، ترفع الى مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق فى مغامراتهم ، أو الذين حين أمسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء أو الابتسامات . فجاك شبرد ، و « روب روى » (وهو روبرت ما كجريجور) ، ودك تيرين ، وجوناثان وايلد - هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا فى هذه الفترة . أما جاك فقد وشى به جوناثان وايلد للشرطة بعد أن كان يمارس السرقة فى لندن أو قريبا كل يوم تقريبا ، ففر ، وقبض عليه من جديد ، ثم فر ثانية ، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر ، وشنق وهو بعد فى الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفه يتوقعون منه أن يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه . وقد روى ديفو واينزورث قصته فى روايات عادت عليهما بالريح ، ورسم السير جيمس ثورنهل صورته . أما تيرين فوزع النقود على المشيعين ليسيروا خلف عربته الى المشنقة فى موكب مهيب ، ولكن ما أذاع صيته هو الرواية الخيالية التى كتبها اينزورث عن رحلة دك تيرين الشديدة الخطر على جواده من لندن إلى يورك . كذلك خلد كتاب فيلدنج « حياة مستر جوناثان وايلد العظيم » ذكرى هذا الوغد على مر القرون . ومعظم

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية ، ولكن الخيال هنا ليس أطرف من الواقع . فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس ، ينظم اللصوص ويدير شئونهم ويستغلهم ، ويشترى بضائعهم المسروقة بالثمن الذى يفرضه ، ثم يشي بهم للقضاء اذا تمرد عليه شركاؤه . وفتح فى الوقت ذاته مكتبا لطيفا يستقبل فيه ضحايا السرقات ، وكان يعدهم لقاء مكافأة كبيرة بأن يرد لهم بضائعهم أو مالهم ، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليات ويعيش فى ترف قرابة خمسة عشر عاما . ولكن ثراءه فاق حكمته ، فقبض عليه بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ، وشنق ، فابتهج جمهور غفير بشنقه (١٧٢٥) . وربما كان هو المثال الذى نسج على منواله مستر بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » .

وساد العيب بالقانون المجتمع كله علوا وسفلا ، من النشال المهذب الى التاجر المهرب الى المبارز حامل لقب النبالة . وكان هناك مئات المبارزات ، جرى بعضها على قارعة الطريق ، وبعضها فى هايد بارك أو حدائق كنزنجتن ، ولكن أكثرها فى « حقل الأربعين خطوة » خلف قصر مونتاجيو (المتحف البريطانى الآن) . وندر ان كانت المبارزات قتالة ، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع ، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة ، وأغلب الظن أن كثيرا من المقاتلين حرصوا على إطلاقها فوق رأس الغريم ؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح . وكانت المبارزات غير مشروعة ، ولكن يغضى عنها بحجة أنها تشجع على التأدب فى الحديث . وندر أن اعتقل مبارز إلا فى الاصابات المميتة ، وإذا استطاع الخصم الحى أن يثبت أنه اتبع قواعد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة فى السجن .

وفى سنة ١٧٥١ نشر فيلدنج ، وكان يومها قاضيا ، « تحقيقا فى اسباب الزيادة الاخيرة فى عدد اللصوص ، الخ ، مشفوعا ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم » . ولم يعز الزيادة فى أكثرها الى الفقر بل الى ظهور « الترف » بين الطبقات الدنيا ؛ فعامة الشعب لديهم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات ، وحدائق اللهو ، والمسارح ، والمراقص التنكرية ، والأوبرات ، وهناك يلتقون بأشخاص خبروا الفجور وحذقوا

الجريمة . أما السبب الثانى فى رأى الروائى العظيم فهو الزيادة فى استهلاك الجن . يقول :

« ان شراب الجن هو القوت الرئيسى (ان جاز لنا ان نسميه كذلك) لأكثر من مائة ألف شخص فى هذه العاصمة . وكثير من هؤلاء التعساء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربع وعشرين ساعة ، ومن سوء حظى أننى أرى وأشم أيضا كل يوم ما يخلفه هذا من آثار رهيبة (٧٦) » .

وأما السبب الثالث فهو القمار ، والرابع قصور القانون ، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء :

« يختارون من بين أناس فقراء ، شيوخ ، عجزة ... يطلب اليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم على رفعه ، ان يؤمذوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة وبيوتهم من هجمات عصابات أوغاد صغار السن ، شجعان ، أشداء ، مستهترين ، مدججين بالسلاح (٧٧) » .

وحتى اذا لم يرهب الحارس عنف اللصوص ، فان فى الامكان رشوته ، وكذلك الضابط الذى يرفع اليه بلاغاته ، وكذلك القاضي الذى ياتيه الضابط بمجرم . وكانت واجبات الشرطة فى لندن موكولة الى ١٠٠٠ ضابط ، و ٤٧٤ معاون ، و ٧٤٧ حارسا . وبين القبض والادانة قام ٢٢١٤ محاميا بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة ، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماما . قال الدكتور جونسون فى رجل برح الغرفة لتوه ، انه « لا يحب ان يغتاب انسانا ، ولكنه يعتقد ان الرجل محام (٧٨) » .

ولم يوافق فيلدنج على رأى كوك الذى ذهب الى أن « حكمة جميع الحكماء فى العالم ، لو اجتمعوا معا فى وقت واحد ، ما كانت لتعدل » فضائل الدستور الانجليزى . ولعله كان يسلم بأن ذلك الدستور

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك ، دبر بطريقة تدعو الى الاعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان أى ملك ، ولعله كان يثنى على « الهابياس كوريس » ، ومحاكمة المتهمين على يد محلفين ، وعلى مدارس الحقوق العظيمة فى جميعات لندن القانونية . ولم يكن بالامر الهين حقا ان يحرم اعتقال أى شخص انجليزى دون اذن قانونى ، أو سجنه دون محاكمة ، أو عقابه دون ادانة من محلفين من نظرائه ، والا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان ، وأن يكون فى استطاعته أن يجتمع مع زملائه شريطة ألا يخل بالنظام ، وأن من حقه أن يقول ما يشاء ، الا أن يكون ذلك تحريضا ، أو قذفا ، أو فحشا ، أو تجديفا . ولكن مشرعى انجلترا كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث أخفقوا فى حماية المجتمع من الفرد . لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار أمام تغشي الجريمة وتنظيمها .

وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح ، يمكن أن تستأنف قراراتهم أمام قضاة يقضون فى وستمنستر أو يسافرون ستة أشهر فى السنة ليعقدوا جلسات دورية فى مدن المقاطعات . وكان هؤلاء القضاة يتمتعون بمناصب مدى الحياة ، ويبدون مستوى معقولا من النزاهة . وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وان اقتصر على نظر القضايا غير الجنائية التى يتهم فيها الكهنة فقط ، أو الفصل فى صحة الزيجات ، أو تنفيذ الوصايا . وكان لمحكمة الأميرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها . وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التى يرأسها قاضي القضاة . أما المحكمة العليا للبلاد فهى البرلمان ذاته ، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء . وكانت المساواة أمام القانون لا تزال ناقصة ، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب . فقد أعدم إيرل فررز الرابع عام ١٧٦٠ لقتله وكيله ، ولكن حين حوكت دوقية كنجزتن أمام مجلس اللوردات فى ١٧٧٦ وأدين بتهمة الزواج برجلين فى وقت واحد ، أطلق سراحها دون عقاب سوى تغريمها الرسوم . وظلت اللاتينية لغة المحاكم حتى سنة ١٧٣٠ حين حلت الانجليزية محلها ، الامر الذى تالم له بلاكستن لأشد الألم .

وفى محاكمات الجنايات الكبرى (ومعظم الجنايات كانت كبرى)

كان يسمح للمتهم بأن يوكل محاميا اذا كان ميسور الحال ، والمحامي أن يستجوب شهود الادعاء ، ولكن لم يكن مسموحا له أن يوجه خطابه الى المحكمة ، فهذا متروك للمسجين ، الذى كثيرا ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه . فاذا برىء رد الى السجن حتى يدفع كل « البقاشيش » التى يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم ؛ وقبل أن يلغى هذا النظام فى ١٧٧٤ كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا فى السجن بعد أن برئت ساحتهم . أما اذا أدين السجين فانه يواجه قانون عقوبات من أقسى ما عرف فى تاريخ القضاء .

لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه ، كما يفضل الاجراءات المتبعة فى القارة الاوربية ، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدولاب ، ولم يعد يجدد الانوف أو يصلم الاذان . ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التى كان الانجليز الشديديو المراس يومها يرونها ضرورية للسيطرة على جموح الانسان الفطرى . فاذا كانت العقوبة هى الجلد فى ذيل عربة تجر فى الشوارع ، كان منفذها أحيانا يتلقى مبلغا اضافيا ، يجمع من المتفرجين ، لكى يضاعف من شدة ضربات سوطه (٧٩) . وكان السجين الذى يرفض الاجابة فى تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهره عاريا فى حجرة مظلمة ، وتوضع أثقال من الحجر أو الحديد على صدره الى أن يعصر عصرا أو تزهرق روحه (٨٠) ، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد ١٧٢١ ، ثم ألغى فى ١٧٧٢ .

وطوال القرن الثامن عشر اضافت قوانين أصدرها البرلمان الى عدد الجرائم التى يعاقب عليها القانون بالموت . وفى ١٦٨٩ كان عددها خمسين ، وفى ١٨٢٠ ارتفع الى ١٦٠ . فالقتل ، والخيانة ، والتزييف وخرق الممتلكات عمدا ، وهتك العرض ، واللواط ، والقرصنة ، والتخريب المسلح ، والتزوير ، وتدمير السفن أو اشعال النار فيها ، والتفليس بالتدليس ، وقطع الطريق ، والسطو على المنازل ، وسرقة أكثر من أربعين شلنا ، وسرقة سلع من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة شلنات ، وتشويه الماشية أو سرقتها ، وإطلاق النار على موظف الضرائب ، وقطع الاشجار فى شارع أو متنزه ، واحراق غيط غلال ، وإرسال خطابات التهديد ، وإخفاء موت زوج أو طفل ، والاشتراك فى

حادث شغب ، واطلاق النار على الأرانب ، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن ، وتدنيس المقدسات - هذه كلها ، وعشرات غيرها ، كانت تعد جرائم كبرى أيام جورج الأول والثاني والثالث . وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية . وربما كانت الى حد ما النتيجة - والسبب - لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها أعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطانى اليوم من عادات التزام القانون . وخفف من صرامة القانون رفض القضاة أو المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين ، أو ابطال الاتهام لخطأ فنى ، أو تحديد قيمة سلعة مسروقة تحديدا تعسفيا بأقل من المبلغ الذى يجعل السرقة جناية كبرى . وفى وقت الحرب قد يصدر عفو عن المذنبين شريطة أن ينخرطوا فى الجيش أو البحرية .

أما عقاب الجرائم الأقل خطرا فكان السجن ، أو المشهرة ، أو الجلد ، أو الأشغال الشاقة فى الإصلاحيات ، أو النفى الى المستعمرات . وقضى قانون صادر فى ١٧١٨ ببيع المسجونين المحكوم عليهم الى متعهد يشحنهم بالمراكب على نفقته الى ميريلاند و فرجينيا عموما ، ويبيعهم بالمزاد عادة « الى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم » وأسفر سوء حال السجناء وهم فى الطريق عن نسبة عالية من الوفيات ، وعن انهلاك الباقين منهم انهاكا يعجزهم عن العمل حيناً . وقدر أحد مؤلاء المتعهدين بأنه يخسر سبع شحناته البشرية فى الرحلة المتوسطة (٨١) . ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الامريكية .

وكثيرا ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه ، لأن السجن كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها . فقد كان السجن الجديد يكبل بمجرد دخوله بالاعلال التى تتفاوت ثقلا بتفاوت ما يدفعه للحارس . أما فراشه فمن القش . وأما طعامه فرطل من الخبز فى اليوم ، الا اذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج . واذا استثنينا سجن نيو جيت ، وجدنا أنه لم تبذل محاولات تذكر لتنظيف السجون . فكانت الأوساخ والجرائم تتراكم فيها فتعدى كل سجين تقريبا بما سمي « لاهى السجن » - وهى فى الغالب التيفوس أو الجدري . وذهب جونسن الى أن ٢٥٪ من السجناء كانوا يموتون بـ « حميات عفنة » . وبلغ نتن العفونة والمرضى مبلغا كان يحمل القضاة

والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الاعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة . وفى مايو ١٧٥٠ جىء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا فى «. الأولد بيلى » وهى محكمة جنايات لندن الكبرى . وبلغ من خبث الحمى التى أفسوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة فى قفص المتهمين (٨٢) .

وكان الرجل الذى يقاضى بسبب الدين ، ويدان ، ويعجز عن الوفاء بدينه أو لا يرغب فى الرفاء به ، يودع مثل هذا السجن حتى يوفى الدين أو حتى يسحب دأئنه الدعوى . وكان الدائن ملزما بحكم القانون بدفع أربعة بنسات فى اليوم مساهمة فى اعاشة سجينه ، ولكنه اذا لم يفعل لم يكن أمام المدين سبيل الا مقاضاته - وهذا يكلفه مالا . على أنه اذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان فى امكانه رشوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام افضل ، وبحريات ارحب ، وبالاتناس بزوجته ، لا بل بقضاء اجازة فى المدينة بين الحين والحين . أما المدين المفلس فقد يموت جوعا موتا بطيئا من ضالة جرايته من الخبز اذا عجز عن شراء الطعام . وقد قدر صموئيل جونس أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين ألف مفلس يسجنون فى السنة فى المتوسط ، يموتون من الحرمان (٨٣) . وهكذا لم تجد انجلترا وسيلة أكثر رفقا لحماية طبقة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الافلاس بالتدليس .

وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات . ولاحظ جونس ، الذى لم يكن بالرجل العاطفى ، فى ١٧٥١ خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال : « ان تسوية السرقة بالقتل ... معناها التحريض على اقتراف جريمة أكبر منعا لاكتشاف جريمة أحقر (٨٤) » . وظهرت أقوى الانتقادات لادارة السجون فى روايات فيلدنج وسموليت وفى رسوم هوجارث . وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفا متواضعا جيمس أوجلثورب ، الذى تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الأنبل لجون بول . وفى ١٧١٤ ترك الكلية وهو

فى الثامنة عشرة لينخرط فى جيش يوجين أمير سافوى ، وقاتل فى عدة معارك ضد الترك . فلما عاد الى انجلترا انتخب عضوا فى البرلمان . واذ كان له صديق سجن بسبب الدين ومات فى سجنه بالجدرى الذى أصابه فيه ، فقد أقنع مجلس العموم بتعيين لجنة - عين على رأسها - للتحقيق فى أحوال سجون لندن . وأفرغ القذر والمرض والفساد والظلم الذى أماط التحقيق اللثام عنه ضمير انجلترا لحظة . فرقت بعض الحراس الذين وجه اليهم أكثر اللوم ، وخففت بعض اللوائح الجديدة من المفاسد القديمة ، ولكن معظم المساوىء بقى على حاله ، وكان على الاصلاح الحقيقى للسجون أن ينتظر مجيء جون هوارد . والربع الأخير من القرن الثامن عشر . واتجه أوغلثورب الى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر فى انجلترا . وفى ١٧٣٣ أسس مستعمرة جورجيا ، وعمل فترة واليا عليها ، فحظر استيراد العبيد ، ورحب بالمورافيين ، وجون ويسلى ، واللاجئين البروتستانت من النمسا . ولما عاد الى انجلترا والبرلمان ، حصل على قانون يعفى المورافيين الانجليز من حلف اليمين أو حمل السلاح . وأصبح الصديق الحميم لجونسون ، وجولدسميث ، وبيرك ، وعمر الى التاسعة والثمانين . وتوج الشاعر بؤب هامته ببيتين قال فيهما « ان انسانا يدفعه حب الخير الشديد سيطير مثل أوغلثورب من قطب الى قطب (٨٥) » .

٦ - آداب السلوك

ظل الرجال الذين يتنزهون فى الحدائق العامة أو فى بل مل - كما كانوا أيام اليزابيث أو عودة الملكية - هم الجنس الأفخم هنادما . يرتدون - فى غير العمل أو البيت - قبعات مثلثة الأركان ممالة ، تزهو غالبا بالشراريب أو الأشرطة أو العقد ، ويعقصون غدائرهم بـ « فيونكات » جميلة خلف العنق ، أو يغطون رؤوسهم بباروكة مبدرة . وكانت ستراتهم الجميلة التى تحدث حفيفا حول ركبهم تزهو بأزرار قصد بها أن تبهر الناظر أكثر مما تربط السترة ، وكانت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب . الفاخر تعلن عن ثراء لابسها أو طبقته . واجتذبت صداريهم المزوقة الانظار بالوانها الفاقعة - الصفراء أو البرتقالية أو القرمزية أو القرنفلية أو الزرقاء - وتدلّت منها دلالة ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية .

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطي حواشيها بأهداب تخفى ملابس داخلية من الفانلا ، وكانوا يطوقون أعناقهم فى تانق بالاربطة (الكرافتات) المصنوعة من شاش « اللون » (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا) ، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم ويثلاثة أزرار فى الخصر ، وثلاثة مخفاة فى لسان يغطيها . أما جواربهم الطويلة فهي عادة حمراء اللون ، ولكنها قد تكون من الحرير الابيض فى المحافل الرسمية . واقتضى الزى فى ١٧٣٠ أن تكون أحذيتهم حمراء عند الاصابع والكعب . على أن فتى العصر كان برغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان اذا لم يتقلد سيفاً . فلما صعدت الطبقات الوسطى فى سلم المجتمع استبدلت بالسيوف العصي التى كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشا بديعا ، ولكن بما أن الشوارع كانت لا تزال محفوفة بالخطر ، فإن العصا كثيرا ما احتوت سيفاً . وكانت المظلات قد دخلت الصورة فى أواخر القرن السابع عشر ، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر . واقتضى الركوب فى الحدائق العامة أو خلال الصيد بالكلاب ارتداء أزياء خاصة طبعا ، وقد حاول الشبان المغالون فى التانق (وكانوا يسمون المكرونى) جاهدين لفت الانظار بالاسراف فى الزينة أو القلون . وفريق آخر سمي « سلوفينز » غالوا فى الظهور بعادات رثة وثياب مهملة ، فنكشوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك ، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم ، اعلنا لاستقلالهم ودليلا على أصالة التفكير .

أما النساء فكان اذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن فى شبابنا الدهش ، حين كان جسد الانثى سرا غامضا مبهرا عزيز الرؤية . وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها فى خفة من خطوة الى خطوة وتكشف كشفا خائفا عن كعوب متلألئة وأقدام رشيقة . وكانت الاطواق التى قد تمتد تسع ياردات حول الجسم سدودا ، والمشدات تروسا ، فتطلبت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ الى الدروع ويتسلق الاسوار ، وكان هذا الوضع أحقر لخيال الشعراء . وضاع بعض ما لشعر المرأة من بريق وبهاء فى الطبقات المقواة التى علت فوق رأسها علوا اقتضى حمايتها من أن تحرقها اثريات . وأخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاءات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجب

المتحركة ؛ وجندت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وأذانهن ونحورهن وأذرعتهن وثيابهن وأحذيتهن . وكانت المرأة العصرية ، من قبعتها الشامخة وغدائرها المعطرة حتى حذائها الحريري المرصع بالاحجار الكريمة ، تلبس لتطيح بأى تردد من جانب الذكور المحدثين بها . وفى عام ١٧٧٠ كانت فنون التبرج قد بلغت من السحر حدا حمل البرلمان فى نوبة مرح على اقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور :

« كل النساء - أيا كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن أو طبقتهن ، وسواء كن عذارى أو صبايا و أرامل ، اللاتى يخدعن أو يغوين أو يوقعن فى الزواج - ابتداء من هذا القانون وبعده - أى ذكر من رعايا صاحب الجلالة بالعطور أو الطلاء أو دهانات التجميل أو الاسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الاسبانى أو الكورسيهات الحديدية أو الأطواق أو الأحذية العالية الكعوب الخ ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضى القانون الذى يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح ، ويصبح الزواج بمجرد ادانتهم باطلا (٨٦) » .

وحاولت القوانين المنظمة للانفاق جاهدة أن تحد من الغلو فى الانفاق على اللباس ، ولكن العرف قضى على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد فى عيد ميلاد الملكة كارولين ، التى لبست عند تتويجها ثوبا تكلف ٢٤٠٠٠ ر. ٢٤٠٠ ر. جنيه - أكثرها أحجار كريمة مستعارة .

وكان البيت مكانا يستطيع المرء فيه أن يخلق كل ملبس عسير يقتضيه الظهور ، فيرتدى فيه أى شيء أو أقل القليل من الثياب . ولم تكن النواذير معينة على الفضول لأن عددها خفضه قانون الى خمس ، وفرض على المزيد ضريبة باهتباره ترفا . وكان داخل البيوت مظلمة كتما لم يصمم ليساعد على التنفس . أما الاضاءة فبالشموع ، وهى عادة لا تزيد على شمعة فى وقت واحد لكل أسرة ؛ ولكن الأغنياء كانوا ينورون غرفهم بالثريات المتالقسة وبالمشاعل الزيتية . وفى قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو ، والسلالم تصنع من الخشب الضخم والدرايزينات المتينة ، والمدفات من الرخام الفاخر ، والكراسي تحشى بالشعر ، وتنجد بالجلد . أما الأثاث فمصمم بالطراز

« الجورجى » الثقيل ، تنشابك فيه النقوش ويتلألا بالتغشية بالذهب .
وحوالى ١٧٢٠ أدخل خشب « المجنة » من جزر الهند الغربية ، وكان
أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك ، فصنعت أدوات أحد ،
وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الأثاث فى البيوت
الانجليزية .

وكانت البيوت ندفا بحرق الفحم فى المواقد و الافران المكشوفة أو
حرق الخشب فى مدفات واسعة . وكان هواء لندن غائما بالدخان .
وأصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهدهدها
دائما من غبار وسناج . واعتبر الفرنسيون أعداءهم الانجليز أحفل
الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولنديين . كتب نيكولا دسوسير فى ١٧٢٦
بقول :

« لا يمضي اسبوع الا والبيوت المعنى بها تغسل مرتين فى الايام السبعة
علوا وسفلا ، لا بل تدعك معظم المطابخ والسلالم والمداخل كل صباح .
وينال الأثاث كله ، خصوصا آنية المطبخ جميعها ، أعظم قدر من النظافة .
وحتى المطارق الكبيرة والاقفال التى على الابواب تدعك حتى تلمع (٨٧) »

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء . أما غرف الاستحمام فكانت ترفا
لا يستمتع به غير الاقلين ، وكان أكثر الناس يستحمون بالوقوف فى حوض
ورش الماء على أجسادهم .

وكان العامة ينفقون أكثر ساعات البيت وأوقات الصحو فى المطبخ
يلوذون فيه بالموقد الكبير ، فيأكلون ويتجاذبون الأحاديث وأحيانا ينامون
فى المطابخ لأنها واسعة جدا . أما حجرات الطعام فللمناسبات الخاصة .
والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر ، فهو عند الطبقات الوسطى فى
الساعة الثانية أو الثالثة ، وعند الأغنياء فى الخامسة أو السادسة ، فالحال
يومها هى الحال اليوم ، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء . وكانت النساء
فى البيوت العصرية يبرحن القاعة اذا فرغن من الطعام ، لأن الرجال يبدعون
عندها الشراب والتدخين وشرب الأنخاب وقص الحكايات . وكان الغداء
وافرا ، ولكنه كان أول ما يتناوله بريطانى المدينة من طعام بعد الفطور
وتصبيرة فى الحادية عشرة صباحا . وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

الذى يأكله الانجليزى فى جلسة واحدة . وكان معظم الطعام فى الطبقتين العليا والوسطى من اللحم ، أما الخضر فزخرف لا يؤبه به ، والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاي شراب الجميع وان كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات . وكان عشاء التاسعة مساء مسك الختسام لمنجزات اليوم .

وكان أكثر الانجليز يلوذون بأمان بيوتهم فى الليل ، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشطرنج والداما والبليارد والورق . قالت دوقة ملبره « بربك لا تحدثنى عن الكتب فكل ما أعرف من كتب هم الرجال والورق (٨٨) » . وكان الأساقفة والقساوسة ، وحتى الوعاظ المتزمتون من أتباع المذاهب المنشقة على الانجليكانية ، يلعبون الورق ، وكذلك الفلاسفة ، فنذر أن مضى هيوم الى فراشه دون أن يلعب دورا من الهويست (وهو البردج الآن) . وفى ١٧٤٢ نسق آدموند هويل قوازين الهويست فى « رسالة موجزة » وبعد ذلك وجد أن تلعب اللعبة « وثق قوازين هويل » ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ . وكانت الحيوانات البيتية الأليفة ضرورة فى الأسرة ، ولا تقتصر على الكلاب والقطط ، بل قد تجد هنا وهناك سناسا أو اثنين (٨٩) . وكل امرأة تقريبا تربي الأزهار ، ولكل بيت تقريبا حديقة .

وجعلت انجلترا من تصميم الحدائق غراما قوميا ، وهى التى أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به . وفى عهد تشارلز الثانى كانت الحدائق الانجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية - لا سيما فرساي - ، فتصمم الحدائق « النظامية » على خطوط هندسية ، سواء المستقيمة أو المستطيلة أو نصف القطرية أو الدائرية ، وبوفر لها الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هذه الألفاظ الثلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر) ، والأشجار ومنابت الشجيرات ، والسيارات المقلصة فى خط منسق ، والتماثيل الكلاسيكية الموزعة توزيعا متناسقا . وكانت حدائق اللهو بفوكسهول وريزلج نصمم على هذا النحو ، ونستطيع ان نجد عينة من هذا الطراز النظامى اليوم فى هامتن كورت . ومع أن الطراز كان منسجما مع أدب « العصر الاوغسطى » الكلاسيكى الجديد ، فان خير

ممثلى ذلك العصر من الأدباء ، وهما اديسون وبوب ، تمردا على الحديقة النظامية ، وألحا بأدب فى المطالبة بـ « حديقة طبيعية » ، تترك على الأقل جزءا من سحاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب أو تهذيب ، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذونات الطبيعة غير المتوقعة . وشاركت التأثيرات الصينية فى هذا التمرد ، فحلت هياكل الباجودا محل التماثيل فى بعض الحدائق ، وبنى دوق كنت فى حدائقه بكيو بيتا لكونفوشيوس . وكامنت الحديقة الطبيعية انعكاسا لطومسن وكولنز العاطفيين أكثر من اديسون المحتشم وبوب المتأنق المرتب ؛ وشاركت هذه الحديقة « شعراء الوجدان » فى سوبرانو « رومانسي » لباص كلاسيكى . واتفق بوب وطومسن فى اطراء الحدائق التى صممت على ضيعة « ستو » التى يملكها رتشرد تمبل ، فيكونت كوبم . وكان تشارلز برردجمان قد بدأها على تصميم نظامى ، فأعاد وليم كنت ولانسلوت « كيبابليتي » براون تشكيلها وفق نمط طبيعى ، فأصبحت حديث هواة فلاحة البساتين فى انجلترا وفرنسا ، وظفرت بثناء جان جاك روسو .

ومن وراء الحدائق انسابت النهرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكسالى باقتناص السمك ، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية أو القطا أو الحجل أو الدجاج البرى ، أو يتبع فيها الصيادون ذوو الأردية القرمزية كلابهم ليلحقوا بالثعلب المحاصر فى ركن أو الأرنب البرى المرهق . أما البريطانيون الأقل يسارا فيتسلون بالكريكت والتنس والفأيف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل ، وقتال الديكة ، وتحريش الكلاب بالدببة ، ومباريات الملاكمة - بين النساء أو بين الرجال على السواء . وكان المتكسبون بالملاكمة أمثال فج وبايبر معبودى كل الطبقات ، يجتذبون الى الحلبة الحشود الكبيرة ، ويتلاكمون - الى عام ١٧٤٣ - بقبضاتهم عارية بغير قفازات ؛ ثم أدخل استعمال قفازات الملاكمة ، ولكن سنين كثيرة انقضت قبل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها ، وهى أنها ليست سوى وسيلة مخنثة لا تليق بجون بول . وكان من الملاحى التى أعلن عنها فى لندن فى ١٧٢٩ - ٣٠ ٨ - قصة الحضارة

« ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حرا » فى حلبة ، و « كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه ، ودب يطلق فى الوقت ذاته ، وقط يربط الى ذيل الثور (٩٠) » . وفى لعبة سموها « قذف الديوك » كان ديك يربط الى عمود ، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت . وكانت أحب مباريات الديكة الى الشعب تلك التى تطلق فيها مجموعة منها تصل الى ستة عشر ديكا على مجموعة أخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة فى أحد الجانبين ، ثم تقسم الديكة المنتصرة الى معسكرين متقاتلين ، يقتتلان حتى يفنى جميع الديكة فى أحدهما ، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع الا ديكا واحدا . وكانت الاقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضها ببعض بوطنية رفيعة ، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلا اخلاقيا للحرب (٩١) . وكانت كل الرياضات تقريبا تشفع بالمراهنات .

أما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان فى وسعهم أن يلتمسوا التسلية فى فوكسهول أو رينلاج ، ففى حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن أن يستمتعوا بما تستشعره الجماهير من دعة وأمان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم ، هناك يستطيعون أن يرقصوا أو يشاركوا فى الحفلات التذكيرية ، ويجلسوا تحت أغصان مضاعة بالمصابيح ، أو يرشفوا الشاي ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيان العصر ونجوم المسرح العابرين بهم ، ويتطلعوا الى الصواريخ النارية أو الألعاب البهلوانية ، ويستمتعوا الى الموسيقى الشعبية ، ويتناولوا الطعام فى أبهة رسمية ، أو يلتمسوا المغامرات فى أزقة العشاق المتوارية عن الانظار فى شكر وعرفان . وفى رينلاج ، تحت سقف قاعة « الروتندا » الكبرى ، كانوا يستطيعون أن يرقوا بأنفسهم الى موسيقى أسمى فى وسط قوم من طبقة أوجه . كتب هوراس ولبول فى ١٧٤٤ يقول « فى كل ليلة أذهب الى رينلاج التى هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة ، فما من انسان يذهب الى غيرها ، وكل الناس يذهبون هناك (٩٢) » . وكانت فوكسهول ورينلاج تغلقان أبوابهما شتاء ، ولكن الانهار قد تتجمد ، وهنا تزدهر رياضات الشتاء . وحدث فى عيد ميلاد ١٧٣٩ أن تجمدت الانهار حتى التيمز ، وأبدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفال من الرقص والأكل على الجليد ، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبث الى كوبرى لندن (٩٣) . واخيرا كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقى المرم

بكل العالم من غير أصحاب الالقاب ، ويستمتع بشتى المشاهد من صندوق الدنيا الى الرجال الطائرين .

أما آداب السلوك ، فإننا اذا استثنينا بعض النساء المثقفات ، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام . وسيرينا المصور هوجارث حياة العامة ، ولكنه لن يرينا حديثهم . فالعاهرات ، والفساق ، وسائقو عربات الجر ، والمراكبية ، والجنود والبحارة ، كلهم كانوا اساتذة فى اللعن وفحش القول ، وقد خلد باعة السمك فى بلنجزجيت (واللفظ معناه لغة السوق) ذكرى سوقهم ببذاعتهم التى لا مثيل لها . وكان الحديث فى الفنادق والحانات أقل مرحا ولكنه متحرر الى حد البذاءة وكان الرجال حتى فى بيوتهم يروعون النساء بقصصهم وسبابهم وأنخابهم . ولم تكن السيدات أنفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة أو يتورعن عن القباحة المرحية .

أما فى مشارب القهوة والأندية فاللغة أكثر تهذيبا . وقد كتب ستيل وسويفت وفيلدنج وكوبر وجونسن عن الحديث ، بوصفه فنا مهذبا . وفى وسعنا أن نتصور الرجال فى اجتماعاتهم التى يحرصون على اقضاء النساء عنها ، يرشفون قهوتهم أو جعتههم ، ويترعون خمرهم ، ويدخنون ببياتهم ، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية ، وحول شراء روبرت ولبول للأصوات ، والسياسة المنكرة التى ينتهجها

اولئك « الكلاب الفرنسيون » وراء المانش . وكان الضحك عميقا فى البطون ، عاليا فى الحناجر ، رغم مناشدات الاخلاقيين أمثال شافيتسبرى وغيرهم ممن لا نزعة أخلاقية تميزهم مثل تشستر فيلد ، بوجوب ترك الضحك للوضعاء ، وبأن يخفف حتى يصل الى مجرد الابتسامة (٩٤) . أما تعاطى النشوق أو السعوط ، الذى ورد ذكره أول مرة فى ١٥٨٩ ، فكان قد بات شعيرة مرغية عند الجنسين ، وقد ظن القوم أن للنشوق (وهو التبغ المسحوق) قيمة دوائية كالقهوة ، فالعطس الذى يحدثه يظهر المسالك الأنفية ، ويشفى من الصداع ، والبرد ، والصمم ، والخمول ، ويهدئ الأعصاب ، ويصلح الدماغ . ولم ير شخص ، رجلا كان أو امرأة كامل الهندام بغير علبة النشوق ، وعلى تلك الحاشية الملحقه

بصاحبها (أى العلبة) أفرغ الصائغ والجواهرى ، وصانع المينا ،
ورسام المنمنمات ، أرق ما جاد به فنهم .

وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة فى لندن مراكز للقراءة كما كانت
منتديات للسمر . فقد اشتركت فى الجرائد والمجلات ، وأدارتها على
زيائنها ، ووفرت الأقلام والورق والحبر ، وتسلمت الخطابات لارسالها
بالبريد ، وقبلت أن تحفظ البريد المرسل الى عناوينها . وتطورت بعض
مشارب القهوة أو الكاكاو ، مثل مشرب هوايت ، فى هذه الفترة الى
اندية خاصة يطمئن الرجال الى أن يجدوا فيها الصحبة التى يؤثرونها
على غيرها ، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمنأى عن عيون الرقباء .
وما اختتم القرن الثامن عشر حتى كان عدد الاندية مماثلا لما كان عليه
عدد مشارب القهوة فى بدايته . ويبدو أن الماسون (البنائين الأحرار)
بدأوا تاريخهم الانجليزى على هيئة ناد سموه « المحفل الكبير » - نظم
بلندن فى ١٧١٧ . وشجعت الاندية الشرب والقمار والدس السياسى ،
ولكنها علمت الرجال على الأقل نصف فن الحديث . اما النصف الآخر
من هذا الفن فكان مفقودا ، لأن الاندية كانت خلوات للعزاب ، ولم يجد
الأدب الأرفع والفكاهة الأرق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما
هناك . فلقد كانت انجلترا بلد الرجال ، أما النساء فلم يكن لهن فى
حياتها الثقافية الا حظ ضئيل ، ولم يكن بها صالونات ، فلما حاولت
الليدى مارى مونتاجيو أن تقيم صالونا نظر القوم اليها كأنها مخلوق غريب
الاطوار لا يعرف أين مكانه (٩٥) .

واستطاعت النساء فى الطبقات العليا أن يستخدمن مهارتهن فى
الاستقبالات ، والمراقص ، وحفلات الموسيقى فى البلاط أو فى بيوتهن .
وكانت نهاية الأسبوع فى بيوت الريف حدثا جميلا فى الحياة الانجليزية
لا يكدره بعض الشيء غير تلك « البقاشيش » الكبيرة التى ينتظر الخدم
أن ينفحوا بها ، وكان على الضيف وهو يغادر البيت أن يغامر بالمرور
وسط الاتباع ، والسقاة ، والخدم ، والقهرمانات ، والبسوابين ،
والخادومات ، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون فى صفين
عند الباب ، فى حين ينتظر مائق المركبة وسائس الخيل خارجا فى
عبوس وتجهم . وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لسادتهم لم يكن

له كبير سند من الواقع فى النصف الاول من القرن الثامن عشر ، فقد كانوا فى كثير من الحالات عديمى المبالاة ، وقحين ، متمسدين ، لا يترددون فى التنقل من بيت الى بيت لقاء أجر أفضل . وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف اذا استطاعوا ، ويشربون خمر مولاهم ، وتلبس الخادومات حلى سيداتهن أو ملابسهن .

وكانت قمة انتماء شخص ما الى المجتمع العصرى ، بعد أن يقبل فى البلاط الملكى ، أن يلم بمنتجع للمياه المعدنية ، يشرب فيه المياه الطبية ، أو يستحم مع صفوة القوم بعيدا عن البحر المختلط . واشتهرت تنبردج بينابيعها ، ولكن روادها كانوا اخلاطا . أما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى ، ورقصات المريسة ، والكلاب المؤدية للألعاب ، والمياه المسهلة وان لم تجمع بعد معادنها فى « أملاح ابسوم » . ولم يكن الاستحمام فى البحر رياضة محببة ، وان لحظ تشترفيلد شيئا منه فى سكاربرو ، ولكن فى ١٧٥٣ تدفقت الى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل « فى سل الغدد وفائدة مياه البحر فى أمراض الغدد » ، وتفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهر منتجعات للاستحمام ، مع أنها لم تعرف من قبل غير أسر صيادى السمك المتواضعة .

أما الأرستقراطيون ففضلوا مدينة باث . فهناك ، وسط أرقى البريطانيين من ذوى الأسقام ، يشرب الرواد - ويستحمون فى مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخموا بالغذاء الطيب . وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت أول غرفة ذات مضخة فى ١٧٠٤ ، وأول مسارحها فى ١٧٠٧ ، وبعد عام أول « غرف اجتماعاتها » التى نوهت بها قصص فيلدنج وسموليت . وفى ١٧٥٥ اكتشف الحمام الرومانى الكبير . وأعاد جون وود وابنه بناء المدينة بالطراز الكلاسيكى كما سنرى . وفى ١٧٠٥ ، أصبح ناش « الجميل » ، وكان محاميا ومقامرا ، دكتاتور حياتها الاجتماعية . فحظر السيوف فى ماكن اللهو العامة ، ووفق فى أن يجعل المبارزات - فى باث - عملا ضارا بالسمعة . وأقنع الرجال بأن يلبسوا الأحذية المكشوفة بدلا من الطويلة . وكان ذو ذاته يلبس قبعة بيضاء هائلة ، وسترة كثيرة الوشي

غنية التطريز ، ويركب عربة تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهياء ،
ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح . وقد أصلح من شأن الطرق
والمباني ، وخطط الحدائق الجميلة ، ووفر الموسيقى ، وسحر الجميع
الا قلة منهم بلطفه وظرفه . وتوافد نبلاء الانجليز على مملكته ، لأنه
وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات ، فلما سنت قوانين تحرم القمار
ابتكر ألعاب حظ جديدة تتفادى القوانين . واخيرا وفد على باث جورج
الثانى ، والملكة كارولين ، والأمير فردريك لويس ، وغدت باث حينها
بلاطا ثانيا . ولا ريب فى أن إيرل تشستر فيلد الذى كان يعشق المدينة
كان مطبقا على صفوتها ذلك الوصف الذى وصف به جميع البلاطات
بقوله أنها أماكن « يجب أن تتوقع أنك ستلتقى فيها بارتباطات دون
صداقة ، وعداوات دون ضغينة ، ونباله دون فضيلة ، ومظاهر تنقذ
وحقائق تضحى ؛ آداب حسنة مشفوعة بأخلاق سيئة ، وكل الرذائل
والفضائل مقنعة ، حتى أن كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين
الواحدة من الأخرى حين يلقاها أول مرة فى البلاط (٩٦) » .

٧ - تشستر فيلد

فلننفق نصف ساعة مع هذا النبيل المرفه الحس . فقد تمثلت فيه
خصائص ارستقراطية العصر الانجليزية ، اللهم الا تاليفه كتابا حسنا .
ذلك أن هذا الكتاب « رسائل لولده » ، الذى درج الناس على الغض
من قدره ، هو خزانة من الحكمة فى نثر مشرق ، ومرشد محكم لعادات
طبقتة ومثلها العليا ، واعلان جذاب عن ذكاء مرفه مهذب .

كان اسمه بالعماد (١٦٩٤) فليب دورمر ستانهوب ، بن فليب
ستانهوب ، إيرل تشستر فيلد الثالث ، والليدى اليزابث سافيل ، ابنة
جورج سافيل ، مركز هاليفاكس ، المسير الماكر للعهد الملكية
السابقة . ماتت أمه فى طفولته ، وأهمله أبوه ، فكفلته مركيزة
هاليفاكس . وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معلم
خاص ، فأصبحت ثقافة روما وفرنسا ابان نضجها جزءا من عقله .
وانفق سنة فى كمبريدج ، ثم انطلق فى ١٧١٤ فى الرحلة الكبرى . وفى
لاهاي قامر بمبالغ كبيرة ، وفى باريس جرب عيئات من النساء تجرية

الفاسق الذواق للنساء ، ومن باريس كتب (٧ ديسمبر ١٧١٤) يقول :
« لن أبدى لك رأيي في الفرنسيين ، فكثيرا جدا ما يخالني الناس
واحدا منهم ، وقد حياني العديدون منهم باسمي تحية يمكن - في
اعتقادهم - أن يحيوا بها انسانا ، وهي : « سيدى ، انك على شاكلتنا
تماما » حسبى أن أقول اننى وقح ، كثير الكلام ، عالى الصوت ،
أمر ناه ، أغنى وأرقص أثناء سيرى ، وأهم من هذا كله أننى انفق مبلغا
باهظا على شعرى ، ومساحيقى ، وريشي ، وقفازى الأبيض (٩٧) » .

فلما عاد الى انجلترا عين وصيفا لمخدع أمير ويلز وقتها (الذى
أصبح جورج الثانى) . وكان جيمس سنانهوب ، الوزير الأثير لدى
جورج الأول ، قريبا لفليب . وعثر له على دائرة يمثلها فى البرلمان ،
فظل أحد عشر عاما عضوا من أعضاء حزب الأحرار فى مجلس العموم .
فلما أصبح إيرل تشستر فيلد الرابع بعد موت أبيه (١٧٢٦) نقل الى
مجلس اللوردات ، الذى قال فى وصفه فيما بعد انه « مجلس ذوى
الأمراض المستعصية » . وحين أوفد الى لاهاي سفيرا (١٧٢٨) قام
بمهمته خير قيام ، فخلع عليه وسام ربطة ساق الفروسية وعين وكيلا
أكبر للبيت الملكى . وفى ١٧٣٢ أنجبت له خلية تدعى الأنسة بوشيه
ولدا هو فليب ستانهوب ، الذى وجهت اليه فيما بعد « الرسائل » التى
كتبها أبوه . وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام ، ابنة جورج الأول
غير الشرعية من دوقة كندال . ولعله توقع أن تأتية بمهر ملكى ،
ولكنها لم تفعل ، فكان زواجا شقيا شقاء أرستقراطيا .

وكان من الجائز أن يرتقى الى منصب ارفع لولا معارضته مشروع
قانون لولبول بفرض ضريبة انتاج على التبغ والنبذ . وقد عاون على
هزيمة القانون ، وما لبث أن طرد من الحكومة (١٧٣٣) . وكافح
ليسقط ولبول ، وضيع صحته ، واعتكف فى القارة (١٧٤١) ، وزار
فولتير فى بروكسل ، واختلط بفونتنيل ومونتسكيو فى باريس . فلما
قفل الى انجلترا واصل سياسة المعارضة للحكومة . وقد أبهجت المقالات
التى كتبها تحت اسم « جفرى برودبوتوم » لصحيفة جديدة تدعى
« انجلترا القديمة » سارة ، دوقة ملبره ، فاوصت له بعشرين ألف جنيه .
وفى ١٧٤٤ فاز حزبه ، حزب « البرود بوتوم » (الأحرار) . وانضم

الى بلام فى الوزارة ، واوفد الى لاهاي ليقنع الهولنديين بالانضمام الى انجلترا فى حرب الوراثة النمساوية . فادى المهمة بلباقة وحذق ، ورقى الى منصب نائب الملك فى ايرلنده (١٧٤٥) وكانت السنة الوحيدة التى قضها فى ايرلنده أنجح سنى حياته . فقد أنشأ المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة ، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة . وأنهى اضطهاد الكاثوليك ، ورقى العديدين منهم الى مناصب الحكومة وبلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له أنهم حين غزا المطالب الشاب بالعرش الانجليزى انجلترا من اسكتلنده ، وتوقعت انجلترا ثورة فى ايرلنده تنشب فى الوقت ذاته ، رفضوا أن يثوروا على تشترفيد .

ورد الى انجلترا وزيرا (١٧٤٦) . ولكن أستاذ الرفة واللباقة اقترب غلطة مدمره . ذلك أنه تودد الى خليعة الملك لا الى الملكة ، فنجحت كارولين فى تدبير سقوطه . وفى ١٧٤٨ طلق الحياة العامة ، وانكفا كما قال الى « حصانى ، وكتبى ، واصحابى (٩٨) » وعرض عليه جورج الثانى لقب الدوقية ، ولكنه رفضه . وفى ١٧٥١ قاد حركة تبلى التقويم الجويجورى ، وتحمل وطأة استياء الشعب من « السرقة البابوية » لأحد عشر يوما من الشعب الانجليزى . وفى ١٧٥٥ سلب عليه جونسن ناره بمناسبة اهداء المعجم الذى ألفه ، وسلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة فى موضع لاحق .

وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ ١٧٣٧ . وينم حبه لهذه الثمرة الجاذبية لسفارته الأولى فى هولنده على الحنان الذى أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته . قال للفتى : « منذ رأت عيناك نور الحياة أصبح شغلى الشاغل ، المحبب الى نفسي ، أن أجعلك أكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية (٩٩) » . وقد خطط لتعليم فليب ، لا ليحمله مسيحيا مثاليا ، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية . وبدأ والغلام فى الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم . وبعد عامين راح يعزف النغمة التى لن يفتا يلح عليها فى رسائله . يقول :

« فى خطابى الأخير كتبت لك عن أدب المجتمع العصرى ،

كاولئك الذين ألفوا ارتياد القصور ، وهم القطاع الأنيق من النـسـوع الانساني . وأدبهم عفوى طبيعى ، وعليك أن تميز بينه وبين تأدب الدهماء والريفيين ، وهو تأدب مقيّد أو مزعج دائما . فالرجل المهذب يبدى رغبة دائمة فى أن يسر من يتحدث اليه ، ويحرص على ألا تكون تحياته مزعجة . وقل من الانجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم اما خجلون واما وقحون ، فى حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين فى سلوكهم . وبما أنك بحكم النصف الأفضل فرنسي صغير ، فانى أرجو أن تكون على الأقل « نصف » مهذب . وستكون أميز وأبرز فى بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية (١٠٠) .

وعليه فحين بلغ فليب الرابعة عشرة أرسله أبوه الى باريس باعتبارها المدرسة التى تنهى صقل عاداته وان كان عليما بأنها ستنتهى فضائله أيضا . وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحياة أن أراد ان ينفع حكومته . والدراسة المناسبة لرجل الدولة هى دراسة الانسان ، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنون الأدب عن طريق المعلمين الخصوصيين والرسائل ، رده الايرل - الذى كان خبيرا بهذه العلوم والفنون - من الكتب الى البشر . قال :

« يا صديقى العزيز ، ان قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم . . . فدوق ملبرة الراحل ، الذى كانت كفايته مفاوضا تعدل على الأقل كفايته قائدا حربيا ، كان جاهلا جهلا مطبقا بالكتب ، ولكنه كان خبيرا بالرجال ، فى حين ظهر ان جروتشوس العلامة كان وزيرا خائبا غاية الخيبة ، سواء فى السويد أو فى فرنسا (١٠١) » .

فاذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغى له أولا أن يدرس الطبقات الحاكمة ، بيئتهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وغاياتهم ، ووسائطهم ؛ والا يقرأ غير أجود الأدب ليكتسب أسلوبا حسنا فى الكتابة ، لأن هذا أيضا جزء من فن الحكم ؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون ، ولكن ، حذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفا أو موسيقيا (١٠٢) . وينبغى له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوروبية الحديث ، ملوكها ووزرائها ، قوانينها ودساتيرها ، مائياتها ودبلوماسيتها ، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولابروير

عن طبائع البشر ، انهما حقا « كلبيان » ، ولكنك لن تخطيء خطأ كبيرا ، فى السياسة على الأقل ، ان اذت توقعت من كل انسان ان يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها ، ولنسئ الظن باى سياسي يتظاهر بغير هذا . ولا نتوقع من الناس ان يكونوا معقولين ، بل خذ فى حسابك أهواءهم . « ان أهواءنا هى خلياتنا ، اما العقل فهو الحليلة على احسن تقدير ، 'يسمع كثيرا جدا بلا ريب ، ولكن نادرا ما يعبا به (١٠٣) » تعلم ان تتملق ، لانه لا يمتنع على الملق سوى احكم الحكماء واقدس القديسين ، ولكن كلما صعدت وجب ان يكون تملقك أرهف وأحوط . وادرس اسباب اهم الأسر ، لان البشر أكثر افتخارا بانسابهم منهم بفضائلهم (١٠٤) ، وتودد للنساء ، أولا لتحصل على معونتهن ، فحتى الحكام الأقوياء يتاثرون بالنساء الضعيفات ، لا سيما اذا لم يكن أزواجهم .

اما فى مسائل الجنس ، فان نصيحة تشسترفيلد لولده أضحت الفرنسيين وروعت الانجليز . فقد ذهب الى أن طرفا من العلاقات الغرامية الحرام اعداد ممتاز للزواج والنضج . واكتفى بالاصرار على أن تكون خليات فليب نساء مهذبات ، حتى يصقلنه وهن ياثمن معه . وزكى له مدام دوبان لما كانت عليه من « حسن التربية ورقة الطبع (١٠٥) » ولقن ابنه فن الاغواء . فعليه ألا يقبل أى تمنع وهو مستسلم ، لأن :

« أكثر النساء فضيلة لن يسوءها ان يبوح لها رجل بحبه ، بل ان ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون بأسلوب مؤدب لطيف . فاذا استمعت اليك ، وسمحت لك ان تفصح ثانية عن حبك ، فثق أنك ان لم تغامر بالباقى كله سخرت منك . . فاذا لم تلق منها أذنا مصغية فحاول ثانية ، وثالثة ، ورابعة . وثق ، اذا لم يكن المكان قد احتل من قبل ، أن فى الامكان غزوه (١٠٦) » .

ثم أفضي الايرل ، الذى لم يكن محظوظا فى الزواج ولا مولعا به ، الى ولده برأيه فى النساء ، وهو رأى لم يكن بالحسن جدا :

« فى هذا الموضوع سأفصي اليك ببعض الأسرار التى سيفيدك جدا ان تلم بها ، ولكن عليك أن تحرص أشد الحرص على اخفائها وعلى ألا تبدو

ملما بها . فأعلم اذن أن النساء ما هن الا أطفال كبار ، فيهن ثروة مسلية ، وأحيانا ذكاء ، أما من حيث التفكير الرصين والادراك السليم ، فما عرفت فى حياتى امرأة أتيح لها هذان ، أو فكرت أو تصرفت منطقيا ولو أربعا وعشرين ساعة كاملة . . . والرجل الفطن انما يلهو بهن ، ويلعب معهن ، ويلطفهن ، ويتملقهن . . . ولكنه لا يستشيرهن أبدا فى الخطير من الأمور ولا ياتمنهن عليها وان موّه عليهن كثيرا بأنه يفعل الاثنين ، وهو أشد ما يفخرن به فى هذه الدنيا ، لأنهن ولوعات بالتسلى بالتجارة (التى يفسدنها دائما) . . . وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلن أو دونه ، انهن يبتلعن أبلغ الملق فى شراهة ، وبقبلن أقله فى شكر وعرفان ، وفى وسعك أن تتملق أى امرأة مطمئنا ، بادئا بقوة ذكائها ومنتهيا بذوق مروحتها الرفيع . وخير ما تتملق به النساء الجميلات و القبيحات جمالا أو قبحا غير منازع هو الاشادة بذكائهن (١٠٧) .

وقال الايرل أن النساء فى فرنسا يجب تملقهن فى مثابرة وكياسة لسببين : فان فى استطاعتهم أن يقررن مصير الرجل فى بلاط الملك ، وأن يتمنه لطائف الحياة وفنونها . فالنساء يحتفظن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن ، فالجمال بغير الرشاقة لا يجتذب الرجل ، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القدرة على الفتنة . « ان النساء هن المهذب الاوحد لكفاية الرجال . صحيح انهن لا يستطعن اضافة وزن لها ، ولكنهن يصقلنها ويضيفن عليها بريقا (١٠٨) » . وحذر الايرل ولده من الكلام بسوء عن النساء ، فهذا امر مبتذل ، سوقى ، أحقق ، ظالم ، لأن النساء اقترفن فى هذه الدنيا من الأذى أقل كثيرا مما اقترفه الرجال . ثم انه ليس من الحكمة أبدا مهاجمة « فئات بجمالها » أو طبقات أو جماعات ، « فقد يصفح الأفراد ، أما الهيئات والجماعات فلا (١٠٩) » .

ولم يمل تشسترفيلد من تلقين ولده أصول السلوك المهذب . « فالعادات المهذبة هى الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية ، كما أن نوع السلعة هو الوسيط المقرر فى دنيا التجارة . والناس يتوقعون عائدا فى الحالين على السواء ، وهم لا يقدمون احترامهم لانسان فظ ، أكثر مما يقرضون مالهم لانسان مفلس (١١٠) » .

ومما يعين فى هذا المجال أستاذ رقص قدير ، فهو يعلمنا على الأقل كيف نقعد ، أو نقوم ، أو نمشي دون تبديد فى الجهد والطاقة .
واذ كان الايرل أرسقراطيا ، فقد سمى السلوك المهذب « تربية طليبة » ، فلقد تبين دون وعى منه ، وربما محقا ، كيف يصعب على انسان اكتساب العادات المهدبة دون أن يكون قد ربي فى أسرة وتحرك فى محيط لهما هذه العادات . « ان من سمات الرجل الطيب النشأة ان يتحدث الى من هم أدنى منه دون صلف ، والى من هم أعلى منه باحترام ويسر (١١١) » فعلى المرء الا يستغل علوا فى المقام جاء وليد الصدفة .

« لا تستطيع أن تحسب ، وأنا واثق أنك لا تحسب ، أنك أرقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوى الذى ينظف حجرتك ، أو الخادم الذى ينظف حذاءك ، ولكن لك أن تغتبط ، وبحق ، لما حبسك به الحظ دون غيرك . فاستمتع بتلك المزايا ، ولكن دون اهانة أولئك الذين قضى القدر بحرمانهم منها ، أو حتى الاتيان دون موجب بأى عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان . وأقول لك عن نفسي اننى أشد حرصا على سلوكى نحو خدمى وغيرهم ممن يدعون أدنى منى ، منى نحو نظرائى ، مخافة ان أتهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة ، وهى الرغبة فى اشعار غيرى بذلك الفارق الذى أوجده الحظ بيننا ، ربما دون استحقاق على الاطلاق (١١٢) » .

والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم ، وكلا النوعين يتأثر بعشرائنا .

« هناك نوعان من الخلطاء المهذبين ، الأول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde" ، وهم اصحاب الصدارة فى قصور الملوك وفى الجوانب المرحية من الحياة ، والثانى هم أولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة ، أو يتفوقون فى فن أو علم خاص عظيم القدر . أما عن نفسي فاقصد الفت أن أرانى وأنا جالس الى (الكاتب) أديسون أو (الشاعر) بوب فى صحبة أشخاص يعلنون عنى علو جميع ملوك أوربا وامرائها لو جلست اليهم (١١٣) » .

ومن الحكمة أن يسلك المرء فى كلتا الصحتين بشيء من التحفظ ،
فلا يسرف فى الكلام ولا يغالى فى الصراحة ، وأن يكون « من الحذق
بحيث يخفى حقيقة دون أن يكذب » ، وأن يبدو صريحا وهو
متحفظ :

« تظاهر بأنك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الأمر ...
وان شئت أن تقنع غيرك فليبد عليك استعدادك للاقتناع . وأودع علمك
كما تودع ساعتك جييا خاصا فلا تبرزه . . لجرد الاعلان عن
نفسك (١١٤) . وهم من هذا كله ، احذر الحديث عن نفسك
ما استطعت (١١٥) .

« وأمسك عن الحديث فى الدين ، فلو أنك أطريته لابتسم أصحاب
الثقافة والحكمة ، ولو ذمته لحزن الشيوخ الناضجون . وسوف يفيدك
أن تقرأ توارىخ فولتير ، ولكن احترس من جماعة « الفلاسفة » الذين
يهاجمون الدين .

« لا يبد عليك أنك توافق على تلك الأفكار الاباحية التى تهاجم
الاديان على السواء ، أو أنك تشجعها أو تصفق لها ، والتى هى الحديث
الحقير المهلهل الذى يخوض فيه أنصاف العقلاء وصغار الفلاسفة .
وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم ،
لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم فى أخلاقهم ، ذلك أننا
حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية فى اسمى مكان لها ، والدين فى أدناه ،
فلا بد رغم ذلك من أن نعترف للدين بأنه ضمان اضافى على الأقل
للفضيلة ، وكل انسان حصيف يؤثر الركون الى ضمانين خيرا من
ضمان واحد . لذلك فإينما اتفق وجودك فى صحبة أصحاب « العقول
القوية » المزعومة هذه ، أو فى صحبة اباحيين عديمى التروى ممن
يسخرون بالدين كله اعلنا عن ذكائهم وظرفهم ، فلا تدع كلمة أو نظرة
تبدر منك دليلا على أقل استحسان لما يقولون ، بل على العكس من هذا
فلتفصح رزانتك الصامته عن كرهك له ، ولكن لا تخض فى الموضوع
واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية (١١٦) » .

وفى ١٧٥٢ تبين تشسترفيلد فى المتهم على الدين اول مراحل الثورة الاجتماعية ، « أتنبأ أنه قبل أن ينقضي هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغت من احترام الى الآن (١١٧) » . وفى ١٧٥٣ ، بعد ظهور « الموسوعة » المعادية لرجال الدين بعامين ، كتب الى ابنه يقول :

« ان أحوال فرنسا تزداد خطورة ، وفى ظنى أنها ستمضي فى هذا قدما كل يوم . فالملك محتقر . . . والامة الفرنسية تفكر فى أمور الدين والحكم بغير قيود ، وهو ما لم تفعله قط من قبل ، وقد بدأت تصبح « محايدة » فى هذه الأمور ؛ كذلك يفعل الموظفون ، وباختصار توجد الآن فى فرنسا ، وتزداد كل يوم ، جميع الأعراض التى صادفتها دائما فى التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى فى الحكم (١١٨) » .

وقد كون اثنان من قرائه ، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشسترفيلد الثمانمائة ، رأيا ممتازا عن عقله ، ان لم يكن عن أخلاقياته . أما معاصروه الانجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل الى أن يسلكوه ، دون ترو ، فى زمرة الأدباء الظرفاء لا الفلاسفة . وطابت لهم ملاحظته فى مجلس اللوردات حين قال « من حقنا يا سادتى اللوردات أن نشكر السماء لأن لدينا شيئا نركن اليه خيرا من أدمغتنا (١١٩) » . وراؤه يقامر مقامرة المستهترين ؛ و الحمقى ، وعرفوا أنه لم يكن مثالا يحتذى فى العفة (وهو ما اعترف به لولده) . وقد وصف جونسون الغضوب « الرسائل » بأنها تغرس فى النفس « أخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص (١٢٠) » . وفى هذا الحكم ، كما فى الكثير جدا من أحكام هذا « الخان الأكبر » بعض القصور والتحامل ، فلقد كان تشسترفيلد يعلم الفتى أخلاق جيله وطبقته ، وعادات المجتمع السياسي المتأدب ، وعلينا أن نتذكر أنه كان يهين ولده للدبلوماسية ، وما من دبلوماسي يجرؤ على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده .

غير أن الكثير من التعليم الخلقى الذى محضه فليب كان رغم هذا ممتازا . « لقد طالما أخبرتك فى رسائللى الماضية (وهو حق بكل تأكيد)

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتدقيقا (١٢١) « . وأغلب الظن أن نصيحته له فى أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتن عن الفوضى الجنسية . لاحظ هذا التحذير « أما عن الجرى وراء النساء ، فإن نتائج تلك الرذيلة إنما هى فقدان المرء أنفه ، والتدمير الشامل لصحته ، وطعنات السلاح تصيبه فى حالات غير قليلة (١٢٢) » . وقد ذهب جونسن نفسه ، فى لحظة غافرة ، إلى أن « رسائل اللورد تشسترفيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جدا ، وإذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقى ، وجب أن يوضع فى يد كل شاب مهذب (١٢٣) » . وربما كان فى « الرسائل » قصور فى غرس مبادئ الشرف واللياقة والشجاعة والوفاء . ولكن ليس صحيحا أن تشسترفيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة . وقد أمتدح ملتن ، ونيوتن ، ولوك أكثر كثيرا مما أمتدح سياسى زمانه ، ورأيانه ينشد صداقة خيرة كتاب عصره . وقد أوتى تقديرا حارا للأدب الجيد ، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة . وقد كتب هو نفسه انجليزية لم يبرزها كاتب فى النثر المعاصر له ، لغة بسيطة ، قوية ، واضحة ، فيها من الخفة والمرح القدر الذى يكفى لتعويم الفكر الذى يثقله . وقد أثر الألفاظ الانجلو - سكسونية القصيرة المفعمة بالحيوية رغم احاطته بالكثير من اللغات ، وغزارة علمه بالكلاسيكيات . وفى رأى فولتير أن الرسائل « أفضل ما كتب اطلاقا فى التربية (١٢٤) » . ووصفها سانت - بوف بأنها « كتاب غنى ، لا تقرأ فيه صفحة دون أن تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (١٢٥) » .

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت . ذلك أن الفتى فليب ستانهوب لم يتغلب قط على روحه البليدة ، وعاداته الرثة ، وأسلوبه المتثاقل ، وحديثه المتردد ، فبعد كل هذا الحث والحض ، كما تقول فانى بيرنى ، « كان حظه من حسن التربية ضئيلا كأي رجل لقيته (١٢٦) » . ويبدو أن انحرافا سببه مولد الفتى أو ظروفه أبطل فعل خمسة أربطال من التعاليم . لقد كان فليب يعانى من معوق هو أن له أبا غنيا ومكانا مضمونا ومريحا ، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حفزاه إلى الطموح و المغامرة ؛ لقد افتقد الدفعة الحية للمروح " vivide vis animi " كما قال له أبوه المغلوب على أمره

« تلك القوة التى تهمز الشباب وتثيرهم للارضاء ، والتسالىق ، والتفوق (١٢٧) » . ومن المؤثر أن نرى الايرل المسن يصدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الابوى فلا يجنى غير هذه الثمرة الهزيلة . كتب لولده حين كان فى الرابعة عشرة « ثق أننى سأحبك حبا جما ما دمت تستأهله ، ولكن لن أحبك لحظة واحدة بعد هذا (١٢٨) » ، على أن رسالته الأخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاما فيها حرارة المحبة والتوسل (١٢٩) . ولم يمض عليها شهر حتى مات فليب فى باريس (١٧٦٨) وهو فى السادسة والثلاثين تاركا أرملة وولدين . فلقد تزوج دون علم أبيه ، ولكن تشستر فيلد غفر له ، وراح الايرل الآن يكتب للزوجة الثكلى رسائل هى نماذج فى المجاملة والاحترام (١٣٠) .

أما هو فكان فى تلك الفترة كثير التردد على باث بعد أن أقعده النقرس وأصابه الصمم الى حد محزن . « اننى أزحف فى هذا المكان على أرجلى الثلاث ، ولكن يعزىنى عن محنتى هذه اخوانى الزاحفون معى ؛ ان نهاية لغز أبى الهول تقترب ، وسأختم حياتى بعد قليل كما بدأتها ، على أربع (١٣١) » . وقد اهتم بتربية حفيديه ، ولا غرو فالأمل لا يخبو أبدا فى الصدر العجوز . فلما عاد الى ضيعته فى بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فخورا بشمامه وتفاحه ، وقال انه قانع بأن « يحيا حياة راکدة فى صحبتهما (١٣٢) » . وكتب له فولتير رسائل معزية ، مذكرا اياه بأن الهضم الجيد (الذى احتفظ به الايرل) أجلب للذة من الاذان السليمة . وقابل النهاية بمرح لم يفتر . قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولى ، وكان مثله شيخا مقعدا ، (وربما كان فى قوله هذا متذكرا فونتنيل) « لقد كنت وتيرولى ميتين فى السنتين الأخيرتين ، ولكننا لا نود أن يعرف عنا هذا (١٣٣) » . ومات فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بالغا التاسعة والسبعين ، غير عالم أن رسائله التى منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها فى وصيته ، وأنها بعد طبعتها فى العام التالى ستسلكه فى عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الانجليزى .

الفصل الثالث

الحكام

١ - جورج الأول : ١٧١٤ - ٢٧

كان الانجليز أكثر حذقا من الفرنسيين في شئون الحكم ، كما سيطرين ذلك عما قليل فولتير ومونتسكيو . فبعد أن قطعوا رأس ملك ، وأرسلوا آخر يهرول رعبا عبر المانش ، استوردوا الآن ملكا خلف قلبه وعقله وراءه في ألمانيا ، ملكا يقضي الأجازات الطويلة في وطنه هانوفر ، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط في فهم أساليبه ولغته .

كان بيت هانوفر يمد جذوره في ألمانيا الوسيطة ، ويرجع بنسبه الملكى الى أدواق برنزويك - لونبورج ، ثم الى هنرى الاسد (١١٢٩ - ٩٥) ، ومن قبله الى أجداده الولف أو الجويلف . وقد أصبحت هانوفر نفسها إمارة ناخبة للامبراطورية الرومانية المقدسة في ١٦٩٢ . وتزوج ناخبها الأول ، ارنست أوغسطس ، من صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك إنجلترا . وبعد موت ارنست أصبحت أرملته وريثة للعرش. الانجليزى بقانون تسوية الوراثة الذى أصدره البرلمان فى ١٧٠١ .

ولكن ولدها جورج لويس ، ناخب هانوفر الثانى ، كدر هناة. هذا الميراث السعيد بزواج تعس . ذلك أن زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته ، فدبرت أن تهرب مع الكونت فليب فون كوينجزمارك ، قائد الحرس الجميل . واكتشف جورج المؤامرة ، ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط ، وأغلب الظن أنه أعدم (١٦٩٤) . وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكمت ، وأبطل زواجها ، وزج بها فى السجن طوال الأعوام الاثنيين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آدن . وكانت قد ولدت لزوجها بنتا أصبحت أم فردريك الأكبر ، وولدا أصبح جورج الثانى ملك إنجلترا .

وما تت صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، فى ١٧١٤ ، قبل أن
تموت الملكة آن ، ففقدت بذلك منصب الملك ، ولكن ولدها نودى به على
الفور ملكا لبريطانيا العظمى وارنبده باسم جورج الأول . وفى سبتمبر
وصل الى انجلترا ، بادئا عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى . وجلب
معه ابنه وزوجة ابنه ، وعددا من المساعدين الالمان ، وخليتين ،
شارلوت فون كيلمانريجي ، التى خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجتن ،
والكونتيسة ميلوزينا فون در شولبورج ، التى خلع عليه لقب كونتيسة
كندال ، وربما تزوجها . ولعل انجلترا كانت متقبلة هذا الترتيب
باعتباره متفقا وأخلاقيات ذلك الزمان ، لولا أن كلتا السيدتين كانت
فى عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة ، فميلوزينا تبيع نفوذها
بأثمان باهظة ، حتى أن ولبول شكا منها وهو رب الساد والرشوة ،
وكان جواب جورج أن سال ولبول : الا بتقاضي هو نفسه اتعابا لقاء
نوصياته على طلاب المناصب (١) ؟

فى ١٧١٤ كان جورج الأول فى الحادية والخمسين من عمره ،
فارح الطويل عسكرى السمى ، « رجلا بسيطا فظلا » . لا يكثرث مثقال
ذرة للكتب ، ولكنه كان قد أثبت بسالته فى أكثر من ساحة قتال . وقد
قالت اللىدى مارى مونتاجيو فى وصفه انه « رجل أمله أمين (٢) » ،
ولكنه لم يكن بالغباء الذى يبدو عليه ، وقد اعترفت بأنه « كان طيبا
على نحو سلبى ، يود أن يستمتع الناس جميعا بالهدوء لو أنهم تركوه
بفعل ذلك (٣) » . وما كان أحد يتوقع أن هذا الرجل سيشعر
بالاطمئنان والبسر فى بيئة غريبة عليه كهذه البيئة ، ومنصب قلق كهذا
المنصب . فلقد استأجرته اولجاركية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية
الاستيوارتية مرة أخرى ؛ ثم رأى أن هؤلاء الانجليز المسيطرين ، الذين
هيمنوا على البرلمان ، مصممون على الهيمنة عليه هو أيضا ؛ ولم يستطع
أن يغتفر لهم تحدثهم بالانجليزية . واعتقد أنهم أدنى من عشرائه
الهانوفرين . فاعتكف فى خلوات قصر سانت جيمس ، وهرب الى
هانوفر كل سنة تقريبا ، وبذل ما وسعه من جهد ليوجه الأموال
والسياسة الانجليزية لحماية امارته المحبوبة .

وضاعف من محبته كرهه ابنه له لأنه اعتبره قاتلا . ذلك أن جورج

أوغسطس ، الذى أصبح الآن أمير ويلز (ولى العهد) ، ندد بسجن أمه المتصل ، وتمرد على سطوة خليات الملك وغطرستهن ، وتتاجر مع وزراء الملك ، وأصبح عن آرائه فى صراحة حملت أباه على إقصائه عن القصر . واعتزل الأمير وزوجته كارولين ، اللذان فصلهما أمر ملكي عن إبنائهما ، ليفتتحا بلاطا منافسا فى قصر لستر (١٧١٧) . ووفد عليهما نيوتن ، وتشبترفيلد ، وهرفى ، وسويفت ، وبوب ، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحا ، فوجدوا الأمير أشد فظاظة وغباء حتى من الملك .

وكان هذا التصدع فى الأسرة المالكة منسجما فى عمومته مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان الى حزبي التورى (المحافظين) والهويز (الأحرار) . وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم فى المجالس البلدية ، والانتخابات البرلمانية ، والتشريع القومى ، والادارة والفضاء (٤) . وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية ، كذلك الذى أثاره « مستقلو » كرومويل « والمسوون » . وكان التصويت للبرلمان وقفا على أصحاب الملكيات - وهم لم يتجاوزوا ١٦٠.٠٠٠ فى هذه الحقبة (٥) - وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذى يزكيه المالك الرئيسى للأرض أو اللورد (٦) المحلى . وانتمى الساسة لأحد الحزبين حسب تأييدهم أما للنبلأ أصحاب الألقاب ، وأما للأعيان وأصحاب المصالح التجارية . فأما « رجال الكنيسة الانجليكانية » فاتبعوا مذهب المحافظين ، وأما المنشقون على الكنيسة فأيدوا الأحرار . وكان المحافظون قد عارضوا فى أن يخضع الملك للبرلمان ، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرية حق الملوك الإلهي ، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن فى رد الاستيوارتيين المنفيين الى السلطة ؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعيا أن يزيحهم الأحرار المعادون لأسرة استيوارت ، وبينما كانت الوزارة الى ذلك الحين تضم عادة رجالا من كلا الحزبين ، نرى جورج الأول يقصر المناصب العليا على الأحرار ، وهكذا أرسى نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء . فلما توقف الملك بعد قليل عن رئاسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الانجليزية ، أصبح العضو المهيمن « وزيرا أول » أو رئيسا للوزارة ، وتقلد شيئا فشيئا المزيد من وظائف الملك وسلطاته .

ورأس الوزارة جيمس ستانهوب سبع سنين . ومن أول قوانينه وأكثرها شعبية رده جون تشرشل ، دوق ملبره - الذى اتهمه المحافظون من قبل - لجميع مناصبه السابقة ، خصوصا القيادة العامة للجيش ، وبعد عودة الدوق من منفاه اعتكف فى قصر بلنهم ، وهناك عانى الام المرض الطويل ، ومات فى ١٦ يونيو ١٧٢٢ ، أما الامة التى اغتفرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة ، فقد قبلت هذا الحكم الذى أصدره عليه بولنبروك - « لقد كان رجلا عظيما الى حد لا أتذكر معه هل كانت له أخطاء أو لم تكن (٧) » . وأما أرملته ، وهى مسارة تشرشل التى ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات ، فقد أنفقت اثنتين وعشرين سنة تقديس ذكراه وتذود عنها . فلما طلب الدوق سمرست يدها أجابت « لو أننى عدت صبية وجميلة كما كنت ، لا عجوزا ذابلة كما أنا الآن ، ولو كان فى وسعك أن تطرح ملك الدنيا بأسرها تحت قدمى ، لما استطعت أبدا أن تقسم قلبا ويذا كانا فى يوم من الأيام ملكا لجون تشرشل (٨) » . وفى ١٧٤٣ ، قبل وفاتها فى الرابعة والثمانين بعام ، فكرت فى احراق رسائلها الغرامية القديمة ، ولكنها حين أعادت قراءتها شعرت « بأننى لم أستطع أن أحرقها » ، فتركها لتعيش (٩) . ولا بد أنه كان هناك خير كثير فى امرأة استطاعت أن تحب بهذا القدر من الوفاء ، وفى رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امرأة عصية الى هذا الحد .

وحل بولنبروك محل ملبره فى المنفى . ذلك أنه بعد أن طرده جورج الأول من الحكومة ، وهدد بتقديمه للمحاكمة بتهمة التفاوض سرا مع الاسرة المالكة التى سقطت ، وكرهه الأحرار والمنشقون على الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزا موجعا ، واجتنبه رجال الكنيسة لآذرائه اللاهوت المسيحية - بعد هذا كله فر الى فرنسا (مارس ١٧١٥) ؛ وانضم الى جيمس الثالث ، وأصبح وزير دولة لدولته التى لا وجود لها ، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتى فى انجلترا ، واقترح غزوها من فرنسا . فأعلن البرلمان ادانته بالخيانة ، وصادر ثروته ، وحكم عليه بالاعدام .

واوشكت حركة رد الاستيوارتيين أن تطيح بعرش جورج الأول

مفالمحافظون الكارهون للهانوفريين لأنهم أحلاف غاصبون ؛ وعامة الناس فى انجلترا ، الراسخون فى الولاءات القديمة ، والتواقون سرا للأسرة المنفية ؛ وطبقات اسكتلنده العليا والدنيا ، الفخورة بأنها أعطت انجلترا ملكا اسكتلنديا ، الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحاد (١٧٠٧) الذى قضى على البرلمان الاسكتلندى - كل أولئك كانوا على استعداد للتخريض على غزوة يقودها الشاب الذى اعترف به لويس الرابع عشر ملكا شرعيا أوحد على انجلترا .

وكان جيمس فرانسيس ستىوارت قد بلغ الآن (١٧١٥) السابعة والعشرين ، وان عرفه التاريخ باسم « المطالب المسنّ بالعرش » . كان قد رعى فى فرنسا ، وأشرىه المذهب الكاثوليكي معلموه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثانى اشرابا رفض معه حجة بولنبروك الذى زعم له أنه سيتوى الليل لأسرته فى انجلترا اذا هو وعد باعتناق البروتستنتية . قال له بولنبروك وهو يحاوره ، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخين (اتباع كلفن) ، والانجليكان المحافظين ، على تأييد رجل يأتى الى عرشهم بالمذهب الذى قاتلوا للإطاحة به طوال قرن حافل بأشد الاضطراب؟ ولكن جيمس كان صلبا لايلين ، فصرح بأنه يؤثر أن يكون كاثوليكيا بغير عرش ، على أن يكون ملكا بروتستنتيا . أما بولنبروك ، البريء من الايمان والمبادئ ، فقد حكم على جيمس بأنه أصلح للرهبنة منه للملك (١٠) . وكان البرلمان خلال ذلك (أغسطس ١٧١٤) قد عرض دفع ١٠٠٠٠٠٠ جنيه مكافأة لمن يقبض على جيمس الثالث اذا وطئ تراب بريطانيا .

ثم بدا أن عاملا شخصيا يحول الأحداث الى خدمة قضية المطالب بالعرش ، ذلك أن جون ايرسكين ، ايرل مار ، كان وزيرا لشئون اسكتلنده فى السنوات الاخيرة للملكة آن . فلما طرده جورج الأول ، وضع الخطط لثورة استيوارتية فى انجلترا ، ثم أبحر الى اسكتلنده واستتفر الاسكتلنديين لينضوا تحت لواء ثورته (٦ سبتمبر ١٧١٥) وظاهره نفر من النبلاء ، فارتفع عدد قواته الى ستة آلاف راجل ومستمائة خيال ؛ ولكن أدنبره وجلاسجو والسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى . وقررت الحكومة البريطانية الاعدام عقابا للخيانة

والمصادرة الملكية لجميع العصاة . وعبأت ثلاثة عشر ألف رجل ، ودعت ستة آلاف آخرين للأسطول ، ثم أمرت دوق أرجيل قائد حاميتي ادنبره وستيرلنج بأن يخمد التمرد . فالتقى بقوات مار عند شريفموير (١٣ نوفمبر ١٧١٥) فى معركة لم يستطع أى الفريقين أن يدعى لنفسه فيها نصرا حاسما . وتقدمت قوة اسكتلندية أخرى فى تهور الى ثلاثين ميلا من ليفربول بدلا من أن تنضم الى مار ، مؤملة عبثا أن تثير ونحى حركات التمرد الاستيوارتية فى المدن الانجليزية . وفى برستون طوفها جيش حكومى وأكرهها على التسليم دون قيد أو شرط (١٤ نوفمبر) .

ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الأحداث قبل أن يتطلع من دنكرك فى ٢٧ ديسمبر . وكان بولنبروك قد أنذره بأن ثورة استيوارتية لن تذهب فى انجلترا . ولكن المطالب بالعرش دثية للمضى فى هذه المغامرة ايمانه بالشرعية الالهية لقضيته ، مضافا اليه ١٠٠.٠٠٠ كراون من الحكومة الفرنسية وثلاثين ألفا من الفاتيكان . فلما رسا على أرض اسكتلنده انضم الى جيش مار فى بيرث ، ووضع الخطط لحقل تتويج مهيب فى « سكون » . ولكن صمته واكتنابه ، وشكواه من أنه خدع فى مدى انتشار التمرد ، كل أولئك لم ينف شبا الى حماسة الاسكتلنديين ، فشكوا بدورهم من أنهم لم يروه قط يبنس ، ونادرا ما سمعوه يتكلم (١١) . أضف الى ذلك أنه كان يرتعد من الملاريا ، ولم يحتمل شتاء الشمال . ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة ، فأمرهم بالتقهقر الى مونتروز ، وبحرق جميع المدن والثرى والمحاصيل فى اثرهم لتعطيل أرجيل عن مطاردته . وأسف جيمس على هذا التدمير ، وترك نقودا ليعوض بعض ما خسر أولئك الذين تضررت املاكهم . فلما اقترب جيش أرجيل الذى كان متفوقا جدا من مونتروز فر جيمس ، ومار ، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين الى الساحل ، وأبحروا الى فرنسا (٤ فبراير ١٧١٦) . واستسلمت القوات الثائرة أو تفرقت فى كل مكان .

ورحل معظم الأسرى لىخدموا عبيدا فى المستعمرات ، وأعدم سبعة وخمسون ، وتقرر أعدام اثنى عشر نبىلا اسكتلنديا التجاوا الى فرنسا ، لغا عادوا منها . وكان جيمس قد راوده الأمل فى أن يرسل فليب أورليان

جنودا يخفون لنجدته فى اسكتلنده ، ولكن فرنسا كانت الآن تفكر فى التحالف مع انجلترا ، فحثت جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا . ومن ثم أقام حيناً فى أفنيون البابوية ، ثم فى روما .

وبقى بولنبروك فى فرنسا حتى ١٧٢٣ ، واذ كان يجيد الفرنسية فانه انطلق على سجيته فى الصالونات بين الفلاسفة . وكان يحذق كل شيء الا السياسة ، فاشتري أسهما فى مشروع لو ، ثم باعها بربح كبير قبل أن تنفجر « الفقاعة » . واذ كان قد ترك زوجته فى انجلترا ، فانه اتصل اتصالاً كاد يكون شريفاً بمارى ديشان دمارسى ، وهى مركيزة فيليت الأرملة . وكانت فى الأربعين ، وهو فى الثامنة والثلاثين . وكانت ككثيرات جداً من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع أنها فقدت بعض جمالها ، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاءها هو ما جذبها اليها ، فعشقها ، ولما ماتت الليدى بولنبروك تزوج المركيزة ، وذهب ليعيش معها فى لاسورس . وهناك زاره فولتير كما سبق القول (١٧٢١) . قال الفيلسوف الشاب « وجدت فى هذا الانجليزى الشهير كل علم أمته ، وكل أدب أمتنا (١٣) » .

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برعوس بعض النبلاء ، ولكنه لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين فى بريطانيا . وقد قضت القوانين الثلاثية الأعوام التى صدرت فى ١٦٤١ و ١٦٩٤ بألا يستمر أى برلمان أكثر من ثلاث سنين . ومن ثم وأجه أول برلمان لجورج الأول فى ١٧١٧ احتمال انتخابات قد تعود فيها أغلبية للمحافظين والمتشيعين ، للاستيوارتيين . وتفادياً لهذا الخطر قرر البرلمان ، بمقتضى قانون السبع السنين الذى أصدره فى ١٧١٦ ، أن يمد فى عمره أربع سنوات أخرى ، وقضى بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سبع سنين . قال المرح حفة ملبره « كان هذا أجراً وأكمل تأكيد لسيادة البرلمان عرفته انجلترا الى ذلك الحين (١٣) » . وصدق جورج الأول على القانون الجديد لخشيته هو أيضاً من فوز المحافظين ، وكان معنى هذا فعلاً أن الهانوفرين اضطروا للتخلى عن سلطتهم لى يملكو .

ورغبة فى المزيد من الحماية للأسرة المالكة الجديدة أبرم ستانهوبه

مع فرنسا وهولنده (١٧١٧) حلفا ثلاثيا أنهى التأييد الفرنسي لمطالب اسرة ستيوارت ، والتأييد الانجليزى لاسبانيا ضد فرنسا . وفى ١٧٢٠ وقعت فرنسا صلحا ينطوى على الخضوع ، واستطاع جورج الاول أن يتربع على عرشه الأجنبى فى السنين السبع الباقية له من أجله بقدر أكبر من الاطمئنان . وفى ١٧٢٦ أرسلت اليه زوجته التى ما زالت حبيسة خطابا مرا ، وتحدثه أن يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله . وما لبثت أن ماتت بالحمى المخية . وتقول رواية أن عرافا تنبا بأن جورج الاول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته . وفى ١٧٢٧ بدأت صحة الملك تتدهور . وفى يونيو غادر انجلترا ليزور بلده الحبيب هانوفر . وقرب اوزنابروك القيت فى عربته ورقة مطوية ، وكانت تحوى لعنة قركتها له زوجته وهى فى النزاع . فلما قرأها الملك اضطرب اضطرابا شديدا ، وما لبث أن قضى نحبه فى ١١ يونيو (١٤) .

٢ - جورج الثانى والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبا كانه القصاص العادل الذى أصدرته العناية الالهية وامهلت تنفيذه امهالا غير معقول . وحين قدم رئيس اساقفة كنتربرى لجورج اوغسطس وصية الملك المراحل حشاها فى جيبه ولم يذعها قط . وقال بعضهم انه تكتم امرها لأنها اقترحت الفصل بين تاجى هانوفر وانجلترا ، وزعم آخرون أنها تركت لحفيده فردريك لويس ، ولخليلته أو زوجته دوقة كندال ، ولابنته ملكة بروسيا ، مبالغ كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (١٥) . ولكن التساريخ يجهل الحقيقة .

كان جورج الثانى كابيه جنديا باسلا ، وفى الخامسة والعشرين ابلى بلاء حسنا تحت قيادة يوجين وملبره فى معركة أودينارد (١٧٠٨) . وفى الستين سيفود جنده الى النصر فى ديتنجن (١٧٤٣) . وكثيرا ما كان ينقل عادات المعسكر الى البلاد ، فيصيح غاضبا ، ويغدى على وزرائه نعوتا مثل « الأوغاد » و « الشديدي الغباء » و « المهرجين (١٦) » . ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك ، وتكلم الانجليزية دون خطأ وان شابتها لمكنه وستفالية ثقيلة (١٧) ، ولاحظ فى هيق ولكن فى حذر تلك القيود

التي فرضها البرلمان على سلطاته ودخله ، وظل ثلاثة عشر عاما يساند ولبول في جهوده لتمكين جون بول من ايفاء ديونه ونشر السلام في ربوعه . وكان كآبيه كثير التردد على هانوفر ، الأمر الذي أبهج كل من يعنيههم الأمر . ثم تشاجر كآبيه مع أمير ويلز (ولي العهد) لأنه « كان من بعض تقاليد الأسرة الموروثة كراهية الابن البكر (١٨) » كما قال هوراس ولبول . وكان له كآبيه خليات ، ولو لمجارية المجتمع العصري ، ولكنه على عكس أبيه أحب زوجته حبا جما .

كانت كارولين ، ابنة الحاكم جون فردريك أمير برندنبرج - أنزباخ ، قد نشأت في بلاط شارلوتنبورج ، وهو بلاط أخت جورج الأول ، صوفيا شارلوت ، أول ملكة على بروميا . وهناك التقت بليبنتز واستمتعت بمناقشات الفلاسفة ، واليسوعيين ، واللاهوتيين البروتستانت ، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين . وقد عرض عليها شارل السادس ، الامبراطور « الروماني المقدس » يده وعقيدته ، فرفضتهما حميتا ، وتزوجت (١٧٠٥) من جورج أوغسطس ، أمير هانوفر الناخب « القصير القامة الأحمر الوجه (١٩) » ، وظلت وفيه مخلصمة له الى النهاية رغم حدة طبعه وطبعها ، وخلال كل عثراته وخلياته . وكان جورج يعنف في معاملتها ، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احترامما كفى لتركها تحكم انجلترا (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابه الطويلة ، وتوجه سياساته حين يعود .

ولم يكن لها - فيما عدا شبابها البض النضر - من مفاتن الجسد التي تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين ، ، وبعض لطائف في السلوك و الحديث ؛ ولكنه كان معجبا بتكوين صدرها ، وأمرها أن تعرضه عرضا مقنعا (٢٠) . وازدادت بدانة مع كل حمل ، وترك الجدرى في وجهها ندوبا ، وكان صوتها عاليا صادرا من الحنجرة ، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة . ولكن الانجليز بدعوا شيئا فشيئا يحبون دعابتها الصادرة من القلب ، وأدركوا آخر الأمر أي تضحية من صحتها وسعادتها كانت تبذل لتكون زوجة وملكة سالحة ؛ ورأى مفكرو انجلترا في دهشة أن هذه البرندنبرجية الجلفة كانت تملك ذهنا وأذنا يتذوقان

أدب العصر ، وعلمه ، وفلسفته ، وموسيقاه .

وكاد بلاطها يستحيل صالونا . فقد استقبلت فيه نيوتن ، وكلارك وباركلي ، وبطلر ، وبوب ، وتشترفيلد ، وجاي ، والليدى مارى مونتاجيو . وأيدت المبادرة التى اتخذتها الليدى مارى فى التطعيم ضد الجدري . وانتشلت ابنة ملتن من وهدة الفقر ، وناصرت هندل طوال ذروات الجمهور والملك . وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التى تفتقر الى المال (٢١) ، وانقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه . وضمت الحرية الدينية للاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الاساقفة الانجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم . وكانت هى نفسها من القائلين بالربوبية المتشككين فى الخلود (٢٢) ؛ ولكنها رأت ان الكنيسة الرسمية يجب ان تمولها الدولة باعتبارها معينا للشعب على الفضيلة والهدوء (٢٣) . قال فولتير « لا شك أن هذه الاميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الانسانى . . انها فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش (٢٤) » .

وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه فى مآسى الحياة ، حتى فى ساعة احتضارها . وكانت مصابة اصابة قاتلة بفتق اخفته طويلا عن الجميع الا الملك ، فنصحته وهو يومها فى الخمسين بان يتزوج ثاذية بعد موتها . وكشف جوابه ، وهو مخلص فى حزنه ، عن طبيعة عصره « لا ، سأتخذ خليلات » قالت « رباه ، هذا لا يمنعك من الزواج (٢٥) » وقد بكاهها بعاطفة لم تعهد فيه فقال « لم ارقط امرأة تستحق ان تربط حذاءها (٢٦) » . وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، وتنفيذا لوصيته ، فتح نعشها فى كنيسة وستمنستر لترقد عظامه الى جوارها .

٣ - روبرت ولبول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول أمام عصابة من الأعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل فى تمكينه من أن يعطى انجلترا عشرين عاما من الرخاء والسلام . ولم يكن ولبول « بالولى » أو القديس ، ولعله كان أفسد وزير عرفته انجلترا فى تاريخها ، ولكنه كان أيضا من خيرة

وزرائها ففي ذلك العصر الفاسد ما كان للحكمة أن تحكم الا عن طريق الرشوة والفساد .

كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الأبناء في أسرة نورفوكية عريقة ، وفي اينن التي زامل فيها غريمه المستقبل برولنبروك كان هذا هدف دراسته . ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة ؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية ، فانه لم يجد عناء في التحول بنجاح من اللاهوت الى السياسة . وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضوا في حزب الأحرار (١٧٠١) ، وعين وزيرا للحرب (١٧٠٨) بفضل اتصالاته ، وماله ، وذكائه الحاضر ، وتمكنه من المالية الادارية . وفي ١٧١٢ عزله المحافظون الفائزون ، وزجوا به في برج لندن بتهمة الفساد ، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبليدا في الأنوف ندم يلبث أن أفرج عنه ، وأعيد انتخابه ، وعين وزيرا للخزانة (٧١٥) . وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة في ١٧١٧ . وفي ١٧٢٠ أقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير انذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد انجلترا الى حالة الاستقرار المالي . فلمسا عاد الى منصب وزير الخزانة (١٧٢١) أوقف حالة الذعر كما سبق القول ، بوضعه مصرف انجلترا ظهيرا لالتزامات الشركة ، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره ٧٠٠٠ر٠٠٠ جنيه (٢٧) . وكافا المقامرون الشاكرون ولبول باثنين وعشرين عاما من السلطة .

وقطع اعتلاء جورج الثاني العرش سلطان ولبول برهة . ذلك أن الملك الجديد كان قد أقسم ليكون خصما لدودا لكل من خدموا أباه ؛ فعزل ولبول ، وطلب الى السير سبنسر كونتن أن يشكل وزارة جديدة . ولكن سرعان ما أظهر كونتن قصور مواهبه واعترف به . فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذي دعم حجتها بوعده الملك والملكة يراتب أكبر . وقبل السير سبنسر لقب الايرل شاكرا ، واستعاد ولبول حكمه . وكان أول من أطلق عليه لقب « الوزير الأول » ، على سبيل التحقير (كما كانت الحال في الفاظ « المسيحي » ، و « البيورتاني »

و « المثودى ») . وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوننج ستريت مقصرا رسميا له .

ويلقى خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي . فهو لم ينفق فى الجامعة غير سنة ، وكان ضعيفا من حيث الاعداد التعليمى المعهود فى روعساء الوزارات البريطانيين . ولم يكن فى سلوكه أو كلامه كبير تائق . يقول ماكولى انه « اذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث الا عن النساء ، وكان يفيض فى موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذى لم يتحرج فى الفاظه (٢٨) » . ولم ير ابنه هوراس أن فيه قصورا لأنه لم يقرأ من الكتب الا القليل ، « فلقد عرف البشر ، لا كتاباتهم ، واسترشد بمصالحهم لا بنظمهم (٢٩) » . وكان ملما بقدر من اللاتينية يكفى لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الأول ، لأن ذلك الملك كان يجهل الانجليزية ، وولبول لم يعرف لا الالمانية ولا الفرنسية . وكانت له كل صفات جسون بول ، اللهم الا المشاكسة ، فهو بدين ، صريح ، مخلص ، ودود ، عملى ، يستمتع بالولائم والشراب ، ولكنه يكذب ويكدهج اذا دعاه داعى العمل ؛ وربما كان فيه أيضا من أوجه الشبه بجون بول انه أثر خشخشة كيسه على صليل سيفه .

أما الاخلاق فلم يكذب يملك منها أى حظ . فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدى كبير احترام للياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها . وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها ، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون . وكان يسخر من الدين ، وحين دنت منية كارولين أرسل فى طلب رئيس أساقفة كنتربرى قائلا « لا بأس بتمثيل هذه المهزلة ، وان رئيس الاساقفة لكفيل بحسن تمثيلها . ولكم ان تطلبوه بأسرع ما تريدون . فلن يضر الملكة ، ولن ينفعها ، وسيرضى هذا جمع المغفلين العقلاء الطيبين ، الذين سينعتوننا بالكفر اذا لم نتظاهر باننا مثلهم من كبار المغفلين (٣٠) » . ولم يكثرث للدوافع النبيلة أو ادعاءات التجرد من الانانية . وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره . ووجد المناصب السياسية المجسزية لولده هوراس وغيره من ذوى قرباءه . وانفسق

٢٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ جنيه ليشيد بيوتا فخمة فى ضيعته بهوتون، وزينها بلوحات قدرها هوراس بمبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه ، وكان بيته فيها مفتوحا لأهل نورفوك، جميعا (٣١) . وكان فى سخاء جون بول لانه (اذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تفريقا واضحا بين مال جون بول وماله الخاص .

واستعمل المال ليشترى أعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشترى الجيوش ، وهنرى الرابع ليستكت الأعداء . وكان ولبول يستخدمه ملاذا أخيرا بعد أن تعييه الحجج الأكثر ليما . ذلك أن الفساد البرلمانى الذى ظهر فى عهد تشارلز الثانى بلغ النقطة التى لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان ، خيرا كان الهدف أم شرا ، الا « بالتشحييم » على نطاق واسع . واحتفظ ولبول باحتياطى مرى - وحتى بحجرة خاصة - لشراء الكراسي والأصوات ومحرمى الصحف ، وقيل انه أنفق ٥٠٠٠٠ جنيه كل عام لاعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره (٣٢) . وفى ١٧٢٥ حث جورج الأول على انشاء « وسام الحمام الأسمى » الذى يتألف من الملك ، ورئيس أكبر ، وستة وثلاثين فارسا من الزملاء ، فقد رأى لولبول ، كما رأى نابليون من بعده ، أن حكم الرجال بالأوشحة أقل تكلفة من حكمهم بالمال .

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحتفظ لانجلترا بالرخاء والهدوء . ولم تبرر غاياته وسائطه ، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل فى خلقه . فلقد كان رجلا حسن النية ، عقد العزم على أن يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية ، وأنواء المصالح الطبقية ، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب . وقال ان شعاره ان يترك الشر نائما . واذا كان هذا المبدأ قد نرك حكمه غير متميز بفتوح او اصلاحات ، فانه اكتسب ثناء المنصفين . واضطر خصومه الى الاعتراف بأنه لم يكن محبا للثأر ولا حقوقا ، وأنه كان أجدر بالثقة ، لا بل أكثر ايمانا ، فى صداقاته مما ينتظر من انسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطا (٣٣) . ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة ، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح واللياقة ، حتى اغتفرت له انجسره فى النهاية كل أخطائه الا حبه للسلام .

وقد وفق تشريعه الاقتصادى بين الأعيان ملاك الأرض وطبقة

رجال الأعمال . فحاول أن يخفف الضرائب على الأرض ، وأيد العقوبات البصارمة على العدوان على الملكية . ثم رحب في الوقت ذاته بظهور الرأسمالية . وخص التجار . ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد ، وبدأ غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الأرض في القرى ، والبرولتاريا المتكاثرة في المدن ؛ وبالظاهر أنه أحس أن سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات . وإذا استثنينا تلك المنح والرسوم فإنه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفريوقراطيين الفرنسيين وآدم سميث بزمان طويل ؛ وقد خفض الضرائب على ١٠٦ سلعة تصدير في سنة واحدة ، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد ، وأزال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الأمريكية ، وكان رايه أن الاقتصاد الانجليزي يزكو في ظل أقل القليل من التشريع الحكومي . وقد برر الزمن رايه ، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع ، وزادت إيرادات الحكومة ، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره « خير وزير للتجارة أنجبته البلاد (٣٤) » .

على أن مشروع قانونه الخاص بضريبة الانتاج منى بأفدح الهزائم (١٧٣٣) . ذلك أن مهربي التبغ والنبذ كانوا يحرمون الخزانة من الرسوم الجمركية ، ويحملون الملكيات باكثر من نصيبها في الضرائب . وتفاديا لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة انتاج (وهي شريحة « تجنب » للحكومة) تفرض على هذه السلع حيثما اختزنت أو بيعت في انجلترا . وخول لموظفي الضرائب (رجال الانتاج ») أن يفتشوا أي بيت في أي وقت ، وكان الأشخاص الذين يتضح أنهم اخفوا سلعا خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة أو السجن . وهب إلى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ أو النبذ أو تهريبهما أو بيعهما أو استهلاكهما . وندد خصوم ولبول في مجلس العموم بالضريبة ، وطريقة تنفيذها ، قائلين انها اجراء تعسفي من طاغية مستبد ، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية . « لقد أخبر أعضاء البرلمان ولبول بانهم لا يرون ياسا في أن ينقدهم اجرا على شرورهم العادية ، أما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (٣٥) » كما أوضح فردريك الأكبر - أو لعلمهم أملوا أن يحطوا محله في الاشراف على

المال العام . وراحت النشرات من آلاف النسخ ، تسبب الوزير بلغمسة سوقية مفعمة بالحماسة . وتقاطرت الحشود حول وستمستر هول ، وأحرقوا دمي تصور ولبول في عشرات الحرائق ، وحاولوا تمزيقه اربابا وهو يغادر كنيسة القديس ستيفن ؛ لقد استثيرت الأمة الى شفا الثورة . وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش ، وارتعدت فرقا على سلامة الاسرة المالكة الجديدة . وسحب ولبول القانون مسلما بالهزيمة ، ومن هذه اللحظة أضمحل سلطانه . وتكتل خصومه ليجهزوا عليه .

٤ - بولنبروك

وكانوا خصوما كثيرين متنوعين . فتآمرت جماعة منهم مازالت متشعبة لأسرة ستيوارت ، مع المطالب بالعرش ، وسنراها بعد قليل تنتشي بمغامرة « الأمير الجميل الشاب تشارلي Bonnie Prince Charlie » و « شلة » أخرى راحت ترقص حول فردريك لويس ، أمير ويلز (ولي العهد) ، عدو الملك ووريثه . وكان أعظم كتاب العصر الانجليز يناوئون الوزير - سويفت ، وبوب ، وفيلدتج ، وآربتنوت ، وطومسن ، واكينسايد ، وجاي ؛ تهكموا بسلوكه ، وفضحوا أخلاقه ، وعابوا سياساته ، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التي كانت تغدق على المؤلفين والتي تفردت بها الحكومة في عهد وليم الثالث والملكة آن . أما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه أصحاب السلطان سرا ، واستعانوا بالشعراء وأثاروا ثائرة البرلمان في عزمهم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة . وعبر وليم بلتنى ، وتشسترفيلد ، وبت الصاعد ، بأصواتهم عن قضيتهم ، ودافع عنها بولنبروك في غير هوادة بقلمه القتال .

وكان بولنبروك قد نال في ١٧٢٣ عفوا ملكيا يسمح له بالعودة الى انجلترا واستعادة أملاكه ، ولكنه أبعد بنفوذ ولبول عن مناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلا تعددت خياناته وشك في ولائه . على أن هذا لم ينتقص من سلطانه . ففي بيته بلندن التقت صفوة انجلترا ، مفتونة بوسامته والمعيته وعبير اسمه . هناك ، وفي بيته الريفى ، راج يتراشق بالسخریات مع سويفت ، وبالهرطقات مع

جوب ، وبالأغاني الشعبية مع جاي ؛ وهناك نافضل ليوحسد بين المحافظين الجياع وبين الأحرار الذين لم يظفروا بما يشبعهم من الرضا ، في معارضة متكتلة ضد ولبول ؛ وهناك نظم محررى وبرنامج مجلة - سميت أولا (١٧٢٦) « السيد الريفى » ثم « الفنان » - راحت تكيل اللطامات ، أسبوعا بعد أسبوع ، لكل شيء صنعه ولبول أو أراد أن يصنعه ، وكتب بولنبروك بقلمه أشد المقالات أذى ، وهى أروع نثر سياسى شهده العصر بعد اضمحلال سويقت . وقد أهدى سلسلة من تسعة عشر خطابا (١٧٣٣ - ٣٤) « رسالة فى الأحزاب » - الى ولبول تهكما منه . كتب تشسترفيلد لابنه يقول « لم أكن أعرف مبلغ قوة اللغة الانجليزية حتى قرأتها (٣٦) » .

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه . فلقد كان أدبه الجم (وهو فاموسه الخلقى الوحيد) يفارقه اذا أحبطت مشيئته أو عورضت آراؤه . وفى يونيو ١٧٣٥ تشاجر مع بلنتى الزعيم الاسمى للمعارضة وعاد غاضبا الى فرنسا . وهناك استقر مع مركيزته قرب فونتنبلو وواسي جراحه بالفلسفة . وفى كتابه « رسائل فى دراسة التاريخ وقائده » (الذى ألفه فى ١٧٣٥) وصف التاريخ بأنه معمل هائل أجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال ، والاقتصاد ، والدول ، ومن ثم كان خير مرشد الى طبيعة البشر ، واذن فالى تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل . « ان التاريخ هو الفلسفة التى تعلم بالمثال ... فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل فى التاريخ (٣٧) » . وينبغى « ان نعكف عليه بروح فلسفية » وألا يقتصر همنا على فهم الأسباب والآثار والذاتج المتماثلة ، بل نجاوز هذا الى الطرق التى نبين الى الآن أنها معينة على تطور البشر وسعادتهم (٣٨) . والعقبة فى مثل هذه الدراسات هى « ان قلبا من كتب التاريخ يخلو من الأكاذيب ، وليس بينها كتاب يخلو من الأخطاء .. ولقد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين الى غيرهم (٣٩) » . ولكن قد يستطيع الطالب القوى العزم بمواجهة كاذب يأخر أن يشق طريقه بينهما الى الحقيقة . وفى ١٧٣٦ عاد بولنبروك الى حلبة السياسة بكتابه « رسائل فى الروح الوطنية » الذى هاجم فساد حكومة ولبول ودعا الى روح جسيديدة من الولاء المنكر للذات فى السياسة الانجليزية .

« لا مونتيني وهو يكتب « مقالاته » ، ولا ديكارت وهو يبني عوالم جديدة ، ولا . . . نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رفيعة ، لا أحد من هؤلاء شعر بابتهاج عقلى أكثر من الوطنى الصادق الذى يسخر كل قوة فهمه ، ويوجه كل أفكاره وأفعاله ، لخير وطنه (٤٠) » .

وتطلع أمله الى الجيل الأصغر . فلما زار إنجلترا فى ١٧٣٨ سعى الى صداقة الأمير فردريك لويس ، ولى العهد ، الذى كان الآن يقود حركة المعارضة لولبول . ووجه بولنبروك الى سكرتير فردريك الخاص أشهر كتبه وهو « مفهوم الملك الوطنى » . وقد مات فردريك فى ١٧٥١ ، ولكن ابنه ، وهو الذى سيصبح جورج الثالث ، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية (٤١) . وكان ائتمال فى جوهره دعوة لنظام ملكى خير كذلك الذى سيحلم به فولتير و « الفلاسفة » فى الجيل التالى . فقد زعم بولنبروك أن إنجلترا قد تردت فى هوة لا يقوى على انتشالها منها سوى ملك يرتفع فوق الشعب والأحزاب ، لا بل فوق البرلمان ، ملك يفيض على زمام السلطة ، ويعاقب الرشوة ، ويحكم كما يملك . ولكن الملك الوطنى سينظر الى سلطته لا على أنها حق الهى بل أمانة عامة ؛ لا مطلقة ، بل مقيدة بالقانون الطبيعى وحرىات رعاياه وحرية الصحافة وتقاليده المملكة ؛ وسيحكم على جميع المسائل حسب تأثيرها فى رخاء الشعب وسعادته (٤٢) . سيشجع التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة ؛ وسيقوى البحرية فى بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومى ولتوازن القوى فى القارة .

كان « مفهوم الملك الوطنى » محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادئ الأحرار ويتألف من المحافظين الذين أقصوا عن الحكم والأحرار الساخطين ؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين ، يستهدف التوفيق بين الأرض والتجارة ، وبين الامبراطورية والحرية ، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة ★ . فلما نشر المقال (١٧٤٩) أصبح

★ قارن عبارة اللورد بيركنهد التى أجملت فكرة بولنبروك : « ذهب الأحرار للاستحمام ، فسرق بولنبروك ملابسهم (٤٣) » .

الصيحة التي احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلّعوا الى الملكية بوصفهم « أصدقاء الملك » لتظهر حكومة انجلترا . وقد شكل الفلسفة السياسية لصموئيل جونسون وبت الأب والابن . وأوحى بالمحافظة الليبرالية التي دان بها بنيامين دزرايلي ، الذي أشاد كتابه « دفاع عن الدستور الانجليزي » (١٨٣٥) ببولنبروك أبا للديمقراطية المحافظة ، والرجل الذي أرسى باعادة تنظيمه العقل العام تنظيما كاملا الاساس لعودة المحافظين الى الحكم (٤٤) . لقد كان تأثير بولنبروك ودزرايلي هو الذي صب من جديد حزب التوري المهزوم ليخرج منه حزب « المحافظين » التقدمي في انجلترا اليوم .

٥ - كيف تنزلق الدول الى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة ، التي تقسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره ، على انهاء حكم ولبول الطويل ، وكان الوزير الحذر ، الذي أقام سلطته على صون السلام ، ينفر من التورط في خصومات مع الدول الأجنبية ، فاتفق مع الكردينال فلوري - الذي كان يحكم فرنسا وفق مبادئ مماثلة - على الاحتفاظ أطول ما يستطيع بالسلام الذي أرسته معاهدة أوترخت ، وترك فيما عدا ذلك ادارة العلاقات الخارجية لأخيه الكفاء أوراتيو . ولكن احتفاظ انجلترا بجبل طارق ، وتنافس انجلترا وأسبانيا على السيطرة على أمريكا والبحار ، ولدا عنفا أشد بمضي الزمن . وكان جورج الأول ووزيره ستانهوب قد أكدا لفليب الخامس ملك أسبانيا في يناير ويونيو ١٧٢١ أن انجلترا ستتخلي عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان . ولكن الشعب البريطاني أبى أن يرتضي هذا الاستسلام (٤٥) . فلنتابع الآن الرواية الانجليزية لكيفية انزلاق انجلترا الى الحرب ، فهي تبين غلو الجماهير في وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين (٤٦) .

تقول الرواية ان شركة بحر الجنوب « استغلت استغلالا فاضحا » بذلك الامتياز الذي منحته اسبانيا لانجلترا ، وهو السماح لها بارسال سفينة تجارية واحدة في السنة الى الممتلكات الأسبانية في الدنيا

الجديدة ، وأن « تجارة كبيرة غير مشروعة قامت » ، تدبر الشركة بعضها ، وتغضي عن بعضها الآخر . وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الانجليزية المشتبه في قيامها بالتهريب . وزعم روبرت جنكنز أنه في أحد هذه التفتيش (٧٣١) فقد إحدى أذنيه ، وقد احتفظ بها ، وعرضها على الناس في بريطانيا ، وطالب عاليا بالانتقام . وصادر الأسبان بعض السفن الانجليزية المشتغلة بالتجارة المشروعة ، وأبقوا الأسرى الانجليز راسفين في الأغلال ، وقبض القراصنة الانجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقا في المستعمرات البريطانية . واستمر التهريب ، واحتجت الحكومة الاسبانية ، وتباطأ ولبول الذي كان يكره الانتقام من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء ، رغم انه اشتد في عقاب التهريب على السواحل الانجليزية . وحبذت طبقة التجار الانجليز الحرب ، واثقين من التفوق البحري ، آمنين من الغزو ، متطلعين الى أسواق جديدة وتجارة متسعة . واثارت ثائرة الشعب قصص الوحشية الاسبانية ، الصحيح منها والباطل . وكان الانجليز المطالبون باتخاذ اجراء في الأمر يشاد بهم وطنيين بواسل ، أما الذين نصحوا بالاعتدال فرموا بالجبن والخور . وعرض جنكنز على البرلمان أذنه في زجاجة (مارس ١٧٣٨) ، فألقى بـلتنى ، وبـت ، وغيرهما من المعارضين لولبول خطبا حماسية عن شرف انجلترا ★ . وفي لحن عسكري معارض نددت جماهير الشعب الأسباني بالانجليز كلابا مهرطقين ، وانطلقت عليها قصة زعمت أن ضابطا انجليزيا أكره أسبانيا نبىلا على جدد أنفه وأكله .

أما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفا معقولا . فنشر لاکوادرا ، كبير الوزراء الأسبان ، للاستهلاك الجماهيري خطبا ساخنا وجهه الى ولبول ، ولكنه أخبره سرا بأن أسبانيا ترحب بتسوية النزاع بعد المفاوضة . ثم وقعت الحكومة البريطانية - في تحد لهذه المسورة

★ يقول هوراس ولبول أنه حين مات جنكنز تبين أن له اثنين سليمتين تماما . وتحدث بيرك عن « خرافة أذن جنكنز (٤٧) » . ونسبت رواية أخرى عظم الأذن لقرصان علقته بعد ذلك الحكومة الاسبانية (٤٨) .

الجماهيرية الصاخبة - اتفاقية البارديو مع أسبانيا (١٤ يناير ١٧٣٩)
وفيهما نزل كل من الجانبين عن أشياء ، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوى
المعلقة . وقبل نصف الشعب الاسباني المعاهدة ، ولكن انجلترا باكملها
تقريبا أعلنت سخطها عليها . وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة
ستنتقض من دخلها وأرباحها انتقاصا شديدا ، وكان السفير الانجليزى
بمدير وكيل للشركة أيضا . يضاف الى هذا أن « الازينتسو » الذى
سمحت أسبانيا بمقتضاه لانجلترا بامداد أمريكا الأسبانية بالعبيد
الزنجى انتهى أجله فى ٦ مايو ١٧٣٩ ، ورفض فليب الخامس تجديد
العقد (٤٥) . ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الانجليزى من البحر
المتوسط مواصلا سياسته السلمية ، ثم ألغى الأمر بعد أن اشتبه خطأ
فى أن أسبانيا تبرم حلفا سريا مع فرنسا ، وأمر الأسطول بحماية جبل
طارق . واحتج لاكوادرا ، وقطع ولبول المفاوضات مستسلما لنوبة الحرب ،
التي أصابت البرلمان والشعب ، وفى ١٩ أكتوبر ١٧٣٩ أعلنت انجلترا
الحرب على أسبانيا . واغتبط الشعب الذى كان لا يزال ينعى ولبول
بالجبن ، وراحت أجراس الكنائس تقرر فى انجلترا طولا وعرضا .
وكتب الآن جيمس طومسن أغنيته الشعبية المثيرة « احكمى يا بريطانيا »
التي أقسمت أن « البريطانيين لن يذلوا أبدا » .

وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من اعلان الحرب ،
فعندها تكتم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها . بيد أن وزارة ولبول
كانت استثناء للقاعدة . فلقد أحس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة
للجيوش الزاحفة أو للاساطيل التي تنفث النيران ؛ وحملوا سوء ادارته
تبعه الهزائم العسكرية كلها ، وعزوا كل الفضل فى انتصار بحرى عند
بورتو بيللو (على برزخ بنما) لعبقرية الاميرال فيرنون الذى كان أحد
أعضاء المعارضة . وفى فبراير ١٧٤١ أقترح صموئيل سسانديز على
البرلمان أن ينصح الملك باقالة رئيس وزرائه . وهزم الاقتراح ، ولكنه
لم يهزم ألا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين . وأفسح له فى
الوزارة عاما آخر ، غير أنه أدرك أن قد حان حينه ؛ وأن البلاد تريد
تغييرا .

ثم انه أرهق . كتب ابنه يقول . « هذا الذى كان فى السنين الماضية

يستغرق فى النوم حالما يمس رأسه الوسادة . . لا ينام الآن أبدا أكثر من ساعة دون أن يصحو ؛ والذي كان على المائدة ينمي دائما أنه وزير ، وكان أكثر مرحا وخلوا من الهموم من جميع رفاقه ، يجلس الآن دون كلام ، وعيناه جامدتان ، ساعة بطولها (٥٠) « . وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عداء ساحقا ، فهزمه فى أمر قليل الشأن ، وفى ١٣ فبراير ١٧٤٢ استقال . واذا كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم ، فانه لم يجد مشقة فى اقناع جورج الثانى بأن يمنحه لقب إيرل أكسفورد ، ويوصفه هذا هبط صعدا الى مجلس اللوردات . وكان قد جمع ثروة طائلة تحسبا ليوم سقوطه .

ومات فى ١٨ مارس ١٧٤٥ بالغا الثانية والستين ، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم . وودعت انجلترا السلام ، وانطلقت لتغزو العالم بزعامة « بت » بعد « بت » .

٦ - أيرلنده : ١٧١٤ - ٥٦

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الأيرلنديون ، الا فيما ندر . فطوال الانتصارات المتكررة التى أحرزتها الجيوش الانجليزية على الثورات الوطنية ، شرعت مجموعة من القوانين قيدت الأيرلنديين بالأغلال جسدا وروحا . فصودرت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك ، وامتلكها كلها تقريبا بروتستنت عاملوا فلاحيههم معاملة العبيد . يقول تشستر فيلد « ان الفقراء فى أيرلنده يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزنوج (٥١) » . ويقول ليكى « لم يكن من الغريب فى أيرلنده أن يكون للكبار ملاك الأرضي سجون دائمة فى بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقابا عاجلا (٥٢) » . وكان كثير من الملاك يعيشون فى انجلترا ، وينفقون فيها (حسب تقدير سويفت) ثلث الأيجارات التى يدفعها المستأجرون الأيرلنديون (٥٣) . أما المستأجرون - الذين طحنتهم الأيجارات التى يؤدونها للمالك ، والعشور التى يؤدونها للكنيسة الرسمية التى يمتنونها ، والفروض التى يؤدونها لقساوستهم - فكانوا يسكنون أكواخا من الطين يرشح الماء من سقوفها ، ويمشون نصف عراة ، ويتضورون جوعا فى أكثر

الإحياء ، وذهب سويقت الى أن « المستاجرين الارلنديين يعيشون حياة أسوأ من حياة المتسولين الانجليز (٥٤) » . وأما الملاك الذين ظلوا يقطنون ارلندة ، ووكلاء الملاك الغائبين ، فكانوا يستعينون على همجية بيئتهم وعدائهم بحفلات الطعام والشراب الصاخبة المخمورة ، والضيافة المسرفة ، والشجار والمياوزة ، والمقامرة على رهانات كبيرة .

ولما كان للبرلمان البريطاني مطلق السلطان على ارلنده ، فانه خنق أي صناعة تنافس انجلترا . وقد رأينا في غير هذا الموضع كيف قضى قانون صدر في ١٦٩٩ على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الاصواف الارلندية الى أي بلد كائنا ما كان . وبالمثل خنقت القوانين الانجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به ارلنده من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب . فاثقلت الصادرات الارلندية برسوم التصدير التي عزلتها عن جميع الأسواق تقريبا الا انجلترا (٥٥) ، وكان كثير من الارلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لانجلترا ، ولكن قوانين ١٦٦٥ و ١٦٨٠ حظرت استيراد انجلترا لماشية ارلندة أو اغنامها أو خنازيرها ، أو لحم البقر أو الضأن أو الخنزير ، حتى الزبد أو الجبن . وكانت ارلندة تصدر حاصلاتها للمستعمرات الانجليزية ، فاشتراط قانون صدر في ١٦٦٣ الا تستورد سلع أوربية للمستعمرات الانجليزية ، باستثناءات قليلة ، الا من انجلترا ، في مراكب انجليزية ، بحارتها انجليز . وماتت البحرية التجارية الارلندية . يقول سويقت « ان مزايا المواتىء والمراقىء التي سخرت بها الطبيعة على هذه المملكة ، ليست أكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلا حبس في زنرانة (٥٦) » .

وأرهقت القوانين التي شرعتها انجلترا لرعاياها الارلنديين البروتستانت كما أرهقت الكاثوليك ؛ وفي مناسبة مشهودة انضموا الى الكاثوليك في التمرد على الحكم البريطاني . وكان تصدير مال الايجارات للملاك الغائبين عن ارلندة قد خلق عجزا في العملة المعدنية بارلندة في ١٧٢٢ . وعرض ولبول تخفيف هذا العجز بإصدار عملة نحاسية . وكانت الخطة معقولة ، ولكن لوئها الفساد المألوف ، فقد « منحت موقه كندال امتياز سك النقود الجديدة ، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد فظهر ١٠٠٠٠ جنيه ؛ ولكن يجمع ولیم هذا المبلغ مضافا اليه ربحه

اقترح أن يسك ٨٠٠ر١٠٠ جنيه أنصاف بنسات أو أرباعها . ولما كانت حملة عملة أيرلندة المعدنية آنئذ لا تتجاوز ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه ، فقد احتج الأيرلنديون بأنه سيكون ضروريا استعمال النقود النحاسية فى المدفوعات وفى الصرافة ، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيها إيجارات الملاك الغائبين بالفضة أو العملة الورقية ، وأن العملات الأرخص ستحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها ، وأنه لن يكون فى أيرلندة عما قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة . ورغبة فى علاج هذه الشكاوى وافقت الحكومة البريطانية على خفض الإصدار الجديد إلى ٤٠ر٠٠٠ جنيه وقدمت تقريرا من إسحاق نيوتن ، مدير دار سك النقود ، يقرر أن أنصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدنى بشروط الامتياز ، وأنها أفضل كثيرا من العملات الموروثة عن العهود السابقة .

عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان سويفت ، الناظر الأنجليكانى لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن ، بنشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م. ب. درابير ، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما فى روحه من عنف وما فى جعبته من هجو ، لأنها محاولة لغش الشعب الأيرلندى . وزعم أن العملة التى أرسلت إلى نيوتن لاختبارها سكت خصيصا لهذا الغرض ، وأن الكثرة الغالبة من أنصاف بنسات وود تساوى أقل كثيرا من قيمتها الاسمية ؛ والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بأن قدروا أن أيرلندة ستخسر ٦٠ر٤٨٠ جنيهها بالإصدار الذى اقترح أولا (٥٧) . وفى الرسالة الرابعة انتقل سويفت إلى اتهام قوى للحكم الأنجليزى كله فى أيرلندة ، ووضع هذا المبدأ « أن كل حكم بغير رضى المحكومين ما هو إلا العبودية بعينها (٥٨) » . واستجاب الأيرلنديون ، بما فيهم أغلبية البروتستانت لهذه النعمة الجريئة فى لهفة ، وراح الناس يغنون فى الشوارع أغاني شعبية تحض على مقاومة إنجلترا . ووجدت الحكومة الأنجليزىة نفسها تتقهقر أمام قلم واحد ، وهى التى تحدثت شعبا بأكمله قرونا طوالا . وقدمت مكافأة من ثلاثمائة جنيه للقبض على الكاتب ، ولكن أحدا لم يجرؤ على إتخاذ إجراء ضد الناظر العلبس وإن هرقه المئات منهم . كذلك لم يجرؤ أى أيرلندى على أن يواجه غضب الشعب بقبوله العملة الجديدة . وسلم ولبول بالهزيمة ، وألغى الإصدار ، ورفضه

وود بمبلغ ٢٤٠٠٠ جنيه نظير مصروفاته التى أنفقها عبثا ومكاسبه التى تبخرت .

وقد استحالت كل مقاومة للسيطرة الانجليزية الا أن تكون من فعل الغوغاء أو عنف الأفراد ، وذلك بسبب بنیان السياسة الارلندية . ذلك أن البرلمان الارلندى بعد ١٦٩٢ كان كله من البروتستانت ، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الانجليزية (٥٩) ، وكان الآن خاضعا كل الخضوع لانجلترا . وفى ١٧١٩ أكد البرلمان الانجليزى من جديد حقه الأعلى فى التشريع لارلنده . فالقوانين التى حمت الحرية البرلمانية أو الفردية فى انجلترا ، كقانون هابياس كوريس وقانون الحقوق ، لم تطبق على ارلنده ؛ أما الحرية النسبية للصحافة ، التى كانت تتمتع بها انجلترا ، فلم يكن لها وجود فى ارلنده . ولم يكن بين البرلمانيين شبه الا فى فساد ناخبتهما وأعضائهما . وكان بينهما خلاف آخر فى غلبة نفوذ الأساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات الارلندى .

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين أتباعها ، ولكنها تعتمد على العشور التى تجنى من الفلاحين ، وكل هؤلاء تقريبا كاثوليك . واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخى (الكلفنى) أو غيره من المذاهب المنشقة ، ونالت قسما من التسامح ، الا حقها فى مناصب الدولة . ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزته الى كل المهن الراقية الا الطب ، وكل سبيل تقريبا الى التعليم العالى ، أو الثروة ، أو النفوذ (٦٠) . وحظر عليهم شراء الأرض ، أو الاستثمار فى رهون على الأرض ، أو حيازة أى ايجار طويل الأجل أو ذى قيمة . وحظر عليهم أن يكونوا محلفين الا عند الافتقار الى محلفين بروتستانت . ولم يكن فى استطاعتهم التعليم فى المدارس ، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية ، ولا الزواج زواجا شرعيا من بروتستانتية (٦١) . وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه فى الحكومة وأقسم يمين التخلّى التى تنبذ الولاء لأسرة ستيوارت . أما غير هؤلاء من الكهنة فعقابهم السجن . ولكن هذا القانون نادرا ما طبق بعد ١٧٢٥ ؛ وفى ١٧٣٢ ذكرت لجنة فى البرلمان الارلندى فى تقرير لها أن فى ارلنده ١٧٤٥ كاهنا ، و ٢٢٩ كنيسة كاثوليكية ،

و ٥٤٩ مدرسة كاثوليكية . وبعد ١٧٥٣ خفف الانجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك فى ايرلندا .

وتضافر اضطراب الحياة الدينية ، وفقر الشعب ، واليأس من التقدم الاجتماعى ، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الارلندية . فهاجر الى فرنسا أو أسبانيا أو أمريكا أكثر الكاثوليك كفاية وجراً ، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الارلندية . وانحدر الكثير من الارلنديين الى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعاً . واختبأت عصابات اللصوص فى الريف ، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل مكمناً ، واحتفظ بعض أصحاب الملكيات « ببلطجية » وصل عددهم أحياناً الى الثمانين لتنفيذ أوامرهم ، ضاربين بالقانون عرض الحائط . وذبحت العصابات الجوابة آلاف الماشية والاعنام ، انتقاماً كاثوليكياً - على ما يبدو - من الملك البروتستنت . وكان عسيراً على شعب أن يحترم القوانين التى يصدرها برلمان ايرلندى طالما تحدث عن الكاثوليك - وهم ثلاثة أرباع السكان - بوصفهم « العدو المشترك » .

على أن الحياة الارلندية لم تخل من عناصر أكثر اشراقاً . فقد بقى للشعب مزاجه البشوش ، الهادىء ، الضحوك ، خلال شدائده كلها ، وأحاطت خرافاته وأساطيره حياته بالسحر والشعر دون أن تفضي به الى عنف كذلك الذى اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات فى اسكتلندا وألمانيا . وكان بين الاكليروس الأنجليكانى فى ايرلندا علماء أفذاذ (كالأسقف آش ، أسقف أرما) ، وفيلسوف نابيه (هو جورج باركلى أسقف كلوين) ، وأعظم كتاب الانجليزية قاطبة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وهو جونathan سويفت ، ناظر كتدرائية القديس باتريك . وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة فى ١٧٣١ لتحسن التكنولوجيا فى الزراعة والصناعة ، وتحفز الاختراع ، وتشجع الفن . وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء ، وقضاة لانوا فى تطبيق اللوائح الوحشية التى تضمنها قانون العقوبات .

ولكن صورة الحياة الارلندية كانت فى جملتها من أشد ما حواه التاريخ خزيا وعارا . فقر مذل ، وتمرد فوضى على القانون ، واملاق مترحل ، و ٣٤ر٠٠٠ متسول ، وعدد لا حصر له من اللصوص ، وطبقة عليا تعيش فى اسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعا ، وكل اخفاق فى المحصول يجر مجاعة واسعة الانتشار - « فالشيوخ والمرضى يموتون وينتفون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات (٦٢) » - على حد قول سويقت . هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجد مكانا فى مفهومنا عن الانسان . وبعد الصقيع الطويل القاسى الذى أصاب ارلندة فى ١٧٣٩ جاءت مجاعة ١٧٤٠ - ٤١ القاسية ، التى هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون فى المائة من السكان ، مخلفين الكثير من القرى المهجورة . وفى مقاطعة كرى هبط عدد دافعى الضرائب من ١٤ر٣٤٦ فى عام ١٧٣٣ الى ٩ر٣٧٢ فى عام ١٧٤٤ . وقدر باركلى أن « الأمة فى أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن (٦٣) » ولكنه أخطأ التقدير . فما لبثت النساء أن ولدن الأطفال فى صبر ليعوضن من فقد من الموتى . وفترت الحماسة الدينية بين البروتستنت بانتشار التعليم ، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينه وبين صراع الأمة فى سبيل الحرية . وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد ، التى حبذتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحا سريا لها ضد معارضة ، عما سبته المجاعة والوباء والحرب ؛ فما حلت سنة ١٧٥٠ حتى ارتفع سكان ارلندة من قرابة ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى نحو ٢ر٣٧ر٠٠٠ وفى نهاية الشوط غلب ايمان المظلومين وخصوبتهم سلاح الغزاة وجشعهم .

٧ - اسكتلندة : ١٧١٤ - ٥٦

لم كان حظ اسكتلندة مختلفا أشد الاختلاف عن حظ ارلندة ؟ أولا لأن اسكتلندة لم تقهر قط ، بل انها على العكس من ذلك أعطت انجلترا ملكا اسكتلنديا . وكان لها فى شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهایلاندرز) الذين لم يذلوا بعد ، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة فى غزوات لانجلترا . وكان أهل سهولها سلالة انجلو - سكسونية ، ينتمون أساسا الى الأصل الذى ينتمى اليه الانجليز . أما تربتها فظلت ،

في قبضة أهلها الشديدي المراس . وأما دينها ، شأنه شأن الانجليكانية ، فكان نتاج حركة الاصلاح البروتستنتي ، لا تركة موروثة عن الكنيسة الوسيطة ، وقد وحد صفوف الأمة بدلا من أن يقسمها ، وبمعد قانون الاتحاد (١٧٠٧) شاركت اسكتلندة بنسبة السكان في انتخاب البرلمان الذي أصبح الآن يسمى البرلمان البريطاني (أى الانجليزى - الويلزى - الاسكتلندى) ، وأذعنت لأن تحكم من لندن ، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية اثرت الشعب الاسكتلندى . وحاولت كل أبرشية في اسكتلندة أن تنشئ مدرسة لأطفالها ، ووفرت أربع جامعات بها أفضل ما وجد في الجزر البريطانية آنئذ من تعليم عال . وقد ازدهر هذا النشاط التعليمي خلال القرن الثامن عشر في حركة « تنوير اسكتلندى » دفعت الفكر الانجليزى دفعة قوية - أبطالها هيوم ، وهتشسن ، ورايد ، وروبرتسن ، وآدم سميث .

على أن هذا الانجاز الرائع اقتضى تحقيقه الكفاح الطويل ، وانقضت خمسون عاما قبل أن يؤتى الاتحاد أكله . فقد كانت اسكتلندة في ١٧١٤ لا تزال قطاعية النظام . كل اقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة أتباعه المقطعين ، والأرض تفلحها طبقة من المستأجرين الفلاحين ، موالين لسادتهم ، ولاحظ لهم من التعليم . ولكن الاتحاد السياسي مع انجلترا أخذ الآن يقوض ذلك البناء . كان النبلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندى ، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون في البرلمان البريطاني أنفسهم في بيئة ينافس فيها نفوذ التجارة والصناعة نفوذ الأرض ؛ فتبنوا الأفكار والتكنولوجيا الانجليزية ، وما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كان أصحاب صناعات اسكتلندة وتجارها يتحدون الزعامة القومية التي احتكرها الأرجيليون ، والآثوليون ، والهاملتونيون ، والماربون . وكانت مغامرة ١٧٤٥ الاستيوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات السلطة القطاعية الاسكتلندية ، فلما أخفقت اندمجت حياة اسكتلندة الاقتصادية في الاقتصاد الانجليزى ، وبدأ حكم الطبقات الوسطى . وفتح الاتحاد المستعمرات الانجليزية للتجارة الاسكتلندية ، وفي ١٧١٨ أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الاطلنطى ، وما لبث التجار الاسكتلنديون أن انتشروا في كل مكان . وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

ووسائل النظافة الصحية فى المدن ، وهبطت نسبة الوفيات ، وزاد السكان من ١٠٠٠ر١٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى ٠٠ ر١٦٥٢ فى ختام القرن وكانت ادنبره بسكانها البالغين خمسين ألفا فى ١٧٥١ ثالثة أكبر المدن فى بريطانيا العظمى ، فلم يفقها غير لندن وبرستول .

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكلفنى ولاء يقرب من التعصب . ففى كل أحد يمشي الناس - أحيانا ميابين أو ثلاثة - ليختلفوا الى كنائس عطلت من الزينة عطلا صارما ، ويستمتعوا الساعات الى عظات وصلوات تؤكد حتمية الجبر وأحوال الجحيم . وكان الكتاب المقدس الالهام اليومى لكل أسرة اسكتلندية . وفدّر هيوم ، حتى سنة ١٧٦٣ ، فى مبالغة مرة ، أن لكل رجل وامرأة وطفل فى اسكتلندة كتابين مقدسين (٦٤) ؛ أما الرعاظ فقليلو الحذر من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعا مؤثرا ، يعيشون فى بساطة متقشفة ، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندى ونزاهته . وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون فى تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم ، يوزعون العقوبات على الحلف ، والنميمة ، والشجار ، والسحر ، والفسوق ، والزنا ، واى كسر ليوم الرب (الأحد) ، واى انحراف عن عقيدتهم الرهيبة . وادان الرعاة الرقص ، وحفلات الزفاف ، والتفرج على المسرح . واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وان اخذت احكام الاعدام بسببها تقل . ففى ١٧٢٧ أدينّت أم وابنتها بهذه التهمة ، وفرت البنت ، ولكن الأم أحرقت حتى الموت فى برميل من القار (٦٥) . فلما ألغى البرلمان الانجليزى (١٧٣٦) القانون الذى يعاقب السحر بالموت ، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالالغاء لأنه انتهاك لأمر صريح أصدره الكتاب المقدس (٦٦) .

وكانت مدارس الأبرشيات التى تتفق عليها الكنيسة الاسكتلندية ، ومدارس الحضر التى تعينها المدن ، تعد الطلاب للجامعات . فوفد على ادنبره وأبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للعلم من كل طبقة - من المزارع والمصانع ومن قصور الاقطاعيين وقاعات البارونات على السواء ، يدفعهم الشوق الى المعرفة ، ويتحملون فى سبيلها كل عناء ؛ يعيش كثير منهم فى حجرات باردة على السطوح ، ويصيبون

أكثر غذائهم من زكية من الشوفان يحملونها دوريا من مزارع آبائهم . وكذلك كان الأساتذة قوما ذوى جلد وزهد ، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من ستين جنيها فى العام . وكاد اللاهوت فى الجامعات أن يكون لب المنهج - كما كان فى مدارس الأبرشيات . ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم ؛ وتأثر الذهن الاسكتلندى بفكر أوربا العلمانى . من ذلك أن فرانسس هتشن ، الذى شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو (١٧٢٩ - ٤٦) ، نَحى الجدل الدجماطيقى ، وأرسى علم الأخلاق على أسس طبيعية . وشابت الهرطقة الأريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء - وهى التى زعمت أن المسيح ، رغم ألوهيته ، لم يكن معادلا لله الأب أو مساويا له فى أزليته . وذكر مؤلف اسكتلندى فى ١٧١٤ « الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب » لأفكار هوبز وسبينوزا (٦٧) . وكونت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية - مثل « الجمعية الكبريتية » و « نار الجحيم » و « الفرسان سيئى السمعة » - تبشر باللاحاد فى تفاخر ؛ ولعلمهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين . ذلك أن اسكتلندة - اذا استنذيا طبقات التجار التى ارتبطت بالاقتصاد الانجليزى - كانت لا تزال تنتشى بذكرى أسرة ستيوارت ، وتحلم باليوم الذى يقود فيه جيمس الثالث ، أو ابنه ، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية الى العرش البريطانى .

٧ - الأمير تشارلى الجميل : ١٧٤٥

كان جيمس الثالث قد أفنى نفسه فى محاولات عقيمة لقيادة حملة على انجلترا أو اسكتلندة . وفى ١٧١٩ تزوج ماريّا كلمنتينا سويسكا ، حفيدة أشهر ملوك بولنده ، وكان الزواج تعسا ، ولكنه أعطى جيمس ولدا كان وجهه الحلو وطبعه المرح - اللذان ربما ارتدا الى ماري ملكة الاسكتلنديين - مفخرة ومشكلة لأبويه . واطلقت انجلترا على تشارلز ادورد ستيوارت هذا لقب « المطالب الشاب » ، أما اسكتلندة فسمته « الأمير تشارلى الجميل » . وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظا كبيرا لأنه نشأ فى بيت يسوده الشقاق ، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مذهبيه الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه وُهب كل مفياتن الشباب.

الرياضي ، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج . وقد افقتن دون ليريا بما كان عليه الغلام من « جمال رائع » ، بعينييه العسليتين المرحتين ، وشعره البنى الفاتح ؛ فهو راكب جرىء ، وهداف ماهر ، ذو قوام فارح طوله ستة أقدام خلق للحرب ، و « لاعب جولف جبار » ، وموسيقي ماهر ، وراقص رشيق - وقال الدوق ان هذا « على الجملة أكمل أمير لقيته (٦٩) » وكان تشارلز عليما بفضائله ، وهو ما جعله صعب المراس أحيانا . وفي ١٧٣٤ ، حين كان غلاما بعد لا يجاوز الرابعة عشرة ، سمح له بان يذوق طعم الحرب في الجيش الأسباني في جاييتا ، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه ، راح يتربص الفرصة على أحر من الجمر للاستيلاء على انجلترا . وبدت الفرصة مواتية حين بدأ البرامسان البريطاني ، رغم معارضة ولبول ، الاستباكات مع أسبانيا (١٧٣٩) . واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (١٧٤٠) حتى أفضى الى حرب الوراثة النمساوية . وأرسلت انجلترا جيشها الرئيسي الى القارة ، فأي وقت أنسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيون ضربة سريعة أخرى للظفر بالعرش الانجليزي ؟ ومن ثم كونوا في سكتلندة « الرابطة » (١٧٣٦) التي التزمت بتلك المغامرة ، وأوفدوا المبعوثين الى انجلترا ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية ، وأرسلوا النداءات الى فرنسا طالبين المال ، والسلاح ، والجنود . وأمر لويس الخامس عشر سبع سفن حربية وأحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع في برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل نحت امرة المريشال دساكس من دنكرك الى انجلترا . وانتظر الأمير تشارلز في ايطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم الى الحملة . ولكن الدعوة لم تصل ، فغادر روما في ١٠ يناير ١٧٤٤ ، وركب ليل نهار الى فراسكاتي ، وليريتشي ، وجنوة واستقل سفينته الى أنتيب ، وركب كالمجنون الى باريس . أما أبوه المسن فظل في روما ، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط . واستقبل الملك تشارلز بالترحيب ، وأمدّه بمعونة مالية معتدلة . فمضى الى جرافلين ، وانتظر بصبر نافذ الأوامر بالابحار مع المريشال دساكس ، الذي انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافذ .

وحالفت الرياح والأمواج انجلترا كالعادة . فصادف الأسطول الفرنسي بعد اقلاعه من برست (٦ فبراير) « بحرا رهيبا » و « ريحا

معاكسة كل يوم » . واصطدمت مراكبه ، وتحطمت صواريه ، وعمت الفوضى حين وصل نبا بأن أسطولا انجليزيا من اثنتين وخمسين سفينة يقترب . وفر الفرنسيون رجوعا الى برست ، ولكن كثيرا من سفنهم فقد ، واصيب الباقي بضرر بليغ من الأنواء . ومع هذا النبا المثبط وصل فرنسا نبا بأن الاستيوارتيين الانجليز مختلو النظام خائرو العزيمة ، وأنه لا أمل في معونة منهم اذا وصل الفرنسيون . وأخبر لويس ساكس بوجوب الاقلاع عن مشروع الغزو . أما انجلترا ، التي لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسميا ، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة . وأما تشارلز فقد اختبأ في باريس متنكرا ، وأقسم لأصحابه أنه سيغزو انجلترا ولو اضطر الى الذهاب وحيدا في زورق مكشوف . وأرسل له أبوه رجاء بأن يحذر الاندفاع « الذي قد ينتهي بدمارك ودمار كل من يشاركوك فيه (٧٠) » . وفي أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعيًا وراء النفوذ والمنح ، ويتهم بعضهم بعضا عنده ، حتى كتب يائسا « لقد ابتليت بلاء يزهديني في الحياة » (١٦ نوفمبر ١٧٤٤) .

وأخيرا ، ورغم كل التحذيرات ، ودون استشارة البلاط الفرنسي ، قرر أن « يجرب حظه » و « يغزو أو يموت » وأرسل عملاء الى اسكتلندة ليثير العشائر ، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغا جعلهم يفكرون في منعه من المجيء ، وكان المتشيعون من الانجليز لأسرة ستيوارت ، يلتمسون التراضي مع جورج الثاني ، محتذين في ذلك حذو بولنبروك . ورغم ذلك اقترض تشارلز ١٨٠.٠٠٠ جنيه ، وقبل عرضا بسفينتين مسلحتين ، وأبحر الى اسكتلندة (١٥ يوليو ١٧٤٥) . وعلى مقربة من « لاندز اند » التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية ، ولحق باحدى سفينتي تشارلز من العطب ما حملها على العودة الى برست . وانطلق هو في الأخرى شمالا الى غربي انجلترا ، وفي ٣ أغسطس رسا على أرض اسكتلندة عند اريسكا ، في جزر الهبريد الخارجية . ونصح زعيم عشيرة بأن يعود الى وطنه . فاجاب الأمير « اننى فى وطنى » . وأنذر بأن الحكومة البريطانية قد أعلنت فى أول أغسطس عن مكافأة تبلغ ٣٠.٠٠٠ جنيه لمن يأتى به أسيرا ، حيا أو ميتا . وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التي أقلته ، وهكذا قطع على نفسه خط

الرجعة . وفى ١٩ أغسطس رفع رايته فى جلينفينان باقليم المرتفعات ، ودعا كل أنصار أسرته ليعينوه .

وظل معظم زعماء العشائر متحفظين ، وتآمر بعض من زعموا انهم أتباع له ليشوا به ، وأعلن ستة أشراف انضمامهم اليه ، وكان ألف ومائتان من بين رجاله الألفين من عشيرتى مكدونلد وكمرون . وقاد تشارلز جماعته جنوبا متحاشيا قوات الحكومة التى يقودها السر جون كوب . وفى ١٧ سبتمبر دخل أدنبره ، واستولى على المحرس والبوابات ، وثبت رئيسهما فى قصر هوليرود ، الذى كان يوما ما القصر الملكى الذى جادلت فيه مارى ستيوارت جون نوكس ، ونسي فيه جيمس السادس والأول أمه . وكان مظهر الأمير البالغ من العمر آنئذ خمسة وعشرين ربيعا يأخذ بالألباب فى بزة أهل المرتفعات ، سراويله المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء ، وعقدة شريطها البيضاء . وركع كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا أن مجد أمتهم قد عاد من جديد فى شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده ، وصلت كل النساء من أجله وهفت قلوبهن اليه . وما كاد يذوق حلاوة استقباله حتى نعى اليه نبا اقتراب كوب من أدنبره فى ألفين من جنوده . وفى ٢١ سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف ، والتقى بجيش كوب برستونبانز ، ودحره ، وأسر أسرى كثيرين ، وترفق بهم ، ثم عاد الى هوليرود مكللا بالغار ، وبدأ أنه قد ظفر باسكتلنده .

وأمر تشارلز وهو مطمئن شهرا بعد المعركة بالطعام والذباب لجنده ، ورحب بانضمام عشائر أخرى اليه . وبعث له لويس الخامس عشر بالمال والسلاح من فرنسا . وفى ٨ نوفمبر عبر الأمير السعيد الحدود راجلا الى انجلترا على رأس ٥٠٠ مقاتل ، وحاصر كرليل واستولى عليها ، ولقى الترحيب فى مانشستر ، ثم سار حثيثا الى داربي ، آملا بتقديمه المثير أن يحمل انجلترا على استقباله ملكا شرعيا لها . وأذاع منشورا تعهد فيه بأنه لن يصيب الأنجليكان والمشيخيين بعد اليوم منه ، وهو الكاثوليكي الرومانى ، أذى أكثر مما أصابهم على يد جورج الأول اللوثرى (٧٢) . غير أن انجلترا لم تصدقه ، وكرهت أن تعاود من جديد ذلك الصراع المفضى الذى بخاصه المذهب الجديد ضد القديم .

ومع أن أحدا في إنجلترا لم يكذب يهباً ليقاوم تشارلز ، فإن حفنة من الجند الانجليز فقط هي التي خفت لنجدته . واتخذ الانجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة .

وكان جورج الثانى قد هرع عائداً من هانوفر ليحمى عرشه المهدد وأمر ثلاثة جيوش انجليزية بالتجمع فى داربى . وكان رأى تشارلز أن يتجاهلها ويندفع فى طريقه الى لندن بألافه الستة ، ولكن زعماء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه . ونبهوه الى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة آلاف مقاتل ، وأن هؤلاء اذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليه بعد قليل ، وأن الانتفاضة الاستيوارتية التى وعدهم بها لا أثر لها ، وأصروا على العودة الى اسكتلندة حيث يتاح لهم أن يثيروا مزيداً من العشائر ويتلقوا الامداد من فرنسا . وأذعن تشارلز ، وقاد التقهقر الأليم من داربى الى جلاسجو . وعند فالكرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة انجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هولى (١٧ يناير ١٧٤٦) . ولكنه كان نصراً باهظ الثمن ، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه ، وكانت أمداده آخذة فى النضوب ، ورواتبه تدفع دقيقا ، وقواده يتشاجرون شجار العشائر . وعادوا ينصحونه بالتقهقر ، ودافع الأمير عن رأيه فى الصمود ، فهو لم ير فى المزيد من التقهقر غير التفكك والدمار ، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذى هزموه من قبل ؟ ثم أذعن مرة أخرى ، ولكنه أيقن الآن أنه مغلوب . وعاد الجيش الاسكتلندى متجها الى اقليم المرتفعات . وسرى تشاؤم قواده بقوة فى صفوف الجند ، فبلغ الهاربون منهم الوفا ، وما بقى كان أقرب الى الحشد المختل اليائس منه الى الجيش .

وخلال ذلك دخلت القوة الانجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند اسكتلندة ، وسيطرت على الساحل الشرقى ، وتلقت عند ليث تعزيزاً من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثانى من النمسا . وزحف كمبرلاند بجيش عدته ٨٠٠٠ مقاتل شمالاً مخترباً مقاطعة انفرنيس . وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور فى ٦ أبريل ١٧٤٦ ، بسبعة آلاف مقاتل

سيئى السلاح والغذاء والقيادة ، قاتلوا ببسالة اسكتلندية ، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلاند المتفوقة التى قذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندى) « أكياسا من الرصاص حصدتهم حصدا ، أجل بالعشرات ، كما يتساقط العشب أمام المنجل (٧٣) » . وركب تشارلز هائجاً ، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين ، ولكنهم لاذوا بالفرار منطلقين فرادى ، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده . ففر فى نفر من أصحابه وقد تحطمت روحه ، وهام على وجهه مختبئاً من ملجأ الى آخر ، مكرراً مأساة تشارلز الثانى ، بعد أن فارقه المجد . وأخيراً (٢٠ سبتمبر) وجد مركباً أقله لفرنسا .

وطارد كمبرلاند أعداءه المدحورين وأصدر أوامره لجيشه « بالآ تاخذه بهم رحمة » . فكل اسكتلندى ثائر يجب قتله فوراً . وفتشت البيوت ، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذين عثر على سلاح معهم . وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثانى على تلك التى انضمت الى الثورة ، وأحرقت مئات المنازل (٧٤) . وقال الدوق « ان الاجراءات المعتدلة لن تجدى ، وكل الخير الذى صنعناه ليس الا قصدا ضئيلاً لم يشف من الجنون وان خففه (٧٥) » . والحق أن العشائر المتدردة حاولت مرة بعد المرة أن تجدد النمرد . وظل دشة الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل ، الى أن تحطم ايمانهم بالانحلال الذى أصاب من كان يوماً أميرهم الجميل نى روما .

ذلك معاهدة اكس - لا - شابل (١٧٤٨) المبرمة بين انجلترا وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الأرض الفرنسية . ولكنسه رفض الرعية ، فأكرهته عليه الجنود الفرنسية ، وعاد متنكراً الى باريس ، لا بل الى لندن فى ١٧٥٠ ، وعبثاً حاول أن ينفخ روحاً جديدة فى قضية الاستيوارتيين ، وأن يعد بالتخلي عن المذهب الكاثوليكي (٧٦) . وأخيراً ، وبعد أن سلم بالهزيمة ، تردى فى مهاوى السكر والفسق تردياً حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التنكر له . ومات فى روما عام ١٧٨٨ ، بالغاً الثامنة والستين . وكان فولتير قبل ذلك

بثلاثين عاما قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:

« وهكذا ، (برجوع تشارلز الى فرنسا فى ١٧٤٦) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق فى أيام الفروسية الجواله بحثا عن المغامرات ، ولكن ما كان يمكن أن تنجح فى عصر يقرر فيه الانضباط العسكرى ، والمدفعية ، وأهم من ذلك المال ، كل شيء فى نهاية الأمر (٧٧) » .

٩ - صعود وليم بت : ١٧٠٨ - ٥٦

أسلم سقوط ولبول انجلترا الى سلسلة من الوزارات الصغيرة التى تخبطت فى فوضى سياسية وحروب غير حاسمة . فحكم اللورد ولنجتن بوصفه وزير الخزانة (١٧٤٢ - ٤٣) فى أرض الوطن بينما كان جورج الثانى يقاتل ببطولة مسرحية ، ولكنها حقيقية ، فى معركة ديتنجن (٢٧ يونيو ١٧٤٣) . كتب فردريك الأكبر يقول « لزم ملك انجلترا مكانه على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة ، وقدمه اليسرى الى الخلف ، وسيفه فى يده وذراعه مبسوطة ، أشبه ما يكون بمعلم المثاقفة (٧٨) » ، ولكنه على أى حال ألهم رجاله بشجاعته ، فى حين أطاع فى تواضع أوامر قواده . وأعادت وزارة هنرى بلام (١٧٤٣ - ٥٤) انجلترا الى حظيرة السلام ، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات فى الدوائر والبرلمان . وحدد أخوه دوق نيوكاسل تسعيرة لسان انجلترا ، ضمنها - لدواعى الموازنة - جدولا بسعر السوق الحالى لكل نفس (٧٩) وأبقى ماثرة لهاتين الوزارتين أنهما ضمتا الرجل الذى صنع الامبراطورية البريطانية ، والذى برز فى زمانه المضطرب ذاك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ .

ولد وليم بيت (١٧٠٨) ابنا للمال ، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة فى الهند . وكان توماس نفسه رجلا يحسب له حساب . فقد عمل بحارا فى سفينة تجارية واستقر فى البنغال ، واشتغل بالتجارة فى منافسة مشروعة لشركة الهند الشرقية التى كان البرلمان قد منحها احتكارا . وقد غرم ١٠٠٠ جنيه ، وواصل منافسته للشركة ، وأكرهها على الصلح ، ثم انضم اليها ، وظل اثنتى عشرة سنة حاكما على

مدراس . فما حل عام ١٧٠١ حتى كان قطبا ماليا بملك من المال ما مكّنه من شراء « ماسة بت » الشهيرة بعشرين ألفا من الجنيهات ، ومن الذكاء ما مكّنه من بيعها لفليب أورليان ، الوصي على عرش فرنسا ، بمبلغ ١٣٥٠٠٠ جنيه ، وهي محفوظة الآن - بعد أن ارتفعت قيمتها الى ٤٨٠٠٠٠ جنيه ، بين مجوهرات الدولة الفرنسية في متحف اللوفر شاهدا متألّقا على هبوط العملات . واستثمر توماس مكاسبه في العقارات الانجليزية ، واشترى مقعدا في البرلمان ، ومثل فيه دائرة أولد ساروم « العفنة » من ١٧١٠ الى ١٧١٥ . وأوصي بممتلكاته لروبرت بت ، أكبر أبنائه الذي تزوج هاربيت فليبي ، التي أنجبت له سبعة أطفال ، كان وليم بت ثانيا ولد فيهم .

واحتج وليم على النظام المفروض على الطلاب وهو في 'بتن' ، وذهب الى ن تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة ؛ على أنه لم يحطم روحه . . وقد اشتهر في اكسفورد بمعاناته من النفوس وهو في الثامنة عشرة . واذ راوده الامل في البرء من هذا الداء اذا عاش في مناخ أدفا ، فانه ترك الجامعة دون أن يحصل على درجة منها وسافر الى فرنسا وايطاليا ، ولكن النفوس ظل صليبه الذي حملته طوال انتصاراته . . ومع ذلك انخرط في الجيش ، وخدم فيه أربع سنين ، ولم يشهد معركة ، ولكنه خرج مقتنعا بان الحرب هي فيصل التاريخ وقدر الدول . وفي ١٧٣٥ اشترت له أسرته أصوات دائرة أولد ساروم ، رغم أنها تركته في فقر نسبي باعتباره ابنا أصغر ، وهكذا بدأ سيرته في البرلمان .

وسرعان ما أسمع الناس صوته هناك ، لأنه كان أبلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك اطلاقا . فلقد سكب في خطبه كل قوة خلقه العاطفي المشبوب ، وكل تصميمه على الوصول الى السلطة ، وعزمه على خلع ولبول ، وعلى السيطرة على البرلمان والملك ، وأخيرا إعادة تشكيل أوربا على هواه . وتحقيقا لهذه الأهداف توسل بالمنطق ، والدراما ، والخيال ، والحماسة ، والشعر ، والعبارة الطنانة ، والقبح والتهكم ، والهجو واستنفار الروح الوطنية ، واستثارة المصلحة والمجد الشخصي والقوميين . ويمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون ؛ فكان فى وسعه أن يحطم خصما بعبارة واحدة . وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب ، فكان لكل سطر ايماءته ، وكانت كل عاطفه تشكل وجهه الشبيه بوجه الصقر وتتقد فى عينيه الغائرتين ، حتى لينفعل بدنه كله وكان الكلمة صارت جسدا . لقد كان أعظم ممثل أجنبى خشبة المسرح .

ولم يكن وليا ولا قديسا . فالطمع كان صارى خلفه والريخ النى ندفع فى قلوبه . ولكن هذا الطمع كفر عن نفسه بانتظامه انجلترا بأسرها ، وأفنى نفسه بجيرة انجلترا ، رضيت أو كرهت ، فوق البحار الامبراطورية لبلوغ السيادة على العالم . واذا شعر وليم بأنه الصوت المعبر عن الدولة أكثر من أى صوت حلقى هانوفرى ، أو أى رشا ولبولية ، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الخلقى - وهو أن كل ماينفع الدولة فهو خير ؛ واذا كان قد توسل بالخديعة ، والافتراء ، والتخويف ، والدس ، ونكران الجميل ، والحنث باليمين ، والغدر ، فإن تلك بضاعة رجل الدولة ، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك . وكان فى كل خطوة تقريبا فى صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (٨٠) ، وندر أن توقف لئفسير أو يعتذر ، بل كان يركب كل مركب يبلغه هدفه ، وقد أضفى نجاحه - الذى كان نجاحا لانجلترا - القداسة على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجد والفخار . وكان فى كبريائه شي جليل ؛ فقد كان يحتقر شراء الترقى بالندل ، واحتفظ بنظافته يده وسط الفساد والرشوة ، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف فى طريقها عائق .

وقد طارد ولبول لأنه رأى بائعا يتجر بالسلام ، وانسانا جبانا لا يجرؤ على خوض حرب ضد اسبانيا ، شديد الخنوع للملك يبدى - فى رأى بت - « نحو هانوفر تحيزا سخيلا ناكرا للجميل غادرا » ، ملك « لا يعتبر انجلترا غير اقليم من أقاليم امارة حقيرة (٨١) » . ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية فى قوة وحدة حملت دوفة ملبره وهى على فراش الموت سنة ١٧٤٤ على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه ، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب .

فلما تقلد بلام الوزارة طلب الى الملك تعيين بت وزيرا للحرب ؛ ورفض جورج الثانى وكان لا يزال محترقا بنار بت ، ولكن بلام الح ، ووصف بت بأنه « أكفا وانفع رجل بيننا ، شريف حقا وأمين بكل ما فى الكلمة من معنى (٨٢) » ، وأذعن الملك ، وفى ١٧٤٦ دخل بت الوزارة ، أولا بوصفه مناويا لوزير الخزانة الارلندية ، ثم خازنا للقوات المسلحة . وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقلده ، فالخازن يأخذ لنفسه نصفاً فى المائة من جميع الاعانات التى يقررها البرلمان للأمراء الاجانب ، ويستثمر بالفائدة - التى يحتفظ بها لنفسه - الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند . وأبى بت أن يأخذ غير راتبه الرسمى ، فلما الح عليه ملك سردانيا فى أن يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادى من اعانته رفض الهدية . وصفقت انجلترا لنزاهة بت الشاذة ، وهى التى طالما اعتبرت مثل هذه المنح اشباعا عاديا لطبيعة الانسان ، وأصغت فى شوق الى مراقباته المطالبة ببريطانيا شامخة الرأس فوق العالم بأسره .

وفى يناير ١٧٥٥ ، ودون اعلان للحرب ، نشب القتال بين انجلترا وفرنسا فى أمريكا . وفى يناير ١٧٥٦ وقعت انجلترا معاهدة مع بروسيا . وفى مايو أبرمت فرنسا حلفا دفاعيا مع النمسا . وفى نوفمبر أصبح بت ، وزير الخارجية الآن ، صوت انجلترا وذراعها فى حرب السنوات السبع تلك التى ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية .

الفصل الرابع

الدين والفلسفة

١ - الموقف الدينى

كان لقصة القرن الثامن عشر فى غرب أوربا موضوع ذو شقين ، انهيار النظام الاقطاعى القديم ، والانهيار الوشيك للدين المسيحى الذى أضفى على ذلك النظام سنده الروحى والاجتماعى . فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة ، وبدا أن سقوط الواحد يجر الآخر الى مأساة مشتركة .

وقد لعبت انجلترا الفصل الأول فى كلتا ناحيتى هذا التغيير العظيم . ففي المسرح السياسى سبقت حربها الأهلية (١٦٤٢ - ٤٩) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاما فى خلع أرستقراطية اقطاعية وضرب عنق ملك . أما فى مجال الدين فان نقد الربوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية فى فرنسا بنصف قرن ، وسبقت مادية هوبز مادية لامترى بقرن ، وسبقت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) ومقاله « فى المعجزات » (١٧٤٨) هجوم « الفلاسفة » الفرنسيين على المسيحية فى « الموسوعة » (١٧٥١) . وكان فولتير قد تعلم شكوكيته فى فرنسا - وبعضها أخذه عن بولنبروك الانجليزى المبعد عن وطنه - قبل أن يحضر الى انجلترا ولكن السنوات الثلاث التى قضاها فى انجلترا (١٧٢٦ - ٢٨) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت ، والبروتستانتية وقد تفرقت شيعا مستضعفة ، والربوبيين يتحدون كل شيء فى المسيحية الا الايمان بالله - وهو بالضبط التحدى الذى سيحمله فولتير الى فرنسا . يقول فولتير « فى فرنسا ينظر الناس الى على أننى مقسّل فى الدين ، وفى انجلترا على أننى مسيرف فيه (١) » .

وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار انجلترا فى ١٧٣١ يقول « ليس

فى انجلترا دين (٢) « . وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للأنظار ، لأنه فى تلك الفترة بعينها كان جون وتشارلز وسلى يؤسسان الحركة الميثودية فى اكسفورد . ولكن مونتسكيو ، وهو رجل ارستقراطى ، تنقل أكثر ما تنقل بين أقطاب النبالة أو العلم ، وهو يخبرنا أنه فى هذه الجماعات « اذا ذكر الدين ضحك الجميع (٣) » . وهذا أيضا يبدو غلوا فى القول ؛ ولكن لنستمع الى اللورد هرفى ، الذى كان يعرف تقريبا كل رجل وامرأة ومنحرف بين عليّة القوم :

« ان خرافة المسيحية هذه . . . قد نسفت الآن (١٧١٨) فى انجلترا ، حتى ليكاد أى رجل عصرى أو ذى مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله فى الماضي من الجهر بتجرده من أى دين . وحتى النساء اللائى كن يعخرن بذكائهن حرصن على أن يشتمن الناس ان الميـسـول المسيحية هى ما يحتقرن الالتزام به (٤) » .

فى تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعنى اما نعاس صلاة القداس الانجليكانى أو « حماسة » المذاهب المنشقة ، وعمّا قليل سيعرف الدكتور -جونسن الحماسة بأنها « ايمان مغرور بالالهام الخاص » - وبالمعنى الحرفى « إله فى باطن الانسان » . وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفرين وحزب الأحرار المنتصر ؛ وخضعت الآن للدولة ، وغدا نساوستها أتباعا أذلاء للطبقة الحاكمة . وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخرية السوقة ، وقد كرم فيلدنج من شذوا عن هذه القاعدة فى شخص النفس ادمز . وغلبت الفوارق الطبقيّة فى الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، وجلس عامة الناس أو وقفوا فى المؤخرة ، فاذا فضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء فى وقار بطىء (٥) . وهى بعض كنائس لندن ، حين يكثّر عدد الفقراء القادمين للعبادة ، كان المصلون من أصحاب البواريك يهربون بعد أن يقفلوا مقاعدهم خلفهم (٦) ، ملتجئين هواء أكثر نقاء .

وكان بعض الأساقفة الاسجليكان أمثال بطر ، وباركلى ، ووربرتون ، رجالا متبحرين فى العلم ؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم ، ولكن

أكثر كبار الأكليروس كانوا فى مناوراتهم للترقى يشاركون فى لعبة السياسة شكاك البلاط ومحظياته ، ويفنون فى حياة الترف دخول كثير من الأبرشيات . وقد روى أن الأسقف تشاندلر دفع ٩٠٠٠ جنيه لترقيته من لتشفيلد الى درم ، أما ويليز أسقف ونشستر ، وبوتر رئيس أساقفة كنتيربرى ، وجبسن وشرلوك أسقفا لندن ، هؤلاء جميعا ماتوا « أغنياء غنى مخزيا » وبلغت ثروة بعضهم ١٠٠٠٠٠ جنيه (٧) . ولم يكن شكرى يطيقهم ، فقال :

« قرأت أن الليدى يارموث (خلية جورج الثانى) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ ١٠٠٠ره جنيه كان هو الحبر الوحيد فى عصره الذى قادته أيد كهذه الى المحراب ؟ اننى اذ اختلس النظر الى داخل قصر سانت جيمس الذى يقطنه جورج الثانى ، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفا وهى تصعد السلم الخلفى لسيدات البلاط ؛ قساوسة متسترين يدسون أكياس النقود فى حجورهن ، وذلك الملك العجوز الفاجر يتثائب تحت مظلته فى المصلى الملكى أثناء عظة القسيس ، الواقف أمامه ، (أو) يثرثر بالألمانية . . . بصوت يبلغ من علوه أن القسيس . . . انفجر صارخا فى منبره لأن حامى الايمان وموزع الأسقفيات لا يريد الاصغاء اليه ! (٨) » .

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية أصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة . وقد وصفها بت بأنها « عقيدة كلفنية ، وطقوس بابوية ، وأكليروس أرمنيوسي (٩) » أى أن العقيدة الرسمية كانت جبرية ، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية ، ولكن روحا متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفسن واعتناق تعليم المهرطق الهولندى أرمنيوس القائل بحرية الإرادة . لقد ازداد التسامح لأن الايمان اضمحل ، وآية ذلك أن هرطقات كهرطقة هيوم ، كانت تروغ انجلترا القرن السابع عشر لو جهر بها انسان ، لم تحدث غير موجة طفيفة على نهر الفكر البريطانى . وقد وصف هيوم نفسه انجلترا بأنها « استكانت الى حال من عدم الاكتراث الهادىء بأمور الدين لا تجدها فى أى أمة أخرى من أمم الأرض (١٠) » .

وكان كل الانجليز ملزمين بالعبادة الانجليكانية حسب نص القانون . فكل متخلف عن صلوات الاحد عرضة لتغريمه شلنا عن كل تهرب ، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيهًا في الشهر (١١) ؛ على ن هذه القوانين ندر أن طبقت . وكانت العبيادة الكاثوليكية محرمة ، قانونا أيضا لا تطبيقا . فالقس الكاثوليكي الذى يؤدى وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد . ومثل هذه العقوبة فرضت لثنى أى كاثوليكي عن فتح مدرسة ؛ وحرم على الوالدين ارسال ابنائهم الى الخارج ليتعلموا تعليما كاثوليكيًا والا غرموا ١٠٠ جنيه . ولا يحق شراء الأرض أو ورثها الا للمواطنين الذين أقسموا يمينى الولاء والسيادة (اللتين تعترفان بملك انجلترا رأسا للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول . وكل كاثوليكي يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية أو العسكرية ، ومن ممارسة المحاماة ، ومن اقامة أى دعوى أمام القضاء ، ومن العيش فى نطاق عشرة أميال من لندن ؛ يضاف الى هذا أن هذا الكاثوليكي يجوز فى أى وقت نفيه من انجلترا والحكم عليه بالاعدام اذا عاد اليها . على ان الذى حدث فعلا أيام جورج الأول والثانى هو أن الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لابنائهم ، ويستطيعون الاستماع الى القداس فى كنائسهم الصغيرة وبيوتهم دون معوق ، وأن الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين أنفسهم (١٢) .

وكان كل البروتستانت الانجليز الغيورين الآن يتبعون المذهب المنشقة على الكنيسة الرسمية . وقد ضحك فولتير واغتبط لكثرة عددهم : مستقلون (بيورتان) ، ومشيخيون ، ومعمدانيون ، ومجمعيون ، وكويكريون ، وتوحيديون . فاما المشيخيون (البرزيتيريون) فكانوا فى طريقهم الى التسامح بعد أن فقدوا سلطتهم السياسية ، ولم يأخذوا عقيدة الجبر مأخذ الجد الشديد ، وكان كثير منهم قانعًا فى صمت بمسيح بشرى (١٣) . وفى ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخين بأغلبية ٧٧ الى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثالوث التقليدية ينبغى الا يكون شرطًا يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة (١٤) . واما الكويكريون فكانوا فى نمو لا فى العدد بل فى الثراء ، وكلما ارتقوا فى مدارج المجتمع أصبحوا أكثر تقبلا لأساليب حياة البشر وذنوبهم . على أن ميلا الى الاكتئاب

أصاب كل المنشقين تقريبا حتى وهم ينعمون بالثراء ، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الاحد يوم جذل كانت الطبقة الوسيطة الدنيا - حيث يتكاثر المنشقون - تواصل « الأحد العيوس » الذى ورثته عن البيورتان . فى ذلك اليوم كانت الأسرة عقب صلوات الصباح فى البيت تمضي الى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين ، فاذا عادت الى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على وسائل فوق أرض عطلت من الأبسطة . وكانوا عادة يذهبون ثانية الى خدمات دينية تقام عصرا ومساء ، ويمسكون جماعة ، ويسمعون عزلة أخرى ، ويجدون بعض اللذة فى ترتيل الترانيم الجهورية . ولم يكن مسموحا بأى غناء فى ذاك اليوم المقدس ، ولا بلعب الورق ، ولا بأى تسلية من أى نوع كانت بصفة عامة . ويجتنب السفر فى يوم الرب ، فيعطى قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة .

ووجد فولنير فى معرض وصفه للمشهد الدينى فى انجلترا الكثير مما له درس لفرنسا التى مازال التعصب يحكمها . قال :

« انظر الى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن ... هناك يتجرى اليهودى والمسلم والمسيحي معاملاتهم معا وكأنهم من دين واحد ، ولا ينتحون بالكفر غير الفيلسفين . هناك يثق المشيخى بالقائل بعماد الكبار ، ويعتمد الانجليكاني على كلمة الكويكرى . فاذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه الى مجمع اليهود ، وبعضه ليشرب كأسا من الخمر . هذا الرجل يذهب ويعمد فى حوض هائل باسم الأب والابن والروح القدس ؛ وذاك يأمر بختان ولده ويتمتمة طائفة من الكلمات العبرية التى يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل ؛ وآخرون (الكويكريون) يمشون الى كنائسهم - حيث ينتظرون الوحي وقبعاتهم على رموسهم ؛ والكل راضون .

« ولو ان انجلترا لم تسمح بغير دين واحد ، لأصبحت الحكومة فى أغلب الظن مستبدة ؛ ولو كان هناك دينان فتط لذبح الناس بعضهم بعضا ؛ أما الأديان بهذه الكثرة ، فانهم جميعا ، يشون فى سعادة وسلام (١٥) » .

٢ - التحدى الربوبى

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية فى انجلترا : ارتباط الكنيسة بصعود الاحزاب السياسية وسقوطها ؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الافكار بفضل التجارة والسفر ، والالمام المتزايد بالاديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الايمان بالاسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس ، واستيراد او ترجمة كتب خطيرة مثل « معجم » بيل و « الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا » ، والكف عن رفاة الدولة على المطبوعات (١٦٩٤) ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحاولات الجديدة للفلسفة ، فى أعمال بيكون ، وهوبز ، ولوك ، لتفسير العالم والانسان تفسيرات طبيعية و - تلخيصا لكثير من هذه العوامل - حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاختزال المسيحية الى مجرد الايمان بالله والخلود .

وكانت تلك الحركة قد بدأت بكتاب « الحقيقة » لهربرت لورد تشبرى فى ١٦٢٤ ، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بتشارلز بلاونت ، وجون تولاند ، وأنتونى كولنز ، وواصلت الان سيرها بأثر متراكم فى أعمال هويستن ، وولستن ، وتندال ، ومدلتن ، وتشب ، وآنت ، وبولنبروك ، وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن استاذ « لوكازيا » للرياضة فى كمبردج من منصبه ذاك (١٧١٠) لأعرابه عن بعض الشكوك فى الثالث ، فدافع عن اريوسيته فى كتاب « احياء المسيحية البدائية » (١٧١٢) ، واجهد نفسه ليثبت ان تنبؤات العهد القديم لا تشير الى المسيح . فلما اقلع المدافعون عن المسيحية عن اتخاذه الحجج من التنبؤات ، وبنوا الوهيسة المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، أطلق توماس وولستن سورته التى خلت من التوقير للمسيحية فى « ستة احاديث عن معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ - ٣٠) . يقول فولتير « لم يهاجم المسيحية قط مسيحى بمثل هذه الجراة (١٦) » . وقد زعم وولستن ان بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول . ووجد ان مما لا يصدقه

العقل أن يلعن المسيح شجرة تين لأنها لم تثمر تينا فى وقت مبكر من العام كوقت الفصح . وتسائل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين بيسوع لو أنه دفع أغنامهم الى الموت كما فعل بخنازير الجدرين ؛ انهم كانوا « يستصدرون حكما باعدامه سنقا » ، لأن القانون الانجليزى يعتبر هذا العمل جنائية كبرى (١٧) . وذهب وولستن الى ان قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم . وغطى هذا كله بتأكيدات زعم فيها أنه ما زال مسيحيا « قويا كالصخرة » . ومع ذلك اهدى كل حديث الى أسقف مختلف ، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديدا حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (١٧٢٩) . وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه ، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكا حميدا فى المستقبل . فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به فى السجن . وفدم فولتير نكت المبالغ ، وجمع الباقي ، وأفرج عن وولستن . ولا شك أن المحاكمة كانت اعلانا عن « الأحاديث » ، فبيع منها ستون ألف نسخة فى بضع سنوات (١٨) . روت « سيره لولستن » بقلم كاتب مجهول (١٧٣٣) كيف أنه وهو سائر فى سانت جورجز فيلدرز ، « لقيته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات ... أيها الوغد العجوز ، ألم تشفق بعد ؟ » فأجابها وولستن « أيتها المرأة الطيبة ، أنا لا اعرفك . ففولى لى من فضلك بم أسأت اليك » ؛ فأجابت المرأة « لقد هاجمت مخلصي ، فما الذى يحدث لنفسى الخاطئة المسكينة ، لولا مخلصي الحبيب ؟ - مخلصي الذى مات من أجل الخطاة الأشرار مثالى (١٩) » .

وبلغت الدعوى الربوبية ذروتها فى ماتيو تندال ، زميل كلية جميع النفوس باكسفورد . فبعد حياة هادئة محترمة كان أهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها ، نشر وهو فى الثالثة والسبعين أول مجلد من كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » (١٧٣٠) . وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع فى يد أسقف فائتلفه . وفى وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التى حاولت مناقضته وعددها ١٥٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطر « أوجه الشبه بين الدين والطبيعة » وكتاب الأسقف باركلي « السيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) .

وقد طوفتندال فى غير ترفق بكل أوهام اللاهوت . فتساءل لم أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكرا عليهم أربعة آلاف سنة ، ثم أرسل اليهم ابنه بوحى آخر مازال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصرًا على أقلية من الجنس البشرى . فإى نوع من الآلهة يمكن أن يكون هذا الآلة الذى استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة ؛ وإى اله رهيب هذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا ؟ يقال لنا ان السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها ان الله وفق كلامه للغة سامعية وأفكارهم . فياله من هراء ! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلا من أى يتحدث مباشرة الى نفس كل انسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد ، وارهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الإلهى أكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ؟ بل جعلهم فى الواقع أشد ضراوة وقسوة عما كانوا فى ظل العبادات الوثنية ! اليس فى كونفوشيوس أو شينشرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ ان الوحي الحقيقى موجود فى الطبيعة ذاتها ، وفى عقل الانسان المنروح من الله ؛ والآله الحقيقى هو الآله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمة وجلال وفق قانون ثابت ؛ والفضيلة الحقة هى حياة العقل فى انسجام مع الطبيعة ، « نكل من ينظم ميوله الفطرية بحيث تؤدى الى أقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولذات حواسه ، مجتمعة كلها معا (لأن فى هذا سعاده) - له أن يثق بأنه لا يمكن أن يغضب خالقه الذى اذ يحكم كل الأشياء حسب طبيعتها فهو لابد يتوقع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع (٢٠) » . تلك هى الفضائل الحقة ، تلك هى المسيحية الحقة « القديمة قدم الخليقة » .

وواصل كونيرز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية . فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبردج رسم قسيسا ، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للإيمان السننى ، واصل الممارسات الخارجية للعبادة المسيحية . وقد كتب طرفا من أفضل النثر فى عصره ، وكتابه « سيرة شيشرون » (١٧٤١) ما زال الى اليوم سيرة رائعة رغم كثرة

ما استعارة من سير شيشرون التي سبقته . وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل الى انجلترا « رسائل من روما » (١٧٣٩) ، التي بين فيها بتفصيل ينم على علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة في مجموعة الطقوس الكاثوليكية - البخور ، والماء المقدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرايين المنذورة والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة ، و « كبير الأحرار Pontifex Maximus » القديم الذي أصبح كبير أحرار روما Pontiff . وصفقت انجلترا البروتستنتية للرسائل ، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولع مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتي كالكاثوليكي سواء بسواء . فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقدس ووحيه ردا على تندال ، أنذر مدلتن في « رسالة الدكتور ووترلاند » (١٧٣١) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبثهم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخا فعليا ليس الا عملا انتحاريا ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ ان عاجلا أو آجلا مثل هذه الخرافات ويكره المدافعين المسيحيين على التقهقر في خجل الى موقف أكثر تواضعا . ثم لجأ مدلتن الى حجة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من أثر في ايمانه الديني فقال : « حتى ولو كان اللاهوت المسيحي لا يصدق ، فان المواطن الصالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعا للنظام الاجتماعي يوفر روادع ممتازة للهمجية الكامنة في طبيعة البشر (٢١) » .

وأخيرا أصدر مدلتن أهم أعماله ، « تحقيق حر في القوى الاعجازية المزعوم أنها وجدت في الكنيسة المسيحية خلال العصور المتعاقبة » (١٧٤٨) - وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله المعاصر « في المعجزات » (١٧٤٨) . وقد بدأ بالتسليم بحجية المعجزات المنسوبة في الاسفار القانونية من العهد الجديد الى المسيح أو رسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة الى آباء الكنيسة وقديسيها وشهادتها بعد القرن الميلادي الأول غير جديرة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفي للكشف عن سخفها . وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها ؛ ونقل مدلتن عن موزهايم ، المؤرخ الكنسي العلامة ، تصريحه بالخوف من أن « الذين يبحثون بشيء من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتى القرن الرابع

سيجدونهم كلهم وبلا استثناء ميايين الى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين (٢٢) » .

وفى كتاب مدلتن عيوب كثيرة . فقد فاته انه هو ايضا زكى الخداع بالجملة دعما للمسيحية ، وغفل عن ان من التجارب الغريبة ، كاخراج « المس الشيطاني » ، او كسماع الفديس انطونيوس للشيطان واقفا ببابه ، ما يمكن ان ينشا عن قوة الايحاء او الخيال ، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بامانة . على اى حال كان من اثر هذا « التحقيق الحر » انه سلط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد ، طرق النقد ذاتها التى طبعها مدلتن على عصر آباء الكنيسة ، وكان خصومه الكاثوليك محقن تماما حين زعموا ان حججه من شأنها اضعاف كل الاساس الاعجازى للانسان المسيحى . ولعل مدلتن قد قصد الى هذا . ولكنه احتفظ بترقيساته الكنسية الى النهاية .

كان اعتناق بولنبروك الربوبية سرا مخفى وعذوى متفشية فى الطبقة الارستقراطية . ففى كتاباته التى حسنها عن النشر فى حياته صوّب قدحه المفعم بالازدراء الى جميع الفلاسفة تقريبا فيما عدا بيكون ولوك . فلقب افلاطون بابى الكذب اللاهونى ، وسمى القديس بولس « حالما متعصبا » ولينتر « مشعوذا كيميائيا » (٢٣) « والميتافيزيقيين » مجانين متقفين « ووصف كل القائلين بتميز النفس عن الجسد بانهم (٢٤) « معتوهون روحيون » وسحر من العهد القديم لانه خليط من الهراء والاكاذيب (٢٥) . ولقد صرح بايمانه بالله ، ولكنه رفض ما بقى من العقيدة المسيحية . فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية . يقول : « ينبغى لنا دائما ان نكون غير مؤمنين . . . ففى الدين ، والحكم ، والفلسفة ، ينبغى ان نتشكك فى كل شيء مقرر (٢٦) » والقى وراء ظهره بآخر تعزيات الشكاك وهى الايمان بالتقدم ؛ فكل المجتمعات تمر بدورات « من النشوء الى الفساد ، ومن الفساد الى النشوء (٢٧) » .

وفى ١٧٤٤ ورث بولنبروك ضيعة الاسرة فى باترسى ، وغادر

فرنسا لينفق هناك آخر سنى صراعه مع المرض واليأس . وهجره أصحابه القدامى لانهيأ نفوذه السياسي وحدة طبعه . وأنهى موت زوجته الثانية (١٧٥٠) اهتمامه بشئون البشر ، « فى كل سنة أزداد عزلة فى هذه الدنيا (٢٨) » وهذا عقاب الأنانية . وفى ١٧٥١ ابتلى بالسرطان الذى انتشر من وجهه فأملى وصية تتسم بالتعزى ، ولكنه رفض أن يسمح لأى قسيس بالاهتمام بروحه (٢٩) . ومات فى ١٢ ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب ، بغير أمل لا لنفسه ولا للآخر . لقد أخذ اضمحلال الايمان الدينى يولد ذلك التشاؤم الذى سيصبح العلة الخفية التى تبتلى بها النفس العصرية .

٣ - الدافع الدينى

أما المدافعون عن المسيحية فلم يقابلوا الهجوم الربوبى بأى استسلام أو هزيمة ، بل انهم على العكس من ذلك ردوا الهجوم بكل ما أوتى تئذال أو مدلتن أو بولنبروك من قوة عارمة ، وعلم واسع ، وأسلوب مقذع . واعتمد المدافعون الأضعف شأنا ، مثل تشاندلر أسقف لتشفيلد ، ونيوتن أسقف لندن ، على الحجج البالية ، وهى أن اليهود كانوا ينتظرون فى حرارة وشوق مجيء « المسيا » حين أتى المسيح ، وأن كثيرا من النبؤات اليهودية تحققت على يديه ؛ أو رجعوا - كما فعل شلوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر - الى الشواهد الكثيرة على قيامة المسيح . وركز شلوك وغيره على أن الأدلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة ، وفيها الكفاية لدعم ألوهية المسيح والمسيحية . وقال شلوك ان رفض حدث توافرت الأدلة على صدقه لأنه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر ، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدارين أن يؤمنوا بحقيقة الثلج . فاذا زعمنا أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما عرفناها ، « تجاوزنا اعلام حواسنا ، وقامت النتيجة على الهوى لا على العقل (٣٠) » . وليس فى امكاننا التأكد من أن الانسان لن يقوم من الأموات برغم تجربتنا الواسعة ، الضيقة فى حقيقتها . فانظر كم من العجائب التى نقبلها الآن على أنها أحداث عادية فى حياتنا كنا من قبل نظننا بعيدة التصور !

أما جورج باركلي ، الذي ترك بصمته على الفلسفة في السنوات ١٧٠٩ - ١٣ ، فقد أدلى بدلوه في الجدل من جزيرة رود بكتابه « السيفرون » أو الفيلسوف الصغير (١٧٣٣) ، وهو حوار يتالق بالتفكير الجريء والأسلوب المرح . والسيفرون هذا يصف نفسه بأنه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الديني الى الربوبية الى الالحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعا يموه به الكهان والحكام على الناس ؛ وهو يأبى الايمان بأى شيء غير الحواس ، والعواطف ، والميول الفطرية ؛ وينذر بوفرانور (لسان حال باركلي) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية الى الالحاد ، وأن الالحاد سيفضي الى انهيار الفضيلة . قد يكون هناك بعض الملحدين الأفاضل ، ولكن ألا تولد عقيدتهم ، اذا ما قبلتها الجماهير ، الاباحية والتمرد على القانون ؟ وهؤلاء المتشككون في الدين يذنبون أن يتشككوا في العلم أيضا ، لأن كثيرا من دعاوى العلماء - كما هي الحال في الرياضة العليا - تتجاوز تماما شهادة حواسنا أو تناول فهمنا . وما من شك في أن عقيدة التثليث ليست أعصي على الفهم من الجذر التربيعي لناقص واحد .

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذي يرسى ايمانه او موارده الكنسية على أساس واه كجذور باركلي الصماء . فبعد أن تدرب لممارسة المحاماة ، ورسم قسا انجليكانيا ، شق طريقة وسط غابة اللاهوت بكل ما أوتى الذهن القانوني من براعة يقظة . ولعله كان أصلح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت ، فإذ كان يستطيع العراك ، وما كان يستطيع النوم في الليل الا اذا أُردي خصما في النهار . وقد وصف حياته بأنها « حرب على الأرض ، أى على المتعصبين والمنحليين ، الذين أعلنت عليهم الحرب الأبدية كما فعل هانيبال أمام المذبح (٣١) » . واتسع مرمى سهامه وبعد ، فإذنا أخطأت الخصوم قتلنا الأصدقاء . وقد وصف معاصريه بأوصاف محكمة ، فجونسون « بلطجي » خبيث وقح ، وجاريك « اذا انحرف مرة وتكلم كلاما له معنى كان أقرب الى الهراء » ، وسموليت « اسكتلندي متشرد » يكتب « لغوا مضروبا في عشرة آلاف » ، وفولتير « وغد » يتمرغ في « أقذر حالوعات التفكير الحر (٣٢) » .

وقد ظهرت رائعته الضخمة ذات المجلدين فى ١٧٣٧ - ٤١ بعنوان « رسالة موسى الالهية مفسرة طبقا لمبادئ ربوبى دينى » . وكانت حجتها مبتكرة وفذة . فالإيمان بحالة مستقبله من الثواب والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعى (وهو ما وافق عليه الكثير من الربوبيين) ، ولكن موسى وفق فى تنظيم الحياة اليهودية وأبلاغها حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الإيمان ، ولا تفسير لهذه المعجزة الا بالارشاد الالهى لموسى واليهود ، ومن ثم فرسالة موسى ونواميسه الهية ، والكتاب المقدس كلمة الله . وأحس وبرتن أن هذا الايضاح « قريب كل القرب من اليقين الرياضى (٣٣) » ولم يكن زملاؤه اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه فى أن الله أرشد اليهود خلال ٦١٣ قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة . ولكن المؤلف القوى ملاً صفحاته ببحوث علمية - عن طبيعة الفضيلة ، وعن التحالف الضرورى بين الكنيسة والدولة ؛ وعن ديانات الاسرار والشعائر فى العصور القديمة ، وعن أصل الكتابة ، وعن معنى الرموز الهيروغليفية ، وعن التاريخ المصرى ، وعن تاريخ سفر أيوب ، وعن أخطاء أحرار الفكر ، والأثريين ، والعلماء ، والمؤرخين ، والتوحيديين ، والأتراك ، واليهود - حتى لقد ذهلت انجلترا بأسرها لثقل علمه واتساع مداه . وتقدم وبرتن من معركة الى معركة - ضد كروساز ، وثيوبولد ، وبولنبروك ، ومدلتن ، ووسلى ، وهيوم - حتى بلغ أسقفية جلوستر المريحة المجزية .

وأما جوزف بطلر فكان الين عودا ولكنه أكثر رهافة وتهذيبا ، رجلا بالغ الرقة والتواضع والاحسان ، حَزَّ فى نفسه كثيرا أن يرى الدين الذى أعان على فطم الحضارة الأوروبية من الهمجية ، يواجهه امتحانا من أجل حياته . وقد صدمه الاقبال الذقى لقيته مادية هوبز فى الطبقات العليا . فلما عرضت عليه (١٧٤٧) رأسه أسقفية كنتربرى - وهى أعلى منصب كنسى فى انجلترا - رفضها معتذرا بأن قد « فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية (٣٤) » . وفى ١٧٥١ أعرب عن خزيه « لما أصاب الدين من انحلال شامل فى هذه الأمة ... فتأثيره يبنى أكثر فأكثر فى أذهان الناس ... وعدد الذين يجهرون بالكفر فى ازدياد ، وتحمسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم (٣٥) » . وقد أدهش

صديقه « دين تكرر » بسؤاله : ألا يجوز أن تصاب الأمة كما يصاب الفرد بالجنون ؟ وكأنه شعر أن شعبا من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكرة الروحية اذا تخلص عن تراثه الدينى والخلقى .

ومع ذلك كرس حياته فى محاولة لرد اعتبار عقلى للايمان المسيحى . فنشر وهو ما زال قسيسا شابا فى الرابعة والثلاثين « خمس عشرة عظه » (١٧٢٦) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية ، فزعم أن الانسان وان كان فى نواح كثيرة شريرا بطبيعته ، الا أنه بطبيعته أيضا كائن اجتماعى أخلاقى ، فيه احساس فطسى بالحق والباطل . وقال ان العناصر الاسمى فى كيان الانسان تدين بأصلها لله ، الذى هى صوته ، وعلى هذا الاساس اقام نظرية عامة تقول بأن هناك قصدا إلهيا يتخلل العالم . وأعجبت كارولين بحجته ، وفى ١٧٣٦ عين بطريركاهنا خاصا للملكة .

فى ذلك العام نشر كتابا ظل طوال قرن أهم حصن لحجج المسيحية ضد الالحاد ، واسمه « وجه الشبه بين الدين الطبيعى والموحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكها » وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر :

« لقد انتهينا - ولا أدري كيف انتهينا - الى حال أصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين ، أن المسيحية ليست موضوعا يكثر فيه البحث والتحقيق الا لأنه قد تبين آخر الأمر أنها ديانة زائفة . ومن ثم يتناولونها وكان هذا بات الآن نقطة يجمع عليها كل أصحاب الفطنة والتمييز ، فلم يبقَ الا أن يجعلوا مذهبها هدفا رئيسيا للهزء والسخرية ، وكأنهم يعاقبونهم لأنها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل (٣٦) »

واذ قدم بالكتاب أن يكون ردا على الربوبيين ، فإنه افترض وجود الله . رتب الدين الطبيعى « الذى يدين به الربوبيون يقبل » الله الطبيعة « ، مخطط العالم وصانعه الأعظم ، ولكنه يرفض الآله الذى صورته الكتاب المقدس ، وهو اله ظالم ظلما بيانا ، لأنه لا يتفق أبدا وهذا المفهوم السامى . وأراد بطريركنا ان يبين ان فى الطبيعة من علامات الظلم

والقسوة ما لا يقل عما فى « يهوه » كما صورته العهد القديم ؛ وأنة لا تناقض بين اله الطبيعة واله الوحي ؛ وأن الذين قبلوا أحدهما ينبغى منطقيا أن يقبلوا الآخر . ويبدو أن كاهن الملكة الخاص ، الطيب ، لم يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوقحين قد يخلصون من هذه الحجة (كما خلص جيمس مل) الى أنه لا هذا الاله ولا ذاك جدير بأن يعبد المتحضرون .

وأقام بطر حجته فى وجود الالهين ، وفى أنهما واحد ، على الترجيح والاحتمال . فقال ان عقولنا ناقصة ، وأنها عرضة لكل ضروب الخطأ ، فليس فى امكاننا أن نصل الى اليقينية لا فى مر الله ولا فى أمر الطبيعة ؛ وحسبنا الترجيح ، والترجيح يؤيد الايمان بالله والايمان بالخلود . وواضح أن النفس أسمى من الجسد ، لأن أعضاء الجسد أدوات النفس وخدامها . والنفس ، التى من الواضح أنها جوهر الانسان ، لا داعى لفنائها مع الجسد ، وأغلب الظن أنها عند الموت تبحث عن أدوات جديدة فى مرحلة أعلى . وليس من المريح للطبيعة أن يتغير كائن من صورة أدنى الى صورة أعلى - كتغير الكائنات الزاحفة مثلا الى كائنات مجنحة ، أو تغير الخادرة الى فراشة ؛ وقياس آخر يرجح أنه سيكون فى حياة النفس بعد موت الجسد اللوان من الثواب والعقاب - مع الافتراض دائما بأن الله موجود . فكما أننا نعاقب المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع ، كذلك تعاقب الطبيعة فى معظم الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام ؛ ولكن بما أن هناك أمثلة كثيرة لا تلقى فيها الرذيلة عقابا واضحا ، ولا الفضيلة ثوابا واضحا ، فى هذه الحياة ، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد ، فى حياة أخرى ، علاقة أكثر انصافا بين السلوك والمصير . وضميرنا ، حسنا المخلقى ، لا يمكن أن يكون قد جاءنا الا من لدن اله عادل .

وأكثر ما لحجج بطر من أهمية فى عصرنا هذا مرجعه أنها توضح مرحلة فى تطور العقل العصرى . ونحن اذا نظرنا اليها باعتبارها موجية أصلا ضد الريبويين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها ؛ فالذين قبلوا شهادة القصد الالهى فى الطبيعة ، لا مبرر لهم فى رفض الكتاب المقدس بسبب الاله القاسى المعلن عنه فى العهد القديم ، لأن اله الطبيعة

لا يقل عنه قسوة . لقد كانت طريقة غاية فى الأصالة فى الدفاع عن المسيحية . والظاهر أن بطر لم يتوجس من أن هذه الحجة قد لا تفضي الى المسيحية ، بل الى شيء أشد دفعا الى اليأس من الكفر - الى النتيجة التى خلص اليها توماس هنرى هكسلى ، وهى أن القوى المطلقة فى الكون أو وراءه غير أخلاقية ، تتناقض أشد التناقض مع ذلك الاحساس بالحق والباطل الذى بنى عليه بطر ، كما بنى عليه كانط ، الكثير من لاهوته . على أية حال كان كتاب « وجه الشبه » خطوة الى الامام ولو فى هدوئه ولطفه ، فهنا لا تجد كراهية لاهوتية ، ولا قدحا دينيا ، بل محاولة جادة من الكاتب للتأدب حتى مع أولئك الذين بدوا أنهم يدمرون أعز آمال البشر . ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لأنها رأت فيه أفضل دفاع ظهر الى ذلك الحين عن العقيدة المسيحية . وأوصت وهى على فراش الموت بترقية بطر ، فعينه جورج الثانى أسقفا على برستل ، ثم ناظرا على كتدرائية القديس بولس ، وأخيرا أسقفا على درم . وهناك ضرب بطر المثل لزملائه بالعيشة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله .

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى ان كثيرا من رجال الكنيسة أشاروا بالكف عن هذا الجدل ، وأثروا أن يرسوا ايمانهم على الحاجات والعواطف الدينية بعيدا عن سهام العقل . مثال ذلك أن كتاب «هنرى دودويل » المسيحية دون أساس من الجدل » (١٧٤٢) يرفض الجدل العقلى فى المسائل الروحية ، لأنه لا يهدى الى الحقيقة ، وأقل من ذلك الى السعادة ، انما هو رقصة موهنة تزيّن فيها الحجج المؤيدة والمعارضة ، وما من انسان يقيم ايمانه على مثل هذه الأسس المائتة . وذهب دودويل الى أن حجج كلارك ، ووربرتن ، وبتلر ، وغيرهم من المدافعين المسيحيين ، قد هزت من الايمان الدينى أكثر مما قوت ، وربما لم يكن هناك الحاد لولا أن المحاضرين فى محاضرات بويل التذكارية دأبوا كل عام على تنفيذ الالحاد . ان المسيح لم يجادل ، بل علم كمن له سلطان . فانظر الى أى شخص متدين حقا ، تجد فيه اقتناعا باطليا ، لا استنتاجا عقليا ؛ فالايمان للنفس البسيطة يجب أن يكون تقليدا مقبولا ، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعورا مباشرا بواقع فوق الطبيعة .

أما وليم لو ، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الربوبيين ، دفعته قراءة يعقوب بومى الى التحول من الجدل الى الصوفية ؛ وفى نصف القرن الذى نحن بصددده ، والمتسم بالمادية والكليية الظافرتين ، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحبته الفادية بحرارة وثقة كأنه توماس أكيميس مولودا من جديد دون أن يطرأ عليه تغيير . وقد ضحى بكل المطامح الدنيوية برفضه حلف اليمين التى تعترف بجورج الأول رأسا للكنيسة لانجليزية ؛ فحرم زمالته بكمبردج ، واستتردت درجاته الجامعية . ثم أصبح معلما خاصا لأبى ادورد جيبون ، ومكث مع تلك الأسرة ردحا كفى لأن يذكره المؤرخ (جيبون) . قال هذا الشاك « لقد ترك فى أسرتنا سمعة الرجل الفاضل التقى الذى يؤمن بكل ما يصرح به ، ويمارس كل ما يأمر به (٣٧) » وقد أثنى جونسن على كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » (١٧٢٩) وقال انه « أروع قطعة من اللاهوت الوعظى فى أى لغة (٣٨) » فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصبح من تلك التى تتوه فى روعى خارقة ، سماوية كانت أو جهنمية . كتب لو يقول : ليس هناك شيء خارق للطبيعة فى نظام فدائنا كله ، فكل جزء فيه له اساس فى أعمال الطبيعة وقواها ، وكل فدائنا انما هو الطبيعة مصححة . « وليست الجحيم مكانا ، بل هى حالة النفس المضطربة ، ولا الجنة مكانا ، ولا « حالة غريبة ، منفصلة ، مفروضة » ، بل هى سعادة نفس فى نظام وسلام (٣٩) . ومع أن لو كان عضوا مخلصا فى الكنيسة لانجليزية ، فانه كان يحلم برهينة مجددة بروتستنتية . يقول :

« اذن لو أن أشخاصا من الجنسين ... تواقين الى الكمال ، تجمعوا فى جماعات صغيرة ، تنذر الفقر الاختيارى ، والنبئل ، والعزلة ، والعبادة ، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض ، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقدوتهم ... هؤلاء لا يتعرضون للاتهام بأى ميل للخرافة أو تعبّد أعمى ... بل يمكن أن يقال حقا وصدقا أنهم يستعيدون تلك التقوى التى كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قديسيها العظام (٤٠) » .

وقد أثرت مثل لو العليا ونثره الرائع فى عمّة جيبون

هستر جييون ، تأثيرا حملها هي وأرملة غنية على الذهاب للعيش بقربه فى مسقط رأسه كنجزكليف بنورثمتونشير ، وكستا أكثر دخلهما لأعمال البر تحت اشرافه . وقد وجد هذا الرجل سعادته فى توزيع الطعام والثياب والعظاى على الفقراء والمرضى والمحرومين ، وهو الذى كان فى يوم ما طالب علم شغوف بالبحث ، محبا للصحة المثقفة المهذبة . وغالى فى تقشفه ، فأنكر جميع لذات الدنيا تقريبا ، ووجدد الحملة البيورتانية على المسرح باعتباره « بيت الشيطان » أو على الأقل « شرفة الجحيم (٤١) » . ولم يكن الخلق الانجليزى ، ولا مزاج العصر ، حفيين بصوفية لو ، وبدا أنه مختتم حياته فى خمول ذكر عقيم ، وإذا جون وسلى يأتى ليجلس عند قدميه .

٤ - جون وسلى : ١٧٠٣ - ٩١

إذا أردنا أن نفهم مكانه من التاريخ رجب أن نذكر أنفسنا ثانية بأنه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحركة الميثودية Methodism فى أكسفورد (١٧٢٩) كان الدين فى انجلترا أخط منزلة مما كان فى أى فترة من فترات التاريخ الحديث . فلم يكن يختلف الى الكنيسة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (٤٢) . وكان رجال اللاكليسوس الانجليكانى قد غالوا فى قبولهم العقلانية غلوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريبا على الجدل العقلى . ونذر أن ذكروا الجنة أو النار ، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيات . والعظمة الانجليزية كما وصفها فولتير كانت « رسالة جدية ولكنها جافة أحيانا ، يقرؤها رجل على الشعب دون ايماء ودون أن يرفع صوته رفعا ملحوظا (٤٣) » . ولم يكن الدين نشيطا حارا الا فى المذاهب المنشقة التى تتبعها الطبقة الوسطى . وكان عمال المدن مهملين اهمالا كليا تقريبا من اللاكليسوس الانجليكانى ، « كان هناك فرقة ضخمة تتألف من أدنى الطبقات ، أفرادها بعيدون عن تناول التعليم أو الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا ديننا على الاطلاق (٤٤) » ، وقد أسلموا الى فقر لا يضيئه نور الأمل الدينى الا قليلا . فى هذه الخلفية أحيى جون وسلى وجورج هوايتفيلد العقائد والآداب البيورتانية أحياء قويا وأسسوا الكنيسة الميثودية .

كان اللاهوت والثورة يجريان فى عروق آباء وسلّى • فجده الأكبر يرتلميو وسلّى طرد من وظائف القسوسية فى دورست لأنه واصل العبادة المنشقة بعد أن ردّ الاحتكار الكنسي فى انجلترا للكنيسة الانجليكانية . وأصبح جد جون ، جون وسلّى ، قسيسا فى دورسيت ، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة ، وطرد من القسوسية ، وأصبح راعيا منشقا فى بول • وأسقط والد جون ، واسمه صموئيل وسلّى ، حرف التاء من اسمه ، وشق طريقه الى أكسفورد ، وهجر المنشقين ، ورسم قسيسا أنجليكانيا ، وتزوج سوزانا آنزلى (وكانت بنت واعظ) وأصبح قسيسا ايبورث فى لنكولنشير ، ومات من أبنائه التسعة عشر ثمانية فى طفولتهم - وفى هذا بيان لشقاء النساء ، وفحولة القساوسة المستهترة ، ونوعية الطب فى انجلترا القرن الثامن عشر • وكان الأب مؤدبا صارما فى البيت وعلى المذبر ، نشأ أبناءه على الخوف من اله منتقم ، وأدان احدى رعايا أبرشيته بالزنا ، وأجبرها على السير فى الشارع فى مسوح التوبة (٤٥) • وكانت زوجته ضريبا له فى الصرامة والتقوى • فلما بلغ ابنها الأشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها فى التربية الخلقية فقالت :

« اننى أصر على قهر ارادة الأطفال فى وقت مبكر ، لأن هذا هو الأساس القوى والمعقول الوحيد للتربية الدينية ، الذى بدونه لا يكون للتعاليم ولا للقدوة جدوى • ولكن متى قهرت هذه الارادة قهرا تاما أصبح فى الامكان أن يحكم الطفل بعقل أبويه وتقواهما ، الى أن يبلغ فهمه درجة النضج ... فاذا بلغ الطفل عاما كانوا (أى أطفالها) يعلمون أن يخافوا العصا ويبكوا بصوت خافت ، وبهذه الطريقة وفروا على أنفسهم الكثير من العقاب الذى كان يصيبهم ان لم يفعلوا (٤٦) » •

وأصبح أكبر أبنائها ، صموئيل وسلّى الثانى ، شاعرا وعالما وقسيسا انجليكانيا أنكر على أخويه مذهبهما المثودى • وكان الطفل الثامن عشر هو تشارلز وسلّى ، الذى دعم مواعظ أخيه جون دعما قويا بترانيم بلغ

عددها ٦٥٠٠ . أما جون فكان الخامس عشر ، وهو مولود بايبورث فى ١٧٠٣ . فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس ، وتركته الأسرة وسط النيران ظنا منها أنها قضت عليه ، ولكنه أطل من شباك فى الطابق الثانى ، فأنقذه جار وقف على كتفى آخر ، وسمى نفسه بعد ذلك « جمرة اختطفت من بين المحترقين » ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من الجحيم . وفى بيت أبيه كانت أى ضوضاء غير واضحة السبب ، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة ، شيطانى أو الهى .

وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل الى مدرسة تشارتر هاوس الحرة ، وفى السابعة عشرة الى كرايست تشيرش بأكسفورد . وقد تغلب على ضعف صحته بادمان المشي والركوب والسباحة ، فعمّر حتى بلغ الثامنة والثمانين . وقرأ كثيرا ، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية . وكان أحب الكتب اليه كتاب جيريمى تيلر « الحياة المقدسة والموت المقدس » ، وكتاب توماس أكمبس « محاكاة المسيح » . وبدأ - حتى فى أيام دراسته بالكلية - تلك اليومية التى هى احدى آيات الأدب الانجليزى والتقوى البروتستنتية . وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال . وفى ١٧٢٦ عين زميلا بكلية لنكولن ، وفى ١٧٢٨ رسم قسيسا أنجليكانيا .

وأخوه تشارلز هو الذى بدأ بجمع فى اكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالبا ومعلما اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية . وأعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكما وازدراء اسمى « النسادى المقدس » و « المثوديين » . وكانوا يقرعون معا العهد الجديد اليونانى والآداب القديمة ، ويصومون كل أربعاء وجمعة ، ويتناولون العشاء الربانى كل أسبوع ، ويتفقدون المسجونين والمرضى ليقدموا لهم العزاء والأمل الدينى ، ويرافقون المحكوم باعدامهم الى المشنقة . ووصل جون وسلى الى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسه وتقواه ، فكان يستيقظ كل كل يوم فى الرابعة - وهى عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن فى السن،

ويخطط منهجيا في كل صباح الاعمال التي تؤدي في كل ساعة من ساعات اليوم . وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنيها في العام ، ويوزع باقى دخله على أعمال البر . وقد أكثر من الصوم حتى بدا مرة أنه قد دمر صحته تدميرا لا براء منه . وكان يحج راجلا الى وليم لو يلتمس منه النصيحة ، وأصبح كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » مرشده الروحي . تقول يومياته أنه من هذا الكتاب « فاض النور على نفسي بقوة حتى ظهر كل شيء في صورة جديدة (٤٧) » .

وفي ١٧٣٥ دعا الجنرال أوغلثورب جون وتشارلز ليرافقاه مبعوثين دينيين الى جورجيا . واذ كان أبوهما قد مات فانهما التمسأ مشورة أمهما . فقالت لهما « لو كان لى عشرون ولدا لأبهجنى أن يدعوا الى مثل هذا ، حتى ولو لم أرهم بعد ذلك أبدا (٤٨) » . فليت شعري أنى لنا نحن المجردين من التقوى أن نفهم هذه التقوى ؟ وأرجئت جلسات « النادى المقدس » الى أجل غير مسمى ، وفي ١٤ أكتوبر أبحر جون وتشارلز و « مثوديان » آخران على السفينة « سيموندر » قاصدين سافانا . وفي السفينة أثرت فيهم التقوى المرححة التى آنسوها فى بعض « الأخوة المورافيين » الذين قدموا من ألمانيا ليستوطنوا أمريكا ، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يجد على المورافيين أثر لخوف ، وقارعوا رياح العاصفة بترانيمهم القوية ، وأحس الوسليان أن هذا ايمان يفوق ايمانها قوة .

فلما بلغا جورجيا (٥ فبراير ١٧٣٦) اتخذا منصبين مختلفين ، فأصبح تشارلز سكرتيرا للحاكم أوغلثورب ، وجون راعيا للجالية الجديدة ، ومرسلا بين الحين والحين للهنود الحمر المجاورين . وأثنى أول الأمر على الهنود لشوقهم الى تقبل الانجيل ، ولكنه وصفهم بعد عامين بأنهم « شرهون ، لصوص ، مراعون ، كذابون ، قتلة لأبائهم ، قتلة لأمهاتهم ، قتلة لأبنائهم » ، وقيل انه « لم يوفق مع الهنود (٤٩) » . أما السكان البيض ، الذين كانوا يضمون مئات من

المجرمين المنفيين ، فقد أنكروا لهجته الأكسفوردية وروحه الأمرة الناهية وإصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام . ففي العماد اشترط للتغيطس الكامل ثلاث مرات ، فإذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل . وإذا كان لا يزال « كنسيا طقسيا من النوع الشديد التزمت (٥٠) » . فإنه أقصي عن تناول القريان رجلا كريما اعترف بأنه من المنشقين ، وأبى أن يقرأ صلاة الجنازة على مسبتعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرّم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلّى الذهبية ، وأقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وقنص الحيوان في يوم الأحد - وهو اليوم الوحيد الذى كان يتاح فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص . وقد افتنن بصوفيا هوبكى ، ابنة أخت كبير قضاة سافانا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعا . ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها . فلما سئمت تردده تزوجت رجلا يدعى ولكنسون . وحين تقدمت لتناول القريان أبى أن يناولها السر بحجة أنها لم تتناول سوى ثلاث مرات في الشهور الثلاثة الأخيرة ، وأنها أهملت أن تطلب الى راعيها اذاعة اعلان زواجها . فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته ، وأدانت المحكمة سلوكه وسلى خطيبا وخدماته كاهنا ، فرفض الاعتراف بحقها في محاكمته ، وتفاقم عدااء الشعب له ، ففر الى تشارلزتون واستقل سفينة الى انجلترا (٢٢ ديسمبر ١٧٣٧) .

وفى لندن استأنف تقشفاته أملا في أن ترد اليه ثقته بنفسه ، ولكن بيتر بولر ، وكان واعظا مورافيا في طريقه الى أمريكا ، أكد له أن ايمانه مازال ناقصا ، وأنه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حاريتين ، فسيظل في حالة الهلاك الأبدى ، حتى يدرك - بومضة الهية من الاشراف واليقين ، مختلفة كل الاختلاف عن أى عملية استدلال عقلى - أن المسيح قد مات لأجله هو ، وأنه كفر عن خطايا هو ؛ فبعد هذا التغير دون سواه يكون الانسان في مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص . وقد خلد وسلى في يوميته ذلك « اليوم المشهود » ٢٤ مايو ١٧٣٨ الذى وافته فيه هدايته النهائية ، قال :

« ذهبت فى المساء على مضض شديد الى جمعية فى شارع أولدرزجيت ، حيث كان أحدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس الى أهل رومية . وفى نحو التاسعة الا ربعا ، بينما كان يصف التغيير الذى يحدثه الله فى القلب بالايمان بالمسيح ، شعرت بقلبي يدفا على نحو عجيب . شعرت بأننى فعلا أثق بالمسيح ، والمسيح وحده ، للخلاص ، وأعطيت تأكيدا بأنه نزع خطاياى ، خطاياى أنا ، وخلصنى من ناموس الخطية والموت . وبدأت أصلى بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين أساءوا الى واضطهدونى أشد من غيرهم . ثم شهدت علانية لجميع الحاضرين بما شعرت به الآن فى قلبي لأول مرة (٥١) » .

ويمكن القول بايجاز أنه لخص تطور المسيحية من الخلاص بالايمان والاعمال ، الى الخلاص بالايمان وحده (لوثر) ، الى الخلاص باسراق شخصي والهي (الكويكرز) . وعبر وصى البحر الى المانيا فى صيف ١٧٣٨ وهو عارف بصنيع بولر ، وأنفق عدة أسابيع فى هرنوت ، القرية السكسونية التى أنشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كونت زرنندورف .

وكان تشارلز وصى خلال ذلك قد جاز بتغير مماثل عند عودته الى انجلترا ، وبدأ بطريقته الأكثر رقة فى وعظ المسجونين فى نيوجيت والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه ، وأهم حتى من هذا أن شخصية لا يبرزها قوة غير شخصية جون وصى كانت فى طريقها الى الصدارة فى الحركة الميثودية ، وهى شخصية جورج هوايتفيلد . وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر فى ١٧١٤ . وعمل سنة أو أكثر ساقى خمر لضيوف أبيه . ثم شق طريقه الى كلية بمبروك باكسفورد ، وكان من الرعيلى الأول فى « النادى المقدس » . وتبع الوسليين الى جورجيا فى ١٧٣٨ ولكنه عاد الى انجلترا فى خريف ذلك العام ليرسم قسيسا أنجليكانيا . وإذا كان غير قانع بالفرص المتاحة له فى المناير ، تواقا لأن يبت الهام ايمانه فى جماهير الشعب ، فقد بدأ فى فبراير ١٧٣٩ ، فى الخلاء

قرب برستل ، وعظ عمال مناجم الفحم الذين ندر أن جرءوا على دخول كنيسة أو اهتموا بدخولها . وكان فى صوته من الوضوح والقوة ما مكنه من الوصول الى أسمع عشرين ألف مستمع ، وأثرت قدرته الخطابية المنسوبة فى هؤلاء الرجال المتحجرين ، المرهقين ، تأثيرا جعله يرى (كما قال) « المسارب البيضاء التى أحدثتها دموعهم التى هطلت بغزارة على خدودهم السوداء (٥٢) » وأتارت خيال انجلترا سمعة الواعظ الجديد ، وأخبار عظاته فى الهواء الطلق . فكانت الحشود الهائلة تتجمع أبنا ذهاب لتستمع اليه .

ولم يكن وعظه بالشئ الذى ينسى . فهو لم يدع ! نفسه تبحرا فى العلم ، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاما حميما مع الله (٥٣) . ويقول وسلى ان لغته كانت تميل الى « العذوبة والحب » وأنه يستعمل فيها بعض الأخيلة المذهلة ؛ من ذلك أنه كان يقول عن المسيح أنه « كالمشوى بغضب الآب ، ومن ثم يوصف بحق بأنه حمل الله (٥٤) » . وكما فعلت فى البرلمان كذلك فعل هوايتفيلد فى الحقول ، اذ استعان فى خطبه بفنون التمثيل ، فكان فى قدرته أن يبكى فى التو والساعة بكاء من الواضح أنه اقترن بعاطفة صادقة ؛ وكان فى قدرته أن يشعر سامعيه بالاحساس بالخطيئة ، ورهبة الجحيم ، ومحبة المسيح ، احساسا قويا فوريا . وقد اعترف بقوة الخطباء أمثال بولنبروك وتشسترفيلد ، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم ، والممثلون أمثال جاريك . واذ كان يلقي الترحيب أينما حل ، فإنه جعل انجلترا ، وويلز ، واسكتلندة ، وارلندة ، وأمريكا ، أبرشيته . فتعبير المحيط اثنى أمريكا ثلاث عشرة مرة ، واخترق اسكتلندة اثنتى عشرة مرة . ولم يكن غريبا عليه أن يعظ أربعين ساعة فى الأسبوع . فما بلغ الخمسين حتى حل به الارهاق ، وخفض برنامجا بعد فوات الوقت الى « الحد الدقيق المسموح به » - أى أنه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الأسبوع ، وثلاث مرات فقط يوم الأحد . وفى ١٧٦٩ قام بزيارته السابعة للمستعمرات ، ومات فى نيوبريبورت بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحين عاد جون ولسلى من هيرنوت ، لم يستطع أن يوافق تماما على طريقة هوايتفيلد الخطابية ، وتردد فى الاقتداء به فى الخطابة فى الخلاء . قال : « اذ كنت طوال حياتى (الى عهد قريب جدا) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام ، ... فقد كان المفروض أن أرى فى تخليص النفوس شيئا يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة اذا لم يتم فى الكنيسة (٥٥) » . على أنه تغلب على نفوره هذا ، وحمل رسالتنا الى الحقول والشوارع ، « وسلمت بأن أكون أكثر نزولا الى العامة فى الخلاء » (ابريل ١٧٣٩) . وكانت خطابته أقل حرارة من خطابة هوايتفيلد ، ولغته لغة العالم والجنتمان ، ولكنه هو أيضا خاطب عواطف سامعيه ، وجعل الحياة اليومية لسطاء الناس تبدو كأنها جزء من مسرحية هائلة ، نبيلة ، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان واسيح ، فتحركوا معه فى عالم من العجائب والمعجزات ، وسمعوا فيه (أى فى ولسلى) - كما زعم - صوت الله . وبينما ألف هوايتفيلد أن يعظ الجمع ثم ينصرف عنه ، راح ولسلى ينظم أتباعه فى « جماعات صغيرة » فى المدينة تلو المدينة ، ويرشدهم الى الثبات والاستمرار . وكانت اجتماعاتهم احياء للقاءات المحبة التى استنمها المسحيون الاولون - أعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة ، يعترف بعضهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون فى الصلاة وترتيل الترانيل الورعة . وكان جون قد ألف أو ترجم بعض الترانيم المؤثرة ، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة تراتيله الضخمة . وفى ١٧٤٠ كتب تشارلز أشهر ترانيمه الرائعة الكثيرة « يسوع يا حبيب روحى » .

فى هذه الجماعات المتحمسة درب جون ولسلى وعاظا علمانيين حملوا البشارة الجديدة الى حيث لا يستطيع القادة البقاء . فقد انتشر هؤلاء « المساعدون » - دون رسامة ، ودون أى أبرشيات محددة ، بمنبر أو بغير منبر - فى أرجاء إنجلترا ، واسكتلندا ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهوت البروتستنتى للطبقات العامة ، وحضروا للزيارات الانعاشية التى سيقوم بها ولسلى وهوايتفيلد . وكان

وسلى نفسه يسافر - الى اقصى اركان انجلترا راكبا جوادا او مركبة او راجلا - وكثيرا ما كان يقطع ستين ميلا فى اليوم ، وبلغ متوسط ما قطعه اربعة آلاف ميل فى السنة على مدى اربعين عاما . وكان يعظ فى كل فرصة . فى السجون للمسجونين ، وفى المركبات لرفاقه الركاب ، وفى الفنادق للمسافرين ، وفى السفن العابرة البحر الى ايرلندا او من ثغر الى ثغر . وفى ايبويرت ، حين منح من الوقوف على منبر أبيه ، وعظ فى فناء الكنيسة واقفا فوق قبر أبيه .

فماذا كان يعظ ؟ العقيدة البيورتانية اساسا ، تلك التى خيل للناس أن الفوضى الخلقية التى صاحبت عودة الملكية الاستيوارتية عصفت بها عصفا مميتا . لقد رفض الجبرية (التى قبلها هوايتفليد) ، وأصر على ما دان به الجناح الارمذوسي من الكنيسة الرسمية ، وهو أن الانسان من حرية الارادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره أو يرفضه من النعمة الالهية . ورفض كل لجوء الى العقل ، وأحس أن الدين يصل الى أبعد مما يصل اليه المنطق الذى صنعه الانسان ، وأنه يعتمد على الوحي الالهى والاقتناع الباطن ، ولكنه ابتعد عن الصوفية بحجة أنها تترك كل شيء لله ولا تحفز الانسان الى التقوى النشيطة . وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما : فكان يؤمن بالاشباح ، وبالأصل الشيطانى للأصوات الغريبة ، وبحقيقة السحر واجرامه ؛ وقال ان التخلّى عن الايمان بوجود السحر معناه التخلّى عن الايمان بالكتاب المقدس . ولم يساوره شك فى المعجزات ، وذهب الى أنها تحدث كل يوم بين أتباعه . فكان الصداغ ، أو الورم المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ، تشفى بصلواته أو صلوات الجماعة المئودية ؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلما قرأت كتاب القداس الكاثولىكى ، ولكنها تستعيده دائما حين تقرأ العهد الجديد . وقد قبل روايات النساء اللاتى زعن أنهن رأين الملائكة أو المسيح أو الجنة أو النار ، وسجل فى يوميته عددا من الحالات التى صوب فيها خصوم المئودية بعقوبات خارقة (٥٦) .

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغا أفصي بالكثيرين من جمهوره الى الهستريا والتشنجات . وتنبتنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدنى بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الارض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون الى جوارهم وصلوا لخلاصهم من مس الشيطان (٥٧) . وبصف وصى اجتماعا فى شارع بلدوين بلندن فى ١٧٣٩ فنقول :

« لم يكد صوتى يسمع وسط أنين البعض وصراخ الآخرين . . . وساء كويكريا واقفا يتفرج . . . أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق . وكان الكرب الذى يعانيه رهيبا حتى لمن يشهده . وقد تضرعنا الى الله ألا يؤاخذة بالحماسة والجهل ، وسرعان ما رفع رأسه وصاح « الآن أعرف أنك نبي من أنبياء الرب (٥٨) » .

وبصف شاهد عيان نقل عنه وصى اجتماعا للمثوديين باهرتن فى ١٧٥٩ كما يلى :

« كان بعضهم يصرخون ، وبعضهم يجارون . . . وأكثر ما سمع كان شهيفا عاليا كذلك الذى يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلبا للحياة ؛ أن الصيحات كلها تقريبا كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم . وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج ، وغيرهم سقطوا كالأموات . . . ووقفت على مقعد كما فعل شاب فى المقعد المقابل ، وكان ريفيا قويا نضرا صحيح البدن ، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الأرض فى عنف لا يتصوره الانسان . . . وسمعت خبط أقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة فى أسفل المقعد . . . وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمرت وجوههم احمرارا شديدا أو كادت تسود . . . وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامى ، ثم خر على ركبتيه وهو يعصر يديه ويهدر كالثور . . . ثم قام وراح يخط الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر . وصرخ قائلا « أواه ماذا أصنع ، ماذا أصنع ؟ أواه ، ليت لى قطرة واحدة من دم المسيح ! » وبينما كان يتكلم حرر الله روحه ، فعلم أن خطاياہ مَحِيَت ، وبدا أن نشوة الفرح التى غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية (٥٩) » .

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال أثرت فى الضحايا قبل الاجتماع المئودى ، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تقويج لذروة لا يمكن السيطرة عليها . أما وسلى فقد فسر هذه القشنجات بأنها مس شيطانى أعقبه شفاء الهى . وذهب الى أنها أحيانا لم تأت باصلاح دائم للسلوك أو الخلق ، ولكنه أحس بأنها فى كثير من الحالات طهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة .

وقد حققت المئودية أعظم نجاح لها بين الفقراء . فقد كان الوعاظ أنفسهم رجالا ذوى ثقافة متواضعة ، بسطاء فى مشاعرهم وحديثهم ، ولم يقم حاجز طبقى أو ثقافى بينهم وبين جمهورهم . وقد حملوا رسالتهم ، رسالة الخطيئة والتوبة ، الى الفلاحين وعمال المناجم والمجرمين ؛ ومع أنهم بشروا بايمان قام على الخوف أكثر مما قام على المحبة ، فانهم أعطوا غير المتعلمين ناموسا أخلاقيا شارك بنصيب فى رد اعتبار الأخلاق الى انجلترا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . هذه الأخلاق البيورتانية هى التى انتقض عليها عصرنا انتقاضا متطرفا . لقد كان وسلى عدوا لكل الوان الترفيه تقريبا . صحيح انه سمح بلعب الورق ، ولكنه رأى أن من الائم الذهاب الى المهرجانات ، ولبس الحلى أو الملابس الغالية ، والاختلاف الى المسرح أو المرقص . ولم يخصص أى وقت للعب فى المدرسة التى انتسها فى كنجروود ، لان « من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (٦٠) » . ولكن الأخلاق البيورتانيه انسجمت مع الخلق الانجليزى ، واستطاع أن يتحملها الرجال الاشداء والنساء الصبوريات ، وقد منحت الطبقات العاملة الانجليزية احساسا هخورا بالاختيار سندها هى الفقر وجعلها عدوا لآى ثورة تتشكك فى المسيحية . وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلى لأنه انقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والالحاد ، وحوّل تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية الى الخلاص الفردى ، ومن عالم مثالى على هذه الارض الى فردوس بعد الممات (٦١) .

وكان وسلى نفسه يميل الى المحافظة فى السياسة . وقد تقدم طبقته فى المطالبة ببعض الاصلاحات التى طال تأخرها : فندد بنظام « الدوائر العفنة » ، وبتفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وبفساد

السياسة الانجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وبأهوال السجون البريطانية . ولكنه تقبل الهيكل الطبقي للمجتمع باعتباره طبيعيا وعادلا ، وعارض أى انفراج فى القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ، وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث فى ثورة المستعمرات الأمريكية .

وقد ظل أنجليكانيا بالعتيدة ، ولكنه رفض الرأى الأنجليكانى القائل بأن رسامة القسيس لا تكون قانونية الا على يد أسقف فى سلسلة الأساقفة الرسولين ؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لاسكتلندة وأمريكا . وحين قال « ان العالم أبرشيتى (٦٢) » كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون اذن أو تعيين أسقفى ، والى هذا الحد كان انشقاقه على الكنيسة الرسمية . ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الأنجليكانية ، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة ، والامتناع عن مخاصمة الكليروس الأنجليكانى . وفتحت أول الأمر بعض المنابر الأنجليكانية للمقاوسة الموثوديين ، ولكن حين اتخذ وعاظ وصى العلمانيون لأنفسهم حق مئولة القربان ، وارتدت العتيدة الموثودية الى توكيد العصر الوسيط على الجحيم والانشغال البيورتانى بالخطيئة ، سحب الكهنة الأنجليكانيون تاييدهم ، تماما كما انسحب ارزم من لوثر ، وآنروا تطورا منظما ، وقصوا الموثوديين عن المنابر الأنجليكانية .

وكان الاضطهاد الذى ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية اقل كثيرا من ذلك الذى جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطبقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالافكار القديمة . ففى المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق - كما سيهاجم نظراؤهم اللاحقون الذين سيبشرون بانجيل اجتماعى جديد - من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم . ففى مونموث ضرب واعظ علمانى على رأسه بصخرة فمات من الضربة . وفى ودنزبرى حطم جمع بيوت الموثوديين ، وأذى نساءهم ، وضرب رجالهم . فلما ظهر وصى طالب الجميع بدمه ، وصفق للذين ضربوه بالهراوات ، وصلى هو بصوت عال ، فأطلق الجمع سراحه . وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيه ، وواصل هو عظته الى النهاية وسط وابل من الحجارة والبلاط والبيض . وفى ديفيزيه صوبت طلمبة مائية على مسكن تشارلز وصى ، وأطلقت الكلاب البولدوج على

أتباعه . وفى اكستر رجم هوايتفيلد حتى كاد يلقى حتفه . وفى هوكستن دفع ثور بمهماز الى محفل مئودى ، وفى بنسفورد سيق عجل هاجه تحريش الكلاب به الى المائدة التى كان جون ولى يعظ عندها . وراقت شجاعة الوعاظ الخلق الانجليزى ، واكسبتهم التسامح والتأييد .

كان ولى رجلا قصير القامة ، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات ، ووزنه ١٢٨ رطلا . وكان فى شيخوخته يقع من نفوس ناظريه وقعا طيبيا بشعره الأبيض ، ولكنه كان من قبل فى كهولته يسترعى الاهتمام بقسماته الدقيقة المتقشفة وعينييه المسيطرتين . وكان من القضايا المسلمة عنده أنه خلق ليحكم ؛ ووضع نشاطه العصبى وقوته الذهنية فى مكان الزعامة بحكم الطبيعة ، واشتطت به أحيانا ثقته بنفسه ثقة لا يتشكك فيها الى اعتداد بالنفس ، رأى فيه أسقف مئودى « غطرسة » شديدة (٦٣) . ولم يكن بالرجل الذى يسهل الانسجام معه ، لأنه كان يفكر ويتحرك بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها . وتزوج فى ١٧٥١ ، بعد أن أحب كما نحب كلنا الممرضة التى اعتنت به فى مرضه . وسافرت معه زوجته فى جولاته المحمومة طوال عامين ، ثم انهارت صحتها وأعصابها فتركته كما يقفز انسان من فوق ظهر حصان جموح . وكان يعزو الفضل فى صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكبا أو راجلا ، وقد نضيف أن الخطابة رياضة تهوى الرئتين . وفى ١٧٣٥ أصبح نباتيا ، وبعد عام قرر هو وصديق له أن يعيشا على الخبز القفار دون غيره ، وأن « يجربا امكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هى ممكنة بمختلف ألوانه . . . ولم نكن أشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاما آخر (٦٤) » ، ولكنهما سرعان ما انتكسا الى التنويع فى الطعام .

ماذا كانت نتائج الوعظ المئودى ؟ فى جيل واحد أصبح الدين ، الذى لاح من قبل أنه يموت من أثر الوقار الأنجليكانى والشكوك الربوبية عنصرا مدوياً فى الحياة الانجليزية ، لا يعلو عليه الا السياسة والحرب . فلما مات ولى (١٧٩١) كان أتباعه يعدون ٧٩.٠٠٠ فى انجلترا ، ٤٠.٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، وفى ١٩٥٧ كان هناك ٢.٢٥٠.٠٠٠ مئودى فى بريطانيا العظمى ، و ١٢.٠٠٠.٠٠٠ فى الولايات المتحدة و ٤٠.٠٠٠.٠٠٠ فى العالم (٦٥) . فضلا عن تكاثر أتباع المذهب كان

له تأثير فى المذاهب الأخرى ؛ مثال ذلك ما حدث فى الكنيسة الانجليكانية التى رفضت الميثودية ، اذ بعثت المثل الميثودية العليا الحركة « الانجيلية » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولعلها دخلت فى حركة اكسفورد فى القرن التاسع عشر . أما من الناحية السياسية فان النتائج كانت استسلاما محافظا بين الطبقات العاملة حتى ١٨٤٨ . وأما من الناحية الخلقية فان الميثودية حسنت السلوك الشخصى والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت فى تقليل الفساد الانتخابى والرسمى ، وأخزت الكثيرين من طبقة السادة فأقلعوا عن الطيش والرذيلة ، وهيات لنفور الانجليز من تجارة الرقيق . وأما من الناحية الثقافية فان الحركة كانت سلبية . لقد أعطت الشعب ترانيم مقدسة ، ولكنها واصلت العداء البيورتنى للفن . وأما من الناحية الفكرية فانها كانت خطوة الى الوراء فقد أرسيت عقيدتها على الخوف ، وشعائرها على العاطفة ، وأدانت العقل بوصفه فخا للانسان . وفى الصراع الكبير بين الايمان والعقل علقت كل آمالها على الايمان ، ولم تضع أى ثقة فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت « التنوير » الذى أخذ يشعل النار فى فرنسا . وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، وأن الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو لايمان بالموت الفادى الذى ماته المسيح .

وفى يناير ١٧٩٠ ، حين بلغ وصى السادسة والثمانين ، كتب فى يوميته يقول « بتّ الآن شيخا متهدما من رأسى الى قدمى . عيناي معتمتان ، ويمناي تهتز بشدة ، وفمى ساخن جاف كل صباح ، وتنتابنى حمى طويلة كل يوم تقريبا . ولكنى بفضل الله لا أخفق من جهدى . ففى استطاعتى أن أعظ وأكتب الى الآن (٦٦) » . وبعد شهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء انجلترا واسكتلندة . وقضى نحيبه فى العام التالى (٢ مارس ١٧٩١) . ولو حكمنا على عظمة الافراد بمدى تأثيرهم لقلنا انه - باستثناء بت - كان أعظم الانجليز فى زمانه .

٥ - فى النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنا توقفاننا فى طريقنا الى ديفد هيوم . أولهما برنارد ماندفيل ، وكان طبيبا لندنيا من أصل فرنسي ومولد هولندى ، نشر فى ١٧٠٥ كراسة فى عشر صفحات تباع بست بنسات ، مكتوبة بشعر مرح عنوانها « الخلية المتذمرة » . وموضوعها مفارقة مؤدها أن رخاء الخلية راجع الى رذائل أفرادها من النحل - الى جشعها الأنانى ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية . وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الانسانية ، ذهب الطبيب الخبير الى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التى يندد بها الأخلاقيون المتذمرون بحماقة . فلنتصور ما يحدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشاغبة - لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام الا بقدر ما يحتاجون اليه ، ولم يلبسوا من الثياب الا ما يقيهم القر والحر ، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضا ، ولم يتشاجروا ، وأدوا ديونهم دائما ، واحتقروا أسباب الترف ، وكانوا أوفياء لأزواجهم . لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة ، فتربى المحامين يتصورون جوعا ، والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا ، والأطباء يذوون لانعدام المرضى ، وزراع الكروم يفلسون ، والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربى الخمر ، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطعمة أو الحلوى أو الملابس أو البيوت يتعطلون ؛ ولن يرغب أحد فى أن يكون جنديا ؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد .

وعطل تأثير الخلية المتذمرة صياغتها فى شعر هزلى محطم الوزن ، وغاظ هذا الطبيب المغرور ، الجشع ، المشاغب ، فأعاد إصدارها ثانية فى ١٧١٤ ، وثالثة فى ١٧٢٣ ، باسم « خرافة النحل » موسعا أياها المرة بعد المرة بالمقدمات ، والملاحظات ، والتعليقات التى بلغت بالصفحات العشر مجلدين . وأصغت انجلترا وفرنسا هذه المرة ، لأن هذه الملاحق كانت من أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية .

واتخذ ماندفيل من ايرل شافتمبرى الثالث هدفا رئيسيا لكتابه بكل معنى الهدف . ذلك أن الأيرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

متفائلة ، فافترض فى الانسان « احساسا باطنيا بالصواب والخطا ...
فطريا فينا كالمحبة الفطرية ، وهو مبدأ أول فى كياننا » . ورد ماندفيل
على هذا بأنه هراء بديع ؛ فالطبيعة البشرية قبل التربية والتدريب
الخلقى لا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، انما تحكمها المصالح الذاتية دون
غيرها . وقد وافق اللاهوتيين على أن الانسان بطبيعته « شرير »
(متمرّد على القانون) ، ولكنه بدلا من أن يهدد الناس بالجحيم ،
هناهم على الملازمة البارعة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع . فالبغاء
السرى مثلا يحمى العفة العامة ، والنهم للانتاج والخدمات يحفز
الاختراع ، ويدعم الصناعة والتجارة ؛ والثروات الكبيرة تتيح البر
بالناس والفن الضخم . وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف ، دافع ماندفيل
عن الترف ، ، وحجته أن الرغبة فى الكماليات (وهى أى شيء خلاف
الضروريات المجردة للحياة) هى أصل الصناعة والحضارة ؛ فلو أزلنا
الترف كله عدنا همجا . وبينما يفترض فى الأخلاقيين أن يدينوا الحرب
قال ماندفيل ان الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب ، لأن معظم
الدول وحوش ضارية .

ولم ير فى الطبيعة أى فضيلة . فالخير والشر كلمتان تصدقان
على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع فى الانسان ، أما
الطبيعة نفسها فلا تأبه بكلماتنا أو عظائنا ، وهى تحدد الفضيلة بأنها
أى صفة تعين على البقاء ؛ وعالم الطبيعة فى عباراتنا المتحيزة مسرح
للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذى لا معنى له . ومع ذلك
فمن ذلك الصراع الرهيب ، كما يقول ماندفيل ، طور الانسان اللغة
والنظام الاجتماعى والنواميس الأخلاقية أدوات للتماسك الاجتماعى
وبقاء المجتمع . والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة ، ولكنهما مبرران
باعتبارهما وسائل نستعين بها - لأنها تروق غرور الانسان وخوفه
وكبريائه ، - على ان نشجع فى غيرنا ألوانا من العمل مفيدة لنا أو
للجماعة .

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية ، ولكن
فولتير اتفق معه على نفع الكماليات ، وصفق فزيوقراطيو فرنسا القائلون
بسياسة « عدم التدخل » لرأيه فى أن عدم التدخل فى طمع الانسان

كفيل بأن يجعل عجالات الصناعة تدور . وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلما بأن مفارقتها هذه ، « الرذائل الخاصة هي فضائل عامة » كانت الى حد كبير لعبا بالفاظ فضفاضة التعريف . ان « الرذائل » كحب الاقتناء ، والعشق الجنسي ، والمشغبة ، والكبرياء ، كانت يوما ما « فضائل » في الصراع البدائي للبقاء . ولم تصبح رذائل الا حين مورست في المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعى ؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم ، والرأى العام ، والدين ، والقانون .

وشتان بين فرانسس هتشسن وبين هذا الطبيب المفترى . وقد ولد هتشسن فى ايرلندة لقس مشيخى ، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهدا خاصا فى دبلن . واذ كان شديد الوعى بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين ، فقد كتب من معهده « تحقيقا فى الخير والشر الأخلاقيين » (١٧٢٥) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذى يعزّز الخير العام ، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام فى مذهب المنفعة) فقال انه « أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس (٦٩) » فلما رقى الى كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو ، أزعج المشيخيين بدفاعه عن حق الفرد فى اصدار حكمه على الأشياء ، وعن مشروعية اللذة ، وعن « الفنون الابداعية كالموسيقى والنحت والتصوير ، وحتى الملاهى الرجولية » (٧٠) ، ولم يشارك ماندفيل فكرته المتشائمة عن الطبيعة البشرية . وقد سلم باخطاء الناس وذنوبهم ، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة ، « ولكن الجانب الأكبر من حياتهم يستخدم فى القيام بمهام من المودة الطبيعية ، أو الصداقة ، أو حب الذات البرىء ، أو حب الوطن » . ثم أضاف تحذيرا نافعا للمؤرخين فقال :

« ان الناس ميالون الى اطلاق العنان لخيالاتهم فى أمر جميع ما سمعوا عنه أو قرعوا فى التاريخ من سرقات ، وقرصنات ، وجرائم قتل ، وإيمان كاذبة ، وتزويرات ، ومذابح ، واغتيالات ، فيستنتجون من هذا كله أن النوع الانسانى كله شرير جدا ، وكان دار القضاء هي المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر ، أو المستشفى لتقييم ملائمة المناخ

للصحة . أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء
يفوق كثيرا عدد كل أنواع المجرمين فى أى دولة . . . وأن ندرة الجرائم
بالقياس الى الأفعال البريئة أو الخيرة هى التى تلفت انتباهنا لها ،
وتبعث على تسجيلها فى التاريخ ، فى حين تغفل أفعال شريفة سمحة
مألوفة ، تفوقها بما لا يقاس ، لا لشيء الا لأنها عادية جدا ؛ وما أشبه
هذا بخطر جسيم واحد ، أو شهر يقضى فى المرض ، فيصبح قصة تتردد
كثيرا ، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة .
ذلك عقل سليم !

٦ - ديفد هيوم : ١٧١١ - ٧٦

أ - الفيلسوف الشاب

كان هتشن جزءا متواضعا من حركة « التنوير الاسكتلندى » ،
أما هيوم فكان ألمع كواكبها . وهو يروى لنا فى ترجمته الذاتية البسيطة ،
ذات الصفحات الست ، أنه ولد بأدنبره فى ٢٦ أبريل ١٧١١ ، « لأسرة
طيبة أبا وأما ، فأسرة أبى فرع من ايرل Home أو Hume *
وكانت أمى ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق » . ومات الأب فى
١٧١٢ ، تاركا ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر ، جون هيوم ، ولديفد دخلا
يبلغ ثمانين جنيها فى السنة - يكفى لمعيشة متقشفة . أما الأسرة التى
كانت كلها تدين بالمذهب المشيخى ، فقد أشربت الصبى اللاهوت الكلفنى
أشربا قويا تخلف على شكل الحتمية فى فلسفة ديفد . كان فى بكرة
كل أحد يختلف الى صلاة فى الكنيسة تتصل ثلاث ساعات ، منها ساعتان
من الوعظ ؛ ثم يعود عشية كل أحد الى الكنيسة ساعة ؛ يضاف الى هذا
صلوات الصباح فى البيت (٧٢) . ولم يكن مندوحة من أن ينتقض
ديفد على هذا كله بالانحراف الى الهرطقة ما دام فيه ذرة من صلابة
الخلق .

وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبره . ثم تركها بعد ثلاث

★ كان سليل لذلك الايرل رئيس وزراء لبريطانيا العظمى فى ١٩٦٤ . والاسم

Home كان ومازال يلفظ Hume « هيوم » .

سنوات دون درجة ، عازما على أن يفرغ بكليته للأدب والفلسفة . وفى السادسة عشرة كتب الى صديق يلوم نفسه

« لأن سلامى العقلى لا تدعمه الفلسفة دعما يكفى للثبات للطلمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا فى الدرس والتأمل . . . فاسمح لى بأن أتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع أطيل التفكير فيه ولا يعينى الحديث فيه اليوم كله (٧٣) » .

وسرعان ما تبخر ايمانه الدينى :

« وجدت ضربا من جرأة الطبع يملكنى ، وهى جرأة لا تميل الى الخضوع لآى سلطة فى هذين الموضوعين (الفلسفة والأدب) . . . فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كأنه قد انفتح أمامى مشهد جديد من الفكرة ، أطربنى منتهى الطرب ، وحملنى بحماسة الشباب الطبيعية على أن أنبذ كل لذة أو شغل آخر لأعكف عليه العكوف كله (٧٤) » .

وقال فى فترة لاحقة أنه « لم يشعر بأى ايمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك وكلارك (٧٥) » . فما ان بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة فى الفلسفة .

والح عليه أقرباؤه فى أن الفلسفة وثمانين جنيها هى العام لن يتيحها له سوى عيش ضئيل ، وأن عليه ان يقنع بضرورة التكسب . فهل فى استطاعته أن يدرس القانون ؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلة (١٧٢٦ - ٢٩) . وانهارت صحته ، وأوشكت روحه أيضا ان تنهار ، وفقد اهتمامه بالأفكار فترة . « رأيت دراسة القانون شيئا يثير فى « الغثيان » (٧٦) ، فطلقها ، وعاد الى الفلسفة ، ربما باتحراف واحد . وفى أواخر فبراير ١٧٣٤ رحل عن ادنبرة الى لندن « لأبذل محاولة هزيلة جدا لولوج مجال من الحياة أكثر نشاطا (٧٧) » . وفى ٥ مارس مثلت آجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) واعترفت بأنها حبلى . فلما جىء بها أمام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بأن « المستر ديفد هيوم . . . هو أبو الطفل » وارتاب المجلس فى صدقها فأحالها الى الاجتماع التالى للمجلس المشيخى

المحلى ؛ وأمام هذا المجلس فى ٢٥ يونيو ، كررت التهمة . وقد جاء فى محضر مجلس تشيرنسايد :

« ان رئيس الجلسة ... ناشدها ان تقول الصدق وتعترف هل اذنب معها شخص آخر ... وبعد ان نظر المجلس فى الامر ، وأحيط أعضاؤه علما بأن ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة ، أحوالها الى دائرة مجلس تشيرنسايد امثالاً لقواعد الكنيسة (٧٨) » .

وهذا يتطلب مثولها فى المسرح أمام الكنيسة وعرضها فى المشهرة ثلاثة آحاد . وفى ١٧٣٩ أديننت أجنيس مرة أخرى بالزنا .

ومضى هيوم الى برستل بعد أن توقف فى لندن ، واشتغل فى مكتب تاجر « ولم تمض على شهور حتى وجدت ذلك الجو لا يلائمنى اطلاقاً » فعبر البحر الى فرنسا ، حيث المعيشة أرخص منها فى انجلترا . ومكث فترة فى رانس ، ثم رحل الى لافليش (على نحو ١٥٠ ميلاً جنوب غربى باريس) ، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة ، واتصل الاسكتلندى المدبر اتصالاً ودياً بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم . وقد وصفه أحد الآباء فى نظرة لاحقة بأنه « كان شديد الاعتداد بنفسه ... فى روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفى خياله توقد أكثر مما فيه من العمق ، وقلبه أشد انغماساً فى الأشياء المادية والعجب الروحى من أن يتغلغل الى الخفايا المقدسة للحقائق الالهية (٧٩) » .

وفى ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية « رسالة فى الطبيعة البشرية » . وفى سبتمبر ١٧٣٧ ، عاد الى انجلترا مثقلاً بمخطوطته . وقد لقي عننا مع الناشرين ، لأنه كتب فى ديسمبر الى هنرى هيوم يقول : « اننى الآن أجب كتابى ، أى اقتطع منه أجزاءه الممتازة ، محاولاً أن أقلل ما استطعت من أيدائه لشعور الناس (٨٠) » . وكان أهم ما حذف منه « مناقشات حول المعجزات » فنحاشها لاستعمالها فى أوقات أسلم . أما الباقي ، الذى ضمن أنه يدق على أفهام المتشبهين بالقديم ، فقد نشره جون نون اللندنى غفلاً من اسم المؤلف فى مجلدين فى يناير ١٧٣٩ . وباع هيوم المجلدين اجمالاً

بخمسين جنيها واثنى عشرة نسخة - وهى صفقة ليست خاسرة جدا بالنسبة لكتاب فى المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور فى السابعة والعشرين . على أنه كان قمة من قمم الفلسفة الحديثة .

ب - الغرض من شأن العقل

كشف « الاعلان » الذى تصدر الكتاب عن ثقة هيوم فى قدراته . فقد قال فيه انه يستهدف دراسة الطبيعة البشرية من حيث الفهم والانفعالات ، ثم فى مجلد ثالث قادم من حيث الاخلاق والسياسة . وشرع فى تحليل « الانطباع » (الاحساس) ، والادراك الحسى ، والذاكرة ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والاعتقاد . وهذا البحث فى كيفية وصولنا الى أن « نعرف » بحث أساسى ، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة ، وأصلها ، وإمكان وثوقنا بها . وهو فرع من الدراسة عسير ، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسوسة ، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه .

وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه ، فكل الأفكار مستقاة فى النهاية من التجربة بطريق الانطباعات . وهذه اما أحاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق ؛ واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم . والادراك الحسى احساس مفسر ؛ « فالضوضاء » احساس ، ولكن « نقرة على الباب » ادراك حسى (وهيوم ليس دقيقا أو ثابتا دائما فى استعماله هذين المصطلحين) . والمولود أعمى أو أصم ليس لديه « فكرة » عن الضوء أو الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما . وفكرتا المكان والزمان نابتان من التجربة ، فالأولى « فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين » ، والثانية ادراك التعاقب فى انطباعاتنا (٨١) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا فى ضعف « القوة والحيوية التى تقع بهما على الذهن (٨٢) » . والاعتقاد « ليس الا فهما أكثر حيوية وحدة لآى فكرة . . . انه شيء يشعر به الذهن ، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال (٨٣) » .

ويبدو أن هيوم فى تعريفاته هذه يرى فى « الذهن » كيانا أو أداة

حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار ، أو تمتلكها ، أو تتذكرها ، أو تحكم عليها . على انه اذ يمضي فى البحث ينكر وجود أى ذهن ملحق بالحالات النفسية - الاحساس ، أو الادراك الحسى ، أو الفكرة ، أو الشعور ، أو الرغبة التى تشغل الوعى فى لحظة بعينها يقول :

« ان ما نسميه «الذهن» ليس الا كومة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية توحدت معا بشتى الارتباطات ، ويفترض فيها - وان كان الفرض خطأ - أنها وهبت غاية البساطة والتطابق ... أما أنا فأننى حين أتغلغل فيما أسميه «نفسى» أعثر دائما على ادراك حسى معين أو آخر ، للحرارة أو البرودة ، للضوء أو الظل ، للحب أو الكره ، للألم أو اللذة . ولا أستطيع اطلاقا ان ألحظ شيئا غير الادراك الحسى . فاذا زالت عنى ادراكاتى الحسية أى فترة ، كما يحدث بالنوم العميق ، فأننى طوال هذه الفترة أكون عادم الحس «بنفسى» ، ويمكن القول حقا اننى غير موجود . واذا زالت ادراكاتى الحسية كلها بالموت ، فعجزت عن التفكير والشعور والابصار والحب والكره بعد تحلل جسمى ، فأننى أمحق محقا ، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلى عدما فى عدم ... واذا ضربنا صفحا عن بعض الميتافيزيقيين ... فقد أجرؤ على التاكيد بأن باقى البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية التى يعقب بعضها بعضا بسرعة فائقة ، والتى تتدفق تدفقا دائما ... وهذه الادراكات الحسية المتعاقبة ... تشكل الذهن (٨٤) » .

وهكذا بضربة واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات : الفلسفة المادية ، لأننا (كما أثبت باركلى) لا ندرك «المادة» أبدا ، ولا نعرف غير عالمنا العقلى عالم الأفكار والمشاعر ؛ والفلسفة الروحانية ، لأننا لا ندرك أبدا «روحا» ملحقة بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة ؛ وفلسفة الخلود ، لأنه ليس هناك «ذهن» يبقى حيا بعد الحالات الذهنية العابرة . وكان باركلى قد هدم المادية برده المادة ذهنا ، فضاعف هيوم التدمير برده الذهن أفكارا . فلا «المادة» ولا «الذهن» موجودان . لا لوم على ظرفاء العصر اذن أن «يرفضوا الفيلسوفين جميعا بهذه

العبرة « No matter, never mind (وفيها تورية ، لايهم (لا مادة) ،
لا بأس (ولا ذهن)) .

وحرية الارادة فى هذه النظرة المدمرة مستحيلة ، فليس هناك
ذهن يختار بين الافكار أو الاستجابات ، وتعاقب الحالات النفسية
يقرره ترتيب الاحاسيس ، وترايط الأفكار ، وتناوب الرغبات ؛ ان
« الارادة » ليست سوى فكرة تنساب فتصبح حركة ، والهوية الشخصية
هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وتربط بينها
بفكرة العلة .

ولكن العلة أيضا ليست سوى فكرة ؛ فليس قى قدرتنا ان نثبت
انها واقع موضوعى . فاذا أدركنا أن : أ (اللهب مثلا) تعقبه بانتظام
ب (الحرارة) ، استنتجنا أن أ كانت العلة فى ب ، ولكن كل ما لاحظناه
هو تعاقب الأحداث ، لا عملية عليية ، فليس فى استطاعتنا أن نعرف أن
ب ستعقب أ دائما . « كل استدلالنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة
لا مصدر لها غير العادة (٨٥) » . وليست « قوانين الطبيعة » التى
نتحدث عنها الا تعاقبات مألوفة فى تجربتنا ؛ لا روابط ثابتة وضرورية
فى الأحداث ، ولا ضمان أنها ستصدق غدا . فالعلم اذن تراكم للاحتمالات
المعرضة للتغيير دون انذار . والميتافيزيقا مستحيلة اذا زعمت أنها نسق
من الحقائق حول واقع مطلق ، لأنه لا سبيل الى معرفة « الأسباب »
الكامنة وراء النتائج ، ولا « المادة » الكامنة وراء الاحاسيس ،
ولا « الذهن » الذى يقال انه كامن وراء الأفكار . وما دمنا نبني ايماننا
بالله على سلسلة من الأسباب والنتائج يفترض أنها ترتد الى « محرك
أول لا يتحرك » ، فان علينا أن نتخلى عن تلك السفسة الارسطاطالية .
ان الأشياء كلها تتدفق ، وما اليقينية الا حلم من الاحلام .

وبعد أن ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البتار ، يتوقف
لحظة تواضع فيقول « حين أتأمل القصور الفطرى فى حكمى ، تقل
ثقتى بأرائى عنها حين أتأمل الأشياء التى أتناولها بالاستدلال (٨٦) »
فهو يعلم مثلنا أن اليقينية ليست ضرورية للحياة ، ولا للدين ، ولا حتى
للعلم ؛ وان درجة كبيرة من الاحتمال تكفى لعبور شارع أو بنساء

كتدرائية أو لتخليص نفوسنا . ويسلم فى تذييل للكتاب بأنه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار ، وواقع وراء الأحاسيس ، وعلاقة عليّة وراء التعاقبات المتصلة . وهو ثابت على موقفه نظريا « لم يسعدنى الحظ الى الآن بأن اكتشف أى أخطاء جسيمة فى الاستدلالات المعروضة فى المجلدين السابقين (٨٧) » . ولكنه يعترف فى لطف أنه ، عمليا ، يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه .

« لو سئلت هل أوافق مخلصا على هذه الحجة التى بذلت هذا الجهد فى اقرارها ، وهل أنا حقا واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون الى أن كل الاشياء غير يقينية ... لأجبت ... اننى لا أنا ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى أى وقت باخلاص وثبات (٨٨) ... اننى أتناول غذائى ، وألعب النرد ، وأتحدث وأسمر مع أصحابى ، فاذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح الى هذه التأملات ، بدت لى باردة مفتعلة سخيقة جدا بحيث لا أستطيع أن أجد فى صميم نفسى ما يدفعنى لمزيد من الايغال فيها (٨٩) ... وهكذا يواصل الشاك استدلاله العقلى واعتقاده ، وإن أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلى بالعقل ؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وإن عجز عن الادعاء بأى حجج من الفلسفة بأنه أثبت صحته (٩٠) » .

وأخيرا يتنكر هيوم للجدل العقلى باعتباره هاديا للحياة ويضع ثقته فى الايمان الحيوانى ، فى الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلاى تتخلله العلية . وحين يؤكد هيوم أن « الاعتقاد هو على الأصح فعل من أفعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعنا (٩١) » فإنه - وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره - يلتقى بجان جاك روسو ، ذى الستة والعشرين ، فى الشباب والنظرية ، كما قدر له أن يلتقى به بعد ذلك فى الصداقة والمأساة . ولم يقتصر أبرع المجادلين العقليين فى عصر العقل على اتهام المبدأ العلى للعقل ، بل انه فتح بابا لرد الفعل الرومانسي الذى سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان الها له .

و « الكتاب » والمجلد الثانى من « الرسالة » يواصل انزال العقل

عن عرشه . فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبدأ أخلاقي على تحكم العقل في العاطفة . وهو يعنى بكلمة العاطفة الرغبة الوجدانية . « لكى أثبت مغالطة هذه الفلسفة بأكملها ، سأحاول أن أثبت أولاً أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعا لآى فعل من أفعال الارادة ؛ ثانيا أنه لا يستطيع اطلاقا معارضة العاطفة فى اتجاه (ضد قوة) الارادة (٩٢) » . « فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافع العاطفة الا عاطفة مضادة » (أهذا صدى لسبينوزا ؟) . ويضيف هيوم امعانا منه فى ترويع المتشبهين بالقديم « ان العقل عبد ، وينبغى أن يكون عبدا ، للعواطف (الأداة المنيرة والمنسقة للرغبات) ولا يمكن أن يزعم لنفسه أى وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (٩٣) » .

ثم يمضي الى تحليل دقيق للعواطف - وأهمها الحب ، والكراهة ، والعطف ، والغضب ، والطمع ، والحسد ، والكبرياء . « ان العلاقة التى تحدث فى الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هى علاقة الملكية (٩٤) » . وكل العواطف تقوم على اللذة والألم ، وتمييزاتنا الاخلاقية تنبع فى النهاية من هذا المنبع الخفى ذاته « اننا نميل الى اطلاق اسم الفضيلة على أى صفة فى الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على دفعنا ، وعلى اطلاق اسم الرذيلة على أى صفة بشرية تعطينا الألم (٩٥) » . وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم . يقول :

« لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت ... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح ، لوجدناها كلها تنحل الى هذا ، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء ، مهيا لاعطاء اللذة والرضى للنفس ، اما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا (كما نرى فى جمال الجسم البشرى) أو بسبب العرف (كما نرى فى الاعجاب بنحافة القوام فى النساء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى فى اصفاء الكمال على أوهام الرغبة المعاقة) ... فاللذة والألم اذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، ولكنهما يكونان جوهرهما ذاته ، ... وما الجمال الا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم (٩٦) » .

والحب بين الجنسين يتركب من هذا الاحساس بالجمال ، مضافا اليه « الرغبة الجسمية فى التناسل ورقة ومودة سمحتان (٩٧) » .

وفى مارس ١٧٣٩ عاد هبوم الى ادنبره . وراح يقلب الدوريات فى لهفة بحثا عن نقد لمجلديه ، وعانى من نتائج تقليبها . قال « لم تلق محاولة أدبية قط حظا أعثر مما لقيت « رسالتى فى الطبيعة البشرية » فلقد ولدت ميتة من المطبعة ، ولم نحظ حتى بآثارة دمدمة سخط بين المتعصبين (٩٨) » ولكنه حين كتب هذا فى شيخوخته كان قد نسي ، ربما بسبب الرغبة فى نسيان الذكريات الكريهة ، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه . وقد شكك كلها تقريبا من أنه عسير الفهم ، وأن المؤلف سمح لشبابه بالاعلان عن ذاته بتكرار الإشارة الى نفسه والى الجدة الخطيرة التى تنطوى عليها أفكاره . قال باقد نموذجى من أعدائه : « ان ما يؤذى القارئ أشد الأذى هو تلك الثقة التى يسوق بها مفارقاته . . فما عهدنا شاكا أشد من هذا قطعا بأرائه . . . وأمثال لوك وكلارك ليسوا فى الغالب فى نظره سوى مجادلين تافهين سطحيين بالقياس اليه (٩٩) » .

وأعد هبوم للمطبعة ، فى عزمه صادقة رغم حزنه ، المجلد الثالث من رسالته ، المحتوى على الكتاب الثالث « فى الاخلاق » . وقد ظهر فى ٥ نوفمبر ١٧٤٠ . وساء تحليله للفضيلة العقلانيين بقدر ما ساء اللاهوتيين . فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست الهامات خارقة ، ولكنها أيضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل ، وذلك - كما يكرر هبوم القول « لأن العقل ليس له تأثير على عواطفنا أو أفعالنا (١٠٠) » . وحسنا الخلقى ليس مصدره السماء بل التعاطف - شعور الزمالة مع اخواننا من البشر ، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التى بها نلتصق الارتباط بالغير لخشيتنا من العزلة . « ان أول حالة وموقف للانسان يمكن أن يوصفا بحق بأنهما اجتماعيان » ؛ و « الحالة الطبيعية » التى عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعى « يجب اعتبارها حديث خرافة (١٠١) » ، فالمجتمع قديم قدم الانسان . واذا كان الناس أعضاء فى جماعة ، فانهم سرعان ما تعلموا أن يمتدحوا التصرفات

النافعة للجماعة ، ويذموا الضارة بها . ثم ان مبدأ التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل أو محاكاة الآراء التي سمعوها من حولهم ؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللولم ، وطبقوا هذه الأحكام بوعى أو بلا وعى على سلوكهم . هذا فى رأى هيوم أصل الضمير ، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانط) . ويقول هيوم ان قانون التعاطف هذا ، قانون التجاذب الجماعى ، هو عام ومنير فى العالم الأخلاقى شأن قانون الجاذبية فى الكون المادى ، ثم يختتم بهذه العبارة « وهكذا يحدونى على الجملة الأمل بأنه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق (١٠٢) » .

وكان المجلد الثالث أقل لفنا للأنظار حتى من المجلدين السابقين . وظلت بقايا النسخ الألف والمائة ، وهى مجموع نسخ الطبعة الأولى للمرسالة ، الى سنة ١٧٥٦ ، مكدسة على رفوف الناشر ، ولم يعثر هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه .

ج - الأخلاق والمعجزات

كان واضحا أنه لا يستطيع كسب قوته بقلمه . وفى ١٧٤٤ بذل محاولة فاشلة للوصول الى كرسي الاستاذية بجامعة ادنبره . ولا شك أنه قبل فى شيء من الاحساس بالهوان (أبريل ١٧٤٥) وظيفة معلم خاص لمركز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام . أما المركز فقد اختلط عقله ، وتبين هيوم أنهم يتوقعون منه أن يكون حارسا لمجنون ؛ ونشبت المشاجرات ، فطرد (أبريل ١٧٤٦) واضطر الى رفع دعوى مطالبا براتبه . ثم اشتغل سنة (١٧٤٦ - ٤٧) سكرتيرا للجنرال جيمس سانت كلير ، وكان يتقاضى راتبا طيبا ، ويتناول طعاما طيبا . وفى يوليو ١٧٤٧ عاد هيوم الى ادنبره وهو يملك ويزن من الجنيهات أكثر كثيرا منه حين غادرها . وفى ١٧٤٨ أعاد الجنرال استخدام سكرتيرا وياورا. فى بعثة الى تورين ، واكنسي ديفد الآن سترة قرمزية متوهجة .

وأعجب جيمس كولفيلد (ايرل تشارلمونت فيما بعد) وكان بومها طالبا بتورين ، بذكاء هيوم وخلقه ، ولكن أفزعته سمته . قال :

« ان سحنته حيرت علم الفراسة وأعيت قدراته ... فى الكشف من أقل أثر لمواهبه العقلية فى ملامح وجهه النى تخلو من المعنى . كان وجهه عريضا سمينا ، وفمه واسعا ، بغير أى تعبير غير تعبير البلاهة ... وكانت بدانة جسمه كله أجدر بأن توحى للناظر بفكرة العمدة أكل الترسه ، لا الفيلسوف المهذب (١٠٣) » .

ويدعى كولفيلد هذا أنه رأى هيوم (وهو فى السابعة والثلاثين) جاثيا على ركبتيه أمام كونتبسة منزوجة (فى الرابعة والعشرين) ، ييئها غرامه ويعانى عذاب الحب المحتقر ؛ أما السيدة فرفضت أن تبادله هذا الغرام قائلة انه ليس الا « عملية طبيعية فى نسقك الفلسفى » . ويقول المصدر نفسه أن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم ، ويروى اسكتلندى آخر أن هيوم « تناول القربان الأخير » أثناء مرضه على يد كاهن كاثوليكي . وقيل ان هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الأخير قائلا « ان نظام دماغى كان مختلا ، وكنت مجنونا كائى نزيل لمستشفى المجاذيب (١٠٤) » وفى ديسمبر ١٧٤٨ عاد الى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه .

واعترزم أن يجد أذنا مصغية من جديد لأفكار « الرسالة » ، فنشر فى ١٧٤٨ « تحقيقا عن الفهم البشرى » ، وفى ١٧٥١ « تحقيقا عن مبادئ الأخلاق » . وفى « اعلان » قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (١٧٧٣) تنكر للرسالة باعتبارها « عملا صبيانيا » ورجا أن « تعتبر المقالات التالية وحدها هى المحتسوية على آرائه ومبادئه الفلسفية (١٠٥) » . أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموما فى أعمال هيوم الأولى من الدسم أكثر مما وجدوا فى أعماله الأخيرة ، فهذه تغطى الأرض نفسها ربما بأسلوب أقل عدوانا وقطعا ، ولكنها تخلص الى النتائج ذاتها .

وبعد أن أعاد هيوم تحليله الشكى للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول ، وهو مقاله « فى المعجزات » الذى رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة . واستهله باعتداده العادى بنسبه ، « انى أغبط نفسي على أننى عثرت على حجة . . . اذا صدقت كانت للعقلاء والمثقفين رادعا دائما لكل ضروب الوهم الخرافى وستكون اذن نافعة أبد الدهر » . ثم يطلق أشهر فقراته فيقول :

« ما من شهادة تكفى لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها أكثر اعجازا من الواقعة التى تحاول اثباتها . . . فاذا أنبأنى انسان بأنه رأى ميتا يبعث ، سألت نفسي للتو أيهما أكثر احتمالا ، أن يكون هذا الشخص خادعا و مخدوعا ، أو أن الواقعة التى يرويها وقعت فعلا . فأوازن بين المعجزتين ، وطبقا لرجحان احدهما . . . أرفض المعجزة الأكبر . ولن تجد فى التاريخ كله معجزة شهد عليها عدد كا فمن الناس ، أوتوا من صادق الادراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أى انخداع قد ينخدعون به ، ومن النزاهة التى لا ريب فيها ما يرفعهم فوق أى شبهات من أى قصد فى خديعة غيرهم ، ومن الثقة وحسن السمعة فى أعين البشر ما يجعلهم يخسرون كثيرا اذا ضبطوا متلبسين بأى كذبة ؛ ويشهدون فى الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفى جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمرا لا يمكن تجذبه ؛ وهذه الظروف كلها لازمة لاعطائنا الثقة الكاملة فى شهادة البشر . .

« ان القانون الذى نهتدى به عادة فى استدالاتنا العقلية هو ان الأشياء التى لا خبرة لنا بها تشبه تلك التى لنا بها خبرة ؛ وأن ما وجدناه أكثر الأشياء عادية هو دائما أكثرها احتمالا ؛ وانه حيث يكون هناك تعارض فى الحجج ينبغى لنا ان نفضل تلك القائمة على أكبر عدد من الملاحظات الماضية . . وانها لقريئة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والاعجازية ما يلاحظ من أنها تكثر على الأخص بين الأمم الجاهلة

والهمجية ، ... ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبداً في
إيماننا . ولكن لا غرابة ... في أن يكذب الناس في جميع
العصور (١٠٦) » .

واسترسل هيوم في ادعاء عقبات أخرى في طريق الايمان المسيحي:
حياد الطبيعة الهادئ 'ازاء الانسان ومناقسيه على الأرض ؛ وتنوع
الشروخ المتكاثر في الحياة والتاريخ ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة
آدم ، وعن جميع الخطايا ، في عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء - طبقاً
لفرض المسيحي - الا برضى الله . ودرءاً لتهمة الكفر عنه ، أجرى هيوم على
لسان «صديق يحب المفارقات الشكية» «لا أستطيع أبداً الموافقة» على مبادئه ،
دفاعاً عن تخيل أبيقور أن الآلهة موجودة ولكنها لا تعبأ بالبشر . ويتساءل
الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على ألا يزعم أحدهما الآخر
كما اتفقا - فيما يظن - في الحضارة الهلنستية :

« بعد أن انتهى الفرع الأول الذي نجم عن مفارقات ومبادئ
الفلاسفة الجديدة ، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة
في انسجام عظيم مع الخرافة المقررة ، وقسموا البشر قسمة عادلة
بينهما : فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء ، والثاني
جميع السوقة والأميين (١٠٧) » .

فياله من أسلوب للمهادنة !

وفي ١٧٤٩ عاد هيوم إلى اسكتلندة ليعيش مع أخيه وأخته في
ضيعتهم بنائويلز . وبعد علمين تزوج جون هيوم ، وانتقل ديفد إلى
ادنبره ، وأرسل إلى المطبعة الآن : « التحقيق في مبادئ الأخلاق » الذي
أمل أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة ، وأكد من جديد أن الحس
الأخلاقي مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية ؛ ورفض ما ذهب
إليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد ؛ واستنكر استنكاراً قاطعاً
فكرة لارشفوكو القائلة بأن الأفعال « الغيرية » مدفوعة أنانياً بأمل
اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعي الذي يتوقع أن تحظى به . فاللذة

التي نستشعرها فى مثل هذه الأفعال ، فى رأى هيوم ، ليست سببا لها بل مرافقا ونتيجة لها ؛ أما الأفعال ذاتها فهى عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية (١٠٨) .

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثانى هو تفصيله لبدأ منفعة أخلاقى . فبعد هتشن بثلاثة وعشرين عاما ، وقبل بنتام بثمانية وثلاثين ، عرف هيوم الفضيلة بأنها « كل صفة فى العقل نافعة أو لذبة للشخص نفسه أو لغيره (١٠٩) » . وعلى هذا الأساس برر اللذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد ، والمعيار المزدوج للفضيلة باعتباره نافعا للمجتمع . يقول :

« ان طفولة الانسان الطويلة العاجزة تقتضى تضافر الوالدين للابفاء على حياة صغارهما ، وهذا التضافر يحتاج الى فضيلة العفة أو الوفاء للفراش الزوجى .. والخيانة من هذا النوع اشد اذى فى المرأة منها فى الرجل . ومن ثم كانت قوانين العفة اشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر (١١٠) » .

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق فى مبادئ الأخلاق يقول : « فى رأى (أنا الذى ينبغى ألا أكون حكما فى هذا الموضوع) أنه من بين جميع مؤلفاتى أفضلها بما لا يقاس » وأضاف « لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق فى هذه الدنيا (١١١) » .

د - الداروينية وروحانية

وفى ١٧٥١ ألف « حوارات فى الدين الطبيعى » . وهو أشد ما أخرج مزاجه الشيطانى تخريبا وعدوانا على المقدسات . هنا يتحدث ثلاثة أشخاص ، ديميا الذى يدافع عن السنية ، وكليانثيس الربوبى ، وفيلو الذى هو هيوم لا يخطئه النظر . وبزعم ديميا أنه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فان العالم يصبح غير مفهوم الى

حد لا يطاق ، ولكنه يسلم ن الله غير مفهوم بتاتا للعقل البشرى (١١٢) .
ويلوم كلياتيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم ،
ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد فى الطبيعة . أما فيلو فيسخر
من الحجتين ، ويزعم أن العقل لا يمكن أبدا أن يفسر العالم أو يثبت
وجود الله . « فأى امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه
التي نسميها الفكر ، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجا للكون
كله ؟ (١١٣) » . وأما عن القصد ، فإن تكييف الأعضاء لتلائم الأغراض
ربما لم ينشأ عن ارشاد الهى ، بل عن تجارب الطبيعة ، البطيئة
المتخبطة ، خلال آلاف السنين (١١٤) . (هنا نجد « الانتخاب
الطبيعى » بعد ١٨٠٠ سنة من لوكرينيوس ، وقبل ١٠٨ سنة من
داروين) . وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعى ، فإن قصور
التكيفات وعيوبها ، وآلاف الآلام فى دنيا الانسان والحيوان ، تكشف
لنا - على أحسن الفروض - عن إله محدود القدرات والذكاء ، أو إله
غير مكترث للبشر بتاتا . « فحياة الانسان فى النهاية ليست أعظم
أهمية للكون عن حياة المحارة (١١٥) » يقول :

« يخيل للمرء أن هذا الانتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من
خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا ، والخطوط التى نفذ بها
غاية فى الخشونة . فالرياح مثلا تساعد الناس على الملاحة ، ولكن
ما أكثر ما تصبح مؤذية حين تنقلب زوابع وأعاصير ! والأمطار ضرورية
لتغذية جميع نباتات الارض وحيواناتها ، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة
وما أكثر ما تكون مسرفة ! ... ليس فى الكون شيء كثير النفع الا انقلب
المرء بعد المرة مؤذيا لا فراطه أو قصوره ، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيلتها
بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى (١١٦) » .

وأسوأ من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام
(اذا نظرنا الى العالم على أنه مخطط) ، بل ان فى وسط الحياة
الزائفة صراعا عقيما على الدوام مع الموت .

« ان حربا لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية .
فبالضرورة ، والجوع ، والعوز - تحفز الأقوياء والشجعان ، والخوف ،
والقلق ، والرعب ، تقلق الضعفاء والعاجزين . وأول مدخل للوليد الى
الحياة فيه ألم مبرح له ولأمه المسكينة ، والضعف والعجز والضيق رفقاء
كل مرحلة من مراحل تلك الحباة ، ثم يختم آخر الامر بالعذاب والرعب
.. لاحظ أيضا .. حيل الطبيعة العجيبة ، لتكدر حياة كل كائن حي
.. .. تأمل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التى تتربى على جسم
كل حيوان ، أو تغرز حماتها فيه وهى تطير من حوله . . . فكل حيوان
يصدق به أعداء يسعون على الدوام الى اشقائه وتدميره . . . والانسان
ألد خصوم الانسان . فالقهر ، والظلم ، والاحتقار والاهانة ، والعنف ،
والاغواء ، والحرب ، والافتراء ، والغدر ، والتزييف ؛ بهذه يعذب
الناس بعضهم بعضا (١١٧) .

« انظر الى هذا الكون نظرة محيطية . يا لها من وفرة هائلة فى
الكائنات ، الحية المنظمة ، الحساسة النشيطة ! انك لتعجب بهذا التنوع
الضخم وهذه الخصوبة الهائلة . ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات
الحية . . . ما أشد عداءها وتدميرها بعضها لبعض ! . . . والكل لا يمثل
سوى فكرة الطبيعة العمياء ، التى تزخر بمبدأ محى عظيم ، ويتدفق من
حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهن المجهضون (١١٨) » .

وتوحى الأدلة المتضاربة على الخير والشر فى العالم الى فيلو
بثنائية الآلهة المتنافسين أو تعددهم ، بعضهم « أخيار » وبعضهم
« أشرار » ، وربما كانوا مختلفى الجنس . وهو يلمع فى خبث الى أن
العالم :

« لم يكن سوى المحاولة الفجة الأولى لآله طفل ألقع عنها بعد ذلك
خجلا من انجازه الاعرج . . أو أنه نتاج الشيخوخة والخرف فى آله طين
فى السن ، وبعد موته واصل العالم مسيرته مغامرا ، مدفوعا بالدفعة
والقوة الفعالة الأولى التى تلقاها منه (١١٩) » .

ولعل العالم كما أكد البراهمة « نشأ عن عنكبوت لا نهائى غزل
خيوطه المعقدة كلها من امعائه ... فلم لا يغزل نسق منظم من البطن
كما يغزل من الدماغ ؟ (١٢٠) » . فتكون الخليقة والحالة هذه انسالا .
أو ربما « كان العالم حيوانا والاله روح العالم التى تحركه
وتتحرك به (١٢١) » .

وبعد هذا المزاج كله يعود فيلو الى القصد ، فيسلم بأن « علة النظام
أو علله فى الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الانسانى (١٢٢) » .
ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون :

« يجب أن أعترف اننى أقل حذرا فى موضوع الدين الطبيعى
منى فى أى موضوع آخر ... وأنت على الأخص يا كليانثيس ، أنت
الذى أعيش معه فى علاقة حميمة بغير قيود ، تدرك أننى رغم تحرر
حديثى ، وحبى للحجج الغريبة ، فليس هناك من طبع ذهنه بأحاسيس
بالدين أعمق من احساسى ، أو من بعبد الكائن الالهى عبادة أعمق اذ
يكتشف فى نفسه أنه يناقش أساليب الطبيعىة وحيلها التى لا يمكن
تفسيرها . فالقصد ، أو النية ، أو التخطيط ، يسترعى فى كل مكان
نظر أشد المفكرين غفلة وغباء ، وما من رجل يمكن أن يتجمد فى المذاهب
الفلسفية السخيفة تجمدا يجعله يرفض هذا القصد على طول
الخط (١٢٣) » .

على أن أصحاب هيوم ناشدوه ألا ينشر الحوارات رغم هذا العرض
بالمصالحة . فأذعن ، وحبس المخطوطة فى مكتبه ، فلم تر النور الا فى
عام ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاثة سنوات . ولكن افئتانه بالدين أغراه بالعودة
الى الموضوع ، وفى ١٧٥٧ نشر « أربع مقالات » تناولت احداها « تاريخا
طبيعيا للدين » . وسحب مقالين آخرين بناء على الحاح ناشره ، وقد
طبعا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم ؛ وأحد المقالين عن
الخلود ، والآخر تبرير للانتحار حين يصبح الشخص عبئا على
اخوانه .

ومقال « التاريخ الطبيعى للدين » هذا يجمع بين اهتمام هيسوم القديم بالدين ، واهتمامه الجديد بالتاريخ . فقد فات مرحلة الهجوم على. المعتقدات القديمة الى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانسان الى اعتناقها . ولكنه لا يميل الى البحث الصابر المستأنى ، حتى بين المواد الشحيحة المتاحة آنئذ عن الأصول الاجتماعية ، بل يؤثر أن يتناول المشكلة بتحليل السيكولوجى والاستنباط العقلى . فعقل الانسان البدائى فسر العلية كلها قياسا على ارادته وسلوكه ، فوراء أعمال الطبيعة وأشكالها - كالانهار والمحيطات والجبال والعواصف والأوبئة والعجائب الخ - تصور هذا الانسان أعمالا ارادية يقوم بها أشخاص مختلفون ذوو قدرة خارقة ؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الايمان الدينى . واذ كانت قوى أو أحداث كثيرة مؤذية للانسان ، فقد كان للخوف نصيب موفور فى أساطيره وعباداته ، فجسد هذه القوى الشريرة أو الشياطين وحاول أن يسررضيها . ولعل الآله الذى آمن به كلفن كان شيطانا قاسيا ، خبيثا ، مستبدا ، صعب الارضاء (وهذه اشارة خبيثة من هيوم) (١٢٤) . واذ تصور الانسان الآلهة الخيرة على شكل البشر - الا من حيث القوة والدوام ، فانه افترض أنها تمنح العون والراحة لقاء الهدايا والزلفى ، ومن ثم كانت طقوس القرابين ، والضحايا ، والعبادة ، وصلاة التضرع . وبازدياد التنظيم الاجتماعى حجما واتساعا ، وبخضوع الحكام المحليين لملوك أعظم ، مرت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه ، فعزا الانسان فى الخيال الى الآلهة نظاما هرميا تسوده الطاعة ، وانبعث التوحيد من الشرك ، وبينما كانت الجماهير لا تزال تجثو للآلهة أو القديسين المحليين ، عبد المثقفون زيوس ، أو جوبتر ، أو الله .

ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصبا كلما غدا أكثر توحيدا . فالشرك سمح بالوان كثيرة من العقيدة الدينية ، أما التوحيد فقد طالب بالتماثل . وانتشر الاضطهاد ، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنية « أعذف العواطف الانسانية وأعتاها جميعا (١٢٥) » . وأكرهت الفلسفة على أن تكون خادما لايمان الجماهير ومدافعا عنه بعد أن كانت مطلقة

نسبياً بين القدامى باعتبارها دين الصفوة . وفى هذه العفائد التوحيدية - اليهودية والمسيحية والاسلام - فصل الاستحقاق و « الخلاص » أكثر فأكثر عن الفضيلة ، وربط بحفظ الشعائر والايمان الاعمى . وترنب على هذا ان المتعلمين أصبحوا اما شهداء واما منافقين ، وبما أنهم قلما اخناروا الاستشهاد ، فان حبة البئر لونها النفاق وعدم الاخلاص .

على أن هيوم كان يغضى عن قدر من النفاق ، وذلك فى نوباته الأقل ولعا بالقنال . مثال ذلك أنه حين استشاره فسيى شاب فقد ايمانه أبقى فى الكنيسة ويقبل وظائفها ، أجاب دبفد ، ابق :

« ان الوظائف المدنية الصالحة للمتفبين نادرة . . . ومن المغالة فى احترام العامة ونزعاتهم الخرافية ان يعتز المرء باخلاصه معهم . فهل حدث مرة أن التزم انسان بشرفه بأن يقول الصدق للأطفال أو المجانين ؟ . . . والوظيفة الكنسية انما تضيف القليل الى الخداع أو قل الطاهر - البرىء - الذى بدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه فى هذه الدنيا (١٢٦) » .

ه - الشيوعية والديمقراطية

اتجه هيوم فى أخريات عمره أكثر فأكثر الى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررهما الوجدان - فى رأيه - أكثر مما يقررهما العقل . وفى ١٧٥٢ نشر « أحاديث سياسية » . وقد أدهشه اقبال القراء عليها . وأبهج انجلترا أن تنسى نزعة لاهوته المدمرة فى النزعة المحافظة لسياسته .

كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية :

« لا بد فى الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل أكثر كمالياتها ، لو أن عطياها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت

بالفن والصناعة ، . . كذلك لا بد من الاعتراف بأننا أينما خرجنا على هذه المساواة سلبنا من الفقراء رضى أكثر مما نضيف الى الاغنياء ، وبأن الاشباع الطفيف لغرور طائش فى فرد واحد ، كثيرا ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الاقاليم .

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التى تسودها المساواة ضربا من المحال :

« ان المؤرخين ينبئوننا ، لا بل الفطرة السليمة تنبئنا ، بأن هذه الأفكار عن المساواة « التامة » مهما بدت قيمة الا أنها فى صميمها « غير ممكنة عمليا » ، والا لآلحقت أشد الأذى بالمجتمع الانسانى . فلو انك سوبت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا . أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل . . . لاحتجت الى أكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أى ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره ، وأشد السلطات القضائية صرامة لعقابه واصلاحه . . . فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعا الى درك الطغيان (١٢٧) » .

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف . فالمبدأ فى رأيه « مبدأ . . . نبيل فى ذاته . . . ولكن تكذبه كل التجارب ، أن الناس هم الأصل فى كل ضرروب الحكم العادل (١٢٨) » . ورفض النظرية (التى سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلا من « تعاقد اجتماعى » بين الناس ، أو بين الشعب والحاكم ، لأنها نظرية صبيانية :

« فكل الحكومات الموجودة الآن تقريبا ، أو التى خلفت لنا أى سجل فى التاريخ ، أسست أصلا إما على الاغتصاب ، أو على الغزو ، أو عليهما جميعا ، دون أن تزعم بأنها حظيت بموافقة الشعب ، أو

بخضوعه الاختيارى . وأغلب الظن أن أول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت فى حالة الحرب وكان من أثر استمرار تلك الحالة طويلا ... وهو أمر مألوف لدى القبائل المتوحشة ، أن الشعب تعود الخضوع (١٢٩) » .

وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشارا ، ودواما ، واذن فأكثرها عملية على الأرجح . « ان الامير الوراثى ، والنبلاء دون اتباعهم ، والشعب الذى يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارشقراطية ، وديمقراطية (١٣٠) » .

وبالاصافة الى تفنيد هيوم لروسو سلفا ، استخدم أسلوبه « الاديسونى » لينبذ سلفا نظرية مونتسكيو التى تزعم أن مناخ البلد بقرر طبع أهله . كتب يقول فى « مقالات أخلاقية وسياسية » ظهرت طبعتها الثانية فى آن واحد تقريبا (١٧٤٨) مع « روح القوانين » : « أما عن الاسباب الطبيعية فانى أميل الى الشك فى مفعولها فى هذا المجال . كذلك لا أظن أن الناس يدينون بأى شيء فى طبعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (١٣١) » . فالخلق القومى يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية ، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء .

فى ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساسا طبيعة واحدة فى كل زمان ومكان ؛ فالدوافع والغرائز ذاتها ، التى تفرضها دواعى البقاء ، تنتج أساسا ، فى جميع العصور والأقطار ، الأفعال والنتائج ذاتها .

« فالطموح والجشع ومحبة الذات والغرور والصدقة والكرم وروح الجماعة — هذه العواطف ، المختلطة بدرجات متفاوتة ، والموزعة بين أفراد المجتمع ، كانت منذ أن وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

الأفعال والمشروعات التى لوحظت بين بنى البشر . أتريد أن تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم ؟ اذن فادرس جيدا طبائع الفرنسيين والانجليز وأفعالهم ، فلن تخطئ كثيرا أن طبقت على الأولين معظم الملاحظات التى لاحظتها على الآخرين - فالبشر شديدو التشابه فى كل زمان ومكان حتى ان التاريخ لا يضيف الى علمنا جديدا أو غريبا فى هذا الباب . وأهم فائدة له انه يكشف عن المبادئ الثابتة والعامة للطبيعة البشرية بعرضه البشر فى شتى الظروف والمواقف ، ويمدنا بالمواد التى نكون منها ملاحظتنا ونحيط منها علما بالمنابع المنظمة لأفعال البشر وسلوكهم . فهذه السجلات للحروب والدسائس والأحزاب والثورات هى مجموعات كثيرة من التجارب يستعين بها فيلسوف السياسة أو الأخلاق على تحديد مبادئ علمه (١٣٢) » .

وفد أضاف هيوم اضافات قيمة للفكر الاقتصادي فى كتابيه « أحاديث سياسية » و « مقالات ورسائل فى موضوعات مختلفة » (١٧٥٣) . ذلك أنه رفض رأى الفيزيوقراطيين الفرنسيين القائل بأن جميع الضرائب تقع فى النهاية على الارض . وذهب الى أنها تقع فى النهاية على العمل ، لأن « كل شيء فى العالم يشتري بالعمل (١٣٣) » (وهو هنا مراد صدق لوك) . وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تنبأ بأن العمال « سيرفعون أجورهم بالتكتل » ، وندد بتمويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعة والاصدارات المتكررة للسندات ، وتنبأ بأن مثل هذه الاجراءات الضريبية ستجبر « الحكومات الحرة » الى « حالة العبودية التى ترزخ تحتها جميع الامم المحيطة بنا » (١٣٤) . والنقود ليست هى الثروة ، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها انما يرفع الاسعار ويعرقل التجارة الخارجية . والنظرية « المركنتلية » الخاطئة التى ما زالت تحمل الدول الاوربية على التركيز على الصادرات ، ومنع الواردات ، وتجميع

الذهب ، ستحرم أوروبا من المنافع الدولية الناشئة عن قدرة كل أمة على انتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصة بأدنى تكلفة وأعلى جودة . ثم جرؤ على أن يصلى :

« لا بوصفى انسانا فحسب، بل أحد الرعايا البريطانيين ، . . لأجل التجارة المزدهرة لألمانيا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، بل وفرنسا ذاتها. وانى على الأقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الأمم جميعا سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزراءها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض . . . فازدياد الثروة والتجارة فى أى أمة لا يؤذى وانما على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعا (١٣٥) » .

هذه الأفكار ، التى ربما كانت متأثرة بمذهب « عدم التدخل » الذى نادى به الفيزيوقراطيون ، أنرت بدورها فى آدم سميث ، صديق هيوم ، ولعبت دورا فى تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة ، وهى تجد تحقيقها فى أوروبا الغربية فى عصرنا هذا .

و - التاريخ

فى ١٧٥٢ بعد حملة شنّها عليه الحزب السنّى الذى اتهمه بأنه زنديق وقح ، انتخب هيوم أميناً لمكتبة كلية المحامين بادنبره . وكان المنصب كبير المعنى فى نظره رغم تواضع راتبه الذى لم يزد على أربعين جنيهاً فى العام ، لأنه جعله السيد المتصرف فى ثلاثين ألف مجلد . وبفضل وجود هذه المكتبة فى متناوله استطاع ان يؤلف كتابه « تاريخ إنجلترا » . وكان فى عام ١٧٤٨ قد اعترف الى صديق له بهذه الكلمات « لقد طالما نويت ان أؤلف كتاب تاريخ فى سنّى حياتى الأكثر نضجا (١٣٦) » . وكان يسمى التاريخ « الخليفة العظمى للحكمة (١٣٧) » ، ويؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، يضاف الى هذا :

« ان نرى النوع الانسانى كله يمر بنا وكأنه فى عرض أمامنا ،
باديا على سجيته ، دون أى من هذه الاستخفاءات التى طالما شوشت.
حكم المتفرجين على هؤلاء الناس اثناء حياتهم - فإى مشهد آخر يمكن
أن تتصوره بهذا البهاء والتنوع والتشويق ؟ وإى متعة للحواس أو
الخيال يمكن أن تقارن به ؟ (١٣٨) » .

ان من مظاهر القرن الثامن عشر أنه أنجب فى جيل واحد ثلاثة
من أعظم مؤرخى العالم ؛ فولتير ، وهيوم ، وجبون ، وكلهم مؤسس
فى الفلسفة ، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت ،
وفى أعرض منظور للمعرفة حشده زمانهم . ولم يملّ جبون من الثناء
على هيوم والاقرار بفضل تأثيره ، وكان يقدر اطراء هيوم للمجلد الأول
من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦) فوق
كل اطراء آخر . فهل كان هيوم بدوره مدينا بالكثير لفولتير ؟ كان قد
توصل الى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الانجليز لا للشكاك
الفرنسيين . « والرسالة فى الطبيعة البشرية » سبقت كل الاعمال
الكبرى التى كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو . ولكن ربما كان كتاب
هيوم « تاريخ انجلترا » (١٧٥٤ - ٦٢) مدينا بشيء لكتاب فولتير
« عصر لويس الرابع عشر » (١٧٥١) ، وحتى لكتاب « مقال فى
العرف » الذى طبعت اجزاء منه فى ١٧٤٥ و ١٧٥٥ . هؤلاء المؤرخون
الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة ، ورفض التفسيرات الخارقة ،
والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون .

وكتب هيوم تاريخه الى الخلف . فغطى مجلده الأول الصادر فى
(١٧٥٤) عهدى جيمس الأول وتشارلز الأول - السنوات ١٦٠٣ - ٤٩ ،
والثانى (الصادر فى ١٧٥٦) امتد من ١٦٤٩ الى ١٦٨٨ ، والثالث
والرابع (الصادران فى ١٧٥٩) من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، والخامس
والسادس (الصادران فى ١٧٦١) من غزو يوليوس قيصر لانجلترا الى
ارتقاء هنرى السابع العرش فى ١٤٨٥ .

وقد أدهشه عطف النقد الذى هوجم به المجلد الأول . كان يؤمن بأن تسلط حزب الاحرار على انجلترا منذ استقدموا وليم الثالث فى ١٦٨٨ ، وخوفهم من الثورتين الاستيوارتيتين الناشبتين فى ١٧١٥ و ١٧٤٥ ، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمى الانجليزى بالعداء لأسرة ستىوارت ، ثم زعم أنه برىء من التزعات المضادة . « رأيتنى المؤرخ الوحيد الذى أهمل فى وقت واحد للحكومة والمصلحة والسلطة الراهنة من جهة ، وصيحة التحيز الجماهيرى من جهة أخرى (١٣٦) » . ولكنه نسي أنه اسكتلندى ، وأن اسكتلندة مازالت تبكى سرا أميرها الجميل تشارلى ، وأن الاسكتلنديين ، وأغلب الظن أن هينوم لم يشذ عنهم ، لم يغفروا قط لانجلترا قتلها تشارلز الأول نصف الاسكتلندى ، واستقدامها أولا رجلا هولنديا ، ثم آخر ألمانيا ، لحكم انجلترا واسكتلندة وويلز . فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الأول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع ، نجده بصور البرلمان متجاوزا بالمثل حقه ، ومذنباً بالمثل فى أمر الحرب الأهلية . ولقد سلم بحق لامة فى خلع الملك الطالح ، ولكنه تمنى لو ان أحدا لم يدفع هذا الحق قط الى نهايته ، وخاف من « هياج الشعب وظلمه » وأحس أن اعدام تشارلز « الرجل المعتدل الكريم النفس » قد زعزع بشكل خطر عادات الشعب فى احترام الحكومة . واحتقر البيورتنان لأنهم « منافقون متظاهرون بالتقوى » لوثوا « لغتهم » برطانة « غامضة و « ووشوا ااثامهم بالصلوات (١٤٠) » . وحكم على فترة الكومنولث (جمهورية كرومويل) بأنها فترة تقوى قاتلة ، وطغيان عسكري ، وفوضى اجتماعية ، لم تبرأ البلاد منها الا بعودة أسرة استيوارت الى العرش . وقد ذهب فولتير فى عرضه لتاريخ هينوم الى أنه منصف تمام الانصاف :

« ان المستر هينوم . . . غير متحيز للبرلمان ولا للملكية ، ولا هو انجليكانى ولا مشيخى ، انما هو رجل منصف لا أكثر . فلقد طالما حرم جنون الحزبية انجلترا من المؤرخ النزيه كما حرمها من الحكومة الصالحة . فما كتبه محافظ كان يرفضه الاحرار ، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم . . . ولكننا نجد فى المؤرخ الجديد ذهنا يسمو فوق مظانته »

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الاخطاء الجسيمة وافعال القسوة حديث الطبيب عن الاوبئة (١٤١) » .

اما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير . فهم لم ياخذوا على هيوم انه قل أن يرجع الى المصادر الاصلية ، بل (كما ذكر فيما بعد) « هوجم بصيحة واحدة كلها لوم واستنكار ، بل بغض وكراهية . فالانجليز ، والاسكتلنديون ، والارلنديون ، والاحرار ، والمحافظون ، ورجال الكنيسة الانجيكانية واتباع المذاهب المنشقة ، واحرار الفكر والمقدينون ، والوطنيون والحاشية - كل أولئك أجمعوا على السخط على الرجل الذى جرؤ على أن يذرف دمعة كريمة على مصير تشارلز الاول وايرل سترافورد . وبعد ان همدت السورة الاولى لغضبتهم ، كان أشد خزيا ما بدا من أن الكتاب طوى فى زوايا النسيان . وقد اخبرنى المستر ملر أنه لم يبع خلال اثنى عشر شهرا الا خمسا وأربعين نسخة منه (١٤٢) »

وقد فت هذا فى عضده حتى لقد حدثته نفسه حينما بأن يرحل كما رحل فى شبابه الى مدينة من مدن الأقاليم فى فرنسا ، حيث يستطيع العيش باسم منتحل . ولكن فرنسا وانجلترا كاذتا تقتتلان ، وقد اوشك المجلد الثانى على نهايته ، فاعتزم أن يواصل العمل . وازداد تحيزه بسبب ما لقى من معارضة ، ففى تنقيحه للمجلد الاول أدخل « نيفسا ومائة تغيير » . ولكنه يقول بكل البهجة الخبيثة التى يستشعرها عفريت ضخم « جعلتها كلها فى صف المحافظين (١٤٣) » ومع ذلك بيع من المجلدات التالية عدد لا بأس به ، ورحب به المحافظون الآن محاميا شديد المرس ، وسلم بعض الاحرار بسحر أسلوبه البسيط ، الواضح ، البتار ، الصريح ، الذى سبق أحيانا وقار جبون الحصيف . فوصفه للصراع المثير بين هنرى الثمانى وتوماس أبيكييت يضارع رواية جبون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . ورفع تأثير المجلدات الستة المتراكم صيت هيوم الى ذروته . وفى ١٧٦٢ ذهب بوزويل فى تقديره له الى أنه « أعظم الكتاب فى بريطانيا (١٤٤) » - ولكن بوزويل كان اسكتلنديا . وفى ١٧٦٤ صرح فولتير فى تواضع بأن الكتاب « ربما كان أفضل تاريخ كتب فى أى لغة اطلاقا (١٤٥) » وقد أزاحه جبون وماكولى الى الظل ، ووازن ماكولى تحيزه بتحيز معادل ، ولا ينصحنا

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم ، لأن تسجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد ، ولكن قارئاً بدأ قراءته باعتبارها واجبا فوجد فيه الانارة والمتعة .

ز - الفيلسوف العجوز

فى ١٧٥٥ بدأت حركة يقودها بعض رجال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة ، وكان « التنوير الاسكتلندى » قد أنجب حركة متحررة بين شباب القساوسة ، فاستطاعوا أن يحولوا دون أى ادانة علنية للفيلسوف - المؤرخ ؛ ولكن الهجمات الكنسية اتصلت ضده ، ولدغته لدغات جعلته يعود الى التفكير فى الفرار . وواتته فرصته حين دعاه ايرل هرتفورد (١٧٦٣) ليكون نائب سكرتير له فى سفارة لفرنسا ، وحصل له على معاش قدره ٢٠٠ جنيه مدى الحياة .

وكان منذ أمد بعيد معجبا بالفكر الفرنسى ، وقد تأثر بالرعيل الأول من كتاب « التنوير » الفرنسى ، وراسل مونتسكيو وفولتير . وكانت أعماله تحظى فى فرنسا بثناء يفوق كثيرا ما حظيت به فى انجلترا . وعشقه الكونتيسة دبوفليه من قراءة كتبه ، وكتبت له تتملقه ، وجاءت الى لندن لتراه ، فأفلت منها . ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها ، وجعلته بطل صالونها ، وناضلت لتوقظ فى صدره عاطفة الرجولة ، ولكنها وجدته أثبت وأرسي من أن تجرفه رياح الغرام . وكان يدعى للمآدب فى الاجتماع تلو الاجتماع . قالت مدام ديبنيه « لا تكتمل وليمة بدونه » . وفتحت له الارستقراطية ذراعيها ، ورفقت من حوله عظيمات النساء - حتى بومبادور العليلة . وكتب يقول : « انى واثق أن لويس الرابع عشر لم يكابد قط فى أى ثلاثة أسابيع من حياته مثل هذا التملق الكثير » . والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو ، ودعاه فولتير من عرشه النائى فى فرنيه « با قديسي ديفد » . وأدهش ايرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيه وينحنون له أكثر كثيرا مما يفعلون معه . ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله ، ومسخر بعض « الفلاسفة » من بدانة هيوم غيرة منه . وفى

أحدى الحفلات بعد أن دخل هيوم عقب دالمبير بأية من الانجيل الرابع (يوحنا) « والكلمة صار جسدا » وقيل ان احدى السيدات المعجبات بهيوم ردت هنا على الملاحظة بحضور بديهة عجيب « والكلمة صار محبوبا (١٤٦) » . لا عجب أن يكتب هيوم ، الذى ناكده خصومه فى ادنبره ، وكرهوه فى لندن ، « ان الحياة فى باريس تبعث على الرضى الحقيقى لوفرة مجتمع الاشخاص المعقولين الاذكاء المهذبين ، الذين تزخر بهم المدينة (١٤٧) » .

وفى نوفمبر ١٩٦٥ أقبل سفير بريطانى جديد ، فأنهى استخدام هيوم . فعاد الى ادنبره ، ولكن فى ١٧٦٧ قبل وظيفة وكيل فى وزارة الخارجية بلندن . فى هذه الفترة أتى بروسو الى انجلترا ، فخلق له متاعب مشهورة ، ولا بد من أرجاء هذه القصة الآن . وفى أغسطس ١٧٦٩ ، حين بلغ الثانية والخمسين ، عاد نهائيا الى ادنبره ، وقد غدا الآن « غنيا جدا (لاننى كنت أملك دخلا قدره ألف جنيه فى العام) صحيح البدن ، أتوقع - رغم أنى طعنت فى السن بعض الشيء - أن استمتع طويلا بالراحة ، وأن أرى شهرتى فى اتساع (١٤٨) » .

وأصبح بيته فى شارع سانت ديفد صالونا يجتمع فيه من حوله آدم سمث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاسكتلنديين كأنه ملكهم المعترف به . ولم يحبوه لرجاحة ذهنه فحسب ، فقد رأوا أنه رغم استدلالاته العقلية المحطمة للمقدسات ، محدث ظريف بشوش معتدل فى الجدل متسامح مع الآراء المعارضة ، لا يسمح للخلاف فى الأفكار بالانتقاص من حرارة صداقاته . ويبدو أنه (كمونتيني وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب . « ان الصداقة بهجة الحياة الانسانية الكبرى (١٤٩) » . ومع ذلك كان محبوبا من النساء ، ربما لأنه لم يكن متزوجا . وكان الضيف الاثير فى بيوت كثيرة ، واذا كانت سمته تتلف المقاعد (١٥٠) ، فان خفة روحه عوضت عن ثقل بدنه ، وقد اقترح ضريبة على السمنة ، ولكنه توقع ان « بعض القساوسة قد يدعون أن الكنيسة فى خطر » ، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لأنه أثر السمان من الرجال - قال آدم سمث : « كنت على الجملة أعده دائما . . أقرب ما تسمح به طبيعة الضعف البشرى من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة (١٥١) » .

وإذا لم يكن بد من البحث عن نقائص في هذا الخلق الذى بلغ غاية اللطف ، أو عن بقع معتمة فى هذا الذهن الألعى ، فإن أكبر أخطائه التى يصعب اغتفارها له هى اشاراته الى « الفرض البشع » الذى افترضه سبينوزا « الكافر » (١٥٢) ، وهى اشارات لابد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمى نفسه . ولقد كانت سيكولوجية هيوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذاً ، ولكنها لم تعلل تماماً الاحساس بالهوية الشخصية ؛ فان حالة نفسية ما لا تستدعى حالة نفسية أخرى فحسب ، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتى « أنا » ، واحلال « التابع المنتظم » محل « العلة » لا يتطلب سوى تغيير فى العبارة ؛ و « التابع المنتظم » كاف للمعلم والفلسفة ؛ وكتابه « تاريخ انجلترا » لا يفتأ يحاول تفسير الأحداث بالأسباب (١٥٣) « . وان شكوكيه تخلق عنها صاحبها صراحة فى الحياة العملية ، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتها ، لأن الممارسة هى المحك النهائى للنظرية . ومن الغريب أن هيوم مع رده العلة الى العرف ، والفضيلة الى شعور التعاطف ، لم يعط وزناً يذكر للعرف والشعور فى تفسيره للدين ، وأبدى أقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة فى التاريخ . وكان عديم الاحساس بتعزيات الايمان ، والراحة التى كان يسمح بها على النفوس المقشعة أمام مر الوجود وضخامته ، أو وحشة الحزن ، أو حتمية الهزيمة القاسية . لقد كان نجاح وسلى رد التاريخ على هيوم .

على أننا برغم هذه الاعتراضات التافهة نعود إلى الأقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهافة بتارة . لقد كان هو وحده «التنوير» للجزر البريطانية ، ونحن اذا استثنينا مجال الرؤية السياسية ، وجدنا أن أثر هيوم أساساً كان فى بريطانيا معادلاً لأثر نيف وعشرة فلاسفة فى فرنسا . . . ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسى شعوراً عميقاً ، فإنه توصل إلى أفكار التنوير ، وكال بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد « الفلاسفة » - بل فولتير - مخالبتهم على « العار » l'infâme . لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم . كتب إليه ديدرو يقبول : « انى احبيك ، انى احبك ، انى اجلك (١٥٤) » وفى انجلترا: أنهى مذهب الربوبية بتحديثه قدرة العقل على الدفاع حتى عن أبسط مقومات الايمان الدينى ، وحمل الحرب لا إلى أسوار العقيدة القديمة فحسب ، بل إلى

قلعته الحصينة . وكان جبون سليل هيوم فى الفلسفة ، وتلميذه الذى بزه فى التاريخ . وفى ألمانيا أيقظ كتابه « تحقيق فى الفهم البشرى » كانط من « سباته الدجماطيقى » بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا واللاهوت عن طريق تشككه فى موضوعية العلة . وبعد أن قرأ كانط مخطوطة الترجمة التى قام بها هامان لكتاب « الحوارات حول الدين الطبيعى » أدمج فى أعداده النهائى لكتابه « نقد العقل الخالص » (١٧٨١) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد ، واعتبر هذه الانتقادات مستعصية على الرد (١٥٥) .

وقد كتب هيوم يقول « أتمنى أن يكون حظى - لأجلى ولأجل أصدقائى جميعا - أن أقف دون عتبة الشيخوخة فلا أوغسل فى ذلك الأقليم الكئيب (١٥٦) . واستجاب له الحظ . تقول ترجمته الذاتية :

« فى ربيع ١٧٧٥ أصبت باضطراب فى أمعائى لم يفرغنى لأول وهلة ، ولكنه أصبح بعد ذلك ، كما خشيت ، قتالا لا شفاء منه . وانى الآن أعلق أملى على الانحلال السريع . لقد عانيت ألما طفيفا جسدا من اضطرابى هذا ، وأعجب من ذلك أننى برغم التدهور الشديد الذى ألم ببدنى ، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أى هبوط فى معنوياتى ، بحيث لو طلب الى أن أسمى فترة حياتى التى 'وثر' أن أعيشها من جديد فربما أغربت بأن أسمى هذه الفترة الأخيرة . فعندى الحماسة ذاتها التى ألفتها فى الدرس ، والمرح فى صحبة الاخوان ، ثم اننى أحسب أن الرجل اذا مات وهو فى الخامسة والستين انما يوفر على نفسه بضع سنين من العلل والاسقام (١٥٧) » .

واثتمر عليه الاسهال ، ذلك الانتقام الأثير لذى الآلهة من عظماء البشر ، مع النزيف الداخلى ، فهبطا بوزنه سبعين رطلا فى عام واحد (١٧٧٥) . وكتب الى الكونتيسة بوفليه يقول « انى أرى الموت يدنو شيئا فشيئا دون أن أشعر بقلق أو أسى . أحبيك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة (١٥٨) » وذهب للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، فلم تجد فتىلا فى التهاب المعى الغليظ المقرح المزمن . ولكن ذهنه ظل هائما صافيا .

وعاد الى ادنبره فى ٤ يوليو واستعد للموت « بالسرعة التى يشتهيها أعدائى ان كان لى أعداء ، واليسر والبشاشة اللذين يتمناها لى أصدقائى (١٥٩) » فلما قرأ فى كتاب لوكان « حوارات الموتى » مختلف الأعذار التى تذرع بها المحتضرون لشارون حتى لا يستقلوا قربه من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم الى الأبدية ، لاحظ أنه لا يستطيع أن يجد عذرا يناسب حالته الا بأنه قد يقول متوسلا « قليلا من الصبر أى شارون الطيب . لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير . فلو عشت - بضع سنين أخر لطبت نفسا بأن أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة السائدة » . ولكن شارون أجاب « أيها الوغد الملتكىء ، لن يحدث هذا ولو بعد مئات السنين . اتتوهم أننى مانحك فسحة طوال هذه السنين ؟ فادخل الزورق، اذن من فورك » .

اما بوزويل ، الملحاح الوقح ، فقد أصر على توجيه هذا السؤال الى الرجل المحتضر - أيؤمن الآن بحياة آخرة؟ وأجاب «هيوم » انه لوهم غير معقول للغاية أن نعيش الى الأبد » . وثابر بوزويل على الحاحه قائلا « ولكن من المؤكد أن فكرة الحياة المستقبلية تسر النفس ؟ » وأجاب هيوم « أبدا ، انها فكرة كثيبة جدا » . وأقربت النساء ورجونه أن يؤمن ، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه (١٦١) .

ومات فى هدوء ، « بغير ألم كثير » (كما قال طبيبه) فى ٢٧ أغسطس ١٧٧٦ . ومشي فى جنازته جمع غفير برغم هطول المطر الغزير . وسمع صوت يقول « كان كافرا » ، وأجاب صوت آخر « لا يهم ، فلقد كان رجلا أميننا (١٦٢) » .

الفصل الخامس

الأدب والمسرح

١٧١٤ - ٥٦

١ - دولة القلم

كانت انجلترا تشغى بالطباعة على الأقل ان لم تشغى بالأدب .
ففضلا عن زيادة سكانها ، لا سيما في المدن وخصوصا في لندن ، كان
الامام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتباره ضرورة للتجارة والصناعة وحياة
المدينة . وعكفت البورجوازية المزدهرة على قراءة الكتب تميزا
وترويحاً ، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراء والحوافز
لقرائهم والرواية . وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة ، التي
انشىء اول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون في ١٧٤٠ ، وسرعان ما أصبح
عددتها اثنتين وعشرين في لندن وحدها . وبدأت الطبقة الوسطى الجماعية
تحل محل الطبقة الارستقراطية الفردية بوصفها راعية للأدب ، وهكذا
استطاع جونسن أن يهزأ بشسترفيلد . ولم تعد الاعانات الحكومية تتحكم
في كبار الأقلام بالمغريات السياسية - كما حدث من قبل مع أديسون
وسويفت وديفو .

وشحذت شهية الجمهور للأخبار تلك الصراعات المرة بين الاحرار
والمحافظين ، وبين الهانوفريين والاستيوارتيين ، وتورط انجلترا
المقزائد في الشئون الاوربية والاستعمارية ، وأصبحت الجريدة قوة
يعتد بها في تاريخ بريطانيا . ففي ١٧١٤ كان هناك احدى عشرة
جريدة تصدر بانتظام في لندن ، وأكثرها أسبوعى ، وفي ١٧٣٣ زادت
الى سبع عشرة ، وفي ١٧٧٦ الى ثلاث وخمسين . وكان كثير منها تعينه
الأحزاب السياسية ، فكلما رفع الشعب صوته اشترت الاقليات الموسرة
الجرائد لتعلم افكارها . واشتملت كل الجرائد تقريبا على اعلانات .
وخصصت « الديلى أدفرتيزر » التي اسست في ١٧٣٠ اول الامر

للاعلانات دون سواها ، ولكنها سرعان ما أضافت عنصرا مثيرا من الأنباء ، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة ، لدعم توزيعها وزيادة أجور اعلاناتها . وولدت فى هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثل « الكرافتسمان » (١٧٢٦) وهى السوط الذى راح بولنبروك يسوط به ولبول ، ومجلة « جراب ستريت » (١٧٣٠ - ٣٧) ، وهى لسان بوب الحاد ، ومجلة « الجنتلمان » (١٧٣١) التى أعطت جونسون وظيفة فيها ، ومجلة « ادنبره » (١٧٥٥) التى ماتت الى أجل فقط فى ١٧٥٦ . وكثير من الجرائد والمجلات الانجليزية مازال حيا بعد مضي مائتى عام على صدوره .

هذه الدوريات كلها - اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية - أعطت المطبعة قوة أضافت الى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها . ومع ان روبرت ولبول حظر نشر المناقشات البرلمانية ، فانه أباح للصحفيين ان يهاجموه بكل ما فى أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث . وقد عجب مونتسكيو القادم من فرنسا التى فرضت عليها رقابة المطبوعات ، لتلك الحرية التى كانت صحيفة « جراب ستريت » تقذف بها داوننج ستريت (مقر الحكومة) بالمداد المسموم (١) . وشكا عضو فى البرلمان الى مجلس العموم فى ١٧٣٨ من أن : « شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمع بها قط من قبل ، باعتبارها السلطان الاعلى ، فى أى عصر او بلد . وهذه القوة يا سيدى لا تكمن فى ارادة الملك المطلقة ، ولا فى توجيه البرلمان ، ولا فى قوة جيش ، ولا فى نفوذ الاكليروس ، انها حكومة الصحافة . فالبضاعة التى تحفل بها صحفنا الأسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان ، وآراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن أثقل مما لرأى خيرة السياسيين فى المملكة (٢) » .

وراح الطباعون يعملون بحماسة جديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان فى لندن ١٥٠ منهم ، وفى انجلترا كلها ثلاثمائة ، اثنان منهم فى هذا العهد - وهما وليم كاسلون وجون باسكرفيل - خلفا أسميهما على طقم حروف طباعية . وظل الطبع والنشر وبيع الكتب فى معظم الحالات موحدا فى شركة واحدة . ومن الشركات الباقية الى يومنا شركة لونجمان التى ولدت فى ١٧٢٤ . وكانت كلمة « publisher

الناشر « تدل عادة على المؤلف ، أما الذى يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller . وألف بعض باعة الكتب ، كإبى جونسن ، أن يحملوا بضاعتهم الى الأسواق ، أو يسرحوا بها من مدينة الى مدينة ، ويفتحوا كشكا فى أيام السوق ، وكان الثمن الذى يطلبونه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة ، ولكن الشلن عام ١٧٥٠ كان يساوى دولارا وربعا تقريبا . وكان البرلمان قد أقر قانونا بحقوق الطبع فى ١٧١٠ ، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية فى كتابه أربعة عشر عاما ، تمتد الى ثمانية وعشرين عاما اذا عمر بعد الفترة الاولى ؛ على أن هذا القانون لم يحمه الا فى المملكة المتحدة ، وكان فى استطاعة الطباعين فى ايرلندا وهولندا أن يذسروا طبعات مسروقة ويبيعوها (حتى ١٧٣٩) فى انجلترا منافسين بذلك بائع الكتب الذى دفع ثمن الكتاب .

فى هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب فى مساوماتهم مع المؤلفين . وكان الكاتب يبيع حقه فى الكتاب عادة بمبلغ محدد ، فاذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفج البائع المؤلف بمبلغ اضافى ، ولكن هذا لم يكن لازما عليه . أما ثمن الكتاب الذى يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتى جنيه . وقد تسلم هيوم خمسمائة جنيه ثمنا للمجلد من كتابه « تاريخ انجلترا » وهو ثمن مرتفع ارتفاعا استثنائيا . وكان للمؤلف الحق فى قبول الاكنتابات لكتابه ، كما فعل بوب فى ترجمته للالياذة ؛ وفى هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفا ، والنصف الثانى عند تسلمه الكتاب ، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع .

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين فى فقر مسخط . من ذلك أن سيمون أوكلى ، الذى ظل عاكفا عشر سنوات على تأليف كتابه « تاريخ المسلمين » (١٧٠٨ - ٥٧) ، اضطر الى استكماله فى سجن المدينين ؛ وكان رتشرد سفدج يتسكع فى الشوارع ليلا لافتقاره الى مسكن ، وظل جونسون ثلاثين عاما يعانى مرارة الفقر قبل أن يصبح أمير الادب الانجليزى . وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخى « للشعر والفقر » (كما قال جونسن) ، حيث الكتاب الماجورون -

من صحفيين ، ومترجمين ، ومصنفين ، وقراء تجارب الطبع ، وكتاب المقالات للمجلات ، ومحققين - ينامون ثلاثة في فراش واحد ويرتدون البطاطين لافتقارهم الى غيرها من الملابس . ولم تكن العلة في هذا الفقر شح باعة الكتب وعدم الاكتراث ولبول بقدر ما كانت اتخام السوق الادبية اتخاما لم يسبق له نظير باصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم بعضا في قبول الاجور المنحطة . وشارك طغيان حالات الاخفاق على حالات الفلاح في المال والأعمال ، مع انسلاخ الادب عن الحماية الارستقراطية ، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين . وفي الوقت الذي كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون في فرنسا يستقبلون بالترحيب في اروع البيوت والصدور ، كانوا في انجلترا - باستثنائين او ثلاثة - يقصون عن « المجتمع المذهب » باعتبارهم بوهيميين غير مغتسلين . وربما كان هذا هو السبب في أن كونجريف رجسا فولتير ألا يدرجه في زمرة الكتاب . وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره بادعائه أنه شاعر وجنتلمان معا . وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجل « الكريم المولد » لا الرجل الكريم السلوك . ولكن الامر كان على النقيض ! .

٢ - الكسندر بوب : ١٦٨٨ - ١٧٤٤

يستهل جونسن ، الذي كان يحتقر الترجمات التي تبدأ بنسب صاحبها وتنتهي بمأتمه ، ترجمته الممتازة لبوب بانباثنا أن « الكسندر بوب ولد بلندن في ٢٢ مايو ١٦٦٨ ، لابوين لم يتحقق أحد قط من مرتبتهما أو مركزهما (٣) » . أما أبوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة ثم اعتزل في بنفيلد قرب غابة ونزر . وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب الكاثوليكي الروماني ، والسنة التي ولد فيها بوب كانت أيضا السنة التي حطم فيها خلع جيمس الثاني آمال الكاثوليكية في تخفيف القوانين المعادية للكاثوليك . وخصت الأم الصبي الذي كان وحيدا بكثير من الترفق ، وقد ورث عنها استعدادا للصداع ، وعن أبيه تقوسا شديدا في عموده الفقري ، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف .

وقد عهد بتعليمه الأول الى القساوسة الكاثوليك ، فاعانوه على اجداد اللاتينية ، واليونانية بقدر أقل ، وعلمه معلمون خصوصيون

آخرون الفرنسية والاطالية ، واذ اقفلت فى وجهه الجامعات والمهن الراقية بسبب مذهبه ، فقد واصل دارساته فى البيت ، فلما عاقه جسمه المحدودب وصحته الهشة عن العمل النشط ، ترك أبواه العنان لولعه بكتابة الشعر . يقول :

« كنت وأنا بعد طفل ، لم تغرر بى الشهرة بعد ،
الثلغ ببهور الشعر ، لأن بحوره وافتنى طوعا (٤) » .

وحين بلغ الثانية عشره أتيحت له نظرة خاطفة الى درايدن يحتل مكان الصدارة فى مقهى ولز ، وأثار المنظر فيه رغبة عارمة فى المجد الأدبى . فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض « الرعويات » التى تداولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء أدار رأسه ، وقبلت للنشر فى ١٧٠٩ . وفى ١٧١١ ، وبكل الحكمة الناضجة التى احتوتها سذوه الثلاث والعشرون ، أدهش أدباء لندن بقصيدته « مقال فى النقد » نراه - حتى وهو يحذر المؤلفين من أن :

« العلم القليل شيء خطر ؛
فأنهلوا من الأعماق ، والا فلا تذوقوا ينبوع الشعر (٥) »

يضع بحسم القاضي قواعد الفن الأدبى . هنا هضم الشاعر « فن الشعر » لهوراس ، و « الفن الشعرى » لبوالو فى ٧٤٤ بيتا جيدة المعانى هضما عجيبا ، نظمت نظما رائعا ، بالفاظ لا يزيد كثير منها على مقطع واحد - « أفكار طاما خطرت بالبال ، ولكن لم يعبر عنها بمثل هذه الروعة (٦) » .

وكان للفتى ولع « بالابجرام » ، وبضغط جوامع الحكمة فى بيت واحد ، وقفل كل فكرة بقافية . وقد أخذ مذهبه فى النظم عن درايدن ، ونظريته عن بوالو . واذ كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره ، فإنه لم يتردد فى قبول النصيحة الكلاسيكية ، نصيحة تهذيب الشكل وصقله ، وجعل الكأس أثمن من نبيذها . ومع أنه ظل يجهر بكثلكته ، فإنه اعتنق مبدا بوالو القائل بأن الأدب ينبغى أن يكون العقل مفرغا فى ثوب لائق . أما الطبيعة فنعم ، ولكنها الطبيعة التى روضسها

الانسان ؛ وأما الوجدان فنعم ، ولكنه الوجدان الذى هـذبـه وصفاه الذكاء . وأى مرشد أهدى الى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء ، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين ، وعلى أن يجعلوا كل جزء من كل عمل أدبى عنصرا منظما مدمجا فى كل متناغم ؟ هنا التقليد الكلاسيكى ، المنحدر بطريق ايطاليا وفرنسا ، بطريق بترارك وكورنىي ، والذى يغزو الآن انجلترا ويقهرها على يد الكسندر بوب ، كما قهر شيكسبير بمسرحية أديسون « كاتو » (فى زعم فولتير) ، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحدرة عن طريق بالاديو وسيرليو ، وعن طريق بارو ورن ، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمدة هادئة . وهكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكى الذى يعمل فى ناقد مثالى :

« ولكن أين هو الرجل الذى يستطيع أن يمحض النصيح ،
الذى ما زال يغتبط بأن يعلم ، ومع ذلك لا يطغيه علمه ؟
رجل لا يحرفه رضى ولا يميله حقد ، لا هو منحيز فى غباوة
ولا مستقيم فى عى ،
مهذب رغم علمه ، مخلص مع تهذيبه ،
جرىء فى تواضع ، صارم فى انسانية ،
يبصر الصديق بعيوبه فى غير تحرج
ويطرى العدو على فضائله وهو مبتهج ،
رجل أوتى ذوقا مدققا دون تزمت ،
ووهب العلم بالكتب والبشر جميعا ، محدث سمح ، ونفس
تنزهت عن الكبرياء ،
يحب أن يثنى ثناء يؤيده فيه العقل (٧) ؟ »

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد ، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى فى الثالثة والعشرين ؛ وعلى ذلك خلع أديسون ، الذى لابد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات ، على الشاعر فى العدد ٢٥٣ من صحيفته « اسبكتيتور » ثناء عظيمما لن يلبث أن ينسى فى معارك الكلام . أما الشاعر جون دنيس ، مؤلف مسرحية

« ترى هل تحطم الحورية (بليندا - أرابيلا) قانون ديانا (قانون العفة) ،

أم أن قاروره هشة من الصيني سيصيبها شرخ ،
أتراها تلوث شرفها ، أم ثوبها الموشي الجديد ؟
النسي أن تتلو صلواتها ، أم يفوتها عرض بالاقنعة ،
اتضيع قلبها ، أم قلاقتها ، في حفل راقص ... (١) »

وتشارك بليندا في ثروات جماعة الأشراف ، وقمارهم في هامتن
كورت ، حيث :

« تموت سمعة عند كل كلمة (١١) » ؛

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق . فإذا انحنت بليندا
لتشرب ، قصّ البارون القوى خصلتها وهرب (وهذا السيل المتدفق
من البحر العميق « الأيامي iambic » يأخذ بالآلباب) .
فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل مأخذ ، وتعثّر عليه ، وتلقى قبضة
من النشوق في وجهه ؛

« وبغثة تفيض كل عين بالدموع المنهلة
وتردد قبة السماء صدى عطسه (١٢) »

وفي هذه الأثناء يغتصب الاقزام أو السيلفات أو السندلات الخصلة
ويجرونها وفي أثرها سحب الفخر الى السماوات حيث تصبح نجما مذنباً
يفوق بريقه تلالو شعر بليندا .

وقد أبهج هذا كله نبلاء لندن ونبيلاتهما ، وأنديتها ومقاهيها .
ووجد بوب نفسه رجلاً يشيد به الناس أبرع شاعر في إنجلترا ، وغدا
كل من عداه من الشعراء خصوماً له . ولم يصف جديداً لشهرته بالأبيات
المسلة التي وصف بها غابة ونزر (١٧١٣) ، كذلك لم ينس
له الاحرار بعد انتصارهم في ١٧١٤ أنه في تلك القصيدة
كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الأسرة المالكة التي سقطت (١٣) .
ولكنه عاد فأسر جمهوره في ١٧١٧ بنظمه في مقطوعات من بيتين

« أبيوس وفرجينيا » فقد خيل اليه أنه المذموم في أبيات بوب
الطائشة :

« ولكن أبيوس يحمر لكل كلمة تقولها
ويحملك حملة رهيبة بعين مهددة
وكانه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة (٨) »

فرد عليها بكتابة « تأملات نقدية وهجائية » (١٧١١) . وقد
انتقى عيوباً حقيقية في فكر بوب وأسلوبه ، وعرضها في إطار مقذع .
فوصف بوب بالمنافق القبيح الذي خلق على شكل قوس كيوبيد أو ضفدع
أحذب ، وهناه على أنه لم يولد في اليونان القديمة ، والا لالقت به
عرباً بعد ولادته لقبحه (٩) . ولحق بوب جراحه وترتب فرصته .

ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته « اغتصاب خصلة شعر » (١٧١٢)
وكانت تقليداً سافراً لقصيدة بوالو Le Lutrin المقرأ (١٦٧٤) ،
ولكن الناس أجمعوا على أنها فاقت أصلها . وخلاصة الموضوع أن اللورد
روبرت بيتر أعرب عن تحمسه للمسز أرابلا فيرمر بقصه خصلة من
شعرها الجميل وهروبه بها ، وقتل ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة .
واقترح رجل يدعى كاريل على بوي أن أرابلا قد يهدأ سخطها إذا قص
الشاعر القصة في شعر مازح وقدم لها القصيدة . وهكذا فعل ، وهكذا
انتهى الأمر . فصفحت المسز فيرمر عن اللورد ، ووافقت على نشر
القصيدة . ولكن بوب وسع الخطة ، مخالفاً نصيحة أديسون ، وكدها
بعدة من الشعر الملحمي - الهزلي ضمت الكائنات الخرافية : السيلفات،
والسمندلات ، والحيوريات ، والأقزام المشاركة في الملحمة ؛ وراقت هذه
« المليشيا الخفيفة للسماء السفلى » خيالات العصر وميوله ، ولقيت
قصيدة « الاغتصاب » المعدلة استحسان الجميع إلا الشاعر دنيس .
وتوقف جورج باركلي في حملته على المادة ليهنئ المؤلف على لدونة
ربة شعره . ولباقة بوب النظمية كلها ، ومعين أخيلته وعباراته الذي
لا ينضب ، يجعلان القصيدة تتألق تألق الأحجار الكريمة التي رصعت
بها الحسناء « بليندا » شعرها . وهو يصف بخبرة الفساء مستحضرات
التجميل التي يسلح بها أحد الجان البظلة لحروب الغرام ، ويعدد في
مرادفات تهكمية ما سيحفل به يوماً من جلائل الأمور :

مقفينين couplets رسائل هلويز وأبييلار المختلقة . فنرى
« الويزا » التي حبست نفسها في دير للراهبات تطلب الى أبييلار المخصي
أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتى الى حضنها :

« تعال ان جرؤت بكل ما فيك من فتنة !
تحد السماء ، وطالب بقلبي ،
تعال ، وبظرة واحدة من تلك العيون المضللة
امح كل فكرة ذكية من أفكار السماء ...
اخطفنى ، وأنت تهتمّ بامتطاء جوادك ، من مسكنى المبارك ،
أعن الأصدقاء ، وانتزعنى من الهى ! »

وفى نزوة أخرى تقول له :

« لا ، أبعد عنى بعد المشرقين ،
لترتفع جبال الألب حاجزا بيننا ! ولتهدر محيطات بأسرها !
أواه ، لا تات ، ولا تكتب ، ولا تفكر فى ولو مرة ،
ولا تشاركنى وخزة واحدة من وخزات الألم الذى ذقته لأجلك (١٤) » .
ومع ذلك تثق أنه آت اليها فى ساعة احتضارها ، لا عاشقا
بل كاهنا :

« ليترك تقف فى ثياب مقدسة
والمشعل المقدس يرتعش فى يدك
وتمد الصليب أمام عينى التى تهفو اليك ،
وتعلمنى وتعلم منى الموت (١٥) » .

وكان بوب يحلم ككل شاعر فى زمانه بأن ينظم ملحمة ، ولقد بدا
كتابة ملحمة وهو بعد فى الثانية عشرة . فلما شب ودرس هومر خطر له
أن يترجم الالياذة الى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفين التى كانت
تكون منطقته الذى فطر عليه . واستشار أصدقاءه فأمضوا على الفكرة .
وقدمه أحدهم وهو جوناثان سويفت الى هارلى وبولنبروك وغيرهما
من كبار رجال الحكومة أملا فى أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق
منها . فلما أخفق فى هذا تكفل بأن يجمع له اكتتابات تعول «الكسندر»
الجديد وهو يطفر بشعره فوق طرواده . واذا كان سويفت فى موقع

استراتيجى بين طلاب الوظائف والكهنوت ، فقد أعلن أن « أفضل شعراء انجلترا هو المستر بوب ، بابوى بدأ ترجمة لهومر بالشعر الانجليزى ، لا بد له ليكملها من أن يكتبوا فيها جميعا ، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له ألف جنيه ! (١٦) » . واقترح بوب أن يترجم الالياذة فى ست مجلدات من قطع الربع ، ثمن كل المجموعة منها ستة جنيهات (١٨٠ دولارا ؟) . وأقبلت الاكتتابات تترى رغم هذا الثمن الغالى ، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنقو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتى جنيه لقاء كل مجلد ، وأن يقدم له نسخا مجانية لمكتبيه . وبما أن المكتبين (وعددهم ٥٧٥) أخذوا ٦٥٤ مجموعة ، فإن بوب كسب ٥٣٢٠ جنيهها (١٤٨٩٦٠ دولارا ؟) ثمنا للالياذة ، وهو مبلغ لم يظفر بمثله مؤلف فى انجلترا الى ذلك الحين . وظهر المجلد الأول المحتوى على أربعة أقسام فى ١٧١٥ . وقد لقى منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة فى اليوم ذاته للقسم الأول بقلم توماس تيكل . وأثنى اديسون على ترجمة تيكل ، التى اعتقد بوب أنها ليست فى الحقيقة الا بقلم اديسون ، وأحس أن نشرها فى آن واحد مع ترجمته عمل غير ودى ، فأضاف اديسون الى قائمة أعدائه .

ولو كان التفقه فى العلم هو المحك الوحيد لما استحققت ترجمة بوب ثناء يذكر . فعلمه باليونانية متواضع ، وقد اضطر الى الاستعانة بالشرح المدرسين ، وأنجز أكثر مهمته بالمضاهاة بين الترجمات السابقة واعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقفاة من البحر الايامبى (العمبقى) الخماسي التفاعيل iambic — pentameter couplets التى برع فيها . فأما بنتلى ، أمير علماء الدراسات اليونانية الأحياء يومها ، فقد أصاب فى حكمه على هذا الأداء : « قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب ألا تسميها هومر (١٧) » فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل ، والعبارات والفقرات والطبقات المتوازنة ، هذه كلها عطلت أسلوب الشعر الاغريقى السداسي التفاعيل ، الأسلوب السريع المتدفق . ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة ، ومعين زاهر من اللغة ، فى تلك الأبيات التى ساقها الشاعر على نحو معجز ، عبثا بها . رغم اعتراضات بنتلى . الى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كأحب م ١٦ - قصة الحضارة

ترجمة لالياذة . قال فيها جوتسن « انها اسمى ترجمة للشعر شهدها العالم الى اليوم (١٨) » وقال جراى انه لن تضارعا أية ترجمة اخرى (١٩) . كذلك كان رأى انجلترة الى أن أجال كيتس بصره فى ترجمة تشابمن لهومر ، واستمطر وردزورت اللعنة على الأسلوب المصطنع الطنان الذى أبهج الكثيرين جدا فى عصر انجلترة الاوغسطين .

ونشرت الياذة بوب فى ١٧١٥ م ٢ : ، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين الى بابه . ورجاه أخدهم أن يعلق على طبعه حديثه لمسرحيات شكسبير ، فوافق بغباوة ، غافلا عن الهوة التى تفصله عن شكسبير عقلا وفنا . وراح يكد ويكدج بصبر ذاهب فى تلك المهمة التى لا تلائمه ، وظهرت الطبعة فى ١٧٢٥ ، وما لبث لويس ثيوبولد ، أقدر المتخصصين فى دراسة شكسبير يومها ، أن أوسعها طعنا لقصورها ، فصلبه بوب فى قصيدته « النفسياة » (أى ملحمة المغفلين) .

وأقنعه لنتوت أثناء ذلك بأن يترجم الاوديسة ، عارضا عليه مائة جنيه ائمنا لكل مجلد من مجلداتها الخمسة ، وأخذ المكتتبون ٨١٩ مجموعة ، ولكن بوب ، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة ، سئم نحت مقطوعاته ، وعهد بنصف العمل الى دارسين من كمبردج لم يطل بهما الوقت حتى تعلما محاكاة أسلوبه . وكان قد نبه المكتتبين سلفا الى انه سيستخدم معاونين له ، ولكنه حين نشر الاوديسة (١٧٢٥ - ٢٦) . التى قصرت كثيرا عن الياذته - نسب الى مساعديه هذين الفضل فى خمسة كتب من الكب الاربعة والعشرين ، فى حين أنهما ترجما اثنى عشر كتابا فى الواقع (٢٠) . ونقدتهما ٧٧٠ جنيهها ، أما هو فبلغ صافى ربحه ٣٥٠٠ جنيهه ، اذ شعر بحق أن اسمه هو الذى باع الكتاب . وكفلت له الترجماتان الاستقلال المالى ، فقال ان فى وسعه الآن « بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير محين لانسان أميرا كان أو نبيل (٢١) » .

وفى ١٧١٨ اشترى فيللا فى تويكنهام وحديقة مساحتها خمسة أفدنة تنحدر الى نهر التيمز . وصمم الحديقة بالطراز الطبيعى ، متحاشيا الرقابة الكلاسيكية التى مارسها فى شعره . وقال « ان الشجرة شىء أنبل من الملك فى ثياب تنويجه (٢٢) » . وحفر له من بيته نفق

تحت شارع معترض ليخرج منه الى الحديقة ؛ وزين هذه « المغارة »
زينة حاملة فيها الاصداف ، والبللورات ، والمرجان ، والمتحجرات ،
والمرايا ، والمسلات الصغيرة . فى هذه الخلوة اللطيفة الجو استضافه
الكثير من الاصدقاء المشهورين - سويقت ، وجراى ، وكونجريف ،
وبولنبروك ، وآربثنوت ، والليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، والاميرة
كارولين ، وفولتير . وكانت الليدى مارى جارتة فى حى أطلقا عليه اسم
« تويتنام » ؛ وكان بولنبروك يسكن دولى على مقربة منه ، ولندن لا تبعد
أكثر من أحد عشر ميلا فى نزهة لطيفة بالقرب على التيمز ، وأقرب منها
القصور الملكية فى رتشموند ، وهامتن كورت ، وكيو .

وانضم الدكتور جون آربثنوت ، الذى أضفى كتابه « تاريخ جون
بول » (١٧١٢) على انجلترا شخصية واسما ، الى سويقت ، وكونجريف
وجراى ، وبوب ، فى نادى سكريليروس الشهير (١٧١٣ - ١٥) ،
الذى كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز ، وأضيف كل ضحاياهم
الى القائمة المتعاضمة من خصوم بوب . وكان له مع الليدى مارى مغامرة
اختلف فيها الواقع بالادب وامتدت بعداوة مرة . وساكنه سويقت أحيانا ،
كما حدث أيام نشره « رحلات جلفر » (١٧٣٦) ، وتبادل الاثنان
بعضهما للبشر ، وبعض الرسائل التى كشفت عن رقة مخبوءة تحت
دروعهما القاسية (٢٣) . أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالى
١٧١٣ ، وتطورت الى تأثير فلسفى . وقد أثنى الواحد منهما على صاحبه
ثناء يبعث على الغثيان لغسلوه ، فقال بوب « أعتقد حقيقة أن فى
ذلك الرجل العظيم شيئا يبدو أنه وضع هنا خطأ من عالم أعلى » ،
وقال بولنبروك وبوب يحتضر « لقد عرفته هذه السنين الثلاثين ، ويزيد
تقديرى لنفسى بسبب حبه لهذا الرجل » - وهنا خانه صوته كما تقول
القصة (٢٤) .

ولا بد أنه كان هناك شيء يحب فى هذا الشاعر الذى صورته
الرواية المتواترة ، بل صورته قلمه هو أحيانا ، انسانا مشاغبا خداعا
خسيسا مغرورا . وينبغى أن نذكر دائما أنه كان مغرورا - وله العذر -
بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدنى . لقد كان فى صباه
جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وقد ظل وجهه دائما جذابا ، ولو

لمجرد توقد عينيه . ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقري سافر بصورة أكثر ايلاما له . وقد وصف نفسه بأنه « مخلوق قصير ، كله حيوية ، طويل الساقين والذراعين ، لا تخطيء اذا رمزت له بالعنكبوت ، وقد حسبه البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (٢٥) » . (ويذكرنا هذا بـسكارون المسكين) . فاذا جلس الى المائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذى غيره . وكان يحتاج الى من يخدمه طوال الوقت تقريبا . وما كان في استطاعته أن يمضي الى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه ، ولا أن يرتدى ثيابه أو يخلعها بنفسه ، وكان يجد مشقة في الاحتفاظ بنظافة جسمه . فاذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه الى صدر من القنب المقوى ، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفئهما ، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدى « نوعا من الصدر الضيقة المصنوعة من الفراء » ، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن . وقل أن عرف لذة العافية . وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشكو الصداع أربعة أيام في الأسبوع ، ويمرض في الثلاثة الباقية . ومن المعجز أن استطاع جوناثان رتشردن أن يرسم لبوب لوحة بمثل هذه الطلعة الحسنة (٢٦) - كلها تيقظ وحساسية ، ولكننا نستطيع في التمثال النصفى الذى صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل .

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادئ الطبع ، أو لطيفا ، أو بشوشا ، أو رقيقا . فلقد أصبح شأن كل عليل نزقا ، كثير المطالب ، نكد المزاج . وندر أن تجاوز في ضحكه الابتسامة ، واذ حرم كل فتنة الجسد ، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر . وكما يفعل حيوان ضعيف أو جريح ، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة ، تعلم المكر والمراوغة والدهاء ، وما لبث أن تعلم الكذب ، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه . وتملق النبلاء ، ولكنه ترفع عن كتابة الاهداءات التى تستهدف الكسب . وكان فيه من الشجاعة ما حملته على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحتقرها .

ونحن نرى في حياته الخاصة بعض الخلل الجديرة بالحب . قال سويفت عنه انه « أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قياما »

بواجبهم نحو آبائهم (٢٨) « . فلقد كان حبه لأمه أظهر عاطفة وأبقاها من عواطف روحه المضطربة . كتب في عامها الحادى والتسعين يقول ان صحبتها اليومية جعلته لا يحس أى افتقار الى علاقات عائلية أخرى . وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقا منها كلاما ؛ ولم يكن هيكله يصلح للزنا ، ولكن لسانه وقلمه كان فى وسعهما أن يكونا اباحيين الى حد مقزز (٢٩) . وحتى فى رسائله للمراأتين اللتين ظن أنه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغى . ومع ذلك فان احداهما ، وهى مرتا بلاونت ، أحبت الشاعر العاجز حبا حسبه المنفولون علافة آثمة . وفى ١٧٣٠ وصفها بأنها « صديقة ... كنت اتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعا طوال هذه السنين الخمس عشرة (٣٠) » . ويات فى شيخوخته المبكرة معتمدا على محبتها ، وأوصى لها بكل تركته الكبيرة تقريبا .

واذ كان دائم الوعى بعيوبه البدنية ، فقد كانت تكويه كيا كل كلمة تنقد خلقه أو شعره . لقد كان العصر عصرا يغلب عليه حب الثار فى معاركه الأدبية ، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه احيانا . وفى ١٧٢٨ حشد خصومه ونقاده فى زريبة شعره ، وأطلق عليهم كل سهام غضبه فى أقوى أعماله الأدبية وأبلغها ايذاء . ولم ينشر اسمه عليه ، ولكن كل لندن القارئة استشفت توقيعه فى أسلوب الكتاب . وسيرا على الطريق الوعر الذى سلكته من قبل قصيدة درايدن « ماك فلكنو » (١٦٨٢) ، أشادت قصيدة بوب « الدنسيادة » بكتابة جراب ستريت أقطابا للمغفلين فى بلاط الغباء الذى يتربع ثيوبولد على عرشه . وقد بكى على موت رن وجرأى ، وعلى اقضاء سويقت فى منفاه الارلندى ، حيث يموت « كفار مسموم فى جحر » يعنى كتدراثية دبلن . أما عن الباقيين فلم ير من حوله الا عجرة فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق . وتلقى ثيوبولد ، ودنيس ، وبلاكهور ، وأوزبورن ، وكزل ، وكيبير ، وأولدمكسون ، وسميدلى ، وآرنل - كل فى دوره جزاءهم من الجلد والتهكم والقذر - ولا غرو فقد كان للشاعر ولع بالقذارة ، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدنى (٣١) .

وفى طبعة لاحقة ذكر بوب فى ابتهاج ، على لسان الشاعر سفدج ، كيف أن حشدا من الكتاب حاصروا تاجر الكتب فى تاريخ نشر القصيدة

الأول مرة ، وهددوه باستعمال العنف معه اذا نشرها ، وكيف أن هذا جعل الجمهور أشد تهاافتا على النسخ ، وكيف أن الطبعة تلو الطبعة كانت تطلب وتنفد ، وكيف أن الضحايا ألفوا أنديا ليكتلوا النار من بوب ، وصنعوا دمية على صورته وأحرقوها . وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب ، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه ، وبعدها ظل بوب حينما يأخذ معه في جولاته مسدسين وكلبه الدنمركى الضخم . ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات ، وبدأ بوب وأصحابه (١٧٣٠) « مجلة جراب ستريت » ليواصلوا الحرب . وفي ١٧٤٢ أصدر جزءا رابعا من « ملحمة المغفلين » ، هاجم فيه المربين وأحرار الفكر تعطشا لخصوم جدد - هؤلاء الذين يفخرون قائلين :

« اتنا نتخذ في فخر ذلك الطريق الاعلى
ونجادل هابطين حتى نشك في الله ،
ونجعل الطبيعة تعدو على قصده ،
وندفعه الى أبعد ما نستطيع . . .
أو ، بوثبة واحدة تقفز فوق كل قوانينه ،
نجعل الله صورة للإنسان ، والإنسان العلة النهائية ،
ونجد الفضيلة شيئا محدودا ، ونحتقر كل الصلات ،
نرى الكل في أنفسنا ، واننا لم نولد الا لأنفسنا ،
لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا ،
ولا نتشكك في شيء تشكنا في الروح والارادة (٣٢) » .

وواضح أن بوب كان ينقب في الفلسفة ، وليس مع بولنبروك وحده ؛ فقد صدرت رسالة هيوم « في الطبيعة البشرية » في ١٧٣٩ ، قبل هذا الجزء الرابع من « ملحمة المغفلين » بثلاث سنوات . وهناك بعض الأدلة على أن الفيكونت كان قد نقل الى الشاعر ربوبية شافتسبرى مشحوزة بحكمة الدنيا (٣٣) . وقال له بولنبروك ، حسبك هجاء وسفاسف ، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية . يقول جوزف وارتن « لقد أكد لي اللورد باثورست غير مرة أنه قرأ كل خطة « مقال عن الانسان » مكتوبة بخط بولنبروك ، ومفصلة في سلسلة من القضايا كان على بوب أن ينظمها شعرا ويوضحها (٣٤) » . ويبدو

أن بوب فعل هذا ، الى درجة استعماله عبارات بعينها من وضع المتشكك الكبير (٣٥) ، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التي تخلفت عن عقيدته المسيحية . وهكذا أصدر « مقاله عن الانسان » فصدرت الرسالة الأولى في فبراير ١٧٣٣ ، والثانية والثالثة في تاريخ لاحق من تلك السنة ، والرسالة الرابعة في ١٧٣٤ . وسرعان ما ترجم المقال الى الفرنسية ، واشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتباره من ألمع ما ألف من جوامع الشعر والفلسفة معا .

واليوم يذكر هذا المقال أولا لما حوى من أبيات يعرفها كل انسان ، فلننصف بوب برؤيتها في اطار فنه وفكره . وهو يستهلها بمناجاة لبولنبروك :

« استيقظ يا قديسي جون : واترك كل التوافه
للطمع الدنيء وكبرياء الملوك .
وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهبنا
غير نظرة فيما حولنا يعقبها الموت ،
فطوف ببصرك حرا فوق هذا المشهد كله ، مشهد الانسان ،
يا له من متاهة هائلة ، ولكنها ليست بغير خطة ، ..
فلنضرب معا في هذا الحقل الفسيح ،
ولنضحك حيث يجب الضحك ، ونتصارح حيث نستطيع المصارحة ،
ولكن لنبرر طرق الله مع الانسان (٣٦) » .

هنا بالطبع ذكرى « لالهيات » لبينتس ، « وفردوس ملتن ،
المفقود (٣٧) » . ويمضي بوب فيحذر الفلاسفة من أن يؤملوا الفهم أو
يدعوه ، « فهل يستطيع الجزء أن يحتوى الكل ؟ » فلنكن شاكرين
لأن عقلنا محدود ومستقبلنا مجهول :

« فذلك الحمل الذى قضي استهتارك بذبحه اليوم ،
لو أوتى عقلك ، أكان يطفر ويلهو ؟
انه فى ابتهاجه الى النهاية يقضم طعامه اليانع
ويلعق اليد التى رفعت لتريق دمه (٣٨) » .

هاهنا تشاؤم خفى ، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حيا ألا بالجهل :

« فارح فى تواضع اذن ، وحلق بجناحين مرتعشين ،
وانتظر الموت ، ذلك المعلم العظيم ، وأعبد الله .
انه لا يهبك العلم بالنعيم الآتى ،
ولكنه يسمح بأن يكون ذلك الرجاء بركتك الآن .
فالرجاء ينبعث أبدا فى صدر الانسان ،
وهو لا ينعم بالسعادة ، بل لا يفتأ يرجوها أبدا (٣٩) » .

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو فى الحياة من مظالم ؛
وعلىنا ان ندرك أن الطبيعة لم تخلق للانسان ، وأن الله لا بد يرتب كل
الاشياء لكل الاشياء ، لا للانسان وحده . ويصف بوب « سلسلة الوجود
الشاسعة » ابتداء من أدنا المخلوقات ومرورا بالانسان والملاك الى الله ،
ويحتفظ بايمانه فى نظام الهى وان خفى عن علمنا :

« ان الطبيعة كلها ليست الا فنا لا علم لك به ؛
وكل المصادفات توجيه لا تستطيع رؤيته ؛
وكل تنافر تناغم غير مفهوم ؛
وكل شر جزئى خير كلى ؛
ورغم ما فى حقد العقل الضال من كبرياء ،
فان هناك حقبة واحدة واضحة ، وهى أن كل الوجود صواب (٤٠) »

أما الدرس الأول فهو التواضع العقلى . ثم هذه الأبيات المذكورة
تذكيرا رائعا ببسكال :

« فاعرف نفسك اذن ، ولا تجسر على فحص الله ،
فالدراسة الصحيحة للبشر هى الانسان .
هذا الذى وضع فوق هذا البرزخ فى حالة وسط ،
كائن حكيم فى غموض ، عظيم فى فجاجة ...
حكم أوحده فى امر الحقيقة ، مدفوع الى اخطاء لا تنتهى ،
مفخرة الدنيا ، واضحوكتها ، ولغزها المحير ! (٤١) »

فلنوافق فى نطاق هذه الحدود البشرية على أن . « محبة الذات ، منبع الحركة ، تحفز الروح » ، ولكن لابد للعقل أيضا أن يدخل ليبث النظام والتوازن فى عواطفنا وينقذنا من الرذيلة . لأن

« الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبة السحنة ، نكرها حالما نراها ، ولكننا لكثرة ما نراها نألف وجهها ، ونحتملها أولا ، ثم نرثى لها ، ثم نعانقها (٤٢) » .

هذه العواطف وإن كانت كلها ألوانا من محبة الذات إلا إنها جوانب من المخطط الالهى ، وقد تفضي الى نهاية طيبة حتى لبصرنا الأعمى . فشهوة الجسد تبقى على النوع ، وتبادل المصلحة ولد المجتمع . والنظام الاجتماعى والايمان الدينى نعمتان واضحتان ، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطخوا التاريخ بدماء البشر :

« لىختلف الحمقى حول أشكال الحكم فأصلحها هو أفضلها ادارة وتصريفا وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الايمان ، فلن يخطيء من عاش حياة فاضلة (٤٣) » .

أما الرسالة الرابعة من مقال الانسان فتتنظر فى السعادة ، وتحاول جاهدة أن تسوى بينها وبين الفضيلة . فإذا رأيت الرجل الصالح يبتلى بالكوارث ، والأشرار يفلحون أحيانا ، فانما السبب أن :

« العلة الكونية لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية (٤٤) ؛ »

والله ينظم بالكل ، ولكنه يترك الأجزاء لقوانين الطبيعة ولارادة الانسان الحرة . وقد يأسى البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصدرا للشقاء ، ولكن الفوارق الطبقيه ضرورية للحكم :

« فالنظام أول قوانين السماء ، وإذا سلمنا بهذا كان البعض ، ولا بد أن يكونوا ، أعظم من الباقين (٤٥) » .

وليس هذا واضحا وضح النهار ، ولكن أى كلام آخر يمكن أن يقال للفيكونت بولنبروك ، (أو يقوله بولنبروك) ؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة فى العطايا الطبيعية والمكتسبة ؛ فالفقير سعيد سعادة الامير . وليس سعيدا ذلك الوغد الغنى ؛ فهو يحتضن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له ، أما البار فتنعم روحه بالسلام حتى فى الظلم .

أما ما يسترعى نظرنا لأول وهلة فى مقال الانسان ، فهو هذا الأسلوب المحكم الذى لا يضارع فى ايجازه . يقول بوب « لقد اخترت الشعر لأننى رأيتنى قادرا على التعبير عن هذه الأفكار بالشعر بأوجز مما بالنثر (٤٦) » . ولم يبلغ شاعر ، حتى شكسبير نفسه ، ما بلغه بوب من قدرة على حشد ذخائر لا حصر لها - وحشد المعنى الكبير على الأقل - فى حيز ضيق . فهنا فى ٦٥٢ بيتا زوجيا ، هى أدعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها فى أى ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد . وكان بوب عليما بحدود قدراته ، فقد أنكر صراحة أصالة أفكاره ، وأراد أن يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز ، ووفق فيما أراد . وفى هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو الى حين . ورأى فى الله علة أولى فقط ، لا يعنى « عناية الهية خاصة » ليقى الرجل الفاضل من خبث الاشرار . وليس فى هذا النسق معجزات ، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله ، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر ، انما هو رجاء مبهم فى الجنة ، ولكن لا ذكر للنار اطلاقا .

وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة « انسانية أو بشرية » منظومة . فالقول بأن « دراسة البشر الصحيحة هى الانسان » عرف وجها من وجوه هذه الفلسفة ، وبدا أنه يغرق اللاهوت كله . فلما ترجم المقال الى الفرنسية انقض عليه قسيس سويسرى يدعى جان كروزاز ، فزعم أن بوب قد ترك الله فى طريق جانبى فى قصيدة مفروض فيها أنها تبرر طرق الله للانسان . ولم يخف للدفاع عن بوب أمام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم وريرتون الفحل ، فقد شهد أسقف المستقبل أن القصيدة عمل من أعمال التقوى المسيحية التى لا شائبة فيها . ورغبة فى تهدئة رجال الدين نشر بوب فى ١٧٣٨ ترنيمة .

حلوۃ سماها « الصلاة العالمية » . ولم يقتنع السـنـيـون تماثـا ، ولكن العاصفة هدأت . أما فى القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرفة . فقال فولتير فى حكمه عليها « انها فى رأى أبداع وأنفع وأسمى قصيدة وعظمية نظمت فى أى لغة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ كتب بوب مقدمة لجلد من الهجائيات سماها « رسالة الى الدكتور أربتنوت » دافع فيها عن حياته وأعماله ، وقتل خصوصا جددا . هنا وردت صورته الشهيرة لأديسون الذى سماه « أتيكوس » ، وفضيحته القتالة للورد هرقى المخنث الذى كان قد زل فوصف بوب بأنه « قاس كقلبك ، مجهول كأصلك (٤٨) » . وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم « سبوراس » فى أبيات يتجلى فيها الشاعر فى أروع صورته وأسوئها . قال :

« ماذا ؟ ذلك الشجر المصنوع من الحرير ،
سبوراس ، ذلك الخثارة البيضاء من لبن الحمير ،
وا أسفاه ! لا يجدى معه هجاء ولا كلام معقول ! أيستطيع
سبوراس أن يحس ،

وهو الذى يحطم فراشة على دولاب التعذيب ،
ولكن دعونى أصفع هذا البقة المذهبة الأجنحة ،
ابن القدر هذا المزوق ، الذى ينتن ويلدغ ...
وسواء تكلم وهو عاجز عجزا فاضحا
وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملقن ؛
أو جلس الى اذن حواء ، كأنه الضفدع الأليف ،
ينفث حديثا نصفه زبد ونصفه سم ،
فى توريات أو أحاديث سياسية ، أو حكايات ، أو أكاذيب ،
أو غل أو سناج أو قوافى أو كفريات .
ذكاؤه كله متارجح هنا وهناك ،
صاعد حيناً ، هابط حيناً ، سيد مرة وفتاة مرة ،
وهو ذاته تناقض حقير .
شيء ذو وجهين ، يلعب كلا الدورين ،
الرأس التافه ، أو القلب الفاسد ؛

غندور فى زينته ، متملق فى مجلسه ،
يخطر آنا كالنساء ، ويتبختر آنا كالسادة (٤٩) » .

وكان بوب فخورا ببراءته فى هذه الهجمات القتالة -

« أجل ، انى فخور ، ويجب أن افخر برؤية
الرجال الذين لا يخشون الله يخشوننى (٥٠) » .

وقد اعتذر عن مرارته بأن العصر يتهده انتصار الغباوة ، وأنه
فى حاجة الى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل ، ولكنه انتهى فى ١٧٤٣ الى
أنه خسر المعركة . ففى آخر تنقيح للمحمة المغفلين رسم صورة قوية -
هى نذر الشاعر « دون » بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونبراته
للمدين ، والأخلاق ، والنظام ، والفن ، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال
شاملان . فالاهة الغباء المتوجة تتعاب فوق عالم مختصر :

« انها قادمة ، انها قادمة ، تأمل العرش الأسود ،
عرش الظلمة الأزلية والفوضى القديمة !
أمامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية ،
وتتلاشي كل أقواسه القزحية
بينما تأفل النجوم الذابلة نجما بعد نجم
من الأفق الأثيرى ، عند سماع لحن ميديا الرهيبة
وهكذا عند الاحساس بدنوها ، وخشية جبروتها الخفى ،
ينطفئ الفن تلو الفن ، وتمسى الدنيا ظلاما فى ظلام .
فانظر الى الحقيقة وقد هربت متسللة الى كهفها القديم ،
وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوى !
والفلسفة التى كانت من قبل تستند الى السماء ،
تنكمش الى علتها الثانية ثم تموت .
والطبيعة (العلوم) تسال ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم ؟)
وما بعد الطبيعة يستنجد بالحس الطبيعى (لوك ؟) !
وترى الأسرار الخفية تلجا الى الرياضيات (نيوتن ؟) !
ولكن عبثا نحاول ! نهى تحملق ، وتترنج ، وتهذى ، ثم تموت .
ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلا ،

وتذوى الفضيلة دون أن تدري ...
فهناك دولتك الرهيبة وقد عادت أيتها الفوضى ،
والنور ينطفئ أمام كلمتك القاتلة ،
وبدك أيتها الفوضى الجبارة تنزل الستار
فاذا الظلام الدامس بلف كل شيء (٥١) » .

ولعله حسب امحلاله هو انهيارا للكون كله . ففد كان وهو بعد
فى الخامسة والخمسين يموت من الهرم . وأصبح المشي عسيرا عليه
لأصابته بالانسقاء ، والتنفس مؤلما لأصابته بالربو . وفى ٦ مايو
١٧٤٤ أصابه هذيان كان يفبق منه فترات ، وأعرب فى أحداها عن ايمانه
بحياة بعد الموت . وسأله صديق كاثوليكي أيستدعى له كاهنا فاجاب بوب
« لست أراه ضروريا ولكنه سيكون عين الصواب ، وشكرا لأنك ذكرتى
بهذا » (٥٢) . ومات فى ٣٠ مايو ، « هادئا رابط الجأش » (إذا
صدقنا جونسن) ، « حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته » . ولم
يكن من حقه أن يدفن فى دبر وستمنستر لأنه كاثوليكي ، فوورى التراب
الى جوار أبيه وأمه فى نويكنهام .

أكان جنتلمانا ؟ لا ، فان أحقاده الفياضة بالقدرح والذم ساركت
فى تسميم هواء انجلترا الأدبى فى النصف الأول من القرن الثامن
عشر ، وقد أخرجت آلامه الجسدية أحماضا لاذعة وحرمتة العافية التى
تفيض بالحب والود على من حولها . أكان عبقرى ؟ بالطبع ، لا فى
الفكر الذى استعاره ، بل فى الشكل الذى بلغ به مرتبة الكمال فى النوع
الأدبى الذى اختاره . وقد وصفه ثاكرى بأنه « أعظم فنان أدبى شهده
العالم (٥٣) » . وفى لباقة الكلام ، وإيجاز التعبير ، وخصب العبارة ،
كان أمام عصره غير منازع . وحتى الفرنسيون قبلوه أعظم شاعر فى
جيله ، وتطلع اليه فولتير مثلا له وقلده ، كما نرى فى « أحاديثه عن
الانسان » . ولقد ظل ثلاثين عاما - أطول من أى شاعر آخر - أمير
الشعر الانجليزى ، وثلاثين عاما آخر نموذجا يحتذى الشعراء الانجليز ،
الى أن جاء وردزورت بشيرا بعصر جديد .

ونحن الذين نهول فى حياتنا اليوم رغم فراغنا كله ، نرى فى
مقطوعات بوب ، فى تشطيرها الالى ، أو فى صعودها وهبوطها

« كالارجوحة » (٥٤) القدرة على التنويم ، فلا توقظنا الا بين الحين والحين بالابجرامات ، وحتى مقالته البارعة عن الانسان ، ليس شعرا الا فى أوزانه وقوافيه . والصنعة فيه ظاهرة فوق ما ينبغى ، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه . كذلك غفل عما نبه اليه هوراس من أن الشاعر لابد أن يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله ؛ وقد شعر بوب ، ولكن غالبا ليحتقر ويسب ؛ وقد افتقد الاحساس بالجمال نحو الأفعال النبيلة أو اللطف الانثوى . واستنفذ خياله فى العثور على ألفاظ رقيقة ، بتارة ، مركزة ، لأفكار قديمة ؛ فلم يتناول ليمسك بالأشكال المثالية التى تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة . ولم تعطه الأجنحة سوى أحقادها .

وهو لم يزل الى اليوم الرمز الشعرى الأكبر لعصر انجلترا الأوغسطى - الذى يجوز ان نرسم حدوده بعمره ، ١٦٨٨ - ١٧٤٤ . ومعرفة الذهن الانجليزى المتزايدة بعيون الأدب اليونانى والرومانى ، وبمسرحية « القرن العظيم » الفرنسية ؛ وتأثير الارستقراطية - تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة - فى الحديث ، والعادات ، والألفاظ المهدبة ، ويسر السلوك وإطفه ؛ وانتقاض العقل والواقعية على الشطح الاليزابيثى وعلى التدين البيورتنى المتزمت ، وانتقال المعايير الفرنسية الى انجلترا مع عودة الملكية ، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة - كل أولئك تضافر لاختضاع أشكال الشعر الانجليزى السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية . وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال ، فبينما غزا الشعر فى انجلترا الاليزابيثية النثر ولونه ، نرى النثر فى انجلترا الأوغسطية يحل من قدر الشعر ويغير لونه . وكان أثر هذا الأدب « الكلاسيكى الجديد » على اللغة الانجليزية حسنا وسيئا : فقد أعطاهما دقة ووضوحا ورشاقة جديدة ، ولكنها خسرت حيوية الكلام الاليزابيثى وقسوته ودفئه . وخضعت ثورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق ، ألزم بالتطابق فى الحياة ، وبالشكل فى الأدب . وهكذا استحال الشباب كهولة .

على أن الأسلوب الكلاسيكى الجديد لم يعبر الا عن شطر من الحياة الانجليزية ، فلم يكن فيه متسع للتمرد ولا للعاطفة ولا للحب .

وقام شعراء بريطانيون ، حتى أيام سلطان بوب ، نددوا بالصنعة والمنطق ، وتحولوا من العقل الى الطبيعة ، ووجدوا صوتا يعبر عن الوجدان ، والدهشة ، والخيال ، والاكتئاب المتفكر ، والامل المحزون . فبدأت بذئك الحركة الرومانسية فى ذروة عصر انجلترا الكلاسيكى .

٣ - أصوات الوجدان

لم يكن الشعر الكلاسيكى الجديد يتأمل شيئا غير عالم الكتب . فقد رأى شويمر وهوراس ، وأديسون وبوب ، رؤية أوضح من رؤيته للرجال والنساء الذين يمرون فى الشوارع ، أو الدلقس والمناظر الطبيعية التى تنفعل بها أمزجة الناس كل يوم . ولكن الأدب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلا ، وهو أن « الانسان » فكرة عامة غامضة ؛ وأنه لا وجود الا « للناس » ، المعتزين بفردبتهم الحريصين على واقعهم . وعمق الشعراء ذواتهم ولمسهم الأرض ، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واستجابتهم لها ، ويتغلغلهم الى ما وراء الأفكار ل يصلوا الى المشاعر الدفينة التى يعلنها الكلام أقل مما يخفيها . فلم يبالغوا كذبوا بالكلام واعتزموا الغناء ، وعادت القصيدة الغنائية وذوت الملحمة . وغلب الشوق الى العزاء المنبعث من الإيمان بما فوق الطبيعة ، والى الانبهار الصوفى الذى يوسع الحياة ، هجوم الربوبية على المعجزات ، والتمس بازدياد ، فى أساطير العصور الوسطى ، ورومانسيات الشرق ، والأشكار القوطية ، شيئا من الهروب من الواقع القاسى لهذه الحياة الدنيا .

وبالطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان . ألم يشد « البطل المسيحى » للكاتب ستيل (١٧٠١) بالإيمان القديم والعاطفة الرقيقة ؟ والم تركز « السمات المميزة » لشافتسبرى (١٧١٠) حياة البشر فى « العاطفة » و « المحبة » ؟ وألن يشتق المتشكك هيوم والاقتصادى سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف ؟ ولكن جيمس طومسن هو الذى ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعا عن قضية الاحساس ورقة الشعور .

وكان ابن قسيس فقير فى تلال اسكتلنده . نزل الى أدنبره ليدرس للقوسوسية ، ولكن عاقه عن غايته ادانة الاساتذة لأسلوبه لأنه شعري

بصورة لا تتفق ولغة الدين . فهاجر الى لندن ، وسرق ماله فى الطريق ،
واشرف على الهلاك جوعا ، وباع قصيدته « الشتاء » (١٧٢٦) ليشتري
حذاء (٥٥) . على أن اهداه اياها الى السر سبنسر كونتن أتاها
بعشرين جنيها ثمنا لثنائه ؛ ولا غرابة فان النبلاء الانجليز لم يكونوا
صما أو بخلاء بالقدر الذى خاله جونسون . وتصور طومس فى قصيدته
صوت النعال وهى تطحن قشرة الجليد ، وكيف :

« سمع الرياح تزار والسيل العميق يهدر ،
أو رأى العاصفة العميقة الثوران تتجمع
فى سماء المساء الكالحة ؛ »

وكيف راقب من الشاطئ الرياح وهى تحرث البحر ، وتقلب
« اليم من قاعه وقد تغير لونه » ، وتمزق المراكب من مراسبها ، وترفعها
رفعا خطرا فوق موجة وتهوى بها هويا منذرا تحت أخرى ، وتقذف
بها فوق « صخر مدبب أو مياه ضحضاحة غادرة » ثم تبددها « شظايا
متناثرة ... تطفو فى حركة دائرة » . وصور الفلاح وقد اقتنصته
عاصفة من الثلج الذى يعمى العيون ، تغوص قدماه المتجمدتان فى
الثلوج العميقة وهو يكافح فى سيره ، حتى يعجز عن رفع حذائه ، فيقع
منهوكا فريسة للموت متجمدا .

« أواده ، ما أقل ما يخطر ببال المستكبرين ، المستبيحين المرحين ،
كم من الناس يحسون فى هذه اللحظة بالموت
وكل ضروب الألم الحزينة
وكم يذوون فى الفاقة وغياهب السجون محرومين مما ينعم به
الخلق كلهم من تنسم الهواء
وتحريك الأطراف ، وكم يتجرعون كأس
« الحزن القاتل ، أو ياكلون خبز الضيق المر ، وقد اخترمت
اجسامهم رياح الشتاء ،
وكم ينكمشون فى ذلك الكوخ القذر ،
كوخ الفقر التعس » .

هنا نعمة جديدة من الشفقة تخزى « بل مل » وداوننج سترتت ،

وعودة تنعش النفس الى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن
قوافى بوب من « بهرجة تافهة » .

وشهد عام آخر ، وراع جديد لطومسن ، طبع قصيدته « الصيف »
(١٧٢٧) ؛ وفى ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة فى صيحة الحرب
على أسبانيا :

« حين انبعثت بريطانيا أول مرة
بأمر السماء من اليم الأزرق ،
كان هذا دستور أرضها ،
وتغنت ملائكتها الحارسة بهذا اللحن :
احكمى يا بريطانيا ، تسلطى على الأمواج ؛
ان البريطانيين لن يستعبدوا أبدا » .

ومن لندن راح يجول الأيام والأسابيع فى الريف ، مستوعبا بحواس
الشاعر المرهفة « كل مشهد ريفى ، وكل صوت ريفى » ، يحب « رائحة
الالبان » المنبعثة من المزارع ، وينتشي بمنظر الشمس منتصرة عقب
المطر ، أو يسبق كيتس فى اكتئابه لرأى الخريف . وهكذا نشر قصيدته
« الربيع » فى ١٧٢٨ ، وبإضافة قصيدة « الخريف » ومطلعها (« حين
تبدأ الورقة المسمومة فى الالتواء ») جمع القصائد الأربع كلها فى
ديوان « الفصول » (١٧٣٠) . وقد كوفىء بجولة فى القارة رقيقا
لتشارلز تالبوت ، ابن وزير الخزانة فى ذلك الحين . فلما عاد عاش
فى دعة ونظم الشعر الردىء الى أن مات الوزير (١٧٣٧) . وبعد أن
صاحب الفقر فترة أخرى قدموه الى ولى العهد (أمير ويلز) الذى
سأله عن أحواله ، فأجاب « انها فى وضع أكثر شاعرية من ذى قبل » .
وتلقى معاشا قدره مائة جنيه مكافأة على ملاحظته الساخرة هذه . ثم
قضى عليه برد أصيب به على التيمز ، ومات غير متجاوز الثامنة
والأربعين .

وقد قررت « الفصول » أسلوبا جديدا فى شعر انجلترا الأقل شأنا،
ووجدت أتباعا فى فرنسا ؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان - لامبير ،

الذى سرق اميلى من فولتير ، قصيدته « الفصول » (١٧٦٩) . وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمى تختال عبر القرن ، كان ادورد ينج ، ووليم كولنز ، ووليم شنستون ، ومارك اكينسايد ، وتوماس جراى ، يوسعون الطريق الرومانسى المفضي الى وردزورث وتشاترتن . أما ينج فبعد ان ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره ، عمل لآخرته بديوان شعر اسمه « خواطر لبلىة فى الحياة والموت والخلود » (١٧٤٢ - ٤٤) . وقد شجب فولتير هذا النتاج اللبلى لانه « مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة » ، ولكن ربما كان دافعه الى هذا الحكم ان ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعين قال فبهما :

« اذك مسرف فى الذكاء ، والحلاعة ، والنحول ،
حتى لنحسبك ملتن ، والموت ، والخطيئة ، مجتمعه كلها فى
رجل واحد (٥٦) » .

وأما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج ، وكتب اقل مما كتب ينج واجود منه مرتين . هرب من دعوة لاحتراف القسوسية ، وأنفق آخر دراهمه فى صقل الابيات الالف والخمسمائة التى نظمها قبل ان يجن ويموت (١٧٥٩) وهو بعد فى الثامنة والثلاثين . واجمل من قصيدته « نشيد المساء » التى ظفرت بالتقريظ القبرية التى كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة فى ١٧٤٥ :

« كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا
وفد باركتهم كل دعوات وطنهم !
حين يعود الربيع الذى بلل الندى اصابعه الباردة
لجمل ترابهم المقدس ،
هنالك بكسو بالعشب ثرى اعطر
مما وطنته اقدام الخبال .
اجراسهم ندقها ايدى الجان
ولحن الموت نرتله افواه لا ترى ،
هنالك بحضن « الشرف » ، حاجا اشبيب الشعر ،

ليبارك العشب الذى يكسو ثراهم ،
وتذهب « الحرية » برهة
لتقيم كالناسك الباكي على قبورهم » .

وأكثر من يذكر بين شعراء الوجدان هؤلاء ذلك الروح الغريب
الذى أسبغ على اكتئاب الشباب كثيرا من العبارات الرقيقة . ذلك
هو توماس جراى ، الذى كان أحد اننى عشر طفلا ولدوا لكاتب عمومى
لذدى ، مات منهم أحد عشر فى طفولتهم . ولم يتخط توماس هذه السن
الخطرة الا لأن أمه استعملت مقصها لتفتح وريده بعد أن رآته يتشنج .
فلما بلغ الحادية عشرة ذهب الى ايتن ، حيث بدأ صداقاته المشثومة مع
هوراس ولبول ورتشرد وست نم مضي الى كمبردج ، التى وجدها
« مملوءة بالمخلوقات المكتتبة والعلمين المجدبين » . وأراد أن يدرس
القانون ، ولكنه انزلق الى دراسة الحشرات وقرض الشعر ، وانتهى الى
التبحر فى اللغات والعلوم والتاريخ الى حد خنق العلم فبه شعره .

وفى ١٧٣٩ جاب أوربا مع هوراس ولبول . فلما عبر جبال
الألب فى الشتاء كتب يقول « ما من جرف ، ولا سيل ولا منحدر فيها
الا وهو مفعم بالدين والشعر » ، وفى ١٧٤٠ حين كتب من روما أدخل
الى اللغة الانجليزية كلمة جديدة هى picturesque (أى الشبيه
بالصورة الرائعة) . ولم يكن قاموس جونسن يعرف هذه الكلمة حتى
فى ١٧٥٥ . وفى ريدجو ايميليا تشاجر مع ولبول ، فقد كان هوراس
شديد الوعى بنبالته ، وتوماس شديد الفخر بفقره ، ووشي « صديق
للمطرفين » لكل منها برأى الآخر المستتر فيه ، فافترقا ، وواصل جراى
رحلته منفردا الى البندقية وجرينوبل ولندن .

وبغضه فى الحياة موت صديقه وست (١٧٤٢) فى السادسة
والعشرين من عمره . فاعتكف فى بيت عم له فى ستوك بوجز ، وهناك ،
وسط دراساته المتصلة ، كتب (١٧٤٢) « قصيدة غنائية فى نظرة من
بعيد لكلية ايتن » . اذ نظر من مسافة مأمونة الى هذه المشاهد المدرسية ،
فقد تذكر صديقه الذى قصف الموت عمره قبل الاوان ، ووراء العاب هؤلاء
الشباب ومرحهم رأى ببصر مكتئب مصائرهم الشقية :

« هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة ،

ونسور العقل الجارحة ،
والغضب المفعم بالاحتقار ، والخوف الشاحب الوجه ،
والخجل الذى يتوارى مختبئاً ؛
أو يفنى الحب المعذب شبابهم ،
أو الغيرة المكثرة عن نابها ،
التي تقرض القلب فى شغافه
والحسد الساحب ، والهم الذابل ،
والياس المتجهم الذى لا يقبل العزاء ،
وسهم الحزن الذى يخترم النفس .

انظر ، فى وادى الحياة أسفلك
تر رهطاً رهيباً ،
هم أسرة الموت المؤلمة ،
الأبشع منظراً من ملكتهم .
فهذا يحطم المفاصل ، وهذا يلهب الأوردة ،
وذاك يوجع كل عضلة مجعدة ،
وأولئك يحدثون ثورة فى الأحشاء الدفينة .
ثم ها هو الفقر أقبل ليكمل الفرقة ،
الفقر الذى يخلد الروح بيده الباردة ،
والهرم الذى يبرى الناس على مهل .

لكل انسان آلامه ، والكل بشر ،
قضى عليهم كلهم بالآنين ،
فالحنون يئن لألم غيره ،
والقاسي يئن لألم نفسه ،
ولكن واهاً لهم ! فلم يبصرون بحظوظهم ،
ما دام الحزن لا يبطئ مجيئه أبداً ،
والسعادة سربعة الهروب ؛
ان التفكير كفيل بان يدمر فردوسهم ،
فأمسك ، لأنه حيث يكون الجهل نعيماً
فمن حماقة ان تكون حكيماً .

وفى أواخر ١٧٤٢ قفل جرای الى كمبردج لیستائف دراساته .

وأرسل الى ولبول ، بعد أن اصطلحا ، (١٧٥٠) « مربية مكتوبة فى فناء كنيسة ريفية » . وداولها ولبول بين أخصائه وطبعها ناشر لص وحرفها . . وحماية لتعمره سمح جراى لددسلى بأن يصدر نسخة أفضل وان شابها النقص هى أيضا (١٧٥١) ، فى هذه القصيدة التى نعد من أروع قصائد القرن ألبس جراى الاكتتاب الرومانى لبوسا كلاسيكيا دقيق النحت ، مسندلا بمفطوعات بوب الزوجية العالية الرنين رباعيات هادئة تتحرك فى وقار نسجى الى خاتمتها الحزينة .

وفى ١٧٥٣ ماتت أمه ، فكتب لها قبرية رقيقة ، ودفن همومه فى الشعر . وفى قصيدة غنائية عن « تقدم الشعر » حيا انتقال ربات الفن والأدب من اليونان والرومان الى « ألبيون » ، واعترف بتطلعات صباه الى مباراة الشاعر بندار ، والتمس من الشعر أن يهبه عطية « العذل الذى لا يقهر » . وفى قصيدة غنائية أكثر سُموخا حنى من هذه ، واسمها « الشاعر » ، رأى جراى فى الشعراء ضربا من التكفير عن سيئات الحياة البريطانية يفضح الرذيلة والطغيان . هانان « القصيدتان الغنائيتان البنداريتان » ، اللتان نسرتهما مطبعة ولبول فى ستروبرى هل ، بلغتا فى افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيلة مبلغا جعل فهمهما عسيرا على القراء الا الراسخين منهم فى الأدب . وقد لف جراى نزوعه هذا للعزلة فى ثوب من الكبرياء فقال « ما كنت لأضيف حاشية (تفسيرية) أخرى لأنقذ أرواح جميع البوم الذين فى لندن . ان الوضع الراهن حسن جدا - فلا أحد يفهمنى ، وأنا راض بهذا تمام الرضى . وكان البوم معتادا على مثل هذا الصغير فى الظلام .

واذ انكفا مكتئبا الى غرفته ببيتر هاوس فى كمبردج يعانى من فقر وتهيب منعاه من الزواج ، ومن حساسية شديدة قعدت به عن نضال الحياة ، فقد أمسى انسانا منطويا محزونا ؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة ، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره ، وعرفوا فيه الخوف من النار ، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق . وفى رواية مختلف عليها انه أدلى نفسه من النافذة وهو فى قميص النوم وانزلق على حبل - ليقع فى حوض ماء وضعه العابثون ليتلقاه (٥٨) . وفى ١٧٦٩ جاب اقليم البحيرات الانجليزية ، وفى اليومية التى كتبها (بخط غاية فى الجمال) جعل انجلترا تدرك لأول مرة جمال ذلك الاقليم . وفى جولة أخرى

بمالفيرن تلقى نسخة من قصيدته « القرية المهجورة » (لجولدسمث) فقال « هذا الرجل شاعر » ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته ، ثم لحياته بعد قليل (١٧٧١) .

وطبقت شهرته الآفاق حيناً . فانعقد الأجماع فى ١٧٥٧ على أنه يقف على قمة الشعراء الانجليز ، وعرضت عليه امارة الشعر فرفضها . وقال فيه كوبر متخطيا ملتن « انه الشاعر الوحيد بعد شكسبير الذى يحق له أن ينعت شعره بالسمو » . اما آدم سميث فأضاف متخطيا شكسبير « ان جراى يضيف الى سمو ملتن أناقة بوب وتناغمه ، ولا ينقصه شيء ليكون - ربما - أول شاعر فى اللغة الانجليزية ، الا أن يكون قد نظم شعرا أكثر قليلا مما فعل (٥٩) » . وأعجب جونسن بالمرثية ، ولكنه كان يملك من العلم ما جعله يجد عشرات العيوب فى القصائد الغنائية . « ان لجراى ضربا من الوقار المختال ، وهو طويل القائمة بفضل مشيه على أطراف أصابعه وانى لأعترف أننى أتأمل شعره برضى أقل مما أتأمل حياته (٦٠) » .

ونستطيع أن نقاب هذه الحكمة مطمئنين . فقد كانت حياة جراى تعسة لا اغراء فيها ، من شجاره مع ولبول الى قصة الحوض . وكانت أنبل أحداثها ثلاث قصائد أو أربعا ستظل أجيالا كثيرة من ادمغ البراهين على « تقدم الشعر » من اليونان والرومان الى البيون .

٤ - المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع فى نصف القرن هذا الذى نحن بصددده ؟ كان أهمها مسرح درورى لين . ثم (من ١٧٣٣) كوفنت جاردن ؛ وكان هناك مسارح صغيرة فى لنكولنز ان فيلدز وجودمانز فيلدز ، وكان فى هيلماركت « مسرح صغير » للتمثيليات الهزلية ، « ومسرح جلالة الملك » للاوبرا ؛ وبلغت جملة المسارح فى لندن مثلى عددها فى باريس . وكانت حفلات التمثيل تبدأ فى السادسة مساء . أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ أيام عودة الملكية ، فتحول « المجتمع الراقى » الآن عن المسرح الى الاوبرا . وكان المتفرجون المحظوظون أو الأثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح . واتسع

« قاع » المسرح وأعلاه لقراءة ألفى شخص جالسين ؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى ، وقررت بتصفيق الاستحسان استقبال التمثيليات ونوعيتها ؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية . واستولت النساء على كل الادوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال ؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثال كتي كلايف ، وبج ووفنجتن - النى رسمها هوجارت ، وحاك تشارلز ريد رواية حولها .

ولقد قال جاريك ، بما ان « هواية الممثلين الاولى ، والعظمى ، والمسيطره ، هي الأكل (٦١) » فانهم فضلوا التمثيليات المتبلة بالجنس . وقال آدمز ، القسيس الذى رسمه الروائى فيلدنج : لم أسمع قط بتمثيليات تصلح لأن يقرأها مسيحي الا تمثيليات أديسون ، ورواية ستيل « العشاق الواعون » . على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة (٦٢) . وقد وصف فولتير المسارح فى انجلترا بأنها « مجردة من اللياقة » . وناشد السرجون برنارد مجلس العموم فى ١٧٣٥ بأن يكبح شيئاً من جماح المسارح ، وزعم أن « الأمة البريطانية ... أصبحت شديدة الادمان على الملاهى الداعرة العاطلة ... حنى لقد أدهش أوربا كلها أن يتقاضي السنيورات والخصيان الايطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة (٦٣) » . ولم يفعل أحد شيئاً فى أمر المناظر والعبارات الخليعة ، ولكن حين سخر فيلدنج وجاى المسرح للهجو السياسى فهاجما روبرت ولبول وجورج الثانى ، استصدر الوزير ، المتسامح عادة مع المعارضة ، بطريق البرلمان قانون الرخص (١٧٣٧) ، الذى وجه أمين البلاط الى المزيد من التشدد فى منح الأذن بالحفلات المسرحية ★ .

وقد غالى ديدرو فى « موسوعته » فى الثناء على مسرحية « التاجر اللندنى » ، التى أخرجت بلندن فى ١٧٣١ ، والتى أثارت اهتمامه لأنها المسرحية التى أدخلت مأساة الطبقة الوسطى الى المسرح البريطانى . وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أرست مبدءاً مؤداه أن المأساة وقف على الارستقراطية ، وأنها تفقد مقامها ووقارها ان هى نزلت

★ هذا القانون بصيغته المعدلة فى ١٨٤٣ مازال قانونا بريطانيا ، ولكنه يطبق بتساهل كبير .

الى المشاهد البورجوازية . وقام جورج ليلو بمغامرة مزدوجة ؛ أنزل الماسة الى بيت تاجر ، وكتبها نثرا . فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود يعتز « بكرامة مهنتنا » ويتق بأنه « لما كان اسم التاجر لا يشين الجنتلمان أبدا ، فهو اذن لا يقصيه اطلاقا عن المجتمع الراقى » . والفكرة فى المسرحية هى تدمير حياة صبي تاجر على يد غانية أغوته ، والموضوع موشي بالحض على مكارم الاخلاق ومطوف فى العاطفة الرقيقة . وقد صفت للمسرحية دافئة وسطى أبهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليا معروضة على مسرح بريطانى . ورحب بها ديدرو وحكاها فى حملته لأدخال « الماسة البيتية والبورجوازية » فى المسرح الفرنسى . ونقل لسنج نبرتها فى « الآنسة سارا سامبسن » (١٧٥٥) . وهكذا راحت الطبقات الوسطى تؤكد ذاتها فى الأدب كما تؤكد فى السياسة .

أما فى اسكتلنده ، فقد أجاج النار تحت قدر الدراما جون هيوم ، الذى أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته واخراجة تمثيلية « دجلاس » (١٧٥٦) ، وهى أنجح مأساة فى زمانها . وقد حياه ابن عمه ديفد هيوم فى ذوبة من الحماسة المتدفقة لا تكاد تليق بفيلسوف ثاك ، فقال انه « تلميذ صادق لسوفوكليس وراسين قد يوفق فى الوقت المناسب لتبرئة المسرح الانجليزى من تهمة الهمجية (٦٤) » . فلما رفض جاريك المسرحية ، رتب هيوم ، ولورد كيمس (هنرى هيوم) ، و « المعتدلون » من رجال الدين الاسكتلنديين اخراجها فى ادنبره ، وقام ديفد ببيع التذاكر . وكان الحدث نصرا لآل هيوم جميعا ولباقى اسكتلنده ، لأن جون هيوم حول أغنية شعبية اسكتلندية قديمة الى دراما وطنية ملأت عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح ، اللهم الا هيئة شيوخ الكنيسة بادنبره ، التى نددت بهيوم لأنه جلب العار على ردائه ، وذكرته « بالراى الذى كانت الكنيسة المسيحية تراه دائما فى تمثيلات وممثلى المسرح لأضرارهم بالدين والفضيلة (٦٥) » . ثم صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس آخر يدعى الكسندر كارلبل لحضوره التمثيل . أما ديفد هيوم الذى اضطرر بالخيرة على قربه فقد أهدى « المقالات الأربع » لابن عمه ، وكتب اتهامها حارا لاتعجب . واستقال جون من قسوسبته ، وذهب الى لندن ، وتهده مسرحيته « دجلاس » تخرج ، وعلى رأس ممثلاتها بج ووفزجتن (١٧٥٧) . هناك أيضا انتصرت المسرحية ، واحتشد

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها ، وفى نهاية هذه الحفلة الافتتاحية فى لندن هتف اسكتلندى من أعلى المسرح « اخسأوا يا قوم : فما قولكم الآن فى ويلى شكسبيركم (٦٦) ؟ » وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلا بأكمله ، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون « كاتو » . وحين مثلتها المسز . بيدونز بادنبره فى ١٧٨٤ ، اضطر المجمع العام للكنيسة « الى توقيف الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها ، بحيث يجتمع فى الابام التى لا يمل فيها (٦٧) » .

أما اطرب نجاح حفقه المسرح اللندنى فى هذه الفترة فكان « أوبرا الشحاذ » . وقد بدأ مؤلفها جون جاى حياته صعبا فى متجر ، وارتقى حتى أصبح سكرنيرا لأيرل كلارندن ، وواحدا من أكثر أعضاء نادى « سكرليروس » حيوية ومرحا . وقد وصفه بوب بأنه :

« دمث الطبع ، رقيق العاطفة ،
فى ذكائه رجل ، وفى بساطته طفل ؛
مفطور على مرج يخفف من غزبه للحق ،
مخلوق ليبهج العصر ويسوطه معا (٦٨) » .

وقد وضع جاى بصمته على المسرح عام ١٧١٦ بتمثيلية « تريفيا أو فن التسكع فى شوارع لندن » . فقعة عجلات المركبات على أحجار الرصف ، والسائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان ، و « الصبية الموحلة » تحمل السمك الى بلنجزجيت ، وهدوء « بل مل » بسيداته المعطرات يتكئن على أذرع العشاق ، والسائر يشق طريقه الملتوى وسط مباراة فى كرة القدم تسد الشارع ، واللصوص المهذبون « يخفون جيبيك من أثقالة بأصابع لا تحس » ، والحارس الضخم يهدى خطاك المضطربة بمصباحه المرشد الى الطريق الأمين « ويقودك الى بايك ؛ كل هذا وأكثر منه يجده فى « تريفيا » من يريد أن يتصور لندن فى ١٧١٦ .

وفى ١٧٢٠ نشرت « قصائد » جاى بنظام الاكتتاب ، فوافته بألف من الجنيهات خسرهما فى انهيار شركة بحر الجنوب . وخف بوب وغيره لنجدته ، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام ١٧٢٨ بتأليفه « أوبرا الشحاذ » . وتقدم لنا مقدمتها الشحاذ ، الذى يقدم لنا بدوره أوبراه .

وتبدأ بأغنية شعبية يغنيها بيتشوم ، الذى يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانون بالابلاغ عن اللصوص (اذا رفضوا خدمته) ، ولكنه فى حقيقة الأمر يتجر فى البضائع المسروقة . ويصف نفسه بالرجل الأمين لأن « كل أصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض » ، ويحدوهم الجشع للربح . ويفسد عليه أمره ان ابنته بولى وقعت فى غرام قاطع الطريق الوسيم الأنيق الكبتن ماكهيث ، وربما تزوجته ، ومن شأن هذا الغرام أن يعطل تسخير مفاثن بولى فى ملاطفة المشترين والبائعين ورجال الشرطة . وتطمئنه المسز بيتشوم قائلة :

« بحقك لم يجب أن تختلف ابنتنا بولى عن غيرها من بنات جنسها ، فلا تحب الا زوجها ، ولم يجب أن يقتل زواجها من ملاحقة الرجال الآخرين لها ، على عكس ما نلاحظه فى كل مكان ؟ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزيد من حبهم للمرأة أن تكون ملكا لغيرهم (٦٩) » .
على أن الأم تحذر ابنتها قائلة :

« لست أعارض يا بولى ، كما تعلمين ، فى أن تعبث قليلا مع زبون خدمة للعمل ، أو سبيلا لاستخلاص سر أو نحوه ، ولكنى سأقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى ، وتزوجت . أيتها اللعوب » .

وتعتذر بولى عن زواجها فى أغنية شعبية :

« أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام ؟

أيطيع كيوييد أمهاتنا ؟

لو كان قلبى باردا كالثلج

لذاب من لهيب ناره .

حين قبلنى ضمنى بشدة

وكان عناقه حلوا فلم أملك غير الامتثال ،

ورأيت أسلم وأفضل

أن أتزوج مخافة لومك وتقريعك (٧٠) » .

ويشتعل غضب بيتشوم ، وهو يخشى أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما من طريق بولى . فيبيت أن يشي بماكهيث لرجال القانون

ليشبقوه دون ريب . ويطهر ماكهيت على المسرح ، ويهدى روع بولى بعناقه ، ويؤكد لها أنه منذ الآن سيكون ملكا لها دون غيرها من النساء :

« لقد كان قلبى طليقا
يتنقل كالنحلة ،
حتى سلبت بولى لى
كنت أرشف رحيق كل زهرة ،
وأتقلب كل ساعة ،
ولكن هنا اجتمعت كل الزهور فى واحدة » .

وتضرع اليه أن يقسم أن يأخذها معه اذا نقل . فيقسم قائلا
« أفى استطاعة أى قوة ... أن تنتزعنى منك ؟ أيسر من هذا أن
تنتزعى راتبا من رجل بلاط ، أو اتعابا من محام ، أو امرأة جميلة
من مرآة » ثم يشتركان فى ثنائية جميلة :

« هو ... لو ألقيت على شاطيء جرينلند ،
واحتضنت فتاتى بين ذراعى ،
دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي
لانقضي سريعا ليل نصف العام .
هى ... لو باعونى فى أرض الهند
لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق
أن أهزأ بالكدح فى القيظ الشديد
ما دمت أستريح على صدر فائضى .
هو ... ولأحببتك اليوم كله ،
هى ... ولتعانقنا ولعبنا كل ليلة ،
هو ... لو سرحت معى فى هيام
هى ... فوق التلال ، بعيدا جدا » .

وتبوح له بان أباه يدبر تسليمه للقانون ، وتطلب اليه فى أسي
أن يختفى برهة . فينصرف ، ولكنه يتوقف فى حانة ليعطى أعوانه
تعليماته بشأن احدى سرقاته . فاذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

الحانة ، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به ، فيسرقن مسدسيه وهن يدللذه ، ثم يستدعين الشرطة ، ونراه فى سجن نيوجيت فى المنظر التالى . هناك تتنافس عليه بولى واحدى زوجاته ، وتحررانه من السجن ، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل الى المشنقة ، وفى طريقه اليها يعزى نساءه بهذه الأغنية :

« وداعا اذن يا حبى - وداعا يا ساحراتى العزيزات !
انى أموت راضيا - وهذا خير لكن .
هنا ينتهى كل نزاع طوال ما بقى لنا من حياة ،
لأننى بهذا أرضي زوجاتى أجمعين (٧١) » .

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف ، ويفخر بأنه جعل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب ، كما هى الحال فى جميع التمثيليات اللائقة ، ولكن ممثلا يعترض بأن « الأوبرا يجب أن تنتهى نهاية سعيدة » (لشد ما تتغير العادات !) . ويذعن الشحاذ ، وينقذ ماكهيث من حبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولى ، ويرقص الجميع حولهما ، بينما يتساءل الكبتن ، أتراه لقى مصيرا شرا من الموت .

وكان من حسن حظ جاى أن أفاد من خدمات يوهان بوش ، وهو مؤلف موسيقى المانى يقطن انجلترا ، واختار بوش موسيقى لأغانى جاى من الالحن الانجليزية القديمة ، وكانت النتيجة رائعة . فقد استجاب الجمهور بحماسة فى حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز ان فيلدرز (٢٩ يناير ١٧٢٨) رغم ما جاء فى المسرحية من هجو للرشوة والنفاق . واستمر عرضها ثلاثا وستين ليلة متوالية ، وفاقت فى هذا كل ما سبقها من تمثيليات ، وعرضت عروضاً طويلة فى كبرى المدن البريطانية ؛ ومازالت تشغل المسرح فى قارنتين ، وقد حولت الى فلم من أبهج الافلام فى عصرنا . أما الممثلة التى قامت بدور بولى فقد أصبحت معبودة الفتيان الطائشين المرحين ، وتزوجت دوقا . ولكن رجلا من رجال الكنيسة الشديدة الاحتفال بالطقوس ندد بجاى لأنه جعل قاطع طريق بطلا لتمثيلته ، ولأنه تركه يفلت من العقاب . فلما حاول جاى أن يخرج تنمة للتمثيلية سماها « بولى » رفض كبير الأمناء الترخيص

بها . فنشرها جاي ، وراجت ، وتصاعدت حصيلة « أوبرا الشحاذ » تصاعدا سارا ، حتى قال ظريف ان التمثيلية جعلت جاي غنيا (rich) وجعلت رتش (المدير) مبتهجا (gay) . وبعد أربع سنوات من انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته .

٥ - الرواية

كان الحدث البارز فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة هو ظهور الرواية الحديثة . فروايتا « كلاريسا » و « توم جونز » من الناحية التاريخية أهم من أى قصيدة أو مسرحية انجليزية فى ذلك العهد . ومنذ عام ١٧٤٠ ، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط الى الشعب ، ومن الافعال الى الأحاسيس ، حلت الرواية محل الدراما صوتا ومرآة لانجلترا .

أما القصص فكانت قديمة قدم الكتابة . فلهند حكاياتها وخرافاتها ؛ واليهودية ضمنت أدبها أساطير لراعوث واسثير وأيوب ؛ واليونان الهلنستية والأقطار المسيحية الوسيطة أخرجت رومانسيات مغامرة وحب ، وإيطالية النهضة أنتجت آلاف « النوفلى novelle » (أى المستحدثات الصغيرة) ، كما فى بوكاتشو وبانديلو ، وأسبانية النهضة وانجلترا الاليزابيثية كتبتا حكايات تشرد لاوغاد رائعين ، وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطول كثيرا من الحب . وقص لساج قصة جيل بلاس ، وجود ديفو حكاية المغامرة بيانا لشجاعة الانسان ؛ وسخر سويفت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر .

ولكن اكانت هذه الآثار روايات بمعناها الحالى ؟ لقد أشبهت قصص القرن الثامن عشر فى كونها حكايات خيالية ، وامتاز بعضها بميزة الطول الذى لا شك فيه ، وصور بعضها الشخص بجهد يحاول تجسيد الواقع ؛ ولكنها (ربما باستثناء كروسو) افتقدت الحبكة التى تربط بين الأحداث والشخص فى كل متطور . لقد كان فى قصة « الأورونوكو » للسيدة أفرا بن (١٦٨٨) ، وهى قصة عبد أفريقى ، حبكة رابطة ، وكذلك قصص ديفو « الكبتن سنجلتون » (١٧٢٠) ،

و « مول فلاندرز » (١٧٢٢) ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينها . فلما ملك رتشردن وفيلدنغ ناصية فن التطوير هذا ، وصورا الشخصية وهى تنمو خلال الأحداث ، وجعلا رواياتهما تصور العادات فى عصرنا ، كان هذا استهلالا للرواية الحديثة .

١ - صموئيل رتشردن : ١٦٨٩ - ١٧٦١

كان الرجل الذى استهل عصر الرواية الجديدة ابن نجار من داربيشير انتقل الى لندن عقب مولد صموئيل . وكانت الأسرة ترجو أن تجعل الصبى قسيسا ، ولكن الفقر عافها عن تاهيله التاهيل المدرسي المطلوب ؛ على أنه وفق فى أن يضمن كتبه شيئا من الوعظ . وكان الوسط الذى شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية . والحق صبيا لطباع ، وأعانه اشتهاره بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه الرسائل للفتيات الأميات اللاتى أضناهن الحب ، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذى اتخذته رواياته ، أعنى شكل الرسائل ، وما أفاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسبر لعواطفها . وأفاده جده واقتصاده ، فأنشأ مطبعة خاصة به ، وتزوج ابنة مخدمه السابق (١٧٢١) ، وأنجب منها ستة أطفال ، مات منهم خمسة فى حداثتهم . كذلك ماتت أمهم (١٧٣٠) وهى ما تزال صغيرة السن محبوبه ، وأعانت هذه الاحزان على خلق مزاجه الذى تغلب عليه الكآبة . وتزوج ثانية ، وأنجب ستة أطفال آخرين ، واكتوى بمزيد من الاحزان ، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم . وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتابا .

وفى ١٧٣٩ كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشدا « للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهم على التحرير بأنفسهم » ، ومعلما فى « التفكير والتصرف بصواب وحكمة فى الشؤون العادية لحياة الانسان (٧٢) » . وبينما كان رتشردن يعد هذا الكتاب - وهنا اغتنمت العبقرية فرصة الظرف - خطر له أن ينسج سلسلة من الرسائل فى قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة فى بطلتها العذراء . ولعل

الموضوع ، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات ، قد أُوحيَت به قصة « حياة ماريان » (١٧٤١ - ٤١) التي ألفها الكاتب الفرنسي ماريفو . أيا كان الأمر ، فإن رتشرسن أقام في نوفمبر ١٧٤٠ معلما على طريق الأدب الانجليزي بإصداره كتابا في مجلدين سماه « باملا ، أو الفضيلة التي كوفئت ؛ سلسلة من الرسائل العائلية من آنسة شابة جميلة الى أبويها ؛ منشورا لأول مرة ليربى مبادئ الفضيلة والدين في عقول الشباب من الجنسين » وراج الكتاب ، وأصاف اليه رتشرسن مجلدين آخرين في ١٧٤١ ، « باملا في أسى حالاتها » ، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها .

وما زال نصف القصة الأول طريفا ، لأننا لا نكبر أبدا على استطرفنا لقصص الاغواء - وان كان كل شيء حتى الاغواء يصبح مملا بعد ألف صفحة . ويبدأ التركيز على العاطفة في الصفحة الأولى ، حيث تكتب باملا « أواه ! لكم تذرف عيناى الدمع مدرارا ! لا تعجبا اذا رأيتما الورق شديد التلوث » . وهى مثال الطيبة والتعذيب والتواضع . فلما أرسلت خارج الأسرة لى « تخدم » وهى فى السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال « لأن العناية الالهية لن تتركنى فى عوز ... فاذا حصلت على المزيد فانى واثقة بأنه من واجبى ، وسيكون موضع اهتمامى أن أحبكما واعتز بكما ، لأنكما أحبيتمانى واعتزتما بى حين لم كن أقوى على صنع شيء لنفسي (٧٣) » . أما الابوان الحذران فيرفضان انفاق المال حتى يطمئنا الى أنه ليس عربونا يدفعه مخدموها الأعزب لوصالها . وينبهانها الى أن جمالها يعرض عفتها للخطر « اننا نخاف - نعم ، يا بنيتى العزيزة ، اننا نخاف - لئلا تشتطى فى عرفان الجميل ، فتكافئيه بتلك الجوهرة ، بفضيلتك ، التي لا يستطيع مال ... أن يعوضك عنها » . فتعهما بأن تكون حذرة وتضيف « ما أجمل فعل الخير ! انه كل ما أحسد عليه العظماء » . وعواطفها جديرة بالاعجاب وان فقدت بعض فتنتها لأنها تصرح بها . وفى مأساة متفاقمة يدخل مخدموها مخدمها دون التمهيد الواجب ، ويضمها الى صدره المضطرب . فيغشي عليها ، وتفسد خطته . فلما أفاق « وضعت يدي على فمه وقلت : أواه ! قل لى ، ولكن لا تقل لى ، ماذا عانيت أنا فى هذه المحنة ؟ (٧٤) » . فيؤكد لها أن مقاصده

أخفقت . واذ تقدر ما ينطوى عليه اشتهاؤه لها من تحية ، تتعلم شيئا فشيئا أن تحبه ، وتعد المراحل التى تتدرج فيها عاطفتها من الخوف الى الحب ، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التى تدعم شهره رتشردسن كاتباً سيكولوجياً . على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك ، وينتهى به الحال الى الانهيار ، فيعرض عليها الزواج . واذ أسعد باملا انها انقذت فضيلتها وروحه ، فانها تعتزم أن تكون زوجة انجليزية مثالية : تلزم بيتها ، وتجنب الحفلات الفخمة ، وتمسك حسابات الأسرة بعناية ، وتوزع الصدقات ، وتطهو الهلام والكعك والحلوى والفاكهة المحفوظة ، وتكون شاكراً اذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطاً السلم الدلبقى اليها . ويختتم رتشردسن المجلد الثانى بعظة فى فوائد الفضيلة فى المساومة بين الجنسين ، « ان ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه اذا أوحى (فضيلة باملا) بالقدوة المحموددة فى عقول أى أشخاص أفاضل ، قد يكتسبون بهذا حقاً فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب اللواب والثناء والبركة » .

وأضحك هذا بعض الانجليز ، مثل فيلدنج القوى الصب ، ولكن آلاف مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبها فى تعاطف . وأطرى رجال الدين الكتاب ، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعامات لعظاتهم فى أدب بدا أنه باع نفسه لرئيس الشياطين (بعليزبول) . ونفدت أربع طبعات من باملا فى ستة أشهر . وبالطبع حث الناشر رتشردسن على مزيد من التنقيب فى هذا المنجم الغنى ، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق ، ثم ان صحته بدأت تعتل . فقريث ، ومضى فى أعماله الطباعية . ولم يخرج رائعته التالية التى جاءت باوروبا البورجوازية كلها عند قدميه الا عام ١٧٤٧ .

وقد صدرت هذه الرائعة ، واسمها « كلاريسا ، أو تاريخ شابة » وطولها ألفا صفحة ، فى سبعة مجلدات ، ما بين نوفمبر ١٧٤٧ وديسمبر ١٧٤٨ . وكان قد ساء اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجرد خطة للمساومة ، وأنها صورت فاسقاً صلحت حاله تصويرها لزوج صالح ، لذلك عمد الى اظهار الفضيلة هبة الهية سوف تثاب فى السماء ، واظهار فاسق سادر فى غيه مقضيا عليه لا محالة بنهاية سيئة مدمرة ،

وخلصة القصة ان لفليس الطائش الذى اشتهر بانه شيطان مع النساء ، يطلب يد كلاربسا هارلو ، فلا تثق به ، ولكنها مفتونة أشد الفتنة بشهرته . وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتغلق أبوابها فى وجهه ، وتعرض عليها مستر سومز ، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شخصية ، فترفضه ؛ ولكى يكرهوها على الأذعان يويخونها ويعذبونها ويحبسونها . ويسناجر لفليس مساعدا ليزيف هجوما مسلحا عليها من أقاربها ؛ ولكى تفر منهم تسمح له بختفها الى سانت البانس . وهى راغبة فى الزواج منه ، ولكنه يرى فى هذا مغامرة يائسة جدا . فيكتب لصديق له :

« ... كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبار ، وهو أننى متى تزوجت مرة أصبحت متزوجا مدى الحياة . تلك هى المصيبة ! لو أن الرجل استطاع أن يفعل كما تفعل الطير ويغير (زوجته) كل عيد من أعياد القديس فالنتين .. لما كان فى الأمر بأس على الإطلاق ... وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضاء على .. أربع أو خمس كبائر فظيعة : هتك العرض ، الذى يطلق عليه هذه التسمية السوقية ، والخيانة الزوجية ، والزنا ؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات ، وستمتنع كثيرا جرائم القتل والمبارزة ، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهى العلة فى أعمال العنف المفزعة) ... ولن تكون هناك امرأة عاقر ... فكل الجنسين سيحتمل الآخر ، لأن فى استطاعتهما ان يرمى كل منهما مصلحته بعد بضعة أشهر ... وستزدحم الصحف بفقرات تعنى بتعارف المحبين . عندها لن يكون التميز جميلا جدا يا جاك ؟ تماما كما فى الزهور ، فهذا السيد ، أو هذه السيدة ، اما موسمى (أو موسمية) ، واما مستديم (أو مستديمة) (٧٥) » .

ويحاول اغواء كلاربسا ، فتنذره بأنها قاتلة نفسها ان لمساها ، فيحبسها حبسا خسيسا وان تلتطف معها فيه ، وترسل خلاله الرسائل المفعمة حزنا لانا هاو ، صديقتها التى تاتمنها على سرها . أما هو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معاقل دفاعها ، فتقاومه ، ولكنها

تري أن عرضها تلوث تلوثا لا براء منه لأنها قبلت نصف قبول أن تهرب معه . وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارعة إليه أن يغفر لها بل أن يسحب اللعنة التي استمطرها عليها ، والتي تعتقد أنها ستقفل في وجهها أبواب الجنة الى الأبد ، ولكنه يأبى ، فتصيبها علة مدمرة لا يسندها فيها غير إيمانها . أما لفليس فيختفى في فرنسا ويقتل في مبارزة بيد عم كلاريسا ، وأخيرا يأتى أبواها عارضين عليها المغفرة ، فيجدانها ميتة .

إنها قصة بسيطة ، طال عزفها على نغمة واحدة طولا لا يمكن أن يشد عقولنا المحمومة ، ولكنها أصبحت في انجلترا القرن الثامن عشر مثار خلاف قومي . فكتب مئات من القراء الى رتشردسن في فترات الفشر يتوسلون اليه الا يدع كلاريسا تموت (٧٦) . ووصف أحد الآباء بناته الثلاث بأنهن « في هذه اللحظة تمسك كل مذهب بمجلدها الخاص (من كلاريسا) ، وعيونهن كلها بللها الدمع كأنها زهرة مخضلة في الربيع (٧٧) » . أما الليدى ماري ورتلى مونتاجيو ، التي بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الانجليزيات من علم وثقافة ، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير ، ولكنه أذى ذوقها الارستقراطى . قالت :

« كنت تلك الحمقاء العجوز التي بكت على كلاريسا هارلو كما تبكى أى بائعة لبن فى السادسة عشرة لسماعها أغنية « سقوط السيدة » الشعبية . والحق أن المجلدات الأولى الآنتنى بما حوت من شبه كبير بأيام صباى ، ولكن الكتاب فى جملة بضاعة غثة . . . ان كلاريسا تتبع قاعدة الافضاء بكل أفكارها لكل من تراه ، وقد غاب عنها أن أوراق التين فى وضعنا البشرى الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لأجسامنا ، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا ، تماما كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا (٧٨) » .

وألحت نساء انجلترا الآن على رتشردسن المنتصر فى أن يصور لهن رجلا مثاليا كما صور المرأة المثالية - فى ظنهن - فى باملا . فتردد أمام هذه المهمة الشائكة ، ولكن حفزه اليها هجو فيلدنج لباملا فى روايته

« جوزف أندروز » ، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التي رسمها فيلدنج لرجل في روايته « توم جونز » ، وعليه فقد أخرج بين نوفمبر ١٧٥٣ ومارس ١٧٥٤ ، في مجلدات سبعة ، « قصة السر تشارلز جرانديسن » . ومزاج عصرنا الذي لا يبالي يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحا عظيما كما لقيت أختاها من قبل ؛ فانتقاض القرن العشرين على البيورتانية ، وعلى التوفيق الذي حاوله العصر الفكتوري الوسيط ، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثالية ، على الأقل في الذكور ؛ فقد لقينا رجالا طيبين ، ولكن أحدا منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طيبته . ولقد حاول رتشرdsn أن يجعل السر تشارلز ببعض الهنات ، ولكننا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا . أضف الى ذلك أن الفضيلة تفقد فتنتها اذا عرضت على الانظار . ولقد أفلت جرانديسن بالجهد من أن يسلكه صانعه في زمرة القديسين .

والبحر رتشرdsn على الوعظ الحاحا جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الأدبي . فأنعدمت أو كادت الفكاهة والنكته الذكية عنده ، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل في أشياء بعيدة الاحتمال (كتذكر العدد الهائل من الأحاديث) ، ولكنها أتاحت له عرض الأحداث نفسها من مختلف وجهات النظر ، وأضفت على الحكاية ألفة لا تكاد تنيسر في شكل أقل ذاتية . وكان مما يتمشي تماما مع العرف في ذلك العصر أن يكتب الانسان الرسائل الطويلة الحميمة الى من يثق بهم من ذوى القربى أو الاصدقاء . ثم ان طريقة الرسائل هذه أفسحت المجال أمام موهبة رتشرdsn الكبرى - وهى عرض خلق المرأة . هنا أيضا توجد عيوب . فعلمه بالرجال أقل من علمه بالنساء ، وبالنبلاء أقل من العامة ، وقل أن لقط ما فى النفس الانسانية من تقلبات وتناقضات وتطور - ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للسلوك الانسانى . وفى هذه الروايات ولد القصص السيكولوجى الانجليزى والنزعة الذاتية التى بلغت فى روسو مبلغ الحمى .

وتقبل رتشرdsn نجاحه فى تواضع وواصل عمله طباعا ، ولكنه بنى لنفسه بيتا أفضل . وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيرة من النساء ، كان بعضهن يدعوه « بابا العزيز » - وفى أخريات عمره

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية غصبية وأرقا . وفى
٢ يوليو ١٧٦١ قضت عليه اصابة بالفالج .

وكان تأثيره الدولى أعظم من تأثير أى انجليزى آخر فى عصره
باستثناء وسلى وبت الأب . وقد أعان فى وطنه على صوغ المزاج
الخلقى لانجلترا جونسن ، وعلى الارتفاع بأخلاقيات البلاط بعد جورج
الثانى . وأسهم التراث الخلقى والأدبى الذى خلفه فى تكوين رواية
جولدسمث « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ورواية جين أوستن « العقل
والوجدان » (١٨١١) . أما فى فرنسا فقد عد كابسا لا ضريب له فى
القصة الانجليزية . يقول روسو « لم تكتب قط فى أى لغة رواية نعدل
أو حتى تقترب من كلاريسا (٧٩) » . وقد ترجم الأبيه بريفوست
رتشردسن ، ومسرح فولتير باملا فى « نانين » وصاغ روسو « هلويز
الجديدة » على غرار كلاريسا موضوعا وشكلا وهدفا خلقيا . وارتفع
ديدرو الى المناجاة المفرطة الحماسة فى مقاله « تقرىظ لرتشردسن »
(١٧٦١) ، فقال انه لو أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها
الا بهومر ويوربيديس وسوفوكليس ورتشردسن . وفى ألمانيا ترجم
جيلبيرت باملا ، وحاكاها ، وبكى تأثرا من جرانديسن (٨٠) ؛ وانتشي
كلوبشتوك طربا بكلاريسا ؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جرانديسن ؛ وراح
الالمان يحجون الى بيت رتشردسن (٨١) . وفى ايطاليا مسرح جولدونى
قصة باملا .

واليوم لا يقرأ أحد رتشردسن الا مضطرا بحكم الدرس ، ونحن
لا نملك الفراغ الذى يتسع لكتابة رسائل كهذه ، فضلا عن قراءتها ؛
والناموس الأخلاقى الذى يدين به عصر صناعى داروينى يهرب فى
ضجر من المحاذير والقيود البيورتانية . ولكننا نعرف أن هذه الروايات
مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل ، أكثر مما مثله شعر
طومسن ، وكولنز ، وجراى ، ونتبين فى رتشردسن الأب - كما تتبين
فى روسو البطل - لتلك الحركة الرومانسية التى ستنتصر فى أواخر
القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية فيلدنج العارمة .

٢ - هنري فيلدنج : ١٧٠٧ - ٥٤

حين قدم الى لندن في ١٧٢٧ أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع ، وبنيته القوية ، ووجهه الوسيم ، وحديثه المرح ، وقلبه المفتوح ؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة في كل لذتها وواقعها السيء السمعة . كان يملك كل شيء الا المال ؛ واذا كان مضطرا - على حد قوله - الى أن يكون سائقا أجيرا ، أو كويتبا أجيرا ، فإنه شد نفسه الى قلم ، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والتمثيلات الكاريكاتورية . واستعملت الليدي ماري مونتاجيو ، وهي ابنة خال له من المرتبة الثانية ، نفوذها ليخرج له مسرح دروري لين تمثيلية « الحب وراء أقنعة عذبة » (١٧٢٨) ، وذهبت مرتين لتشاهدها معلنة عن نفسها في تفضل ؛ وفي ١٧٣٢ ساعدت على عرض تمثيلية « زوج عصرى » فترة طويلة . وواصل تأليف المسرحية تلو المسرحية ، وكلها غير ممتاز ، ووقع على عرق من الهجاء المرح في « مأساة الماسي ، أو حياة وموت توم ثم الكبير » (١٧٣١) .

وفي ١٧٣٤ تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصلت أربع سنين . وورثت عقب زواجهما ١٥٠٠ جنيه ، فأخذ فيلدنج معها الى حياة الدعة سيدا من سادة الريف . ووقع في حب زوجته . وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته في شخص صوفيا وسترن الجميلة في خفر ، وأميليا بوث التي لا حد لصبرها وإفانتها . وتؤكد لنا الليدي بيوت « أن اللغة المشرقة التي عرف كيف يستعملها لم تزد على أن أنصفت محاسن الأصل وجمالها (٨٢) » .

وفي ١٧٣٦ عاد الى لندن وأخرج تمثيلات لا تستحق الذكر ؛ ولكن في ١٧٣٧ وضع قانون الرخص قيودا على الدراما ، وانسحب فيلدنج من المسرح . ودرس القانون ، وقبل محاميا (١٧٤٠) ؛ وتحول مسار حياته في ذلك العام بظهور رواية رتشردين « باملا » . وأثارت فضائل البطلة وخالفها المتعمدة كل ما في فيلدنج من نزوع الى الهجو . و « قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدمز ، مكتوبة بطريقة سرفانتيس » (١٧٤٢) بدأها تقليدا سبنسورا

لباملا . فجوزف ، الذى يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا ، فتى طاهر جميل بين الفتیان كباملا بين الفتيات ، تراوده مخدمته المرة بعد المرة كما وقع لباملا ، ويقاوم مثلها ، ويفصل مثلها فى رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عذريته . ورسالته لأخته باملا رسالة تكاد تكون « رتشردسونية » ، وإن لم تكن كذلك تماما :

« اختى العزيزة باملا :

« أرجو أن تكونى بخير ، عندى خبر ويا له من خبر أفضي به اليك ! ... لقد وقعت سيدتى فى غرامى - أى ما يسميه عليه القوم بالوقوع فى الغرام - وفى نيتها أن تدمرنى ، ولكنى أرجو أن يكون لدى من العزم والحصافة ما يعصمنى من التفريط فى عرضي لأى سيدة على ظهر البسيطة .

« لقد طالما أخبرنى المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى فى الرجل كما هى فى المرأة سواء بسواء . وهو يقول أنه لم يعرف قط امرأة غير زوجته ، وسأحاول أن اقتدى به . والحق أن الفضل كله لمواعظه ونصائحه الممتازة ولرسائله فى قدرتى على مقاومة اغراء يقول أن أحدا لا يذعن له إلا ندم فى هذه الدنيا وهلك عفايا فى الآخرة ... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة ! ولكنى مسرور لأنها طردتنى من مخدمها كما فعلت ، فلقد كدت أنسى مرة كل كلمة قالها لى القس آدمز .

« ولست أشك يا اختى العزيزة فى أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل اغراء ، وأتوسل اليك فى الحاج أن تصلى لى يمنحنى الله القوة على صون فضيلتى ، لأنها فى الحق تهاجم هجوما عنيفا من أكثر من امرأة ، ولكنى أرجو أن اقتدى بمثالك ، وبمثال يوسف الصديق سمى ، فأصون فضيلتى من كل اغراء (٨٣) » .

وينجح جوزف ، ويظل بكرا حتى يتزوج العذراء فانى . أما باملا ، التى رفعت درجة فى سلم المجتمع حين تزوجت مخدمها الغنى ، فتدين فانى لتجاسرها على الزواج من جوزف ، الذى ارتفعت منزلته

هى المجتمع بزواج باملا برجل من علية القوم . ولام رتشرسن فيلدنج
لأنه اقترف « اضافة فاجرة خسيمه » الى باملا (٨٤) .

ولم تشبع شهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشرسن ، وراح
يحاكى الالياذة محاكاة ساخرة ، بالتضرع الى ربات الفنون والآداب
ويجعل كتابه ملحمة . وقد فاض ينبوع فكاهته فى مختلف الشخصيات
التي تلقاها جوزف وأدمز فى طريقهما ، لا سيما الفندقى تو - واوز ،
الذى تفاجئه المسز تو - واوز متلبسا « بالجرم الفاضح » مع الخادمة
بتى ثم نصفح عنه ، و « احتمل غى هدوء ورضي أن يذكر بذنوبه ...
مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية » . واذا لم يكن فى طبع
فيلدنج أن يصنع بطلا ، ورواية بأكملها ، من شاب لا عيب فيه ، فانه
سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف ، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية
لكتابيه . وقد بدا هذا خيارا بعبد الاحتمال ، لأن آدمز كن قسا سنيا
فى اخلاص وصدق ، يحمل معه مخطوطة بمواعظه باحثا عن ناشر
متهور . ولكن المؤلف أعطاه « بيبة » متبنة ، ومعدة قوبة ، وقبضتين
صلبتين ؛ ومع أن القس يعارض الحرب ، فانه مقاتل كفاء يصرع
سلسلة من الأوغاد يتعقبونه لسرقة قصته . وهو الى حد بعيد أحب
شخص رسمه فيلدنج ، ونحن نشارك لذة المؤلف فى مواجهته مواجهاة
غريبة مع الخنازير ، والوحل ، والدم . والذين كانوا فى شبابهم
يقتأثرون تأثرا عميقا بالمثل المسيحى الاعلى ، لا بد يستشعرون المحبة
الحارة لرجل دين خلا تماما من الغش وفاضت نفسه برا . ويقابل فيلدنج
بينه وبين القس تراليبر الجشع ، الذى كان « من أضخم الرجال الذين
يجدر بك أن تراهم ، وكان فى استطاعته أن يقوم بدور السر جون
فلسفاف دون أن يحشو بدنه (٨٥) » .

وازدهى النجاح فيلدنج ، فأصدر فى ١٧٤٣ ثلاثة مجلدات وضع
عليها عنوانا متواضعا هو « منوعات » . وقد احتوى المجلد الثالث على
آية من آيات التهكم المتصل فى « حياة المستر جوناثان وايلد العظيم »
ولم يكن ترجمة حقيقية للص القرن الثامن عشر الأشهر ، « فان قصتى
تروى على الأصح أفعالا كان من الجائز أن يقوم بها (٨٦) » . وكان
فى شكله الأول سخرية من السر روبرت ولبول لاتجاره فى الأصوات

الانتخابية المسروقة ، فلما مات ولبول أصدره المؤلف من جديد فى صور هجاء « للعظمة » كما درج الناس على تقديرها وتحقيقتها . وذهب فيلدنج الى أن معظم « عظماء الرجال » أساءوا الى البشر أكثر مما أحسنوا اليهم . وهكذا لقب الاسكندر بالأكبر أو « العظيم » لأنه بعد أن اجتاح امبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهائل من البؤساء الذين لا ذنب لهم ، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا ان من أعمال الشفقة التى تذكر له انه لم يذبح عيسوزا ولم يغتصب بناتها (٨٧) « واللص أخرى بضمير أكثر راحة واطمئنانا من ضمير رجل الدولة ، لأن ضحاياه أقل وغنيمة أضال (٨٨) .

وبأسلوب التراجم السياسية يخلع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة ، فيرجع بأصله الى « ولفستن وايلد ، الذى قدم مع هنجست » . وكان لأمه صفة غروية فى أصابعها غاية فى العجب (٨٩) . ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها . وسرعان ما مكنه ذكاؤه الفائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لأراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلهم الزائدة عن الحاجة ، أو من حياتهم التى لا معنى لها . وكان يصيب حظ الأسد من مكاسبهم ، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن . وقد أخفق فى اغواء لىتييتيا المطاردة ، التى آثرت أن يعتدى على عرضها مساعده فايريلود ، الذى « اغتصب هذه المخلوقة الجميلة فى دقائق ، أو على الأقل كاد يغتصبها ، لولا أنها منعتة من ذلك بامتثالها فى الوقت المناسب (٩٠) » . وبعدها تزوجت وايلد . وبعد اسبوعين يدخلان فى « حوار زوجى » تشرح فيه حقها الطبيعى فى حياة الفسق ، فيدعوها بالكلية ، ثم يتبادلان القبل ويتصالحان . ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوما عليه بالاعدام . ويرافقه قسيس الى المشنقة . فينشله وايلد فى الطريق ، ولكنه لا يجد معه سوى فتاحة للقوارير ، لأن الكاهن كان ذواقة للخمور ، أما « جوناثان العظيم ، فبعد كل مغامراته الجبارة ، كانت خاتمة - التى قل من عظماء الرجال من يستطيعون تحقيقها - أن علق من عنقه حتى مات (٩١) » .

وفى أواخر عام ١٧٤٤ فقد فيلدنج زوجته ، وكدر موتها مزاجه حتى طهر حزنه بتصويرها تصوير المحب ، خلال أسي البعد ، فى شخص صوفيا وأميليا . وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذى أبدته خادمة زوجته التى بفيت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها فى ١٧٤٧ . وكان خلال ذلك يعانى من المرض والعوز ، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (١٧٤٨) قاضى صلح لوستمنستر ، ثم لدلسكس بعد قليل . وكانت وظيفة شاقه ، ينقد عليها راتبا غير مضمون من رسوم المناقضين الدين يوافقونه فى محكمته بشارع بو . وقد وصف الجنيهاة الثلثمائة التى تجمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها « أقدر نقود على وجه الأرض (٩٢) » .

ولابد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (١٧٤٤ - ٤٨) عاكفا على أعظم رواياته ، لأنها صدرت فى فبراير ١٧٤٩ فى مجلدات ستة باسم « قصة توم جونز اللقيط » . وهو يروى لنا أن الكتاب ألف فى « بضعة آلاف من الساعات » استنقذها من الفضاء والكتابة المأجورة ، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاهة الكتاب القوبة وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحزن والنقرس والعوز . ومع ذلك فهنا ألف ومائتا صفحة فى رواية يعدها الكثيرون أعظم الروايات الانجليزية . فلم يسبق فى الأدب الانجليزى أن وصف رجل هذا الوصف الكامل الصريح ، بدنا وعفلا وخلقا وشخصية . ويحضرنا فى هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التى قدم بها ثاكري لقصته « بندنيس » .

« منذ أن وورى مؤلف توم جونز التراب لم يؤذن لروائى منا أن يرسم « رجلا » بأقصى ما يملك من قدرة . فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتسامة متكلفة تقليدية معينة . والمجتمع مصر على رفض « الطبيعى » فى فننا . . . وأنت تأبى أن تسمع . . . ما يتحرك فى دنيا الواقع ، وما يدور فى المجتمع ، وفى الأندية ، والكليات ، وقاعات الطعام - تأبى أن تسمع واقع حياة أبناءك وحديثهم » .

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلا غير شرعى وجد فى فراش المستر أولورذى الطاهر النقى . وبين هذه البداية وزواج توم فى النهاية.

حشر فيلدنج مائة حدث ، بأسلوب يوهم بأنه أسلوب قصص التشرد ذات الفصول المتتابعة فى غير ترابط ، ولكن القارئ سيدهشه ان هو ثابر على القراءة الى النهاية أن يجد أن هذه الأحداث كلها تقريبا ضرورية للحبكة البارعة ، أو لعرض الشخص وتطويرها ؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك . والعديد من الأشخاص مرسومون فى صورة مثالية ، مثل أولورذى الذى يكاد يشبه جرانديسن ، وبعضهم مبسطون تبسيطاً شديداً ، مثل بلايفل الذى يكرهنا على احتقارة ، أو القس نواكوم ، المربى « الذى سيطرت العصا على أفكاره (٩٣) » . ولكن كثيراً منهم يظهر فيهم ماء الحياة ، ومهم سكواير وسترن « الذى يعتز ببنادقه وكلابه وخبثه (٩٤) » أكثر من أى شيء فى الدنيا ، ثم تأتى زجاجة شرابه ، ثم ابنته صوفيا الفريدة فى بابها . ها هنا « كلاريسا » أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال ، وباملا أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج .

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي ، وفيما عدا ذلك فهو أطيب من أن يصلح للبقاء . تبناه أولورذى ، وعلمه ثواكوم وأدبه بعصاه ، فأدرك الرجولة القوية التى لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه بأصله الغامض . وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة ، ولكن أباه بالتبنى يغتفر هذه الألاعيب جرياً على أفضل التقاليد الشكسبيرية . وتعجب به صوفيا وهى على بعد عفيف منه ، ولكن توم ، الشاعر بمولده غير الشرعى ، لا يجرؤ إطلاقاً على الوقوع فى حب سيدة تبعد عنه هذا البعد السحيق مكانة ومالا . وهو يقنع بمولى سيجرم ، ابنة حارس الصيد ، ويعترف بأنه ربما كان أباً لطفلها ، ويروح عنه كثيراً أن يجد أنه لبس الا واحداً من عديدين يحتمل أن يكون أحدهم أباً للطفل . وتعانى صوفيا اذ تعلم بهذا الغرام الاثم ، ولكن اعجابها بتوم لا يفتر الا لحظة عابرة . وهو يمسك بها بين ذراعيه اذ تسقط من جوادها أثناء الصيد ، ويشي احمرار وجهها بشعورها نحوه ، فيسارع الى مطارحتها الغرام . ولكن أباه ، سكواير وسترن ، كان قد هيا جيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل ، وهو ابن أخت أولورذى الغنى الذى لم يعقب ، ووريثه الشرعى . وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب ، ويصر أبوها ، وتكدر المعركة الناشبة بين ارادة الأب

ودموع ابنته عدة مجلدات . أما توم فيبتعد محجما ، ويدعهم يفاجئونه في أيكه ومولى بين ذراعيه ، وتظهر صوفيا في هذا المشهد فتقع مغشيا عليها . ويطرد أولورذى توم كارها ، فيبدأ هذا أسفاره الحافلة بالأحداث ، التي بدونها كان عسيرا على فيلدنج أن يكتب رواية ، إذ كان لا يزال مقلدا لسرفانتس ولساج . ويظل قلبه مع صوفيا الكسيرة الخاطر ، ولكنه وقد ظن أنه فقدوها إلى الأبد ينزلق إلى فراش المسر ووترز . وبعد شذائد كثيرة ، ونعقيدات لا تصدق ، يصفح عنه أولورذى ، ويحل محل بلايفل وريثا له ، ويصلح ذات البين مع صوفيا الخجول الصفوح ، ويرحب به سكووير وسترن صهرا له ترحيبا صادقا مع أنه كان قبل أسبوع على أهبة قتله . ويتعجل وسترن الخاتمة الآن فيقول :

« إليها يا بنى ، إليها ، أمض إليها . . هل انتهى كل شيء ؟ هل حددت اليوم يا فتى ؟ ماذا ، أكون غدا أم بعد غد ؟ لن أرضي بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد يمينا انها لتود من كل قلبها أن تزف الليلة ، ليس كذلك يا صوفى ؟ . . . أين بالله أولورذى ؟ اسمع يا أولورذى ، أراهن حمسه جنيهاات لكراون أن سبولد لنا صبي بعد تسعة أشهر من عد (٩٥) » .

ان أحدا لم يصف الحياة الانجليزية منذ شكسبير بمثل هذه الخصوبة أو الصراحة . ذلك أن أوصافهم لا تشمل كل جوانب تلك الحياة ؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة - هذه التي توجد في أى مجتمع . أما فيلدنج فأثر رجل الغريزة عن رجل الفكر . واحتقر مهذبي الكتب ومطهريها الذين حاولوا في زمانه أن ينقوا تشوسر وشكسبير ، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير علية القوم . وفهم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدى ، وأحال نواحيه الأخرى إلى دنيا الأوهام . واحتقر جنون المال الذى لحظه فى كل طبقة ، وكره الدجل والنفاق كرها شديدا . ولم يرحم الوعاظ ، ولكنه أحب القس آدمز ، والبطل الوحيد فى « اميليا » هو الدكتور هاريسن ، وهو قس انجليكانى ؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ فى كل مناسبة فى رواياته .

وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشكلات التي

يكابدها فى عمله قاضيا . وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما فى لندن من عنف واجرام . فاقترح وسائل لتشديد حراسة الامن العام وتصريف القضاء . ويفضل جهوده ، وجهود السر جون فيلدنج ، وأخيه لأبيه ، الذى خلفه قاضيا فى شارع بو ، قضي على غصابة بثت الرعب فى لندن ، وشنق كل أفرادها تقريبا . وذكر متفائل فى ١٧٥٧ أن « الشر المسيطر ، شر سرقات الشوارع ، قد قمع كلية تقريبا (٩٦) » .

فى هذه الاثناء كان هنرى قد نشر آخر رواياته « أميليا » (ديسمبر ١٧٥١) . انه لم يستطع نسيان زوجته الأولى ، ولقد نسي أى عيوب ربما شابتها ، فاقام الآن لذكرها أثرا صورها فيه الزوجة الكاملة لجندى مبذر قصير النظر . فالكبتن بوث رجل لطيف شجاع كريم ، وهو يعبد زوجته أميليا ، ولكنه يقامر حتى يتردى فى الدين ، ويبدأ الكتاب بالكبتن فى السجن . وهو يستغرق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيلة أخرى هى الكنيسة ماثيوز ؛ يفصل لها جمال زوجته وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية ، ثم يقبل دعوة الكنيسة ماثيوز له أن يشاركها فراشا ، وينفق «أسبوعا كاملا فى هذا الحديث المجرم (٩٧) » . وفى مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة ، يفضح فيلدنج ، ربما فى شيء من المغالاة ، نفاق الرجال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية السجنانيين . ويجد القارئ هنا وصف سجون المدينين التى ستعمر قرنا آخر لتثير سخط دكنز . ويستطيع القاضي تراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الارلندية ، « يا غلام ، لسانك يشي بذنبك . فانت ارلندى ، وهذا دائما دليل كاف فى نظرى (٩٨) » . ويتصاعد عدد الأوعاد مع كل فصل ، حتى تصرخ أميليا لأبنائها الذين عضهم الفقر قائلة « سامحونى لأننى أتيت بكم الى هذه الدنيا (٩٩) » .

وأميليا ، مثل جريزelda ، هى المثل الأعلى للمرأة الصبور كما تخيله فيلدنج . يكسر أنفها فى أحد الفصول الأولى ، ولكن جراحة الأنف تصلحه ، وتعود جميلة جمالا يغرى بمحاولة العدوان على عرضها مرة فى كل فصلين تقريبا . وهى تسلم بقصورها الفكرى عن زوجها وتطيعه فى كل شيء ، الا أنها ترفض الذهاب الى حفلة تنكرية ؛ وتحضر

لحنا دينبا (أوراتوريو) ، ولكنها تتردد فى تعريض نفسها لنظرات العابثين فى فوكسهول . فاذا عاد بوث اليها بعد احدى مغامراته الطائشة وجدها « تؤدي عمل الطاهى باللذة التى تستشعرها سيدة راقية فى ارتداء نياها استعدادا لحفلة رقص (١٠٠) » . وتتلقى رسالة من الانسة مانيوز اللئيمة نثي فيها بخيانة بوث لزوجته فى السجن ، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها ، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه ، وتبيع حلبها الضئيلة النمن ، ثم ملابساها ، لتطعمه وتطعم أطفالها . ولا تفن فى عصدها أخطاؤه بقدر ما تفت فيه قسوة الرجال والانظمة التى توقعه فى شباكها . فلقد كان فيلدنج ، شأنه فى ذلك سان روسو وهنتجوس ، يرى ان أكثر الناس طيبون بفطرنهم ، وان ما يفسدكم هو البيئات الشريرة والفوانين السيئة . وعند ثاكري ان أميليا « أكثر الشخصيات فتننة فى القصص الانجلىزى (١٠١) » . ولكن ربنا لم نكن سوى حلم زوج . وفى النهاية تصبح أميليا بطبيعة الحال وارثة ، ويعتزل هى وبوثر فى ضيعتها ، وبستقيم حال بوثر .

أما خاتمة الرواية فلا نكاد ببررنا مقدماتها ؛ فبوثر يبقى بوثر على الدوام . ولقد حاول فيلدنج أن يربط كل عقد حبكته فى وحدة سعيدة ، ولكن خفة يده هنا مكشوفة جدا ، فلقد أدرك التعب هذا الروائى الفحل ، وأثار تقززه جو اللصوص والقتلة الذى أحاط به . كتب بعد أن فزع من أميليا يقول « لن أزعج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفال الذين تلدهم لى ربة الأدب ذاتها » . وفى يناير ١٧٥٢ بدأ « مجلة كوفنت جاردن » ، وكتب بعض المقالات القوية ، ورد على نقد سمولت ، وصوب طلفه الى روايته « روديكر راندوم » ، وفى نوفمبر ترك المجلة نموت . وكان شتاء ١٧٥٣ - ٥٤ أقسى من أن يحتمله بدنه الذى هذه العمل والاستسقاء والصفراء والربو . وجرب ماء القار الذى نصح به الأسقف باركللى ، ولكن الاستسقاء استفحل ، وأشار عليه طبيبه بالسفر الى بلد أدفا . وفى يونيو ١٧٥٤ استقل سفينة تدعى « ملكة البرتغال » مع زوجته وابنته . وفى الطريق كتب « يوميات رحلة الى لشبونة » ، وهى من ألطف ما كتب . ومات فى لشبونة فى ٨ أكتوبر ١٧٥٤ ، ودفن هناك فى الجبانة الانجليزية .

فما الذى انجزه ؟ لقد أرسى دعائم رواية السلوك الواقعية ؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الانجليزية وصفا أنصع من أى وصف أتى به مؤرخ ، وفتحت كتبه عالما بأسره . ولكنه لم ينجح مثل هذا النجاح مع الطبقات العليا ، وكان عليه أن يقنع فى هذا المبدان ، كما قنع رتشردسن ، بنظرة الدخيل . ولقد عرف من حياة وطنه الجسد خيرا مما عرف الروح ، ومن الحب جسده خيرا مما عرف روحه ، وغابت عنه مفومات الخلق الانجليزى الأكثر رهافة وخفاء . ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت ، وستيرون ، ودكنز ، وثاكرى ؛ لقد كان أبا لهم أجمعين .

٣ - طوبياس سمولت : ١٧٢١ - ٧١

لم يكن سمولت يحبه ، لأنهما تنافسا على استحسان القراء فى الميدان نفسه . وكان أصغر الرجلين اسكتلندياً وأفقر هيوام على التحسر لأن انجلترا عاقت الطريق الى فرنسا . ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلمانى مع انجلترا عمليا (١٧٠٧) ، وكان عضواً فى البرلمان المتحد . ومات الأب وطوبياس فى الثانية من عمره ، ولكن الأسرة أنفقت على تعليم الصبى فى مدرسة دمبرتون الثانوية وفى جامعة جلاسجو حيث درس المقررات الممهدة لدراسة الطب . ولكنه بدلا من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدركته عدوى الكتابة ، وهرع الى لندن وجاريك ، يحمل مأساة ضعيفة ألفها ، ورفضها جاريك . وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعدا لجراح فى البارجة « كمبرلاند » وأبحر معها (١٧٤٠) فى الحرب التى نشبت مع أسبانيا بسبب « أذن جنكينز » . واشترك فى الهجوم الأخرق على قرطاجنة المواجهة لساحل كولومبيا . وفى جميعا ترك الخدمة ، وهناك التقى بنانسي لاسيل التى تزوجها عقب عودته (١٧٤٤) الى انجلترا . وسكن بيتا فى داونيج ستريت ومارس الجراحة ، ولكن شهوة الكتابة غلبته ، وكانت تجاربه فى البحرية تطالعه على الأقل بقصة واحدة . لذلك نشر أشهر رواياته فى سنة ١٧٤٨ .

أما هذه الرواية ، واسمها « مغامرات رودريك راندوم » ، فهى

رومانسية التشرم القديمة ، الحافلة بالأحداث الدائرة حول إحدى الشخصيات . ولم يعترف سمولت بأى فضل لفيلدنج ، ولكنه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج . وقد شدة البشر وأفعالهم أكثر مما شدته الكتب والألفاظ ، فحشد قصته بالأحداث وأضفى عليها نغمة الأقدار ولون الدماء ، وملاها ناسا تفوح منهم رائحة الشخصية والحديث الفرجل . وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الانجليزية التى كتبت عن البحر . ولكن قبل أن يجند رودريك فى البحرية يختبر - كما اختبر صابعه - عينات من الفنادق الانجليزية والأخلاق اللندنية . وما أكثر ما افتقدناه لأننا لم نجرب السفر فى مركبات القرن الثامن عشر تلك والنزول فى تلك الفنادق ! - مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين ، والقوادين والمومسات ، والباعة الجوالين بحملون حزمهم ويخفون نقودهم ، والرجال يقلبون المبال بحنا عن الفراش الخطأ ، والنساء يصرحن مستغنيات من مغنصب ثم تسكتهن النقود ، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة ، وكل انسان يسب ويتنم . فالآنسة جنى تخاطب البائع الجوال قائلة « أنت أيها الفاسق العريق فى الزنا مائة فى المائة » وتسال الكبتن « لعنك الله يا سبدي ، من أنت ؟ ومن جعلك كبتنا أيها المتملق ، القواد ، كناس الخنادق الحقيقير ؟ تبا لك ! ووبل للجيش اذا كان أمثالك من ضباطه (١٠٢) » .

وفى لندن يصبح رودريك (وهو هنا = سمولت) مساعدا لصيدلانى . ويفلت من الزواج حين يجد خطيبته فى الفراش مع رجل آخر . « لقد أعطتنى السماء من الصبر وحضور الذهن ما جعلنى أنسحب فوراً ، وشكرت حظى ألف مرة على هذا الكشف السعيد الذى عولت على الافادة منه فأكف عن كل تفكير فى الزواج مستقبلا (١٠٣) » وهو يقنع بحياة الفسق ، ويطلع على حياة البغايا وبلاوبهن ، ويعالج أمراضهن ، ويندد بالدجاجة الذين يبتزون مالهن ، ويلاحظ كيف أن المومس « مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر ازعاج تفلت من العقاب بفضل مالها من نفوذ على القضاة ، الذين تدفع لهم هى وجميع من يعملن فى خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن (١٠٤) » .

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلا بالسرقة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة حتى « لم أجد ملجأ ألوذ به غير الجيش والبحرية » . ويعفبه من

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة ، تصرعه على الأرض فاقد الوعي وتجره الى متن سفينة صاحب الجلالة « نندر » . ويستسلم لمصيره ، ويصبح ضابطا جراحا . وبعد يوم واحد فى البحر يدرك أن الكبتن أوكم ليس الا وحشا نصف مجنون ، يلزم البحارة المرضى بالعمل ضنا منه بالمال حتى يموتوا . ويقاتل رودريك فى قرطاجنة وتتحطم به السفينة ، فبسبح الى بر جمیکا ، ويصبح خادما لشاعرة عجوز عليلة ، ويقع « فى حب » ابنة أخيها نارسيسا ، « وداعته الأحلام بأنه سيستمتع يوما ما بهذه المخلوقة اللطيفة (١٠٥) » . وهكذا نجرى القصة فى تدفق سمولت اللاهت ، بفقرات تتصل الواحدة منها ثلاث صفحات ، فى لغة بسيطة فوية بذئنة . وفى لندن يصادق رودريك مجوعة جديدة من الأصدقاء الغربى الأطوار ، بما فيهم الأنسة ميلندا جوستراب والأنسة بدى جرايبيويل . ثم بمضى الى باث بمزيد من مناظر مركبات السفر ؛ هناك يلتقى بنارسيسا الحلوة ويظفر بمحبنتها له ، تم يفقدها ، ويشتبك فى مبارزة . . . ويعود الى البحرية جراحا ، ويبحر الى غينيا (حيث « يشتري » قبطان سفينة أربعمائة عبد ليبيعهم فى بارجواى « بربح كبير ») ، ثم يعود الى جمیکا ، حيث يجد أباه الذى فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال ، ويعود الى أوربا ثم الى نارسيسا ، فيتزوجان ويعود بها الى اسكتلنده وضيعة أبيه ؛ أما نرسيسا « فيبدأ خصرها يستدبر بشكل ملحوظ » . وأما رودريك :

« فاذا كان على الأرض شيء يسمى السعادة الحققة فأنى استمتع بها . لقد سكنت الآن اضطرابات عاطفتى العاصفة ولانت فى حنان الحب وهدوئه ، بعد أن رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبى الذى لا وجود به غير رباط الزوجية الطاهر » .

وراجت رواية رودريك راندوم . وأصر سسمولت الآن على نشر مسرحيته « قاتل الملك » متفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل ؛ وقد دأب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد فى خلق الأعداء . وذهب الى أبردين فى ١٧٥٠ وتسلم درجة الطب ، ولكن شخصيته كانت عقبة فى طريق مارسسته الطب ، فانكفا الى الأدب . وفى ١٧٥١ أصدر « مغامرات بريجرين بيكل » . وهنا ، كما فى راندوم ، دعا العنوان

القارئ لجولة من الأحداث المثيرة في حياة جوابة ؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة في أنجح شخصه ، ذلك هو الكومودور ترنيون ، الذي يصفه بأنه « سيد من طراز غاية في الغرابة » كان « مقاتلا مغوارا في زمانه ، وفقد عيننا وعقبنا في الخدمة العسكرية (١٠٦) » وهو يصير على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالمدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير . ويأمر خادمه توم بابير بأن يؤمن على كلامه ، وهنا « فتح توم فمه كأنه سمكة » قد « لاهثة » وبايقاع أشبه بعصف الريح الشرقية تصفر في شق « فاه بالتأييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هذا أثارا طفيفة من العم توبى والجاويش تريم) . ويواصل سمولت مرحة خلال وصف صاخب لمسز جريزل وهي تخطب ود الكومودور الذي يتوسل اليه مساعد، ذو الساق الواحدة ، جاك هانشواي ، ألا يسمح لها بأن « تجره تحت مؤخر سفينتها » لأنها « متى أحكمت وثاقلك الى مؤخرها ، انطلقت والله حثيثا ، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد » . ويطمئنه الكومودور قائلا « لن يرى انسان هوسر ترنيون طريقا في مؤخر السفينة في ذيل أي - في العالم المسيحي (١٠٧) » على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عفته ؛ فيوافق على أن « يثبت مركبه بمرساة » أي يتزوج ، ولكنه يمضي الى رباط الزوجية « كمجرم ماض الى اعدامه ... » وكأنه يخشي في كل لحظة من تحلل عناصر الطبيعة . ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية ، فتنهار تحت ثقل الجسدين ، ولكن هذا لم يقع الا بعد أن « ظنت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق ، وسلطانها أصبح مكفولا أمام جميع صدمات الحظ » . على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهي بغير ثمر ، فتتكفى المسز ترنيون الى البرندی و « فروض الدين التي راحت تؤديها بصرامة تفيض حقدا » .

وقد صور السر ولتر سكوت سمولت في أربعيناته بأنه « وسيم جدا ، جذاب الملامح ، وحديثه - بشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة - منير ومسل الى أبعد حد (١٠٨) » . وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع في حديثه . قال يصف السر تشارلز نولز انه « اميرال بغير ارادة ، ومهندس بغير معرفة ، وضابط بغير عزيمة ، ورجل بغير م ١٩ - قصة الحضارة

السجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها مائة جنيه (١٧٥٧) . على أن خدعة طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة ، فقد كان كريما رحيمًا ، أعان فقراء المؤلفين ، وأصبح كما قال السر ولتر « أبا شديد التعلق بأبنائه ، وزوجا محبا لزوجته (١١٠) » . وكان منزله في لورنس لين بحى تشلسي ملتقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعامه وإن لم يتبعوا نصائحه ؛ وقد نظم بعضهم في فرقة من المساعدين الأدبيين . وكان رائدا بين الناشرين (ودرايدن بين الشعراء) ؟ في الزامه تجار الكتب بتأييده في شرط يليق بعبقريته . وكان أحيانا يكسب ستمائة جنيه في العام ، ولكن كان عليه أن يكد ويكدح ليكسبها . وكتب ثلاث روايات أخرى ، اثنتان منها لا تستحقان الذكر . وأقنع جاريك بأن يخرج تمثيليته « العقاب » ، التي نجحت بفضل هجمات على فرنسا ؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة ؛ ورأس تحرير صحيفة « البريطاني » لسان حال المحافظين . وترجم جيل بلاسي ، وعدة مؤلفات لفولتير ، ودون كخوته (مستعينا بترجمة سابقة) ، وكتب - أو أشرف على كتابة - تاريخ لانجلترا من تسعة مجلدات (١٧٥٧ - ٦٥) . ومن المؤكد أنه استخدم « مصنعه الأدبي » المؤلف من الكتاب المأجورين في جراب ستريت ليصنف « تاريخا للعالم » وكتبا ذا ثمانية مجلدات اسمه « الحالة الراهنة للأمم » .

وحين بلغ الثانية والأربعين عام ١٧٦٣ ، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة ، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام . ونصحه طبيبه بأن يستشير أخصائيا في مونبلييه يدعى الدكتور فيز . فمضى إليه ، وأخبره الأخصائي أن ربوه ، وسعاله ، وبصاقه الصديدي ، دليل على إصابته بالسل ، واذكره العودة إلى رطوبة إنجلترا وخضرتها ، فقد ظل عامين في القارة ، يغطي نفقاته بكتابة « رحلات في فرنسا وإيطاليا » (١٧٦٦) ، وقد أبدى هنا ، كما أبدى في رواياته ، تلك النظرة الحادة اللامحة التي ترى سمات خلق الأفراد والأمم ومميزاته ؛ ولكنه تبل أوصافه بالشتائم الصريحة . وأخبر سائقى مركبات السفر ، وزملاءه المسافرين ، وأصحاب الفنادق ، والخدم ، والأجانب المتحمسين لأوطانهم ، رأيهم دون مواربة ؛ واعترض على كل فاتورة حساب ، وحطم الفن الفرنسي والإيطالي ، وسخر من الكاثوليكية ، وحكم على

الفرنسيين بأنهم لصوص جشعون لا يغلفون دائما سرقاتهم بغلاف من الأدب والكياسة . استمع اليه يقول :

« لو أن فرنسا أدخل الى أسرتك . . . لكان أول رد له على مجاملاتك أن يطرح زوجتك الغرام إذا كانت جميلة ؛ والا فاختك ، أو ابنتك ، أو ابنة أخيك أو أختك . . . أو جدتك . . . فإذا كشف أمره . . . صرح في صفاقة بأن ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه ، مما يعد في فرنسا من مقومات التربية الحسنة (١١١) » .

وعاد سمولت الى إنجلترا وقد تحسنت صحته كثيرا . ولكن عائلته عاودته في ١٧٦٨ ، فحاول الاستشفاء في باث . غير أنه وجد مياها عديمة الجدوى له ، وهواءها الرطب خطرا عليه ؛ وفي ١٧٦٩ عاد الى إيطاليا . وفي فيللا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو « رحلة همفري كلنكر » وفي رأى ثاكري أنه « أفكه قصة كتبت منذ بدأ ذلك الفن الجميل ، فن كتابة الروايات (١١٢) » . وهو ولا شك أمتع وألطف كذب سمولت إذا استطعنا أن نطبق شيئا من القدر . وفي مطلع القصصه تقريبا نلتقى بالدكتور - الذى يتحدث عن الروائح « الطيبة » أو « الخبيثة » باعتبارها ميولا ذاتية خالصة « لأن كل شخص يزعم أنه يتغرز من رائحة افرازات شخص آخر يستنشق رائحة افرازاته هو برضا تام ، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا على صدق قوله (١١٣) » ، ويلى ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد لدعا وحرافة حتى من هذه . وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة ، عمد الى اختراع سلسلة مرحة من الشخصوس ، يواصلون الحكاية بخطاباتهم فى أسلوب غاية فى العجب والامتناع ، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو « سيد عجوز » وعزب عصي ، ينطقه سمولت بأرائه . وهو يذهب الى باث للاستشفاء ، ولكنه يجد خبث رائحة مياها أشد وقعا فى نفسه من قوتها الشافيه . وهو يكره زحام الجماهير ، ويغنى عليه مرة من روائحهم المتجمعه ، ولا يطيق هواء لندن الملوث ، أو أطعمتها المغشوشة . يقول :

« ان الخبز الذى آكله فى لندن عجيب مؤذ اختلط به الجير والشب

ورماد. العظام. غث المذاق مدمر للجسم . ولا يجهل القوم الطيبون. هذا الغش لكنهم يفضلونه على الخبز الصحى ، لأنه أكثر بياضا . . . وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم . . . والطحان أو الخباز مضطر الى تسميمهم . . . ومثل هذا الفساد الشديد يظهر فى لحم العجول الذى يأكلونه ، والذى يبيضون لونه باستنزاف دمه مرارا وتكرارا ، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة ؛ وقياسا على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز . . . ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسية من نصف البنس لينضروا لونها (١١٤) » .

وعليه يهرع ماثيو عائدا الى ضيعته الريفية ، حيث يستطيع أن يتنفس ويأكل دون أن يعرض حياته للخطر . وفى طريقه اليها ، بعد أن انتهى ربع القصة ، يلتقط غلاما ريفيا فقيرا فى أسمال بالية يدعى همفرى كلنكر « كانت نظراته تنبئ بالجوع ، ولم تكد الخرق التى يلبسها تستر ما تقتضى اللياقة اخفائه » . ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربية ، ولكن حين يتربع على مقعد السائق العالى تنشق سراويله العتيقة ، وتشكو المسز طابينا برامبل (أخت ماثيو) من أن همفرى « جرؤ على أن يؤذى بصرها بابداء أردافه العارية » . ويكسو ماثيو الصبى ، ويلحقه بخدمته ، ويحتمله بصبر حتى حين يصبح الفتى واعظا مثوديا عقب سماعه جورج هوايتفيلد .

ويبدو جانب آخر من الموقف الدينى فى المستر - الذى يقابله برامبل فى سكاربرو ، والذى يفاخر بأنه تحدث الى فولتير فى جنيف « عن تسديد اللطمة القاضية للخرافة المسيحية (١١٥) » ويدخل خارجى آخر اسمه الكبتن لزماها جو القصة فى درم - « رجل طويل هزيل ، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخسوته ممطيا جواده روزنانتى » . وقد عاش بين هنود أمريكا الشمالية ، وهو يقص فى لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شؤوا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما ان الله سمح لابنه « ان يدخل أحشاء امرأة ، ويعدم كما يعدم المجرمون » ، ولأنهما زعما أنهما يستطيعان « تكثير الله الى مالا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء » وكان لزماهاجو « يكثر استعمال ألفاظ مثل

العقل ، والفلسفة ، وتناقض الحدود ؛ وقد أنكر خلود نار الجحيم ،
يل قذف ببعض مفرقاته عقيدة خلود الروح قذفا شيط شوارب ايمان
السيدة طابيثا قليلا (١١٦) » .

ولم يكتب لسمولت أن يرى « همفري كلنكر » مطبوعة . ففي
١٧ سبتمبر ١٧٧١ مات في فيلته الايطالية غير متجاوز الخمسين ،
بعد أن خلق من الأعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أى كاتب
آخر فى زمانه . ونحن نفتقد فيه ما نجده فى فيلدنج من ابتهاج وتقبل
صحى للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية ، غير أن فى سمولت حيوية
عارمة ، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقتها الوسطى،
وحكايته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تتدفق بحرية وحيوية أكثر
دون أن يعوقها عائق من المواعظ . . ورسم الشخص اقل لفتا للنظر
فى فيلدنج ، ولكنه أكثر تعقيدا . وكثيرا ما يقنع سمولت بتكديس
السمات المميزة للأفراد بدلا من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب
التي تصنع الشخصية . وهذا الأسلوب فى تمييز الأفراد - بالمبالغة فى
خصيصة ما باعتبارها « لازمة » فى كل شخص - انتقل الى دكنز ،
الذى واصل بمذكرات بكوك الرحلة التي بدأها ماثيو براهمبل .

هؤلاء الكتاب - رتشرسن وفيلدنج وسمولت - اذا أخذناهم معا،
وجدناهم يصفون انجلترا منتصف القرن الثامن عشر وصفا أكمل وأدق
من أى وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين - الذين يضلون طريقهم
وسط الشذوذات . فكل شيء موجود هنا ، اللهم الا تلك الطبقة العليا
التي أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها . هؤلاء الروائيون أدخلوا
الطبقات الوسطى دخول الظافرين الى ميدان الأدب ، كما أدخلهم
ليلو الى الدراما ، وجاى الى الاوبرا ، وهوجارث الى التصوير . لقد
خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثا لا يبارى .

٦ - الليدى ماري

بهذا اللقب ألفت انجلترا أن تلعب المع الانجليزيات فى جيلها ،
المرأة التي دخلت تاريخ الآداب والعادات بهجومها على التقاليد التي
حبست جنسها ، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل
مدم دسفينيه .

وقد حظيت بظروف مواتية للانطلاق ؛ فهي حفيدة السر جون ايفلين ، وابنه ايفلين بييريونت الذى انتخب عضوا بالبرلمان سنة مولدها (١٦٨٩) ، والذى ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب ايرل كنجرتن ، ومن هنا لقبت ابنته بـ « ليدى مارى » منذ طفولتها . أما أمها ، الليدى مارى فيلدنج ، فكان أبوها ايرلا ، وابن عمها هو الروائى المعروف . وماتت الأم وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها . وأرسل الأب أطفاله الى أمه لتكفلهم ، فلما ماتت عادوا الى مقسره الريفى المترف ، ثورزى بارك ، فى مقاطعة نوتنجهامشير ، وكانوا يعيشون أحيانا فى منزله اللندنى فى بيكاديللى . وكان شديد التعلق بمارى التى اختارها « نخبا » (أى شخصا يشرب نخبه) للعام فى نادى الكيت كات ؛ هناك كانت تنتقل من حجر الى حجر ، وببدى ذكاءها فى شيطنة . وقد علمت نفسها فى مكتبة أبيها بمعاونة مربيتها ، فكانتا تتفقان هناك أحيانا ثمانى ساعات فى اليوم ، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية ، والتمثيلات الانجليزية . والتقطت بعض الفرنسية والايطالية ، وعلمت نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ « تحولات » الشاعر أوفيد . . . وكان أديسون وستيل وكونجريف يختلفون الى البيت ، ويشجعونها على الدرس ، ويحفزون ذهنها المتطلع . ونحن نعرف ، من مصدر وحيد هو مصدرها هى ، أن الماما بالاداب اللاتينية هو الذى جذب اليها اهتمام ادورد ورقلى .

وكان حفيدا لادورد مونتاجيو ، أول ايرل لساندوتش ، واتخذ أبوه مدنى مونتاجيو اسم ورتلى عند زواجه بوارثة ذلك اللقب . وكان ادورد حين التقى بمارى (١٧٠٨) - وهو فى الثلاثين - رجلا ذا شأن وتطلعات كبيرة ، تزود بتعليم جامعى ، ودعى لاحتراف المحاماة فى الحادية والعشرين ، وظفر بكرسى فى البرلمان وهو فى السابعة والعشرين . وهو لا يدري كيف بدأ توددها اليه ، ولكن هذا التودد احرز شيئا من التقدم ، لأنها كتبت له فى ٢٨ مارس ١٧١٠ تقول :

« اسمح لى بأن أقول هذا (وأنا عليمة بأن قولى قد يبدو غرورا) ، وهو أنى أعرف كيف أسعد رجلا معقولا ؛ ولكن على ذلك الرجل . . . أن يسهم هو نفسه بشيء فى هذا . . . وهذه الرسالة . . . هي اول رسالة كتبتها فى حياتى لانسان من جنسك ، وستكون الأخيرة . فعليك ألا تتوقع رسالة أخرى على الاطلاق (١١٧) » .

وأفلحت استراتيجيتها المتأنية . فلما مرضت بالحصبة أرسل إليها رسالة قصيرة كانت آخر مما ألف أن يرسل : « كان يفرحني كثيرا أن أسمع بأن حسنك قد أودى جدا لو كنت أسر بأى شيء يسوءك ، لأن من شأن هذا أن يقلل من عدد المعجبين بك (١١٨) » . ودفع جوابها حملتها خطوة أخرى « انك تظن أننى - لو تزوجتنى - سأهيم بحبك شهرا ، ويجب آخر فى الشهر التالى ، ولكن لن يحدث هذا ولا ذاك . فى استطاعتى أن أقدر انسانا ، وأن أكون صديقة لإنسان ، ولكننى لا أدرى أستطيع أن أعشق (١١٩) » . ولعل هذه الصراحة جعلته يتريث ، لأنها كتبت فى نوفمبر « تقول انك لم تستقر على رأى بعد ، فدعنى أقرر نيابة عنك ، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية . وداعا الى الأبد ! لا ترد (١٢٠) » . وعادت تكتب فى فبراير ١٧١١ لتقول له « هذه آخر رسالة أبعث بها (١٢١) » . واستأنف تودده اليها ، فتقهقرت ، وأغرته بالمطاردة الحثيثة . وتدخلت الاعتبارات المالية واعتراض الأب ، فدبرا الهرب ، وإن كان معنى هذا ألا تتوقع مهرا من أبيها . وأنذرت ورتلى إنذارا أمينا « فكر الآن لآخر مرة بأى طريقة يجب أن تأخذنى . سأحضر اليك بقميص نومى وتنورتى ، وذلك كل ما ستحصل عليه معى (١٢٢) » والتقىا فى نزل ، وتزوجا فى أغسطس ١٧١٢ ، وبعدها لقبت بالليدى مارى ورتلى مونتايجو ، هذا الاسم الأخير اتخذته من نسب زوجها ، ولكن لما كان ابنا لابن ثان للأسرة (غير البكر) ، فقد ظل اسمه ادورد ورتلى دون القاب شرف .

وما لبثت دواعى العمل والسياسة أن نقلته الى درم ولندن ، بينما تركها بدخل متواضع جدا فى عدة بيوت فى الريف انتظارا لوصول وليدها . وفى أبريل لحقت بورتلى فى لندن ، وهناك ولد طفلها الأول فى شهر مايو . على أن سعادتها كانت قصيرة الأجل ، فقد رحل زوجها سعيا لاعادة انتخابه فى البرلمان ، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة ؛ لقد تطلعت الى شهر عمل حالم ، وتطلع هو الى مقعد فى البرلمان الجديد . وأخفقت حملته الغالية التكلفة ، ولكنه عين عضوا لجئة صغيرا . واستاجر بيتا قرب قصر سانت جيمس ، وهناك ، فى يناير ١٧١٥ ، بدأت الليدى مارى غزوها للندن .

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية . فكانت تستضيف
الأصحاب أيام الاثنين ، وتختلف الى الأوبرا أيام الأربعاء ، والى
المسرح أيام الخميس . وتزور وتزار ، وترفرف حول بلاط جورج الأول ،
ومع ذلك ظفرت برضى الأميرة كارولين . وصادقت الشعراء ، وتبادلت
النكت الذكية مع بوب وجاى . وافتتن بوب ببديرتها الحاضرة ، ونسي
لحظة احتقاره للجنس الأنعم ، وصفق لجهودها فى تعليم البنات ،
وأهداها بعض قوافيه التى نظمها فى هرولة :

« فى الحسن أو الذكاء

لم يجرؤ بشر بعد

أن يشك فى علو كعبك ،

ولكن من الرجال ذوى الفطنة

من رأى أن التسليم لسيدة

فى أمور العلم أمر عسير .

إن المدارس الوقحة ،

بقواعدها الغبية البالية ،

أنكرت التعليم على الاناث ،

وكذلك ينكر البابويون

على الناس قراءة الكتاب المقدس

مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيها .

إن المرأة كانت أول

من ذاق لذة المعرفة

(رغم أنها لعنت)

ويجمع الحكماء

على أن القوانين يجب أن تقضى

بالحق لأول مالك .

أذن فاستأنفى أيتها السيدة الحسنة

فى جراءة ذلك الحق القديم

الذى هو فطلب جنسك كله ؛
واجعلى الرجال يتلقون
على يد حواء ثانية ذكية
معرفة الخير والشر .

ولكن اذا كانت حواء الاولى
قد عوقبت عقابا صارما
لأنها لم تقطف غير تفاحة واحدة ،
فأى عقاب جديد
يقضى به عليك ،

يا من سرقت الشجرة كلها بعد أن ذقت حلاوتها (١٢٣) ؟ «

وكتب جاى الآن نشيدا رعويا سماه « التبرج » هجا فيه بعض
اعلام لندن تحت أسماء زائفة شفافه . وشاركت الليدى مارى فى هذه
اللعبة . وبمساعدة بوب وجاى نظمت نشيدين رعويين نافست أبياتهما
الزوجية البتارة أبيات الشاعرين رشاقة ولذعا . ولم تنشر هاتين
القصيدتين ، ولكنها سمحت بتداول نسخ مخطوطة منهما بين
الأصدقاء - واكتسبت الآن شهرة بأنها قريع بوب بين النساء ، امرأة
تحقق فنون القلم والقوافى والسخرية الموجهة .

على أنها فى ديسمبر ١٧١٥ كابتدت لطمة أوجع من سهامها . ذلك
أن الجدرى الذى قتل من قبل أخاها هاجمها هجوما قاسيا حتى شاع
أنها ماتت . وقد نجت من الموت ، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدرى ،
ورموشها سقطت ، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين أثرا من
ذلك الجمال الذى اعتمدت عليه فى دفع زوجها الى الأمام . ومع ذلك
ظفر ورتلى بالمكافاة ، ففى أبريل ١٧١٦ عين « سفيرا فوق العادة »
فى البلاط العثمانى . وابتهجت الليدى مارى ، فلقد حلمت بالشرق
مرتعا للأحلام والشعر ، وحتى وهى فى صحبة زوجها قد تجد الرومانس
فى الاستانة أو فى الطريق إليها . وكتب لها بوب وقد طاف هذا الحلم

بخياله كذلك ، فى أول يوليو ، رسالة أشرفت على شفا الغرام بأسلوب أنيق :

« لو خطر لى أننى لن أراك ثانية لقلت هنا أشياء ما كنت لأقولها لشخصك . فما أريد أن أتركك تموتين مخدوعة فى ، أى تذهبين الى الأستاذة دون علم بأننى ، بشيء من المبالغة ، وبغاية التعقل أيضا ، يا سيدتى » .

ثم وقع بالتحية الممقنة المألوفة ، تحية العبد الخاضع المطيع (١٢٤) .

وفى أول أغسطس ، عبر ورتلى ومارى وابنه البائع ثلاث سفين ورهط من الخدم والحشم البحر الى هولندة . ومروا بكولونيا الى ريجنزبرج ، حيث ابحروا على نهبية يجذف فيها اثنا عشر ملاحا مرورا بقمم جبلية تعلوها القلاع . وفى فيينا وجدت رسالة من بوب يقدم فيها قلبه ويؤكد لها :

« لا لأنى أرى فى كل انسان متجرد مشهدا رائعا مثلك أنت وقلة أخرى من الناس . . فى وسعك أن تتخيلى بسهولة مبلغ رغبتى فى مراسلة شخص علمنى منذ أمد بعيد أن الاحترام من أول نظرة محال كالحب ، وأفسد على منذ ذلك الحين لذة كل حديث مع أحد الجنسين ، وكل صداقة مع الجنس الآخر تقريبا . . لقد فقدت الكتب تأثيرها على ، وآمنت منذ رأيته أن هناك شيئا أقوى من الفلسفة ، وأن هناك ، منذ سمعتك ، انسانا حيا هو أحكم من جميع الحكماء (١٢٥) » .

ولكنه أضاف أمله بأن تكون سعيدة مع زوجها . وردت عليه قائلة :

« ربما ضحكت منى لشكرى اياك بكل وقار على اهتمامك المتفضل الذى أعربت عنه . ومن المؤكد أنه يحق لى ، أن شئت أن أحمل الأشياء الجميلة التى قلتها لى على محمل الفكاهة والمزاج ، وربما كان حملى

لها على هذا المحمل صوابا . ولكننى لم أكن فى حياتى مiale ولو نصف .
ميلي الآن لتصديقك (١٢٦) » .

وفى ٣ فبراير ١٧١٧ بعث لها بوب يتصرّح آخر ييوح فيه بحبه
العميق ، محتجا على اعتبارها اياه « صديقها فقط » . واحتفظت مارى
بهذه الرسائل لنفسها ، سعيدة بأنها حركت حطام أعظم الشعراء
الأحياء .

وبلغت الجماعة الأستانة فى مايو . وهناك عكفت مارى على تعلم
التركية بعزيمة ماضية ، وبلغت من ذلك مبلغا أتاح لها فهم الشعر التركى
والاعجاب به ، واتخذت الثياب التركية ، وزارت النساء فى الحريم ،
ووجدتهن أرقى من خليات جورج الأول . ولاحظت ممارسة التطعيم
فى تركيا بشكل منظم وناجح وقاية من الجدرى ، وطعم الدكتور
ميتلاند الجراح الانجليزى فى الأستانة ولدها بناء على طلبها . ورسائلها
من تلك المدينة لا تقل فتنة عن أى رسائل فى هذا الجانب من جوانب
مدام دسفنبيه ، أو هوراس ولبول ، أو ملشيور جريم . ولم تنتظر حتى
يخبرها انسان بأنها أدب ، فلقد كتبت بهذا التطلع ، وقالت لأصدقائها
« أن أحدث اللذات التى صادفتها فى طريقى هى رسائل مدام دسفنبيه ،
جميلة جدا هذه الرسائل ، ولكنى أؤكد ، دون أدنى غرور ، أن رسائل
لن تقل عنها امتاعا بعد مضي أربعين سنة من الآن . لذلك أنصحكم
بالا تقذفوا بأى منها فى سلة المهملات (١٢٧) » .

واتصلت رسائلها مع بوب . فتوسل اليها أن تأخذ تأكيدات ماخذ
الجد ، ولكن نبرته كانت مزيجا محيرا من المزاج والحب . وقد تصور
تركيا فى خياله الشاطح « بلد الخيرة ، حيث لا تتحدث النساء التعمعات
مع أحد الا الخصيان ، وحيث يؤتى لهن بالطعام - حتى الخيسار -
مقطعا » . ثم أضاف وهو يفكر فى تشوه جسده محزونا « اننى شخصا
قادر على أن أتبع انسانا أحببته ، لا الى الأستانة فحسب ، بل الى
أرجاء الهند التى يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لأقبح الرجال
صورة ، ... ويرين فى التشوهات دلائل الرضى الالهى » . ويقول انه
سيعتنق الاسلام ان اعتنقته ويصحبها الى مكة ، وأنه لو وجد التشجيع

صدق (١٠٩) « . وأقام عليه الأميرال دعوى القذف ، فكابد سمولت الكافى لالتقى بها فى لمباردية ، « مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الأميرة الجنية وقزمها (١٢٨) » . فلما علم أنها عائدة الى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد ينتشي : « أكتب وكأننى ثمل ، فاللذة التى أجدها فى التفكير فى عودتك تطرينى فوق حدود التعقل واللياقة ... تعالى بالله ، تعالى يا ليدى مارى ، تعالى سريعا ! (١٢٩) » .

وأخفقت بعثة ورتلى ، ودعى للعودة الى لندن . ونحن نقرا عينة من أسفار القرن الثامن عشر فى رحيلهم من الامتانة فى ٥ يونيو ١٧١٨ ووصولهم الى لندن فى ١٢ أكتوبر . هناك عاودت الليدى مارى حياتها فى البلاط ومع الأدباء والظرفاء ، ولكن بوب الذى كان الآن عاكفا على ترجمة هومر ، كان مشغولا فى ستانتون هاركورت . على أنه انتقل فى مارس ١٧١٩ الى تويكنهام ، وفى يونيو وجد ورتلى والليدى مارى بمعونته بيتا هناك أيضا باعه لهما السر جودفرى نلر . وعقب ذلك دفع بوب لنلر عشرين جنيها ليرسم له صورتها (١٣٠) . وقد أجساد نلر رسمها مع أنه كان فى الرابعة والسبعين . فاليدان رائعتان ، والوجه يكاد يكون شرقيا كلباس الرأس التركى ، والشفتان ممثلتان امتلاء شهوانيا ، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخلبان الالباب - وقد أشاد بهما جاي فى أبيات فى هذه الفترة . وعلق بوب اللوحة فى حجرة نومه ، وخلدها فى قصيدة بعث بها اليها :

« البسمات اللعوب حول الفم المغمز ،

وسيماءالجلال والصدق السعيدة ،

ونظير هذا من تالق فى الذهن الرفيع

حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل ،

علم فى تواضع ، وحكمة فى اعتدال ،

عظمة فى غير تكلف ، وذكاء فى غير ادعاء (١٣١) » .

فى ذلك العام بلغ نجمها أوجها ، وبدأت الكوارث التى ابتليت بها . ذلك أن زائرا فرنسيا يدعى توسان ريمون أودع عندها ألفين من الجنيهاات لتستثمرها على الوجه الذى تستصوبه . فاشتريت بها أسهما

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب ، ولكن الأسهم هبطت هبوطاً مدمراً ، فأصبح الألفان خمسمائة ، فلما أنهت الأمر الى ريمون اتهمها بسرقة ماله (١٧٢١) . وفى السنة نفسها هدد حياة ابنتها التى ولدتها فى ١٧١٨ وباء جدرى أصابها ، فأرسلت فى طلب الدكتور ميقلاند الذى كان قد عاد من الاستانة ، فطعم الفتاة بناء على طلبها . وسرى فى مكان لاحق تأثير هذا المثل على الطب البريطانى قبل جنر .

وفجأة ، فى سنة ١٧٢٢ ، انهارت صداقتها لبوب . كانا الى شهر يوليو يلتقيان فى كثرة أثارت القيل والقال فى تويكنهام . ولكن فى سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية الى جوديث كوبر ، ذكر فيها على سبيل تعزيتها ، أن هناك اضمحلالا واضحا فى « ألمع ذكاء فى العالم » . وزعمت الليدى مارى أن بوب قد باح لها بحبه فى حرارة ، وأنه لم يغتفر لها قط الاستخفاف الذى قابلت به هذه المغامرة الجريئة (١٣٢) . ولزم الصمت برهة ، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره فى مناسبات يساهم يستشفها القارىء بسهولة . ولما كتبت لصديق تذكر أن سويقت وبوب وجاى هم الذين اشتركوا فى كتابة قصيدة غنائية شعبية ظن الصديق أنها من نظمها ، بعث اليها بوب بتوبيخ حاد ؛ وفى قصائده « المنوعات » التى نشرها فى ١٧٢٨ أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ :

« تلك ألاعيبك يا ليدي مارى ،

ولكن ما دمت تفقسين ، فاعترفى بأفراخك ،

وكونى أكثر حذقا فى نقراتك ،

فلا تنقرى كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (١٣٣) » .

وفى قصيدة سماها « التقليد » (١٧٣٣) أشار الى « سافو الهائجة . . . التى ابتلاها حبها بمرض . . . » وهو يعنى أن عشيقها أصابها بالزهري (١٣٤) . ويقول هوراس ولبول أنها هددت بأن ترسل اليه من يضربه بالسوط .

وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيار زواجها . ذلك أن ورتلى بعد أن استعاد مكانه فى البرلمان تركها مهملة

اهمالا واضحا فى توبيكنهام . وقد جعله موت أبيه (١٧٢٧) رجسلا عريض الثراء ، فزودها بحوائجها المادية ، ولكنه تركها لمواردها الخاصة فى شئون الحب . وأخذ ابنها يثبت أنه وغد كسول . أما ابنتها التى غدت امرأة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة . وحاول اللورد هرفى أن يحتل مكان بوب فى حياتها ، ولكن كان فى طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغتفر لها ، ولا لزوجته ، كونها امرأة . ولا بد أنه عرف بتقسيم الليدى مارى النوع الانسانى الى رجال ، ونساء ، وهرفيين (١٣٥) .

وفى ١٧٣٦ دخل نيزك ايطالى فلكها وغير مساره . ذلك هو فرانكشكو الجاروتى ، الذى ولد بالبندقية فى ١٧١٢ ، وكان قد أثار بعض المضجة فى دنيا العلم والأدب الخالص . وفى ١٧٣٥ كان ضيفا فى بيت فولتير ومدام دشاتليه فى سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن . ثم قدم الى لندن بخطابات تعريف من فولتير ، واستقبل فى البلاط ، والتقى بهرفى وبالليدى مارى عن طريقه . ووقعت فى غرامه كما لم تقع قط فى غرام ورتلى لأن قلبها كان خاليا ، ولأنه كان جميلا ، ذكيا ، شابا . وكانت ترتعد حين يخطر لها أنها فى السابعة والأربعين وأنه فى الرابعة والعشرين . وبدأ أن طريقها الى الرومانس قد غدا ممهدا بزواج ابنتها من ايرل بيوت (أغسطس ١٧٣٦) . فلما سمعت أن الجاروتى عائد الى ايطاليا أرسلت اليه خطابا يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة :

« لم أعد أعرف بأى طريقة أكتب اليك . فمشاعرى أقوى مما ينبغى ، وليس فى طاقتى أن أفسرها ولا أن أخفيها . فلكى تغتفر لى رسائلنى يحب أن تجيش فى صدرك حماسة كحماستى . واننى لأرى كل ما فى هذا من حماقة دون أى أمل فى اصلاح نفسى . فمجرد فكرة مشاهدتك أعطتنى نشوة تذيبنى ، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التى صنعت مجد أيامى الماضية وهدووعها ؟ لقد فقدتها الى الأبد ، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامى غير الملل القاتل . فاغفر هذا الشطط الذى كنت السبب فيه ، وتعال لترانى (١٣٦) » .

وأتى ، وتناول العشاء معها عشية رحيله . وكان هرفى قد دعاه أيضا : فلم يلب دعوته . فجن من الغيرة ، وكتب الى الجاروتى طعنا

مرا في الليدى مارى ، منبها اياه الى انها كانت تضيع على لندن كلها
غزوها الايطالى بهذه العبارة المزهوسة Veni. Vidi, Vici
« جئت ، ورأيت ، وغلبت » ربما ، ولكن رسائلها الى الجاروتى لم تكن
رسائل الغالب :

« ما أجبن الانسان حين يحب : أخشى أن اسمى اليك بارسالى
هذا الخطاب حتى ولو كان قد نسي أن أسمك . والحق أننى مجنونة
فى كل أمر يتصل بك حتى أننى لست واثقة من خواطرى . كل ما هو
مؤكد هو أننى سأحبك ما حييت ، برغم نزوتك وتعقلى (١٣٧) » .

ولم يرد على هذه الرسالة ، ولا على ثانية ، ولا ثالثة ، رغم
تهديدها بالانتحار . أما الرابعة فقد انتزعت منه ردا جاء كما تقول
« فى وقت مناسب جدا لانقاذ البقية الباقية من عقلى » . فقد عرضت
أن تتبعه الى ايطاليا ، ولكنه ثناها عن الفكرة ، وراحت تجتر غرامها
فى عزلتها ثلاث سنوات . ولكن فى ١٧٣٩ اقنعت زوجها بأنها فى حاجة
الى رحلة لايطاليا . وكان قد فقد حبه لها ، فاستطاع أن يتصرف تصرف
الانسان المهذب . فودعها حين غادرت لندن ، ووافق على أن يرسل لها
راتبا ربع سنوى قدره ٢٤٥ جنيها من دخله الخاص ، وأن يحول اليها
دخلها السنوى الذى أوصى به أبوها وقدره ١٥٠ جنيها . وسافرت
بأسرع ما تستطيع الى البندقية أملا فى أن تجد الجاروتى هناك ، ولكنه
كان قد ذهب الى برلين (١٧٤٠) ليعيش مع فردريك الثانى المتوج
حديثا ، وكان يحبه حب اللوطيين . واتخذت مارى لها بيتا على قناة
البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن ، وافتتحت فيه صالونا ،
واستضافت الادباء والكبراء ، وحظيت بالتودد اللطيف من نبلاء
البندقية وحكامها .

ثم غادرت البندقية الى فلورنسة بعد عام ، وأقامت شهرين فى
قصر ريدولفى ضيفا على اللورد والليدى بومفريت . ورآها هوراس
ولبول هناك ، وأرسل الى ه . س . كونواى وصفا رقيقا لها :

« هل أنباتك بأن الليدى مارى ورتلى هنا ؟ انها تضسحك من
الليدى ولبول (زوجة أخى هوراس) . وتقرع الليدى بومفريت ،

وتضحك منها المدينة كلها . ولا بد أن لباسها ، وجشعها ، ووقاحتها ،
تذهش أى انسان لم يسمع باسمها . فهي ترتدى قبعة بشعة (ترتبط
تحت الذقن) لا تخفى خصلاتها السوداء الدهنية القوام التى ترسلها
دون تمشيظ أو تجعيد ، وازارا أزرق قديما يفغر فاه ويكشف عن تنورة
من التيل . وقد انتفخ وجهها انتفاخا شديدا من أحد جانبيه بمخلفات -
غطى بعضها بلزقة ، وبعضها بالطلاء الابيض . . وقد قامت مرتين
أو ثلاثا فى لعبة ورق (تسمى الفرعونية) فى قصر الأميرة كراءون
حيث تغش بكل وسيلة فى اللعب . وهى فى الحق مسلية ، كنت أقرا
أعمالها التى تعيرها مخطوطة ، ولكنها نسائية الى حد مفرط ، وأعجبني
القليل من أعمالها (١٣٨) .

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس ، فقد جرى العرف فى
ايطاليا على أن ترتدى المرأة فى بيتها الثياب الفضفاضة المهمة توخيا
للراحة ، وما من شك فى أن وجه ماري كان منقرا جدا ، ولكن ليس
بالزهري بالتأكيد (١٣٩) . وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء
مخطوطاتهم . وقد أثارت الليدى ماري استياء ولبول الشاب بمصادقتها
لمولى سكيريت ، التى ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لأبييه .
ولعل الليدى ماري كانت أكثر اهمالا لمظهرها مما اعتادت بعد أن خلنت
أنها فقدت الجاروتى الى الأبد .

ثم علمت أنه فى تورين ، فهرعت اليها ، ولحقت به (مارس
١٧٤١) ، وعاشت معه شهرين . ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة ،
وسرعان ما تشاجرا وافترقا ، فمضى هو الى برلين ، وهى الى جنوه .
هناك رآها ولبول مرة أخرى ، واستمتع بكرم ضيافتها ، ووجهه الى
مركبتها أبياتا تنفث السم :

« ايه ايتها العربة ، يا من حكم عليك بأن تحملى

جلد الليدى ماري العفن ،

أذهبى بها الى أقصى ركن فى ايطاليا ،

وأنزليها بالله حية ،

ولا تعجنى بهزاتك ولطماتك

نصف الأنف الذي مازالت تحتفظ به (١٤٠) » .

وفى ١٧٦٠ أبهجها أن تعلم أن صهرها أصبح عضواً فى المجلس الخاص لجورج الثالث . وفى ٢١ يناير ١٧٦١ مات زوجها تاركاً معظم ثروته لابنته ، و ١٢٠٠ رطل جنيه فى العام لأرملة . وعادت الليدى ماري الى إنجلترا (يناير ١٧٦٢) بعد غيبة امتدت إحدى وعشرين سنة ، أما لأن موت زوجها أزال عقبة خفية فى سبيل رجوعها ، وأما لأن سطوع نجم صهرها فى عالم السياسة قد اجتذبها الى وطنها .

غير أن الأجل لم يمهلها أكثر من سبعة أشهر ، ولم تكن بالأشهر السعيدة . ذلك أن مطاردتها للجاراتى ، وأنباء كتلك التى أشاعها عنها هوراس ولبول ، كانت قد سوات سمعتها ؛ ثم ان ابنتها لم تسعد بصحبة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها . وفى يونيو بدأت الليدى ماري تشكو ورماً فى صدرها . وتقبلت فى هدوء مصارحة طبيبها لها بأنها مصابة بالسرطان ، وقالت انها عاشت من العمر ما يكفى . وماتت بعد شهر من الألم (٢١ أغسطس ١٧٦٢) .

وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطى القراء جانبها من القصة ، وتدعم حقها فى تذكر الناس لها . ولكنها كانت قد عهدت بمخطوطاتها الى ابنتها ، فبذلت هذه الابنة (الليدى بيوت) التى غدت الآن زوجة لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنح نشرها . على أن الرسائل التى كتبتها من تركيا نسخت سرا قبل أن تسلم لابنتها ، وصدرت فى ١٧٦٣ . وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها ، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسن وجبون . أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهى حية ، فقد أسرفوا الآن فى أطراء رسائلها . وكتب سمولت يقول أن الرسائل « لم يكتب نظيرها أى كاتب رسائل من أى جنس ، أو سن ، أو أمة » وفضلها فولتير على رسائل مدام سفنييه (١٤١) . وقد م ٢٠ - قصة الحضارة

أحرقَت الليدي بيوت قبل أن تموت في ١٧٩٤ يومية أمها الضخمة ،
ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر . فسمح بنشر بعضها
في ١٨٠٣ ، أما الرسائل التي كتبتها لألجاروتي فظلت طي الخفاء الى
أن اقنع بايرون جون مري بأن يشتريها من صاحبها الايطالي (١٨١٧) .
ولم يكتمل نشرها الا عام ١٨٦١ ، واعترف الناس بان الليدي ماري
تشارك بوب ، وجراي ، وجاي ، ورتشردسن ، وسمولت ، وهيوم ،
الفضل في جعل أدب انجلترا أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعا
وحيوية وتأثيرا

الفصل السادس

التصوير والموسيقى

١٧١٤ - ٥٦

١ - المصورون

لم تكن انجلترا التي سطع نورها الاصيل في عالم الادب والسياسة سوى تابع متواضع في دنيا الموسيقى والتصوير . وكان لتخلفها في التصوير أسباب كثيرة ، ليست منها أجواؤها المعتمدة ، فالأجواء اعتمدت في الأراضي المنخفضة كذلك ، ومع ذلك حفلت هولندا بمصورين كثيرين كثرة طواحين هوائها . وربما كان المانش أحد الأسباب ، لأنه كان أشبه بالترس منع عن انجلترا الفنون كما وقاها حروب القارة ، وربما كانت الموهبة الانجليزية غارقة في التجارة وفي الحرب بعد ولبول . وقد تلام البروتستنتية على ركود الفن الانجليزي ، لأن الفن ينمو ويتزعرع على الخيال ، والبروتستنتية اقصدت الخيال عن الفن وكرسته للادب واللاهوت ، ولكن يرد على هذا أيضا بأن هولندا كانت بروتستنتية . وأغلب الظن أن العامل الأهم كان الثورة والتراث البيورتانيين ؛ اعدام تشارلز الأول عاشق الفن ، وتشيتت مجموعته الفنية ، وانحسار الذهن الانجليزي - باستثناء ملتن - خلال فوضى الجمهورية (الكومنولث) . وقد طأطا التأثير البيورتاني رأسه خلال عودة الملكية ، ولكنه عاد يرفعه مع وليام الثالث والهانوفرين ، ثم اتخذ في الميثودية صورة منبعثة القوة ، وغدا الجمال خطيئة مرة أخرى .

كان هناك منجزات صغيرة في الفنون الصغرى . من ذلك أن الخزف البديع الناعم العجينة صنع في تشلسي (١٧٥٥) تقليدا لخزف مايسين وسيفر . وأثرى خزافو برمنجهام من صنع الانية من اللك (اللاكيه) . وبلغ ثراء أحدهم ، واسمه جون بسكرفيل ، مبلغا أتاح له أشباع هوايته بطبع طبوعات جميلة للشعراء الانجليز . وزينت حنايا البروكوك المتسمة بالخيال الجامح الكتب والقماش والاثاث والأواني

وفضة شفيلد وقاعة الروتندا فى حدائق فوكسهول ، وبعض الحجرات فى قصر تشستر فيلد وسترويرى هل .

أما المثالون فكان الناس قد بدأوا يفرقون بينهم وبين البنائين . وكان أقطاب المثالين فى انجلترا أجنب المولد وان أصبحوا عادة مواطنين بريطانيين . فوفد بيتر شاميكز من أنتويرت ، واشرك مع لوران ديلفو فى نحت تمثال دوق بكنجهام ونورمانديه فى دير وستمنستر . وكان أعظم هؤلاء الأجنب لوى روبياك ، وهو ابن مصرفى من ليدن ، قدم الى انجلترا فى ١٧٤٤ وارتقى سريعا بفضل رعاية آل ولبول . وقد نفذ تمثال شكسبير النصفى المعروض الآن بالمتحف البريطانى ، وتمثال هندل المعروض بقاعة الصور القومية ، وحبته الملكة كارولين برعايتها ، وجلست اليه ليصنع لها تمثالا ، وكلفه بأن ينحت تماثيل نصفية لبويل ، ونيوتن ، ولوك ، وغيرهم من أفاضل الانجليز لتضعها فى مغارتها برتشموند . وقد لقب تشتر فيلد (وكان ذواقة للفنون) روبياك - « فيدياس زمانه (١) » . ومات روبياك مفلسا فى ١٧٦٢ بعد أن عاش حياة ملؤها التفانى فى خدمة فنه .

أما العمارة فكانت فى نشوة من فن بالاديو . ذلك أن الثروة المتصاعدة التى حققتها العائلات العليا التى أثرت وهى منبرمة فى ظل السلام الوبولى قد مولت مئات الرحلات الكبرى ، التى تشرب فيها السادة البريطانيون حب معابد الرومان وقصور النهضة . وكانت البندقية دائما تدخل فى أسفارهم ، فيقف المسافرون فى الطريق عند فتشنتسا ليعجبوا بواجهات بالاديو ، فاذا عادوا ملأوا انجلترا بالأعمدة والاعتاب والقواصر الكلاسيكية . وفى ١٧١٥ - ٢٥ أصدر كولين كامبل كتابه « فتروفيوس بريتانيكوس » الذى أصبح انجيل البلاديويين ، ودفع وليم كذت (١٧٢٧) وجيمس جيز (١٧٢٨) الطراز دفعة أخرى بتأليف كتيبات فى العمارة ، وفى ١٧١٦ نشر رتشرد بويل ، إيرل برلنجنن الثالث ، طبعة فاخرة من نصوص بالاديو ، وفى ١٧٣٠ نشر ترميمات بالاديو للصروح القديمة . واحتوى بيته الريفى فى تشريك على نسخة من « فيلا روتندا » التى بناها بالاديو فى

فتشنتسا ، برواقها المعمد وقبتها الوسطى . وكان برلنجن راعيا سخيا
للآداب والموسيقى والفن ، وصديقا لباركلى وهندل وبوب وجاى .

وفى ١٧١٩ جلب معه من روما معماريا شابا يدعى وليم كنت ظفر
بجائزة بابوية على رسومه ، وكان شديد التحمس لكل ما هو كلاسيكى .
وغدا كنت أحب الفنانين وأحفلهم بالمواهب فى انجلترا ، بعد أن سكن
قصر برلنجن حتى وفاته (والقصر مازال بعد تجديده مركزا من مراكز
الفن الانجليزى) فصور أسقف قصور هوتن وستو وكنزنجتن ؛ وصمم
الآثاث وصحاف الطعام والمرايا والزجاج ، ومركبا للمهرجانات وملابس
لسيدات المجتمع ، ونحت تمثال شكسبير فى دير وستمنستر ؛ وكان ممن
ترعّموا حركة تشجيع الحديقة الانجليزية « الطبيعية » ؛ وفى ميدان
العمارة شيد معبد الفضيلة القديمة فى حدائق ستو ، وقصر ديفونشير
ببيكادلى ، وقصر حرس الخيالة فى هوايتهول ، وقاعة هولكم المدهشة
فى نورفوك .

وفى ١٧٣٨ رفع اللورد برلنجن الى مجلس مدينة لندن تصميم
كنت البالاديوى لمسكن عمدة لندن « مانشن هاوس » ، واعترض عضو
بان بالاديوى كان بابويا ، فرفض تصميم كنت ، وتلقى جورج دانس
الآب التكليف (وكان بروتستنتيا) وقام به خير قيام . ولكن فى ذلك
العام بدأت الحفائر فى هر كولانيوم ، وأفضت الكشف فيها الى الحفر
عن بومبى (١٧٤٨ وما بعدها) ، وفى ١٧٥٣ نشر روبرت وود
« أطلال بلميرا (تدمر) » وفى ١٧٥٧ « أطلال بعلبك » ، وأعطت
هذه الكشف للحملة الكلاسيكية فى انجلترا دفعة لا تقاوم ، ووضعت
حدا لوفرة التزييق الباروكى الذى ازدهر فى قصر فانبروج « بلنهم »
الذى بنى لأسرة تشرشل . وفى ١٧٤٨ بنى اسحاق وير ، وهو معمارى
آخر كان يرعاه برلنجن ، قصر تشستر فيلد فى شارع كرزى .

وقد فات البالاديويين فى تحمسهم هذا أن العمارة الكلاسيكية
انما صممت لأجواء البحر المتوسط لا لرياح انجلترا وغيومها . وأخطأ
كولن كامبل خطأ جسيما بنقله عن النماذج الايطالية دون أن يطوعها
لشتاء انجلترا ؛ فقلعة ميروث التى بناها لم تسمح الا لبصيص من أشعة

الشمس بحولها ، أما قاعة هوتن التي شادها لروبرت ولبول فقد ضحت.
يحجرات المعيشة ايثارا للصالات الفخمة التي تلقف التيارات الشديدة.
البرودة . واستخدم جيمس جيز ، أحد تلايذ كرستوفر رن ، الطراز
الكلاسيكى استخدما رائع التأثير فى كنيسة سانت مارى - لستراند
يلندن (١٧١٤ - ١٧) ، ويرج هذه الكنيسة أشبه بأغنية من الحجر .
وأضاف جيز (١٧١٩) الى كنيسة سانت كلمنت دين التي بناها رن
برجا يعطو علوا لا يتناسب مع قاعدته ، ولكنه مع ذلك جميل جمالا
محفوظا بالخطر . وتوج عمله فى ١٧٢١ برواق كلاسيكى وأعمدة كورنثية
فى سانت مارتنز - ان - ذفيلدز ، بميدان ترافلجار . وأخيرا خلق
فى مكتبة رادكليف باكسفورد (١٧٣٧ - ٤٧) لحنا منسجما من الأعمدة
والقبة .

أما بهاء بات المصارى فالفضل الأول فيه لجون وود . وكانت
الفكرة المسيطرة عليه هى ربط المباني المفردة فى كتلة واحدة ، ومن ثم
صمم وبدأ - وأكمل ابنه جون بكفاية - « الهلال الملكى » الضخم - وهو
ثلاثون بيتا وراء واجهة موحدة من ١١٤ عمودا كورنثيا - دمرت تدميرا
شديدا فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن أمكن ترميمها . وعلى مقربة
من هذا المكان بنى وود الأب والابن « السيركس » (الميدان)
(١٧٥٠ - ٦٤) ، وهو دائرة جميلة من المساكن يكسو واجهتها أفريز
مقتصل وثلاثة صفوف من الأعمدة ؛ هنا سكن بت الأب ، وتوماس
جيتزبورو ، وكليف حاكم الهند . وصمم وود - دون أن يكمل - لجوانب
ثلاثة من « كوين سكوير » سلسلة أخرى من المنازل الموحدة وراء واجهة
تحكى واجهات قصور النهضة . والكثير من هذا البرنامج ، برنامج
تصميم وبناء المدن ، موله رالف ألين الذى اتخذ فيلدنج نموذجا صاغ
على غرار « سكواير أولورذى » . وبنى وود الأب لالين قصرا فاخرا
بلاديوى الطراز فى برايور بارك (١٧٣٥ - ٤٣) ، خارج بات.
بميلين .

لقد كان فقر جماهير بريطانيا يعدله بهاء قصورها . فقد تكلف
معبد ألن فى برايور بارك ٢٤٠.٠٠٠ جنيه . وأوحت نزوة المباراة
للتبلاء والتجار بإقامة القصور الضخمة للضيافة والتباهى . ويقسول.

هرفى ان روبرت ولبول اكتسب عدااء اللورد تاونشند الابدى بينائه هوقن هول على مستوى اشد ترفا حتى من قصر تاونشند المجاور المسمى رينهام بارك . وقد ندد اللورد لثقتن بهذا « الجنون الوبائى » جنون بقاء القصور ، ومع ذلك طالبت زوجته بقصر جديد يبنى على الطراز الايطالى ، فاذعن لها تحت ضغط الالاحاح والى حد اشرف به على الافلاس . فلما تم بناء القصر هجرت زوجها الى مغنى اوبرا ايطالى مشكوك فى رجولته ، وسرعان ما انتشرت فى انجلترا ، وحتى فى ايرلندا الانجليزية ، امثال هذه البيوت المظهيرية التى بناها الأغنياء . ونظمت الرحلات السياحية ، ونشرت الكتب المرشدة ، لزيارة هذه المساكن الفخمة وحدائقها وقاعات صورها . وطبقت شهرة هذه الصروح الافاق حتى بلغت روسيا ، فطلبت كاترين الكبرى الى جوسيا ودجوود ان يصنع لها طقم مائدة امبراطوريا مزينا بمناظر من قصور الريفه الانجليزية (٢) .

واودعت معظم الصور فى انجلترا ، واخفيت فى كثير من الحالات ، فى هذه البيوت الارستقراطية اذ لم يكن هناك بعد متاحف يستطيع الجمهور العام ان يشاهد فيها الصور . وكانت الرعاية تغدق بوجه خاص على الفنانين الاجانب ، وكلها تقريبا لقاء لوحات تصور الاعيان الذين داعبهم الامل فى ان يخلدوا على القماش بينما تبلى اجسادهم داخل توابيت من الخشب ؛ ولم يكن هناك سوق للمناظر الطبيعية ولا للوحات « التاريخية » . فلما وفد كارل فانلو على انجلترا فى ١٧٣٧ تهافت الكثير جدا من الوجوه النبيلة عليه ليصورها ، حتى ان رتل العربات المقتربة من بيته ظل اسابيع ينافس ذلك الواقف امام المسارح . ودفعت المبالغ الطائلة للرجل الذى كان يسجل مواعيده رشوة يؤدونها له ليسبقوا غيرهم والا فقد يضطر الواحد منهم الى الانتظار ستة اسابيع (٣) .

وحاولت « الجمعية الملكية للفنون » التى أسست عام ١٧٥٤ ان تشجع المواهب الوطنية بالمباريات والمعارض ، ولكن الطلب على التصوير الانجليزى تباطأ جيلا آخر . وظفر جوزف هايمور ، وهو تلميذ لنلر ، ببعض المشترين للوحاته حين رسم مشاهد من رواية

« باملا (٤) » ؛ والتقط توماس هدرسن بعض حيوية هندل فى لوحته التى رسمها له فى ١٧٤٩ (٥) . وكان من تلاميذ هدرسن مصور يدعى جوشوا رينولدز ، تنبأ أستاذه بأنه « لن ينبغ أبدا (٦) » . ولكن السر جيمس ثورنهل كان أبعد نظرا . فقد حقق نجاحا بصور نيوتن ، وبنتلى ، وستيل ، وصور القبة الداخلية لكنيسة القديس بولس ، وأسقف مستشفى جرينتش وقصر بلنهييم ، وأحرز الخلود بالانابة ، لأنه زوج ابنته لأعظم مصورى العصر الانجليز قاطبة .

٢ - وليم هوجارث : ١٦٩٧ - ١٧٦٤

كان أبوه مدرسا وكاتبا أجيرا ، الحقه فى صباه بنقاش للأسلحة . وانتقل من ذلك الى الحفر على النحاس ، ثم الى رسم الرسوم الايضاحية للكتب . وفى ١٧٢٦ أعد اثنتى عشرة محفورة (كلشيهات) كبيرة لكتاب بطر « هوديبيراس » . ثم التحق بفصل التصوير الذى كان يعلم فيه ثورنهل ، وتعلم التصوير بالزيت ، ثم هرب مع ابنة أستاذه ، وصفح عنه ثورنهل وعيئه مساعدا له .

كانت الرسوم الايضاحية التى رسمها هوجارث لمسرحية العاصفة ، ولمسرحيتى هنرى الرابع ، ولأوبرا الشحاذ ، صورا نابضة بالحياة . فميراندا رقيقة حنون ، وكالبان فظ غليظ ، وبروسبرو عطوف كريم ، وايريل يداعب مزهرا فى الهواء ، والسير جون فلسستاف يتكلم من كرشه بخيلاء ، والكبتن ماكهيث فى أغلاله وألحانه ، بطل فى عيون زوجاته رغم كل شيء . ووقع هجاء المستقبل على ذلك العرق الذى تميز به ، وذلك فى لوحة « المصلين النيام » ، فقد كره هوجارث كل المواعظ الا مواعظه ؛ أما فى « حفلة الأطفال » فقد تلذذ بأجمل جوانب الحياة الانجليزية . وهذه الصور تلذنا الآن ، ولكنها لم تأت بهنساء وقتها .

وجرت تصوير الاشخاص ولكنه لم يحقق نتائج تذكر ، وكانت المنافسة قاسية ، فأكثر من عشرة مصورين يجمعون ثروات صغيرة بتملق زبائنهم وتوزيع العمل على مساعديهم ؛ فهم يرسمون الرأس ولكنهم يحيلون رسم الخلفيات والسقائر لمساعدين يبخسونهم أجورهم . يقول هوجارث

« وكل هذا يتم بسرعة مريحة تتيح للرئيس الحصول فى أسبوع واحد على مال أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه رجل ذو مواهب فنية من أعلى المراتب فى ثلاثة أشهر (٧) » . وندد بتجار الوجوه هؤلاء الذين جملوا وجوه زبائنهم اشباعا لغرورهم واستدرارا لمالهم . أما هو فمذهبه أن يصور زبائنه بكل ما فيهم من دمايل والا فلا . فلما جلس اليه نبيل تغلب عليه سيماء القردة صورته هوجارث بأهانة مؤذية . ورفض اللورد أن يأخذ صورته اذ لم يكن قد رأى نفسه قط كما يراه الآخرون . فأرسل اليه المصور رسالة جاء فيها :

« المستر هوجارث يقدم احتراماته الواجبة للورد - واذا وجد أنه لا يريد أن يأخذ الصورة التى رسمت له ، فهو يذكره مرة أخرى بحاجة المستر هوجارث الى المال . فاذا لم يرسل سيادته فى طلب الصورة خلال ثلاثة أيام ، فسيبيعها ، بعد اضافة ذيل وغيره من الملحقات الصغيرة ، الى المستر هير مقتنى الوحوش الشهير ؛ لأن المستر هوجارث قطع لذلك السيد عهدا باعطائه الصورة لعرضها فى معرض للصور (٨) » .

ودفع اللورد المال .

وكان هوجارث واثقا من أن فى استطاعته أن يرسم صور الاشخاص كأي فنان قدير . وبينما كان يصور هنرى فوكس (البارون هولاند فيما بعد) أخبر هوراس ولبول أنه وعد فوكس انه اذا جلس متبعا تعليماته فانه سيرسم له صورة لا تقل روعة عن صور روبنز أو فانديك (٩) ، وهو ما صدم هوراس فى الصميم من تقاليد . وربما برر كذير من لوحات هوجارث التى رسمها للذكور استنكار ولبول لها ، فالوجوه « مقولية » جدا ، وبعضها يستحق وصف هوجارث الهازىء لبعض الصور الانجليزية بالـ « ساكنة » ولكن يجب أن نستثنى منها لوحة « السر توماس كورام » التى أسلفنا ذكرها فى معرض الحديث عن الاحتفال بمستشفى اللقطاء الذى أسسه كورام ، والذى ترى فيه صورته ، فقد التقط هوجارث الطبيعة البارة بالناس فى الوجه المبتسم ، والخلق الحازم فى اليدين المقبوضتين . ولقد كانت فرشاته ، بوجه عام ، أرفق بالنساء منها بالرجال . مثال ذلك أن « صورة سيدة » تنافس صور

جانزبورو ، وصورة « سيدة فى ثياب بنية (١١) » لها الملامح القوية لامرأة أفلحت فى تربية أطفال كثيرين ؛ واذا كانت صورة « الأنسة مارى ادوردز (١٢) » ميتة نوعا ما ، فإن الكلب - وهو حاضر دائما فى لوحات هوجارث - يبعث فيها الحياة ، وأروع من هذه الصور اللوحات الجماعية مثل « أسرة برايمس (١٣) » و « أبناء جراهام (١٤) » وأفضل حتى من هذه « خدم هوجارث (١٥) » ، حيث ترى كل وجه مرسوما فى حب بكل طابعه المتفرد . وأبدع صورته كلها بالطبع هى « بائعة الجمبرى (١٦) » - وهى ليست لوحة شخصية بل ذكرى رجل سليم قوى المصيبة التى رآها تبيع الجمبرى من سلة متزنة على رأسها ؛ فتاة عطلت من كل زينة أو زخرف ، لا تستحى من الأسمال التى تكسوها ، تطل على الدنيا وقد توردت وجنتاها وتألقت عيناها صحة وعافية بفضل الحركة والنشاط .

وقد ترك هوجارث على الأقل أربع لوحات صور نفسه فيها . ففي ١٧٤٥ صور نفسه مع كلبه السمين « ترمب (١٧) » . وفى ١٧٥٢ أرانا نفسه جالسا الى حامله ، جسم قصير متين ، ووجه مستدير قصير سمين ، وأنف أفطس عريض ، وعينان زرقاوان أتعبهما طول النضال وشفقتان مزمومتان تحفزا لاستئناف النضال . كان فى رأى ثكرى « مواطنا لندنيا أمينا مرحا ، ورجلا مخلصا صريحا ، يحب نكتته ، وأصحابه ، وكاسه ، وروزبيفه - روزبيف انجلترا العجوز (١٨) » . ولم يكن يصل طوله الى خمسة أقدام ، ولكنه كان يحمل سيفا (١٩) ولا يطيق اللغو من أى انسان . ووراء حبه للقتال دفاعا عن النفس قلب محب ، مسرف فى العاطفة أحيانا ، قطع على نفسه العهد أبدا بشن الحرب على النفاق والقسوة . وكان يحتقر النبلاء الذين يصورهم ، ويحب اللندنى البسيط البرىء من الخيلاء . وقد أدخل الجماهير الانجليزية الى دنيا الفن ، فصورهم فى أثنائهم وآلامهم ، فى مستشفى المجاذيب ، والمسجن ، والدين ، والكد المضنى . وكره الفرنسيين لأنهم أفسدوا الانجليز بغلوهم فى الزينة وبخيلائهم الارستقراطية . ولم ينس قط أنه قبض عليه لأنه رسم رسوما تخطيطية لبوابة كاليه ، فثار لنفسه بتصويره الفرنسيين كما رأهم هناك : عمالا أجلافا ، وجمهورا يؤمن بالخرافة ، وراهبا بدينا يحدق بنشوة فى كتف من لحم البقر (٢٠) .

وقد أنبأنا هوجارث فى كتابه « نوادر » كيف حولته ضالة ربحه من صورته الى الاتجاه الذى اكسبه الشهرة ، قال :

« كرهت أن أنحدر الى درك « صانع » الصور الشخصية ، واذ كنت لا أزال أصبو الى الاستقلال فى عملى ، فقد طلقت كل أمل فى الانتفاع من ذلك المورد . . . وبما أننى لم أستطع اقناع نفسي بالعمل كما يعمل بعض اخوانى ، وجعل تصوير الاشخاص ضربا من الصنعة يدار بالاستعانة بمصورى الخلفيات والستائر ، لذلك لم تحقق لى هذه الطريقة من الربح ما يكفى لسد نفقات أسرتى . ومن ثم وجهت أفكارى الى رسم وحفر الموضوعات الخلقية العصرية ، وهذا ميدان لم يطرق شئ اى بلد أو عصر (٢١) » .

وتتلى ذلك رسم فى ١٧٣١ سنة صور سماها « رحلة بغى » ، وحفرها على النحاس ، ومن هذه المحفورات صنع سلسلة من النسخ المطبوعة عرضت للبيع بعد عام ، ترى فيها الفتاة القادمة من الريف تقدمها قوادة قادرة على الاقناع الى سيد ملهوف ؛ والصبية سريعة التعلم ، ولا تلبث أن تحرز ثراء قبيحا . ثم يقبض عليها لا للبغاء بل للسرقة ، وتؤدى عملها المفروض عليها فى السجن وهو نفذ القنب ، ثم تسير حثيثا الى المرض والموت ، ولكن يعزيها أن يشيع جثمانها رهط من المومسات . وكان فى استطاعة هوجارث أن ينقل شخوصه من الواقع دون مشقة أو عناء ، فقد رأينا المسز نيدهام ينكل بها فى المشهرة عقابا لها على احترافها البغاء ، ويحصبها الجمهور ، وتموت من اصاباتها . (ومع ذلك فان الكولونيل تشارتريز ، الذى اتهم مرتين بهتك العرض وحكم عليه مرتين بالاعدام ، عفا عنه الملك مرتين ، ومات فى أبهة النبلاء بمقره بالريف (٢٢)) . وقد أخطأ هوجارث حين خيل اليه أنه طرق ميدانا جديدا فى هذه الرسوم التى تمثل الحياة اليومية ، فقد سبقها الكثير فى ايطالية النهضة ، وفى فرنسا ، وفى الأراضي المنخفضة ، وفى المانيا . ولكن هوجارث جعل الآن من « الموضوعات الخلقية » فنا وفلسفة . على أنه ، ككل الاخلاقيين ، لم يكن مبرا من الاثم ، فقد أطاق فى غير اشمئزاز صحبة السكارى والبغايا (٢٣) ، وكان الهدف من صورته المطبوعة أولا التكسب ، ثم التبشير بالفضيلة إن أمكن .

وراجت صور « البغى » المطبوعة ، فاستهوت ألفا ومائتى مكتب ،
يونيف ربحها الصافى على ألف جنيه . ومع أن طبعات مسروقة كانت
تنتقص من ربح المصور ، فانها أبعدت شبح الجوع عن بابه . وأقبل
الجمهور البريطانى فى غير تردد على مناظر الخطيئة هذه ، وهو
الذى لم يكن به ولى باللوحات ، فهنا فاكهة محرمة ، طهرتها الفضيلة
ولكنها لم تنتقص من بهجتها ، وهنا يستطيع المرء لقاء ثمن زهيد أن
يتعرف الى الرذيلة وهو فى مأمن ، وأن يرقب عقابها الذى تستحقه
وهو راض . واستطاع هوجارث الآن أن يطعم أسرته من مكاسبه ، لا بل
اتخذ مسكنا له فى حى لستر فيلدز العصرى ، وعلق على بابه رأسا
مذهبا يشير الى مهنته فنانا . وقد اشترى بعد ذلك بيتا ريفيا فى
كزيك .

ثم رسم صورا كبيرة فى السذوات القليلة التالية ، لا سيما
« مهرجان سذيرك » - وهى لوحة « بروجالية » انجليزية - ولوحة
جماعية لطيفة تدعى « أسرة أدوردز » ولكنه عاد الى رسومه المطبوعة
فى ١٧٣٣ ، وعارض سلسلة « البغى » بسلسلة سماها « رحلة فاجر »
تبرى فيها شابا طائشا مفتونا يرث فجأة تركة كبيرة ، فيهجر أكسفورد
الى لندن ، ويستمتع بالحنانات والمومسات ، ويبدد ماله ، ويجر الى
السجن لعجزه عن الوفاء بديونه ، ثم تنقذه خليلته التى نبذها ،
ويستعيد قدرته على الوفاء بديونه بالزواج من كهله عوراء غنية ، ولكنه
يقامر بثروته الجديدة فى نادى هوايت ، فيودع السجن مرة أخرى ،
ويختتم سيرته مجنونا فى مستشفى « بدلام » . لقد كانت تمثيلية
أخلاقية فى صور سهلة الفهم تصور قطاعا من الحياة تصويرا دقيقا .
ولكى يحمى هوجارث سلسلة صور « الفاجر » المطبوعة من السرقة
شن حملة تستهدف الحماية القانونية لحقوقه . وفى ١٧٣٥ أقر
البرلمان « قانونا لتشجيع فنون الرسم ، والحفر ، والنقش الخ » ،
وهذا القانون ، الذى تعارف الناس على تسميته « قانون هوجارث »
أعطاه حقا يعادل حق التأليف على صور المطبوعة . وفى ١٧٤٥ باع
بالمزاد اللوحات التى حفر عنها سلسلتى « البغى » و « الفاجر » ،
فربح منها ٤٢٧ جنيها .

وتوافرت له الآن الكفاية المالية والثقة بالنفس ، فغزا غزوة أخرى

فى التصوير . « لقد راودتنى بعض الآمال فى أن أنجح فيما يسميه المغالون فى اطراء الكتب « الأسلوب العظيم فى تصوير التاريخ (٢٤) » . وفى العقد الممتد من ١٧٣٥ الى ١٧٤٥ أنتج صوراً رائعة كان عليها أن تنتظر قرناً لتحظى بالتقدير . فلوحة « الشاعر المحزون (٢٥) » هى القصة القديمة ، قصة المؤلف الذى افتقر يطالب فى الحاج بايجار مسكنه بينما تحيك زوجته فى عصبية وينام قطه فى رضى خلى من الهم . وحاولت لوحته « بركة بيت حسدا » رسم مشهد من الأنجيل ، ولكن هوجارث تبلى بحسنا نصف عارية تقف أمام المسيح وجها لوجه . ولم يكن الفنان معصوماً من اغراء جسد الانثى ، ففي محفورته « الممثلات المتجولات يرتدين ثيابهن فى جرن » خلج على هذا الجسد مزيداً من الفتنة والاغراء بالثياب نصف المجردة . وتقرب لوحة « السامرى الصالح (٢٦) » من مستوى « أئمة التصوير القدامى » . والطف منها لوحة كبيرة سماها « ديفد جاريك فى دور رتشرد الثالث (٢٧) » وقد كلفه بها رجل يدعى دنكوم دفع فيها مائتى جنيه ، وهذا أغلى ثمن دفع لمصور انجليزى الى ذلك الحين .

ومع ذلك لم تظفر هذه الأعمال باستحسان النقاد . فعاد هوجارث (١٧٥) الى هجو الحياة اللندنية فى محفورات أكد فيها المناقش درساً أخلاقياً بقصة . ففي المشهد الأول من « الزواج العصرى » يتعاقد ايرل مفلس مصاب بالنقرس ليزوج لقبه وابنه الكاره فتاة كارهة هى ابنة حاكم اقليمى غنى . ويعرض الأيرل نسب الأسرة فى شكل شجرة على درج ، ويرش المحامى المسحوق المجفف على التوقيعات ، ثم يدير العريس ظهره للعروس التى تلقى أذناً مصغية لعشيقها ، ويختص كلبان نفسيهما بالسلام العائلى . وفى المنظر التالى يبدو الزوجان وقد تخاصما . فقد عاد اللورد الشاب منهوكاً من مغامرة أنفق فيها ليله ودلت على طبيعتها قلنسوة فتاة من الدنتلا تطل من جيبه ؛ اما الزوجة الشابة فتتأعب بعد أن قضت الليل ترفه عن أصحابها بالموسيقى والقمار و « الدردشة » ، وهنا أيضاً ليس هناك مخلوق سعيد الا الكلب . أما المشهد الثالث فهو هوجارث فى أجراً حالاته ، ترى فيه اللورد الوجد يأتى بخليته الى طبيب دجال ليجهضها ، والمنظر الرابع يرينا الزوجة أثناء ترجيل شعرها فى استقبال الصباح ، ونرى عشيقها معها وهى تتجاهل الموسيقى التى يعزفها أو يغنيها

ضيوفا ، وفيهم مخنث فى شعره أوراق ملفوفة . وفى المنظر الخامس أمسكها زوجها متلبسة مع عشيقها ، ويستل الرجلان سيفيهما ، ويجرح الزوج جرحا مميتا ، ويفر العشيق من النافذة ، ويغلب الندم الزوجة ويظهر رجل الشرطة بالبواب . وفى المنظر الأخير نرى الأرملة الشابة تحتضر ، وينزع أبوها خاتما ثمينا من أصبعها ليستنقذ البقية الباقية من الثروة التى دفعها ثمنا للقبها .

وفى ١٧٥١ أعلن هوجارث أنه سيبيع بالمزاد فى ساعة محددة فى مرسومه اللوحات الزيتية التى رسمها لسلسلة « الزواج العصرى » ، ولكنه أنذر تجار الصور أن يبتعدوا عن المزاد . فلم يظهر غير شخص واحد ، عرض ١٢٦ جنيها ثمنا للوحات وأطرها . ونزل عنها هوجارث لقاء هذا الثمن ، ولكنه سخط فى سره على ما رآه اخفاقا معيبا . وفى ١٧٩٧ بيعت هذه اللوحات بمبلغ ١٣٨١ جنيه . وهى اليوم من أعلى ما تملكه قاعة الصور القومية بلندن .

وكان أثناء ذلك قد أسخط الملك بلوخته « زحف فرقة الحرس الى اسكتلندة » (١٧٤٥) وكانت السنة التى حاول فيها « الأمير تشارلى الجميل » الأطاحة بالهانوفرين . وصور هوجارث رجال الحرس الملكى يتجمعون عند احدى ضواحي لندن المسماة فنشلى . يدعواهم زمار وطبال ، ويستعين الجند على تقبل قدرهم بالسكر ، وهم جماعة مظهرهم زرى ، وأصلح للقصف فى حانة منهم للقاء مع الموت فى ساحة الأبطال ، وأطلع جورج الثانى على اللوحة كطلب الفنان الذى استأذن فى اهدائها اليه . ولكن الملك رفض وهو يصيح « ماذا ؟ مصور يهزا بجذدى ؟ انه يستحق أن يحبس عقابا على وقاحته . اغربوا باللوحة الحقيرة عن وجهى » وتقول رواية غير مؤكدة أن هوجارث أهدى الصورة الى فردريك الأكبر بوصفه « مشجعا للفنون والعلوم (٢٨) » .

وعاد الى صوره المطبوعة الهجائية . فتتبع سيرة صبيين من صبيان الصناع فى اثنتى عشرة لوحة سماها « الجد والكسل » (١٧٤٧) . فاما فرانك جودتشايلد فيكد ويكدح ويقرأ الكتب الجيدة ويختلف الى الكنيسة كل أحد ، ويتزوج ابنة معلمه ويحسن الى الفقراء ، ويصبح عمدة البلدة وحاكما اقليميا ثم عمدة على لندن ، وأما توم أيدل فينام

ويشخر فوق نوله ، ويقراء الكتب الخبيثة مثل « مول فلاندرز » ، ويسكر ويقامر وينشل ، ثم يؤتى به أمام الحاكم جودتشايلد الذى يحكم عليه بالشنق وهو يبكى شفقة عليه . وقابلت محفورتان ، هما « زقاق الجن » و « شارع الجعة » (١٧٥١) بين « النتائج الرهيبة لشرب الجن » والآثار الصحية للجعة . أما « المراحل الأربع للقسوة » (١٧٥١) فقد قال الفنان انهما استهدفت « تهذيب تلك المعاملة الهمجية للحيوان ، التى تجعل منظر شوارع عاصمتنا محزنا جدا لكل نفس حساسة . واننى لأشدد فخرا برسمى لهذه الصور مما لو كنت صاحب رسوم رفائيل الهزلية (٢٩) » . وفى سلسلة « صور أربع لأحد الانتخابات » (١٧٥٥ - ٥٨) استهدف شرورا أبهظ ثمننا ، فقد هاجمت فساد السياسة الانجليزية .

ولو أخذنا صور هوجارت المطبوعة على أنها مجرد رسوم لكانت فجأة فى فكرتها وتنفيذها متعجلة غير دقيقة فى تفاصيلها . ولكنه كان ينظر الى نفسه على أنه مؤلف أو كاتب مسرحى أكثر منه مصورا ، وقد أشبه صديقه فيلدنج أكثر من الد خصومه وليم كنت ، ولم يكن يعرض تقنيات التصوير بل يقدم صورة للعصر ، « لقد حاولت تناول موضوعى كما يتناوله كاتب للدراما ، فصورتى هى خشبة مسرحى ، والرجال والنساء هم ممثلى الذين يراد منهم ببعض الحركات والایماءات أن يقدموا عرضا صامتا (٣٠) » . ونحن اذا نظرنا الى صور المطبوعة على انها هجائيات وجدناها مبالغات متعمدة ، فهى تشدد على جانب وترهف نقطة وهى أكثر ازدحاما بالتفاصيل مما ينبغى أن يكون عليه العمل الفنى ، ولكن كل تفصيل فيما عدا الكلب الذى لا مخلص منه يسهم فى الموضوع . وصوره المطبوعة فى مجموعها تتيح لنا نظرة الى طبقة لندن الوسطى - الدنيا فى القرن الثامن عشر ؛ البيوت ، والحانات وحى المل ، وكوفنت جاردن ، وكوبرى لندن ، وتشيبسايد ، وبرايديويل ، وبدلام ، وشارع فليت ، وهذه ليست كل لندن ، ولكن ما صوره منها ينبض بالحياة نبضا رائعا .

أما ناقدو الفن وجماعوه وتجاره فى ذلك العهد فلم يعترفوا لا بكفاية هوجارت فنانا ولا بصدقه هجاء . فاتهموه بأنه لا يصور غير

حياة الحياة الانجليزية ، وسخروا منه لأنه اتجه الى صور مطبوعة شعبية لعجزه عن تصوير اللوحات الشخصية الناجحة أو المناظر التاريخية . ونددوا برسمه لأنه مهمل وغير دقيق . وقد رد عليهم بأن اتهم التجار بأنهم يتآمرون على الاشادة بما يحتفظون به من مخلفات كبار المصورين القدامى ، بينما يتركون الأحياء يتضورون جوعا . قال :

« ان أفضل الصور صيانة وأكملها صقلا ، بغير تكريس لها من سلطتهم وتأييد من التقاليد . . . لا تباع فى مزاد علنى بخمسة شلنات ، فى حين أن لوحة قماشية عتيقة ، حقيرة ، معطوبة ، مرممة ، اذا كرسها ثنائوهم عليها ، لا بد أن تباع بأى ثمن مهما غلا ، وتحتل مكانا بين أرقى المجموعات . كل هذا يفهمه التجار فهما تاما (٣١) » .

وقد رفض أن يخضع رأيه لأمثال هؤلاء التجار أو الخبراء . وندد باسترقاق المصورين الانجليز لمحاكاة فاندريك أو للى أو نلر ؛ لا بل أنه أطلق على عمالقة التصوير الايطالى لقبا هزليا هو « الاساتذة السود » ، لأنهم ألقوا على التصوير الانجليزى حجابا كثيفا بالسحر الأسود (الشيطانى) الكامن فى ألوانهم القاتمة الشبيهة بالصلصة البنية . فلما بيعت لوحة منسوبة الى كوريدجو بأربعمائة جنيه فى مزاد بلندن ، لشكك فى صحة نسبتها وفى قيمتها ، وقال ان فى وسعه أن يرسم صورة لا تقل عنها جودة فى أى وقت شاء . فلما تحداه بعضهم ، رسم لوحة « سجموندا » (١٧٥٩) - وهى محاكاة جيدة لكوريدجو ، فيها الدانتيل والمالبس الزاهية والأيدى الرقيقة والوجه الجميل ، ولكن العينين كان يشوبهما من الاكتئاب ما لم يسر المشتري المنتظر ، الذى أبى أن يدفع الجنيهات الأربعمائة التى طلبها هوجارث ثمنها لها . وقد بيعت بعد موته بستة وخمسين جنيها .

ثم أعطى خشومه سلاحا جديدا بتأليفه كتابا . فعلى لوحة الألوان الظاهرة فى الصورة التى رسمها لنفسه ولكبه (١٧٤٥) كان قد تتبع خطأ ملتفا لاح له أنه العنصر الأسامى فى الشكل الجميل . وقد عرف هذا الخط فى رسالة تربوية سماها « تحليل الجمال » (١٧٥٣) بأنه

ذلك الخط الذى يتكون بلف سلك فى توال مطرد حول مخروط ، وذهب الى أن خطا كهذا ليس سر الجمال فحسب ، بل حركة الحياة . وكان هذا كله فى رأى نقاد هوجارث هراء سخيفا .

على أنه أثرى برغم أنوفهم ، فافقتنى كل بيت مثقف تقريبا صوره المطبوعة ، وتآخ له بيعها المتصل دخلا ثابتا . وفى ١٧٥٧ ، وبعد أن نسيت لوحته « زحف فرقة الحرس » ، عين « رئيس المصورين لكل أعمال جلالته » ، وهى وظيفة أنته بمائتى جنيه أخرى فى السنة . وكان فى وسعه الآن أن يختصم أعداء جددا . وفى ١٧٦٢ أصدر صورة مطبوعة سماها « العصر الحاضر » هاجم فيها بت وولكس وغيرهما لأنهما تجار حرب . ورد ولكس فى مجلته « البريطانى الشمالى » يصف هوجارث بأنه عجوز مغرور جشع لا يستطيع تصور « فكرة واحدة عن الجمال » ورد هوجارث بنشره لوحة صور فيها ولكس وحشا أحول . ورد تشرشل ، صديق ولكس ، بخطاب شرس سماه « رسالة الى وليم هوجارث » ، فأصدر هوجارث صورة مطبوعة بدا فيها تشرشل على هيئة دب ، وكتب يقول « ان اللذة والفائدة المالية اللتين حصلت عليهما من هاتين المحفورتين ، بالاضافة الى ركوبى الخيل بين الحين والحين ، أعادا الى من الصحة الموفورة أكثر ما يرجى فى مثل عمرى » . ولكن فى ٢٦ اكتوبر ١٧٦٤ انفجر أحد شرايينه فمات .

ولم يترك بصمة منظورة على فن زمانه . وفى ١٧٣٤ افتتح « مدرسة حياة » ليدرب الفنانين ، وقد أدمجت فى ١٧٦٨ فى الأكاديمية الملكية للفنون . ولكن حتى الفنانون الذين تعلموا فى مدرسته هجروا واقعيتهم مؤثرين عليها المثالية الفاشية يومها ، مثالية رينولدز وجينزبورو . على أن تأثيره أحس به الناس فى مجال الكاريكاتور ؛ هناك انتقلت فكاهته وقوته من توماس رولاندسن الى اسحاق وجورج كروكشانك ، وأصبح الكاريكاتور فنا . أما شهرة هوجارث الحالية مصورا فقد بدأت بملاحظة لهويسلر قال فيها ان هوجارث « هو المصور الانجليزى العظيم الوحيد (٣٤) » . وقد استثنى هويسلر نفسه فى حرص من هذه المقارنة . وقال قاض أقل تحوطا فى تقديره لهوجارث « اننا لو نظرنا اليه فى أفضل صوره لوجدناه أعظم شخصية فى تصوير (م ٢١ - قصة الحضارة)

القرن الثامن عشر (٣٥) « . وهذا التقدير يمثل ما يشيع اليوم من بخس لقدر رينولدز بدعوى أنه كان مجملا للارستقراطيين همه جمع المال ، وتلك نزوة عارضة ستختفى . ومن العسير تقييم هوجارث كفنان ، لأنه لم يكن فنانا فحسب ، فلقد كان صوت انجلترا الغاضبة لما فيها من فساد وانحطاط ، ولقد عد نفسه بحق قوة اجتماعية . كذلك فهمه فيلدنج فقال فيه « أكاد أجرؤ على التاكيد بأن عمليه هذين اللذين يسميهما « رحلة فاجر » و « رحلة بغى » ، قصد بهما خدمة قضية الفضيلة . . أكثر مما خدمتها كل المجلدات الضخمة التي كتبت اطلاقا في الأخلاق (٣٦) « . على أن شيئا واحدا لا شك فيه ، هو أنه كان الأنجليزى الصميم بين جميع من عاش من الفنانين الانجليز .

٣ - الموسيقون

من الغار التاريخ المحيرة ذلك السر فى أن انجلترا التى أسهمت هذا الاسهام الموفور فى التطور والنظرية والاقتصاديين والسياسيين ، وفى الأدب والعلم والدين والفلسفة - انجلترا هذه أقفرت نسبيا فى أشكال التأليف الموسيقى الأكثر تعقيدا منذ عصر اليزابيث الأولى . وربما وجدنا بعض تعليل لهذه الظاهرة فى زوال الكتلّة من انجلترا ؛ فالمذاهب الجديدة شجعت المؤلفات الموسيقية الرفيعة تشجيعا أقل ، ومع أن الشعائر اللوثرية فى المانيا والانجليكانية فى انجلترا تطلبت الموسيقى ، فإن أشكال البروتستنتية الأكثر تزمنا فى انجلترا وفى الجمهورية الهولندية لم تبذل تشجيعا يذكر لآى موسيقى تزيد على الترنيمة الجماعية التى يرئمها المصلون . وحل محل أساطير كنيسة روما وطقوسها ، التى طالما شددت على مباحج الايمان ، عقائد جبرية قائمة تشدد على هول الجحيم ، ولم يستطع غير « أورفيوس » أن يغنى فى وجه الجحيم . وماتت أغانى انجلترا الاليزابيثية الغرامبسة الشعربة فى الصقيع البيورتانى . وقد جلبت عودة الملكية من فرنسا روحا أكثر مرحا ، ولكن بعد موت بيرسل اسدل حجاب كثيف على الموسيقى الانجليزبة من حديد .

هذا باستثناء الاغانى التى تفاوتت من الجهوريات الجماعية المنتشرة فى أندية الطرب glee clubs الى الرقة الهفافة التى تميزت

بها الغنائيات المأخوذة من تمثيلات شكسبير . وكلمة glee هي الكلمة الانجلو - سكسونية gleo ، ومعناها الموسيقى ؛ ولم تتضمن بالضرورة الفرع ، وكانت تطبق عادة على الاغانى التى لا ترافقها الموسيقى لثلاثة أصوات أو أكثر . وازدهرت اندية الطرب قرنا ، وبلغت أوجها حوالى عام ١٧٨٠ فى عز أيام أكبر مؤلف لأغانى الطرب ، وهو صموئيل وب . وكان أجمل منها موسيقات توماس آرن التى لحنها لأغانى شكسبير - « هبى ، هبى ، يا ريح الشتاء » و « تحت شجرة الغابة الخضراء » و « حيث ترشف النحلة رحيقها هناك أرشف رحيقى » ؛ وما زالت هذه نسمع فى انجلترا . والموسيقى المشجى آرن هو الذى لحن قصيدة طومسن « احكمى يا بريطانيا » ؛ وفى هذه الفترة ، أو قبلها ، لحن وطنى مجهول نشيد بريطانيا الفوسى ، « حفظ الله الملك » . وعلى قدر ما نعلم ، غنى هذا النشيد علنا أول مرة فى ١٧٤٥ حين جاء نبا بأن قوات جورج الثانى هزمها الاسكتلنديون بقيادة المطالب الشاب بالعرش عند بريستونبانس ، ولاح أن أسرة هانوفر قد حان حينها . والنشيد فى أقدم صورته المعروفة (وهى لا تختلف الا اختلافا طفيفا عن الكلمات واللحن الحاليين) دعا الى الله بالنصر على الحزب الاستيوارتى فى السياسة الانجليزية ، وعلى الجيش الاستيوارتى الزاحف من اسكتلندة :

« حفظ الله مولانا الملك

ليحى ملكنا النبيل (جورج الثانى) طويلا ،

حفظ الله الملك .

ربنا انصره نصرا عزيزا

واجعله سعبدا عظيما ،

لبملك علينا طويلا ،

حفظ الله الملك .

ربنا والهنا قم ،

وشتت أعداءه ،

واجعلهم يسقطون ،

وأحبط سياساتهم

وأفسد مكائدهم الوضيعة

آمالنا معلقة عليه (فى النص الحالى « عليك ») ،
«حفظنا اللهم أجمعين (٣٧) » .

واقتبست اللحن لفترات شتى تسع عشرة دولة ، لحننت به أغانى
وطنية ، ومن هذه الدول ألمانيا وسويسرة والدنمرك والولايات المتحدة
الامريكية - التى أحلت فى ١٩٣١ محل « أمريكا » نشيدا قوميا « الراية
المرصعة بالنجوم » يغنى وفق لحن عسير من أغنية شراب انجليزية
عتيقة .

ويدل رواج الأغانى الرقيقة فى انجلترا على ذوق موسيقى واسع
الانتشار . فكان فى كل بيت هاربيسكورد فيما عدا بيوت الفقراء ، وكان
كل انسان تقريبا يعزف على احدى الآلات الموسيقية ، وتوفر من
العازفين فى الاحتفال بذكرى هندل عام سنة ١٧٨٤ بدير وستمنستر
عدد يكفى للعزف على خمسة وتسعين كمانا ، وست وعشرين فيولا ،
واحدى وعشرين فيولنتشلو ، وخمسة عشر دبل باصا ، وستة نايات ،
وست وعشرين أوبوا ، واثنى عشر بوقا ، واثنى عشر نفيرا ، وست
ترمبونات ، وأربعة طبول ، مع فرقة غنائية من تسعة وخمسين
سوبرانو ، وثمانية وأربعين تينورا وأربعة وثمانين باصا - وهذا عدد
كان خليقا لكبره بأن يرتجف له هندل فرقا فى مقبرته بالدير .
ولم يدخل الكلارينت الا فى أواخر القرن . وكان هناك أراغن رائعة ،
وعازفون عظماء عليها مثل موريس جرين الذى كانت أناشيده وتسبيحات
شكره - مع تلك التى لحنها هندل وبويس - هى تقريبا موسيقى انجلترا
الكنسية الوحيدة الجديرة بالذكر فى ذلك العصر .

أما وليم بويس فقد ارتقى حتى أصبح مديرا للفرقة الموسيقية الملكية
(أى الأوركسترا) وعازف الأراغن فى الكنيسة الملكية رغم ما شاب سمعه
من خلل فى صباه . وكان أول « مايسترو » يقود العازفين واقفا . أما
هندل ومعاصروه الآخرون فكانوا يقودونهم من الأراغن أو الهاربيسكورد
وما زالت بعض أناشيده - لا سيما « على أنهار بابل » - تسمع فى
الكنائس الانجليكانية ، وما زالت البيوت الانجليزية تسمع على الأقل
أغنيتين من أغانيه « قلوب من البلوط » التى كتبها لأحدى تمثيليات

جاريك الایمائية ، و «رفقا فی هبویك یا نسیم الجنوب » وهو لحن فی كنتاتا « سلیمان » . أما سمفونیاته فتبدو ضعيفة هزیلة لأذاننا التي عراها الذبول .

كان الشيء المثير الوحيد فی دنیا الموسيقى الانجليزية فی مطلع القرن الثامن عشر هو مجيء الأوبرا ، وكانت هناك عروض سابقة ترجع الى عام ١٦٧٤ ، ولكن الأوبرا لم تستهو المزاج الانجليزي الا حين قدم المغنون الايطاليون من روما فی ١٧٠٢ . وفي ١٧٠٨ صدمت لندن وافتتنت بصوت مغن سوبرانو ، خصي (castrato) يدعى نيكولينى . وتلاه مغنون خصيان آخرون ، وقد ألفتهم انجلترا ، وكادت تجن بصوت فارينللى . فما وافى عام ١٧١٠ حتى كان فی لندن من المغنين الايطاليين عدد أتاح لهم تقديم أول أوبرا فيها بالايطالية دون غيرها . وقامت الاحتجاجات الكثيرة على هذا الغزو . وخصص له أديسون العدد الثامن عشر من صحيفته « سبكتيتور » مستهدفا :

« أن يسلم الى الأجيال القادمة وصفا أميناً للأوبرا الايطالية ان حفدتنا البعيدين سيشتد فضولهم لمعرفة السر فی أن أجدادهم اعتادوا الجلوس معا كأنهم جمهور من الأجانب فی وطنهم ليستمعوا الى تمثيلات باكملها تمثل أملمهم بلسان لا يفهمونه » .

واستنتج من حركات هذه التمثيلات انه ما من شيء فی الأوبرا « يصلح للتلحين الجيد الا كان لغوا فارغا » . وسخر من المناظر التي يغازل فيها البطل حبيبته بالايطالية ، فترد البطلة بالانجليزية - وكان اللغة أمر ذو بال فی مثل هذه الأزمات . واعترض على المناظر المسرحية المسرفة - على العصافير الحقيقية التي تطير حول المسرح ، ونيكولينى يرتعش فی قارب مكشوف على بحر من الورق المقوى .

وكان فی صدر أديسون ضغينة يريد شفاءها ، فقد كتب النص لأوبرا توماس كلايتون الانجليزية « روزاموند » التي فشلت (٣٨) . وأغلب الظن أن ثورته (٢١ مارس ١٧١١) فجرها العرض الأول (٢٤ فبراير) لأوبرا ايطالية تسمى « رينالدو » فی دار أوبرا هايماركت .

وزاد الطين بلة أن الموسيقى ألفها ألماني وفد مؤخرا على إنجلترا ، هذا الى أن الكلام كان بالاطالية . ومما أفزع أديسون أن الأوبرا الجديدة حققت نصرا عظيما ، فما مضت ثلاثة أشهر حتى كانت قد عرضت خمس عشرة مرة اكتظ المسرح فيها دائما برواده ، ورقصت لندن على مختارات من موسيقاها ، وتغنت بالحنان الأكثر بساطة (٣٩) . تلك هي بداية الطور الانجليزى فى أروع سيرة فى تاريخ الموسيقى .

٤ - هندل : ١٦٨٥ - ١٧٥٩ (٤٠)

١ - نشأته

كان جيورج فريدرش هندل ★ أشهر مؤلف موسيقى على عهد يوهان سباستيان باخ . انتصر فى ألمانيا ودانت له ايطاليا الموسيقية ، وكان روح الموسيقى وتاريخها فى إنجلترا طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر . واتخذ تفوقه قضية مسلمة ، لم يجادله فى ذلك مجادل ، وشمخ فى دنيا الموسيقى كأنه مارد مسيطر يزن ٢٥٠ رطلا .

ولد فى مدينة هاله بسكسونيا العليا فى ٥٣ فبراير ١٦٨٥ قبل مولد يوهان سباستيان باخ بستة وعشرين يوما ، وقبل مولد دومنيكو سكارلاتى بثمانية أشهر . ولكن بينما أشرب باخ وسكارلاتى الموسيقى منذ طفولتهما ، وأتيح لهما أبوان من مشهورى المؤلفين ، وربيا على سلم موسيقى ملزم ، ولد هندل لأبوين لا يكثران للموسيقى ؛ فأبوه كان الجراح الرسمى فى بلاط الدوق يوهان أدولف أمير ساكس - فايسنغيلز ، وأمه ابنة قسيس لوثرى . ولم يرضيا عن ادمان الغلام على عزف الأرغن والهاربسيكورد ، ولكن حين أصر الدوق بعد أن سمعه يعزف على ضرورة تدريبه على الموسيقى ، سمحا له بأن يدرس على فريدرش تساخاو ، عازف الأرغن بكنيسة ليبفراوينكيرشي فى هاله . وكان تساخاو معلما مخلصا دقيقا . فما بلغ جيورج الحادية عشرة حتى كان يؤلف

★ كان فى ألمانيا يوقع باسمه Händel (هندل) ، وفى ايطاليا وانجلترا Hendel (٤١) .

السوناتات (التى بقى منها ست) ، وحذق العزف على الأورغن الى حد
حمل تساخاؤ والابوين المستسلمين على ايفاده الى برلين ليعزف أمام
صوفيا شارلوت ناخبة براندنبورج المثقفة ، التى ستصبح عما قليل ملكة
بروسيا . فلما عاد جيورج الى هاله (١٦٩٧) وجد أن أباه قد مات .
أما أمه فعمرت الى سنة ١٧٢٩ .

وفى ١٧٠٢ دخل جامعة هاله ليحضر لمهنة المحاماة فى ظاهر الأمر .
وبعد شهر عينه القائمون على الكتدرائية الكلفنية فى هاله مكان عازف
أرغنهم السكير . أما العبقري الشاب الذى لا يستقر على حال ، والذى
هفت نفسه الى مجال أرحب ، فبعد أن قضى عاما واحدا هناك اقتلع كل
جذوره التى فى هاله باستثناء حبه المقيم لأمه وانطلق ميمما هامبورج ،
حيث كان الناس يحبون الموسيقى حبا يكاد يبلغ حبهم للمال . وكان فى
هامبورج دار للأوبرا منذ ١٦٧٨ . هناك وجد هندل ، وهو فى الثامنة
عشرة ، مكانا له عازفا ثانيا للكماني . وصادق يوهان ماتيسون البالغ من
العمر اثنين وعشرين عاما ، و « التينور » الأول فى الأوبرا ، الذى
أصبح بعد ذلك أشهر النقاد الموسيقيين فى القرن الثامن عشر . ورحلا
معا الى لوبك (أغسطس ١٧٠٣) ليستمعا الى الشيخ بوكستيهدى
يعزف ، ويتحسسا امكان خلافته فى العزف على الأورغن فى كنيسة
مارينكرشي ، ووجدوا أن خليفته يجب أن يتزوج ابنة هذا الشيخ . فنظروا
الى الشيخ وابنته ثم رحلا عن المدينة .

وانهارت صداقتهما فى مبارزة سخيفة سخرت المبارزات فى أى
مسرحية . ذلك أنه فى ٢٠ أكتوبر ١٧٠٤ أخرج ماتيسون أوبراه
« كليوبطره » ومثل دور البطل فيها . ولقيت نجاحا لا شك فيه ، وأعيد
تمثيلها مرارا . وفى هذه الحفلات قاد هندل الأوركسترا والمغنين من
الهاربسيكورد . وكان ماتيسون أحيانا ينزل من خشبة المسرح بعد أن
يموت فى دور أنطونيوس ، وفى نشوة الفخر يأخذ مكان صديقه قائدا
وعازفا على الهاربسيكورد ، ويسعد بنصيب من التصفيق الأخير . وفى
٥ ديسمبر أبى هندل أن يحل صديقه محله على هذا النحو . فالحق
الصديقان الأوبرا بشجار ساخن ، وعقب انتهاء التمثيل سارا الى الميدان
العام ، واستلا سيفيهما ، واقتتلا على أنغام المديح من رعاة الأوبرا

والمارة . وصك سيف ماتيسون زرا معدنيا على سترة هندل فانكسر .
وانقلبت المأساة مهزلة فى نظر الجميع الا بطلها ، وراحا يجتران
سخطهما الى أن قبل مدير الفرقة أوبرا هندل « الميرا » التى احتاجت
الى ماتيسون ليؤدى دور التيفور . وأعاد نجاح الأوبرا (٨ يناير ١٧٠٥)
الخصمين صديقين كما كانا من قبل .

وأحب الناس أوبرا « الميرا » ، التى احتوت على واحد وأربعين
لحنا بالألمانية وخمسة عشر بالايطالية ، حبا اتاح عرضها عشرين مرة
فى سبعة أسابيع . ودب دبيب الغيرة فى قلب راينهارت كايزر الذى
كان مشرفا على الفرقة ومؤلفا لمعظم أوبراتها . وضعفت شعبية أوبرا
هامبورج ، وعاش هندل عامين على دخل ضعيف . وكان الأمير جوفان
جاستونى دى مديتشي ، أثناء مروره بهامبورج ، قد نصحه بأن يرحل
الى ايطاليا حيث يجن الناس كلهم بالموسيقى ويصدق حتى خدم المطاعم
بالأغاني الجميلة . واقتحم هندل ثلوج جبال الألب فى ديسمبر وفى محفظته
مائتا دوقاتية ، وخطاب من جاستونى الى أخيه فرديناند راعى
الأوبرا فى فلورنسه ؛ وبلغها أواخر عام ١٧٠٦ . فلما وجد جيوب
فرديناند منيعة نزل الى روما . ولكن دار الأوبرا هناك كان قد أغلقها
البابا انوسنت الثانى عشر باعتبارها بؤرة للفساد . وعزف هندل على
الآرغن فى كنيسة سان جوفانى لاترانو ، وصفق له الجمهور عازفا
بارعا ، ولكنه عاد الى فلورنسة لأن أحدا لم يرد أن يخرج أوبراه
الجديدة . هناك وجد جاستونى الذى دافع عنه ، ففتح فرديناند كيس
نقوده ، ومثلت « رودريجو » ، وسر الجميع بها . ونفخ فرديناند
مؤلفها الشاب بمائة سكوين (٣٠٠ دولار ؟) وطقم عشاء من الخزف .
ولكن فلورنسة لم يكن بها دار أوبرا عامة ، أما البندقية فكان بها ست
عشرة دارا . ومن ثم مضى هندل الى البندقية .

كان ذلك فى خريف ١٧٠٧ ، وملكة الأدرياتي مبهورة بسحر
أليساندرو سكارلاتى ، تصفق لأعظم أوبراته « مترداتى أوباتورى » ،
فلا مجال فيها لألمانى شاب حديث العهد بتعلم أسرار الميلوديا الايطالية
ودرس هندل أوبرات سكارلاتى ، ووجد له صديقا وفيما فى ابن
أليساندرو . وتقول الرواية انه حين عزف هندل وهو مقنع على
الهاريكورد فى حفلة تنكرية فى البندقية ، صاح دومنيكو سكارلاتى

« هذا اما السكسونى المعجز أو الشيطان (٤٢) » . والمصادقة الخالدة التى ربطت قلبى أعظم عازفين للهاربسيكورد فى ذلك العهد أشبه بلحظة تناغم وانسجام وسط نشار التاريخ . وقد ترك كلاهما البندقية للموسيقيين الأكبر منهما سنا وانطلقا الى روما (يناير ١٧٠٨ ؟) .

وفى هذه المرة لقى هندل استقبالا أفضل . فقد بلغ نبأ « رودريجو » العاصمة ، وفتح الأمراء والكرادلة أبوابهم له ، وهم أسد ضيقا بلهجته الألمانية منهم بمذهبه اللوثرى . وبنى المركز دى روسبولى مسرحا خاصا فى قصره ليخرج عليه أول أوراتوريو لهندل ، واسمها « القيامة » ، وكانت موسيقاها مفاجأة ملهمة فى قوتها وتعقيدها وعمقها ، وسرعان ما راحت الصفوة المثقفة كلها فى روما تتحدث عن « السكسونى الطويل الجبار » . غير أن موسيقاه كانت أصعب مما يحبه العازفون الايطاليون . فلما أخرج الكردينال بييترو أوتوبونى أوراتوريو هندل « سريناتا » اتعبت الموسيقى أركانجلو كوريللى ، الذى كان عازفا أول للكمان وقائدا للأوركسترا . فتمتم فى تأدب « أيها السكسونى العزيز ، هذه الموسيقى تنهج النهج الفرنسى الذى لا أفهمه (٤٣) » . وأخذ هندل الكمان من يدى كوريللى وعزف بحيويته المعهودة . وسامحه كوريللى .

بقى على هندل أن يغزو نابلى . وتقول رواية لا يعتمد عليها أن هندل وكوريللى ، وسكارلاتى الأب والأبن ، كلهم قصدوا تلك المدينة معا (يونيو ١٧٠٨) . وتزعم قصة أخرى مشكوك فيها أن هندل وقع فى غرام هناك ؛ ولكن التاريخ الحذر يعترف فى أسف بأن ليس لديه أى دليل سليم على أى غرام وقع فيه هندل أبان حياته فى أى بلد ، اللهم الا غرامه بأمه وبموسيقاه . وقد يبدو أمرا لا يصدق أن يخلو قلب رجل استطاع أن يكتب مثل هذه الألحان المشبوبة من شعلة الحب ، ولعل التعبير عنها بدد حرارته على أجنحة الغناء . أما أهم الأحداث فى هذه الفترة التى أقام فيها هندل فى نابلى فهو - على قدر علمنا - لقاءه بالكردينال فنتشنتسو جريماتى ، حاكم نابلى وسليل أسرة بندقية غنية . وقد قدم للمؤلف نص أوبرا تتناول موضوع أم نيرون القديم . وأتم هندل المهمة فى ثلاثة أسابيع . ورتب جريماتى تمثيلها فى مسرح أسرته بالبندقية ، فأسرع اليها هندل حاملا موسيقاه .

كانت الحفلة الافتتاحية لأوبرا « أجربينا » (٢٦ ديسمبر ١٧٠٩) أبهج الانتصارات التي عرفها هندل الى ذلك الحين . ولم تخالج الايطاليين الكرماء الغيرة لأن المانيا تفوق عليهم فى لعبتهم ، وأراهم روائع من النغم ، واقتحامات من الانتقال ، وأفانين من الصنعة قل أن أدركها حتى موسيقيهم المفضل اليساندرو سكارلاتى ، فهتفوا « يحى السكسونى الحبيب (٤٤) » . ونال نصيبا من هذا الهتاف المغنى الباصو الممتاز جوزيبى بوسكى الذى تنقل صوته فى يسر بين سلسلة كاملة من تسع وعشرين نغمة .

وخطب الكثيرون ود هندل الآن . فذبحه تشارلز مونتاجيو ، ايرل مانشستر الذى كان سفيراً لبريطانيا فى البندقية ، بان يذهب الى لندن ، وعرض عليه الأمير ارنست أوغسطس الأخ الاصغر للناخب جورج لويس ، وظيفة قائد الفرقة الموسيقية الكنسية فى هانوفر . لقد كانت البندقية رائعة ، تتنفس الموسيقى ، ولكن الى متى يستطيع المرء أن يكسب قوته من أوبرا واحدة ، والى متى يستطيع الركون الى هؤلاء الايطاليين المتقلبين ؟ أما هانوفر ففيها ضباب ، وغيوم ، وكلام خارج من الحناجر ، ولكن فيها أيضا دار فخمة للأوبرا وراتب ثابت وطعام ألماني دسم ؛ ثم انه يستطيع بين الحين والحين أن يركب منها ليزور أمه فى هاله . وعليه ففى ١٥ يونيو ١٧١٠ عين هندل قائدا للفرقة الكنسية فى هانوفر ، وكان يومها فى الخامسة والعشرين ، براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة كراون ، مع الاذن له بالغياب بين حين وحين . وفى خريف ذلك العام ، طلب الاذن له بزيارة انجلترا ، فحصل عليه ، ووعد بالرجوع سريعا .

ب - غزو انجلترا

كانت أوبرا لندن فى محنة . ففيها فرقة ايطالية تغنى ، مغنيها الباصو بوسكى ، ومغنيها الكونتريالتو زوجته ، ومغنيها السوبرانو نيكولينى الذى ذهب تشارلز بيرنى ، مؤرخ الموسيقى الغيور ، الى أنه « أول مغن عظيم حقا غنى فى مسرحنا (٤٥) » . ولكن دار أوبرا هايماركت (وكانت يومها تسمى مسرح صاحبة الجلالة) ، ومسرح

دروزي لين ، كانا يقعان فى قسم سوقى من المدينة ، تنشل فيه الجيوب وتحطم الرءوس . وتردد « المجتمع الراقى » فى المغامرة بباروكاته وأكياس نقوده هناك .

وسمع آرون هل مدير الفرقة بأن هندل فى لندن ، فعرض عليه نص أوبرا مأخوذا عن « تحرير اورشليم » لتاسو . وعكف هندل على العمل بنشاطه الهائل ، ونقل فى غير تخرج عن ألحانه هو ، فلم ينقض أسبوعان حتى أتم أوبرا « رينالدو » . فأخرجت فى ٢٤ فبراير ١٧١١ ، وأعيد عرضها أربع عشرة مرة أمام جمهور حافل قبل أن ينتهى الموسم فى ٢٢ يونيو . وهاجمها أديسون وستيل ، ولكن لندن أقبلت عليها ، وتغنت بألحانها فى الشوارع ، وأكثر ما مس أوتار العاطفة من ألحانها بل يستطيع أن يحرك مشاعرنا حتى فى يومنا هذا ، لحنان هما اتركنى اننى أبكى *Lascia ch'io pianga* و *Cara Sposa* يا زوجتى العزيزة ، وقد ربح جون وولش ألفا وأربعمائة جنيه بنشره أغانى من أوبرا مينالدو ، واقترح هندل فى سخرية أن على وولش أن يكتب موسيقى الاوبرا القادمة ويترك له نشرها (٤٦) . وما لبثت هذه الاوبرا ، وهى خير أوبرات هندل ، أن أخرجت فى دبلن وهامبورج ونابلى ، وقد شغلت المسرح فى لندن عشرين عاما .

ومد هندل أجازته حتى بلغت سنة كاملة وهو يرشف نجاحه على مهل ، ثم عاد كارها الى هانوفر (يونيو ١٧١١) ولم يكن هناك أسدا فى قاعات الاستقبال ، بل خادما فى قصر الامير الناخب ؛ وأغلقت دار الاوبرا فترة الموسم ، فألف الكونشرتوات الكبيرة والكنتاتات ، بينما كان خياله يحلق فى سماء الاوبرات . وفى أكتوبر ١٧١٢ استأذن فى زيارة أخرى « قصيرة » لانجلترا . وأذن له الامير الناخب ، ربما وهو شاعر أن انجلترا ستكون على أية حال اقطاعية هانوفرية بعد قليل . ووصل هندل الى لندن فى نوفمبر ، ومكث هناك ستا وأربعين سنة .

وقد حمل معه أوبرا جديدة هى « الراعى الوفى » ، النى مازال استهلالها اللطيف يسحر جونا . وقد أخرجت فى ٢٢ نوفمبر ، وفشلت . وللغور بدأ موضوعا آخر وقد حفزه هذا الفشل أكثر مما ثبط همته ،

والموضوع هو « تيسيو (ثيوسيوس) » وكانت حفلة الافتتاح نصرا له ، ولكن المدير هرب بعد الليلة الثانية حاملا ايصالات شباك التذاكر . وتسلم عمله مدير آخر اسمه جون هيديجر ، وواصل عرض « تيسيو » حتى بلغت عروضها ثلاثة عشر ، وكافا المؤلف الذى لم ينقد أجره بتنظيمه حفلة خيرية لأعانة « المستر هندل » ، ظهر فيها المؤلف وهو يعزف على الهاربسيكورد . ودعا ايرل بيرلنتن ، وكان مستمعا متحمسا ، هندل لينزل ضيفا عليه فى قصر بيرلنتن ، وقبل هندل الدعوة ، ووجد المسكن الطيب والطعام المترف ، والتقى هناك ببوب ، وجاى ، وكنت ، وغيرهم من أئمة الأدب والفن .

وأقبلت عليه الدنيا أيما اقبال . ذلك أن الملكة آن تافت لوضع حد لحرب الوراثة الأسبانية ، وأتت النهاية مع معاهدة أوترخت ، فأبهج هندل آن بـ « تسبحة أوترخت » وبـ « أغنية الميلاد » فى عيد ميلادها . وأثبت فيهما أنه درس « كوارس » بيرسيل . وأثبته الملكة العطوف بمعاش قدره مائتا جنيه . أما وقد ظفر بالاطمئنان والرخاء ، فإنه استراح الآن على مجدافيه طوال سنة من التهرب .

ولكن فى أول أغسطس ١٧١٤ ماتت آن ، وأصبح الناخب جورج لويس أمير هانوفر ملكا على انجلترا بأسم جورج الأول . وتوجس هندل بعض الشيء من هذا الاتجاه الذى اتخذته الأحداث . فالواقع أنه هرب من هانوفر ، وله أن يتوقع أن يكون الملك غير راض عنه ، وقد حدث هذا ، ولكن جورج لزم الهدوء . وأعيدت تسمية مسرح هايماركت الآن فسمى « مسرح جلالة الملك » ، وأحس الملك أنه ملزم ببسط رعايته على هذا المسرح ، ولكنه كان يعرض أوبرا « رينالدو » التى لحنها ذلك المتهرب ، فذهب جورج متنكرا الا فى لهجته ، واستمتع بالعرض . وكان هندل خلال ذلك قد كتب أوبرا أخرى « أماديجى الغالى » ، وأخرجها هيديجر فى ٢٥ مايو ١٧١٥ ، وأحبها جورج . وبعد قليل طلب عازف الكمان والمؤلف الايطالى فرانتشسكو جيمنيانى ، الذى دعى للعزف فى البلاط ، أن يصاحبه هندل ، لأنه عازف الهاربسيكورد الوحيد فى انجلترا الذى يصلح لمصاحبته . وكان له ما أراد ، وأبدع هندل فى العزف فعفا عنه الملك ، ورفع معاشه الى أربعمئة جنيه فى السنة .

وولت اليه الاميرة كارولين تدريس بناتها ، وازافت معاشا قدره مائتا جنيه . وهكذا الان صاحب اعلى اجر بين المؤلفين الموسيقيين فى اوربا .

فلما غادر جورج الاول لندن (٩ يوليو ١٧١٦) ليزور هانوفر اصطحب هندل معه . وزار الموسيقى امه فى هاله ، وبدأ نفحاته الدورية لارملة معلمه القديم تساخو التى اخنى عليها الدهر . وعاد الملك والمؤلف الى لندن فى مطلع ١٧١٧ . ودعا جيمس بريدجس ، ايرل كارنارفون - دوق تشاندوس فيما بعد - هندل ليعيش فى قصره الفاخر المسمى « كانونز » بمادلوكس ، ويحل محل قائد الموسيقى فيه ، الدكتور يوهان بيبوش ، الذى انتقم لنفسه فيما بعد بتأليفه موسيقى « اوبرا الشخاذا » . هناك كتب هندل « متابعات موسيقية للهاري سيكورد » وهى « فنتازيات » على الهاري سيكورد بأسلوب دومنيكو سكارلاتى وكوبران ، وبعض الكونشرتوات الكبيرة ، واثنى عشر « نسيدها تشاندوسيا » وموسيقى لتمثيلية تنكرية لجاي سمها « آسيس وغلاطية » ، واوبرا « راداميستو » .

ولكن من يخرج الاوبرا ؟ لقد هبط عدد رواد مسرح صاحب الجلالة ، واشرف هيديجر على الافلاس . ورغبة فى انقاذه وانقاذ الاوبرا أسس نفر من النبلاء والاعيان (فبراير ١٧١٩) الاكاديمية الملكية للموسيقى ، ومولوها بخمسين سهما طرحت على الجمهور بسعر مائتى جنيه للسهم ، واشترى جورج الاول خمسة أسهم . وفى ٢١ فبراير أعلنت صحيفة لندنية اسبوعية أن « المستر هندل ، وهو أستاذ موسيقى شهير ، أبحر الى القارة بأمر جلالة الملك ليجمع فرقة من صفوة المغنين فى اوربا للأوبرا فى مسرح هايماركت (٤٧) » وأغار هندل على مختلف الفرق فى ألمانيا ، وزار أمه مرة أخرى . وبعد ساعات من مغادرته هاله الى انجلترا ظهر يوهان سبستيان باخ فى المدينة بعد أن مشى اليها نحو خمسة وعشرين ميلا من كوتن ، وطلب أن يقابل الألماني العظيم الذى غزا انجلترا ؛ ولكنه وصل متأخرا ، ولم يلتق الموسيقيان قط .

وفى ٢٧ أبريل ١٧٢٠ مثلت « راداميستو » أمام الملك ، وخليلته ، وجمهور تالق بالألقاب والجواهر ، وناضل أشخاص من ذوى الألقاب

ليدخلوا . يقول مينووينج « لقد رد العديد من السادة الذين عرضوا دفع أربعين شلنا ثمنا لكرسي من المقاعد الرخيصة (٤٨) » . ونافس الجمهور الانجليزى فى تصفيقهم وهتافهم البنادقة الذين صفقوا وهتفوا لأوبرا « أجريينا » قبل ذلك بأحد عشر عاما . وهكذا غدا هندل مرة أخرى بطل لندن .

ولكن البطولة شاب تمامها نقصان . ذلك أن جماعة منافسة من عشاق الموسيقى ، يتزعمهم إيرل بيرلنتن الراعى الأسبق لهندل ، فضلوا عليه جوفانى باتيستا بونونتشيني . فاقنعوا الأكاديمية الملكية للموسيقى بأن تفتح موسمها الثانى بأوبرا بونونتشيني « أستارتو » (١٩ نوفمبر ١٧٢٠) ، وضمنوا لدور البطل فيها مغنيا سوبرانو كان الآن معبودا للجماهير أكثر من نيكولينى . وكان لـ « سنسينو » هذا (فرانتشيسكو برناردى) ، الكريه الطباع ، الساحر الصوت ، الفضل فى انتصار أوبرا أستارتو والوصول بعروضها الى العشرة . أما المعجبون ببونونتشيني فقد أشادوا به موسيقيا أعظم من هندل . ولم يكن أحد هذين المؤلفين مسئولاً عن الحرب التى قسمت الآن جمهور الأوبرا اللندنى الى فريقين متخاصمين ، ولكن لندن كانت فى ذلك العام ، عام انفجار فقاعة بحر الجنوب ، عصبية كباريس . أما الملك والأحرار ففضلوا هندل ، وأما ولى العهد والمحافظون فناصروا بونونتشيني ، واحتشد الطرفاء وكتاب الكراريس لدخول المعركة . . وبدا أن بونونتشيني قد أثبت تفوقه بأوبرا جديدة سماها « كريسبو » (يناير ١٧٢٢) وفقت توفيقا حمل الأكاديمية على أن تتبعها بنصر آخر لبونونتشيني هى « جريزلدا » . فلما مات ملبره العظيم (فى يونيو) اختير بونونتشيني ، لا هندل ، ليؤلف النشيد الجنائزى ، ونفحت ابنة الدوق هذا الايطالى معاشا سنويا قدره خمسمائة جنيه . لقد كان ذلك العام بونونتشيني .

ورد هندل بأوبرا « أوتونى » ومغنية سوبرانو جديدة أغراها من ايطاليا بضمن لم يسبق له نظير مقداره ألفا جنيه . وكانت هذه المغنية ، واسمها فرانتشيسكا كوتزونى ، كما رآها هوراس ولبول ، « قصيرة سمينة ، لها وجه عجبنى القوام نزق ، وبشرة ناعمة رقيقة ،

ممثلة غير قديرة ، سيئة الهمام ، غبية ، شاطحة الأحلام (٤٩) « ، ولكنها كانت تصدح بصوت ساحر . وقد حفلت « بروفاتها » بصراع الارادات والطباع الحادة . قال لها هندل « أعرف جيدا أنك شيطانة حقيقية ، ولكننى أنا نفسي أريدك أن تعرفى أننى بعزبول (رئيس الشياطين) » . فلما أصرت على غناء لحن مخالفة لتعليماته ، أمسك بها وهدد بأن يقذفها من النافذة (٥٠) . ولما كانت الألفان من الجنيات ستبعاها ، فإنها اذعنت لأمره . وفى حفلة الافتتاح (١٢ يناير ١٧٢٣) أبدعت الغناء حتى صاح أحد المتحمسين من المقاعد الرخيصة وسط غنائها « على اللعنة ان فى بطنها عشا من البلابل (٥١) » . وقد نافسها سنسينو ، وأعانها « باصو » بوسكى . وفى الليلة الثانية بيعت الكراسي بزيادة قدرها خمسة جنيهات . وفى نحو هذه الفترة كتب جون جاى الى جوناثان سويفت يقول : -

« أما التسلية المسيطرة على المدينة فهى الموسيقى دون سواها ؛ هى الكمانات والفيولات الجهيرة والأوبوات الواقعية ، لا القياثير والمزامير الشعرية . ولا يسمح لأحد بأن يقول « أنا أغنى » إلا اذا كان خصيا أو امرأة ايطالية . وكل انسان أصبح الآن حكما عظيما فى الموسيقى كما كان الناس فى أيامك حكاما فى الشعر ؛ والقوم الذين لم يكونوا يستطيعون التمييز بين نغمة وأخرى يتشاجرون الآن كل يوم على الأساليب المختلفة التى ينتهجها هندل ، وبونونتشينى ، وأتيليو (أريوستى) . . . وفى لندن ووستمستر ، فى كل حديث مهذب ، يجمع الراى على أن سنسيثو هو أعظم رجل ظهر فى الوجود (٥٢) » .

ثم اشترى هندل بعد أن صعد نجمه ثانية بيتا فى لندن (١٧٢٣) وأصبح مواطنا بريطانيا (١٧٢٧) . وواصل حرب الأوبرا حتى ١٧٢٨ . ونبش التاريخ بحثا عن الموضوعات ، فعرض على المسرح فلافىوس ، وقيصر ، وتيمورلنك ، وسكبيو ، والاسكندر ، ورتشرد الأول . ورد بونونتشينى باستياناكس ، وارمينيا ، وفارناسس ، وكلبورنيا ؛ ولحن مؤلف آخر هو أريوستى أوبرات عن كريولانوس ، وفسبازيان ، وارتاجزسيس ، ودارا ؛ ولم يسبق فى أى عهد أن لحن التاريخ على هذا النحو المتناغم . وفى ١٧٢٦ ازداد وطيس الصراع الثلاثى بوصول

فاوستينا بوردونى ، وهى مغنية نصف - سوبرانو ، دانت لها قبل ذلك البندقية ونابلى وفيينا . صحيح أنها لم توهب نبرات كوتزونى الرقيقة العذبة ، ولكنها وجدت لصوتها سندا من وجهها وقوامها ورشاقتها . وفى أوبرا « اليساندرو » (٥ مايو ١٧٢٦) جمع هندل بين المغنيتين ، وأعطاهما عددا متساويا من الألحان المنفردة ، ووازن بينهما بعناية فى لحن ثنائى ، وصفق لهما السامعون معا بضع أمسيات ، ثم انقسموا فريقين ، فكان فريق يصوت سخرية بينما الآخر يصفق استحسانا ، وهكذا أضيف بعد جديد لحرب الأنغام . وفى ٦ يونيو ١٧٢٧ حين غنت المغنية الأولى فى أوبرا بونونتشيني « استياناتى » انفجر أنصار كوتزونى محدثين جلبة شائنة من صفير الاستهجان وصيحات الاستنكار حين حاولت بوردونى الغناء . واندلع القتال فى قاع الصالة وسرى الى خشبة المسرح ، وشاركت فيه مغنيتا الأوبرا وراحت الواحدة منهما تشد شعر الأخرى ، وحطم النظارة مناظر المسرح مبتهجين - وكل هذا فى حضرة كارولين ، أميرة ويلز ، وهى شاعرة بالخزى والمهانة .

ولعل « قياس الخلف » هذا كان وحده كافيا لقتل الأوبرا الإيطالية فى إنجلترا . أما الضربة القاضية فقد كالتها لها واحد من أرق الناس فى لندن . وفى ٢٩ يناير ١٧٢٨ ، قدم جون جاى « أوبرا الشحاذ » فى مسرح لنكولنز ان فيلدز . وقد وصفتا أغانيها المرحة الذكية البذيئة ، ولكن الذين سمعوها تغنى على أنغام الموسيقى التى وضعها أو اقتبسها يوهان بيبوش - هؤلاء فقط هم الذين فى وسعهم أن يفهموا لم تحول جمهور المسارح بجملته تقريبا عن هندل وبونونتشيني وأريوستى ، الى بيبوش وبوللى وجاى ، وظلت « أوبرا الشحاذ » تمثل الليلة تلو الليلة طوال تسعة أسابيع ، بينما راحت « سيرانات » مسرح صاحب الجلالة وخصيانه يغنون لكراسي خاوية . ثم ان جاى كان قد هجا الأوبرا الإيطالية وسخر من حيكاتها البلهاء ، وهزا بالارتعاشات و « الشخلعات » فى غناء المغنين والمغنيات السوبرانو ، واتخذ اللصوص والشحاذين والمومسات شخوصا للتمثيلية بدلا من الملوك والنبل والعذارى والملكات ، وعرض القصائد الشعبية الانجليزية أغانى أفضل من الألحان الإيطالية . وابتهج الجمهور بالألفاظ التى يستطيع فهمها ، خصوصا اذا كانت مكشوفة بعض الشيء . ورد هندل بمزيد من الأوبرات - سيروى ، وطولوميو ملك مصر

(١٧٢٨) وقد حظيت كلتاها بلحظات مجيدة ولكنهما لم تأتيا بربح .
وفى ٥ يونيو شہرت الأكاديمية الملكية للموسيقى أفلاسها ولفظت أنفاسها
الآخيرة .

على أن هندل لم يسلم بالهزيمة . فبعد أن هجره النبلاء الذين لاموه
على خسائرهم ، كون مع هيديجر (يونيو ١٧٢٨) « الأكاديمية الجديدة
للموسيقى » ، وأنفق عليها عشرة آلاف جنيه - وهى كل مدخراته تقريبا -
وتلقى من الملك الجديد ، جورج الثانى ، وعدا بألف جنيه فى العام معونة
له . وفى فبراير انطلق الى القارة فى رحلة أخرى ليجند مواهب جديدة ،
لأن كوتزونى وبوردونى وسنسينو ونيكولينى وبوسكى ، هجروا سفينته
المشرفة على الغرق وراحوا يغنون للبندقية . واستخدم هندل بدلا منهم
ديوكا وبابل جدد . انطونيو برناكى السوبرانو ، وأنيبالى فابرى
التينور ، وأنا ماريا سترادا ديل بو السوبرانو . وفى رحلة عودته توقف
ليزور أمه آخر مرة . وكانت يومها فى التاسعة والسبعين ، عمياء مشلولة
تقريبا . وبينما كان فى هاله زاره فلهم فريدمان باخ ، الذى أتاه بدعوة
لزيارة ليبزج ، حيث عرضت قبيل ذلك أول مرة « آلام المسيح كما رواها
متى البشير » . واضطر هندل الى رفض الدعوة . فهو لم يسمع بيوهان
سباستيان باخ الا لالمال ، ولم يخطر بباله قط أن شهرة هذا الرجل ستحجب
شهرته يوما ما . وهرول قافلا الى لندن ، والتقط فى طريقه الباصو-
الهامبورجى يوهان ريمنشneider .

وظهرت الفرقة الجديدة فى أوبرا « لوتاريو » فى ٢ ديسمبر
١٧٢٩ دون أن تلقى نجاحا . وجرب حظه ثانية فى ٢٤ فبراير بأوبر
« بارتنوبى » ، فلم يوفق . وأعيد برناكى وريمنشneider الى القارة ،
واستدعى سنسينو ثانية من ايطاليا ، وبفضله هو وسترادا ديل بو ،
ونص كتبه متاستاسيو ، اجتذبت أوبرا هندل « بورو » أسمع لندن
(٢ فبراير ١٧٣١) ، وكان قد خلع على هذه الأوبرا طائفة من أعظم
الحانه تأثيرا . وامتلا مسرح صاحب الجلالة برواده مرة أخرى .
واستقبلت أوبرتان أخريان ، هما « ايتسيو » و « سوزارمى » استقبالا
طيبا .

ولكن الكفاح للبقاء على جمهور انجليزى بأوبرا ايطالية أخذ
(م ٢٢ - قصة الحضارة)

يصبح أشد عسرا ، وقد بدا الآن أنه طريق مسدود ينتهى دائما بالانهك البدنى والمالى . لقد قهر هندل انجلترا ، ولكن انجلترا بدت قاهرته الآن ، فلقد كانت أوبراته شديدة التشابه ، مصيرها المحتوم الى الضعف والهزال . ولقد سمت بها الألحان الرائعة ، ولكن هذه الألحان انما كانت موصولة بالحبكة وصلا هزيلا ، وكانت بلغة غير مفهومة مهما كان فيها من انساب رقيق ، وكثير منها لحن للسوبرانو من الرجال ، وهؤلاء ازداد العثور عليهم صعوبة . وتحكمت القواعد الجامدة والغيرة بين الفنانين فى توزيع الألحان ، وزادت من افتعال القصة . ولو أن هندل واصل السير على الخط الايطالى لكاد يصبح اليوم نسيا منسيا . على أن سلسلة من المصادفات انزعته انتزاعا من دربه المطروق ووجهته الى الميدان الذى سيطل فيه نسيج وحده حتى فى أعين زماننا هذا .

ج - هزيمته

فى ٢٣ فبراير ١٧٣٢ ، وفى حانة « التاج والمرساة » عرض برنارد جيتس ، احتفالا بعيد ميلاد هندل السابع والاربعين ، أوراتوريو هندل « استير » عرضا خاصا . وقد اجتذبت جمهورا مجزيا أغرى جيتس بتكرار عرضها مرتين - مرة لجماعة خاصة ، ومرة (فى ٢٠ أبريل) للجمهور . وكان هذا أول أداء علنى فى انجلترا . واقتُرحت الأميرة آن عرض « استير » بمسرح جلالة الملك وتزويدها بالملابس والمناظر والحركة ، ولكن أسقف لندن أحتج على تحويل الكتاب المقدس الى أوبرا . فاتخذ هندل الآن قرارا من أهم القرارات فى حياته ، وأعلن أنه سيخرج « قصة استير المقدسة » « أوراتوريو : الانجليزية » فى مسرح هيماركت فى ٢ مايو ، ولكنه أضاف أنه « لن يصاحب الأداء حركة على المسرح » ، وأن الموسيقى « ستؤدى بطريقة حفلة التتويج الدينية » ، وهكذا فرق بين الأوراتوريو والأوبرا . وجاء بكورسه وأوكستراه ، وعلم لاسترادا والايطاليين الآخرين أن يغنوا أغانيهم المنفردة بالانجليزية . وحضرت الأسرة المالكة ، واحتملت « استير » عروضها خمسة فى أول شهر لها .

وأخفت أوراتوريو أخرى سماها « أسيس وغلطية » (١٠ يونيو) فى ارضاء مشاهديها ، وارتد هندل الى الأوبرا . فعرضت أوبرا

« أورلاندو » (٢٧ يناير ١٧٣٣) فترة طيبة ، ولكن حتى مع هذا التحسن ، واجهت شركته مع هيديجر الافلاس . فلما اخرج هاندل الاوراتوريو الثالثة « دبوره » (١٧ مارس) حاول أن يستعيد كفايته المالية بمضاعفة أجر الدخول . ونددت رسالة غفل من التوقيع موجهة الى صحيفة « كرافتسمان » بهذا الاجراء ، ودعت للثورة على سيطرة « المستر هاندل الوقح . . . المستبد ، المصرف (٥٣) » على موسيقى لندن . ولما كان هاندل قد ظفر برعاية الملك ، فقد فقد أوتوماتيا مودة فردريك ، أمير ويلز ، وابن جورج الثاني وعدوه . وأخطأ هاندل - الذى كثيرا ما خضع سلوكه لحدة طبعه - بالاساءة الى جوزف جوبى ، الذى كان يعلم الرسم لفردريك ؛ وثار جوبى لنفسه برسمه كاريكاتورا للموسيقى ظهر فيه مخلوقانها متوحشا له خطم خنزير برى ؛ ووزعت نسخ من الرسم فى أرجاء لندن فأضافت الى تعاسة هاندل . وفى ربيع ١٧٣٣ شجع أمير ويلز حاشيته على تأليف فرقة منافسة سميت « أوبرا الاشراف » . واستقدمت الفرقة من نابلى أشهر معلمى الغناء فى ذلك العهد ، وهو نيكولو بوربورا ، وأغرت سنسينو بترك هاندل ، وكوتزونى بالمجئء من ايطاليا ؛ وفى ٢٩ ديسمبر ، وفى مسرح لنكولنز أن فيلدز ، أخرجت أوبرا بوربورا « آريانا » التى لقيت استحسانا عظيما . أما هاندل فقد قابل هذا التحدى الجديد بأوبرا تناولت موضوعا مشابها مشابهة تنطوى على التحدى ، « آريانا فى كريت » (٢٦ يناير ١٧٣٤) ، فلكيت هى أيضا استقبالا حسنا . ولكن فى نهاية الموسم انتهى عقده مع هيديجر ، وأجر هيديجر مسرح جلالة الملك لأوبرا الاشراف ، ونقل هاندل فرقته الى مسرح كوفنت جاردن الذى يملكه جون رتش .

وانتقم بوربورا بدعوة كارلو بروسكى ، أشهر المغنين «الخصيان» ، المعروف لأوبرا كلها باسم « فارينللى » . وقد نقض الحديث عن غناء هذا الرجل حين نلتقى به فى وطنه بولونيا ، وحسبنا هنا أن نقول انه حين انضم الى سنسينو وكوتزونى فى أوبرا بوربورا « ارتازرسى » كان ذلك حدثا فى تاريخ انجلترا الموسيقى ، وأعيد عرض الأوبرا أربعين مرة فى السنوات الثلاث التى مكثها فارينللى - وقابلها هاندل بأوبرا « أريودانتى » (٨ يناير ١٧٣٥) ، وهى من أروع أوبراته ، غنية غنى فريدا فى موسيقاها الالية ، وقد ظفرت بعشرة عروض فى شهرين ،

ووعدت بأن تغطي نفقات هندل . ولكن حين أخرج بوربورا أوبرا « بوليفيمو » (أول فبراير) التى لعب فيها فارينللى دور البطل ، لم يستطع الملك ولا الملكة ولا الحاشية أن يمتنعوا عن مشاهدتها ، وفاقت فى مرات عرضها « أرتازيرمي » ، بينما لم تلبث أوبرا هندل «التشيننا» (١٦ أبريل) أن أقفر مسرحها من رواده - ولو أن الحانا أوركستراالية متتابعة (سويت) من موسيقاها لا تزال تظهر على البرامج اليوم . واعتزل هندل ساحة القتال نصف سنة ليطلب آلامه الروماتزمية بمياه ينابيع تنبردج .

وفى ١٩ فبراير عاد الى كوفنت جاردن بأوراتوريو لحذها لقصيدة درايدن «وليمة الاسكندر» . كتب معاصر أن جمهور الألف والثلثمائة مشاهد الذين ملأوا المسرح استقبلوا الأوراتوريو بتصفيق « ندر أن سمع فى لندن (٥٤) » . وتعزى هندل بريح منها بلغ ٤٥٠ جنيهها ، ولكن القصيدة كانت أهزل من أن تحتل إعادة عرضها أكثر من أربع مرات ، رغم أن هندل قام بعزف مثير على الأرغن فى فترة الاستراحة ، وانقلب المؤلف - المخرج - القائد - العازف اليائس الى الأوبرا من جديد . وفى ١٢ مايو قدم « أطلالانطا » مسرحية رعوية تحتفل بزواج أمير ويلز . وكان قد دعا من ايطاليا مغنيا خصيا جديدا يدعى جيتسبلو (جواكينو كونتى) لغناء السوبرانو ، وخص دوره بلحن (كارى سلفى) وهو من أجمل وأخلد أغانيه . وبلغ من سرور فردريك أنه نقل رعايته من فرقة بوربورا الى فرقة هندل ، ولكن هذا النصر كدره الغاء الملك لتبرعه السنوى بألف جنيه لمشروع هندل حين سمع بالخطوة التى اتخذها ابنه .

وكف بوربورا عن المعركة فى ربيع ١٧٣٦ . وملا هندل مسرحه بمناوبة الأوبرا مع الأوراتوريو ، وأضاف الى فرقة « جوستينو » (١٦ فبراير ١٧٣٧) « الدببة ، والحيوانات الغريبة ، والتنانين التى تقذف النار (٥٥) » . ولكن الجهد الذى اقتضته مسئولياته المنسوعة حطمه . وفى أبريل أصابه انهيار عصبى ، ونقطة شلت ذراعه اليمنى فترة . وفى ١٨ مايو عرض « برينيتشي » ، آخر أوبرا كتبها لفرقة . ثم أغلق مسرحه فى أول يونيو مثقلا بديون كثيرة ، متعهدا بالوفاء بها جميعا كاملة ، وقد فعل . وبعد عشرة أيام حلت « أوبرا الاشراف »

المنافسة له ، مثقلة بدين قدره اثنا عشر ألف جنيه . وهكذا انتهى عصر الأوبرا العظيم فى إنجلترا .

وكانت صحة هندل من بين ما تخلف من حطام . فالروماتزم فى عضلاته ، والتهاب المفاصل فى عظامه ، والنقرس فى أطرافه - هذه كلها تفاقمت فى صيف ١٧٣٧ بنوبة جنون عارضة (٥٦) . فغادر إنجلترا ليستشفى بـميـاه آخن . وكتب السرجون هوكنز يقول انه هناك:

« احتمل من افرازات العرق التى بعثتها حمامات البخار ما أدهش كل انسان . وبعد بضع محاولات من هذا النوع ، بدت معنويته خلالها ترتفع ولا تهبط من أثر العرق الغزير ، فارقه اضطراب عقله ، وبعد بضع ساعات .. . ذهب الى كنيسة المدينة الكبرى ، ووصل الى الأرغن ، ثم عزف عليه عزفا جعل الناس يعزون شفاءه الى المعجزة (٥٧) » .

وفى نوفمبر عاد الى لندن ، والى الكفاية المالية وأسباب التشريف . وكان هيديجر قد عاد ثانية الى مسرح صاحب الجلالة . ونقد هندل ألف جنيه لقاء أوبراتين ، واحتوت احدهما وهى « سرسي » (١٥ أبريل ١٧٣٨) على اللحنين المشهورين « لارجو » و « أومبرا ماى فو » . ودفع مستاجر حدائق فوكسهول الى روبياك ثلاثمائة جنيه لينحت تمثالا يظهر فيه الموسيقى وهو يداعب أوتار قيثاره ؛ وفى ٢ مايو أزيح الستار عن هذا التمثال الثقيل الوقفة ، الغبى التعبير ، فى الحدائق فى حفلة موسيقية . ولا بد أن هندل قد سره أكثر من هذا تلك الحفلة التى أعين بها فى ٢٨ مارس ، والتى أتته بأكثر من ألف جنيه . فدفع الآن ديون أعجل دائئيه ، وكان أحدهم يهدد بإيداعه سجن المدينين . ولكنه كان مشرفا على الإفلاس برغم كل تشريف . ولم يستطع أن يتطلع بعد ذلك لهيديجر ، الذى أعلن (٢٤ مايو) أنه لم يقلق من الاكتتابات ما يتيح له اخراج أوبرات فى ١٧٣٨ - ٣٩ . هنا ، ودون تكليف ولا فرقة ، بدأ هندل أعظم أطواره ، وهو فى الثالثة والخمسين ، والأوصاب والأوجاع تهز بدنه .

د - الأوراتوريو

نشأ هذا الشكل الجديد نسبيا من كورالات العصور الوسطى التى تمثل أحداثا فى التاريخ المدون فى الكتاب المقدس أو حياة القديسين . وكان القديس فليب نيرى قد خلع على هذا الشكل اسمه بتفضيله إياه وسيلة للعبادة والتعليم الدينى فى مصلى آباء الأوراتوريو فى روما . وطور جاكومو كاريسمى وتلميذه أليساندرو سكارلاتى الأوراتوريو فى إيطاليا ، ونقلها هنريش شوتس من إيطاليا الى ألمانيا ، وبلغ رينهارت كيزر بهذا اللون شأوا بعيدا قبل موته (١٧٣٩) . وهذا هو التراث كيزر بهذا اللون شأوا بعيدا قبل موته (٢٧٣٩) . وهذا هو التراث الذى بلغ غايته فى « مسيا » Messiah هندل عام ١٧٤١ .

والفضل فى نجاح هندل يرجع بعضه الى توفيقه بين هذا الشكل وبين الذوق الانجليزى . وقد واصل اختيار موضوعات الأوراتوريو من الكتاب المقدس ، ولكنه أضفى عليها بين الحين والحين عنصر تشويق غير دينى ، كما فعل فى موضوع الحب فى « يوسف واخوته » . وفى « يفتاح » ؛ وركز على الطابع الدرامى لا الدينى ، كما فعل فى « شاول » و « اسرائيل فى مصر » ؛ واستعمل نصا انجليزيا خالصا ، أخذ جزءا منه فقط من الكتاب المقدس . لقد كانت فى جزء كبير منها موسيقى دينية ، ولكنها مستقلة عن الكنائس والطقوس . وقد مثلت على مسرح تحت رعاية علمانية . يضاف الى هذا أن هندل استخدم الموضوعات الكتابية ليرمز بها للتاريخ الانجليزى ، فاسرائيل ترمز لانجلترا ، وتمرد ١٦٤٢ الكبير وثورة ١٦٨٨ المجيدة يمكن سماعهما فى كفاح اليهود للتحرر من ربقة المصريين (أسرة ستيوارت) والسيطرة الهلنستية (الغالية) ؛ ولم يكن الشعب المختار فى حقيقته سوى الأمة الانجليزية ، واله اسرائيل هو نفس الاله الذى قاد الشعب الانجليزى الى النصر بعد المحن . وكانت فكرة هندل عن الله أشبه بفكرة البيورتان ، فهو « يهوه » اله العهد القديم الجبار ، لا الله الأب كما يصوره العهد الجديد (٥٨) . وكان هذا احساس انجلترا ، فاستجابت فى فخر لأوراتوريوات هندل .

بدأ الطريق الصاعد الى « المسيا » بأوراتوريو « شاول » التى أخرجت على مسرح صاحب الجلالة فى ١٦ يناير ١٧٣٩ . « ان مارش الموتى المهيبة ، الجليل ، لكفيل وحده بأن يخلد هذا العمل (٥٩) » .

ولكن الجمهور لم يعتد شكل الأوراتوريو ، لذلك لم تعمر « شاول » أكثر من عشرة عروض . وبهمة لا تصدق ألف هندل وقدم (٤ أبريل) آية أخرى من آياته هي « إسرائيل فى مصر » . هنا جعل الكورس هو البطل ، صوت أمة تولد ، ووضع موسيقى يعدها الكثيرون أسمى ما كتب (٦٠) . ولكن اتضح أنها مترامية عسيرة فوق ما يحتمله الذوق السائد آنئذ ، وأنهى هندل موسمه التاريخى بديون جديدة .

وفى ٢٣ أكتوبر اندفعت انجلترا الى الحرب مع أسبانيا بسبب أذن جنكنز . وفى وسط ضجيج الحرب وصخبها استاجر هندل مسرحا صغيرا ، وفى عيد القديسة راعية الموسيقيين قدم الاطار الموسيقى الذى ألفه لقصيدة درايدن الغنائية التى كتبها بمناسبة « عيد القديسه سيسيليا » (٢٢ نوفمبر ١٧٣٩) ولم تستطع لندن ، حتى فى برد تلك الليلة من ليالى الشتاء وفوضاها ، أن تقاوم ذلك الاستهلال الرخيم المشرق ، أو لحن السوبرانو الانيرى فى القسم الثالث ، أو « الناي الشاكى الخافت » و « العود الصادح » فى الخامس ، فى حبن اتفق « دق الطبل المراءد ، ذلك الدق المضاعف المضاعف المضاعف » مع روح الحرب المدممة فى الشوارع . وعاود الأمل هندل ، وجرب أوبرا سماها « أمينيو » (١٧٤٠) ، ولكنها فشلت ، وجرب أخرى اسمها « ديداميا » (١٧٤١) ، ففشلت هى أيضا ، واعتزل العملاق المرهق المسرح الموسيقى اللندنى. قرابة عامين .

وكان هذان العامان أروع ما فى حياته . وفى ٢٢ أغسطس ١٧٤١ بدأ يؤلف أوراتوريو « المسيا » . وقد اقتبس النص تشارلز جيننز من أسفار أيوب والمزامير وأشعيا ومراثى أرميا وحجى وزكريا وملاخى - وكلها من أسفار العهد القديم ، ومن أناجيل متى ولوقا ويوحنا ، ورسائل بولس ، وسفر الرؤيا - وهى من أسفار العهد الجديد . وأتم كتابة الموسيقى فى ثلاثة وعشرين يوما ، وقال لصديق انه فى بعض هذه الأيام « حسبتنى حقا أبصر السماء كلها أمامى فعلا ، والله العلى ذاته (٦١) » . واذ لم يتح له أمل مبكر فى العثور على جمهور لها ، فقد انتقل الى كتابة أوراتوريو كبيرة أخرى هي « شمشون » ، بناها على قصيدة ملتن عن معاناة شمشون Samson Agonistes وفى تاريخ غير معروف خلال

هذه النشوات تلقى دعوة لعرض بعض أعماله فى دبلن . وبدأ له أن
الاقتراح آت من العناية الالهية التى تقدره حق قدره ، ولكن الحقيقة
أنه أتى من وليم كافندش ، دوق ديفونشير ، ونائب الملك فى أيرلندا .

ووصل الى دبلن فى ١٧ نوفمبر ١٧٤١ . واستخدم أفضل من وجد
من المغنين ، ومنهم سوزانا ماريا كبر ، الابنة المثقفة لتوماس آرن .
ونظمت عدة هيئات خيرية ست حفلات موسيقية له ، نجحت نجاحا
حملة على تقديم سلسلة ثانية . وفى ٢٧ مارس ١٧٤٢ نشرت مجلتان
فى دبلن اعلانا جاء فيه :

« رغبة فى اغانة المسجونين فى عدة سجون ، واعانة مستشفى
ميرسر . . . سيقدم يوم الاثنين ١٢ أبريل على قاعة الموسيقى فى
شارع فيشامبل ، اوراتوريو المستر هندل الكبرى الجديدة ، المسماه
« المسيا » . وسيشارك فيها أعضاء الكورس فى كلتا الكتدرائيتين ،
ويعزف المستر هندل بعض الكونشرتوات على الأرغن (٦٢) » .

وبيعت التذاكر كذلك للبروفات التى ستجرى فى ٨ أبريل ، والتى
قالت مجلة فوكنر انها « تؤدى أداء رائعا . . . اعترف معه أعظم الحكام
بأنها أبدع لحن موسيقى سمعه الناس اطلاقا » . وأضيف الى هذا اعلان
يؤجل حفلة الاثنين الى الثلاثاء ، ويرجو السيدات « أن يحضرن بغير
أطواق لأثوابهن ، لأن هذا من شأنه أن يدعم عمل البر ، اذ سيفسح المكان
لعدد أكبر من الحاضرين » . وطلبت فقرة أخرى الى الرجال أن
يحضروا بغير سيوفهم . وبهذه الطرق اتسعت قاعة الموسيقى لسبعمئة
شخص بدلا من ستمائة .

وأخيرا ، وفى ١٣ أبريل ١٧٤٢ ، قدم أشهر الألحان الموسيقية
الكبرى قاطبة . وفى ١٧ أبريل احتوت ثلاثة صحف دبلنية نقدا واحدا :

« فى يوم الثلاثاء الماضى قدمت اوراتوريو المستر هندل الكبرى
المقدسة ، « المسيا » . . . وقد اعترف أفضل الحكام بأنها أفضل القطع
الموسيقية صقلا . وتعوزنا الألفاظ للأعراب عز، المتة الفائقة التى أتاحها
للجمهور المزدحم المعجب . وقد تضافرت عناصر السمو والفخامة

والبرقة ، التى واعم بينها وبين أنبل الألفاظ وأجلها وأشدها تأثيرا ،
لتطرب وتسحر القلب والأذن المسلموبين . ومن الانصاف لمستر هندل
أن يعرف العالم أنه تبرع فى سخاء بحصيلة هذه الحفلة الكبرى لتوزع
بالتساوى بين جمعية اغائة المسجونين ، ومبرة العجزة ، ومستشفى
ميرسر ، وهو عمل متذكره له هذه الهيئات بالشكر على الدوام (٦٣) « .

وأعيد عرض « المسيا » فى دبلن فى ٣ يونيو . وقد أعيدت ألف
مرة منذ ذاك التاريخ ، ومع هذا فمندا الذى مل تلك الألحان - سواء
الهادئة منها أو الفخمة - ، تصاحبها الترانيم الخافتة الرقيقة اللطيفة
مثل « سوف يطعم قطيعة » و « أعلم أن فادى حى » ، و « ليتمجد
اسمه » و « كان مزدرى مرفوضا » ؟ لقد حدث والمسز كبر تترنم بهذا
اللحن الأخير فى أول عرض بدبلن أن صاح قسيس انجليكانى من بين
الحاضرين قائلا « لتغفر لك خطاياك من أجل هذا أيتها المرأة ! » فكل
ما فى الرجاء الدينى من عمق وحرارة ، وكل ما فى الترتيل الورع من
رقة وحنان ، وكل ما وهب الموسيقى من فن وعاطفة - كل هذا اجتمع
لجعل من هذه الألحان أرفع اللحظات فى الموسيقى الحديثة .

وفى ١٣ أغسطس غادر هندل دبلن منتعش الروح ممتلىء الجيب
وقد عقد النية على أن يغزو انجلترا من جديد . ولا بد أن قد سرى عنه
غلو بوب فى الثناء عليه فى الجزء الرابع من « ملحمة الأغبياء »
(١٧٤٢) :

« ها هو هندل العملاق يقف قويا وهو مدجج بسلاح جديد !
مثل برياريوس الشجاع ، وله مائة يد (أى الأوركسترا)
يأتى ليحرك ويوقظ ويهز النفوس
ورعود جوبيتر تتبع طبول مارس .

وعليه ففى ١٨ فبراير ١٧٤٣ ، فى المسرح الملكى بكوفنت جاردن ،
قدم الموسيقى الذى استعاد شبابه أوراتوريو « شمشون » . وكان جورج
الثانى على رأس الصفوة اللندنية التى حضرت حفلة الافتتاح . وأبهج
الاستهلال الجميل كل انسان سمعه الا هوراس ولبول ، الذى صمم على
ألا يعجب بشيء قط ؛ وكان اللحن الرفيع الذى مطلعته « يارب الجنود »

رائعا روعة تقرب من روعة ألحان المسيا ، وكما فعل شمشون الجبار الذى سحق بقوة المحتفلين اذ اسقط عليهم المعبد ، فكذلك كان تأثير أوراتوريو « شمشون » ساحقا على الحاضرين . ولكن حين عرضت المسيا نفسها بعد شهر (٢٣ مارس) على لندن ، لم يستطع حتى الملك - الذى أرسى يومئذ تقليدا دائما بوقوفه عند ترنم الفرقة بلحن « هللوا » - أن ينهض بالأوراتوريو الى مقام التقبل . فرجال الدين نددوا باستعمال المسرح للموسيقى الدينية ، اما النبلاء فما زالوا على صدهم وجراح اخفاق فرقتهم الأوبرالية توجعهم . ولم تعرض المسيا فى العامين التاليين الا ثلاث مرات ، ثم توقف عرضها حتى عام ١٧٤٩ . وفى ذلك العام أهدى هندل ، الذى كان رجلا بارا بالانسانية فيما بين افلاسائه ، أرغنا جميلا لمستشفى اللقطاء الذى كان صديقه هوجارث يحبه حبا جما ، وفى أول مايو ١٧٥٠ قدم أول عرض من عروض المسيا السنوية لأعانة أولئك البؤساء المحظوظين .

وفى ٢٧ يونيو ١٧٤٣ قاد جورج الثانى جيشه للنصر فى معركة ديتنجن . فلما عاد الى لندن حيته المدينة بالعروض والأضواء والموسيقى ، وصدحت الكنيسة الملكية فى قصر سانت جيمس بـ « تسبيحة ديتنجن » التى لحنها هندل لهذه المناسبة (٢٧ نوفمبر) . وكانت نتاج العبقريّة والمقص ، لأنها احتوت فقرات مسروقة من مؤلفين أسبق وأقل شأنا من هندل ، ولكنها كانت معجزة من متجزات اللصق . وابتهج الملك .

فلما أن تشجع هندل بالابتسامات الملكية ، جدد جهوده ليقتنص آذان لندن من جديد . وفى ١٠ فبراير ١٧٤٤ قدم أوراتوريو أخرى سماها « سملى » احتوت ترنيمة بديعة اسمها « حيثما سرت » ما زالت تترنم بها إنجلترا وأمريكا ، ولكن الأوراتوريو لم تستطع تجاوز عروض أربعة . وظل النبلاء على عدائهم لهندل ، وحرصت نبيلات كثيرات على اقامة الولائم المترفة فى الأمسيات المقررة للحفلات الموسيقية التى يحييها هندل ، واستؤجر الأوباش ليمزقوا اعلاناته . وفى ٢٣ أبريل ١٧٤٥ ألغى الحفلات الموسيقية الثمان التى أعلن عنها من قبل ، وأغلق مسرحه ، واعتزل فى تنبردج ولز . وأرجفت الشائعات أنه مجنون . كتب حامل لقب إيرل شافتسبرى فى تلك الفترة يقول (٢٤ أكتوبر) « ان هندل المسكين يبدو

أحسن قليلا ، وأرجو أن يتمثل للشفاء تماما ، ولو أن عقله قد اختلط
اختلاطا تاما (٦٤) » .

وربما أخطأت الشائعات ، لأن هندل الذى بلغ الستين استجاب بكل
قواه لدعوة من ولى العهد ليحيى ذكرى انتصار أخى الأمير الأصغر ، دوق
كمبرلاند ، على القوات الاستيوارتية فى كالودين . واتخذ هندل انتصار
يهودا المكابى (١٦٦ - ١٦١ ق .م) على خطط أنطيوخس الرابع لقرض
الهلمستية على وطنه موضوعا رمزيا للأوراتوريو الجديدة . وقد أحسن
الجمهور استقبالها (أول أبريل ١٧٤٧) حتى احتملت إعادة عرضها
خمس مرات فى أول موسم لها . أما يهود لندن الشاكرون هذا الاحتفال
النبيل بأحد أبطالهم القوميين ، فقد أعانوا على تكثير جمهور النظارة ،
فمكنوا هندل من تقديم الأوراتوريو أربعين مرة قبل موته . واعترافا
بفضل هذا الدعم الجديد اتخذ أكثر موضوعات ألحانه الدينية بعد ذلك
من تاريخ اليهود أو أساطيرهم ، اسكندر بالوس ، ويشوع ، وسوسنة ،
وسليمان ، ويفتاح . وعلى عكس ذلك لم تجتذب أورانونوريو « تيودورا »
- وهو اسم مسيحي - من الجمهور الا أقل القليل ، حتى لاحظ هندل
فى مرارة أنه « كان هناك مكان يتسع للرقص » وغادر تشسترفيلد المسرح
قبل نهاية العرض معذرا بأنه « لا يريد ازعاج الملك فى خلوته (٦٥) » .

هـ - بروميثيوس

ليست الأوراتوريو الا « نوعا » واحدا من ذلك « الجنس » المسمى
هندل . ذلك أن روحه المتعددة الاشكال اتجهت بتوافق تلقائى تقريبا لاي
شكل من الاشكال الموسيقية الكثيرة . فالأغاني التى مازالت تمس أوتار
العاطفة ، وقطع الأرغن أو البيان المتناهية الرقة ، والسوناتات ،
والمتابعات ، والرباعيات ، والكنشرتو ، والأوبرا ، والأوراتوريو ،
وموسيقى الباليه ، والقصائد الغنائية ، والرعويات والكنتاتات ،
والتراتيل ، والأناشيد الوطنية ، وتسبيحات الشكر ، وترانيم أسبوع
الالام - كل شيء تقريبا الا السمفونية الوليدة نجده فى موسيقاه ،
منافسا بذلك فيض بيتهوفن أو باخ المتدفق ، و « متتابعات
الهاربسيكورد » تبدو اليوم على الهاربسيكورد وكأنها أصوات أطفال
سعداء لم يعرفوا التاريخ بعد . وهناك مجموعة ثانية من المتتابعات .

بحدات بذلك الاستهلال الذى لعب به الموسيقى برامز لعبا مرححا فى
« تنويعات وفوجه على موضوع لهندل » .

وكما أخذ هندل الاوراتوريو عن كاريسىمى وكايزر وارتفع بها الى
أوجها ، كذلك أخذ عن توريللى وكوريللى « الكونشرتو الكبير » -
لالتين أو أكثر لمغن واحد أو مغنيين مع أوركسترا صغير (أوركسترا
الحجرة) . وفى مجموعته الموسيقية السادسة ترك اثنى عشر من هذه
الكونشترات الكبيرة ، مقابلا كمانين وفيولنتسيلو بمجموعة وترية ،
وبعضها يبدو لنا اليوم رتيا ، وبعضها يقرب من كونشرتو براندنبورج
لباخ . كذلك نجد فى هندل كونشترات ممتعة لآلة منفردة - الهاربسيكورد
أو الكمان ، أو الفيولا ، أو الأوبوا ، أو الهارب . أما تلك المخصصة
للوحات المفاتيح فكان يؤديها هندل بنفسه فى المقدمات أو الفواصل .
وكان أحيانا يترك متسعا فى موسيقى الكونشرتو لما يجب أن نسميه
اليوم « ارتجالا » *cadenza* ، حيث يستطيع العازف أن يطلق
العنان لخياله ويظهر براعته . وكانت ارتجالات هندل فى مثل هذه
الافتتاحات أعاجيب تحدث الناس بها طويلا .

وفى يوليو ١٧١٧ نظم جورج الأول « رحلة » ملكية فى ذهبيات
حفلت بالزينات على نهر التيمز . وتكشف صحيفة « الديلى كورنت »
عدد ١٩ يوليو ١٧١٧ عن هذا المشهد فتقول :

« فى مساء الأربعاء حوالى الثامنة نزل الملك الى النهر عند
هوايتهول فى ذهبية مكشوفة ، كان فيها أيضا دوقه نيوكاسل ، وكونتيسة
جودولفن ، ومدام كيلمانسيك ، وايرل أوركنى ، وصعدوا فى النهر
جنوب تشلسي . ورافقتهم ذهبيات كثيرة أخرى يستقلها بعض عليه
القوم ، وزوارق كبيرة العدد بحيث غطت صفحة النهر تقريبا . وخصص
زورق فرقة موسيقية من فرق المدينة لعزف الموسيقى ، زود بخمسين
آلة من جميع الأنواع ، عزف عليها العازفون طوال الطريق من لامبث
... .. أبداع السمفونيات ، التى لحنها المستر هندل خصيصا لهذه
المناسبة وأعجبت جلالته جدا حتى طلب عزفها أكثر من ثلاث مرات فى
الذهاب والاياب (٦٦) » .

وهذه هي « موسيقى المياه » ، التي هي اليوم أبقي وألذ ما تخلف من مؤلفات هندل الآلية . ويبدو أنه كان هناك في الاصل احدي وعشرون حركة - وهو عدد أكبر من أن يحتمله المستمعون العصريون الذين تعوزهم الذهبيات والوقت ، ونحن لا نستمع عادة لأكثر من ست . وبعضها متعبة بعض الشيء في تطوافها المشجي ، ولكن أكثرها موسيقى صحية مريحة مثالقة ، كأنها متدفقة من ينبوع لتهدد خليات الملك . و « موسيقى المياه » أقدم قطعة موسيقية في الذخيرة الاوركستراالية الحالية .

وبعد جيل كامل ، ومن أجل جورج ثان ، أضفى هندل الكرامة على مناسبة خلوية أخرى . ذلك أن الحكومة قررت اقامة عرض للألعاب النارية في جرين بارك احتفلا بصلح اكس - لا - شابل ، ووكلت هندل بتأليف « موسيقى الألعاب النارية الملكية » . فلما عزفت بروفا هذه الموسيقى في حدائق فوكسهول (٢١ أبريل ١٧٤٩) ، دفع اثنا عشر ألف شخص مبلغ الشلنين - الكبير في ذلك الوقت - للاستماع اليها ؛ وبلغ التزاحم مبلغا عطل المرور على الطريق الذي يعبر كوبري لندن ثلاث ساعات - « ولعل هذا كان أروع ثناء ظفر به أى موسيقى على الاطلاق (٦٧) » . وفي ٢٧ أبريل شق نصف سكان لندن طريقهم الى جرين بارك ، واقتضى الأمر هدم ست عشرة ياردة من سور الحديقة لتمكينهم من الدخول في الميعاد . وعزفت « فرقة » من مائة موسيقى لحن هندل ، وتألقت الألعاب النارية في السماء ، وشبت النار في مبنى أقيم لهذه المناسبة ، فذعر الجمع المحتشد وأوذى كثيرون ومات شخصان . ولم يبق من المهرجان الا موسيقى هندل . واذا كان هدف هذه الموسيقى أن تخلد حربا ظافرة وأن تسمع عن بعد فقد كانت عبارة عن دوى هتافات وطنين طبول أشد ضجيجا مما تحتمله الأذن التي ألقت الحركة البطيئة . ولكن فيها حركة بطيئة جدا تقع وقعا محمودا على الأعصاب المرهقة .

وانتهت انجلترا آخر الأمر الى محبة الألمانى العجوز الذى ناضل جاهدا ليكون انجليزيا . لقد فشل في نضاله ، ولكنه حاول ، حتى الى حد السب والشتم بالانجليزية . وتعلمت لندن ان تغتفر له بدانته الهائلة ،

ووجهه العريض وخديه المنتفخين ، وساقيه المقوستين ومشيته الثقيلة ، ومعطفه القرمزى المخملى ، وعصاه الذهبية المقبض ، وعجبه وتعالیه ؛ لقد كان لهذا الرجل بعد كل المعارك التى خاضها الحق فى الظهور بمظهر الفاتح ، أو على الأقل بمظهر اللورد ، نعم كان فى سلوكه جلالة ، وكان يدرب موسيقييه بالحب والغضب ، ويوبخ جمهور المستمعين على كلامهم خلال البروفات ، ويهدد مغنياته باستعمال العنف ، ولكنه غلف عنفه بالفكاهة . فلما التحمت كوتزونى وبوردونى بالأيدي على خشبة المسرح قال هدوء « اتركوهما لتنتهيا المعركة » ، وراح يدق لحنا مصاحبا مرحا على النقياريات ليرافق سورة عضبهما (٦٨) . ولما هددته مغن بالونب على الهاربسيكورد لأن عزف هندل المصاحب اجتذب السامعين أكثر من غناء المغنى ، طلب اليه هندل أن يحدد تاريخ هذه التمثيلية المقترحة للاعلان عنها قائلا أن « الذين سبأتون لبروك تقفز أكثر من الذين سبأتون لبسمعوك تغنى (٦٩) » . وكانت ملاحظاته الظرفية تعدل فى براعتها تعليقات جوناثان سويفت ، ولكن الاستمتاع بها كان يقتضى الامام بأربع لغات .

وفى ١٧٥٢ بدأ يفقد بصره . فبينما كان يكتب « يفتاح » اختلطت الرؤية أمام عينيه حتى اضطر الى الكف عن الكتابة . وفى المخطوطة الأصلية المحفوظة بالمتحف البريطانى أخطاء عجيبة - « سيقان رسمها بعيدة بعض الشيء عن النوتات التى ننتمى إليها ، ونوتات واضح أنها صلت طريقها (٧٠) » . وفى أسفل الصفحة سطر كتبه المؤلف « الى هنا وصلت ، الأربعاء ١٣ فبراير . منعتنى عيني اليسرى من الاستمرار » . وبعد عشرة أيام كتب على الهامش « ٢٣ فبراير ، حالتى أحسن قليلا . اسنأفت العمل » . ثم ألف موسيقى لهذه الكلمات « فرحنا يضيع فى الحزن ... كما يضيع النهار فى الليل (٧١) » . وفى ٤ نوفمبر كتبت صحيفة «الجنرال أدفرتيزر» : « بالأمس أعد (لعملية السد أو الكتركت) السيد جورج فردريك هندل التى يجريها له الطبيب وليم برومفيلد جراح سمو أميرة ويلز » . وبدا أن الجراحة نجحت ، ولكن فى ٢٧ يناير ١٧٥٣ أعلنت جريدة لندنية أن « المستر هندل كف بصره فى النهاية تماما لسوء الحظ » . على أن التقارير اللاحقة تشير الى انه احتفظ ببصيص من النور حتى موته .

وواصل التأليف والقيادة سبع سنين آخر . فقدم فى ستة أسابيع (٢٣ فبراير الى ٦ أبريل ١٧٥٩) حفلتين عرض فيهما « سليمان » ، وحفلة عرض فيها « شمشون » واثنين « يهوذا المكابى » وثلاثا « المسيا » . ولكن بينما كان يغادر المسرح عقب حفلة عرض المسيا فى ٦ أبريل وقع مغشيا عليه ، واقتضى الأمر حمله الى بيته . فلما أفاق كان دعاؤه أن يفسح له فى الأجل أسبوعا آخر . « أريد أن أموت فى يوم الجمعة الكبيرة ، رجاء أن ألحق بالآلة الصالح ، ربى ومخلصي الحبيب ، فى يوم قيامته (٧٢) » . وأضاف الى وصينه ملحقا أوصي فيه بألف جنيه لجمعية اعابة الموسيقيين العجزة وعائلاتهم ، وبمبالغ كبيرة لنلاثة عشر صديقا ، والى « خادمانى راتب سنة لكل واحدة » . ومات فى سبت النور (غنية الفيامه) ، ١٤ أبريل ١٧٥٩ ، ودفن فى دير وسمنستر فى ٢٠ أبريل ، فى مشهد من « أعظم حشد للبشر من جميع الرتب روى فى مثل هذه المناسبة بل وفى أى مناسبة أخرى (٧٣) » .

ولقد ترك نروة موسيقية لا تصارع ، سنا وأربعين أوبرا ، والسين وثلاثين أوراتوريو ، وسبعين مقدمة ، واحدى وسبعين كنتاتا ، وستة وعشرين كوسرنا كبيرا ، وثمانية عشر كوشرتا للأرغن ، وكثيرا وكثيرا غير هذا بحيث يملأ كل هذا مائة مجلد ضخمة ، تكاد تعدل أعمال باخ وبيتهوفن مجتمعة . وكان بعض هذا التراث مكررا ، وبعضه مسروقا ، لأن هندل سطا على موسيقى تسعة وعشرين مؤلفا على الأقل دون اقرار بفضلهم ليستعين بهم على الوفاء بمواعيده (٧٤) ، مثال ذلك أن المينبوويت فى مقدمة « شمشون » أخذت انغامها نصا من أوبرا كلودىوس لكايذر .

ومن العسير تقدير هندل بقدره الصحيح ، لأنه لا يعرض علينا اليوم الا اليسير من أعماله . أما الأوبرات ، فانها باستثناء بعض الألحان الساحرة لا سبيل الى بعثها ، فقد وضعت ونق نماذج ايطالية ذهبت ولا أمل فى رجوعها فيما يبدو ، ونصوص موسيقاها الموجهة الآن ناقصة ، وهى تستعمل رهوزا واخنصارات أكثرها غير مفهوم الآن ، وقد كتبت لأوركسترات يختلف تكوينها عن تكوين أوركستراتنا اختلافا تاما ، ولأصوات لجنس ثالث مختلف كل الاختلاف عن المتوسط من

أجناس عصرنا . وتبقى بعد ذلك موسيقى الكونشرتو الشبيهة بأرض صيد سعيدة تحوى كنوزا منسية ، و « موسيقى المياه » ، والأوراتوريوات - ولكن حتى هذه الأوراتوريوات « عتيقة » ، لأنها كتبت لانجليز يعدون للمعركة ويهود شاكرين ؛ وتحتاج تلك الكوارس الضخمة والحركات الصوتية المتكاثرة الى معدة ضليعة فى الموسيقى لتضمها - وان كان مما يبهجنا أن نسمع « يفتاح » و « اسرائيل فى مصر » من جديد . ويخبرنا الموسيقيون أن فى الأوراتوريوات المهمة فخامة ووقارا ، وسُموا فى الوجدان ، وقوة فى التصوير والتعبير والدrama ، وتنوعا وبراعة فى التقنية التركيبية ، لم يدركها أحد بعده فى ذلك اللون من التأليف الموسيقى . وقد عاشت «المسيا» الى اليوم رغم ما شابها من تكرار وتقطيع أوصال لأنها من جهة تصون وتدخر أهم العقائد المسيحية العزيزة حتى على من تنكروا لها ، ولكن أهم من ذلك أن الحانها العميقة و « قراراتها » المعبرة عن الانتصار تجعلها فى جملتها أعظم تأليف مفرد فى تاريخ الموسيقى .

وقد أدركت انجلترا عظمته بعد موته ، فلما اقتربت ذكرى ميلاده انضم النبلاء الذين كانوا يخاصمونه من قبل الى الملك والنواب فى أحيائها بثلاثة أيام من موسيقاه . ولما كان مولده فى ١٦٨٤ طبقا للتقويم الانجليزى ، فقد أقيمت أول حفلة فى ٢٦ مايو ١٧٨٤ بدير وستمنستر ، والثانية والثالثة فى ٢٧ و ٢٩ مايو . ولم تكف هذه لتلبية الطلب ، فأقيمت حفلتان أخريان فى الدير فى ٣ و ٥ يونيو . وبلغ عدد المرتلين ٢٧٤ ، والعازفين فى الأوركسترا ٢٥١ ، وبدأ الآن ذلك التقليد الذى يسبغ على عروض هندل الضخامة العارمة والجلال الطاغى . وأحبت عروض هائلة كهذه احتفالات لاحقة بذكرى مولد هندل ، حتى اذا جاء عام ١٨٧٤ ازداد عدد المشاركين فى الأداء حتى بلغ ٣٥٠٠ . وقد ذهب بيرنى الذى سمع أحد هذه العروض الكبرى الى أن ضخامة الصوت لم تنتقص من حلاوة الموسيقى (٧٨) . على أى حال كانت هذه أضخم حفلات أقيمت لأحياء ذكرى أى موسيقى كائنا من كان . والآن وقد خفت فوريتها فقد يصبح فى الامكان الاستماع الى موسيقى هندل من جديد .

٥ - فولتير فى انجلترا ١٧٢٦ - ٢٨

كان يعيش فى انجلترا عام ١٧٢٦ شاب فرنسي ستيبوا فى تاريخ القرن الثامن عشر مكانا أهم كثيرا من مكان هندل . لقد بلغ فولتير السواحل الانجليزية عند جرينتش قرب لندن فى ١٠ أو ١١ مايو . وكان أول انطباع له فياضا بالحماسة . فقد كان أسبوع مهرجان جرينتش ، وكادت صفحة التيمز تغطبها الزوارق والأشعة الضخمة ، وكان الملك هابطا النهر فى ذهبية حافلة بالزينة ، تسبقها فرقة موسيقية ، وعلى الشاطئ رجال ونساء يختالون على جياد تخطر ، ثم عشرات من الفتيات الحسان يمشين وقد تزين ليوم عطلة . وأثارت مشاعر فولتير البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أجسادهن الرشيقة ، واحتشامهن ، ووجناتهن المتوردة . على أنه نسيهن حين وصل الى لندن ووجد أن المصرفى الذى كان يحمل اليه خطاب تحويل على رصيده بعشرين ألف فرنك قد أسهر أفلاسه . وأنفذه افرد فوكنر ، وهو تاجر التقى به فى فرنسا ، فأقام عدة شهور فى ضيعة هذا البريطانى الكريم بواندزورث ، وهى ضاحية من ضواحي لندن . وأرسل جورج الأول الى فولتير مائة جنيه حين سمع بحادثته المؤسف .

وكان يحمل رسائل تعريف من هوراشيو ولبول ، السفير البريطانى لدى فرنسا ، الى كثير من مشاهير الانجليز ، وقد التقى عاجلا أو آجلا بكل انسان تقريبا ممن يشار اليهم بالبنان فى ميدان الأدب أو السياسة الانجليزية . فاستقبله روبرت ولبسول ، رئيس الوزراء ، ودوق نيوكاسل ، وسارة دوفن ملبره ، وجورج أوغسطس وكارولين أمير وأميرة ويلز ، ثم آخر المطاف الملك الذى نحه بساعة ثمينة أرسلها فولتير عربون صلح لأبيه .

ثم زار « سيدى اللورد بولنبروك وسيدتى الليدى بولنبروك » و « وجد محبتهم لاتزال كما هى (٧٧) » . وفى أغسطس قام برحلة خاطفة الى فرنسا ، وهو لم يزل على تلفه لفتال رومان ، ولكن سبب الرحلة كان فى أغلب الظن ننظيم شئونه المالية . وعاش ثلاثة أشهر - بعضها مع سويقت - ضيفا على الايرل الثالث لسترבורو . واستمتع (م ٢٣ - قصة الحضارة)

ثلاثة أخرى فى قصر ايستبرى بضيافة بوب دودنجتن ، ذلك السياسي الفاسد والراعى العطوف لفيلدنج ، وطومسون ، وبنج . والتقى فولتير بكلا الشاعرين هناك ، وقراها دون أن يخرج بفائدة من القراءة . ومن ثم عكف على تعلم اللغة بعزم صادق ، فما وافت نهاية عام ١٧٢٦ حتى كان يكتب الخطابات بالانجليزية (٧٨) . واقتصر فى الشهور الأولى على المجالس التى كانت تفهم فيها الفرنسية ، ولكن كل من كان ذا شأن من الرجال أو النساء فى الأدب الانجليزى أو السياسة الانجليزية كان يعرف الفرنسية . وكتب المذكرات التى ملأها الآن باللغتين على السواء ، وهى تدل على أنه تعلم الألفاظ النابية أول ما تعلم من الانجليزية .

وقد اكتسب من الاحاطة بالأدب الانجليزى ما لم يكتسبه فرنسي مرموق بعده حتى ايبوليت تين . وقرأ بولنبروك ، ولكنه وجد قلم الفيكونت أقل المعية من لسانه ؛ على أنه ربما أخذ عن كتاب بولنبروك المسمى « مفهوم الملك الوطنى » الاعتقاد بأن خير أمل فى الإصلاح الاجتماعى يجرى على يد الملكية المستنيرة . وشق طريقه وسط أحقاد سويقت المقطرة ، وربما تعلم منه بعض فنون الهجاء ، وحكم بأنه « يفوق رابليه بما لا يقاس (٧٩) » . وقرأ ملتن ، ووقع من فوره على هذه الحقيقة ، وهى أن الشيطان هو البطل الحقيقى للحمة الفردوس المفقود (٨٠) . وقد رأينا فى مكان آخر انفعاله المختلط بشكسبير - الاعجاب ببلاغة « الهمجى المحبوب » ، و « درر » السمو أو الرقة الدفينة وسط « كومة روث هائلة » من المهازل والمبازل (٨١) . وقلد « بوليوس قيصر » فى « موت قيصر » ، وعطيل فى « زائير » . كذلك ظهرت رحلات جلفر من جديد فى « ميكروميجاس » ، ومقال بوب عن الانسان فى « رسائل منظومة فى الانسان » .

وبادر بعد وصوله الى انجلترا بزيارة بوب . وصدمه منه تشوّهه وعذاباته ، وأذهلته حدة ذهن بوب وارهاف عبارته ، وفضل مقال بوب فى النقد على مقال بوالو فى « فن الشعر (٨٢) » . وزار كونجريف المسن وساءه أن يجد أن الرجل الذى كان يوما ما مسرحيا عظيمًا أراد أن يعتبر « جنتلمانًا لا مؤلفًا (٨٣) » . وعلم فى حسد بأمر الوظائف الشرفية والمعاشات التى منحتها الوزارة الانجليزية قبل ولبسول

للمؤلفين ، وقارن ببن هذا الوضع وما صار اليه أمر أكبر شعراء فرنسا ،
الذى زج به فى السجن لأنه استاء من اهانة نبيل له .

ومن الأدب انتقل الى العلم ، فالتقى بأعضاء الجمعية الملكية ،
وبدأ يدرس نبوتن تلك الدراسة التى أتاحت له بعد ذلك أن يحل نبوتن
محل ديكارت فى فرنسا . وتأثر تأثراً عميقاً بالجنائزات الرسمية التى
شيعت بها صفوة الانجليز نبوتن ، ولاحظ كيف رحبت الكنيسة
الانجليكانية بعالم يدفن فى دير وستمنستر . ومع أنه كان قد أصبح
ربوبيا قبل زيارته لانجلترا - اذ تعلم فن الشك من رابليه ومونتيني
وجاسندى وفونتنبيل وبيل - فانه الآن اتخذ دعماً له من ربوبى
انجلترا - من تولاند وولسن وتندال ونسب وكولنز ومدلن وبولنبروك؛
وسيلح مكتبته بكتبهم فى فترة لاحقة . وكان أقوى حتى من هؤلاء
تأثير لوك الذى امتدحه فولير لأنه أول من درس العقل دراسة واقعية .
ولاحظ أن القليل جداً من هؤلاء المهرطقين المصريين على هرطقتهم
سجنوا بسبب آرائهم . ثم لاحظ نمو التسامح الدينى منذ ١٦٨٩ ،
وذهب الى أنه لا يوجد فى انجلترا تعصب دينى أعمى ، وحتى
الكويكرز خفت فورتهم فندوا رجال أعمال هادئين . وزار أحدهم ،
وسره أن ينبأ بأن بنسلفاديا بلد مثالى يخلو من الطبقات والحروب
والاعداء (٨٤) .

كتب بعد ذلك الى مدام دو دفان يقول « ما أشد حبى للانجليز ،
ما أشد حبى لهؤلاء القوم الذين يقولون ما يعتقدون (٨٥) ! » وعاد
يقول :

« انظرى ما حققته قوانين الانجليز ، لقد ردت لكل انسان حقوقه
الطبيعية التى سلبته اياها كل النظم الملكية تقريباً . وهذه الحقوق
هى : الحرية الكاملة للفرد وما يملك ؛ وحقه فى أن يكلم الناس بقلمه ؛
وأن يحاكمه محلفون من الرجال الاحرار اذا اتهم بجريمة ؛ وألا يحاكم
فى أى أمر الا طبقاً لقوانين محددة ؛ وأن يجهر وقت السلم بالدين الذى
يفضله أيا كان ، مع البعد عن تلك المناصب التى لا يختار لها
الا أعضاء الكنيسة الانجليكانية (٨٦) » .

والسطر الأخير يدل على أن فولتير أدرك حدود الحرية
الانجليزية . فقد عرف أن الحرية الدينية لم تكن قط كاملة ، وقد سجل

فى مذكراته القبض على « مستر شبنج » لما أبدى من ملاحظات مهينة على خطاب العرش (٨٧) . وكان فى استطاعة أى من مجلسي البرلمان أن يستدعى المؤلفين لمحاكمتهم على تصريحاتهم المؤذية عن أعضاء البرلمان ؛ وكان فى استطاعة كبير الامنساء أن يرفض التصريح بالتمثيلات ؛ وقد وضع ديفو فى المشهرة عقابا على نشره حشاها تهكما . ولكن فولتير أحس بأن حكومة انجلترا رغم فسادها أعطت الشعب قسطا من الحرية يحفره حفزا خلاقا فى كل مجالات الحياة .

فهنا على سبيل المثال كانت التجارة حرة نسبيا ، لا يغل يدها ما يعرقلها فى فرنسا من مكوس داخلية . وخلعت على رجال الأعمال المناصب الادارية الرفيعة ، وسيعين صديقه فوكنر بعد قليل سفيرا لانجلترا فى تركيا . وأحب فولتير ، رجل الأعمال ، روح الانجليز العملية ، واحترامهم للحقائق والواقع والمنفعة ، وبساطة سلوكهم وعاداتهم وملبسهم حتى الاثرياء منهم . وأحب أكثر من هذا كله الطبقة الوسطى الانجليزية . وقارن بين الانجليز وجعتهم : رغبة على السطح ، وحنالة فى القاع ، ولكن الوسط رائع (٨٨) . كتب فى ١٢ أغسطس ١٧٢٦ يقول : « لو خيرت لأثرت المكث هنا لغرض واحد هو أن أتعلم أن أفكر » ، وفى دفقة من حماسه دعا تييريو الى زيارة « أمة مغرمة بالحرية ، مثقفة ، ذكية ، تحترق بالحياة والموت ، أمة من الفلاسفة (٨٩) » .

وقد كدر صفاء غرامه هذا بانجلترا ما حام حوله حينما من اشتباه بوب وغيره فى أنه يعمل جاسوسا على أصدقائه المحافظين لوزارة وليول (٩٠) . فلما اتضح أن الشبهة ظالمة نبذت للتو ، وظفر فولتير بشعبية كبيرة بين النبلاء وصفوة المثقفين اللذنيين . وحين قرر أن ينشر ملحمة الهنريادة فى انجلترا ، أرسلت له كل الدوائر المثقفة تقريبا اكتباتها ، بما فيها جورج الأول ، والأميرة كارولين ، والبلاطان المتنافسان ؛ وطلب سويقت الى بعض هؤلاء ، أو قل أمرهم ، بالاكتتاب . فلما ظهرت القصة (١٧٢٨) أهديت الى كارولين ، التى كانت الملكة الآن ، مشفوعة بباقة من الازهار الى جورج الثانى ، الذى رد على التحية بنفحة قدرها أربعمئة جنيه ، ودعوة الى حفلات العشاء الملكية . ونفدت ثلاث طبعات فى ثلاثة أسابيع ، رغم أن النسخة بيعت جثمان باهظ قدره ثلاثة جنيهات . وقد قدر فولتير دخله من هذه الطبعة

الانجليزية بمبلغ ١٥٠.٠٠٠ فرنك . واستخدم بعض هذا المال ليعين عدة فرنسيين في انجلترا (٩١) ، أما الباقي فقد استثمره بغاية الحكمة ، حتى لقد حكم بعد ذلك على هذا الربح الذي لم يتوقعه بأنه الأصل في ثرائه . ولم يكف قط عن عرفانه بصنيع انجلترا .

لقد دان لها قبل كل شيء بحفز هائل لذهنه وانضاج لفكره . فلما عاد من منفاه جلب معه كتب نيوتن ولوك في حقائبه . وأنفق جزءا من سنيه العشرين التالية في تعریف فرنسا بهما . كذلك جلب معه كتب الربوبيين الانجليز ، الذين زودوه ببعض الذخيرة التي سيستعملها في الحرب على « العار » . وكما أن انجلترا على عهد تشارلز الثاني تعلمت الخير والشر من فرنسا لويس الرابع عشر ، فكذلك ستتعلم فرنسا لويس الخامس عشر من انجلترا الاعوام ١٦٨٠ - ١٧٦١ . ولم يكن فولنير وسيط التبادل الاوحد في هذا الجيل ؛ فان مونتسكيو ، وموبورتوى ، وبريفوست ، وبوفون ، ورينال ، وموريلليه ، وليلاند ، وهلفتيوس ، وروسو - هؤلاء أيضا أتوا الى انجلترا ، والذين لم يأتوا تعلموا من الانجليزية ما يكفي لجعلهم حملة للأفكار الانجليزية . وقد أجمل فولتير في تاريخ لاحق هذا الدين في رسالة بعث بها الى هلفتيوس . قال :

« لقد استعزنا من الانجليز المرتبات السنوية ، وأموال استهلاك الديون ، وبناء السفن وتسييرها ، وقوانين الجاذبية ، ... والألوان الأساسية السبعة ، والتطعيم ، وسنكتسب منهم ، دون ادراك منا ، حرية تفكيرهم الرفيعة ، واحتقارهم العميق لتفاهة المعلومات التي تعطيها المدارس (٩٢) » .

ومع ذلك شعر بالحنين الى فرنسا . لقد أشبهت انجلترا الجعة ، أما فرنسا فلها مذاق النبيذ في فمه . والتمس المرة بعد المرة أن يؤذن له في العودة . ويبدو أنه منح الأذن بشرط معتدل هو أن يجتنب باريس أربعين يوما . ولا علم لنا متى غادر انجلترا ، وأغلب الظن أن هذا كان في خريف ١٧٢٨ . وفي مارس ١٧٢٩ كان في سان - جرمان - أن - ليه ؛ وفي ٩ أبريل كان في باريس ، رجلا هذيته المحن ومحصلته دون أن تقضي عليه ، جياشا بالأفكار ، متلهفا على تغيير هذه الدنيا وتبديلها .

المراجع

APOLOGY

1. Brandes, G., *Voltaire*, I, 4.
2. Cousin, Victor, *Histoire de la philosophie*, in Buckle, H. T., *History of Civilization in England*, I, 519n.
3. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 16.

CHAPTER I

1. Brandes, *Voltaire*, I, 10.
2. *Ibid.*, 31, Parton, James, *Life of Voltaire*, I, 26, Campbell, T. J., *The Jesuits*, 354.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au XVIII^e siècle*, I, 32.
4. *Ibid.*, 17-18.
5. Letter of Feb. 7, 1746, to Father Latour, in Desnoiresterres, I, 24; Brandes, I, 44.
6. Parton, I, 53.
7. Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 129.
8. Parton, I, 66.
9. Desnoiresterres, I, 171.
10. Duclos, C. P., *Secret Memoirs of the Regency*, 6.
11. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 329.
12. Duclos, 10.
13. Saint-Simon, II, 326.
14. Desnoiresterres, I, 96.
15. Wormeley, K. P., *Correspondence of Madame, Princess Palatine, . . . Marie Adélaïde de Savoie, . . . and Mme. de Maintenon*, 29.
16. Guizot, F., *History of France*, V, 3.
17. Martin, Henri, *Histoire de France*, XV, 13.
18. Duclos, Louis, *French Society in the 18th Century*, 55.
19. Martin, H., XV, 20-22, Desnoiresterres, I, 164.
20. Strylenski, C., *Eighteenth Century*, 82.
21. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 47.
22. Martin, H., XV, 53.
23. Voltaire, *Works*, XVI, 20.
24. Martin, H., XV, 54.
25. Michelet, J., *Histoire de France*, V, 268.
26. Saint-Simon, II, 232.
27. *Ibid.*, III, 239.
28. Martin, H., XV, 62.
29. Saint-Simon, III, 243.
30. In Lacroix, Paul, *Eighteenth Century in France*, 201.
31. Wormeley, 31.
32. Guizot, V, 42.
33. Duclos, *Secret Memoirs*, 70.
34. Martin, H., XV, 107.
35. Saint-Simon, III, 338.
36. Michelet, V, 133.
37. *Ibid.*, 135.
38. Saint-Simon, III, 69.
39. Voltaire, *Works*, XVIa, 155.
40. Saint-Simon, III, 418.
41. *Cambridge Modern History*, II, 133.
42. Michelet, V, 197, Martin, H., XV, 110.
43. Duclos, *Secret Memoirs*, 8.
44. Ercole, L., *Gay Court Life in France in the 18th Century*, 18-20.
45. Saint-Simon, III, 69.
46. Ercole, 27.
47. *Ibid.*, 10.
48. Duclos, *French Society*, 56.
49. Ercole, 44.
50. *Camb. Mod. History*, VI, 132.
51. Duclos, *Secret Memoirs*, 131.
52. Ercole, 44.
53. Martin, H., XIV, 552n., and Michelet, V, 160, credit the charge of incest.
54. Martin, XV, 12.
55. Dupuy, *Dialogues sur les plaisirs*, 14, in Crocker, L. G., *Age of Crisis*, 117.
56. Brunetière, F., *Manual of the History of French Literature*, 282.
57. Wormeley, 30.
58. Lacroix, 83.
59. Michelet, V, 251.
60. Martin, H., XV, 339.
61. Batiffol, L., *The Great Literary Salons*, 103.
62. Toth, K., *Woman and Rococo in France*, 107.
63. *Ibid.*
64. Lacroix, 417.
65. Ercole, 56.
66. Louvre.
67. Metropolitan Museum of Art, New York.
68. Louvre.
69. Metropolitan Mus. of Art.
70. Wallace Collection, London.
71. Dresden, Gemäldegalerie.
72. Wallace Collection.
73. There are outstanding collections of Watteau's drawings in the Louvre and in the Pierpont Morgan Library, New York.
74. Goncourt, E. and J. de, *French 18th-Century Painters*, 1.

- 75 Aldington, R., *French Comedies of the 18th Century*, 103.
76. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 81.
77. *Ibid.*, 82.
78. Lesage, *Adventures of Gil Blas*, prefatory memoir.
- 79 Aldington, 131.
- 80 Lesage, *Gil Blas*, Book VIII, Ch. x.
- 81 *Gil Blas*, last line.
- 82 Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 104.
83. Saint-Simon, III, 42, cf. 91-94.
84. Créquai, Marquise de, *Souvenirs*, 44.
85. Michelet, V, 126.
86. Faguet, Émile, *Literary History of France*, 474.
87. Saint-Simon, III, 376.
88. Duclos, *Secret Memoirs*, 326.
89. Michelet, V, 155; Martin, H., XV, 80.
90. *Ibid.*, 115.
91. Saint-Simon, III, 373.
92. *Ibid.*, 376.
93. 77
94. In Torrey, N., *The Spirit of Voltaire*, 21.
95. Parton, I, 99.
96. Desnoiresterres, I, 217.
97. Parton, I, 98.
98. Brandes, I, 97.
- 99 *Ibid.*, 98.
100. 99.
101. Parton, I, 115.
102. Like Desnoiresterres, I, 159, and Brandes, I, 100.
103. Créquai, 149.
104. Desnoiresterres, I, 157.
105. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 463, Brandes, I, 306.
106. Desnoiresterres, I, 190.
107. Parton, I, 154.
108. Desnoiresterres, I, 242; Faguet, *Literary History*, 469, gives a different version: "Gare que cet écrit in extremis n'aille pas à son adresse."
109. Parton, I, 165.
110. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
111. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 59.
112. Desnoiresterres, I, 345.
113. Brandes, I, 152.
114. *Ibid.*; Parton, I, 185.
115. Parton, I, 190.
- day Things in England, 21, Mantoux, P., *Industrial Revolution in the 18th Century*, 165.
5. Quennell, *Everyday Things*, 12.
- 6 Trevelyan, G. M., *English Social History*, 179.
7. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 386.
- 8 Lipson, E., *Growth of English Society*, 212.
9. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 252.
10. Jaurès, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 67.
11. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 280.
12. Lipson, 196.
13. Ashton, *Economic History*, 220.
14. *Encyclopaedia Britannica*, VI, 544a.
15. Mantoux, 73.
16. Ashton, 201-4.
17. In Tawney, R. H., *Religion and the Rise of Capitalism*, 190.
18. Ashton, 212; Mantoux, 72.
19. Ashton, 203.
20. Webb, S and B., *History of Trade Unionism*, 31-50.
21. Mantoux, 119.
22. Chesterfield, Earl of, *Letters to His Son*, letter of Sept. 22, 1749.
23. Mantoux, 102; Taine, H., *Ancient Regime*, 33.
24. Beard, M., *Business Man*, 430.
25. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, No. 10, in Mantoux, 138.
26. Hume, David, *Enquiry concerning the Principles of Morals*, 248.
27. In Beard, M., 435.
28. Lecky, W. E., *History of England*, I, 323.
29. Mackay, C., *Extraordinary Popular Delusions*, 50.
30. *Ibid.*, 55.
31. Quennell, P., *Caroline of England*, 71.
32. *Camb. Mod. History*, VI, 181.
33. Mackay, 73.
34. *Ibid.*, 78.
35. Voltaire, *Works*, XIIIa, 23.
36. Ranke, L., *History of the Reformation in Germany*, 468.
37. Rogers, J. E. T., *Economic Interpretation of History*, 157, Ashton, 2, Ogg, David, *Europe in the 17th Century*, 2.
38. Defoe, *Tour*, I, 337.
39. Besant, *London in the 18th Century*, 352.
40. Trevelyan, *English Social History*, 142.
41. Lecky, *History of England*, I, 482-84.
42. *Ibid.*
43. Letter of Mar. 23, 1752.
44. Besant, 380-81.

CHAPTER II

1. Shakespeare, *Richard II*, II, i.
2. Defoe, *Tour through England and Wales*, I, 1 and *passim*.
- 3 Voltaire, *Lettres philosophiques*, No. 9, Ashton, T., *Economic History of England: The 18th Century*, 36.
4. Quennell, M. and C., *History of Every-*

45. W. R. Brock in *New Camb. Mod. History*, VII, 266.
46. Besant, 238.
47. Lecky, II, 543-45.
48. James, B. B., *Women of England*, 135.
49. Besant, 138.
50. Markun, L., *Mrs Grundy*, 183.
51. Fay, B., *La Franc-Maçonnerie et la révolution intellectuelle du XVIII^e siècle*, 78-79.
52. Besant, 384.
53. Blackstone, *Commentaries on the Laws of England*, 151n.
54. Congreve, Wm., *Way of the World* III, iii, in Hampden, J., *Eighteenth-Century Plays*.
55. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v, in Hampden.
56. Halsband, R., *Lady Mary Wortley Montagu*, 14.
57. Langdon-Davies, J., *Short History of Women*, 305.
58. Besant, 459; Lecky, I, 522; Quennell, P., *Caroline of England*, 29.
59. George, M. Dorothy, *London in the 18th Century*, 29.
60. Lecky, I, 477.
61. *Ibid.*, 479; Besant, 297 f.
62. Berkeley, George, *Siris*, in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 122.
63. Besant, 301-2.
64. Turberville, *Johnson's England*, I, 48.
65. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 84 (Aug. 31, 1773).
66. *Enc. Brit.*, XX, 779d.
67. *Camb. Mod. History*, VI, 187.
68. Ashton, 62-63.
69. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 313.
70. Besant, 342.
71. Lecky, I, 183.
72. *Ibid.*, 367; Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 256.
73. Westermarck, E. A., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 558.
74. Turberville, I, 72.
75. Some instances in Thackeray, *The Four Georges*, 42-43.
76. Turberville, I, 312.
77. Fielding, H., *Amelia*, Book I, Ch. ii.
78. Turberville, I, 310.
79. Quennell, M. and C., *Everyday Things*, 9.
80. Lecky, I, 507.
81. Turberville, I, 322.
82. *Ibid.*, 319; Lecky, I, 501-2.
83. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 586.
84. Johnson, S., *The Rambler*, 183.
85. Pope, A., *Imitations of Horace*, Epistle II.
86. James, B. B., *Women of England*, 318.
87. Turberville, I, 341.
88. Thackeray, *Four Georges*, 41.
89. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 249.
90. Lecky, I, 552.
91. *Ibid.*, 553-54.
92. Walpole, H., *Letters*, I, 309 (June 29, 1744).
93. Weinstock, H., *Handel*, 228.
94. Allen, B. S., *Tides*, I, 94; Chesterfield, *Letters*, Oct. 19, 1748.
95. Clergue, H., *The Salon*, 4.
96. Chesterfield, *Letters*, June 11, 1750.
97. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 25.
98. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 349.
99. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 29.
100. Chesterfield, letter of July 8, 1739.
101. Letter of June, 1752, in *Letters to His Son*, II, 96.
102. Letter of Apr. 19, 1749.
103. Apr. 13, 1752.
104. Nov. 6, 1747.
105. May 16, 1751.
106. May 23, 1751.
107. Sept. 5, 1748.
108. Apr. 15, 1751.
109. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 41.
110. Dec. 25, 1753.
111. May 17, 1748.
112. Nov. 11, 1752.
113. Oct. 9, 1747.
114. Feb. 22, 1748.
115. Oct. 19, 1748.
116. Jan. 8, 1750.
117. Apr. 13, 1752.
118. Dec. 25, 1753.
119. Stephen, Leslie, *English Literature and Society in the 18th Century*, 150.
120. Krutch, J. W., *Samuel Johnson*, 354.
121. Chesterfield, July 25, 1741.
122. Feb. 24, 1747.
123. Krutch, 354.
124. Parton, II, 551.
125. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 43.
126. Nicolson, H., *Age of Reason*, 201.
127. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 34.
128. Dec. 2, 1746.
129. Oct. 17, 1768.
130. *Letters*, II, 334.
131. Oct. 11, 1769.
132. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 44.
133. *Ibid.*, 45.

CHAPTER III

1. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 266.
2. Quennell, P., *Caroline*, 22.
3. Halsband, *Lady Mary*, 45.

4. Voltaire, *Works*, XXIIb, 70-71; cf. Laski, H., *Political Thought in England*, Locke to Bentham, 16.
5. Hauser, *Social History of Art*, II, 261.
6. *New Cambridge Modern History*, VII, 261.
7. Voltaire, XIXb, 29.
8. Chidsey, D. B., *Marlborough*, 291.
9. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 131.
10. Martin, H., XV, 76.
11. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 226-27.
12. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 117.
13. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, III, 91.
14. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 275.
15. Quennell, *Caroline*, 93; Martin, H., XV, 343.
16. Traill, H. D., *Social England*, V, 139.
17. Walpole, H., *Reminiscences*, in *Letters*, introd., cxxx.
18. Walpole, H., *Memoires of . . . the Reign of George II*, I, 63.
19. Thackeray, *Four Georges*, 33.
20. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 276.
21. Lecky, *History of England*, I, 465.
22. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 4; Quennell, *Caroline*, 134.
23. *Camb. Mod. History*, VI, 77.
24. Voltaire, XIXb, 23.
25. Lecky, I, 520.
26. Quennell, *Caroline*, 252.
27. Lecky, I, 326; *Camb. Mod. History*, VI, 181.
28. Macaulay, T., *Essays*, I, 346.
29. Walpole, *Memoires of the Reign of George II*, II, 273.
30. Mossner, *Bishop Butler*, 5.
31. Beard, M., *History of the Business Man*, 477.
32. Macaulay, *Essays*, I, 348; Lecky, I, 367-72; Koven, A. de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 13.
33. Lord Hervey in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 28.
34. Tucker in Lecky, I, 334.
35. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 29.
36. Chesterfield, letter of Dec. 12, 1749.
37. In Lovejoy, *Essays*, 177.
38. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 166.
39. *Camb. History of English Literature*, IX, 154.
40. Bolingbroke, *On the Spirit of Patriotism*, 18.
41. Collins, J. C., 172.
42. Bolingbroke, 128.
43. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 215.
44. *Ibid.*
45. Acton, *Lectures*, 273.
46. See *Camb. Mod. History*, VI, 64 f.; Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 681; Churchill, III, 101.
47. Lecky, I, 385n.; Burke, *Letters on a Regicide Peace*, in *Reflections on the French Revolution*.
48. Altamira, R., *History of Spain*, 435.
49. *Enc. Brit.*, XX, 779c.
50. In Lecky, I, 394.
51. *Ibid.*, 291.
52. *Ibid.*
53. 239.
54. 242.
55. Mantoux, *Industrial Revolution*, 87.
56. Swift, Jonathan, *Short View of the State of Ireland*, in Lecky, II, 208.
57. Lecky, II, 424.
58. *Camb. Mod. History*, VI, 485.
59. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 531.
60. Lecky, II, 159.
61. D'Alton, IV, 472-73.
62. Lecky, II, 217.
63. *Ibid.*
64. Mossner, *Life of Hume*, 134.
65. Lecky, II, 83.
66. Trevelyan, *English Social History*, 444.
67. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 168.
68. Traill, *Social England*, V, 159.
69. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 425-27.
70. *Ibid.*, 449.
71. 451.
72. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 14.
73. Lang, A., IV, 512.
74. *Camb. Mod. History*, VI, 117.
75. Lang, A., IV, 519.
76. *Enc. Brit.*, IV, 292d.
77. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 44.
78. Frederick, *Mémoires*, I, 191.
79. Wingfield-Stratford, 682.
80. Lecky, II, 479-80.
81. *Ibid.*, 476.
82. Churchill, III, 112.

CHAPTER IV

1. *Pensées diverses*, in Lecky, II, 531n.
2. Davidson, John, introd. to Montesquieu's *Persian Letters*, xxi.
3. *Ibid.*
4. Hervey, *Memoirs of the Court of George II*, in introd. to Mandeville's *Fable of the Bees*, x.
5. Besant, *London*, 152.
6. *Camb. Mod. History*, VI, 79.

7. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, I, 117.
8. Thackeray, *Four Georges*, 34.
9. Lecky, II, 468.
10. Hume, D., essay "Of National Character."
11. Besant, 153.
12. Lecky, I, 175-76, 303-4.
13. Trevelyan, G. M., *England under the Stuarts*, 342.
14. Robertson, J. M., *History of Free-thought*, II, 161; Lecky, I, 313.
15. Voltaire, XIXb, 218.
16. Voltaire, VIa, 288.
17. Woolston, *Discourses*, I, 34, in Stephen, *History of English Thought*, I, 232.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 141; Voltaire, *Philosophical Dictionary*, article "Miracles," in *Works*, VIa, 288-93; Robertson, J. M., *Free-thought*, II, 157-59; Stephen, *History of English Thought*, I, 228-38.
19. Benn, A. W., *History of English Rationalism in the 19th Century*, I, 145.
20. Tindal, M., *Christianity as Old as the Creation*, 14, in Stephen, *History*, I, 139.
21. Stephen, I, 262; Robertson, II, 158.
22. In Stephen, I, 266.
23. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 183.
24. Stephen, I, 178.
25. Torrey, N. L., *Voltaire and the English Deists*, 149.
26. In Hearnshaw, *English Thinkers of the Augustan Age*, 240.
27. Stephen, *History*, I, 180.
28. Collins, J. C., 180.
29. Goldsmith, O., *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1057.
30. In Stephen, I, 246.
31. *Ibid.*, 345.
32. 349-52.
33. 356.
34. *Enc. Brit.*, IV, 463b.
35. Mosner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 8.
36. Toynbee, Arnold J., *Study of History*, abridgment of Vols. I-VI by D. C. Somervell, 486.
37. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 21.
38. Turberville, *Johnson's England*, I, 33.
39. Inge, *Christian Mysticism*, 183.
40. *Camb. Mod. History*, VI, 81.
41. Gibbon, *Memoirs*, 22.
42. Bearne, *Court Painter*, 198.
43. Voltaire, essay "Epic Poetry."
44. Besant, 149.
45. McConnell, F. J., *John Wesley*, 13.
46. Wesley, John, *Journal*, 94.
47. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, XII, 724d.
48. *Ibid.*, 725a.
49. McConnell, 47.
50. Lecky, II, 554.
51. Wesley, *Journal*, 43; Hastings, XII, 725d.
52. *Enc. Brit.*, XXIII, 576.
53. Lecky, II, 565.
54. *Ibid.*
55. 563.
56. 591-94; Lecky, *History of European Rationalism*, I, 45.
57. Turberville, *Johnson's England*, I, 221.
58. Wesley, *Journal* for 1739, in Lecky, *History of England*, II, 584.
59. *Ibid.*, 583.
60. 590.
61. 636; Toynbee, *Study of History*, IX, 459-60.
62. McConnell, 48.
63. *Ibid.*, 66.
64. Wesley, *Journal*, entry for Mar. 30, 1736.
65. *World Christian Handbook*, 5.
66. *Journal* for Jan. 1, 1790.
67. Shaftesbury, 3d Earl of, *Characteristics*, I, 160.
68. Mandeville, *Fable of the Bees*, 83-85.
69. Hutcheson, F., *Inquiry concerning Moral Good and Evil*, in *Enc. Brit.*, XI, 945c.
70. Buckle, II, 334.
71. *Ibid.*, 336.
72. Hume, D., *Dialogues concerning Natural Religion*, 4.
73. Huxley, T. H., *Hume*, 3.
74. *Ibid.*, 6.
75. Mosner, *Life of Hume*, 51.
76. Huxley, 6.
77. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, 233.
78. Mosner, 82.
79. *Ibid.*, 94.
80. 111.
81. Hume, *Treatise of Human Nature*, Book I, Part II, Sec. 5.
82. *Ibid.*, I, II, 1.
83. I, III, 10 and 7.
84. I, IV, 2 and 6.
85. I, IV, 1.
86. *Ibid.*
87. Appendix.
88. I, IV, 1.
89. I, IV, 7.
90. I, IV, 2.
91. I, IV, 1.
92. II, III, 3.
93. *Ibid.*
94. II, I, 10.
95. II, I, 7.
96. II, I, 8.
97. II, II, 11.

98. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, p. 134.
99. Mossner, p. 129.
100. *Treatise*, III, 1, Sec. 1.
101. III, II, 2.
102. III, III, 6.
103. Mossner, p. 213.
104. *Ibid.*, 215-18.
105. Hume, *Enquiry concerning the Human Understanding*, p. 2.
106. *Ibid.*, Part X, Secs. 91-95 and 100-101.
107. XI, 102.
108. *Enquiry concerning the Principles of Morals*, V, 1, Secs. 174-75, Appendix II; cf. essay "Of the Dignity and Meanness of Human Nature."
109. *Enquiry concerning . . . Morals*, IX, 1, Sec. 226.
110. *Ibid.*, IV, Sec. 166.
111. "My Own Life," *loc. cit.*, p. 236.
112. *Dialogues concerning Natural Religion*, 156.
113. *Ibid.*, 148.
114. 182-83.
115. Essay "On Suicide."
116. *Dialogues*, 210.
117. *Ibid.*, 194.
118. 211.
119. 169.
120. 180.
121. 171.
122. 227.
123. 214.
124. Hume, *Natural History of Religion*, Secs. I, XIII-XV, in Cassirer, E., *Philosophy of the Enlightenment*, p. 181.
125. *Dialogues*, introd., xv.
126. Burton, *Life of Hume*, II, in Lecky, *History of England*, II, 543.
127. *Enquiry concerning . . . Morals*, III, II, Sec. 155.
128. Hume, *History of England*, IV, p. 480.
129. Hume, *Essays Literary, Moral, and Political*, 27, 273.
130. *Ibid.*, 161.
131. Essay "Of National Character."
132. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part VII, Sec. 65.
133. Essay "Of Commerce."
134. Essay "Of Civil Liberty."
135. Essay "Jealousy of Trade."
136. In Black, *Art of History*, p. 80.
137. Mossner, 317.
138. Essay "Of the Study of History."
139. "My Own Life," *loc. cit.*, 236.
140. In Black, 114.
141. Mossner, 318.
142. "My Own Life," *loc. cit.*, 236.
143. *Ibid.*, 237.
144. Mossner, 223.
145. *Ibid.*, 318.
146. 444-45.
147. "My Own Life," *loc. cit.*, 238.
148. *Ibid.*, 239.
149. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part XI, Sec. 108.
150. Mossner, 568.
151. Adam Smith, letter to Wm. Strahan, Nov. 9, 1776, in Hume, *Dialogues*, p. 247.
152. *Treatise of Human Nature*, Book I, Part IV, Sec. 5.
153. Wolf, *History of Science*, 757.
154. Mossner, 478.
155. Hume, *Dialogues*, introd., xxx.
156. Mossner, 588.
157. "My Own Life," *loc. cit.*, 239.
158. Strachey, L., *Portraits in Miniature*, 151.
159. "My Own Life," *loc. cit.*, 244.
160. *Ibid.*, 245.
161. Mossner, 598-600.
162. *Ibid.*, 603.

CHAPTER V

1. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 132.
2. Buckle, I, 312.
3. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 143.
4. Pope, "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 127-28.
5. *Essay on Criticism*, lines 214-15.
6. *Ibid.*, line 298.
7. Lines 631-41.
8. 585-87.
9. Stephen, L., *Alexander Pope*, 45.
10. *Rape of the Lock*, Canto II, lines 105-9.
11. *Ibid.*, III, 16.
12. v, 85-86.
13. See "Windsor Forest," lines 41-42.
14. Pope, "Eloisa to Abelard," lines 281-92.
15. *Ibid.*, lines 325-28.
16. Stephen, *Pope*, p. 61.
17. *Ibid.*, 64.
18. Johnson, *Lives*, II, 161.
19. Stephen, *Pope*, 64.
20. *Ibid.*, 78.
21. Pope, "Second Epistle of the Second Book of Horace," lines 68-69, in *Collected Poems*, p. 305.
22. Thornton, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 112.
23. E.g., see Jefferson, *Eighteenth-Century Prose*, 25.
24. Parton, I, 214.
25. Stephen, *Pope*, 91.
26. Boston Museum of Fine Arts.
27. London, National Portrait Gallery.
28. Stephen, *Pope*, 100.

29. See "Farewell to London," in *Poems*, 368, and Strachey, *Portraits*, 14.
30. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 199.
31. Pope, *Dunciad*, Book II, lines 75-76, 101-8, 155-56.
32. *Ibid.*, Book IV, lines 471-82.
33. Robertson, J. M., in Shaftesbury, *Characteristics*, introd., p. xxv.
34. Collins, *Bolingbroke*, 158.
35. Stephen, *Pope*, 166.
36. *Essay on Man*, Epistle I, lines 1-16.
37. Milton, *Paradise Lost*, I, line 16.
38. *Essay on Man*, I, 81-84.
39. I, 91-96.
40. End of Epistle I.
41. *Essay on Man*, II, 1-17.
42. *Ibid.*, 217-20.
43. III, 303-6.
44. IV, 35-36.
45. 49-50.
46. Taine, H., *History of English Literature*, Book III, Ch. vii, Sec. 4.
47. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, in *Works*, XIXb, p. 94.
48. Johnson, *Lives*, II, 193.
49. "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 305-29.
50. *Satires*, epilogue, lines 208-9.
51. *Dunciad*, IV, 619-55.
52. Johnson, *Lives*, II, p. 199.
53. Thackeray, *English Humourists*, 213.
54. Walt Whitman, in Traubel, H., *With Walt Whitman in Camden*, 116.
55. Lecky, *History of England*, I, 463.
56. Brandes, *Voltaire*, I, 16.
57. Woods, Watt, and Anderson, *Literature of England*, II, 51.
58. Garnett and Gosse, III, 287; questioned by *Camb. History of English Literature*, X, 147.
59. Arnold, M., *Essays in Criticism*, 317.
60. Johnson, *Lives*, II, 391, 388.
61. Allen, R. J., *Life in 18th-Century England*, 16.
62. Brandes, *Voltaire*, I, 32.
63. Lecky, *History of England*, I, 541.
64. Mossner, *Hume*, 357.
65. *Ibid.*, 360.
66. 379.
67. 364.
68. Pope, "Epitaph on Gay."
69. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v.
70. *Ibid.*, I, viii.
71. III, xi.
72. *Camb. History of English Literature*, X, 3.
73. Richardson, S., *Pamela*, 2.
74. *Ibid.*, 179.
75. Richardson, *Clarissa*, 429-31.
76. *Ibid.*, introd., viii.
77. *Ibid.*, ix.
78. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, II, 232 (Mar. 1, 1752).
79. Rousseau, J. J., letter to Duclos, Nov. 19, 1760.
80. Francke, K., *History of German Literature*, 216.
81. Texte, J., *J. J. Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 148 f.
82. Fielding, H., introd. to *Amelia*, xxiii; Thackeray, *English Humourists*, 263n.
83. Fielding, *Joseph Andrews*, Book I, Ch. x.
84. Saintsbury, G., introd. to *Pamela*.
85. *Joseph Andrews*, II, xiv.
86. Fielding, *Jonathan Wild*, preface.
87. *Jonathan Wild*, I, i.
88. *Ibid.*, I, v.
89. I, iii.
90. III, vii.
91. IV, xv.
92. Thackeray, *English Humourists*, 266n.
93. Fielding, *Tom Jones*, III, v.
94. *Ibid.*, III, x.
95. XVIII, xii.
96. Besant, *London*, 502 f.; Lecky, *History of England*, I, 487.
97. *Amelia*, IV, ii.
98. *Ibid.*, I, ii.
99. XI, ix.
100. VI, ii.
101. Thackeray, 263.
102. Smollett, T., *Roderick Random*, Ch. xi, pp. 56-58.
103. *Ibid.*, xx, 114.
104. xvii, 95.
105. xxxix, 223.
106. Smollett, *Adventures of Peregrine Pickle*, Ch. ii.
107. *Ibid.*, vi.
108. Thackeray, 254n.
109. *Ibid.*, 255n.
110. 254n.
111. Smollett, *Travels through France and Italy*, xxvii.
112. Thackeray, 256.
113. Smollett, *Humphrey Clinker*, 16 (letter of Apr 18).
114. *Ibid.*, 142 (letter of June 8).
115. 218-20 (letter of July 4).
116. 225-37 (letter of July 13).
117. Montagu, Lady M. W., *Letters*, I, 173.
118. Halsband, *Lady Mary Wortley Montagu*, 11.
119. Montagu, *Letters*, I, 174 (Apr. 25, 1710).
120. *Ibid.*, 178.
121. 181.
122. Letter of Aug. 16, 1712, Halsband, 25.
123. Pope, *Collected Poems*, 370.
124. Halsband, 58.

125. Pope, letter of Aug. 18, 1716, in Montagu, I, 405-7.
126. Montagu, I, 237 (Sept. 14, 1716).
127. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 170.
128. Halsband, 63.
129. Montagu, I, 431, 434.
130. Collection of the Marquess of Bute.
131. Pope, *Poems*, 371.
132. Halsband, 113.
133. *Ibid.*, 130.
134. 141.
135. *Camb. History of English Literature*, IX, 277.
136. Translated from Halsband, 156.
137. *Ibid.*, 157.
138. Walpole, H., *Letters*, I, 57-62 (Sept. 25 and Oct. 2, 1740).
139. Halsband, 204, 218.
140. *Ibid.*, 218.
141. 289.

CHAPTER VI

1. Turberville, *Johnson's England*, II, 75.
2. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 73 f.
3. Lecky, *History of England*, I, 530.
4. Tate Gallery, London.
5. Staatsbibliothek, Hamburg.
6. Traill, *Social England*, V, 171.
7. Wilenski, R., *English Painting*, 102.
8. Thackeray, *English Humourists*, 247n.
9. Beckett, R. B., *Hogarth*, 22.
10. Vienna.
11. Collection of Sir Francis Cook.
12. Frick Gallery, New York.
13. Metropolitan Museum of Art, New York.
14. Tate Gallery.
15. *Ibid.*
16. National Gallery, London.
17. Tate Gallery.
18. Thackeray, 247.
19. Quennell, P., *Hogarth's Progress*, 31.
20. Tate Gallery.
21. Thackeray, 245n.; Wilenski, 60.
22. Wilenski, 79 f.; Dobson, *Hogarth*, 23.
23. Wilenski, 72.
24. Beckett, 13.
25. Art Gallery, Birmingham, England.
26. St. Bartholomew's Hospital, London.
27. Collection of Earl of Faversham.
28. Wilenski, 63; Beckett, 18, questions this story.
29. Wilenski, 85.
30. Dobson, 21.
31. Wilenski, 71.
32. Tate Gallery.
33. Wilenski, 68.
34. Craven, Thos., *Treasury of Art Masterpieces*, 210; Quennell, P., *Hogarth*, 7.
35. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 777.
36. Dobson, 31.
37. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, II, 406.
38. Weinstock, *Handel*, 55.
39. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 60; Turberville, *Johnson's England*, II, 160.
40. This section is especially indebted to Herbert Weinstock's *Handel*.
41. *Grove's Dictionary*, II, 504.
42. Weinstock, 32; Brockway and Weinstock, 57.
43. *Oxford History of Music*, IV, 80; Weinstock, 38.
44. Mainwaring, John, *Life of Handel*, in Deutsch, Otto, *Handel*, 27.
45. Burney, C., *General History of Music*, II, 662.
46. Weinstock, 60.
47. *Ibid.*, 92.
48. 97.
49. *Oxford History of Music*, IV, 209.
50. Burney, II, 721n.
51. *Ibid.*
52. Weinstock, 115.
53. *Ibid.*, 172.
54. McKinney and Anderson, *Music in History*, 438.
55. Weinstock, 207.
56. Burney, II, 817.
57. Weinstock, 212.
58. Ling, P. H., *Music in Western Civilization*, 522.
59. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 76.
60. *Oxford History of Music*, IV, 84; Weinstock, 225; Brockway and Weinstock, 76.
61. Weinstock, 232.
62. *Ibid.*, 239.
63. 241.
64. Rolland, R., *Musical Tour through the Land of the Past*, 58.
65. *Oxford History of Music*, IV, 198.
66. Weinstock, 77.
67. Brockway and Weinstock, 81.
68. Rolland, 49.
69. Davison, A., *Bach and Handel*, 46.
70. *Ibid.*, 44.
71. Rolland, 67.
72. Weinstock, 303.
73. *Ibid.*, 305.
74. Davison, A., 41.
75. *Oxford History of Music*, IV, 85-89, 93.
76. Burney, II, 1023.

77. Letter to Thieriot in Strachey, *Books and Characters*, 122.
78. E.g., *Works*, XXIa, 211.
79. *Works*, XIXb, 91.
80. Goldsmith, O., *Life of Voltaire*, in *Miscellaneous Works*, 504.
81. Letter of July 19, 1776, in Desnoires-terres, VIII, 108; article "Dramatic Art" quoted in Holz knecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 387.
82. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 101, Brandes, *Voltaire*, I, 173.
83. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 7.
84. *Works*, XIXb, 109.
85. In Buckle, I, 528.
86. *Philosophical Dictionary*, article "Government."
87. Gay, *Voltaire's Politics*, 44.
88. Parton, II, 523.
89. Voltaire, *Correspondance*, ed. Bester-man, II, 31.
90. Johnson, *Lives*, II, 176; Collins, J. C., 210.
91. Collins, 230.
92. Brunetière, *Manual of the History of French Literature*, 319.

قصة الحضارة

ول وَايرنيل ديورانت

عصر قولتير

مراجعة
عَلِيّ أَدَهْم

ترجمة
ممد علي أبودرة

الجزء الثاني من المجلد التاسع

٣٦



تونس



بيروت

فهرس الجزء الثانى من المجلد التاسع

عصر فولتير - (٣٦)

الكتاب الثانى

فرنسا - ١٧٢٣ - ١٧٥٦

الفصل السابع

الشعب والدولة

صفحة

- ١ - النبلاء ٦
- ٢ - رجال الدين ١٠
- ٣ - الطبقة الثالثة ١٨
- ١ - الفلاحون ١٨
- ٢ - الطبقة الكادحة (البروليتاريا) ٢١
- ٣ - البرجوازية ٢٦
- ٤ - الحكومة ٣١
- ٥ - لويس الخامس عشر ٤١
- ٦ - مدام دى مبيادور ٥٢

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

- ١ - التعليم ٦٢
- ٢ - الأخلاق ٦٤
- ٣ - العادات ٧١
- ٤ - الموسيقى ٧٦
- ٥ - الصالونات ٨١

الفصل التاسع

عبادة الجمال

- ١ - انتصار الروكوكو ٨٩
- ٢ - فى العمارة ٩٦

صفحة

٩٨	٣٠ — النحت
١٠١	٤ — الرسم
١٠٣	١ — في حجرة الانتظار
١٠٥	٢ — بوشيه
١١١	٣ — شاردان
١١٦	٤ — لاتور

الفصل العاشر

نشاط الذهن

١٢٢	١ — صناعة الكلام
١٢٦	٢ — المسرح
١٣٣	٣ — القصة الفرنسية
١٤١	٤ — حكماء أقل شأنًا
١٤٨	٥ — مونتسكيو
١٤٨	١ — الرسائل الفارسية
١٥٤	٢ — لماذا سقطت رومه
١٥٨	٣ — روح القوانين
١٧٠	٤ — النتيجة

الفصل الحادى عشر

فولتير في فرنسا ١٧٢٩ — ١٧٥٠

١٧٧	٢ — في باريس ١٧٢٩ — ١٧٣٤
١٨٤	٢ — رسائل عن الانجلىز
١٩٢	٣ — أنشودة الحب في سبرى ١٧٣٤ — ١٧٤٤
٢٠٨	٤ — رجل البلاط : ١٧٤٥ — ١٧٥٨
٢١٧	٥ — موت الحبيبة
٢٢٠	٦ — مدام دنيسن

الكتاب الثاني

(من المجلد التاسع)

فرنسا

١٧٢٣ - ١٧٥٦

الفصل التاسع

الشعب والدولة

كان عدد سكان فرنسا التي عاد إليها فولتير ١٧٢٧ . نحو تسعة عشر مليوناً من الأنفس ، مقسمة إلى ثلاث طبقات : رجال الدين والنبلاء ، ثم الطبقة الثالثة التي تضم بقية الشعب . وإذا أردنا أن نفهم الثورة الفرنسية فلا بد لنا من أن ندرس كل طبقة منها دراسة دقيقة .

١ - النبلاء

أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استملوا ألقابهم من الأرض إلى امتلاكوها (وهي ربع أرض فرنسا تقريباً) على أنفسهم اسم « نبلاء السيف » . وكانت مهمتهم الرئيسية أن ينظموا ويتولوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن إقليمهم وعن وطنهم وعن مليكهم . وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر ترأس هؤلاء النبلاء نحو ثمانين ألف أسرة تضم نحو أربعمئة ألف من الأنفس^(١) . وكانوا شيعاً أو طبقات متحاسدة ، أعلاها طبقة ذرية الملك الذي يتربع في دست الحكم وأولاد اخوته وأخواته . ويلى هؤلاء في منزلة أدنى : طبقة أشراف فرنسا : وتضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين . ثم سبعة أساقفة وخمسين دوقاً . ويأتى بعد ذلك الأدواق الأقل شأنًا ، ثم الحاصلون على لقب مركيز ، ثم لقب كونت ، ثم لقب فيكونت ، ولقب بارون وشيفالييه (نبيل من الدرجة الدنيا) . وكانت ثمة امتيازات رسمية تميز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض . ومن هنا كان نزاع حاد فاجع حول حق السير تحت المظلة في مواكب عيد القربان أو حق الجلوس في حضرة الملك .

ومن بين نبلاء السيف هؤلاء ، تعقبت أقلية منهم أصول ألقابها وممتلكاتها عبر عدة أجيال ، واختصت نفسها باسم « النبلاء ذوي المجد الكريم » ،

ونظروا فيها بعين الازدراء إلى النبلاء الذين حصلوا على لقب النبالة عن طريق أسلاف حديثي العهد ، أو حصلوا عليه هم أنفسهم في عهد لويس الثالث عشر أو لويس الرابع عشر . كما أن بعض هذه الألقاب كانت تمنح لقاء خدمات للدولة في الحرب أو في الإدارة أو في التمويل ، كما أن بعضها كان يبيعه الملك المعظم المعوز الراحل ، مقابل ستة آلاف جنيه ، وبهذه الطريقة ، كما قال فولتير ، « حصل عدد كبير من المواطنين - رجال المصارف والجراحون والتجار والكهنة وخدم الأمراء - على براءة النبالة ^(٢) ، وثمة مناصب حكومية معينة ، مثل منصب المستشار أو كبير القضاة ، كانت تضمن على شاغلها لقب النبالة تلقائياً . وفي عهد لويس الخامس عشر كان في مقدور أى رجل عاды أن يحصل على النبالة بشراء حق تعيينه وزيراً مقابل مائة وعشرين ألف جنيه . وفي عهد لويس السادس عشر ربما كان هناك نحو تسعمائة وزير وهمى أو صورى من هذا الطراز . كما أنه كان في الإمكان شراء اللقب بشراء ضيعة أحد النبلاء . ويحتمل أنه في ١٧٨٩ ، كان نحو ٥٩ / ، من مجموع النبلاء ينحدرون في الأصل من الطبقة الوسطى ^(٣) .

ووصلت غالبية هؤلاء إلى درجة كبيرة من الأهمية ورفعة الشأن عن طريق دراسة القانون ، ومن ثم حصلوا على مناصب القضاء والإدارة . ومن بينهم كان أعضاء البرلمانات الثلاثة عشر التى كانت بمثابة دور قضاء في كبريات المدن في فرنسا ، ولما كان يجوز للقاضى أو الحاكم ترك منصبه لابنه ، فقد تشكلت أرستقراطية وراثية - هم نبلاء الرداء (الروب) . وكان الرداء بالنسبة لرجل القضاء ، كما هو بالنسبة لرجل الدين ، يمثل نصف السلطة أو السيادة . وكان أعضاء البرلمانات وهم يرفلون في أروبيتهم للقرمزية ، وعباءاتهم الثقيلة والأكام ذات الأهداب والشعور المستعارة المضمخة والقبعات ذات الريش ، يجيئون في مرتبة أدنى من الأساقفة ونبلاء الأرض . ولكن حيث أن بعض الحكام والقضاة أصبحوا ، عن طريق الرسوم القانونية التى كانوا يتقاضونها ، أكثر ثراء من معظم ملاك الأرض

ذوى الحسب والنسب ، فقد تحطمت الحواجز بين نبلاء السلاح ونبلاء الرداء وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كان ثمة اندماج كامل تقريبا بين الطبقتين . وبلغت الطبقة التى تكونت عندئذ من وفرة العدد والقوة مبلغا لم يستطع الملك معه أن يقف فى وجهها أو يقاومها ، وزعماء الثورة وحدهم هم الذين اسنطاعوا أن يقضوا على هذه الامتيازات الباهظة التكاليف .

وانتاب الفقر كثيراً من النبلاء القدامى بسبب الإهمال فى إدارة ممتلكاتهم أو تغييبهم عنها ، أو بسبب اتباعهم أساليب متخلفة فى زراعتها ، أو إنبالك التربة ، أو خفض قيمة العملة التى كانوا يتقاضون بها إيجار الأرض أو الرسوم الإقطاعية . ولما كان المفروض ألا يشتغل النبلاء بالتجارة أو الصناعة ، فإن نمو هذه وتلك خلق اقتصاداً قائماً على المال ، قد يمتلك المرء فى ظله أرضاً شاسعة ولكنه يظل فقيراً . وكان هناك فى بعض أقاليم فرنسا مئات من النبلاء يعانون من الفقر مثلما يعاني الفلاحون^(٤) . ولكن أقلية كبيرة من النبلاء تمتعت بثروات ضخمة وبلدروا تبديراً . فكان الدخل السنوى لمركز دى فييت ١٥٠ ألف جنيه ، ولدوق دى شفريرز ٤٠٠ ألف جنيه ، ولدوق دى بويون ٥٠٠ ألف جنيه . وأعنى معظم النبلاء من الضرائب المباشرة ، إلا فى حالة الطوارئ ، حتى تصبح الحياة لديهم أكثر احتمالاً ويسراً . وخشى الملوك أن يفرضوا عليهم الضريبة حتى لا يطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ، فقد تفرض الطبقات الثلاث فى مثل هذا الاجتماع بعض الرقابة على الملك ثمناً للموافقة على الاعتمادات أو الإعانات . قال توكفيل « كان عدم المساواة فى الضرائب يعمل على التفرقة بين الطبقات فى كل عام حيث أعنى الأغنياء وأثقل كاهل الفقراء^(٥) » . وفى عام ١٧٤٩ فرضت على النبلاء ضريبة دخل قدرها ٥٪ ولكنهم كانوا يفاخرون بالتهرب منها .

وقبل القرن السابع عشر كان نبلاء الأرض يقومون بمهام الاقتصاد والإدارة والحرب ، وأيا كانت طريقة إحراز الممتلكات . فإن هؤلاء السادة نظموا تقسيم الأرض وفلاحتها ، إما عن طريق الرقيق أو عن طريق عقود الإيجار ، وسهروا على القانون ، وقاموا بإجراءات المحاكمة وأصدروا

الأحكام ، ونفذوا العقوبات ، وتعهدوا المدارس والمستشفيات المحلية ، ووزعوا الصدقات. وفي مئات من مناطق السيادة والنفوذ مارس السيد الإقطاعي هذه الوظائف والمهام ، بالقدر الذي سمحت به الأمانة الطبيعية في الإنسان . وقد اعترف الفلاحون بانتفاعهم منه ، ومن ثم فإنهم أطاعوه واحترموه وفي بعض الأحيان أحبوه .

وأدى عاملان أساسيان إلى تبديل هذه العلاقة الإقطاعية : تعيين الحكام أو المحافظين على عهد الكاردينال ريشيليو وما بعده ، وتحويل لويس الرابع عشر لكبار السادة الإقطاعيين إلى رجال حاشية . وكان هؤلاء المحافظون موظفين بيروقراطيين من الطبقة الوسطى ، يبعث بهم الملك ليحكموا الأقسام الاثني والثلاثين التي انقسمت إليها فرنسا من الناحية الإدارية . وكانوا عادة ذوي كفاية ومقدرة ونيات حسنة ، ولو لم يكونوا جميعاً من أمثال ترجو . وقاموا بتحسين الأحوال الصحية والإضاءة وتزيين المدن ، وأعادوا تنظيم الشئون المالية ، وبنوا السدود والخزانات على الأنهار من أجل الري ، أو أقاموا الحواجز اتقاء لخطر الفيضانات ، وزودوا فرنسا في هذا القرن بشبكة هائلة من الطرق لم يكن لها مثيل في سائر أنحاء العالم . وشرعوا في أن يغرسوا على جوانبها الأشجار التي تظللها اليوم وتزينها ^(٦) . وسرعان ما زحزح تفوقهم في الدأب على العمل والمقدرة والكفاية السادة الإقطاعيين المحليين عن حكم الأقاليم ، ورغبة في التعجيل بهذه الزحزحة التي تركز الحكم في أيدي هؤلاء المحافظين ، عمد لويس الرابع عشر إلى دعوة السادة الإقطاعيين للانتظام في بلاطه الملكي ، وهناك عينهم في وظائف بسيطة ذات ألقاب رفيعة وأوشحة مخدرة . وفقدوا الاتصال بالشئون المحلية على حين ظلوا يحصلون من مزارعهم على الموارد اللازمة للاتفاق على قصورهم وبطانهم في باريس أو فرساي . وتشبثوا بحقوقهم الإقطاعية بعد أن تخلوا عن واجباتهم الإقطاعية . إن ضياع المهام الإدارية التي كانوا يقومون بها في مجال الاقتصاد والحكومة جعلهم عرضة للاتهام بأنهم كانوا طفيليات غير ضرورية عالية على فرنسا .

٢ — رجال الدين

كانت الكنيسة الكاثوليكية قوة أساسية ذات وجود بارز في كل ركن في الحكومة . وقدر رجال الدين الكاثوليك في فرنسا بنحو ٢٦٠ ألفا في ١٦٦٧^(٧) ، و ٤٢٠ ألفا في ١٧١٥^(٨) . و ١٩٤ ألفا في ١٧٦٢^(٩) . وهذه الأرقام كلها من قبيل التخمين ، ولكن قد نفترض انخفاض هذا العدد بنسبة ٣٠ ٪ في القرن الثامن عشر ، على الرغم من تزايد عدد السكان ، وحسب لاكروا أن فرنسا كان فيها عام ١٧٦٣ ، ١٨ رئيس أساقفة ، ١٠٩ أساقفة ، و ٤٠ ألف قسيس ، و ٥٠ ألف مساعد قسيس ، و ٢٧ ألف رئيس دير ، و ١٢ ألف كاهن ، و ٢٠ ألف كاتب (من رجال الدين) ، ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية^(١٠) ، ومن بين ٧٤٠ ديراً كان هناك ٦٢٥ ديراً يتولى شئونها مساعدو رؤساء أديار ، لمصلحة رؤساء أديار متغيبين عنها وكانوا يتمتعون باللقب وينصف أو ثلثي دخل الدير ، دون أن يكون مطلوبا منهم أن يحيا حياة كنسية .

وكان رجال الدين الأعلى مرتبة يشكلون من الوجهة العملية فرعا من النبلاء ، وكان الملك يعين كل الأساقفة ، عادة ، بناء على ترشيح السادة الإقطاعيين المحليين ، على شرط موافقة البابا . ورغبة من الأسرات ذوات الألقاب في عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث ، كفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار ، حتى أنه في ١٧٨٩ لم يكن من بين المائة والثلاثين أسقفاً في فرنسا إلا واحداً فقط من الأفراد العاديين غير ذوي الألقاب^(١١) . وأدخل أبناء الأسرات العريقة هؤلاء معهم إلى الكنيسة عاداتهم التي درجوا عليها في التمتع بترف الدنيا وزخرفها . ومن ذلك أن الإمبراطور الكاردينال إدوارد دي روهان كان في القديس يرتدى ثوبا كهنوتيا له حواش من المخمرات المعقودة ، قدرت قيمته بمائة ألف جنيه ، وكانت أدوات مطبخه من الفضة الخالصة^(١٢) . وفسر رئيس الأساقفة ديللون دي ناربون للويس السادس عشر ، السبب في أنه أي رئيس الأساقفة ، استمر

وتمارسه الصيد بعد أن حرمه على رجال الدين في أسقفيته ، بقوله « مولاي إن رذائل رجالي من عند أنفسهم ، ولكني ورثت رذائلي أنا عن أسلافي » (١٣) لقد انقضى العصر الزاهر لرجال الكنيسة - من أمثال بوسويه وفينلون وبوردلو - وأفسح المرح الابيقورى الصاخب في عهد الوصاية المجال أمام رجال مثل ديبواوتنسان للترقى في مناصب الكنيسة على الرغم من انغماسهم في ملذات الصيد بنوعيه ، اقتناص الحيوان واصطياد النساء . وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم في فرساي أو باريس ، مشاركين البلاط الملكي بهجته ومسراته ومبازله ، فاحتفظوا بقدم في الآخرة وقدم الدنيا ، ولم ينسوا نصيبهم من متاعها .

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم ، حتى إلى حد تقديم ثور لخدمة أبقار فلاحهم (١٤) . وكانت ممتلكاتهم الشاسعة ، التي كانت تضم أحياناً مدن بأسرها ، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية . وكان جزء كبير من مدينة فرن ومعظم الأرض المحيطة بها ملكاً للأديار (١٥) ، وفي بعض الكوميونات (وحدات التقسيم الإداري) ، عين الأسقف كل القضاة والموظفين ، وهكذا عين رئيس أساقفة كبراي الذي كان السيد الأعلى على منطقة تضم ٧٥ ألفاً من السكان كل رجال الإدارة في كاتوكبرسيس ، ونصفهم في كبراي (١٦) . وعمر نظام الرقيق لأطول فترة في ضياع الأديار (١٧) وكان للكهنة في سان كلود في جبال جورا اثنا عشر ألفاً من الرقيق ، وقاوموا بشدة الانتقاص من الخدمات الإقطاعية (١٨) . وارتبطت حصانات الكنيسة وامتيازاتها بالنظام الاجتماعي القائم ، كما جعلت لهيئة الكنيسة أقوى تأثير محافظ على القديم يناهض أى تغيير في فرنسا .

وجمعت الكنيسة سنوياً ، مع شيء من الاعتدال ومراعاة الظروف ، العشور عن نتاج كل مالك أرض وماشية ، ولكن هذا نادراً ما كان العشر في الواقع ، بل كان في الكثير الغالب جزءاً من اثني عشر ، وأحياناً جزءاً من عشرين (١٩) . وهذه العشور ، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث ، وبدخل العقارات الثابتة ، احتفظت الكنيسة بكنهنة أبرشياتها فقراء معوزين

على حين هاش الأساقفة مترفين منعمين . وأغاثت الكنيسة المحتاجين المعدمين وعلمت الصغار ولقنتهم مبادئها . وفي المقام التالي بعد الملك وجيشه ، كانت الكنيسة أقوى وأغنى سلطة في فرنسا . وكانت تمتلك ، طبقا لمختلف التقديرات ، ما بين ٦ ٪ و ٢٠ ٪ من الأرض (٢١) ، وثالث الثروة (٢١) . وكان دخل أسقف سنس السنوى ٧٠ ألف جنيه ، وأسقف بوفيه ٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة روان ١٠٠ ألف ، ورئيس أساقفة ناريون ١٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة باريس ٢٠٠ ألف . أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوى على المليون من الجنيهات (٢٢) . وكان رأس مال كنيسة بريمونثريه بالقرب من لاؤون ٤٥ مليوناً من الجنيهات . أما الإخوة الدومنيكان البالغ عددهم ٢٣٦ فى تولوز فقد بلغت مقتنياتهم من الأملاك الفرنسية والمزارع في المستعمرات ومن الرقيق الأسود ما قدرت قيمته بعدة ملايين من الجنيهات أما رهبان سانت مور فقد بلغت قيمة ممتلكاتهم ٢٤ مليوناً من الجنيهات تدر ثمانية ملايين في العام .

ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شيء من ممتلكاتها أو دخلها ، ولكن كبار رجال الدين كانوا يقررون بصفة دورية في المجالس الوطنية إعانة اختيارية للدولة . وفي ١٧٧٣ بلغت هذه الإعانة ستة عشر مليوناً من الجنيهات لمدة خمس سنوات . وقد اعتبرها فولتير نسبة عادلة من دخل الكنيسة (٢٣) . وفي ١٧٤٩ اقترح ماشول دي ارنوفيل المراقب العام المال أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها ٥ ٪ من مجموع الدخل تفرض على الكنيسة وعلى عامة الناس وخشى رجال الدين أن تكون هذه خطوة أولى نحو سلب أموال الكنيسة بغية انقاذ الدولة ، فقاوموا الفكرة في غضب شديد واصرار (٢٤) . كذلك اقترح ماشول تحريم التوريث بالوصية للكنيسة دون موافقة الدولة ، وإلغاء المؤسسات الدينية التي قامت منذ ١٦٣٦ دون ترخيص من الملك ، ومطالبة شاغلي الرتب الكنسية ذوات الدخل بتقديم تقرير عن عن مواردهم إلى الحكومة . وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات ، وقالوا : « لن نوافق إطلاقاً على أن يصبح ما كان حتى الآن ثمرة حبنا وإجلالنا ضريبة على طاعتنا » ، وأمر لويس الخامس عشر

بفض الاجتماع ، كما أصدر المجلس الملكى أوامره إلى المحافظين بجمع ضريبة أولية مقدارها سبعة ملايين ونصف مليون جنيه على أملاك الكنيسة .

وحاول فولتير تشجيع ماشول والملك فأصدر كتيباً عنوانه « صوت الحكمة وصوت الشعب » حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة ، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة ، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزارة ضد كل قوى الخرافة^(٢٥) . ولكن لويس الخامس عشر لم ير سبباً يدعو إلى الاعتقاد بأن الفلسفة في مقدورها أن تكسب الجولة في الحرب مع الدين . وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحه بالزيت المقدس وتتويجه بأيدي رجال الكنيسة ، ليصبح بعد ذلك — في نظر الجماهير التي ليس في مقدورها أن تدنو منه إلى حد تستطيع معه إحصاء عدد محظياته — نائب الله الذي يتحدث بمقتضى التفويض الإلهي . ان الإرهاب الروحي الذي يبثه رجال الدين في النفوس وتعززه قوى التقاليد والعادات والاحتفالات الدينية والملابس الكهنوتية والهيبة ، نقول إن هذا الإرهاب قام مقام ألف من القوانين ومائة ألف من رجال الشرطة في المحافظة على النظام الاجتماعى ، والابقاء على طاعة الجماهير وامثالها للحكومة والملك . وهل في مقدور أية حكومة ، دون دعم من الرجاء والخوف الخارقين للطبيعة ، أن تسيطر على ما فطر عليه الناس من نزعة التمرد على القانون أو عدم الخضوع له ؟ وعقد الملك عزمه على الاستسلام للأساقفة ، ونقل ماشول إلى منصب آخر ، وصادر كتاب فولتير ، ووافق على منحة اختيارية بدلا من الضريبة على أملاك الكنيسة .

إن قوة الكنيسة كانت تعتمد أساساً على نجاح كاهن الأبرشية ، وإذا كان الناس يخشون رجال الدين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم (الأساقفة مثلاً) ، فإنهم أحبوا الراعى المحلى الذى شاركهم فقرهم وعوزهم ، وأحياناً كدحهم وكدهم في فلاح الأرض . انهم تدمروا من جمع العشور ، ولكنهم كانوا على يقين من أن رؤساء الراعى هم الذين أرغموه على جمعها ،

. وأن ثلثي هذه العشور ذهب إلى الأسقف أو إلى أحد ذوى المناصب الكنسية الغائبين عنها ، على أن كنيسة الأبرشية . ضناها ما كانت تعاني من خلل وحاجة إلى ترميم ، مما ثن منه التقوى نفسها . إن هذه الكنيسة الحبيبة كانت دار بلديتهم ، يعقدون فيها اجتماعاتهم القروية تحت رئاسة الكاهن . وفي سجل الأبرشية ، وهو شاهد بقائهم صابرين متجلدين عبر الأجيال ، كانت تدون مواليدهم وزيجاتهم ووفياتهم . وكان صوت أجراس هذه الكنيسة أنبل موسيقى ترن في آذانهم ، والاحتفالات هي المسرحية التي تشد انتباههم وتبعث فيهم النشاط ، وقصص القديسين ذخائر الأدب عندهم ، كانت أعياد تقويم الكنيسة هي العطلات المحببة إلى نفوسهم . ولم ينظر الناس إلى عظات راعي الأبرشية ونصائحه وتحذيراته أو إلى تعليمه وتربيته لأبنائهم ، على أنها تلقين مبادئ أسطورية لتدعيم لسلطان الكنيسة ، بل نظروا إليها على أنها عون لا غنى عنه للنظام الأبوي والانضباط الخلقي ، وعلى أنه إيماء بنظام إلهي يتجلى فيه معنى الخلود الذي خفف من أسلوب حياتهم الممل بالجاف في هذه الدنيا . فكانت العقيدة ثمينة أثيرة لديهم إلى حد الاستثارة إلى الفتك بمن يحاول انتزاعها منهم . ورحب الوالدان النلاحان بالدين جزءا من الواجبات اليومية في البيت ، ونقلوا إلى أولادها الأساطير الدينية ، وواظب الجميع على صلوات المساء والولدان على رأسهم . وكان راعي الأبرشية يحب الناس كما أحوه ، فانضم إليهم في الثورة .

وتناقص عدد الرهبان والراهب واخوة الطوائف الدينية ، ولكن نمت فيهم روح الفضيلة^(٢٦) كما نمت ثروتهم . ونادرا ما كانوا الآن يتسولون أو يعيشون على الصدقات لأنهم وجدوا من الحكمة ومن الخير لهم أن ينتزعوا الوصية بالتوريث من الذين يدنو أجلهم ثمناً بدلا من أن يستجدوا بعض البنسات في القرية ، وفاضت بعض ثرواتهم على أعمال البر والاحسان ، فأنفق كثير من الأديار على المستشفيات والملاجئ ، ووزعت الطعام على الفقراء يوميا^(٢٧) . وفي ١٧٨٩ ألحت جماعات كثيرة على حكومة الثورة ألا تقضى على الأديار المحلية لأنها كانت المنظمات البارة المحسنة الوحيدة في

نطاق أراضيها . (٢٨) وأدت أديار الراهبات مهام كثيرة تؤدي الآن بطرق أخرى ، فكانت توفر مأوى للأرامل ، وللنساء اللاتي أفرقن عن أزواجهن ، ولل سيدات المراهقات مثل مدام دي ديفان التي رغبت في أن تنأى بنفسها عن صخب الدنيا . ولم تنكر الأديار متاع الحياة الدنيا وزينتها إنكاراً تاماً . فقد استخدمها الأثرياء مأوى لما زاد عن الحد من بناتهم ، وإلا فإن زواجهن إذا لم يلجأن إلى الأديار يتطلب مهوراً تنقص من ميراث الأبناء ، ولم يكن هؤلاء العذارى المنبوذات ميالات دائماً إلى التقشف . وكان للأُم أوريبي (رئيسة دير للراهبات) عربية تجرها أربعة جياد ، وكانت تستقبل في جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين . وكانت الراهبات في ألكس يرتدين الثورات ذوات الأطواق الموسعة والأردية الحريرية المبطننة بالفرو ، وكن في أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة (٢٩) وواضح أن هذه كانت ضرورياً من التسلية البريئة غير الآثمة ، فإن كثيراً من الأفاضل التي رويت عن الفساد الخلقي في الأديار في القرن الثامن عشر كانت مبالغت إشنيعة مثيرة استخدمت في حرب الدعاية بين المذاهب المتنازلة ، وكانت الحالات التي لزم فيها البنات الدير على غير إرادتهن نادرة (٣٠) .

وكان اليسوعيون قد ضعف سلطانهم ومكانتهم . إنهم ظلوا حتى ١٧٩٢ يسيطرون على التعليم ، وكانوا يزودون الملك والملكة بكهنة اعتراف ذوي تأثير قوى ، ولكنهم عانوا من فصاحة بسكال ، ومن تشكك أوصياء العرش غير الأتقياء ، وكانوا يخسرون معركتهم الطويلة المريرة مع الجانسينيين فإن هؤلاء الكاثوليك المتعصبين لعقيدتهم عمروا بعد الاضطهادات الملكية والمراسيم البابوية ، وكان عددهم كبير في مجال الأعمال والمهن والاشتغال بالقانون ، وكانوا يقتربون من الهيمنة على برلمان باريس وخشيته من البرلمانات . وبعد موت زعيمهم اللاهوتي المتقشف فرانسوا دي باريس (١٧٢٧) حجج الجانسينيون المتحمسون المغشى عليهم إلى جدته في مقبرة سان ميدارد ، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط ، حتى أصاب بعضهم نوبات من

التشنج ، ومن سموا « بالمتشنجين » وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمن عليهم بالشفاء ، وادعى كثير منهم أنهم برثوا بمعجزة . وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر ، وكما قال فولتير : حرم على الله بأمر من الملك أن يأق بمعجزات هناك ، وانقطعت التشنجات ، ولكن الباريسيين السريعي التأثير مالوا إلى تصديق المعجزات ، وفي ١٧٣٣ ذكر أحد الصحفيين في مبالغة ظاهرة أن مدينة باريس الطبية جانسنية قلبا وقالبا (٣١) . وتحدياً للمرسوم الملكي الصادر في ١٧٢٠ رفض صغار رجال الدين الامتثال للأمر البابوي الصادر في ١٧١٣ الذي استنكر فيه البابا انوسنت الثالث عشر مائة مسألة ومسألة زعموا أن الجانسنين آثروها . وقضى رئيس أساقفة باريس بأن السر المقدس الأخير لا يجوز أن يقدم لأى فرد لم يكن قد اعترف لقسيس كان قد ارتضى الأمر البابوي . واسهم هذا النزاع في إضعاف مركز الكنيسة المنقسمة أمام هجمات الفلاسفة .

وكان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين لا يزالون يعتبرون خارجين على القانون ، ولكن مجموعات صغيرة منهم كانت تجتمع سرا . واعتبر القانون أن زوجة البروتستانتى عاهرة وأن أبناءها غير شرعيين ، ليس لهم أن يرثوا أية أملاك . وفي عهد لويس الخامس عشر شنت عدة حملات للاضطهاد والتعذيب . وفي ١٧١٧ قبض على أربعة وسبعين فرنسيا يقيمون الشعائر البروتستانتية ، وأرسلوا للتجديف في القواديس أو المراكب الشراعية وزج بزوجاتهم في السجن ، وقضى مرسوم صدر في ١٧٢٤ بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت ، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت ، مع إرسال الرجال للتجديف في السفن الشراعية . وحلق شعور النساء واعتقلهن مدى الحياة (٣٢) وفي عهد الكاردينال فليرى حدث شيء من التراخي في تنفيذ هذا المرسوم . ولكن بعث من جديد بعد موته ، بناء على طلب الأساقفة الكاثوليك في جنوب فرنسا (٣٣) . وفي ١٧٤٩ أمر برلمان بوردو بالتفريق بين ٤٦ زوجا وزوجة ، تم زوجهم وفق الطقوس البروتستانتية .

وكان من الجائز انتزاع الأطفال الذين يشبه في أن آباهم من البروتستانت ؛
لتربيتهم وتنشئهم في بيوت كاثوليكية . وإننا نسمع عن رجل ثرى من الهيجونوت
أنفق ٢٠٠ ألف جنيه رشوة للموظفين الرسميين حتى يسمحوا له بالاحتفاظ
بأبنائه . (٣٤) وفيما بين عامى ١٧٤٤ و ١٧٥٣ سجن نحو ٦٠٠ بروتستانتى ،
وحكم على ٨٠٠ آخرين بعقوبات مختلفة (٣٥) . وفى ١٧٥٢ شنت فى مونبلييه
الواعظ البروتستانتى بينز — البالغ من العمر ستة وعشرين عاما . وفى نفس
العام ، أمر لويس الخامس عشر ، تحت تأثير مدام دى بمبادور ، بوضع
حد لهذه الاضطهادات . (٣٦) وبعد ذلك استطاع البروتستانت فى باريس أو
قريبا منها ، أن يتفادوا العقوبات ، على شرط حضور الصلوات الكاثوليكية مرة
فى العام . (٣٧) .

وعلى الرغم من تعصب زعماء الكنيسة وانشغالهم بأمور الدنيا ورغبتهم
فى السلطة والنفوذ ، فقد كان بين رجال الدين الفرنسيين مئآت ممن أمتازوا
بالعلم الغزير والحياة النقية النقية . وبالإضافة إلى أولئك الأساقفة الذين بددوا
فى باريس العثور التى جمعوها من الفلاحين ، كان هناك أساقفة آخرون
اتسموا بالطهر والتقوى قدر ما سمحت به المهام الادارية . فكان الكاردينال
لويس أنطوان دى نواى رئيس أساقفة باريس رجلا ذكيا نبیلا . وكان
الناس يحبون جان بابتست ماسيون أسقف كليرمونت على الرغم من عظاته
الزاحرة بألوان العلم والمعرفة ، التى كان فولتير يحب أن يستمع إليها وقت
تناول الطعام ، لجمال أسلوبها على الأقل . أما جبرائيل دى كايوس أسقف
أوكسير فقد وهب كل ثروته للفقراء ، وباع طبقه الفضى ليطعم الجياع ؛
ثم اعتذر لمن التمسوا رفده بعد ذلك بقوله « يا أبنائى ، لم يبق لدى شيء
أعطيكم إياه » (٣٨) . ولم يبرح الأسقف فونسوا دى بلزونس مكانه وسط
الطاعون الرهيب الذى اجتاح مرسيليا ١٧٢٠ ، حين هلك ثلث سكان المدينة ،
وفر منها معظم الأطباء ورجال الحكم والقضاء . وفى هذا كتب ليمرنى :
« انظروا إلى بلزونس : وأنه أنفق كل ما يملك . لقد هلك كل الذين كانوا
فى خدمته بسبب العدوى ، فسار على قدميه فقيرا بائسا فى الصباح إلى مواطن

(م — ٢ قصة الحضارة)

التعاسة والشقاء ؛ كما كان يرى مساء وسط الأماكن التي اكتظ بها ولوثها أولئك الذين يعانون سكرات الموت ، ليطفئ ظمأهم ، ويواسيهم وكأنه صديق لهم ... وفي ساحة الموت هذه يأخذ بيد الأنفس التي لا معين لها . إن هذا المثل للذي ضربه هذا الأسقف الذي يبدو أنه محصن ضد أى أذى كان كفيلا بأن يدفع كهنة الأبرشيات والقساوسة والطوائف الدينية إلى محاكاته في شجاعته وبسالته ، فلا يتخلى أحد عن موقعه ، ولا يبالي أحد بما يلقي من عناء وتعب ولو ضحى بحياته . وهكذا أودى الوباء بستة وعشرين راهبا ، وبثمانية عشر من بين ستة وعشرين يسوعيا . واستدعى الكيوشيون أخوتهم من الأقاليم الأخرى ، فسارع هؤلاء إلى الاستشهاد في خفة المسيحيين الأولين وابتهاجهم بمثل هذا العمل . وقضى الطاعون على ثلاثة وأربعين من بين خمسة وخمسين منهم . أما سلوك الرهبان الأوراتوريين (طائفة كاثولوكية) فكان أروع من هذا . فقد بذلوا غاية جهدهم (٣٩) .

ولندكر ، ونحن نسجل الصراع المرير بين الدين والفلسفة ، ونشارك الفلاسفة مقفهم للرقابة الخائقة والخرافة الشائنة ، أنه كان هناك بين رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم الورع والتقوى كما كان هناك الغنى والثراء ، بقدر سواء . كما كان هناك الاخلاص مع الفقر بين كهنة القرى ، أما الناس فقد تغلغل فيهم حب راسخ يتعذر المساس به أو النيل منه ، لعقيدة هيأت للزهو الهوى شيئا من الانضباط المنقذ من الضلال ، كما هيأت للأيام العصبية الشاقة رؤيا وجد الناس فيها شيئا من السلوى والعزاء .

٣ - الطبقة الثالثة

١ - الفلاحون :

تساءل « الاقتصاد السياسي » الذي وصمه كارليل بأنه « العلم الكئيب » هل الفقراء فقراء ، لأنهم جهلة ، أم أنهم جهلة لأنهم فقراء . ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال ، بالموازنة بين الاستقلال البهيج الذي يفاخر به الفلاح الفرنسي اليوم ، وحالته في النصف الأول من القرن الثامن عشر .

وفي ١٧٢٣ كانت حال الفلاح آخذة في التحسن بالمقارنة بالمستوى المنحط الذي هبطت به إليه حروب لويس الرابع عشر وابتزازاته . فإنه خضع للرسوم الاقطاعية ولعشور الكنيسة ، إلى جانب إنه امتلك نسبة متزايدة من أرض فرنسا ، كانت تتراوح بين ٢٠٪ في نورماندى وبريتاني و ٥٠٪ في لنجدوك ولينوزين^(٤٠) . ولكن متوسط حصة هؤلاء الملاك الصغار كان ضئيلا - من ثلاثة إلى خمسة أفدنة - إلى حد اضطروا معه إلى الاشتغال بأجر في المزارع الأخرى ليعولوا أسرهم . فإن معظم الأرض كانت ملكا للنبل أو رجال الدين أو الملك ، وكانوا يفلحها مستأجرون أو مزارعون نظير جزء من المحصول ، أو عمال مياومة تحت إشراف قهرمان أو وكيل مستول . وكان المالك يتقاضى من المستأجر مالا وخدمة وخدمات اما المزارعون فكانوا يعطون المالك نصف المحصول في مقابل الأرض والآلات الزراعة والبلدور .

وعلى الرغم من تزايد ملكية الفلاح ظلت هناك بقايا إقطاعية كثيرة ، فإن أقلية ضئيلة من الملاك قد لا تتجاوز ٢٪ هي التي وضعت يدها على أراض معفاة من الرسوم الاقطاعية . وكل الفلاحين باستثناء مالكي هذه الأرض المعفاة ، كان مطلوبا منهم أن يعملوا للسيد الإقطاعي المحلي لعدة أيام في السنة تكفي لحرق أرضه وبلدها ، وحصاد محصولها وتخزينه . وكانوا يدفعون له رسوما مقابل صيد السمك في البحيرات أو الجداول المائية ومقابل رعى ماشيتهم في الحقول ، مما يقع في زمام أرضه . (في فرائش كومتية ، وأوفرن ، وبريتاني ، حتى قيام الثورة كانوا يدفعون له مبلغا من المال مقابل الاذن لهم بالزواج^(٤١) . وكان لزاما عليهم أن يستخدموا طاحونه ونخبه ومعصرة النبيذ أو الزيت التابعة له ، وليس غيرها . وأن يدفعوا له مالا في كل مرة يستخدمون فيها شيئا من هذه . كما نفذوه مالا عن كل مستوقد أقاموه وكل بئر حفروه وكل جسر عروه في نطاق أرضه (إن بعض أمثال هذه النرائب موجود بيننا الآن في أشكال متغيرة ، وتدفع للدولة) . وكانت القوانين تحرم على السيد ورفاقه الاضرار بمزروعات الفلاح

أو حيواناته عند الصيد ، ولكن هذه القوانين [أضفلت إعمالا] شديداً ، وكان محظورا على الفلاح أن يطلق النار على حمام السيد ، وهي تأكل محصوله^(٤٢) وبناء على تقدير يتسم بالتحفظ بلغت الرسوم الإقطاعية جملتها نحو ١٤ ٪ من إنتاج الفلاح أو دخله ، وهناك تقديرات ترفع من هذه النسبة^(٤٣) .

وفي بعض الأماكن بقي الرق بمعناه الحقيقي ، وقدر مؤرخ اقتصادي مشهور أن عدد الرقيق في فرنسا في القرن الثامن عشر لم يجاوز المليون^(٤٤) ، ونقص عددهم ، ولكن في ١٧٨٩ كان لا يزال في فرنسا نحو ٣٠٠ ألف من الأرقاء^(٤٥) ومثل هؤلاء الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض ولم يكونوا يستطيعون قانونا أن يهجروا أرضهم أو يبيعوها أو ينقلوها أو يغيروا محال إقامتهم دون موافقة سيدهم . فإذا ماتوا دون أبناء كانوا يعيشون معهم ، وعلى استعداد للنهوض بشئون المزرعة ، آلت المزرعة بكل معداتها إلى السيد .

وكان على الفلاح ، بعد دفع الرسوم الإقطاعية وعشور الكنيسة ، أن يجد مالا أو يبيع شيئاً من نتاجه أو ممتلكاته ليواجه الضرائب التي تفرضها عليه الدولة . ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضي ، وبالإضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و ٥ ٪ من الدخل ضريبة الرأس عن كل فرد في البيت . وبهذا كان يدفع في الجملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدولة^(٤٦) . وكان من سلطة جباة الضرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كونه ، ليفتشوا عن المدخرات المخبأة ، ويستولوا على الأثاث تسديداً لمبلغ الضريبة المفروضة على الأسرة . وكما كان الفلاح ملزماً بالعمل ودفع الرسوم لسيده ، فإنه بعد ١٧٣٣ كان ملزماً بأن يعمل للدولة بدون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوماً في السنة ، في إقامة الجسور وبناء الطرق أو إصلاحها (أعمال السخرة) . وكان يعاقب بالسجن إذا قاوم أو تواني .

ومنذ تصاعدت الضرائب بازدياد الدخل والتحسينات ، فإنه لم يكن ثمة ما يحفز الفلاحين على الابتكار والعمل والمغامرة . وظلت أساليب الزراعة

بدائية في فرنسا ، إذا قورنت بالأساليب في إنجلترا المعاصرة . وكانت فرنسا تتبع نظام اراحة الأرض الذى يقضى بترك كل قطعة دون زراعة سنة في كل ثلاث سنين ، على حين أدخلت إنجلترا نظام الدورة الزراعية . وكانت الزراعة المكثفة غير معروفة تقريباً ، والمحاريت الحديدية نادرة الوجود . وكانت الحيوانات قليلة العدد في المزرعة ، كمان كان السهاد قليلاً . وكان متوسط الأرض المملوكة ضئيلاً إلى حد لا يسمح باستخدام الآلات بشكل مجز .

وروع السائحون الإنجليز في ذلك العصر لفقر الفلاح الفرنسى . ففى ١٧١٨ كتبت السيدة مارى مونتاجو : « في كل محطة كنا نقف فيها لتبديل خيول البريد كان أهل البلدة جميعاً يخرجون إلينا يسألوننا إحساناً ، في وجوه أضناها البؤس والجوع وملابس رثة ممزقة ، وما كانوا بعد ذلك في حاجة إلى دليل أبلغ من ذلك لإقناعنا بتعاسة أحوالهم ^(٤٧) . ولم يرسم المراقبون الفرنسيون صورة أكثر إشراقاً من هذه إلا في وقت متأخر من هذا القرن . وقال سان سيمون : « في ١٨٢٥ كان الناس في نورماندى يعيشون على حشائش الحقول . ان أول ملك في أوربا عظيم لمجرد كونه ملك الشحاذين . وتحويله مملكته إلى مستشفى فسيح الأرجاء يقيم فيه أناس يعانون سكرات الموت . انتزع منهم كل شيء دون أن يدوا شيئاً من التدمير ^(٤٨) » . وفي ١٧٤٠ حسب المركيز رينيه لويس دى أرجنسون ، أن عدد الفرنسيين الذين ماتوا بسبب الفقر والعوز في العامين الأخيرين أكبر من عدد من قتلوا في حروب لويس الرابع عشر كلها ^(٤٩) » . وقال بسنارد : « كانت ملابس الفقراء من الفلاحين — وكانوا كلهم تقريباً فقراء — تدعو إلى الاشفاق والرثاء ، حيث لم يكن لدى الفرد منهم إلا ثوب واحد للصيف والشتاء معا أما الخداء الوحيد (المرقع الواهى المثبت بالمسامير) الذى اقتناه عند زواجه ، فكان لزاماً أن يستخدمه بقية أيام حياته ، أو على الأقل طيلة بقاء الخداء ^(٥٠) » . وقدر فولتير أن مليوني فلاح فرنسى كانوا يستخدمون نعلاً خشبية في الشتاء ، وكانوا يسرون حفاة الأقدام في الصيف ، لأن

الضرائب الباهظة المفروضة على الجلود جعلت الأحذية ضرباً من الترف^(٥١) أما مسكن الفلاح فكان يبنى من الطين مع سقف من القش ، وكان عادة يتكون من غرفة واحدة ، منخفضة لا سقف لها في بعض الأجزاء في شمال فرنسا ، على أن الأكواخ كانت تبني بطريقة أقوى حتى تحتمل البرد والرياح في الشتاء . وكان طعام الفلاح يتألف من الحساء والبيض ومنتجات الألبان وخبز الشعير أو الشوفان . أما اللحم وخبز القمح فكان أكلهما إسرافاً طائفاً^(٥٢) . ففي فرنسا ، كما هو الحال في أي مكان آخر ، كان أولئك الذين يطعمون الأمة لا يملكون من الغذاء إلا أقله .

ووجد الفلاح بعض العزاء والسلوى من هذه الحياة الشاقة في الخمر والدين . وكانت الحانات كثيرة وصنع الجعة في الدار مشجعاً . وكانت الأخلاق خشنة جافة ، طابعها الوحشية . وكثيراً ما تفجرت أعمال العنف بين الأفراد والأسرات والقرى . ولكن سادت الأسرة عاطفة حب قوية ، ولو أنها صامتة ، وكان الأبناء كثيرين ، ولكن اختلطت يد المنون معظمهم قبل أن يبلغوا رشدهم . وكاد ألا يكون هناك زيادة في سكان فرنسا فيما بين عامي ١٧١٥ و ١٧٤٠ . فقد أحدثت الحرب والمرض والقحط أثرها بانتظام وفق ما جاء في نظرية مالتس .

٢ - البروليتاريا العمال الكادحون .

وكان خدام المنازل أدنى مكانة من الفلاحين في السلم الاجتماعي ، وكانوا فقراء إلى حد لم يهتأ إلا لقليل منهم أن يتزوجوا . وكانت طبقة البروليتاريا في المدن أعلى قليلاً من الفلاحين ، وكانت تشكل الحرفيين في الحوانيت والمصانع وحمالي البضائع ومتعهدي الخدمات وعمال البناء أو الترميم . وكان معظم الصناعة لا يزال منزلياً أو محلياً يقوم في أكواخ ريفية أو في الدور في المدن الصغيرة . وكان التجار يقدمون المواد الخام ، ويجمعون الإنتاج ، ويستولون على كل الربح تقريباً . وكانت الصناعة في المدن إلى حد كبير في الطور النقابي (نظام نقابات العمال وطوائفهم في العصور الوسطى) ، فكان هناك المعلمون والغلمان الذين يتدربون ، وعمال المياومة المهرة ،

يعملون جميعاً وفقاً للقواعد القديمة التي حددت النقابة والحكومة بمقتضاها ساعات العمل وشروطه ، وطرز الإنتاج ونوعيته وسعره والمنطقة المحدودة المسموح فيها بالبيع . إن هذه التنظيمات والقواعد جعلت من التحسينات أمراً عسيراً ، واستبعدت حافز المنافسة الخارجية ، وأسهمت مع رسوم التجارة الداخلية في تعويق التنمية الصناعية . وكانت النقابات قد أصبحت أرسقراطية عمالية ، وارتفعت الرسوم على القبول في سلك المعلمين الصناعيين إلى ألفي جنيه ، واتجهت هذه المهنة إلى أن تكون وراثية .^(٥٣) وكان العمل في الحوانيت يبدأ مبكراً وينتهي متأخراً . وكان عامل المياومة حول فرساي يبدأ عمله في الرابعة صباحاً وينتهي منه في الثامنة مساءً .^(٥٤) ولكن العمل كان أقل اجتهاداً منه في المصانع اليوم ، كما أن أعياد الكنيسة هيأت أيام عطلة كثيرة .

وكانت الصناعة في معظمها « صغيرة » تستخدم ثلاثاً أو أربعاً من « الأيدي العاملة » من خارج الأسرة . بل أن المدايغ ومصانع الزجاج والمصابغ كانت مؤسسات صغيرة . وكان عدد العمال في بوردو لا يتجاوز أربعة أمثال أصحاب العمل . واحتفظت الحكومة على أية حال ببعض مصانع كبيرة — مصانع الصابون ، ومصانع نسيج الجوبلان (المزدان بالرسوم) ومصانع الخزف الصيني في سيفر . وأخذت عملية التعدين في التوسع بعد أن حل الفحم محل الخشب في الوقود . وثار الاحتجاجات على دخان الفحم الذي يلوث الهواء ، ولكن الصناعة آنذاك ، كما هو الحال اليوم ، مضت تشق طريقها ، وتعرضت صحة الناس في باريس ، وفي لندن على حد سواء ، للخطر نتيجة لتنفس هذا الهواء الملوث . وكانت هناك مصانع للصلب في دوفيني ، ومصانع للورق في أنجوموا . وتوسعت مصانع النسيج توسعاً ملحوظاً في الشمال ، فاستخدم فان روييه ١٥٠٠ عامل في مصنع واحد في آبقيل واستخدم فان دركروسن ثلاثة آلاف رجل في ليل^(٥٥) . وشجع ازدياد العمال هذا على تقسيم العمل والتخصص فيه ، وحفز على اختراع الآلات للعمليات المكررة على نسق واحد (الروتينية) وتضمنت دائرة

معارف ديدرو (١٧٥١ وما بعدها) أوصافاً ورسوماً مذهشة لآلات متنوعة معقدة أدخلت بالفعل فى الصناعة فى فرنسا ، ينذر أن تكون قد نالت استحساناً أو ترحيباً من البروليتاريا . وحين أقيم نول جاكوار (لحياكة الأقمشة المصورة) فى ليون ، عمد عمال نسج الحرير إلى تهشيمه ، خشية أن يلقى بهم فى عرض الطريق بلا عمل (٥٦) .

ورغبة فى تشجيع الصناعات الجديدة فإن حكومة فرنسا - كما فعلت حكومة إنجلترا فى عصر إليزابث - منحت عدة احتكارات ، مثال ذلك أنها منحت أسرة فلان رويية احتكار انتاج الأقمشة الهولندية الرفيعة ، كما ساعدت مشروعات أخرى بمعونات وقروض دون فوائد . وفرضت الحكومة على كل الصناعة تنظيماً صارماً موروثاً عن كولبير . وأثار هذا الأسلوب اعتراضاً متزايداً من جانب أصحاب المصانع والتجار الذين دفعوا بأن الاقتصاد ينمو ويزدهر إذا تحرر من تدخل الحكومة ، وترديداً لهذا المطلب ، قال فنسنت دى جورناى (حوالى ١٧٥٥) عبارة التاريخية اتركه وحده « اتركه يعمل » التى عبرت فى الجيل التالى ، على لسان فرنسوا كنى وترجو ، عن المذهب الفيزيوقراطى الذى نادى بحرية العمل والتجارة .

واستاء الحرفيون أيضاً من هذه القواعد والتعليمات التى وقفت حجر عثرة فى سبيل تنظيمهم من أجل ظروف عمل وأجور أفضل . ولكن أهم ما هاج حفيظتهم هو أن عمال الريف والمصانع كانوا ينتزعون السوق من أيدي النقابات . فما وافى عام ١٧٥٦ حتى كان أصحاب المصانع قد هبطوا بالحرفيين فى المدن الكبرى - حتى بالمعملين النقابيين - إلى مستوى الإجراء الذين يعتمدون فى عملهم على المقاولين أو الملتزمين . (٥٧) وفى نطاق النقابات أجرى المعلمون - تخفيضاً فى أجور عمال المياومة الذين عمدوا إلى الاضراب على نحو دورى . وكان الفقر فى القرى شديداً مثلما هو فى المدن تقريباً . ووصل نقص المحاصيل بالطبقة الكادحة ، البروليتاريا ، فى المدن إلى حد المجاعة والشغب كل بضع سنين ، كما حدث فى تولوز ١٧٤٧ ، وفى باريس

١٧٥١ ، وفي تولوز ١٧٥٢^(٥٨) وكان القسيس الملحد جان مزلييه قد اقترح بالفعل ، حوالى ١٧٤٩ استبدال شيوعية قائمة على الحرية بالانظام القائم^(٥٩).

وفي أواسط القرن كانت باريس وروان وليل وليون وبوردو ومرسيليا تعج بالبروليتاريا . وتفوقت ليون بوصفها مركزا صناعيا لبعض الوقت على باريس . وقد وصفها الشاعر الانجليزى توماس جراى فى ١٧٣٩ بأنها « ثانية مدن المملكة من حيث الاتساع والمكانة . وشوارعها بالغة الضيق والقذارة ، ودورها بالغة الإرتفاع والاتساع (تتكون الدار من خمسة طوابق فى كل طابق ٢٥ غرفة) ، مكتظة بالسكان » .^(٦٠) وكانت باريس خلية هائجة ، يقطنها ٨٠٠ ألف منهم ١٠٠ ألف خادم ، و ٢٠ ألف متسول ، وفيها الأكواخ الكثيرة والقصور الفخمة ، والأزقة والحارات المظلمة والشوارع القذرة وراء المتنزهات الأنيقة ، وفيها الفن إلى جانب الأملاق والفقر المدقع . وسارت فيها المركبات الكبيرة والمركبات العامة ذات الحواد الواحد والمحفات يصطدم بعضها ببعض مع تبادل السباب والشتائم ، واختناق شديد فى حركة المرور . وكانت بعض الشوارع قدر صفت منذ ١٦٩٠ . وفى عام ١٧٤٢ رصف تريساكيه الطرق بأحجار ملساء ، ولكن معظم الشوارع كانت قلدة تماما ، مملوءة بالحصى الكبير الذى يصلح لإقامة المتاريس فى أثناء الثورات . وبدأت مصابيح الشوارع تحمل محل الفوانيس فى ١٧٤٥ ولكنها لم تكن تضاء إلا إذا لم يكن القمر بدرا . وظهرت لافتات أسماء الشوارع فى ١٧٢٨ . ولكن لم توضع للبيوت أرقام قبل الثورة . وكان للأغنياء وحدهم صنادير ماء فى بيوتهم ، أما سائر الناس فكان يزودهم بالماء عشرون ألف سقاء يحمل الواحد منهم دلوين يصعد بهما أحيانا سبع مجموعات من درجات السلم . أما المراحيض فى المنازل والحمامات المزودة بالماء الجارى الساخن والبارد ، وكانت امتيازاً لكبار الأثرياء . وظلت آف الحوانيت ، المشهورة بشعاراتها الرائعة المثيرة ، على حالتها من الفوضى فى الموازين والمقاييس المتضاربة والمشتبه فيها ، إلى أن وضعت الثورة النظام المترى (العشرى) . وكان هناك أصحاب حوانيت أمناء فى « متاجر الثقة » ، ولكن الغالبية

اشتهرت بالتطفيف في المقاييس والتلاعب في الأسعار ورداءة أنواع السلع. (٦١) وكان بعض الخوانيث ينتحل عظمة زائفة خداعة لأن أصحابها كانوا يستقلون العربات . وكان الفقراء من الناس يعتمدون في شراء حاجياتهم أساسا على الباعة المتجولين الذين حملوا بضاعتهم جاهدين في دلاء أو سلال على ظهورهم، والذين أسهموا في موسيقى الشوارع بصيحاتهم ونداءاتهم التقليدية غير المفهومة التي يدعون بها الناس إلى الشراء ، من « البطاطس المطبوخة » إلى الموت للفئران « فقد نازعت الفئران الناس على تيسيرات السكنى في المدينة ، وزاحم الرجال والنساء والأطفال الفئران في مسابقة الحصول على الطعام . قال رجل فارسي كان في زيارة مونتسكيو : « البيوت مرتفعة إلى حد يظن معه أنه لا يقطنها إلا منجمون . ولك أن تتخيل مدينة بنيت في الهواء ، فيها أقيمت ستة أو سبعة منازل الواحد منها فوق الآخر وهي مزدحمة بالسكان ، حتى إذا نزلوا جميعا إلى الشارع ، رأيت هناك حشدا رائعا . لقد بقيت هنا شهرا ، لم يقع نظري فيه على شخص واحد يسير بحطى وثيدة . وليس في العالم كله مثل الرجل الفرنسي وهو يجتاز الطريق ، إنه يعدو أو يطير . (٦٢) أضف إلى ذلك المتسولين والمتشردين والنشالين والمغنين في الشوارع والنافخين في الأرغن والدجالين بائعي الأدوية الزائفة . وجملة القول أنهم شعب تشيع فيه مائة من أخطاء البشر ، لا يوثق به إطلاقا ، متلهف على الكسب ، مسرف في الدنس والتجديف بكل معنى الكلمة . ولكنه إذا أوتي اليسير من الطعام والنبذ فهو ألطف شعوب العالم وأكرمها وأكثرها مرحا وابتهاجا .

٣ - البرجوازية :

وفيا بين الطبقتين للدنيا والعليا قامت الطبقة الوسطى . تضم لها أولاها البغض والكراهية، وتردريها الثانية ، وكانت تضم الأطباء والأساتذة ورجال الإدارة وأصحاب المصانع والتجار ورجال المال ، وهي طبقة شقت طريقها إلى الثروة والنفوذ والسلطة في حذق ومهارة وصبر وجلد .

وقام أرباب المصانع بمغامرات اقتصادية وتطلبوا من أجلها عائدا وفاقا . وشكوا من أنهم يتعرضون لمائة من المضايقات التي تسببها لهم تعليمات الحكومة ورقابة النقابات على السوق والعمال المهرة ، واغتناظ التجار الذين يوزعون المنتجات من فرض ألف من المكوس والرسوم التي تعوق حركة البضائع ، ذلك أنه عند كل نهر أو قناة أو مفترق طرق كان هناك وكيل عن النبيل أو رجل النيسة مالك الأرض ، ليتقاضى رسما على الترخيص بمرور البضائع . وأوضح السيد المالك أن هذه المكوس إنما هي تعويض معقول له عما ينفق في صيانة الطرق والجسور والمعابر وإصلاحها لتبقى صالحة للاستعمال . وألغى مرسوم ملكي صادر في عام ١٧٢٤ ألفا ومائتين من هذه المكوس ، ولكن بقيت بعد ذلك منها مئتا لعبت دورا في كسب البورجوارية إلى جانب الثورة وتأييدها لها .

أما التجارة الفرنسية التي كانت معوقة في الداخل فقد انتشرت واتسعت فيما وراء البحار . وسيطرت مرسيليا ، وكانت ميناء حرة ، على تجارة أوروبا مع تركيا والشرق . ومدت شركة الهند التي أعيد تأسيسها ١٧٤٣ ، أسواقها ونفوذها السياسي في البحر الكاريبي ووادي الميسيسي وأجزاء من الهند . ورفعت بوردو ، وهي ، المنفذ الرئيسي لتجارة الأطلنطي ، تجارتها البحرية من أربعين مليونا من الجنيهات في عام ١٧٢٤ إلى ٢٥٠ مليونا في ١٧٤٨ . وأبحر أكثر من ٣٠٠ سفينة سنويا من بوردو ونانت إلى أمريكا ، يحمل معظمها العبيد ليعملوا في مزارع قصب السكر في جزر الأنتيل ولويزيانا^(٦٣) . وفاقته نسبة المبيعات من السكر المنتج من أمريكا الفرنسية مثلتها من السكر الإنجليزي المنتج في جامايكا وباربادوس في الأسواق الأوربية ، ^(٦٤) وربما كان هذا من أسباب حرب السنين السبع ، وارتفعت جملة تجارة فرنسا الخارجية من ٢١٥ مليونا من الجنيهات في ١٧١٥ إلى ٦٠٠ مليون في ١٧٥٠ . ^(٦٥) وقدر فولتير أن عدد السفن التجارية التي استخدمتها فرنسا زاد من ٣٠٠ سفينة في ١٧١٥ إلى ٨٠٠ في ١٧٣٨ . ^(٦٦)

وكانت الأرباح المتزايدة من التجارة البحرية الدافع الأساسي لغزو

المستعمرات . وكانت حماسة التجار والمبشرين الفرنسيين قد كسبت لفرنسا معظم كندا وحوض الميسيسيبي وبعض الجزر في البحر الكاريبي . وتحدثت إنجلترا هذه الممتلكات الفرنسية على اعتبار أنها تضيق الخناق على مستعمراتها في أمريكا وتعرضها للخطر . والحرب هي التي يمكن أن تحسم هذه القضية ، ودب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا في الهند بسبب منافسة مماثلة . وكان الفرنسيون في ١٦٨٣ قد وطلدوا مركزهم في بوندشيري على الساحل الشرقي جنوبي مدراس ، وفي ١٦٨٨ حصلوا من امبراطور المغول على حق السيطرة الكاملة على شاندرناجور شمالي كلكتا . وفي ظل القيادة النشيطة اليقظة لجوزيف دوبليكس ، استولى هذان الثغران على كثير من التجارة والثروة إلى حد أحست معه شركة الهند الشرقية الانجليزية ، التي كانت قد أقامت لها مراكز في مدراس (١٦٣٩) وبمباي (١٦٦٨) وكلكتا (١٦٨٦) - أنها مضطرة إلى خوض الحرب مع الفرنسيين من أجل مملكة المغول التي تتمزق أوصالها .

ولما رأت إنجلترا وفرنسا أنهما على طرفي نقيض في حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٤) فإن ماهي دي لا بوردونيه - الذي كان قد ضرب رقما قياسيا في الاقدام والمغامرة في إدارة جزر موريشيوس وبوربون الفرنسية في المحيط الهندي - عرض على حكومة فرساي خطة للقضاء على التجارة وعلى المستعمرات الانجليزية في الهند .^(٦٧) وهاجم مدراس بأسطول فرنسي ، بموافقة دوبليكس الحسود ، وسرعان ما أرغم المدينة على الاستسلام (١٧٤٦) وتحت مسئوليته الخاصة وقع مع السلطات الانجليزية اتفاقية تقضي بإعادة مدراس إليهم لقاء تعويض قدره ٤٢٠ ألف جنيه . ورفض دوبليه التصديق على الاتفاقية ، ولكن لا بوردونيه أصر في عناد ، وأبحر على سفينة هولندية إلى أوربا : وأسرت سفينة إنجليزية ، وأطلق سراحه تحت وعد شرف ، ودخل باريس فرج به في الباستيل بتهمة التمرد والخيانة ، وطلب المحاكمة ، وبعد عامين قضاهما في السجن حوكم وقضى له بالبراءة (١٧٥١) وتوفي ١٧٥٣ . وفي تلك الأثناء حاصر أسطول إنجليزي قوى بوندشيري (أغسطس

(١٧٤٨) فدافع عنها دوبليكس دفاعا مجيدا حتى رفع الحصار عنها (اكتوبر) . وبعد ذلك بسبعة أيام وصلت الأنباء إلى الهند بأن معاهدة إكس لا شابل أعادت مدراس إلى إنجلترا . ذلك أن الحكومة الفرنسية أدركت أنه مقضى عليها بالهزيمة في الهند بسبب ضعف قواتها البحرية ، فرفضت أن تدعم مشروعات دوبليكس في الغزو والفتح ، وأرسلت إليه قوات واعتمادات هزيلة ، وأخيرا استدعته إلى فرنسا (١٧٥٤) . وامتد به الأجل حتى رأى الإنجليز يوقعون بالفرنسيون هزيمة منكرة في الطور الهندي من حرب السنين للسبع .

وكان « رجال المال » في قمة الطبقة الثالثة وكانوا من مقرضى النقود على نطاق ضيق ، من الطراز العتيق المحافظ ، أو من أصحاب المصارف بكل معنى الكلمة ، الذين يتعاملون في الودائع والقروض والاستثمارات ، أو من « ملتزمى الضرائب » الذين يعملون للدولة باعتبارهم « وكلاء الدخل » . وكانت القيود التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على تقاضى فوائد الأموال قد ضعف أثرها أو أصبحت غير ذات موضوع تقريباً ، في تلك الأيام . ورأى جون لو أن نصف فرنسا متلهف على الاتجار في الأسهم والسندات ، وافتتحت باريس سوق الأوراق المالية (البورصة) فيها سنة ١٧٢٤ .

وكان بعض (رجال المال) أغنى من معظم النبلاء . فكان باريس مونتارتل يمتلك مائة مليون جنيه ، ولينورمان دي تورنيم عشرين مليونا ، وصمويل برنارد ٣٣ مليونا ^(٦٨) . وزوج برنارد بناته من أزواج أرستقراطيين حيث دفع لكل منهن مهرأ قدره ٨٠٠ ألف جنيه ^(٦٩) . وكان سيداً مهذباً محباً لوطنه . وفي ١٧١٥ حدد بنفسه الضرائب المستحقة على ممتلكاته بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ، ومن ثم كشف عن ثروة كان يمكن أن يتخفيها جزئياً ^(٧٠) . وعندما قضى نحبه (١٧٣٩) ، أمارط فحص حساباته اللثام عن المدى الواسع لصدقاته الخفية ^(٧١) . أما الإخوة الأربعة الذين حملوا لقب « باريس » فقد طوروا مؤسستهم المصرفية إلى سلطة سياسية . وتعلم منهم فولتير كثيراً من براعته المالية ، فأذهل أوربا لكونه فيلسوفاً و « مليونيراً » في وقت معا .

وكان « الملزمون العامون » أبغض رجال المال في فرنسا في القرن الثامن عشر . وكان نظام « الملزم العام » قد أدخل في ١٦٩٧ لجمع الضرائب غير المباشرة - أساساً الضرائب على الإعانات والتسجيلات والطلبات والملح والتبغ - ولكي تنفق الحكومة هذه الإيرادات قبل جمعها ألزمت بها شخصاً يدفع لها المبلغ المتعاقد عليه ، مقابل حق جبايتها على مدى ست سنوات . وانعكس ازدياد الضرائب والثروة والتضخم في ارتفاع ثمن هذا العقد الرابع : ٨٠ مليوناً ١٧٢٦ ، ٩٢ مليوناً ١٧٤٤ ، ١٥٢ مليوناً ١٧٧٤ . ولم تقع أية حكومة يوماً في حيرة جرياً وراء الطرق التي تنفق بها أموال شعبها وفوضت للمتعاقد مهمة جمع الضرائب بالتعاقد إلى أربعين « ملتزماً عاماً » أو أكثر ، دفع كل منهم مليوناً من الجنيهات أو أكثر ضماناً مقدماً ، ولحق أصابعه كلما مرت بها الإيرادات ، وهكذا ، فيما بين عامي ١٧٢٦ - ١٧٣٠ تجاوزت أرباح الملزمين العامين الأربعين ١٥٦ مليوناً من الجنيهات (٧٣) وابتاع كثير من أمثال هؤلاء الجباة الضياع والألقاب وشادوا القصور الفخمة وعاشوا حياة غاية في البذخ والترف ، مما أثار حتى الأرستقراطية ورجال الكنيسة . وجمع بعضهم روائع الفن وأحاطوا أنفسهم بالفنانين والشعراء والتحليلات ، وفتحوا أبواب بيوتهم مأوى أو منتدى للصفوة من أهل الفكر وكان « أطفء الفلاسفة » هلفشيوس ، واحداً من أكرم « الملزمين العامين » . وقضى روسو فترة طويلة في ضيافة مدام دي ايناي زوجة أحد الملزمين . واستمتع رامو وفانلو بكرم الضيافة لدى الاسكندر دي لابولنيير الذي اشتهر من بين رجال المال بأنه يمثل ميسيناس (رجل الدولة الروماني من رعاة الأدب صديق هوراس وفرجيل في القرن الأول ق .م) وثار كبار أفراد البورجوازية المتهفون على الاعتراف بمكانتهم الاجتماعية ، لأنفسهم من استهجان الكنيسة واحتقار النبلاء لهم ، بمنصرة الفلاسفة ضد الكنيسة ، ثم ضد النبلاء فيما بعد ، وربما كان رجال المال هم الذين أمدوا الثورة بالمال .

٤ - الحكومة :

كانت الطبقات الوسطى آنذاك أكثر فعالية وقوة في الدولة ، لأنها شغلت كل المناصب ، فيما عدا مناصب الوزارة التي كانت تتطلب عبير شجرة الأسرة أو عراقة الحسب والنسب ، وكان أفرادها يشكلون البروقراطية وصقلت مواهبهم بالانتقاء الطبيعي في ميدان الاقتصاد ، وأثبتوا أنهم أمهر وأقدر من النبلاء سليلي الأسرات الواهنين الحاملين الذين ليس لهم ما يحفزهم على الجهد والعمل . وفي الحق أن نبلاء الرداء في البرلمانات والحكام كانوا ينتسبون إلى البرجوازية من حيث الأصل والخلق . وتولت الطبقة الوسطى شئون الكوميونات والأربعين مقاطعة ، وإدارات الحرب والتموين والمواصلات والمناجم والطرق والشوارع والجسور والأنهار والقنرات والثغور . وكان قواد الجيش من النبلاء ، ولكنهم قاموا بحملات خططها لهم في باريس رجال من الطبقة الوسطى ، بارعون في تخطيط الحرب (٧٣) . إن نمط البرجوازية الفرنسية في القرن التاسع عشر كان قد سبق تشكيله في القرن الثامن عشر .

وكان المعترف به بصفة عامة أن الإدارة في فرنسا كانت أحسن إدارة في أوربا ، ولكن كانت تشوبها عيوب قتالة : كانت مركزية متغلغلة ، مفصلة إلى حد أنها عوقت الابتكار والمبادرة والحيوية المحلية ، وضيعت كثيراً من الوقت في نقل الأوامر والتقارير . وبالمقارنة بانجلترا كانت فرنسا استبدادية مطلقة خائفة . فلم يكن مسموحاً بالاجتماعات العامة ، ولم يؤخذ بالاقتراع الشعبي إلا في المسائل المحلية التافهة ، ولم يقف أى برلمان في وجه الملك . وحسن لويس الخامس عشر الحكومة بإهمالها ، ولكنه فوض إلى وزرائه سلطات ملكية مثل إصدار أوامر القبض أو الرسائل المختومة ، وغالباً ما أسيء استخدام هذه السلطة . حقاً إن مثل هذه « الرسائل السرية » ، أفلحت أحياناً في تسير شئون الحكومة بسرعة عن طريق تجنب التفاصيل الفنية في الإجراءات الإدارية « الروتين الحكومي » . ويلاحظ هذه الرسائل أسس لويس الرابع عشر « الكوميدي فرانسيز » في عام ١٦٨٠ . وأنقذت بعض الرسائل سمعة إحدى الأسرات ، بالزج بوغد لثيم في السجن دون

بطاء ودون محاكمة علنية ربما كانت تكشف عن كوارث خاصة . كما أن بعض هذه الرسائل ؛ كما حدث عند اعتقال فولتير وسجنه للمرة الثانية ، حال بين أحد الحمقى الذين يمكن الصفح عنهم ، وبين إتمام حماقته . وفي حالات كثيرة صدرت الرسائل بناء على طلب والد يائس (مثل ميرابو الأكبر) من تقويم اعوجاج ابن جامع . وفي مثل هذه الحالات كان السجن خفيفاً قصير الأمد . ولكن كانت هناك حالات كثيرة من القسوة الصارخة ، ومن أمثلتها احتجاز الشاعر ديفورج لمدة ست سنوات (١٧٥٠ - ١٧٥٦) في حجرة من حديد لأنه استنكر تصرف الحكومة في نفى شارل ادوارد ستوارت حفيد جيمس الثاني من فرنسا (وكانوا يسمونه المطالب الصغير بالعرش) . (٧٤) وإذا كان لنا أن نصدق رواية الكاتب الألماني ولهم جريم ، وهو دقيق بصفة عامة ، فإن الحكومة قدرت أعظم التقدير انتصارات موريس دى ساكس في المعارك إلى حد أنها أرسلت إلى الشاعر شارل فافار أمرا سرياً ليضم زوجته إلى قائمة خليلات دى ساكس . (٧٥) إن أية إساءة إلى أحد النبلاء من رجل عادي ، أو أى نقد شديد يوجه إلى الحكومة ، كان من شأنه أن يؤدي إلى صدور رسالة سرية مختومة تتضمن أمراً بالقبض والزج في السجن دون محاكمة أو قضية مبينة . ومثل هذه الأوامر التعسفية أثارت استياءاً متزايداً على مر السنين في هذا القرن الثامن عشر .

وعوق القانون الفرنسي مع تقدم الإدارة الفرنسية ، وكان يختلف من مقاطعة إلى مقاطعة مما أعاد إلى الأذهان انفراد المقاطعات بعضها عن بعض باستقلالها الذاتي ، في سالف الأيام . وكان في مختلف أقاليم فرنسا . ٣٥٠ هيئة قانونية متباينة . وكان كولبير قد قام بمحاولة غير موفقة في تنظيم القانون الفرنسي وتحديثه في « قانون العقوبات » الذي صدر في ١٦٧٠ ولكن قانونه خلط بشكل مضطرب بين تشريع العصور الوسطى والحديثة ، والتشريع الألماني والروماني ، والتشريع الكنسي والمدني . وكان الملك يسن القوانين الجديدة وفقاً لمتطلبات الساعة ، وعادة بناء على إلحاح وزرائه مع التسرع في التحقق من إنساقها مع القوانين القائمة . وكان من العسير على المواطن أن يتبين أي القوانين ساري المفعول في محل إقامته أو في قضيته .

وتولت « الشرطة الراكبة » تنفيذ قانون العقوبات في الأقاليم ، أما في المدن الكبيرة فكان يتولاه « شرطة البلدية » ، التي نظمها ودرّبها أحسن تدريب وتنظيم في باريس ، مارك رينيه دي فواييه دي أرجنسون ، الذي لم ينجب أبناء لامعين فحسب ، بل إنه كذلك بوصفه قائد الشرطة من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨ ، اكتسب لقب « اللعين » ، لأنه كان يبدو وكأنه شيطان ، إنه كان على أية حال مصدر رعب وفزع لمجرمي باريس ، لأنه كان يعرف أوكارهم وأساليبهم ، ومع ذلك كان (كما يؤكد لنا سان سيمون) « يتسم بالروح الإنسانية »^(٧٦) - عطوفا على البؤساء .

وكان الشخص المقبوض عليه يسجن قبل محاكمته ، ويعامل معاملة لا تكاد تختلف عن معاملته وهو مذنب محكوم عليه بالعقوبة . وقد يقضى - مثل جين كالاس - شهورا في السلاسل والأغلال والتعذيب العقلي ، معرضاً للمرض في كل يوم بين الأقدار . وإذا حاول الهرب تصادر ممتلكاته ، وإذا اتهم بجريمة كبرى لا يسمح له بالإتصال بمحام . ولم يكن هناك حق التحقيق في قانونية أمر الاعتقال (هابياس كوربس) ، أو حق المحاكمة عن طريق المحلفين . وكان الشهود يسألون سراً ، كل على حدة . وإذا اعتقد القاضي بأن المتهم مذنب ، ولكن ليس هناك أدلة كافية لإدانته ، كان له سلطة تعذيبه لينتزع منه اعترافاً . وقل حدوث مثل هذا التعذيب القضائي وخفت حدته على عهد لويس الخامس عشر ، ولكنه ظل جزءاً من الإجراءات القانونية في فرنسا حتى ١٧٨٠ .

وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى تمزيق الأوصال . وكانت الشهرة مفضلة في عقاب عدم الأمانة في العمل . وكان اللصوص وصغار المجرمين يجلدون بالسياط ، وهم يجرون مربوطين في ذيل عربة في الشوارع . وكان يمكن أن يكون الإعدام عقوبة الخدم إذا اقترفوا السرقة ، ولكن مخدوميهم نادراً ما تمسكوا بتنفيذ هذا القانون . وفي ١٧٤٨ أبطل بصفة رسمية الحكم بالتجديف في السفن الشراعية الكبيرة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لمجموعة كبيرة متباينة من الجرائم منها السحر والشعوذة والتجديف على الله

وسفاح ذوى القربى واللواط والعلاقة الجتسية بين إنسان وحيوان . ولم يعودوا يلجأون إلى قطع العنق أو شد المجرم إلى خازوق لإحراقه . ولكن كان يمكن أن يزيدوا من روعة تنفيذ الحكم « بسحب المحكوم عليه وتمزيق أوصاله إلى أربعة أجزاء » أو تحطيم أطرافه بقضيب حديدى وهو مربوط إلى « دولاب » التعذيب . وروى « أن الناس ، وبخاصة فى باريس ، كانوا دائماً يتطلعون فى ابتهاج وسرور إلى تنفيذ حكم الإعدام (٧٧) » .

وكان النظام القضائى معقداً مثل القانون تقريباً . وكان فى الريف آلاف المحاكم الإقطاعية التى تطبق القانون المحلى ، ويرأسها قضاة يعينهم السادة الملاك ، وكان يمكن لهذه المحاكم أن تنظر فى القضايا الصغيرة فقط . وليس لها أن تفرض من العقوبات إلا الغرامة البسيطة . وكانت أحكامها عرضة للاستئناف ، ولكن الفلاح وجد أن من العسير عليه ، ومما يكلفه نفقة باهظة أن يكسب قضية ضد السيد المالك . وعلاوة على محاكم السادة الملاك هذه كانت هناك محاكم محلية ، وكان فى كثير من المدن محاكم خاصة بالكوميونات وفوق كل هذه المحاكم الدنيا كانت هناك المحاكم الإقليمية التى تطبق القانون الملكى ، والملك أن يعين محاكم خاصة لأغراض خاصة . وكانت الكنيسة تحاكم رجالها بمقتضى قانونها الكنسى الخاص بها فى محاكم كنسية . وكان المحامون يحتشدون فى مختلف المحاكم وفيما حولها ، مستفيدين من ولع الفرنسيين بالتقاضى . وكان فى المدن الكبرى الثلاث عشرة برلمانات تتألف من قضاة يعملون على هيئة محاكم عليا لهذه المدن وما حولها ، وعلى هذا الأساس كان برلمان باريس يخدم ثلث فرنسا تقريباً . وطالب كل برلمان بأن أى مرسوم ملكى أو حكومى لا يصبح قانوناً إلا إذا عرض على البرلمان ووافق عليه وسجله . ولم يسلم المجلس الملكى للدولة بهذا المطلب قط ، ولكنه فى الغالب سمح للبرلمان بحق الاعتراض . ودارت أشد حقب التاريخ الفرنسى كآبة حول هذه المطالب المتعارضة والمتنازع عليها بين الملك والبرلمانات .

وبين برلمان باريس والملك قام الوزراء والبلاط . وشكل كل الوزراء معاً « مجلس الدولة » وكان البلاط يتألف من الوزراء علاوة على النبلاء

أو رجال الدين أو أعيان العامة الذين كانوا قد قدموا إلى الملك ، بالإضافة إلى معاوني رجال البلاط وخدمهم . وكانت هناك مراسم صارمة (بروتوكول) تحدد وضع كل رجل في البلاط ومسوغاته وأسبقيته وامتيازاته وواجباته ، كما أنه كانت هناك قواعد تشریفاب معقدة مدروسة مفصلة تيسر الاحتكاك بين عدة مئات من الأفراد المزهوين الذين تملأ الغيرة والحقد قلوبهم ، كما تثقل كواهلهم . كما أن المراسم والتشريفات الباذخة المسرفة لطفت من رقابة نظام الحاشية . وهيات جو الغموض الذي لاهني عنه للحكومة الملكية . وكانت ضروب التسلية الأثيرة لدى أفراد الحاشية هي الانهماك في القيل والقال والأكل ، والميسر والصيد والقنص والزنى . قال سفير نابلي : « إن تسعة أعشار الناس في فرنسا يموتون جوعاً ، والعشر يموت من عسر الهضم » (٧٨) وكانت مبالغ الخسارة والمكسب على موالد القمار جسيمة . ولكي يسدد رجال الحاشية ديونهم كانوا يبيعون نفوذهم لمن يدفع مبلغاً محترماً لأحد أفراد الحاشية ، وكان لكل زوج في البلاط ، تقريباً ، عشيقة ، ولكل زوجة تقريباً عشيق . ولم ينكر أحد على الملك خليلاته ، وكل ما شكاه منه النبلاء أن الملك صحب معه إلى فراشه مادام دي بمبادور وهي سيدة من عامة الشعب على حين أنهم ربما أحسوا أنه قد يشرفهم أن يفترع جلالته بناتهم البكارى . وعلى الرغم من أن لويس الخامس عشر كان قد بلغ سن الرشد رسمياً في ١٧٢٣ ، فإنه كان آنذاك في سن الثالثة عشرة ، وعهد بالإدارة إلى لويس هنرى ، الدوق دي بوربون . وكان التفكير قد اتجه لشغل هذا المنصب إلى كونت دي تولوز ، وهو أحد أبناء لويس الرابع عشر الذين أضيفت عليهم صفة الشرعية ، ولكنه استبعد « لأنه لفرط أمانته لا يصلح لأن يكون وزيراً » (٧٩) ، وكان السيد الدوق دي تولوز « نفسه رجلاً طيب الشعور ، بذل كل ما في وسعه للتخفيف من فقر الشعب ، وفكر في تحقيق هذا الغرض عن طريق وضع نظام يحدد الأسعار والأجور بصفة رسمية . ولكن قانون العرض والطلب خرب آماله . وتجاسر على فرض ضريبة دخل قدرها ٢٪ على كل الطبقات فاحتج رجال الدين وقامروا على سقوطه » (٨٠)

وأباح لعشيقته المركيزة دى برى من النفوذ والسلطان أكثر مما ينبغي، وكانت ذكية، ولكن ذكاءها كان دون جماها، فاحتالت على زواج لويس الخامس عشر من ماري لزنزنسكا، أملاً في أن تستبق الملكة الشابة تحت تأثيرها. ومهما يكن من أمر فإن ماري سرعان ما فقدت نفوذها وعطفت مدام دى برى على فولتير، وأقصت رجال الدين ودفعت الدوق إلى مهاجمة الأسقف الذى يتولى تعليم الملك، والذى كان قد أوصى الملك باختيار الدوق ليكون وزيره الأول. ولكن الملك كان يعجب بمعلمه ويثق فيه أكثر من أى رجل آخر في الدولة.

وكان أندريه هركبل دى فليرى قد عين أسقفاً في فريجييس ١٦٩٨ ثم مؤدباً للملك ١٧١٥. وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبي. وكان الأسقف فارغ الطول وسيما مرناً لبقاً، كسولاً بعض الشيء لا يتعجل الحظ والثراء أبداً، ولو أنه وصل إلى ما يصبوا إليه. واعتقد ميشيليه وسانت بييف أن فليرى، باعتباره معلماً، كان قد أضعف شخصية الملك الصغير بإطلاق العنان لرغباته وشهواته في ابتهاج خال من الهموم والتفكير، ورباه على مساندة اليسوعيين والعطف عليهم^(٨١). ولكن فولتير، الذى لم يكن صديقاً لرجال الدين، أعجب بفليرى، وقدره أعظم تقدير، معلماً ووزيراً، على حد سواء وأخذ فليرى على عاتقه أن يشكل ذهن تلميذه ويدربه على العمل والتكتم والاستقامة والأمانة، وعلى أن يصون نفسه وسط تعجل الحاشية وهياجها وصخبها، طيلة الفترة التى لم يبلغ فيها الملك سن الرشد، والتى نعم فيها بحسن تأثير الوصى وتقدير الشعب. ولم يمن فليرى قط بقيمة خدماته، ولم يشك قط من الآخرين، ولم يغمس يده في مكائد الحاشية ودسائسها قط. وحاول سراً أن يتعرف على شئون المملكة في الداخل ومصالحها في الخارج. وصفوة القول إن سلوكه الواعى الحذر ومزاجه اللطيف جعل كل فرنسا تود أن تراه على رأس الإدارة فيها^(٨٢).

ولما علم فليرى بأن تأثيره المستمر في تقرير السياسة استفز الدوق دى بوربون ليوصى بطرده من البلاط، لم يبذل أى محاولة للاحتفاظ بمركزه

بل انسحب في هدوء إلى دير السليبيشيان في ISSY، إحدى ضواحي باريس (١٨ ديسمبر ١٧٢٥). وأمر الملك الدوق أن يطلب إلى فليرى أن يعود ، وعاد بالفعل ، وفي ١١ يونيو ، استجابة لما وضح من رغبة الحاشية ورجال الدين والجمهور ، (٨٣) أمر لويس الخامس عشر ، بشكل مفاجئ ، بـ « أن يأوى إلى شانتيللي ويبقى هناك لحين صدور أوامر أخرى » . وأبعدت مدام دي برى إلى قصرها في نورماندى ، حيث تولاهما الضجر والسأم إلى أبعد الحدود ، فتناولات السم وفارقت الحياة (١٧٢٧) .

وظل فليرى يخطو إلى الأمام بفضل تراجعه ، ولم يحظ بأى منصب رسمى ، بل إنه على العكس ، حث الملك على أن يعلن أنه سيتولى الحكم بنفسه منذ الآن . ولكن لويس آثر الصيد أو لعب القمار ، وأصبح فليرى الوزير الأول في كل الشئون إلا اللقب (١١ يونيو ١٧٢٦) . وكان آنذاك فى الثالثة والسبعين من العمر ، وكَم من نفس طموحه تطلعت إلى أن يعاجله الموت ، ولكنه حكم فرنسا سبعة عشر عاما .

ولم ينس فليرى أنه قسيس ، فألقى ضربة ال ٢ / فيما يتعلق برجال الكنيسة ، فكان جوابهم على هذا أنهم قدموا للدولة منحة اختيارية قدرها خمسة ملايين جنيه ، وطلب فليرى إليهم أن يساندوه فى تنصيبه كاردينالا ، وكان فى حاجة إلى هذا اللقب ليكون له حق الصدارة والأسبقية على الأذواق فى مجلس الدولة ، فكان له ما أراد (٥ نوفمبر) ، ولم يحاول منذ تلك اللحظة أن يخفى الحقيقة ، تلك هى أنه كان يحكم فرنسا .

ولشد ما كانت دهشة الحاشية حين رأوه متواضعا وهو فى أوج السلطة مثلما كان متواضعا وهو يمهّد لها . وعاش فى بساطة تكاد تنسم بالتقير ، قانعا بالحقيقة الواقعة دون امتيازات السلطة ومقتضياتها . وكتب فولتير « إن ارتفاع مكانته لم يغير من عاداته وسلوكه ، ودهش الجميع ليجدوا فى شخص رئيس وزارة ، أعظم رجال الحاشية جاذبية وفى نفس الوقت أعظمهم نزاهة وتجردا » (٨٤) وقال هنرى مارتن « كان أول وزير عاش بعيداً عن الترف والبدخ ومات فقيرا » . (٨٥) وكان أمينا غاية الأمانة ،

ولم يسن استغلال منصبه قط . (٨٦) وكان إلى أبعد الحدود أكثر تسامحا ممن يحيطون به « (٨٧) وعامل فولتير معاملة ودية لطيفة وتغاضى عن ممارسة الطقوس البروتستانتية سرا ، ولكنه لم يتسامح قط مع الجانسينيين .

ولم يعكف ، بطريقته المتروية المتأنية ، على تقرير السياسة فحسب ، بل على إدارة الحكومة كذلك . - اختار معاونيه بعد حكم فاحص مدقق ، وساسهم في حزم وكياسة . وفي عهده تابع هنرى فرنسوا دى أجوسو مهمته الطويلة المدى (١٧٢٨ - ١٧٥١) فى اصلاح القوانين وتنسيقها ، وأعاد فيليبيرت أورى النظام والاستقرار إلى مالية الدولة . وتجنب فليرى الحرب حتى أكره عليها بسبب الأطماع الأسرية فى الأسرة الحاكمة ، ومن ثم هيا لفرنسا فترات سلام وهناء طويلة ، سمحت لها باستعادة الانتعاش الاقتصادى . وبدأ أن نجاحه برر مقدماً الحجج التى ردها الفيزيوقراطيون « أن نحكم حكما يسيرا معناه أن تحكم حكما صالحا » (حرية التجارة والصناعة وعدم تدخل الحكومة فيهما) . ووعد بوقف التضخم ، وأوفى بوعد . واتسعت التجارة الداخلية والخارجية ، وزاد الدخل . وحيث أنفق الإيرادات فى قصد أكيد بعيد عن التبذير ، وحد من نفقات مهرجانات الحاشية الملكية ، فإنه استطاع أن يلغى ضريبة الـ ٢ ٪ على الدخل بالنسبة لكل الطبقات ، وأن يخفف ضريبة الأملاك التى بهظت كاهل الفلاحين وأعاد إلى المدن الكبيرة والصغيرة الحق فى انتخاب موظفيها الرسميين واقتداء بالمثل الذى ضربه فليرى فى الاستقامة تحسنت أخلاق رجال البلاط على كره منهم .

وفى مقابل هذه المفاخر والمزايا تطل بعض المآخذ الجسيمة برؤوسها إنه رخص للملتزمين العامين فى الاستمرار فى جمع الضرائب دون تدخل من جانب الوزارة . وتعزيزا منه للمشروع الضخم الذى وضعه المحافظون ، أقر نظام السمخرة الذى فرض على الفلاحين العمل دون مقابل اللهم إلا الطعام . وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأستقراطية ، ولكنه قبض يده بشكل مغل غير حكيم بإهماله إصلاح البحرية والتوسع فيها ، وسرعان ما باتت تجارة

فرنسا ومستعمراتها تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية . إنه وثق ثقة عمياء في قدرته على المحافظة على السلام بينه وبين إنجلترا .

وطيلة حكم روبرت وولبول في إنجلترا نجحت سياسة السلام التي انتهجها الكاردينال . فإن الرجلين ، ولو أنهما كانا على طرفي نقيض في الخلق والطباع ، اتفقا على أن السلام أمر مرغوب فيه . على أنه في ١٧٣٣ ، حضره مستشاروه في الشؤون الخارجية على القيام بمحاولة فاشلة لاجلاس ستانسلز لركزنسكي ، وهو حمو الملك . على عرش بولندة ، ولكن ستانسلز اقترح اصلاح دستور بولندة وتشكيل حكومة قوية ، وآثرت كل من روسيا والنمسا أن تكون بولندة عاجزة مهينة الجناح ، فرفضتا هذا الاقتراح . وفي حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣ - ١٧٣٨) طردتا لركزنسكي من وارسو ثم من دانزج . ولما كان فليرى يعارض أى صراع خطير ، فإنه نصح ستانسلز بأن يلجأ إلى نانسي ولونفيل حاملا لقب « ملك اللورين » . ولم تقع الكارثة ، فإن لركزنسكي والدول اتفقوا على أنه عند وفاته تعود إلى فرنسا اللورين التي كانت فرنسية إلى أبعد حد . وهذا ما حدث في ١٧٦٦ .

وجاهد فليرى الذي كان في الثامنة والثمانين قدر طاقته المتضائلة ، أن ينأى بفرنسا عن حرب الوراثة النمسية (١٧٤٠) ، ولكن امرأة فرضت سلطتها عليه . ذلك أن فليسييتيه دي نسل مركيزة فنتميل ، التي كانت آنذاك تشارك الملك فراشه أصغت في بهجة وفرح إلى شارل أوجست فوكيه ، كونت دي بل أيل . حفيد المختلس البارع نيقولا فوكيه الذي كان لويس الرابع عشر قد أحسن صنعا بعزله . إن بل أيل هذا أبلغ المركيزة أن فليرى رجل هرم أحق ، وأنه في مهاجمة فردريث الثاني ملك بروسيا للملكة الشابة ماريا تريزا ملكة النمسا ، فرصة ذهبية لتزيق إمبراطوريتها ، وأن فرنسا ينبغي أن تنضم إلى فردريك ، وتقتسم الغنائم . وصبت العشيق الفاتنة هذه الكلمات في آذان الملك البولندي . وأقنعته بأن ينتزع زمام الأمور من بين يدي الكاردينال اللتين ترتعدان خوفا وجبنا ، ويستعيد مجد فرنسا .

وناشد فليرى بأن الشرف والمصلحة تحولان دون المضي في مشروع بل آيل .
فإن إنجلترا لن تسمح بتدمير النمسا لتصبح فرنسا عظيمة إلى حد يندب بالخطر .
وأن على فرنسا أن تدخل في حرب مع إنجلترا أيضا ، وأن فرنسا في خير حال
في السلم ! وفي ٧ يولية ١٧٤١ أعلن لويس الحرب على النمسا . وفي ٢٥
نوفمبر استولى بل آيل على براج ، واتفقت معه كل فرنسا تقريبا على أن
فليرى عجوز أحق .

وبعد عام في الحرب تخلى فردريك الماروغ عن فرنسا وعقد سرا هدنة
مع النمسا ، وإذا تحورت الجيوش النمسية على هذا النحو ، تقدمت إلى بوهيميا ،
وشرعت في تطويق براج . ولم تكن إلا مسألة وقت ، ليضطر إلى التسليم
بل آيل وجيشه المؤلف من عشرين ألف رجل ، أقص مضاجعهم وأزعجهم
الاهالي الذين أضمرؤا لهم العدااء . وفي ١١ يولية ١٧٤٢ أرسل فليرى إلى
القائد النمسى كونت فون كونيغزج نداء مدلا يناشده فيه شروطا معتدلة
للحامية الفرنسية ، قال فيه « يعلم كثير من الناس كم كنت أرض القرارات
التي اتخذناها ، وإنى أرغمت بطريقة ما على الموافقة عليها » (٨٨) فأرسل
كونيغزج الخطاب إلى مارياتريزا التي نشرته على العالم . وأرسل جيش فرنسى
لإنقاذ بل آيل ، ولكنه لم يصل إليه قط . وفي ديسمبر ترك بل آيل وراءه
سنة آلاف من المرضى والجرحى ، وغادر بقواته الأصلية براج إلى الحدود
عند ايجو ، ولكن عملية الفرار هذه حدثت في قلب الشتاء عبر مائة ميل
جبال ومستنقعات مغطاة بالجليد أو الثلوج ، ولم تنقطع غارات العدو عليهم
طيلة انسحابهم ، وهلك من الأربعة عشر ألف رجل الذين بدأوا هذه
المسيرة اثني عشر ألفا في الطريق ، وامتدحت فرنسا هذا الإنقاذ الرائع
بالارتداد المذهل . وتخلى فليرى عن الوزارة ، وآوى إلى الدير في اسى
حيث فارق الحياة (٢٩ يناير ١٧٤٣) وهو في سن التسعين .

وأعلن الملك أنه سيتولى رئاسة الوزارة بنفسه . منذ الآن

٥ - لويس الخامس عشر

عجبا : ماذا يكون شعور الإنسان عندما يكون ملكا وهو فى سن الخامسة ؟ ان الصبي الذى قدر له أن يحكم فرنسا طيلة تسعة وخمسين عاما ، كان لا يكاد يسترعى الانتباه أو الملاحظة فى طفولته المبكرة ، كان ضعيفا هزيلا ، يتوقعون أن يعاجله الموت بين آونة وأخرى . وفجأة فى ١٧١٢ توفى والداه دوق ودوقة برجندى بالجادرى ، وأصبح الصبي وريث العرش . وبعد ثلاث سنوات كان هو الملك .

وانتخذت كل الاحتياطات لجعله غير صالح للحكم . وقلقت مربيته مدام دى فتادور أشد القلق على صحته ، وعملت على وقايته من قسوة الجو ، وغرس فيه كاهن اعتراف يسوعى احتراماً رهيباً للكنيسة . وكان فليرى ، معلمه ومؤدبه ، كيسا متسامحا ، ويبدو أنه فكر فى أنه من الخير لفرنسا أن يكون ملكها كسولا بليدا . أما معلمه الخاص ماريتشال دى فيلاروا فقد دبر سماً عكسيا . حيث قاده إلى نافذة فى قصر التويلرى ليرى الجماهير التى احتشدت لتصفق وتهلل وتهتف له ، وهو يقول « انظر يا مولاي ، هذا الجمع وهؤلاء الناس كلهم لك تابعون لك . أنت ملكهم وسيدهم .^(٨٩) واقترنت القدرة على كل شيء بالعجز وعدم الأهلية لأى شيء .

لقد أفسد لويس هالة القداسة التى أضفوها عليه ، وكان أنانيا فى سلطته بليدا عنيدا ، ومن ثم نشأ شابا ضجرا صموتا ، مع التجاوز عن تجنبه مراقبة حراسه وفيما بعد تجنبه مراسم حاشيته وخنوعها ليجد متنفسا فى الحفر على الحشب وشغل الأبرة وحلب البقرة واللعب مع الكلاب .^(٩٠) إن عناصر القسوة التى تكمن فىنا جميعا تمكنت عنده من أن تظهر إلى السطح من خلال جنبه . ويروى أنه كان فى صباه يجد للذة فى صيد الحيوانات بل قتلها .^(٩١) وفى سننى نضجه هذب من هذه القسوة إلى مجرد الصيد ، وربما برزت فى سوء معاملته ، وسرعة نبذه للبنات اللاتى شاركنه فراشه بعد تدريبهن على ذلك فى « متنزه الأطباء » على أن معاملته

لأصدقائه تميزت بقدر من الحساسية المقرونة بالحدس والحجل ومراعاة شعورهم وحقوقهم .

وكان له ذهن سليم ، كان من الممكن أن يتفوق لو أن الاخلاق ساندته ودعمته . وأدهش الجميع بقوة ذاكرته وسرعة بديهته . وكان بطبيعته يؤثر الألعاب على الدرس . ولكنه استوعب بعض التعليم الصحيح في اللاتينية والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والفنون العسكرية . وشب فارغ الطول نحيل القوام ، ولكن عريض المنكبين ، مع بشرة جميلة وشعر ذهبي متجدد . وقال عنه « اريشال دى ريشيلوانه » أكثر الصبية وسامة وملاحة في مملكته » (٩٢) . يحتفظ متحف فرساي بصورة رسمها له فانلر ، وهو في الثالثة عشرة بالسيف والدرع ، مما يكاد يتلاءم مع الوجه الصبياني . وقارنه رينيه لوس دى أرجنسون باله الحب عند اليونان « ابروس » (كيوييد عند الرومان) . ووقعت النساء في غرامه لأول نظرة . وحين مرض في ١٧٢٢ وصلت كل فرنسا من أجله ، وعندما أبل من مرضه بكت كل فرنسا فرحا وابتهاجا . إن هذا الشعب الذي كثيرا ما عانى وقاسى من ملوكه طرب وابتهاج لما راوده من أمل في أن الشاب سرعان ما يتزوج وينجب ابنا يحفظ العرش في الأسرة الكريمة العريقة .

والحق إنه كان قد خطب (١٧٢١) وهو في سن الحادية عشرة ، ماريانا فكتوريا ، وعمرها عامان ، ابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا . وكانت قد انتقلت إلى باريس ، وكانت الآن تنتظر أن تبلغ سن الزواج . ولكن مدام دى برى رأت أنها قد تستطيع الاحتفاظ بنفوذها المترديد بفسخ هذا القران المرتقب ، وتزويج لويس من ماري لزنسكى ابنة ملك بولندة المخلوع . وشرعت في تنفيذ خطتها ، وأعيدت الأميرة إلى أسبانيا (١٧٢٥) وتلك إهانة لم يغتفرها البلاط الأسباني قط . وكان ستانسلاس في مأواه في ويزمبيرج في الألزاس حين تلقى طلب ملك فرنسا يد ابنته ، فدخل إلى الحجرة التي كانب ابنته وأماها تملان فيها وقال « فلنسجد شكرا لله » . فتعجبت ماري فرحة مبتهجة وقالت « أبى العزيز ، هل دعيت ثانية لارتقاء

عرش بولندة ؟ « فأجاب ستانسلاس » بل إن الله من علينا بتعمة مذهلة أكثر . لقد أصبحت ملكة فرنسا « (٩٣) إن مارى لم تكن تحلم قط بارتقاء أعظم عرش في أوربا . وكانت قد رأت صور لويس الخامس عشر ، شابا يكللة المجد والرفعة ، وسيما قوياً ، إلى أبعد حد . وأرسلت إليها الخزانة الفرنسية الأردية والثياب والملابس الداخلية والأحذية والقفازات والمجوهرات ، ووعدتها بمائتين وخمسين ألف جنيه لدى وصولها إلى فرساي ، وبرات سنوى قدره عشرون ألف كراون ذهباً مدى الحياة . وتلقت مارى هذا كله في ذهول وهي لا تكاد تصدق ، واتجهت إلى الله بالشكر على حظها السعيد . وفي ١٥ أغسطس ١٧٢٥ عقد قرانها على الملك بتوكيل في ستراسبورج ، وسارت فرحة إلى باريس عبر طرق تجتاحها العواطف لعدة أيام قاسية . وزفت إلى الملك في فونتينبلو في ٥ سبتمبر . وكان هو في الخامسة عشرة . وكانت هي في الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تكن جميلة ، بل طيبة فقط .

أما لويس الذى لم يكن قد أبدى بعد ولعاً بالنساء ، فإنه أفاق عندما مس عروسه المتواضعة ، وعانقها في حرارة أدهشت حاشيته ، وكانت حياتهما لبعض الوقت مثالا للحب والسعادة ، وحظيت باحترام الناس وولائهم ، ولكنها لم تكن يوماً ذات شعبية أو محبوبة . وكانت لطيفة ودودة رقيقة حساسة ، لا تعودها الدعابة المرحية ، ومع ذلك افتقدت فرساي فيها الدهن المتوقد والحديث المرح المفعم بالحياة . مما أصبح لزاماً أن تتحلى به سيدات البلاط . وصعقت مارى لأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية ، ولكن نقدها لها لم يجاوز أنها ضربت مثلاً للزوجة الأمينة المخلصة الحريصة على اسعاد زوجها وعلى ايجاب وريث له . وعلى مدى اثني عشر عاماً وضعت عشرة أطفال ، وفي سنوات أخرى عانت كثيراً من الاجهاض . وكان أشباع شهوة الملك معضلة واجهت الملكة . أنها توسلت إليه أن يتعفف ويستعصم ، على الأقل أيام الاحتفال بأعياد كبار القديسين ، وأصيبت في غمرة جهودها وواجباتها « بناسور » خبيث ، والتمست « الحرارة » التي تضطرم بين جنبي

الملك منافذ أخرى . وكان عرفاتها بحسن صنيع مدام دى برى والدوق دى بوربون محنة ابتليت بها وأصغت في صبر ناقد حين هاجم الدوق بوربون فليرى في حضرة الملك . وعندما تولى فليرى زمام السلطة أرسل بناتها إلى دير ناء بحجة الاقتصاد في النفقات . ورجع نفوذه المتزايد من كفة أعدائها . ولما زاد فتور الملك نحوها آوت إلى حلقة محدودة من أصدقائها ، ولعبت الورق ونسج البسط ، وحاولت الرسم ، ووجدت بعض السلوى والعزاء في التقوى وأعمال البر . « وعاشت حياة الدير والرهبة وسط انفعالات الحاشية وعيها » (٩٤) .

وكان ينبغي للملك أن يلهو ويتسلى ، ولكن مدام دى برى كانت قد اختارت له زوجة غير مسلية . على أنه لم يتخذ خلية إلا بعد سبعة أعوام من زواجه ، وعند ذاك اتخذ أربعاً على التعاقب ، مع قدر محدود من الاخلاص ، لأنهن كن أخوات . ولم يكن رائعات الجمال ، ولكن كن جميعاً نشيطات مسليات مفعمات بالحيرة ، وكن جميعاً ما عدا واحدة ذرات خبيرة بأساليب الفنج والدلال والعبث . وواضح أنه كان للويزا دى نسل كونتيسة دى ميللى الشرف في أن تكون سبابة إلى إغراء الملك واغوائه (١٧٣٢) . أنها ، مثل لويزا دى لافالير ، أحلصت في حبها لعشيقها الملوكى ، ولم تكن تسعى للثراء أو السلطة ، وكل ما سعت إليه هو أن تسعده . فلما زاحمتها أنختها فليسييتيه ، وكانت لتوها قد غادرت الدير ، على مخدع الملك ، فإن لويزا شاوكتها في لويس (١٧٣٩) في قران رباعى مهرطق — لأنه ظل يتردد على الملكة . وأزعج هذا التعقيد ضمير الملك ، وتجنب تناول القربان المقدس ، لفترة من الوقت ، بعد أن سمع قصصاً رهيبية مفزعة عن أناس كانوا قد تناولوا القربان في فم آثم خاطئ . (٩٥) إن هذه المرأة المغوية الخطرة (السيرانه : عند الإغويق كائن أسطورى له رأس امرأة وجسم طائر ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك) — كما تروى إحدى أخواتها « كان لها شكل الغرناد (سملك بحرى) وعنق الغرنوق (طائر ذو عنق طويل) ورائحة القرد » (٩٦) . ومع ذلك احتالت

التحمل . وحفاظا على ماء الوجه وآداب المجتمع أوجد لها لويس زوجا ، وعينها مركيزة فتميل . وفي ١٧٤٠ آوت مدام دي ميللى إلى أحد الأديار ، ولكنها غادرته بعد عام واحد لترعى منافستها المتصرة التي كانت تعاني سكرات الموت أثناء الولادة (١٧٤١) . ويكى الملك وبكت مدام دي ميللى معه . ووجد بعض العزاء بين ذراعها ، وعادت عشيقه له من جديد .

وثمة أخت ثالثة ، أدليد نسل ، البدينة اللعيمة ، وكانت بارعة ذكية ، عملت على تسليّة الملك بحركاتها الجسدية وسرعة بديتها وأجوبتها السريعة . واستمتع الملك بها ، ووجد لها زوجا ، وظل على علاقته بها . أما الأخت الرابعة ، مدام دي فلافاكور ، فإنها صدت الملك وصادقت الملكة . ولكن الأخت الخامسة ، أقدر من جميعاً ، هي ماري آن دي نسل دي لاثورنل ، أقنعت مدام دي ميللى بأن تقدمها للملك . ولم تغر ماري قلب الملك فحسب ، بل إنها أصرت كذلك على أن تكون المحظية الوحيدة ، وأقصيت ميللى فقيرة معدمة ، وهوت بين عشية وضحاها من أبهة الملكية إلى كآبة الدير . وهكذا أزاحت كل من الأخوات من بنات نسل أختها لها . وبعد ذلك بقليل كانت ماري تشق طريقها لتصل إلى مقعدها في كنيسة نوتردام ، فكان في هذا ازعاجا للجماعة من المصلين ، وتذمر أحدهم قائلا : « كل هسله الضجة من أجل بنى فاجرة : » فقالت هي « سيدى ، ما دمت عرفتني جيدا فأرجو أن تمن على بالصلاة لله من أجلى . » (١٧) « ولا بد من أن الله سبحانه وجد من اليسير أن يغفر لها .

وكانت السيدة نسل الجديدة أجمل الأخوات . إن الصورة التي رسمها لها ناثييه - وجه وسيم ، صدر بارز منتفخ ، قوام رشيق ، في ثوب من حرير مهفوف متموج يكشف عن قدمين صغيرتين رقيقتين - لتفسر شدة اندفاع الملك نحوها وميله إليها . وإلى هذا كله كانت تجمع ذكاء متقددا قدر بريق عينيها . وعلى النقيض من دي ميللى كانت ماري تتلهف على الثروة والسلطان . وقدرت أن نفقاتها تستحق أن يكون لها دوقية شاتورو

التي تدر ٨٥ ألف فرنك في العام ، فحصلت عليها وعلى لقب دوقه (١٧٤٣) . ودخلت التاريخ لمدة عام .

وتحيز لها وساندها حزب قوى في البلاط ، كان يأمل في استخدام نفوذها في كسب الملك إلى جانب سياسة عسكرية فعالة ، تعود فيها سلطة الحكومة من البيروقراطية البرجوازية إلى النبالة العسكرية (نبلاء السيف) وكان لويس في بعض الأحيان ، شعورا منه بالواجب ، ينهمك في العمل مع وزرائه ، ولكنه على الأغلب كان يفوض إليهم سلطاته وواجباته . ونادرا ما اجتمع بهم ، أو عارضهم ، وأحيانا وقع مراسيم اقترحها أو عرضها عليه أعوان متنافسون . وهرب من قواعد التشريفات في البلاط إلى كلابه وجياده وإلى الصيد والقنص . فإذا لم يخرج يوما للصيد قال رجال الحاشية « أن الملك لا يفعل شيئا اليوم » . وعلى الرغم من أنه لم تعوزه الشجاعة ، فإنه لم يكن يميل إلى الحرب ، وكان يؤثر الفراش على الخندق .

وفي الخندق وفي حجرة الجلوس حرضت الدولة الشهوانية اللعوب — مستعيدة ذكرى أجنيس سوريل — الملك على القيام بدور فعال في الحرب ضد إنجلترا والنمسا . وصورت له لويس الرابع عشر يقود جيشه إلى الهجد والعظمة في مونزونامور ، وتساءلت : لماذا لا يتألق لويس الخامس عشر الوسيم الشجاع في درعه وسيفه على رأس جيشه ، مثلما كان يفعل جده العظيم . ونجحت الحطة ، وماتت الدوقة منتصرة . وأفاق الملك الكسول لحظة من سباته . وربما كان نتيجة لاستحثاثها وتحريضها ، إنه عندما حانت منية فليرى المسالم ، أعلن لويس أنه سيحكم ويملك معا . وفي ٢٦ أبريل ١٧٤٤ استأنفت فرنسا الحرب الفعلية ضد النمسا ، وفي ٢٢ مايو تجدد التحالف مع فردريك ملك بروسيا الذي بعث بشكره وامتنانه إلى مدام شاتوره . وتقدم لويس إلى الجبهة في أبته الملكية وتبعه بعد يوم واحد خيلياته وسائر سيدات البلاط ، تحيط بهن كل مظاهر البذخ والترف المألوفة ، وكسبت القوات الفرنسية الرئيسية التي يقودها الملك ، ولكن يخطط عملياتها

أدريان موريس دي نواي وموريس دي ساكس ، انتصارات يسيرة في كورتراي ومنان وأبيرس وفورنيس . وبدا وكان لويس الرابع عشر والقرن العظيم ولدا من جديد .

ووسط المهرجانات والابتهاجات ترامت الأنباء بأن قوة فرنسية تخلى عن مساندتها إلى حد كاف حلفاءها البافاريون ، كانت قد هيات الفرصة لجيش نمسوى مجرى أن يحتل أجزاء من الألزاس واللورين ، مما اضطر معه ستانسلال الذي لم يفارقه سوء الطالع ، إلى الهرب من لوفيل . وترك لويس فلاندرز وأسرع إلى متز أملا في استثارة هم الجيش المنهزم بوجوده . ولكنه ، هناك ، نتيجة المشاغل المتنوعة وسوء الهضم وحرارة أراسط الصيف ، انتابه مرض شديد ، وازدادت الحالة سوءا بسرعة إلى حد أنه في ١١ أغسطس ظن أن في خطر من أن يهلك ، وكانت خليلته قد لحقت به ، وهي الآن تسهر على العناية به ورفض أسقف سواسون أن يناوله الأسرار المقدمة الأخيرة إلا إذا طردت الدوقة . واستسلم لويس ، وأقصاها إلى نحو ١٥٠ ميلا بعيدا عن الحاشية (١٤ أغسطس ١٧٤٤) وشيعها الأهالي بصيحات الاحتقار والاستنكار وهي تغادو المدينة .

وفي الوقت نفسه كانت ماري لوكزنسكي قد عجلت بالسفر عبر فرنسا لتكون إلى جانب زوجها وهو طريح الفراش . وعلى الطريق التقى ركبها بعربة شاتورو وبطانتها . وعانق الملك الملكة قائلا « لقد سببت لك مالا تستحقين من الحزن والأسى ، وأرجو أن تغتفرى لي هذا كله » . فكان جوابها « ألا تعرف أنك لست في حاجة أبدا إلى الصفح من جانبي . إن الخطأ في حق الله وحده » . وعندما بدأ الملك يسترد صحته كتبت الملكة إلى مدام دي موريا بأنها « أسعد مخلوقة على وجه الأرض » . واغتبطت فرنسا كلها أيما اغتباط بشفاء الملك وندمه على ما فات ، وعانق المواطنون بعضهم بعضا في الشوارع ، وعانق بعضهم جواد الرسول الذي حمل هذه الأنباء السارة . واطلق بعضهم على الملك « لويس المحبوب جدا » ورددت الأمة هذه العبارة . وعندما سمع بها لويس تعجب قائلا « ماذا فعلت لأجعلهم يحبونني إلى هذا الحد ؟ » (٩٨) إنه كان رمز الوالد لشعبه .

وأنقذ فردريك الألزاس لفرنسا بغزو بوهيميا ، فإن الجيش النمساوى
المجرى ترك الألزاس لإنقاذ براج . وانضم لويس ، وهو لا يزال ضعيفا إلى
جيشه المتقدم نحو ألمانيا ، وراه يستولى على فريبورج - أم بريسجو . وفي
نوفمبر عاد الملك إلى فرساي ، وأعاد مدام دي شاتورو إلى سابق حظوتها
ومكانتها ، ونفى أسقف سواسون . ولكن في ٨ ديسمبر ، وبعد أن عانت
من الحمى والهذيان لعدة أيام ، قضت الخلية نحبها . ودفنت في ظلام الليل ،
تفاديا لامتهان الجمهور لرفاتها . واستاء الملك من رجال الدين فامتنع عن
تناول الأسرار المقدسة في عيد الميلاد ، وظل يترقب غراما جديدا .

ونسيت الأمة لبعض الوقت خطايا « المحبوب جدا » وسط انتصارات
جيشه ، وكان قائد ألماني بروتستانتى هو بطل فرنسا . ذلك أن موريس
دى ساكس كان ابن أوجسطس القرى ناخب مكسونيا وملك بولندية .
وكانت أمه هي الكونتس ماري أورورا فون كونجز مارك التى اشتهرت
بين محظيات الملك بالجمال والذكاء إلى حد أطلق معه فولتير عليها « أنها
أشهر امرأة على مدى قرنين من الزمان » (٩٩) . وفي سن الثانية عشرة تزوج
موريس من جرهانا فكتوريا ، كونتيس فون لوين ، وكانت سيئة الخلق
مثل أبيه . وبدد ثروتها واستنكر دعارتها وفجورها وطلقها (١٧٢١) .
وبعد أن أظهر شجاعته في حملات كثيرة قصد إلى باريس لدراسة الرياضيات .
وفي ١٧٢٠ حصل على منصب في الجيش الفرنسى . وبعد أن نجح من كل
محاولات زوجته السابقة لقتله بالسهم ، عثر على خلية مخلصه في شخص
أدريين لكوفرير التى برزت مكانتها في الكوميدي فرانسيز آنذاك
(١٧٢١) . وفي ١٧٢٥ غادر فرنسا ليؤسس له مملكة في كورلند (جزء
من لتفيا الحالية) . أما الممثلة العظيمة ، فإنها على الرغم من حزنها الشديد
على فقد حبيبها ، منحته ، عوناً له على تنفيذ مشروعه ، كل ما لديها من
من فضة وحلى ومصوغات ، قيمتها أربعون ألف جنيه . وبهذا المبلغ ،
بالإضافة إلى سبعة آلاف طالير (عملة فضية ألمانية قديمة) من والدته ،
قصد إلى كورلند ، وانتخب لعرش الدوقية (١٧٢٦) . ولكن كاترين

الأولى قيصرية روسيا وأياه ساندا مجلس الديت البولندى فى مناهضة ارتقائه العرش ، وطردت القوات البولندية من كورلند ، الجندى الذى لم يكن ليقهر لولا هذه المقاومة ، ولما عاد إلى باريس (١٧٢٨) وجد أن الممثلة الكبيرة كانت تنتظره مخلصه له ، ولكنه كان قد ورث عن أبيه خلقه وتقلبه ، ورضى بها صاحبة الخطوة الأولى بين عشيقاته .

ومع هذا الانحلال الخلقى الجدير بالازدراء وتقلبه بين أحضان النساء الواحدة بعد الأخرى دون أن يبادهن اخلاصهن ، أصبح موريس فى ميدان القتال عبقرى لا يجارى فى استراتيجية الحرب ، جريئاً فى تفكيره ، يقظاً لئى خطر يهدده ، وأية فرصة تسنح له . وقال عنه فردريك الأكبر مناسه الوحيد فى ذاك العصر إنه « قادر على تلقين الدروس لئى قائد فى أوربا » (١٠٠) وفى ربيع ١٧٤٥ عين قائدا عاما للجيش الفرنسى ، وصدرت إليه الأوامر بالتقدم نحو الجهة . وكان على شفا الموت آنذاك فى باريس ، حيث أنهكه إفراطه فى الشراب وآلام داء الاستسقاء المبرحة ، وسأله فولتير كيف يذهب إلى ميدان القتال فى مثل هذه الحالة ، فأجابه موريس « ليس المهم أن أعيش ولكن المهم أن أبدأ » . (١٠١) . وفى ١١ مايو التحم بجيشه البالغ ٥٢ ألف رجل مع قوات الإنجليز والهولنديين البالغ عددهم ٤٦ ألفا من الرجال الأشداء ، فى فونتنوى . وكان لويس والدوفين يتابعان سير المعركة الشهيرة على ربوة قريبة ، أما موريس الذى أقعده الاستسقاء عن ركوب الخيل ، فكان يديرها وهو على كرسي من الأغصان المجدولة . ويروى لنا فولتير ، فما كان يمكن أن يتطور إلى أسطورة وطنية ، (١٠٢) أنه عندما أصبح مشاة الأعداء وجهاً لوجه على مرمى البنادق ، صاح لورد تشارلز هاى قائد الحرس الإنجليزى « أيها الفرنسيون أطلقوا النار » فأجابه كونت دى أنتروخ عن الفرنسيين « أيها الرجال ، نحن لن نبدأ بإطلاق النار ، فهل تبدأون أنتم » (١٠٣) وأيا كان الأمر كياسة أو خدعة حربية ، فإن الثمن كان غاليا ، حيث قتل بالطلقات الأولى تسعة ضباط و ٤٣٤ من المشاة ، وجرح ٣٥ ضابطا و ٤٣٠ جنديا . (١٠٤) واضطرب المشاة الفرنسيون وتفرقوا وولوا الأدبار . وأرسل موريس إلى الملك يعرض عليه الانسحاب ، فأبى لويس ، حتى حين وصل

إلى مكانه الجنود العائدون ، وربما أخرجهم تصميمه . فما كان من موريس إلا أن امتطى صهوة جواد ، وأصدر أوامره إلى قواته من جديد وأعاد تنظيمها ، وأطلق القوات الملكية الخاصة على العدو . وقد رأى الفرنسيون ما يمكنهم في خطر الأسر أو الهلاك ، وحيث شجعهم وجود ماريشال دى ساكس المتهور تحيط به طلقات النار من كل مكان في أية لحظة ، فإنهم جددوا القتال ، وأبدى النبلاء والعامّة بطولة عظيمة مشربة بروح الانتقام في ساحة المجد . وأخيرا هزم الإنجليز واختلت صفوفهم ، وأرسل موريس إلى الملك يبشره بالفوز في هذا الالتحام المرير . وفقد الإنجليز والهولنديون ٧٥٠٠ رجل ، والفرنسيون ٧٢٠٠ . وحنى لويس رأسه خجلا حين حياه الجنود الباقون على قيد الحياة . والتفت إلى الدوفين ولى العهد قائلا « انظر يا بنى كم يكلف النصر ، احرص على أن تكون ضنينا بدماء رعاياك » (١٠٥) . وبينما عاد الملك ومرافقوه إلى فرساي ، تقدم موريس للاستيلاء على غنت وبروجز وأودينارد وأوستند وبروكسل . ودانت الفلاندرز كلها لفرنسا فترة من الزمن .

وضيع فردريك نتايج فونتنوى بتوقيعه صلحا منفردا مع النمسا (ديسمبر ١٧٤٥) وتركت فرنسا تقاتل وحدها على ست جهات من الفلاندرز إلى إيطاليا . وبمقتضى معاهدة إكس لاشابل (١٧٤٨) تخلت عن الفلاندرز ، وكان عليها أن تقنع بالحصول على دوقيات بارما وبياشنزا وجوستالا لصهر لويس الجديد (زوج ابنته) الأمير دون فليب الأسباني . وعاش موريس أوف سكوسونيا حتى عام ١٧٥٠ ، غنيا معززا مكرما ، ومثقلا بالأمراض . وكان يجد فسحة من الوقت ، بين الغواني ، ليلون بعض نظرات فلسفية حاملة : « ماذا نرى اليوم في الأمم ! نفر من الناس يعيشون في فراغ وسرور وجدة على حساب الجماهير التي لا تعيش إلا على توفير ملذات جديدة دوما لهذه القلة من الناس . إن هذه المجموعة من الظالمين والمظلومين تشكل ما نسميه مجتمعا » (١٠٦) .

وتجاسر رجل آخر من القلة المرموقة المنعمة على أن يحلم بنظام أرحم وأكرم . ذلك أن رينيه لويس دى قوايه ، مركزيز أرجنسون الذى تولى منصب وزير الخارجية لمدة ثلاث سنوات (١٧٤٤ - ١٧٤٧) ، كتب فى ١٧٣٩ « تأملات فى حكومة فرتسا » ، ولم يجرؤ على نشره إلا فى ١٧٦٥ . وجاء فيه أن هؤلاء الذين يفلحون الأرض هم أعظم قطاع فى السكان قيمة ، وينبغى أن يتحرروا من كل الرسوم والالتزامات الإقطاعية ، والحق أنه يجدر بالحكومة ، أن تقرض صغار الفلاحين أموالا لتساعدهم على الاتفاق على زراعاتهم^(١٠٧) . والتجارة حيوية لازدهار الأمة ويجب تحريرها من المكوس والرسوم الداخلية ، بل من رسوم التصدير والاستيراد كلما أمكن ذلك . والنبلاء هم أقل العناصر قيمة فى الدولة ، أثبتوا عجزهم فى الإدارة ، وهم عالة على المجتمع . وإذا قال أحد بأن هذه المبادئ تتفق مع الديمقراطية ، وتميل إلى القضاء على طبقة النبلاء فلن يكون مخطئا . ولأنه ليصدر بالتشريع أن يهدف إلى أكبر قدر ممكن من المساواة . وينبغى أن يحكم الكوميونات موظفون ينتخبون محليا ، على أن تبقى السلطة المطلقة الرئيسية فى يد الملك ، لأن الملكية المطلقة وحدها هى القادرة على حماية الناس من ظلم الأقوياء^(١٠٨) . واستبق دى أرجنسون الفلاسفة فى التطلع إلى الإصلاح على يد ملك مستنير ، وقص على النبلاء ما لم يعترفوا به إلا فى ٤ أغسطس ١٧٨٩ حين تنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية ، ومن ثم كان مرحلة فى طريق فرنسا إلى روسو وإلى الثورة .

وفى ١٧٤٧ استسلم لويس لتحريض نواى ومورباس وبمبادور وعزل دى أرجنسون . وفقد المركز ثقته فى الملوك . وفى ١٧٥٣ تنبأ بما حدث فى عام ١٧٨٩ : « إن المسارئ والشرور الناجمة عن الحكومة الملكية الاستبدادية لتقنع كل فرنسا وكل أوربا بأنها أسوأ الحكومات وإن هذه الفكرة لتبرز وتنتشر وتزداد قوة ، وقد تؤدى إلى ثورة وطنية . . . وكل شئ يمهّد الطريق إلى حرب أهلية . . وأذهان الناس مهيأة للتمرد

والعصيان ، ويبدو أن كل شيء يتجه إلى ثورة كبرى في الدين والحكومة معاً (١٠٩) .

أو كما قالت خليعة الملك الجديدة « من بعدى الطوفان » .

مدام دي بمبادور

هي من أشهر النساء في التاريخ ، وأوتيت من الرشاقة والجمال ما أعمى أبصار معظم الرجال عن آثامها وخطاياها ، ومع ذلك وهبت من قوة الذهن ما مكّنها لمدة عقد زاهر من السنين ، من أن تحكم فرنسا وتحمي فولتير وتنقذ موسوعة ديدرو ، مما أدى بالفلاسفة إلى القول بأنها تنسب إليهم . . ومن العسير أن ننظر إليها في الصورة التي رسمها لها بوشيه دون أن نفقد نزاهة المؤرخ في الافتتان بالإنسان . فهل كانت دي بمبادور إحدى روائع الطبيعة ، أو إحدى روائع بوشيه فحسب ؟

وكانت قد بلغت الثامنة والثلاثين حين رسمها ، وكانت صحتها الهزيلة تتدهور ، ولم يحط من قدرها بالحسبة أو الشهوانية السطحية في صوره العارية المشرقة . وبدلاً من ذلك أبرز تقاطيع وجهها الرائعة ، ورشاقة قوامها ، والدوق في ملابسها . والرقعة الناعمة في يديها ، « وتسريحة » شعرها الخفيف الأسمر عالياً فوق الجبين . وربما زاد من قيمة هذه المفاتن بخياله ومهارته ، ولكنه مع ذلك لم ينقل ضحكها المرححة المستهجرة ، ولا ريحها الوديعة ، بل لم ينقل ذكاءها الحاد الماكر ولا قوة شخصيتها الهادئة ، ولا صلابتها لإرادتها التي لا تلين ولا ترحم أحياناً .

وكانت جميلة منذ ولادتها تقريباً . ولكنها لم تحسن اختيار والديها ، فكان عليها أن تناضل طوال حياتها ضد إزدراء الاستقراطية للطبقة الوسطى التي نبتت فيها . وكان والدها سمانا (بقالا) ، وهو فرنسوا بواسون الذي لم يستطع يوماً أن يتخلى من اسمه « السيد سمك » (بواسون بالفرنسية معناها سمك) . وأنهم بالاختلاس فحكم عليه بالاعدام سناً ، ولكنه هرب إلى همبرج ، وتحايل للحصول على العفو عن جريمته ، وعاد إلى باريس

(١٧٤١) . أما والدتها فكانت ابنة « متعهد لتموين العجزة . » وشغلت بالارتقاء في أحضان الرجال ، بينما كان زوجها يستدر العطف في همبرج . واستمتعت بعلاقة غرامية طويلة بملزم ثرى ، هو شارل فرنسوا لينورمانت دى تورنيم ، الذى تولى الاتفاق على تعليم البنت الجميلة التى وضعتها مدام بواسون فى ١٧٢١ .

وأتيح لهذه الابنة ، جين أنطوانيت بواسون . أحسن ما يمكن أن يتاح من المعلمين ، جليوت ، ألجير العظيم ، للغناء ، وكريون الأب لفن الإلقاء ، حتى باتت فى الوقت المناسب تنافس نجوم المسرح فى الغناء والرقص والتمثيل . وكان صوتها فى حد ذاته اغواء . (١١٠) وتعلمت الرسم والحفر ، وعزفت على البيان القيثاري إلى حد تحمست له مدام دى ميللى فى استحسان عزفها . ولما كانت جين فى التاسعة من عمرها ثبأت لها سيدة عجوز (كافاتها فيما بعد على نبوءتها) بأنها ستصبح يوما ما « عشيقة الملك » (١١١) ولما بلغت الخامسة عشرة دعا جمالها وأعمالها البارعة أمها إلى القول بأنها « طبق شهى لملك » ، ولو أنه من المؤسف أنها لن تكون ملكة . (١١٢) ولكن « الطعام الشهى الملكى » كانت قد بدأت تسعل دما .

وفى سن العشرين أغراها مسيودى تورنيم بأن تزوج ابن أخيه شارل غليوم لينورمانت دى اتوال ، ابن أمين صندوق دارسك النقود . وهام الزوج يحب زوجته ، وقدمها إلى المنتديات مفاخرًا مزهو بها . والتفت فى منتدى مدام دى تنسان بمونتسكيو وفونتنيل وديكلو وماريفو ، وأضافت فن الحديث إلى مفاتها الأخرى . وسرعان ما استضافت هى نفسها ، مع فونتنيل ، مونتسكيو وفولتير فى بيتها . وكانت سعيدة . وأنجبت طفلين وأقسمت « أنه لن يحملها أحد فى العالم ، إلا الملك ، على أن نخون زوجها أو تكون غير مخلصة له » (١١٣) أية بصيرة نافذة هذه !

وفكرت الوالدة فى أن هذا الاستثناء من المستطاع تدبيره . ورأت أنه يمكن أن تقصد جين مستقلة مركبة فاخرة إلى غابات سينار حيث يذهب لويس للصيد . وكثيرا ما رأى الملك وجهها الذى لا يمكن نسيانه . وقدمت

الرشاوى إلى غلمان الملك ليطروا جمالها له . وفى ٢٨ فبراير ١٧٤٥ شهدت حفلة رقص تنكرية أقيمت فى أوتيل دى فيل بمناسبة زواج الدوفين ، وتحديث إلى الملك ، وطلب منها أن تخلع القناع لحظة ، ففعلت ، ثم انصرفت وهى ترقص ، وفى أبريل رآها فى مسرحية هزلية تمثلها فرقة إيطالية فى فرساي . وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إليها دعوة لتناول العشاء . ونصحتها أمها « بأن تسلى الملك رتدخلى السرور على قلبه » وفعلت جين ، واستسلمت للملك . وعرض عليها جناحا فى فرساي فقبلت . وحث مسيو تورنهم الزوج على أن يأخذ المسألة بروح فلسفية : « لا تعرض نفسك للسخرية بالاسترسال فى الغضب مثل أى برجوازي ، أو بخلق مشكلة (١١٤) وعين الملك سيودى أتوال ملتزما عاما ، وكيف الرجل نفسه ليكون جامع ضرائب ، وابتهجت الأم بارتفاع مكانة ابنتها ، وقضت نحبها . وفى سبتمبر حصلت جين على ثروة عريضة ، وأصبحت المركيزة دى بمبادور ، وقدمت بهذه الصفة إلى الحاشية وإلى الملكة التى هدأت من روعها ولاطفها فى ارتباك طفيف . إن الملكة غفرت لها باعتبارها شرالابد منه ، ودعتها للعشاء . أما الدوفين فإنه ، على أية حال ، أطلق عليها « مدام هور » (السيدة البغى) واستاءت الحاشية لاقتحام سيدة برجوازية مخدع الملك واستيلائها على أمواله ، وما فاتهم أن يلحظوا انزلاقها من حين إلى حين إلى التفوه بألفاظ الطبقة الوسطى أو انتهاج أساليبها . وتمتعت بباريس بالمقطوعات الساخرة والهجاء اللاذع « لخادمة الملك الشابة » . وعانت فى صمت وجلد بغض الناس لها ، حتى باتت قادرة على تثبيت انتصارها وفرض سلطتها .

وإذ رأت لويس وقد بلغ به السأم والضجر ذروته ، وهو الذى يملك كل شيء ، ولكن كل شيء كان قد فقد عنده كل نكهته وطلاوته ، فإنها تفننت وأظهرت عبقريتها فى تسليته والترفيه عنه . فألته بحلبات الرقص والمسرحيات الهزلية والحفلات الموسيقية وروايات الأوبرا ، وحفلات العشاء والتزهات والصيد والقنص ، وفيما بين هذا وذاك أدخلت على قلبه البهجة والسرور بمرحها وحيويتها وحديثها البارع وذكاها . وأقامت فى فرساي

« مسرح البيت الصغير » ، وأقنعت الحاشية بالقيام بأدوار على المسرح ، كما كان الحال في أيام لويس الرابع عشر ، ومثلت هي نفسها في مسرحيات موليير الهزلية ، وقامت بدورها على خير وجه ، إلى حد أن الملك قال عنها « أشد النساء فتنة في فرنسا » (١١٥) . وتنافس النبلاء على تمثيل الأدوار . وقام الدوفين الصارم نفسه بدور أمام « السيدة البغي » . وتفضل بأن يكون دمثاً معها في دنيا النفاق . وأصاب الملك بعض نوبات دينية ، فهدأت من روعه بالموسيقى الدينية التي عزفها بشكل يأسر ليه ، حتى نسي مخوفه من الجحيم . وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد لولعه بالحياة وتعلقه بها ، فأكل معها ، ولعب ورقص وقاد عربته واصطاد معها ، وقضى معها كل ليلة تقريباً . وما هي إلا بضعة سنين حتى نحاتت قواها وتدهورت صحتها .

وشكا البلاط من أن مدام دي بمبادور صرفت الملك عن مهامه بوصفه حاكماً ، وأنها كانت عبثاً ثقيلاً على خزانة الدولة ، فقد ازدانت بأغلى الثياب والجواهر ، وتألقت غرفة ملابسها بآنية الزينة المصنوعة من البللور والفضة والذهب . وازدانت حجراتها بالأثاث المطلى باللك أو الخشب الأطلساني أو المطعم بالصدف والعاج والمعادن ، وأروع آنية الخزف المصنوعة في درسدن وسيفر والصين واليابان ، وكانت تضاء بثريات فخمة من الفضة والزجاج ، تنعكس أنوارها على مرايا ضخمة على الجدران ، أما سقفها فكانت مغطاة بالصور التي رسمها بوشية وفانلو لإلهات الحب التي تهيج الحواس وتثيرها . ولما أحست بأنها سيجنة وسط هذا الترف والبذخ ، صعبت مبالغ طائلة من المال من الملك أو من الخزانة لتشييد أو تؤثت قصوراً وبررت تجهيزاتها المرفقة وحدائقها الشاسعة بأنها لازمة لاستضافة صاحب الجلالة . وكان لها الضيعة والقصر في كريسي في دري ، وشادت قصر « المنظر الجميل » الفخم على ضفاف السين بين سيفر ومودون . وأقامت صوامع أو أدياراً صغيرة في غابات فرساي وفونتنبلو وكومبيين واتخذت من « أوتيل دي بونشارتران » مقراً لإقامتها في باريس ، ثم انتقلت إلى قصر كونت دي افري في شارع فوبورج سانت أونوريه ، ويبدو أن السيدة

الفاتنة أنفقت ما يبلغ في جملته ٣٦,٣٢٧,٢٦٨ جنيهًا (١١٦) ، كان جزء منه فنا
بقي في حوزة فرنسا . وبلغت نفقاتها الخاصة ٣٣ ألف جنيه سنوياً (١١٧) .
وانتمتها فرنسا بأنها كانت تكلفها أكثر مما تكلفها الحرب .

وجمعت دي بمبادور من السلطة والنفوذ قدر ما جمعت من البروة وأصبحت
المجرى الرئيسى الذى يفيض بالتعيينات والرواتب وأوامر العفو وغيرها من
من النعم والعطايا من الملك . . وحصلت لدوى قرباها على المنح والهبات
والألقاب والوظائف ذات العمل اليسير والدخل الكبير . ولم تهىء لابنتها
الصغيرة ألكسندرين التى كانت تسميها « فانقان » شيئاً يذكر ، ولكنها
كانت تحلم بتزويجها لأحد أبناء لويس الخامس عشر من مدام دي فنتمبل ،
ولكن فانقان ماتت في سن التاسعة ، وحطمت قلب أمها . أما أخوها آبل
— الوسيم الدمث — فإنه بنفسه كسب عطف الملك الذى كان يدعو « بالأخ
الصغير » ، وكثيراً ما كان يدعو إلى العشاء . ونصبته بمبادور مركز دي
مارينى وعينته مديراً عاماً للمبانى ، فقام بوظيفته في جد وكفاية ، إلى حد
رضى معه وسر به الجميع تقريباً . وعرضت بمبادور عليه أن ترقى به إلى
مرتبة الدوق فرفض .

وانتشر أثرها على الفن الفرنسى بل الأوروبى ، ويرجع هذا إلى حد ما
إلى الملك ، ولكن أكبر الفضل فيه يرجع إلى شخصها هى . وأخفقت
محاولاتها في أن تكون هى بنفسها فنانة ، ولكنها أحبت الفن من كل قلبها ،
وما لمست شيئاً إلا وصار جميلاً . وازدهرت الفنون الصغيرة بشكل يهر
الألباب بفضل تشجيعها . وأقنعت لويس الخامس عشر بأن فرنسا تستطيع
صنع الخزف اللازم لها ، بدلا من استيراده من الصين ودرسدن ، مما
يكلفها ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً . وثابرت على ذلك حتى تعهدت الحكومة
بتمويل مصانع الخزف في سيفر ، واكتسب الأثاث وأدوات الأكل
وساعات الحائط والمرواح والمركبات وأواني الزهر والزجاجات والصناديق
والنقوش على الأحجار الكريمة والمرايا ، واكتسب كل أولئك فتنه دقيقة
سريعة الزوال حتى يتفق مع ذوقها الرفيع الذى يتطلب مهارة فائقة ،

وأصبح « ملكة الروكوكو » (١١٨) . (فن الزخرفة المعقدة) . وكان قدر كبير من إسرافها في النفقة يرجع إلى الرعاية التي أسبغتها على الرسامين والمثالين والنقاشين على الخشب والمعادن ونجاري الأثاث الفاخر والمعماريين . وأغدت على بوشية وأودرى ولاتور ومائة غيرهم من الفنانين . وأوحت إلى فانلو وشاردان أن يصورا مشاهد الحياة العامة ، فأنت بذلك التكرار المبتذل لموضعات من تاريخ العصور القديمة والوسطى وأساطيرها ، واحتملت في تسامح باسم تدمير لاتور ووقاحته ، حين كان يرسم لها صورة . وأطلق اسمها على المراوح وتسريحات الشعر والثياب والأطباق والأرائك والكراسي والأشرطة ، وعلى « وردة بمبادور » المصنوعة من الخبز المفضل لديها ، وفي هذه الحقبة ، لا في عهد لويس الرابع عشر ، على الأرجح ، بلغ تأثير فرنسا على المدنية الأوروبية ذروته .

وربما كانت بمبادور أكثر نساء زمانها ثقافة . وكان لها مكتبة تضم ٣٥٠٠ مجلد منها ٧٣٨ في التاريخ ، و ٣١٥ في الفلسفة ، ومجلدات كثيرة في الفن ، وبعض مجلدات في السياسة أو القانون ، إلى جانب عدة قصص في الحب . ووضح أنها إلى جانب تسلية الملك ومكافحة أعدائها والمساعدة على حكم فرنسا ، كانت تجد فسحة من الوقت لقراءة الكتب القيمة ، لأنها هي نفسها كتبت لغة فرنسية رائعة ، في رسائل زاخرة بالمادة ساحرة البيان . وكم توسلت إلى حبيبها أن يبارى جده في رعايته للأدب ، ولكن ورعه وبخله قعدا به عن ذلك . وعندما حاولت أن تخجله وتخرجه بقولها : بأن فردريك الأكبر أجرى على دالمبرت راتباً قدره ألف ومائتا جنيه ، أجاب بقوله « هنا أفذاذ أكثر مما في بروسيا . وقد أكون مضطر إلى إقامة مأدبة عشاء كبيرة لأجمعهم كلهم » . وبدأ يعدهم على أصابعه « موبرتيوس ، فونتيل ، لاموت ، فولتير ، فريرون ، بيرون ، ديتوش ، مونتسكيو ، كاردينال دي بوليناك » . وأضاف من كانوا حولوه ، « دالمبرت ، كليرو ، كريبيون الابن ، بريفوست » . . وعندئذ تهذ الملك قائلاً « حسناء معنى هذا أن كل هؤلاء كان يمكن أن يتناولوا الغداء أو العشاء معي طوال خمسة وعشرين عاماً (١١٩) » .

وعلى ذلك أحتلت بمبادور مكان الملك في رعاية الأدب . فأنت بفولتير إلى البلاط ، وأغدقت عليه ، وحاولت أن تحميه من سوء تصرفاته ، ومساعدت موتسكيو ، ومارمونتيل ، وديكلوس ، وبيفون وروسو ، ويسرت انضمام فولتير وديكلوس إلى الأكاديمية الفرنسية . ولما سمعت بما يعاني كريبيون الأب من الفقر أجرت عليه راتباً ، وخصصت له جناحاً في اللوفر ، وعاونت على إحياء مسرحيته « كاتيلينا » ، وأصدرت تعليماتها إلى إدارة المطبعة الملكية بإصدار طبعة أنيقة من روايات الكاتب العجوز . واختارت فرانسوا كيرني طبيباً خاصاً لها وهو من أنصار المذهب الفزيوقراطي وخصصت له جناحاً تحت جناحها مباشرة في فرساي ، وكانت تستقبل هناك ديدرو ودالمبرت وديكلوس وهلفيشيوس وترجو ، وغيرهم ، مما كان يمكن أن تكون أفكارهم مصدر إزعاج الملك ، ويروى مارمونتيل : « ولما لم تكن تستطيع أن تدعو هذه المجموعة من الفلاسفة إلى « صالونها » فلما كانت تنزل لهم لتجتمع بهم على المائدة وتتجاذب معهم أطراف الحديث (١٢٠) » .

وكان طبيعياً أن ينظر رجال الدين وجماعة الأتقياء في الحاشية وعلى رأسهم الدوفين ، بعين الرعب والفرع إلى تدليل هؤلاء الكفار . وفوق ذلك ، كان معروفاً أن بمبادور كانت تؤيد فكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة ، بل حتى تجريدتها من الصفة الدينية أو انتزاعها من يد الكنيسة ، إذا كان هذا هو المهرب الوحيد من إفلاس الدولة (١٢١) . وأشار اليسوعيون على كاهن اعتراف الملك أن يمتنع عن تناولته الأسرار ما دام يحتفظ بعلاقته بهذه العشيقة الخطرة (١٢٢) . ودافع أبناء الملك عن رجال الدين ، واستخدمت ابنته الكبرى هنريت التي يؤثرها بحبه ، نفوذها في التفريق بينه وبين بمبادور . وكان عيد الفصح من كل عام مثار أزمة بين العاشقين . ففي ١٧٥١ أظهر لويس تلهفاً شديداً على تناول القربان المقدس . وفي محاولة منها لتهدئته واسترضاء كاهن الاعتراف ، الأب بيروسو ، واطبقت على إقامة الشعائر الدينية وحضور القداس يومياً والصلوات بشكل يلفت الأنظار ، كما أكدت للكاهن أن علاقتها الآن بالملك علاقة

أفلاطونية بريثة تماماً . ولما لم يقتنع الكاهن بهسلا ، فإنه طلب إليها ، أن تغادر البلاط ، شرطاً مسبقاً للسماح للملك بتناول الأسرار المقدسة . ومات بيروسو ، ولكن خلفه ديمارتس وكان متشدداً مثله . وثبتت بمبادور في مكانها ، ولكنها داومت على ورعها الظاهري . ولم تغتفر قط لليسوعيين أنهم لم يأخذوا « تحوّلها » مأخذ الجسد ، وربما كان لإستيائها منهم دور صغير في طردهم من فرنسا في ١٧٦٢ .

وربما كان قولها الحق في أنه لم يعد لها اتصال جنسي بالملك لويس . وقد أكد دارجنسون أحد أهدائها هذه الحقيقة (١٢٣) . وكانت بالفعل قد أفضت إلى بعض نخلصائها بأنها تجد مشقة متزايدة في الاستجابة للنيران المتقدمة بين جنبيه (١٢٤) ، راعفت بأن عدم تحمسها لمضاجعته ذات مرة أو هن ما اشتد من قوته ، وأصابه عجز جنسي وتملكه الغضب (١٢٥) . وتناولت « عقاقير الحب » (١٢٦) دون نتيجة تذكر ، اللهم إلا الإضرار بصحتها . وأدرك أعداؤها في البلاط هذا الوضع فجددوا مؤامرتهم لإقتلاعها من مركزها . وفي ١٧٥٣ دبر دارجنسون خطة تنفذها مدام دي شوازيل رومانت إلى أحضان الملك ، ولكنها طالبت بشمن باهظ ظن أنه لا يتكافأ مع توضيحيتها وسرها ما تمكنت بمبادور من طردها . وهنا آن الأوان أن تأوي المحظية الأولى المنهوكّة إلى « متنزه الظباء » البغيض .

وفي « متنزه الظباء » في طرف ناء من فرساي جهاز مسكن لإقامة شابة أو شابتين مع خدماهما ومرافقيهما حتى يحين الوقت ليستقبلهما لويس في جناحه الخاص ، أو يقصد إليهما في مسكنهما متنكراً في زي كونت بولندي عادة . وتناثرت الشائعات بأن هؤلاء البنات كن كثيرات ، وأضافت الأساطير أن سن بعضهن لم تزد على تسع سنوات أو عشر . والظاهر أنه لم يكن يوجد منهن في وقت واحد أكثر من اثنتين (١٢٧) ، وكان يؤتى بمجموعات منهن على التعاقب ، ليتدربن على أن يقدمن للملك « حق السيادة » فإذا حلت إحداهن أعطيت مبلغاً من المال يتراوح بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، يساعدنها على العثور على زوج لها في الأقاليم ، وكان الأطفال

الذين يولدون عن هذا الطريق يمنحون راتباً سنوياً قدره أحد عشر ألف جنيه . وعلمت مدام دى بمبادور بأمر هذا « الحريم » الذى لا يصدق ، فلزمت الصمت . ورغبة منها فى ألا تحتل مكانها عشيقة من النيبيلات متعمل من غير شك على إبعادها عن البلاط ، بل ربما عن باريس ، آثرت أن تترك للشابات الوضيعات أن يشبعن أذواق الملك القاسده ، وانهارت حالتها المعنوية إلى الحضيض وقالت لمدام دى هوست « كل ما أضن به هو قلبه ، وكل هؤلاء الفتيات غير المتعلات لن يسلبنى إياه (١٢٨) » .

ولم تنزعج الحاشية إنزعاجاً ملموساً لهذه الترتيبات الجديدة لأن كثيراً من رجالها احتفظوا هم أنفسهم بأكواخ فى « منتدى الأطباء » هذا الخلياتهم (١٢٩) . ولكن أعداء بمبادور افترضوا أن سلطانها قد آذن بزوال . ولكن خاب فآلمهم ، فإن الملك ظل صديقها المخلص لفترة طويلة بعد أن انقطعت عن أن تكون « نخليلته » . وكان فى ١٧٥٢ قد خلع عليها رسمياً لقب دوقة . وفى ١٧٥٦ ، وعلى الرغم من احتجاجات الملكة منحها المنصب الرفيع « مديرة قصر الملكة » (كبير وصيفات الملكة) . فلازمت الملكة ، وحضرت معها العشاء ورافقتها إلى القدياس . ولم كانت وظيفتها الجديدة تقتضى الإقامة فى البلاط فإن اليسوعيين تنازلوا عن طلبهم إبعادها وألغى « الحرم من الكنيسة » الذى ظل مفروضاً عليها لفترة طويلة ، وأجيز لها تناول الأسرار المقدسة . أما بنات الملك اللاتى ناصبها العداء منذ زمن طويل فكن يقصدن إلى زيارتها فى « شوازى » .

وقضى لويس معها مدة ساعات فى كل يوم تقريباً ، حيث ظل يجد لذة فى طلاوة حديثها ورقتها الفاتنة التى لا تنضب معينها . واستمر يحترم ، وغالباً ما يتبع ، مشورتها فى التعيينات ، وفى المسائل الداخلية ، بل حتى فى السياسة الخارجية . وأصدرت الأوامر إلى الوزراء ، واستقبلت السفراء واختارت القواد ، ونحدثت أحياناً باسم الملك ويسمها ، وكأنها تشترك فى الحكم ، فكانت تقول « نحن » سننظر (فى الأمر) . وكان طلاب الوظائف يزحمون حجرة انتظارها ، فكانت تحسن استقبالهم وتلاطفهم . وسلم أعداؤها بسعة إطلاعها المدهشة فى الشؤون السياسية ، ولباقتها فى الأحاديث الدبلوماسية ،

ونظراتها التي كثيراً ما كانت ثابتة (١٣٠) . وكانت قد أشارت منذ زمن بعيد إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكري . وفي ١٧٥٠ ، اقترحت على لويس أن ينشئ مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم في خدمة الدولة . ووافق الملك ولكنه أبطأ في توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع . فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ، ووفرت له أموالاً إضافية عن طريق « يانصيب » ، وضريبة على لعب الورق ، وأخيراً فتحت المدرسة ١٧٥٨ ملحقة « بقصر الانفاليد » .

والآن نصح هذا الوزير الساحر بلا وزارة بمراجعة جريئة لسياسة فرنسا الخارجية وإعادة تقييمها . وربما جاءت المبادرة بهذا « النقض المشؤوم للأحلاف » من كونت فون كونتز سفير النمسا في باريس . وقد عززها التنازل الكاره من جانب الإمبراطورة التقيية مارياتريزا التي خاطبت بمبادور « بصديقتي العزيزة » ، و « ابنة عمي » ، كما عززها فردريك الأكبر بإشارته المهيمنة إلى المركيزة دي بمبادور « بحكم المرأة » في البلاط الفرنسي . وكانت مدام دي شاتور وودارجنسون قد وجها السياسة الخارجية نحو الصداقة مع بروسيا ، وأوضح كونتز وبمبادور أن بروسيا الحديثة - التي قويت بيلانتصار في حرب الوراثة النمساوية ، والتي لديها جيش قوامه ٥٠ ألف جندي أحسن تدريبهم تحت إمرة قائد قدير طموح لا يبالي بأية مبادئ خلقية ، وملك غدر بفرنسا مرتين بتوقيعه صلحاً منفرداً - إن بروسيا هذه لا بد أنها سرعان ما تشكل خطراً أشد من خطر النمسا التي كانت قد فقدت آنذاك سيليزيا ، ولم تعد تتوقع أي عون أو تأييد من أسبانيا في ظل حكم آل بوريون ، وقد انقضى تطويق النمسا لفرنسا . وقويت هذه الحجة حين عقدت بروسيا في ١٦ يناير ١٧٥٤ تحالفاً مع إنجلترا - عدوة فرنسا التقليدية ورد مجلس الدولة الفرنسي على هذا بإبرام تحالف مع النمسا (أرل مايو) . وهنا نجد أن المركيزة دي بمبادور التي عادت الآن تبصق دماً ، وكانت في الخامسة والثلاثين ، ولم يبق لها من العمر إلا ثمان سنوات ، نجد أنها قد لعبت دورها في التمهيد لاشعال حرب السنين السبع .

الفصل الثامن الأخلاق والعادات

١ - التعليم

كان بين الصراعات الكثيرة الأساسية التي شهدتها فرنسا في القرن الثامن عشر ، محاولة الكنيسة الاحتفاظ بسيطرتها على التعليم ، إلى جانب محاولة الفلاسفة وغيرهم لإنهاء هذه السيطرة والقضاء عليها . وبلغ الصراع ذروته بطرد اليسوعيين من فرنسا في ١٧٦٢ ، وتأميم المدارس الفرنسية ، وغلبة التعليم العلماني في الثورة الفرنسية . وكان الخلاف قد بدأ يبرز في النصف الأول من القرن الثامن عشر فقط .

ولم تكن الغالبية العظمى من الفلاحين تعرف القراءة . وفي كثير من المجتمعات الريفية ، كانت الهيئات البلدية ، حتى إلى عام ١٧٨٩ ، « لا تكاد تعرف الكتابة »^(١) . وكان في معظم الأبرشيات على أية حال « مدرسة صغيرة » يقوم فيها الكاهن بنفسه ، أو من يعينه هو ، بتعليم القراءة والكتابة والدين المسيحي على صورة سؤال وجواب ، للأولاد الذكور أساساً ، في مقابل رسم زهيد يدفعه الآباء عن كل تلميذ^(٢) ، أما الأولاد الذين يعجز آباؤهم عن الدفع فكانوا يتعلمون بالمجان إذا طلبوا ذلك . وكان اللحاق بهذه المدرسة مطلوباً قانوناً بمقتضى مراسيم ١٦٩٤ و ١٧٢٤ ، ولكن هذه المراسيم لم تنفذ^(٣) ، وامتنع كثير من الآباء العلاحين عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة ، لحاجتهم إليهم في المزرعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم رأوا أن التعليم أمر مزعج لا ضرورة له لمن قدر عليهم أن يشتغلوا في الأرض . فالتعليم لم يكن يكفل أى ارتفاع في المركز الاجتماعي لأن الحواجز الطبقية كانت عقبة لا يمكن التغلب عليها تقريباً في النصف الأول من القرن . وفي القرى والمدن الصغيرة نادراً ما كان الذين تعلموا القراءة يقرأون شيئاً غير ما تعلق بعملهم اليومي . وكان كل إنسان يعرف قواعد الدين ، وفي المدن الكبيرة وحدها كان هناك شيء من المعرفة بالأدب والعلوم والتاريخ .

وفى الطبقات المتوسطة والعليا كان معظم التعليم على أيدي المربيّات والمؤدّبين ، أو المعلمين الخاصين ، وأخيراً على أيدي معلمى الرقص ، وهؤلاء الأخيرون كان مفروضاً فيهم أن يعلموا الجنسين كليهما الفنون الشاقة ، وهى فنون الجلوس والوقوف والمشي والحديث والإيماء ، فى كياسة ورقة . وتلقت بعض الفتيات دروساً خاصة فى اللاتينية ، وفوق هذا كله تقريباً ، تعلم الفقراء الغناء والعزف على البيان القيثاري . وقام التعليم العالى للبنات فى الأديار ، حيث ارتقىن فى الدين والتطريز والموسيقى والرقص وقواعد السلوك القويم الذى يجدر بالشابة أو الزوجة أن تتحلّى به .

وكان كل التعليم الثانوى للذكر تقريباً فى يد اليسوعيين ، ولو أن الرهبان الأوراتوريين والبندكتيين أسهموا فيه . وكان المتشككون من أمثال فولتير وهلفيشيوس من بين الخريجين العديدين المرموقين فى كلية اليسوعيين « لويس الأكبر » حيث كان الأب شارل بوريه يقوم بتدريس « البلاغة » (أى اللغة والأدب وعلم الكلام) وترك فى تلاميذه ذكريات طيبة . وما كاد المنهج فى المدارس اليسوعية ليتغير طوال قرنين من الزمان . وعلى الرغم من تركيز هذا المنهج على الدين والأخلاق ، فإن مادته كانت كلاسيكية إلى حد بعيد ، فكان التلاميذ يدرسون مؤلفات رومى القديمة فى نصوصها الأصلية ، فأكب التلاميذ الصغار على دراسة الفكر الوثنى لمدة خمس أو ست سنوات ، فلا عجب أن ساورتهم بعض الريبة فى عقيدتهم المسيحية . وأكثر من هذا فإن اليسوعيين « لم يدخروا وسعاً فى تنمية ذكاء تلاميذهم وغيرتهم » (٤) . فكانوا يشجعون على المناقشة والتحدث علانية وعلى تمثيل الروايات ، وكانوا يتعلمون قواعد لترتيب أفكارهم والتعبير عنها ، ومن ثم كان جزء من وضوح الأدب الفرنسى وصفاته من غرس المدارس اليسوعية ، وأخيراً تلقى الطالب مناهج قاسية فى المنطق والميتافيزيقا وعلم الأخلاق عن أرسطو من ناحية وفلاسفة العصور الوسطى السكولاسيين (المدرسين) من ناحية أخرى . وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن النتائج كانت تقليدية ، إلا أن عادة التفكير والاستنتاج والتعليل بقيت - وأصبحت بالفعل - علامة مميزة لهذا العصر

« عصر العقل » بوجه خاص . وكان الجلد بالسياط أيضا جزءا من المنهج ، حتى لطلاب الفلسفة ، ودون تميز في المراقبة أو المسكاة الاجتماعية ، فقد جلد من أصبح فيما بعد مركز دارجنسون ودوق بوفلرز ، أمام أقرانها في الفصل ، لأنهما قدفا أساتذتهما الأجلاء بحبات البازلاء^(٥) .

وعلت الشكوى بالفعل من أن المنهج لم يول عناية تذكر بما وصلت إليه المعرفة من تقدم وازدهار ، وأن التعليم كان نظرياً إلى حد كبير ، ولا يعد للحياة العملية ، وإن الإلحاح الشديد على التعليم الديني قد أفسد الأذهان أو أغلقها . وفي « رسالة عن التعليم » كانت يوماً مشهورة (١٧٢٦-١٧٢٨) دافع شارل رولان رئيس جامعة باريس عن المنهج الكلاسيكي (التقليدي) وعن التركيز على الدين . وكان من رأيه أن الهدف الأسمى من التعليم هو خلق أناس أفضل . وأفاضل المعلمين « لا يعنون كثيراً بالعلوم ، حيث لا تساعد هذه العلوم على التمسك بأهداب الفضيلة . ولم يكونوا يأبهون كثيراً بالتزود بألوان المعرفة ، إذا لم تقترن بالاستقامة وحسن الخلق . وكانوا يؤثرون الرجل الأمين على الرجل العالم الواسع الاطلاع^(٦) . وقال رولان إنه من الصعب أن نشكل الخلق القويم دون تأسيسه على عقيدة دينية . ومن ثم « ينبغي أن يكون الهدف من جدودنا ، والغرض من تعليمنا هو الدين »^(٧) وسرعان ما يثير الفلاسفة الجدل حول هذا الموضوع ، ويستمر الجدل حول ضرورة الدين للأخلاق طوال القرن الثامن عشر ، والقرن الذي يليه . وهو جدل حي في أيامنا هذه .

٢ - الأخلاق

ويبدو أن حجة رولان كانت تؤيدها الفروق الطبقة في المبادئ الأخلاقية . إن الفلاحين الذين تمسكوا بدينهم عاشوا حياة أخلاقية نسبياً ، وربما كان هذا ، على أية حال راجعاً إلى حقيقة أن الأسرة كانت وحدة الإنتاج الزراعي ، وأن الأب كان أيضاً المستخدم أى صاحب العمل ، وكان نظام الأسرة يرتكز في جذوره على نظام اقتصادي يفرضه تعاقب الفصول ومتطلبات الأرض . واستمسكت الطبقات الوسطى بقدر كبير من العقيدة

الدينية ، مما عزز سلطة الأبوين أساساً للنظام الاجتماعى . أما مفهوم الأمة باعتبارها رابطة من الأسرات عبر الأجيال ، فقد هيا لأخلاقيات الطبقة الوسطى قوة التماسك والتقاليد . وكانت الزوجة البرجوازية نموذجاً للجد والتقوى والأمومة . وكانت تتحمل آلام الوضع فى صبر وجلد ، وسرعان ما كانت تعود إلى عملها . وكانت قانعة ببيتها وعلاقاتها مع جيرانها ، وقليل ما انزلت إلى زخرف الدنيا الخداع التى يسخر الناس فيها من الاخلاص على أنه شيء عتيق بال . ونادراً ما نسمع عن حوادث الزنى عند زوجات الطبقة الوسطى . وضرب كل من الأب والأم معا مثلاً رائعاً فى العادات القويمة والتمسك بالدين والحب المتبادل . وتلك هى الحياة التى خلده شاردان ذكرها معزاً بها ، فى لوحاته مثل « البركة » .

ومارست كل الطبقات أعمال البر والإحسان وكرم الضيافة . وكانت الكنيسة تجمع الصدقات وتوزعها . ودعا الفلاسفة المعادون للدين إلى عمل الخير ، وبنوا دعوتهم على أن هذا حب للإنسانية لا حب لله ، ومن ثم كانت « الإنسانية » الحديثة نتاجاً للدين والفلسفة معا . وأمدت الأدبار الجوع بالطعام ، وعينت الراهبات بالمرضى ، وقامت المستشفيات وملاجئ الفقراء والأيتام والعجزة على الأموال التى تدفعها الدولة والكنيسة والتقابات . وكان بعض الأساقفة مبشرين منصرفين إلى متاع الدنيا . ولكن نفرأ آخر منهم — مثل أساقفة أوكسير وميربوا وبولون ومرسيليا — وهبوا ثرواتهم وحياتهم لأعمال البر والإحسان . ولم يكن موظفو الدولة مجرد طالبي مناصب أو نفعيين طفيليين ، فإن موظفى بلدية باريس كانوا يوزعون الطعام وحطب الوقود والنقود على الفقراء « وفى ريمس خصص أحد أعضاء البلدية ٥٠٠ ألف جنيه للصدقات . وكان بالملك لوس الخامس عشر نزعات إلى الشفقة والعطف والحنان المشوب بالجن . وعند ما خصص مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه للألعاب النارية احتفالاً بمولود دوق برجندى الجديد (١٧٥١) ، ألغى الملك العرض وأمر بتوزيع المبلغ مهوراً لستمائة من أفقر بنات باريس ، وحدث مدن أخرى حظوه . وعاشت المالكة عيشة مقتصدة غير مسرفة وأنفقت معظم (م ٥ — قصة الحضارة)

دخّلها في الأعمال الخيرية . وكذلك أنفق دوق أورليان ابن الوصي المشاغب الخليع ثروته في أعمال البر والإحسان . ويبدو الجانب غير المشرق في هذا الموضوع في الفساد والإهمال اللذين شيوها إدارة المؤسسات الخيرية . فهناك عدة أمثلة لمديري مستشفيات استولوا لأنفسهم على الأموال التي كانت تصلهم من أجل العناية بالمرضى والفقراء .

وعكست الأخلاقيات الاجتماعية طبيعة الإنسان - أناني وكريم ، وحشي وتلطيف ، يخلط بين قواعد اللياقة وسفك الدماء في المعركة . ولعب رجال الطبقات العليا والدنيا ونساؤها الميسر في تهوّر بالغ ، دون إحساس بالمسئولية وبددوا ثروات أسراتهم ، وكان الغش في اللعب سائداً إلى حد كبير (٨) . وفي فرنسا ، كما كان الحال في إنجلترا . أفادت الحكومة من حب الناس للمقامرة بإنشاء « يانصيب » وطني . أما أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية وأكثرها مجافاة للأخلاق فهو تبذير أرستقراطية الحاشية البالغ الخالي من الرحمة ، تلك الأرستقراطية التي كانت تعيش على الدخول التي كانت تبزها من الفلاحين الفقراء . فإن ملاءات سرير الدوقة دي لا فري كانت مشغولة بالمخرمات الغالية الثمن ، وتكلفت ٤٠ ألف كراون ، وكانت لآلء ومجوهرات مدام اجوننت تساوي ٤٠٠ ألف كراون (٩) ، وكانت الحياة والخداع أمرين عاديين مألوفين في أعمال الموظفين ، واستمر بيع الوظائف والمناصب ، وكان مشتروها يستغلونها في الإثراء غير المشروع تعويضاً لهم عما دفعوا فيها ولم يكن قدر كبير مما يجبي من الضرائب يصل إلى خزانة الدولة . وفي غمرة هذا الفساد نمت روح الوطنية ، ولم يكف الرجل الفرنسي عن حب فرنسا ، ولم يطق الرجل الباريسي أن يعيش طويلاً بعيداً عن باريس . وامتاز كل فرنسي تقريباً بالبسالة . وفي حصار ماهون ، ورغبة من المارشال دي ريشيليو في منع جنوده من تعاطي المسكرات ، أصدر هذا القائد قراراً يقول فيه « أن أي فرد منكم يوجد ثملاً في المستقبل لن يكون له شرف الاشتراك في الهجوم » فتوقف شرب الخمر تقريباً (١٠) ، واستمرت المبارزة على الرغم من كثرة قرارات تحريمها . قال لورد تشستر فيلد « إن المرء ليلحقه الخزي والعار إذا لم يثر للإهانة ، وإنه ليلقى حتفه إذا استاء لها (١١) »

وكان عقاب اللواط الإعدام حرقاً ، ولكن هذا القانون كان ينفذ في الفقراء وحدهم ، كما حدث مع أحد رعاة البغال ١٧٢٤ . وفي ١٧٢٥ أُلقي القبض على الراهب ديفونتين ، الذي كان قد اشتغل بالتدريس في إحدى الكليات اليسوعية لمدة خمسة عشر عاماً ، واتهم بمثل هذه الفعلة ، فأُهاب بفولتير لمساعدته ، فنهض فولتير من فراش مرضه قاصداً إلى فوتينلو ، واستحث فليري ومدام دي برى لاستصدار عفو عنه (١٢) ، وطيلة العشرين عاماً اللاحقة كان ديفونتين من أعداء فولتير . وكان بعض خدم الملك منحرفين جنسياً . ويبدو أن أحدهم ، وهو تريموويل ، اتخذ من الملك دي الستة عشر ربيعاً غلاماً له (١٣) .

وانتشر البغاء بين الفقراء والأغنياء . وفي المدن الصغيرة كان أصحاب الأعمال ينقدون مستخدماتهم الأناث مبالغ لا تفي بنفقاتهن الضرورية ، وأجازوا لهن أن يكمنن أجورهن اليومية بالاستجداء وممارسة الدعارة ليلاً (١٤) . وقد ركّز كاتب معاصر عدد البغايا في باريس بأربعين ألفاً . وهناك تقدير آخر بأنهن ستون ألفاً (١٥) وكان الرأي العام — فيما عدا الطبقة الوسطى — متسامحاً مترفقاً بأمثال هؤلاء النسوة ، حيث أدرك أن كثيراً من النبلاء ورجال الدين ووجوه المجتمع ساعدوا على خلق هذا الطلب الذي أدى إلى هذا العرض ، وتلزع الرأي العام بشيء من اللياقة ، فأدان الفقيرات اللاتي يبعن أعراضهن أقل مما أدان الذين يشترون المتعة ، أي أن مسئولية هؤلاء عن هذا العمل الشائن أكبر . وكانت نظرة رجال الشرطة إلى هذا الأمر تختلف عن ذلك اللهم إلا إذا قدمت شكوى خاصة أو عامة ضد هؤلاء « البنات » وهنا يتم الاعتقال بالجملة ، تبرئة لساحة الحكومة ، وعندئذ يساق النساء للمثول أمام أحد القضاة ، وقد يحكم القاضي بإبداعهن السجن أو المستشفى ، حيث تحلق رءوسهن بالموسى ويعاقبن ويوضعن تحت المراقبة ثم يطلق سراحهن . وتنمو شعورهن من جديد . وإذا خلقن متاعب جمة لأحد ذوى النفوذ والسلطان أو أسأن إلبه ، فيمكن إرسالهن إلى لوزيانا . وعرضت محظيات الحاشية أو المومسات اللاتي يتردد عليهن

الأغنياء ، مركباتهن وحليهن ومجوهراتهن في طريق « كور - لا - رين » في باريس ، أو في متنزه « لونجشامب » (١٦) . وإذا حصلن على عضوية الكوميدي فرانسيز أو الأوبرا ، حتى لتمثيل الأدوار القصيرة ، اكتسبن الحصانة ضد الاعتقال بتهمة بيع مفاتهن أو أعراضهن . وارتفع بعضهن ليكن نماذج للفنانين (لرسم الصور العارية) ، أو يتمخذهن النبلاء ورجال المال أخذانا لهم خاصة . واقتنص بعضهن أزواجاً ، وحصلن على ألقاب و ثروات ، وأصبحت واحدة منهن بارونة سانت شاموند .

وكانت الزيجات القائمة على الحب ، دون موافقة الأبوين ، تزداد في عددها وفي الإنتاج الأدبي . وكان من الممكن الاعتراف بشرعيتها إذا عقدت أمام كاتب العدل أو الموثق . ولكن في معظم الأحوال ، حتى بين الفلاحين ظل الآباء هم الذين يرتبون أمر الزواج باعتباره اتحاداً بين الممتلكات والأسرات ، لا مجرد اتحاد الأفراد . فالأسرة ، لا الفرد ، هي وحدة المجتمع ، ومن ثم كانوا يرون أن بقاء الأسرة وممتلكاتها أهم من الملذات العابرة أو العواطف السريعة الوهن عند الشباب المتهور . وفوق هذا قال فلاح لابنته « الحظ أقل عمى من الحب » (١٧) .

وكانت السن القانونية للزواج هي الرابعة عشرة للذكور والثالثة عشر للإناث . ولكن كان يمكن قانوناً أن تتم الخطبة في سن السابعة ، وهي التي حددها فلاسفة العصور الوسطى مبدأ « سن العقل » وكانت الشهوة الجامحة عند الشبان تدفع بهم إلى مطاردة الأنسات مطاردة عنيفة ، إلى حد أن الآباء زوجن بناتهم حالما كان ذلك ممكناً ميسوراً تفادياً لانفضاض البكارة قبل الأوان ، وهكذا كانت المركيزة دي سوفيف أرملة في الثالثة عشرة من عمرها . وازمت بنات الطبقتين الوسطى والعليا الدير حتى يتم اختيار الأزواج لهن ، وعندئذ يعجل بهن من حياة الدير إلى حياة الزوجية ، وكان لزاماً تشديد الحراسة عليهن في الطريق . ونهذا النظام القاسي المنافي للأخلاق السيء ، كان كل النساء تقريباً عذارى عند الزواج .

وإذا احتقرت الأرستقراطية الفرنسية التجارة والصناعة ، ونادراً ما

غطت الدخول الإقطاعية نفقات الإقامة في البلاط وما تقتضيه من مظاهر ، فإنها وطنت النفس على تزويج أبنائها للذين توافرت لهم الأرض ولم يتوافر لديهم المال ، من بنات الطبقة البرجوازية العليا اللاتي لا يملكون أرضاً ، ولكن يملكن مالا . ولما اعترض ابن دوقة شولن على زواجه من ابنة التاجر بونيه ذات الصداق الكبير ، أوضحت له أمه : « أن زواج المنفعة ممن هي دونك مرتبة ، هو مجرد حصول على الروث لتسميد أرضك » (١٨) . وفي مثل هذه الزيجات عادة ، كان الزوج النبيل أو ذو اللقب ، وهو يستغل أموال زوجته ، يذكرها من حين لآخر بأصلها الوضيع ، وسرعان ما يتخذ خليلة . وفي هذا خير شاهد على احتقاره لزوجته . ولم يغب هذا أيضاً عن ذاكرة الطبقة الوسطى حين ساعدت الثورة .

ولم يوصم الزنى بأية وصمة عار اجتماعي ، في البيئه الأرستقراطية ، بل كان أمراً مقبولا باعتباره بديلاً ساراً عن الطلاق الذي حرمته الديانة الوطنية . وقد يتخذ الزوج الذي يخدم في الجيش أو في الأقاليم له خليلة ، دون أن يبدى لزوجته سبباً مقبولا للشكوى . وقد يفترقان الواحد منهما عن الآخر ، بالخدمة في الحاشية أو في الضيعة ، وهنا أيضاً قد يتخذ خليلة ومذ كان عقد الزواج يتم دون الزعم بأن العاطفة يمكن أن تتجاوز عن الثراء فإن كثيراً من الزوجين من النبلاء عاشا فترة طويلة من حياتهما منفصلين ، وأباح كل منهما للآخر زلاته ، شريطة أن تكون هذه الزلات مستورة بلباقة ، كما تكون في حالة المرأة مقصورة على رجل واحد في نفس الوقت وأجرى مونتسكيو على لسان سائحته الفارسي قوله : « إن الرجل الذي يريد أن يستحوذ على زوجته له هو وحده يعتبر معكراً لصفو السعادة العامة ، غيباً يريد أن يستأثر بالاستمتاع بضوء الشمس ، ويحجبها عن سائر الناس » (١٩) . وسئل يوماً دوق لوزون الذي لم يكن رأى زوجته طيلة عشر سنين ، ماذا يقول لو أن زوجته أرسلت إليه تنبئه بأنها حامل ، فأجاب ، مثل أي سيد سماجد في القرن الثامن عشر : « أكتب إليها لأقول إنني مبتهج فرح لأن الله بارك زواجنا ، اعتن بصحتك ، سأحضر لأقدم لك احتراماتي هذا المساء » (٢٠) ، فالغيرة كانت أمراً مرفولاً .

وكان بطل الزنى وقتى العصر ونموذج الإناقة فى ذاك الزمان هو لويس فرانسوا أرمان دى فينيرو دى بلسيس ، دوق ريشيليو حفيد أخى الكاردينال الصارم المتكشف . وقد انزلت إلى مخدعه عدة سيدات نبيلات من ذوات الألقاب ، الواحدة تلو الأخرى ، تجرهن إليه مكائته وثروته وشهرته . ولما وبخ ابنه وهو العاشرة من عمره على بطء تقدمه فى دراسته اللاتينية ، أجاب فى سرعة مفحمة : « أن أبى لا يعرف اللاتينية ، ولكنه مع ذلك يحظى بأجمل نساء فرنسا (٢١) » . وهذا لم يمنع اختياره للأكاديمية الفرنسية قبل فولتير ، صديقه ودائمه ، بثلاث وعشرين سنة . وكان فولتير يكبره بعامين . ومهما يكن من أمر فإن رأى معام استهجن سلوك هذا الدوق لأنه كان يجلب إلى الملك النساء لهذا الغرض الدنى . ومنعته جيوفران من التردد على ندوتها لأنه يجمع بين عديد من أمهات الكبائر (٢٢) . وعمر حتى بلغ الثامنة بعد التسعين ، ومات قبل قيام الثورة بعام واحد .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين على هذا النحو ، فإننا نستطيع أن نتصور مصير أبنائهما . كان النبلاء يعتبرون صراحة أن أبنائهم عوائق فى طريقهم ، ويدفعون بهم عند ولادتهم إلى المروضات ، ويتولى تنشئتهم مربيات ومعلمون خاصون ، حيث يرون والديهم بين الحين والحين . وروى تاليران أنه لم ينم قط تحت السقف الذى نام تحته أبوه وأمه . وكان من رأى الأبوين أنه من الحكمة أن يباعلوا بينهم وبين أبنائهم ، فكانت العلاقة الحميمة أمراً شاذاً ، وكانت الألفة أمراً غير معروف . فخطب الابن أباه بقوله « سيدى » وقيلت البنت يد أمها . وإذا كبر الأبناء أرسلوا إلى الجيش أو الكنيسة أو الدير . وكانت كل الممتلكات تؤول إلى الابن الأكبر ، كما كان الحال فى إنجلترا .

واستمر أسلوب الحياة هذا سائداً فى نبلاء الحاشية ، حتى ارتقاء لويس السادس عشر عرش فرنسا فى ١٧٧٤ . وكشف هذا الأسلوب ، من جهة أخرى ، عن فقدان الإيمان بالدين عند الطبقات العليا . وتخلى الناس تماماً عن مفهوم الزواج فى المسيحية ، مثله فى ذلك مثل مفهوم الفروسية فى

العصور الوسطى . وأصبح الجرى وراء اللذة والمتعة « وثنيا » بشكل أشد سفورا منه في أى وقت منذ عصر رومه الامبراطورية المضحكة . ونشرت كتب كثيرة في « الأخلاقيات في فرنسا في القرن الثامن عشر » ، ولكن كانت هناك أيضاً كتب كثيرة تعالج البذاءة والفحش بطريقة مدروسة متعمدة ، وكانت أوسع انتشاراً ورواجاً ولو كانت سرية . وكتب فردريك الأكبر يقول « إن الفرنسيين ولا سيما سكان باريس ، أصبحوا الآن مترفين متغمسين في الملذات ، أوهنتهم المتعة والدعة » (٢٣) وحوالى ١٧٤٩ رأى مركز دارجنسون في إنحطاط الوعي الخلقى نذيراً آخر بكارثة وطنية : « القلب قوة نسلب أنفسنا إياها كل يوم لأننا لا نروضه ولا ندرجه أبدا . على حين أننا نشحذ الذهن ونصقله باستمرار ، فنصبح عقلانيين - عاطفيين - أكثر فأكثر وإنى لأتنبأ بأن هذه المملكة لا بد هالكة ، نتيجة لاختلاف القوى التى تنبع من القلب ، إننا لا نكسب أصدقاء ، ولم نعد نحب عشيقاتنا ، فكيف نحب بلادنا ؟ . . . إن الناس يفقدون يوماً بعد يوم تلك الخلقة الحميدة التى نسميها رقة الشعور . ويختفى الحب والحاجة إلى الحب . . . وحسابات المصلحة تشغلنا وتستنزفنا دائماً . وكل شئ سبيل إلى الدسيسة والمكيدة . . . وتنطفئ جذوة النار الداخلية (العواطف) لأننا لا نغذيها ، ومن ثم يزحف الشلل إلى القلب » (٢٤) .

وهذا هو صوت بسكال يردد مذهب طائفة بورت رويال (مذهب الجانسينيين) وصوت روسو ، قبل ظهور جئنا بجاك بحيل واحد ، أو صوت الأرواح المرفهة الحس في أى عصر من عصور القلق الفكرى والتحرير ، ولسوف يطرق أسماعنا ثانية .

٣ - العادات

لم ير التاريخ قط أخلاقيات طائشة مثل هذه ، مزخرفة بموهة بتهذيب ورقة في السلوك وأناقة في الملبس والحديث ، وتنوع في المتع والملذات ، وفتنة في النساء ، وكياسة متأقفة في المراسلات ، وإشراق في الفكر والذكاء :

« ولم يوجد قط في فرنسا من قبل ، أو في أوروبا المعاصرة . . . بل ولا في العالم منذ وجد العالم ، مجتمع مهذب ذكى مبهج ، مثل المجتمع الفرنسى في القرن الثامن عشر » (٢٥) قال هيوم في ١٧٤١ إن الفرنسيين « أتقنوا بدرجة كبيرة ذلك الفن ، وهو أنفع الفنون وأليقها ألا وهو فن الحياة ، فن المجتمع ، فن الحديث » (٢٦) . ولم تستخدم كلمة « مدنية » إلا في أخريات هذه الحقبة ، فلم تظهر في قاموس جونسون ١٧٥٥ ، ولا في « المعجم الكبير » الذى صدر في ٣٠ مجلدا في باريس في ١٧٦٨ .

وأحس الفرنسيون بالمدنية بوجه خاص في ملابسهم ، ونافس الرجال النساء منافسه كبيرة في العناية بالثياب . واقتضى الزى العصرى السائد أن يلبس أفراد الطبقة العليا قبعات كبرى ذوات ثلاث زوليا ، مزدانة بالريش والأشرطة الذهبية ، ولما كانت هذه القبعات تفسد ترتيب شعورهم المستعارة ، فإنهم وضعوا القبعات عادة تحت أذرعهم . وكانت الشعور المستعارة آنذاك أصغر مما كانت عليه أيام الملك العظيم (لويس الرابع عشر) ، وكانت أكثر شيوعا حتى بين الحرفيين . وكان في باريس ألف ومائتا حانوت للشعور المستعارة ، يعمل فيها ستة آلاف عامل . وكان الشعر الطبيعى والمستعار يدهن بالمساحيق . وكان شعر الذكور طويلا عادة ، ويلم بشريط أو في كيس وراء الرقبة . وكانوا يرتدون سترة طويلة زاهية اللون - من المخمل عادة - فوق البدلة الداخلية التى تكشف عن صدره مفتوحة عند الحلق ، وعن قيص حريرى رقيق ، ورباط عنق عريض ، وأكمام تنتهى إلى « كشكشات » مزخرفة عند المعصم . وكانت « بنطلونات » الركوب القصيرة ملونة ، والجوارب من الحرير الأبيض . وكانت الأحذية تشد بمشابك من فضة . ولبس أفراد الحاشية أحذية ذات كعوب حمراء . علامة مميزة لهم . واستخدم بعضهم عظام فك الحوت ليحتفظوا بأذيال ستراتهم ممتدة على نحو صحيح . وتزين بعضهم بالماس في عرى ستراتهم . وكان الجميع يحملون سيوفا . وحمل بعضهم العصي . وكان حمل السيف محرما على الخدم وغللمان الحرفيين والموسيقين (٢٧) . وكانت ملابس أفراد الطبقة البرجوازية

بسيطة : سترة و « بنطلون » قصير من قماش عادى قاتم ، وجوارب صوفية سوداء أو رمادية ، وأحذية ذات نعال سميكة وكعوب وطبئة . وارتدى الحرفيون وخدم المنازل الأردنية التي كان الأغنياء يلبسونها . وتذمر ميرابو الأكبر من أنه كان لا يستطيع التمييز بين الحداد واللورد !

وظلت السيدات تتمتعن بحرية أرجلهن داخل الرحاب الفسيح لتنورانهن ذات الأطواق الموسعة . وشجب رجال الدين النساء اللاتي ارتدين مثل هذه التنورات « بأنهن اناث قردة أو أعوان الشيطان » ولكن النساء أحبينها لأنها تضيفن عليهن جلالا حتى ولو كن حبالى . وتروى مدام دى كريكى « أنها لم تستطع أن تهمس أذن مدام دى اجمونت لأن التنورة ذات الأطواق الموسعة حالت دون اقتراب الواحدة منهما من الأخرى » (٢٨) أما حذاء السيدة ميلادى « ذو الكعب العالى والمصنوع من جلد ملون والمرصع بتطريزات من الذهب والفضة — فقد أضفى على قدميها فتنة تسلب الألباب إذا لم يراها أحد . وارتقى صانع حداثها إلى مصاف البرجوازية العليا بسبب إبداعه في فنه ، وكم من قصة حب كتبت عن قدم جميلة ، وهى عادة حذاء جميل وكان مثيرا إلى مثل هذا الحد تقريبا ، ذلك « الخف » المزين برسوم الأزهار ، الذى لا نعل له ، والذى كانت تلبسه ميلادى في البيت . وكانت مقيدة أيضا الأهداب والحواشى والمراوح والملابس النحفية المزخرفة التى كانت تجذب عين الرجل الزائفة أو تخفى جسم المرأة الحائرة في كل ناحية . وكان مشد الحصر والردين (الكورسيه) المصنوع من عظام فك الحوت يساعد على تشكيل هذا الجسم في القوام الأنيق الذى يقتضيه العصر ويلأئم المكانه الاجتماعية . وبرز جزء معقول من الصدر ليشهد بالامتلاء المناسب المريح . وكان الحلاقون وضيعة بسطاء . ولم تظهر تسريحة الشعر العالية إلا في ١٧٦٣ . وعالجت مستحضرات التجميل والتطرية لليدين والذراعين والوجه والشعر . وتختلف الرجال قليلا عن النساء في استخدام العطور . وكان وجه السيدة ينقش ويطل بالمساحيق ، وتوضع عليه بطريقة بارعة لصوق تجميلية أو شامات من الحرير الأسود مقطعة على شكل قلوب

أو قطرات من الدموع أو أقمار أو نيازك أو نجوم ، ويمكن أن يكون للسيدة العظيمة سبع أو ثمان من هذه اللصوق على جبهتها ، وصدغها وقرب عينيها وعلى جوانب الفم . وكانت تحمل صندوقاً للصوق فيه شامات إضافية تعوض بها ما قد يتساقط منها . وكانت المائدة في حجرة ملابس السيدة الغنية تتألق بالأدوات والمواد اللازمة لها - صناديق من الذهب والفضة أو الحجر اللازوردى ، مخصصة لحفظ أدوات الزينة . وتلايلات الجواهر الثمينة على الذراعين والرقبة والأذنين والشعر . وكان يسمح للرجال ذوى الخطوة بالدخول إلى حجرة ملابس السيدة ميلادى ليجاذبوها أطراف الحديث ، بينما كانت وصيفاتها تقمن باعدادها لبرنامج اليوم . وكان الرجال فى الطبقة الارستقراطية عبيداً للنساء كما استعبدوا للزى السائد للنساء ، أما الزى فيحدده مصمم ملابس النساء . وبعد ١٧٠٤ أعرضت فرنسا عن محاولات تحديد الزى أو الملابس ، عن طريق قوانين ضبط الإنفاق . واتبعت أوربا الغربية بصفة عامة أزياء فرنسا ، ولكن كانت هناك أيضاً موجة معاكسة فإن زواج لويس الخامس عشر من ماري لوكزنسكا أتى بطرز بولندية وأدخلت الحرب ضد النمسا والمجر أزياء مجرية ، وعمل زواج الدوفين من الأميرة الإسبانية مارياتريزا رافاييلا على انتشار « الطرحة » فى فرنسا من جديد .

ولم تكن وجبات الطعام منمقة مزخرفة مثل الثياب ، ولكنها تطلبت علماً دقيقاً متنوعاً ، كما تطلبت فناً رقيقاً . وكان المطبخ بالفعل النموذج الذى يحتذى فى العالم المسيحى ويمكن الخلط فيه . وفى ١٧٤٩ حذر فولتير قومه من أن وجبات الطعام الثقيلة التى يتناولونها « قد تصيب آخر الأمر أذهانهم بالتبلد » (٢٩) . وضرب مثلاً طيباً للغذاء البسيط وسلامة العقل والفطنة . وكلما ارتقت الطبقة ، ازداد ما تتناول من طعام . وعلى هذا كانت وجبة العشاء على مائدة لويس الخامس عشر تتكون من حساء ، وشواء من لحم البقر ، وطبق من لحم العجل ، وبعض الدجاج ، والحجل والحمام . ثم الفاكهة الطازجة والفاكهة المحفوظة (٣٠) ويقول فولتير « كان نفر قليل من الفلاحين يذوقون طعم اللحم لأكثر من مرة واحدة فى الشهر » (٣١) .

وكانت الحضرات ضرباً من الترف في المدينة حيث كان يصعب الاحتفاظ بها طازجة . وانتشر أكل السمك « الأنقليس » . وكان بعض السادة الكبار ينفقون ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً على المطبخ ، وأنفق أحدهم ٧٢ ألف جنيه على مأدبة عشاء أعدها للملك والحاشية . وكان رئيس الخدم في البيوتات الكبيرة شخصية مهيبة تثير الإعجاب ، يلبس ثياباً فاخرة ثمينة ، ويحمل سيفاً ، ويتألق في أصبعه خاتم من الماس . وكانت النساء الطباخات موضع ازدراء واحتقار ، وكمن طمع الطباخون وجهدوا في ابتداع أطباق جديدة ليخلدوا أسماء ساداتهم ، فأكلت فرنسا طبق شرائح لحم عجل المنظر الجميل (بل قى) - قصر مدام دي بمبادور المفصل لديها - « ودجاج فيلروا » وصلصة الميونيز ، تخليداً لذكرى انتصار ريشيليو في « ماهون » (٣٢) . وكانوا يتناولون الأكلة الرئيسية في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ، والعشاء في التاسعة أو العاشرة ليلاً .

وكانت القهوة آنذاك تنافس النبيذ شراباً . ولا بد أن ميشيليه (المؤرخ الفرنسي ١٧٩٨ - ١٨٧٤) أحب القهوة كثيراً ، حيث رأى أن تزايد تدفق البن من شبه الجزيرة العربية والهند وجزيرة البوريون والبحر الكاريبي أسهم في انتعاش الروح الذي ميز عصر الاستنارة (٣٣) . وكانت كل صيدلية تباع البن حبوباً أو القهوة المعدة للشراب على المنضدة الطويلة بداخلها . وفي ١٧١٥ كان في باريس ٣٠٠ مقهى ، وفي ١٧٥٠ زادت إلى ٦٠٠ ، كما وجد منها عدد مناسب في كل مدينة في الأقاليم وفي مقهى « بروكوب » وكان يسمى أيضاً « كاف الكهف » لأنه كان دائماً مظلماً ، كان ديدرو ينشر أفكاره ، كما كان فولتير يقصد إليه متنكراً لسمع التعليقات على أحدث روياته . وكان مثل هذا المقهى منتدى العامة حيث يلعبون الشطرنج أو « الضامه » أو « الدومينو » ، وفوق هذا وذاك يتجاذبون أطراف الحديث لأن الناس ازداد شعورهم بالوحدة والوحشة بازدياد السكان في المدن .

وكانت الأندية عبارة عن مقاه خاصة ، عضويتها مقيدة ، وتغلب عليها رعاية مصالح من نوع محدد . وحوالي ١٧٢١ أسس الراهب آلارى نادى

« دى لا ترسول » (عبارة عن طابق مسروق بين الطابق الأرضى والطابق الذى فوفه ، فى دار الراهب ، حيث كان يجتمع نحو عشرين من رجال السياسة والقضاء والحكم والأدب ليثدأرسوا شئون الساعة، دينية أو سياسية وكان بولنجرورك هو الذى جاء بهذا الاسم فأدخل لفظة CLUB إلى اللغة الفرنسية ، وهناك شرح الراهب دى سانت بيير براحه للإصلاح الاجتماعى والسلام الدائم ، مما أزعج بعضها الكاردينال فلىرى فأمر بفض النادى فى ١٧٣١ . وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس أيضاً أنصار جيمس الثانى اللاجئون من إنجلترا فى باريس أول دار فرنسية للبنائين الأحرار (الماسونيين) ، كانت ملجأً للربوبيين ، ووكراً للدسائس السياسية ، وأصبحت منفذاً للنفوذ الإنجليزى ومهدت الطريق للفلاسفة .

إن الرجال والنساء ، وقد أصابهم الضجر والسأم من الكدح والنصب فى أعمالهم اليومية كانوا يقصدون زرافات ووجدانا إلى المتنزهات وقاعات الرقص والمسارح وفرق الموسيقى والأوبرا ، وأولع الأثرياء بالصيد والقنص والبرجوازيون بالتنزهات الحلوية . وكانت غابة بولونيا والشانزلزية وحدائق التويرارى وحدائق لكسمبرج وحديقة النباتات أو حديقة الملك ، كما كانوا يسمونها آنذاك — أما كن مفضلة للتنزه فى المركبات أو مشياً على الأقدام ، ولقاء العشاق وعروض عيد الفصح . أما إذا لزم الناس بيوتهم فإنهم كانوا يتسلون بالألعاب المنزلية والرقص والموسيقى والتمثيلات الخاصة . وكان كل إنسان يرقص . وكان « البالية » قد أصبح فناً ملكياً معقداً . ظفر الملك فيه بنصيب من حين إلى حين . وكان راقص البالية مثل كامارحو أو لاجوسان معبود الجماهير فى المدينة ومشتهى أصحاب الملايين .

٤ - الموسيقى

كانت الموسيقى فى فرنسا قد انحطت منذ تفوق لى على مولير فى تسلية الملك الأعظم فلم يكن هنا فى فرنسا هذا الجنون أو الولع الشديد بالموسيقى الذى أدى بايطاليا إلى نسيان إذلالها أو خضوعها السياسى ، ولا التفانى الشديد فى أساليب التلحين ، الذى أوجد القداسات الضخمة والألحان الموسيقية

المطولة المبنية على رواية الإنجيل لآلام المسيح في ألمانيا على عهد باخ .

وكانت الموسيقى الفرنسية في عصر انتقال من الشكل التقليدي إلى زخرفة الباروك، إلى رقة الروكوكو ، ومن الطباق المعقد ذى الألفاظ المشوهة للحن ، إلى ألحان سلسلة متدفقة وأفكار رئيسية رقيقة تتلاءم مع الطبيعة الفرنسية . واستمر مؤلفو الموسيقى يخرجون أغاني الغزل أو الهجاء أو أغاني حزينة تتحدى الفتيات ، وتتحدى الملوك ، وتستنكر العزوبة والتواني . وامتدت رعاية الموسيقى من الملوك الذين يتطلبون العظمة والجلال إلى رجال المال الذين يدافعون عن حظوظهم مع الفرق الموسيقية والمسرحيات والشعر مما يستأثر به القلة من ذوى الجاه والنفوذ . وأخرجت أوبرا روسو « الموزيات الأنبيات » (إلهات تسع تحمين الشعر والغناء في الأساطير اليونانية) Les Muses Galantes في بيت الملزم العام بوبلنيير . وكان لبعض الأغنياء فرق موسيقية خاصة بهم . وكانت العروض أو الحفلات المفتوحة للجمهور مقابل رسم دخول ، تقدمها بانتظام في باريس « فرق الموسيقى الروحية » التي أنشئت ١٧٢٥ وتبعها في ذلك سائر المدن . وقدمت الأوبرا في باليه رويال « في وقت متأخر بعد الظهر عادة ، حتى إذا انتهت في الثامنة والنصف مساء ، قصد المتفرجون للتنزه في حدائق التويلري ، وأطربهم المغنون والعازفون في الهواء الطلق . وكان هذا واحدا من المظاهر الفاتنة في الحياة في باريس .

ولنا لندرك من مطالعة كتاب ديدرو « ابن أخى رامو » كم من الملحنين والموسيقيين البارعين أقبل الناس عليهم إقبالا شديداً في هاتيك الأيام ، على حين جر عليهم النسيان اليوم ذبوله . وثمة ملحن فرنسي واحد من تلك الحقبة خلف لنا أعمالا لا تزال تتشبث بالحياة . إن جين فيليب رامو أولع أيما ولع بالموسيقى . وكان أبوه عازف الأرغن في كنيسة سانت اتيين في ديجون . ويؤكد لنا كتاب السير المتحمسون أن جين استطاع في سن السابعة أن يقرأ أية موسيقى توضع أمامه بمجرد وقوع نظره عليها . وفي الكلية استغرق كل جهده في الموسيقى إلى حد أن الآباء اليسوعيين فصلوه ، وبعد ذلك

كاد جين لا يفتح كتاباً إلا في الموسيقى أو عن الموسيقى . وسرعان ما أصبح بارحاً في العزف على الأرغن والبيان القيثاري والكمان مما لم يكن بعده زيادة لمستزيد في ديجون . ولما وقع الشاب في شرك الغرام ، ورأى الوالد أن في هذا مضيعة لمواهبه أرسله إلى إيطاليا ليدرس أسرار الألحان فيها (١٧٠١) .

ولما عاد جان إلى فرنسا ، عمل عازفاً على الأرغن في كليرمونت فراند وخلف أباه في ديجون (١٧٠٩ - ١٧١٤) ، ثم رجع أدراجه إلى كليرمونت عازفاً على الأرغن ، في الكاتدرائية (١٧١٦) ، ثم استقر به المقام في باريس ١٧٢١ . وهناك في ١٧٢٢ وهو في التاسعة والثلاثين كتب مؤلفه الرائع عن النظرية الموسيقية في فرنسا في القرن الثامن عشر « رسالة عن علم الإيقاع موجزاً في أسسه الطبيعية » . وحاول رامو أن يبرهن أنه يوجد دائماً في التأليف الموسيقى السليم ، سواء كان موزعاً أو غير موزع - « قاعدة أساسية » يمكن أن تستمد منها كل الأنغام التي فوقها ، وأن كل النغمات المتألفة يمكن أن تستخرج من سلسلة إيقاعات النغمات الجزئية ، وأن كل هذه الأنغام يمكن أن تقلب دون أن تفقد هويتها . إن رامو كتب بأسلوب لا يفهمه إلا أكثر الموسيقيين تبحراً ومعرفة بالموسيقى ، ولكن أفكاره سرت دالمبرت الرياضي ، الذي شرحها بشكل أوفى ١٧٥٢ وإنك لتجد أن قوانين الترابط الوترى التي صاغها رامو ، مقبولة في عصرنا هذا أساساً نظرياً للتأليف الموسيقى (٣٤) .

وشن النقاد هجومهم على رامو ، فرد عليهم هو بتأليف وتفاسير ، حتى حظى بالتقدير والإجلال بما أخضع له الموسيقى من قوانين ، كما فعل نيوتن بالنسبة للنجوم (٣٥) . وفي ١٧٢٦ - وهو في سن الثالثة والأربعين تزوج من ماري ماجنو ، إذ ذاك في الثامنة عشرة . وفي ١٧٢٧ وضع موسيقى مسرحية فولتير الغنائية « سمسون » ولكنهم حظروا إخراجها على أساس أن قصص الكتاب المقدس لا يجوز تحويلها إلى أوبرا . وكان على رامو أن يكسب قوته بالعمل عازفاً للأرغن في كنيسة « سانت كروادي لا بروتيري » . وبلغ الخمسين من العمر قبل أن يغزو مسرح الأوبرا .

وفي ١٧٣٣ قدم له الراهب بللجرين أوبرا « هبوليريت وأريسي » ،
المبذية على رواية راسين « فدر » ولكن الراهب حصل من رامو على صك
بمبلغ خمسمائة جنيه ضماناً في حالة سقوط الأوبرا . ولما مثلت على سبيل
التجربة ابتهج الراهب بموسيقاها أيما ابتهاج ، إلى حد أنه مزق الصك في
نهاية الفصل الأول . ولما مثلت أمام الجمهور في أكاديمية الموسيقى أدهشت
المتفرجين بخروجها الجريء عن الأنماط التي كانت قد أصبحت تقاليد مقدسة
منذ عهد لى . واعترض النقاد على ما آتى به رامو من إيقاعات جديدة
غريبة ، وتغييرات مبتدعة في طبقة الصوت وتعقيدات في التوزيع الموسيقي
بل إن الفرقة الموسيقية نفسها كرهت الموسيقى . وفكر رامو لبعض الوقت
في التخلي عن محاولاته في مجال الأوبرا ولكن محاولاته الثانية
Les Indes galantes (١٧٣٥) حظيت بإعجاب المتفرجين بتدفق ألحانها
المنسقة ، أما أوبرا Castor et Pollux ١٧٣٧ فكانت من أروع الانتصارات
في تاريخ الأوبرا الفرنسية .

وأفسده النجاح . وتفانخر بأنه في مقدوره أن يحول أى نصر إلى أوبر
جيدة وأن ينقل صحيفة أى جريدة إلى موسيقى . وأنتج (٣٦) سلسلة طويلة
من الأوبرات غير الهامة . ولما ضاق مديرو أكاديمية الموسيقى ذرعاً به
انصرف إلى تأليف قطع للبيان القيثاري والكمان والفلوت . وأخذ لويس
الخامس عشر - أو بالأحرى مدام دي بمبادور - بيده ، باستخدامه في
كتابة موسيقى رواية فولتير « أميرة نافار » . التي لقيت في فرساي نجاحاً
أعاد له مكانته (١٧٤٥) ونال رضا الأكاديمية من جديد ، وكتب مزيداً
من روايات الأوبرا . وولد ألفت باريس أسلوبه فلإنها نسبت لى . ونادت
برامو ملكاً على دنيا الموسيقى بلا منازع .

وفي ١١٥٢ وجد نفسه يواجه تحدياً جديداً . ذلك أن بعض الفنانين
العازفين والملحنين كانوا قد قدموا من إيطاليا . ومن ثم بدأت حرب صاخبة
بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الإيطالية التي بلغت ذروتها في السبعينات
بالموسيقار بتشيني ينافس جلك Gluck . وفي دار الأوبرا في باريس قدمت

فرقة إيطالية مع أوبرا برجوليزي « La serva Randona » فاصلاً موسيقياً وهي من روائع الأوبرا الهزلية ورد أنصار الموسيقى الفرنسية على ذلك بالنشرات وبقطع رامو . وانقسمت الحاشية إلى معسكرين وناصرت مدام بمبادور الموسيقى الفرنسية على حين دافعت الملكة عن الموسيقى الإيطالية ، وهاجم جريم الأوبرا الفرنسية بأسرها (١٧٥٢) وأعلن روسو أن الموسيقى الفرنسية بغیضة لا تطاق . والعبارة الأخيرة في مؤلفه « رسالة في الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) تدل أبلغ دلالة على خله العاطفي قال : « وفي اعتقادي أتى قد أوضحت أن الموسيقى الفرنسية مجردة من الوزن والتناغم معاً ، لأن اللغة لا توفر لها هذا أو ذاك . والغناء الفرنسي مجرد نباح وشكوى متصلتين ولا تطيقه الأذن غير المتحيزة ، وأن إيقاعها غير مستساغ وإنها لا تعبر عن شيء ولا تشعر إلا بما تلقت عن معلمها ، وأن النغم الفرنسي ليس نغماً ، وأن المقاطع الصوتية الفرنسية ليست مقاطع صوتية . ومن ثم انتهت إلى أن الفرنسيين ليس لديهم موسيقى ، ولن يكون لهم شيء منها وإذا قدر لهم أن يكون لديهم شيء من الموسيقى فستكون وبالا عليهم » .

وانتقم أنصار الموسيقى الفرنسية بخمس وعشرين نشرة أصدروها ضد روسو ، وأحرقوا تمثالاً له على باب دار الأوبرا (٣٧) واستخدم رامو ، على كره منه ، عنصراً رئيسياً في حرب المهرجين ، فلما هدأت المعركة وأعلن انتصاره فيها اعترف هو نفسه بأن الموسيقى الفرنسية لا تزال في حاجة إلى أن تتعلم الشيء الكثير عن الموسيقى الإيطالية ، وقال إنه لو لم تكن سنه قد كبرت إلى هذا الحد ، لعاد إلى إيطاليا ليدرس طرق برجوليزي وغيره من الأساتذة الإيطاليين .

وكان رامو آنذاك في قمة شعبيته ، ولكن كان له أعداء كثيرون قدامى وجددد . وأضاف إليهم بنشرة أصدرها يعرض فيها أخطائه التي وردت في المقالات التي ظهرت عن الموسيقى في دائرة المعارف . فما كان من روسو ، وهو كاتب معظم هذه المقالات إلا أن انقلب عليه وازداد مقتناً له . أما ديدرو أبو دائرة المعارف فإنه كان السباب للملحن العجوز في لباقة تبعث

على الاحترام في « ابن أخى رامو » التي لم ينشرها تفضيلاً منه وكرماً ، قال : إنه الموسيقار الشهير الذي نخلصنا من موسيقى اللي المتعددة الأصوات التي ترنمنا بها لأكثر من قرن من الزمان ، والذي كتب كلاماً كثيراً خيالياً غير مفهوم وحقائق غامضة عن نظرية الموسيقى — وهي كتابات لم يفهمها هو ، ولا أحد غيره قط . إنه أخرج لنا عدداً من الأوبرات التي يجد فيها المرء أنغاماً متألقة وشيئاً من الغناء ، والأفكار غير المترابطة والثرثرة في سرعة وجلبة ، والحركات السريعة ومواكب النصر والحرب والمثل العليا وألحان الرقص . . . مما سيبقى إلى الأبد (٣٨) .

وحيث ظهر رامو في إحدى المقصورات ١٧٦٠ — وهو في سن السابعة والسبعين لمناسبة إعادة أوبرا « داردانوس » وهي من إخراجيه ، لقي احتفاء وترحيباً حماسياً كاد يفوق ما قبل به فولتير بعد ذلك بثمانية عشر عاماً . ومنحه الملك براءة النبالة . وأعفته هو وأسرته دييجون الفخورة بابنها من الضرائب البلدية مدى الحياة . وانتابته وهو في قمة مجده حمى التيفويد ، وذبل بسرعة وقضى نحبه في ١٢ سبتمبر ١٧٦٤ وشيعته باريس باحتفال مهيب حيث ووري التراب في كنيسة سانت أوستاش . وأقامت مدن كثيرة في فرنسا الصلوات تكريماً له .

٥ — الصالونات

كانت باريس العاصمة الثقافية للعالم ، أكثر متها لفرنسا . قال ديكلوس « إن هؤلاء الذين يعيشون على مسافة مائة فرسخ من العاصمة إنما يبعدون عنها بمائة عام من حيث أساليب السلوك والتفكير » (٣٩) وربما لم توجد عبر التاريخ قط مدينة تعج بحياة متنوعة الألوان . فالمجتمع الملهذب المصقول وفنون الأدب الرفيع ائتلفا في رباط وثيق مذهل . وكان الخوف من الجحيم قد زال عن الباريسيين المتعلمين وتركهم في حالة من المرح والابتهاج لم يسبق لها مثيل ، لا يلقون بالا في وثوقهم الجديد بأنه ليس هناك عملاق رهيب قد ير في السموات ، يسترق السمع إلى خطاياهم ويحصيها عليهم . ومن تحرير الدهن على هذا النحو لم تنجم بعد آثار كثيفة من عالم مجرد من القداسة

(م ٦ — قصة الحضارة)

والهدف الخلقى ، عالم يرتجف في زمهرير التفاهة والحقارة ، وكان الحديث شائقا تتمخله الدعابة والمرح . وغالبا ما انتقل إلى هزل ظاهري ، وهنا كان التفكير ينحصر في ظواهر الأمور خشية عدم العثور على شيء في أعماقها . وكان القيل والقال والفضائح تنتشر بسرعة من ناد إلى ناد ومن بيت إلى بيت ، وكثيراً ما تطرق الحديث إلى آفاق خطيرة في السياسة والدين والفلسفة ، مما قد يتيسر الخوض فيه اليوم إلا نادرا .

وكان المجتمع متألقا ، لأن السيدات كن مبعث الحياة فيه . وكن المعبودات التي قدسها هذا المجتمع ، وهن اللاتي تولين توجيهه ، وبطريقة ما وبرغم العرف والعوائق أتيح لبعضهن قدر من التعليم يكفي لتبادل الحديث في فطنه وذكاء مع أئمة الفكر الذين أحبن أن يستضيفوهم . ونافس الرجال في الاستماع إلى محاضرات رجال العلم^(٤٠) . إذ عاش الرجال قليلا في المعسكرات وطالت إقامتهم في العاصمة وفي الحاشية فقد تزايد إحساسهم بالمفائن غير الملموسة في النساء — رشاقة الحركة ، عذوبة الصوت حيوية الروح ومرحها ، بريق العينين ، رهافة الذوق ، الجزع المشوب بالحنان والحب ، النفس المشربة بالرخمة والشفقة . إن تلك الصفات جعلت المرأة محبوبة في كل مدينة ولكنا ربما لا نجد في أية ثقافة أخرى أن الطبيعة والتعليم والملابس والحلي وأدوات التجميل والزينة قد جعلت من المرأة مخلوقا يسحر الألباب بقدر ما كانت عليه في فرنسا القرن الثامن عشر . وكل هذا المفائن والمغريات لا تستطيع على أية حال أن نفسر سلطان المرأة وقوتها . إن الذكاء في معالجة الرجال وسياستهم أمر ضروري . وبارى ذكاء النساء عقل الرجال وفي بعض الأحيان تفوق عليه . وعرف النساء الرجال أفضل مما عرف الرجال النساء . والرجال يندفعون في تهور بالغ إلى أفكار لتنضج حتى تفهم ، على حين إن التراجع المحتشم المطلوب حتى من السيدة المفتحة ، هيا لها فسحة من الوقت للملاحظة والتجريب وتخطيط حملتها أو هجومها .

وكلما ازدادت حساسية الرجل اتساعا وعمقا ، نما تأثير المرأة ونفوذها . وقتشت البسالة في ميدان الحب عن جزاء وفاق لها في الصالون وفي مخدع

المرأة وفي الحاشية على حد سواء . وكما اهتم الشعراء طرباً حين وجدوا آذاناً صاغية من الجنس الرقيق . وكما رفع من شأن الفلاسفة تفضل السيدات ذوات التهذيب الرفيع والمكانة العالية بالاستماع إليهم ، بل إن أغزر العلماء علماً وأوسعهم إطلاعاً وجدوا في الصدور الناعمة وفي حفيف الرقص مثاراً للفكر والعقل . وهكذا مارست المرأة قبل « تحريرها » سيادة طبع العصر بطابعها المتميز . وتذكرت مدام فيجى لبرون فيما بعد « كانت المرأة تحكم آنذاك ، ثم ثلت الثورة عرشها » (١) . إن النساء لم يعلمن الرجال آداب السلوك والعادات فحسب ، بل لهن كذلك رفقن أو خفضن من درجاتهن في الحياة السياسية ، بل حتى في الحياة العلمية . من ذلك أن مدام دي تنسان هيأت اختيار ماريغو بدلاً من فولتير ، لعضوية مجمع الخالدين (الأكاديمية فرانسير) في ١٧٤٢ . وكان شعار « فلتش عن المرأة » وسيلة النجاح ، فإنك إذا عثرت على المرأة التي يحبها الرجل ، كشفت عن المنفذ الذي تصل منه إلى الرجل الذي تريد .

كانت كلودين الكسندرين دي تنسان — بعد بمبادور — هي السيدة الأكثر إمتاعاً وتشويقاً بين النساء اللاتي سيطرن على فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر . وقد عرفنا كيف هربت من أحد الأديار . وأنجبت دالمبرت ، واتخذت لها مسكناً في باريس في شارع سانت أونوريه حيث استقبلت مجموعة متعاقبة من العشاق ، بينهم بولنجبروك ، ريشيليو ، فونتنيل (صموت ولكنه نشيط قوى في سن السبعين) وعدداً من الرهبان ومدير الشرطة في باريس . وأضافت الشائعات أخاها بيير إلى قائمة المترددين عليها ، ولكن ربما أحبته لمجرد أنها أخت حنون مصممة على تنصيبه كاردينالاً ، إن لم يكن رئيساً للوزراء . وعن طريقه وعن طريق غيره دبرت أن تكون ركناً قوياً في حياة فرنسا .

إنها جمعت المال أولاً : . واستثمرته على طريقة دكتور لو ، ولكنها باعت الأسهم في الوقت المناسب . وقبلت الحراسة على ثروة شارل جوزيف دي لا فرزني ، ثم أبت إعادتها إليه ، فانتحرت في دارها ، تاركة وصية

يتهمها فيها بالسرقة (١٧٢٦) ، وأرسلت إلى الباستيل ولكن أصدقائها دبروا أمر الإفراج عنها ، واحتفظت بمعظم الثروة . ونحدت ثروة المدينة والحاشية ، وخرجت منها سالمة .

وحوالى ١٧٢٨ أفاضت مدام دي تنسان إلى مخدعها صالوناً اتخذته سلماً ترقى به إلى السلطة والقوة ، واستقبلت فيه مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، على مائدة العشاء عدداً من الرجال البارزين ، أطلقت عليهم « معرض الوحوش » منهم مونتنييل ، مونتسكيو ، ماريفو ، بريفوست ، هلفشيوس ، استروك ، مارمونتيل ، هينولت ، ديكلوس ، مابلى ، كوندرسيه ، وأحياناً تشستر فيلد . وكانت المجموعة كلها من الرجال عادة لأن تنسان لم تكن تطيق على مائدتها أية منافسات . ولكنها أطلقت « لوحوشها » العنان ، ولم تغضب قط لرفضهم السافر للمسيحية . وتساوى كل الناس من كل الطبقات هناك ، فكان الكونت النبيل فى مستوى الرجل من العامة ، وقد تروى التقاليد فيما بعد أنه هنا كانت تجرى أكثر المناقشات تألقاً ودقة طوال هذا القرن ، قرن الحديث الذى لا حدود له (٤٢) .

وعن طريق ضيوفها وعشاقها وكهنة اعترافها استخدمت نفوذها لتحقيق أهدافها بطريقة سرية فيما بين فرنسا ورومة . ولم يكن أخوها طموحاً ، بل كان يتوق إلى البساطة فى الحياة والهدوء فى الأقاليم ، ولكنها سعت حتى عين رئيس أساقفة ثم كاردينالا ، وأخيراً وزيراً فى مجلس الدولة . وعاونت على أن تجعل من مدام شاتورو نخليلة للملك ، واستحثتها على حث الملك ليقود جيشه فى الحرب . إنها رأت فى بلادة لويس وتكاسله مصدراً للاضمحلال السياسى ونذيراً بهذا الاضمحلال . وربما كانت على صواب فيما فكرت فيه من أنها لو تولت رئاسة الوزارة للقيت الحكومة نجاحاً أكبر ، وأظهرت نشاطاً وحيوية أكثر . وناقش رواد صالونها فى جرأة انحلال الملك واحتمال قيام الثورة .

ون شيخونحتها نسيت خطاياها ، وانضمت إلى اليسوعيين وشنت الحملات على الجانسينيين ، ونبادت رسائل المودة مع البابا بندكت الرابع عشر الذى

أرسل إليها صورته اعترافاً منه بخدماتها للكنيسة . إن رقة الفؤاد التي ازدانت بها أخطاؤها ، وجدت لها منافذ كثيرة . ولما قابل الجمهور في بداية الأمر كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) بعدم الاكتراث اشترت تنسان كل نسخ الطبعة الأولى تقريباً ، ووزعتها مجاناً على أصدقائها الكثيرين . وتولت رعاية ما رمونت الشاب وأسدت إليه النصيح أن يعقد فوق كل شيء ، أواصر الصداقة مع النساء ، لا الرجال ، وسيلة للارتقاء والصعود في هذا العالم (١٣) . وأصبحت هي نفسها ، في سني شيخوختها وضعفها الأخيرة ، كاتبة ومؤلفة ، وستر الطيش والحماقة بإغفال ذكر اسمها على ما ألفت . وقارن أصدقائها النقاد قصتها بقصة مدام دي لا فاييت (برنيسيس دي كليف Princesse de Cleves) .

وفارقت مدام تنسان الحياة في ١٧٤٩ وهي في الثامنة والستين . وعندئذ تساءل فونتينيل العجوز « أين أتناول العشاء مساء الثلاثاء الآن ؟ » ولكنه أجاب لنفسه في ابتهاج على الفور « حسناً » ، عند مدام جيوفرين (١٤) . وربما ألتقينا به هناك .

كان صالون مدام دي دفاند قديماً قدم صالون تنسان ، كما عمر مثل ما عمر صالون جيوفرين تقريباً . إن ماري دي فيشي شامروند باتت يتيمة وهي في سن السابعة فوضعت في دير اشتهر بالتعليم ، فبدأت تدرس وتأمل في سن مبكرة الألوان ، وكانت تلقى أسئلة تنسم بالتشكك إلى حد مزعج ، وإذا وقعت الراهبة في حيرة من أمر الصبية وأسئلتها فإنها أحالتها إلى الواعظ المتفقه ماسيون ، الذي عجز عن تفسير المسائل الغامضة ، فتغلى عنها ياساً من إنقاذها من الضلال . وفي سن الحادية والعشرين أصبحت مركيزة دي ديفان بزواج تم عن تراض بين الطرفين ، ولكنها سرعان ما تبينت أن زوجها شخص مبتدل يمل إلى حد لا يحتمل ، فافترقا بعد اتفاق وفر لها ثروة لا بأس بها . وفي باريس وفرساي انصرفت إلى لعب الميسر في اندفاع شديد « لم أفكر في شيء إلا القمار » ولكن بعد ثلاثة أشهر منبت فيها بخسائر فادحة ، « تولاني جزع شديد ، وحزنت على ما أنا فيه ، ونأيت بنفسي

عن هذه الحماقة » . وقضيت فترة قصيرة خلية للوصى (٤٥) . ثم تنحت عنه إلى عدوته الدوقة دي مين . وفي مسكو ألتقت بشارل هنولت رئيس مجلس التحقيق العسكرى ، الذى أصبح عشيقاً لها ، ثم صديقاً مدى الحياة .

وبعد أن أقامت لبعض الوقت مع أخيها انتقلت إلى نفس الدار فى شارع دي بون ، التى قضى فيها فولتير نجه . وإذا اشتهرت بجمالها وعينها البراقنتين وذكائها الحاد ، فلما جذبت إلى مائدتها (حوالى ١٧٣٩) نفراً من مشاهير الرجال الذين جاءوا ليؤلفوا صالونا يذيع صيته كما ذاع صيت صالون تفسان تقريباً : هنولت ، مونتسكيو ، فولتير ، مدام دي شانيليه ، ديدرو ، دالمبرث ، مارمونتيل ، مدام دي ستال دي لونية وفى ١٧٤٧ ، وقد بلغت آنذاك الخمسين ، وخفضت من غلواتها بعض الشيء ، استأجرت شقة جميلة فى دير سان جوزيف فى شارع سان دومينك . وكان من عادة الأديار تأجير غرف للعرائس والأرامل والنساء اللاتي افترقن عن أزواجهن ، وكانت هذه المساكن عادة فى أبنية خارج المبنى الأساسى الخاص بالراهبات . ولكن فى حالة هذه المتشككة الثرية ، كان المسكن داخل جدران الدير ، والحق إنه المسكن الذى كان قد آوى تحت سقفه مؤسسة هذا الدير الآثمة ، مدام دي مونتسبان . وتبع صالون المركيزة شخصها إلى مقرها الجديد . ولكن ربما أزعجت البيئة المحيطة به الفلاسفة ، فلم يعد ديدرو يحضر ونادراً ما كان يحىء مارمونتيل ، وكان جريم يتردد بين الحين والحين ، وسرعان ما انقطع دالمبرث . ومعظم المجموعة الجديدة فى سان جوزيف كانوا من سلالة الأستقراطية القديمة : مارشال لكسمبرج ومارشال ميربوا وعقياتهما ، دوقا ودوقتا دي بوفلوز ودى شوازيل ودوقات اجوبون وجرامونت وفيلروا وصديق مدام دي ديفاند من أيام طفولتها ولمدى الحياة ، وهو بونت دي فيل . وكانوا يلتقون فى السادسة ، ويتناولون العشاء فى التاسعة ثم يلعبون الورق والميسر ؛ ويتناولون بالتحليل والتفصيل الأحداث الجارية فى عالم السياسة والأدب والفن ، ثم يفترقون . فى نحو الساعة الثامنة صباحاً . وكان الأجانب البارزون ، الوافدون على باريس يحتالون للحصول على

دعوة إلى « مأوى النبلاء » هذا . وروى لورد باث في ١٧٥١ « اني لا ذكر أمسية دار الحديث فيها عن تاريخ إنجلترا ، وكم دهشت وارتبكت حين وجدت أن هؤلاء القوم عرفوا من تاريخ بلادنا خيراً مما عرفنا نحن عنه ! » (٤٦)

وتفردت دي ديفاند بأصفي دهن وأسوأ خلق بين صاحبات الصالونات فكانت مغرورة متغطسة عيابة شكافة ، أنانية أكثر مما يليق بالمرء أن يكون . ولما عالج كتاب هلفشيوس « الروح » ما ذهب إليه لاروشفوكول من أن كل الدوافع الإنسانية أنانية ، علقت هي بقولها في ازدراء « إنه إنما كشف عن سر كل إنسان » (٤٧) وكانت تجيد الهجاء المشوب بالحقد والضعينة كما فعلت في وصفها مدام دي شاتيليه . ولم ترق في الحياة الفرنسية إلا الجوانب التافهة الضعيفة . وذهبت إلى أن الفقراء اشتركوا ، بقدر ما سمحت به ظروفهم في رذائل الأغنياء ومساوئهم . ولم تضيف شيئاً إلى التطلعات المثالية للفلاسفة سوى ما جاءت به العقيدة العتيقة من أساطير مغرية مريحة للنفس . وتجنّب الاستنتاجات وآثرت العادات القويمة . واحتقرت ديدرو ونعته بأنه جلف ساذج . وأحبت دالمبرث ثم عادت فكرهته . وأعجبت بفولتير لأنه سيء السلوك حاد الذهن . والتقت به في ١٧٢١ وعندما هرب من باريس ، ثم شرعت في ١٧٣٦ تبادل الرسائل التي تعد من الروائع في الأدب الفرنسي ولم تقل رسائلها عن رسائله . رقة وعمقاً وصفاء وروعة ولكنها لم تبلغ ما بلغه هو في رسائله من لطف وسهولة وبعد عن التكلف والكياسة .

وفي سن الخامسة والخمسين بدأت تفقد بصرها ، واستشارت كل متخصص في طب العيون ، ثم لجأت إلى كل دجال ومشعوذ . وبعد ثلاث سنوات من الكفاح والعناء ذهب بصرها تماماً (١٧٥٤) ، ويومذاك أندرت أصدقاءها بأنهم إذا استمروا في شهود أمسياتها فإنه يجدر بهم أن يحتملوا السيدة العجوز الضريرة . وعلى الرغم من هذا قصدوا إليها . وأكد لها فولتير من جنيف أن ذكاءها وفطنتها باتا أكثر تألقاً مما كانت نختي وهي مبصرة ، وشجعها على المضي في الحياة حتى لمجرد أن تثير غضب من يدفعون لها

رواتها السنوية . ووجدت في جولى دى لسبيناس شابة لطيفة نشيطة فاتنة تعاونها على أن تستقبل وتستضيف الأصدقاء . وكانت هي آنذاك تتصدر المائدة وكأنها هومر الأعمى يتصدر مائدة مستديرة وحوله الحكماء وشعراء الملاحم البطولية ، وكانت تنتقل هنا وهناك وقورة شائخة متحدية لمدة ستة وعشرين عاماً آخر . وإنا لنأمل أن نلتقى بها هي أيضاً مرة أخرى .

ولقد كان عصرآ مشرقاً زاهياً ، لأن النساء تألقن فيه ، وجمعن فيه بين الذكاء والجمال ، مما لم يسبق له مثيل . وبفضلهن ألهب الكتاب الفرنسيون الفكر بالعاطفة ، وزينوا الفلسفة بالظرف وخفة الروح . وكيف كان ينسنى لفولتير أن يكون فولتير بغير وجودهن ؟ حتى ديدور الفظ الغامض اعترف بقوله « إن النساء عودتنا أن نناقش أشد الموضوعات جفافاً وتعقيداً ، بشكل ساحر واضح ، إننا نحدثهم حديثاً متواصلاً ، ونريد منهم الإصغاء إلينا ، ونخشى أن يتولاهن التعب أو الضجر . ومن ثم كنا نستخدم طريقة معينة في إيضاح آرائنا لمن في يسر وسهولة . وكانت هذه الطريقة تنتقل من مجرد الكلام إلى أسلوب » (٤٨) وبفضل النساء أصبح النثر الفرنسي أكثر إشراقاً ووضاءة من الشعر واكتسبت اللغة الفرنسية سحرآ رقيقاً ، ورشاقة في العبارة ولباقة في الحديث مما جعلها بهيجة ذات مكانة رفيعة . وبفضل النساء انتقل الفن الفرنسي من طراز الباروك الغريب الشاذ إلى الشكل المهدب المصقول والدوق الرفيع ، مما ازدانت به كل مظاهر الحياة في فرنسا .



الفصل التاسع

عبادة الجمال

١ — انتصار الروكوكو

في هذا العصر ، فيما بين الوصايا وحرب السنين السبع — عصر طراز لويس الخامس عشر — كانت النساء تتحدى الآلهة : أى الفريقين أحق بالعبادة ، وكان السعى وراء الجمال ينافس الإنصراف إلى التبتل والورع ، والإندفاع إلى الحرب . وفي الفن والموسيقى ، كما في العلوم والفلسفة ، تراجع كل ما هو فوق الطبيعة أمام كل ما هو طبيعي . إن هيمنة المرأة على ملك حساس شهواني ، هيأت اعتباراً جديداً أو مكانة جديدة للرہافة ورقة الوجدان . كما أن الاتجاه إلى مذهب اللذة والمتعة في الحياة الذي كان قد بدأ على عهد فيليب دي أورليان ، بلغ ذروته في أيام بمبادور . وأصبح الجمال أكثر من أى وقت مضى ، أمراً ذا « قيم ملموسة » فكان شيئاً يسر المرأة أن يلمسه بيده أو تقع عليه عيناه ، ابتداء من خزف سيفر إلى لوحات بوشيه العارية . وتخلّى المهيب الفخم عن مكانه للبهيج السار والجليل الوقور للرشيق الرقيق ، وكبر الحجم لفئة الرشاقة ، وكان الروكوكو فن أقلية أبيقورية غنية متلهفة على الاستمتاع بكل لذة قبل انقضاء دنياها السريعة الزوال ، في غمرة طوفان من التغيير تتعجل حسدوثة . وفي هذا الطراز الدنيوى الصريح طفرت الخطوط فرحاً ، ورقّت الألوان ، ونحلت الأزهار من الأشواك ، وتجنبت الموضوعات الفاجعة لتؤكد الإمكانات الباسمة المشرقة في الحياة ، وكان الروكوكو آخر مرحلة في الباروك من تمرد الخيال على الحقيقة والواقع ، ومن ثورة الحرية والإنطلاق على النظام والقواعد . ومع ذلك لم تكن حرية مخلة ، بل ظل إنتاجها يحتفظ بالمنطق والتركيب ، ويعطى المغزى شكلاً . ولكنها كرهت الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة ، ونفرت من التماثل ، وآلمها أن تترك أية قطعة أثاث ذون نقوش . وعلى

الرغم من أناقة الروكوكو الجمذابة ، فإنه أنتج آلافاً من الأشياء التي لا يفوقها شيء في رشاقتها وزخرفتها . ولمدة نصف قرن من الزمان جعل الروكوكو من الفنون الصغيرة أسمى فن في فرنسا .

وعلى قدر علمنا لم يوجد قط مثل هذا النشاط من قبل . وقليل ما كان مثل هذا التفوق والامتياز ، في مجالات الأعمال الجمالية . تلك المجالات التي كانت يوماً أقل شأنًا . وفي تلك الحقبة صار الفنان والحرفي مرة أخرى شخصاً واحداً كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى . وكان هؤلاء القادرون على تجميل الجوانب الخصوصية في الحياة . وضع تكريم مع الرسامين والمثالين والمعماريين في هذا العصر .

ولم يبلغ الأثاث قط من قبل هذه الدرجة من الروعة والاتقان . ولم يعد أثاث طراز « لويس الخامس عشر » ضخمًا مثل ما كان في عهد الملك العظيم ، وقد كان تصميمه مقصوداً للراحة ، ولا للعظمة والوقار ، وكان أكثر ملاءمة لجسم المرأة وملابسها ، منه للجلال والتباهي ، واتخذت الأرائك أشكالاً شتى ، لتتناسب مع الأوضاع الجسمية والأمزجة . وكتب فولتير « إن السلوك الاجتماعي أيسر اليوم منه في الماضي ، ويمكن أن ترى السيدات يقرأن على الأرائك أو أسرة النهار (سرير ضيق يحول في النهار إلى أريكة) دون أن يسببن أى إزعاج أو مضايقة لأصدقائهن ومعارفهن^(١) . وكان السرير يتوج بظلة رقيقة جميلة وتزين ألواحها بالصور والرسوم أو تنجد ، وتنقش قوائمه نقشاً جميلاً . وطورت أنماط جديدة من الأثاث لتواجه حاجات جيل آثر فينوس على مارس (آثر آلهة الجمال على إله الحرب) وأخذ الكرسي المنجد ذو الدراعين والوسادة الوثيرة (البرجير) والأريكة المكسوة بنسيج مزدان بالصور والرسوم ، والكرسي الطويل (شيزلنج) ومائدة الكتابة القراء (ما يوضع عليه الكتاب عند القراءة) ومنضدة الحوض في حجرة النوم والمائدة المثبتة إلى الحائط تحت مرآة (الكونسول) ، ومسند القدمين ، والخزانة العالية ذات الأدراج ، وصوان السفرة — كل هذه الأشياء أخذت آنذاك أشكالها ، وفي الغالب أسماءها التي احتفظت في الواقع

بها إلى يومنا هذا . وأسرفوا في النقش وغيره من ألوان الزخرفة والتزيين إلى حد أثار رد فعل في النصف الثاني من القرن ، وتطعيم خشب الأثاث بالصدف أو المعادن الذي أدخله أندريه شارل بوليه في عهد لويس الرابع عشر ، وأهمله أبنائه من بعده ، حيث كانوا نجاري الأثاث لدى لويس الخامس عشر وغطت تشكيلة كبيرة من التطعيم سطح الخشب الملون أو المكسو بقشرة رقيقة أو المدهون بورنيش الك « ووضع فولتير » أشغال الك « في فرنسا القرن الثامن عشر ، في رتبة سواء مع ما كان يرد منها من الصين أو اليابان . أما الحرفيون من أمثال كرسنت ، أو بورد اوبن ، كافيري ، وميسونيه فقد بلغوا من التفوق والتبريز في تصميم الأثاث وزخرفته درجة حدث بنجاري الأثاث الأجانب إلى القدوم إلى فرنسا للدراسة أساليبهم ، ثم نشروا الطراز الفرنسية من لندن إلى بطرسبرج . وجمع جوست أوريل ميسونيه بين عشرة فنون أو تزيد ، فبنى البيوت ، وزخرف أجزاءها الداخلية ، وصنع الأثاث على أحدث طراز ، وصنع « الشمعدانات » والآنية الفضية للمائدة وصمم علب السعوط وأغطية الساعات ، ونظم المشاهد الفاخرة ، وألف عدة كتب دون فيها مهاراته وفنونه . وكاد أن يكون الرجل العالمي في زمانه .

وقد حلت الألفة والعلاقات الحميمة في الحياة على عهد لويس الخامس عشر محل التمسك بالرسميات الذي ساد القرن السابع عشر ، فإن الزخرفة الداخلية انتقلت من الفخامة والأبهة إلى الرقة . وفي هذا أيضاً بلغ العصر الذروة ، فالأثاث والبسط والسجاد والتنجيد والقطع الفنية ، وساعات الحائط والمرايا ، والإطارات والأنسجة المزدانة بالصور والرسوم والستائر واللوحات والسقوف والشمعدانات ، حتى خزائن الكتب - صنعت كلها في تناسق في الألوان والطراز يسر الناظرين . وقد يساورنا الظن بأن الكتب كانت تشتري للون جلدها والمادة المصنوعة منها قدر ما تشتري من أجل محتوياتها ، ولكننا يمكن أن ندرك هذه اللذة أيضاً . وإنا لننظر بعين الحسد إلى المكتبات الشخصية الخاصة المرصوفة وراء الزجاج في خزائن جميلة

مرتكزة إلى الحائط : وكانت حجرات الطعام نادرة في فرنسا قبل ١٧٥٠ ، أما موائد الطعام فكانت تصنع بحيث يمكن بسهولة تمديدتها لمضاعفة عدد الجالسين إليها وإزالتها ، لأن ضيوف العشاء قد يبلغون عدد كبيراً لا يمكن التنبؤ به . ولم تعد المدافئ من ذاك الطراز الضخم الذي كان قد انحدر من العصور الوسطى إلى عشر لويس الرابع عشر ، ولكنها إزدانت بزخرفة مترفة ، وفي بعض الأحيان (وهذا مثال نادر للذوق السقيم في هذه الحقبة) كانت تماثيل للمرأة تستخدم بمثابة أعمدة تحمل رفوف المدفأة . وكانت كل التدفئة تقريباً عن طريق مدافئ مفتوحة تسترّها حواجز مزخرفة ، ولكننا كنا نجد هنا وهناك في فرنسا ، كما كان في ألمانيا ، موقداً مكسوّاً بالخزف المزخرف . وكانت الإضاءة بالشموع التي تثبت بمائة طريقة مختلفة ، تبلغ أقصى روعتها في الشمعدان الضخم المتألق ، المصنوع من البللور أو الزجاج أو البرونز . وإنا لنعجب من كثرة القراءة على ضوء الشموع ، ولكن ربما قلت المشاق من إنتاج الهراء واستهلاكه .

ومع تقدم القرن ، حلت اللوحات الحائطية الزاهية الألوان والمزخرفة زخرفة رقيقة محل النسيج المزدان بالصور والرسوم ، وفي هذه الفترة كانت قمة ازدهار فن هذا النسيج . وفي كل أنواع النسيج تقريباً — من الدمقسى والمطرزات والمقصيات إلى البسط والسجاجيد والستائر الممتازة تحدث فرنسا في تلك الأيام أفخر منسوجات الشرق . وتخصصت أميان في الحمل المنقوش واشتهرت ليون وتور ونيم بالحريز المزركش . وفي ليون ابتدع جان بيلمونت وجان بابتست هويه وغيرهما بمجيد تعلق على الجدران ممهورة ونخيلة بموضوعات ومناظر صينية أو تركية أسرت لب بمبادور . وكان هذا النسيج يصنع في المصانع المؤممة في باريس وبوفيه ، وفي الحوانيت الخاصة في أوبيسون وليل . وكانت هذه المنسوجات إذ ذاك قد فقدت وظيفتها في الانتفاع بها للحماية من الرطوبة والتيارات الهوائية ، وأصبحت للترزين فقط وغالباً ما صغر حجمها لتلتئم مع النزعة إلى تصغير الحجرات . وسار النساجون في مصانع الجوبلان وبوفيه في عملهم وفق التصميمات والرسوم

التي وضعها ، والألوان التي تصبح باستخدامها أئمة الرسم في ذلك العصر ، وكانت جميلة بصفة خاصة تلك القطع الخمس عشرة التي نسجتها مصانع جوبلان (١٧١٧) وفق الرسوم التي أعدها شارل أنطوان كويل لتصوير قصة « دون كيشوت » . أما نساجو بوفيه فإنهم ، كما سنرى انتجوا قطعاً رائعة من هذا النسيج ، صمم رسومها الفنان بوشيه . وفي ١٧١٢ أعيد تنظيم مصانع « سافونيرى » وكانت في الأصل لصنع الصابون — وأطلق عليها المصنع الملكي لصناعة السجاد على طراز مجاد فارس والشرق الأدنى وسرعان ما أنتج سجاجيد ضخمة امتازت برسوم دقيقة وألوان متنوعة ووبر ناعم مخملى ، وهذه أجمل سجاجيد ذات وبر في فرنسا القرن الثامن عشر . وكانت مصانع النسيج المزدان بالصور والرسوم هي التي تقوم بالتنجيد الذي يتطلب المثابرة وبذل أقصى الجهد لكراسى الأثرياء ، ولا بد أن كثيراً من الأصابع المتواضعة الدليلة قد تعبت وتصلبت لتوفر لهؤلاء الأثرياء مقاعد وثيرة تقيهم عناء الجلوس .

وأقبل الخزافون الفرنسيون على عصر من المغامرة . وهيات لهم حروب لويس الرابع عشر الفرصة . ذلك أن الملك العجوز صهر ما لديه من فضة لتمويل جيوشه وأحل الخزف مكان الفضة ، وأمر رعاياه بأن يخذوا حذوه . وسرعان ما لبث مصانع الخزف في روان وليل وسكو وستراسبورج وموسير سانت مارى ومرسيليا هذا المطلب الجديد . وبعد موت لويس الرابع عشر شجع الميل إلى الأطباق وغيرها من الأشياء المصنوعة من الخزف — شجع الخزافين إلى إنتاج أجمل ما عرف منها في تاريخ أوروبا . ورسم مشاهير الفنانين من أمثال بوشيه وفلكونيه وباجو المناظر على الخزف الفرنسى وابتدعوا أشكالاً كثيرة منه .

وفي نفس الوقت كانت فرنسا تتجه إلى إنتاج الخزف الصينى . وكانت أنواع متعددة من العجينة الناعمة الملاء تصنع في أوروبا منذ مدة طويلة ترجع إلى ١٥٨٢ في فلورنسه و ١٦٧٣ في روان ، وكانت كلها على أية حال تقليداً للنماذج الصينية . ولم تكن مصنوعة من العجينة الصلبة المأخوذة

من مادة الكاولين أى الصلصال الصينى ، أو حجر الطفل الصينى الذى يذاب فى درجة حرارة عالية فى الشرق الأقصى . وإنما كانت من صلصال أقل صلابة يسخن فى درجة حرارة منخفضة ثم يغطى « بالغرقة » وهى مادة متكلسة أو شبه منصهرة ومصقولة . وحتى هذا الخزف الصينى المصنوع من العجينة الطرية - وبخاصة فى شانتبلى ، وفنسن ومنسى - فيلروا (بالقرب من باريس) كان جميلاً جداً ، واستمر استيراد الخزف المصنوع من الصلصال الصلب من الصين أو درسدن . وفى ١٧٤٠ انتزعت مدام دى بمبادور مائه ألف جنيه من لويس الخامس عشر ، و ٢٥٠ ألفاً من مصادر خاصة للتوسع فى إنتاج الخزف من العجينة الطرية فى فنسن . وفى ١٧٥٦ نقلت عمال فنسن المائة إلى مبنى أوسع وأوفى بالغرض فى سيفر (بين باريس وفرساي) وهناك فى ١٧٦٩ بدأت فرنسا إنتاج الخزف الصينى الحقيقى من الصلصال الصلب .

وأفاد صائغو الذهب والفضة من أن ملك فرنسا استخدم من منتجاتهم رصيذاً إحتياطياً قومياً ، محولاً السبائك إلى أشكال مسرفة فى الجمال ، ولكن يمكن فى الحال صهرها إذا دعت الضرورة . وفى عهد لويس الخامس عشر ازداد طلب الطبقات المتوسطة على المشغولات الفضية بوصفها أدوات نافعة أو وسائل للزينة . وتكاد كل أنماط السكاكين التى نستخدمها اليوم تكون قد اتخذت شكلها الراهن فى فرنسا القرن الثامن عشر : شوكات المحار ، ملاعق الثلجات ، ملاعق السكر ، أطقم الصيد ، طقم الرحلات ، سكاكين وشوكات الأكل ، أضف إلى ذلك مملحة المائدة ، وفناجين الشاي والأباريق والأواني وأدوات التجميل والشمعدانات ، وكلها مزدانة بنقوش بديعة أو مصنوعة فى أشكال جميلة . . . وكان أحسنها فى هذا المجال طراز لويس الخامس عشر من بين كل الطرز الفرنسية^(٢) وصنع صائغو الذهب والفضة صناديق أو علبا صغيرة حملها الرجال والنساء على السواء ، لحفظ السعوط أو الأقراص أو الساحيق أو الحلوى ، كما صنعوا مائة صنف من الأواني والأوعية والصناديق لمنضدة الزينة وحجرة النوم والملابس . وكان فى حوزة

الأمير دى كوتى مجموعة من ثمانمائة صندوق من مختلف الأشكال ، من المعادن النفيسة ، وكلها رائعة متقنة الصنع . واستخدمت مواد أخرى كثيرة لمثل هذه الأغراض : العقيق ، عرق اللؤلؤ ، اللازورد وكان قطع الجواهر وتركيبها الامتياز الذى تفرد به ٣٥٠ من مهرة الحرفيين الذين ضمتهم نقابة الصائغين .

وحملت أشغال المعادن سبعة العصر فى رقة القوالب والأشكال والصقل والإتقان . واتخذت مناصب أو مساند الحطب المشتعل أشكالاً خرافية من التصميمات أو الرسوم المعقدة من الحيوانات الخيالية عادة . واستخدم البرونز الذهبى اللون لصنع أو زخرفة هذه المناصب والمشاعل والشمعدانات ذوات الشعب أو تحليتها بالزخارف ، أو لتركيب ساعة الحائط أو البارومتر أو حجر البشب أو الخزف الصينى . فبلغ البرونز الحديث ذروه استخدامه فى القرن الثامن عشر ، فكان من الممكن أن تكون ساعات الحائط فى أشكال ضخمة غريبة وساعات الجيب أو اليد صلبة جميلة — من البرونز أو المينا أو الفضة أو الذهب ، ومزدانة بنقوش غاية فى الجمال والإتقان . وكانت المشاعل فى بعض الأحيان تحفاً رائعة فى فن النحت ، مثل تلك التى أبدعها فالكونيه لقصر فرساي . وكانت المنمنمات والرسوم الفاخرة من روائع هذا العصر . وأنتجت أسرة واحدة هى أسرة رومتيير ، خمسة أشكال من الرصائع (الميداليات) المحفورة على مدى قرن من الزمان ، تميزت كلها بدقة الصنع إلى حد أن الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة رحبت بانضمامهم إليها ، فى عداد كبار الرسامين والمثالين . إن القرن الثامن عشر عرض فى الأشياء الصغيرة فى الحياة أعظم ثروته خلوا من الهموم ، كما عرض أكثر فنونه دقة وإتقاناً . وقال تاليران « إن أولئك الذين لم يعيشوا قبل ١٧٨٩ لن يدركوا أبداً إلى أى حد يمكن أن الحياة حلوة » (٣) ، إذا تسنى للمرء أن يختار الطبقة التى ينتمى إليها ويتفادى المقصلة .

٢ - فن العمارة

وتجاهل فن العمارة الروكوكو تقريباً . وتتغير الطرز ببطء في البناء أكثر منها في الزخرفة لأن مقتضيات الرسوخ والثبات أقل مرونة من تقلبات الذوق . وكانت الأكاديمية الملكية لفن العمارة التي نظمها كولبير في ١٦٨١ يتولى توجيهها الآن ورثة تقاليد لويس الرابع عشر . وواصل روبرت دى كوت عمل جول هردوين مانسار الذي كان قد أكمل قصر فرساي . وكان جرمين بوفران تلميذاً لمانسار ، وكان جاك جول جبرائيل وابنه جاك آنج خلقين غير مباشرين لمانسار ، ومن ثم حصر تيار هذه التقاليد مجراه في قوة وصلابة ، واحتفظ هؤلاء الرجال بطراز الباروك ، بل بالطراز نصف الكلاسيكي ، بالمظاهر الخارجية التي سادت في القرن العظيم ، مثل الأعمدة وتيجانها والعتبات ، ولكنهم سمحوا بمسحة من الروكوكو فيما شادو من مبان .

ونخفف ضعف الإيمان من حدة التحمس لبناء كنائس جديدة ، ولكن جددت على أية حال واجهتا كنيستين قديمتين . ذلك أنه في ١٧٣٦ أقام روبرت دى كوت لكنيسة سانت روش أعمدة وقوصرة (مثلث أعلى الواجهة) كلاسيكية . وفيما بين ١٧٣٤ - ١٧٤٥ زود جان نيقولا سرفاندوني كنيسة سانت سولبيس برواق ضخم ذي طابقين في مدخلها ، قائم على أعمدة دورية وأيونية من طراز بللاديو الروماني الكثيب ، ولكن العمارة المدنية هي التي عبرت عن روح العصر وتحولت فيما بعد عدة قصور بنيت في تلك الفترة إلى وزارت وطنية أو دور للسفارات الأجنبية . من ذلك قصر ماثيون ١٧٢١ الذي أصبح سفارة النمسا ، ثم داراً لرئيس الوزراء ، وقصر البوربون (١٧٢٢ - ١٧٥٠) الذي أدمج جزء منه في مجلس النواب ، وقصر سوبيز (الذي عدل بناؤه ١٧٤٢) والذي أصبح داراً للمحفوظات الوطنية .

وفي عهد المركيز دى ماريني ، مدير المباني ، ازدهرت أحوال عدد

كبير من المهندسين المغاريين والمثاليين والرسامين ومهندسي الزخرفة ، ووجد مساكن وأعمالاً لهم ورأى أنهم يؤجرون أجراً حسناً . وكان المهندس المعماري الأثير لديه هو جاك آنج جيراييل الذي ارتضى التقليد الكلاسيكي عن طيب خاطر . وبعد صلح اكس لاشابل (١٧٤٨) انهمك إدم بوشاردون في إقامة تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وعهد إلى جيريل بتصميم المكان الذي يحيط بالتمثال . فوضع حول مساحة مكشوفة بين حدائق التويلري والشانزليزيه ، دائرة من « الدرازينات » والحدائق الغائرة ، وشاد في الطرف الشمالي قصر كحريون الحالي ووزارة البحرية الحالية ، وكلاهما على طراز كلاسيكي بحت ، وعهد إلى تزيين الميدان بإقامة أربعة تماثيل أسطورية سرعان ما أطلق عليها الباريسيون أسماء خيليات الملك - ميللي فنتيميل ، شاتورو ، بمبادور . وأطلق على الميدان اسم لويس الخامس عشر ، ونسبته اليوم ميدان الكونكورد . وقد يسرنا أن نعلم أنه كان هناك ازدحام في حركة المرور منذ مائتي عام . وجيمس انجل جيراييل هذا هو نفسه الذي شاد في ١٧٥٢ المدرسة الحربية المتناسقة الأجزاء إلى حد بالغ والتي تضاهي رشاقة أعمدتها مثيلتها في أية ساحة رومانية قديمة . ولم تكن باريس هي وحدها التي جددت مبانيها وغيّرت وجهها في هذا العصر ففي شاتيللي عهد دوق بوربون إلى جان أوبرت بإقامة اسطبلات لجياده وكلايه ، بلغت من الفخامة حداً يدعو إلى المقابلة بينها وبين أكواخ الفلاحين . وفي اللورين جعل ستانسلاس لركزنسكي من نانسي واحدة من أجمل مدن فرنسا ، وهناك أكل بوفران بناء الكاتدرائية التي كان قد بدأها أستاذه جول هاردوين « انصار » وفيما بين عامي ١٧٥٠-١٧٥٧ أقام أمانويل هيري دي كورني « المدينة الجديدة » في نانسي : دار البلدية من طراز الوكوكو ، وميدان ستانسلاس الذي يؤدي عبر حديقة عامة وقوس للنصر إلى ميدان دي لاكاريير ودار الحكومة ، وأحاط جان لامور ميدان ستانسلاس بجواجز من قضبان حديدية متصالية (١٧٥١ - ١٧٥٥) هي أجمل ما صنع من نوعها في الفن الحديث . وأقامت ليون آنذاك ميدان.

لويس الأكبر وافتتحت كل من نانت وروان وريمس وبوردو ميدان الملك . وشادت تولوز مبنى فخما للبرلمان ، وأقامت روان نافورات جميلة وزينت الجسور الفخمة مدينة سنس . وعمت المنزهات الواسعة نانت وبلوا ومونبلييه . وفيما بين عامي ١٧٣٠ - ١٧٦٠ حول جان جاك جبرائيل بوردو إلى مدينة حديثة ذات ميادين شاسعة وشوارع واسعة ومنزهات طليقة الهواء وواجهة جميلة تطل على المياه ، وشيدت فيها المباني العامة على طراز عصر النهضة الرائع .

وأخيرا تخطت العمارة الفرنسية الحدود ، فعهد إلى رجال العمارة الفرنسيين بإقامة المباني في سويسرا وألمانيا والدنمرك وروسيا وإيطاليا وإسبانيا . وفي أواسط القرن وحين ضعفت قوة فرنسا العسكرية ومكاتها السياسية نجد أنها بلغت ذروة النفوذ والتأثير في مجال العادات والفن .

٣ - النحت

نحاض النحت في تلك الحقبة معركة مريرة في محاولة للاعتراف به فنا هاماً كبيراً . وكانت مهمته قد اقتضت لعهد طويل على أن تكون زخرفية أو تزيينية . وفي عهد لويس الرابع عشر أقيمت التماثيل لتضفي زينة وبهاء على القصور الفخمة والحدائق الشاسعة . أما الآن فقد قل الاهتمام بالنحت لأن الولع بالبناء قد استنفد أغراضه كما استنزف فرنسا ، وقبح الأغنياء في مبان أصغر حجماً ، ولم تجد التماثيل الضخمة لها مكاناً في قاعات الاستقبال أو النوم . وشكا المثاليون من أن الأكاديمية الملكية للرسم والنحت منحت معظم جوائزها للرسمين . واقترح ييجال أن يكون هناك مثال ملكي على غرار الرسام أو المصور الملكي ، وأيد بشخصه حملة طائفة سان ميشيل لكسر التقليد الذي جرى عليه العمل وهو تكريم الرسامين وحدهم بمثل هذه المهمة . وانصرف المثاليون على كره منهم إلى زخرفة البيوت بقطع صغيرة وبالزهريرات والنقوش البارزة ، وسعوا إلى منافسة رسامي الأشخاص بأن يشكلوا الجسم الفاني في صورة خداعة من البرونز أو الحجر الذي لا يبلى ، ما داموا يتقاضون الأجر . ولما تها بعض هؤلاء المثاليين مزيد

من الفرص للعمل اختاروا طراز الروكوكو الرشيق الطبيعي اللعوب المرح على حين ظلوا ينجذون وقار الخطوط الكلاسيكية .

وكما هو الحال مع الرسامين والحرفيين مال فن النحت إلى أن ينمو في أسرات بعينها . وساعد نيقولا كوستو أستاذه أنطوان كويسيفوكس في تزيين القصور الملكية في مارلي وفرساي ، وصمم الشخصيات العظيمة ، رامزا إلى أنهار فرنسا ، وهي الآن في البلدية دار البلدية في ليون . ولا يزال تمثاله « النزول من الصليب » في كنيسة نوتردام دي باريس ، و « الراعى الصياد » واحداً من اثنا عشر تمثالا رائعاً تغلب الزمن والجو في حدائق التويلري . ونحت غليوم كوستو الأول الأخ الأصغر لنيقولا ، تمثالا من المرمر لماري لوكز نسكا ، مثل تمثال جونو^(٤) (زوجة جوبيتر في الأساطير الرومانية) كما نحت تمثال « جياد مارلي » القوية (١٧٤٠ - ١٧٤٥) لذلك القصر أساسا ، ولكنها الآن متمردة على اللجام في المدخلين الغربي والشرقي لقصر الكونكورد . أما ابنه غليوم كوستو الثاني ، فقد حفر للدوفين مقبرة في كاتدرائية سنس .

وانجبت مدينة نانسي أسرة أخرى من الفنانين فورت جاكوب مجسرت آدم أبناءه الثلاثة النحت والعمارة ، وقضى لمبرت مجسرت آدم عشر سنوات في الدرس والتحصيل في رومه ، عاد بعدها إلى باريس ، حيث تعاون مع أخيه الأصغر نيقولا سباستيان في إقامة نافورة « نبتيون وامفترت » (إله وإلهة البحر) في حدائق فرساي ثم قصد إلى بوتسدام حيث حفر لفردريك الأكبر - هدية من لويس الخامس عشر - مجموعتين من الرخام - صيد الحيوان وصيد السمك - لقصر سان موسى . ثم رجع نيقولا سباستيان إلى نانسي وشاد مقبرة كثرين أو بالنسكا في كنيسة نوتردام دي بون سيكور ، وثمة أخ ثالث ، وهو فرنسوا بلتازار جيسبار ، أسهم في تزيين عاصمة ستانلاس .

وهناك أسرة ثالثة من النحاتين بدأت بالمثال فيليبوكافيري الذي غادر إيطاليا في ١٦٦٠ ليعمل مع ابنه فرنسوا شارل في خدمة لويس الرابع عشر -

وثمة ابن آخر هو جاك كافيري الذي بلغ بعبقريته الأسرة إلى الذروة متفوقاً على كل معاصريه في أشغال البرونز . وتنافست القصور الملكية كلها تقريباً في الإفادة من فنه في زمانه . وفي قصر فرساي اشترك مع ابنه فيليب في المدفأة في جناح الدوفين وفي صنع قاعدة برونزية من طراز الروكوكو لساعة الملك الفلكية المشهورة الآن . وتعد التركيبات والسنادات البرونزية التي صنعها للأثاث أثمن وأعلى قيمة من الأثاث نفسه^(٥) .

وارتضى آدم بوشاردون - الذي أسماه فولتير « فيداس » فرنسا^(٦) (نحات أغريقى في القرن الخامس ق . م) - ارتضى تماماً كل القواعد الكلاسيكية التي نادى بها راعيه كونت دى كايوس . وجد لعدة سنين منانا للمثال بيجال حتى خيل لهذا الأخير أنه غلب على أمره . وأورد ديدرو ذكر بوشاردون في قوله « لم أدخل قط إلى مرسم (ستوديو) إلا خرجت منه بشعور من القنوط سيطر على لعدة أسابيع »^(٧) ورأى ديدرو أن تمثال « الحب - كيوييد »^(٨) الذي صنعه بوشاردون مكتوب له الخلود ، ولكنه لا يكاد يتلظى بنار الحب ، وخير منه النافورة التي أقامها المثال نفسه في شارع جرينل في باريس ، وهي تحفه رائعة في جلالها الكلاسيكى وعظمتها وفي ١٧٤٩ عهدت إليه المدينة بصنع تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وأكب على العمل فيه لمدة تسع سنين ، وصبه في ١٧٥٨ ، ولكن لم يممهله القدر ليراه قائماً وطلب إلى السلطات البلدية ، وهو على فراش الموت ١٧٦٢ ، أن تكل إلى بيجال اكمال المشروع ، وهكذا اختتمت المنافسة التي طال أمدها بين هذين المثالين ، فيما بنى عن الأعجاب والثقة بينهما ، ونصب التمثال في ميدان لويس الخامس عشر ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فحطمت ١٧٩٢ باعتباره رمزاً بغيضاً :

ونبد جان بابتيست ليموين كل القيود والقواعد الكلاسيكية ، لأنها تحكم على النحت بالفناء . لماذا لا يعبر الرخام أو البرونز - مثل صور الألوان المائية أو الزيتية عن الحركة والوجدان والضحك والفرح والحزن - مما تجرأت التماثيل الهلينية على أن تعبر عنه ؟ وهذه الروح صمم ليموين

مقبرتي كاردينال فليري والرسام بيير مينارد لكنيسة سان روش ، وكذلك في تمثال مونتسكيو الذي نحته لمدينة بوردو . أبرز الممثل المؤلف « روح للقوانين » ساخرا مكتئباً شكاكاً ، وسطاً بين سناتور روماني وفلاسوف إقليمي يسخر من أساليب الباريسين في حياتهم . وأصبحت تلك البسمة العابرة هي العلامة المميزة للعديد من التماثيل النصفية التي صنعها ليموين بأمر من الملك لكثير من رجال فرنسا البارزين . وانتصر هذا الأسلوب التعبيري الممتع على كلاسيكية بوشاردون ، وانتقل إلى بيجال وباجو وهودون وفالكونيه في عصر من أعظم عصور النحت في فرنسا .

٤ - الرسم

كان الرسامون هم أصحاب اليد الطولى بين الفنانين آنذاك . وعكست سيطرة بوشيه مرة أخرى نفوذ النساء وتأثيرهن على الفنون ، وأحست مركيزة بمبادور أن الرسامين قد أضاعوا كثيراً من الوقت مع أبطال الرومان وقديسي المسيحية وآلهة الإغريق ، وقد آن الأوان لينظروا إلى فتنة الأحياء من النساء في أبهى حللهن وتورد خدودهن ، ويبرزوا بالخطوط والألوان رشاقة العصر التي لم يسبق لها مثيل في تقاطيع الوجوه ، وفي الثياب وفي العادات وفي كل الكماليات في حياة الأقلية الثرية . وكانت المرأة يوماً خطيئة ، وهي تعلن أنها لا تزال خطيئة ، لكن لا شيء إلا أن تكون أكثر إغراء وفتنة . إنها تأرت لنفسها من تلك القرون المربعة التي أذلها فيها الكنيسة ودمغتها بأنها أس البلاء ، ومصدر اللعنة . وسمح لها بدخول جنة لا يغشاها إلا الخصبان بفضل عذرية أم الإله فقط . وليس ثمة شيء ينم في جراحة أكبر على اضمحلال الديانة في فرنسا من زحزحة السيدة العذراء عن الفن الفرنسي .

وحل الملك والأرستقراطية ورجال المال محل الكنيسة في رعاية الفن . وفي باريس أصبحت أكاديمية سان لوك للرسامين منافساً ومستحثاً للأكاديمية الملكية للفنون الجميلة المحافظة المتمسكة بالقديم . وفي الأقاليم نشأت أكاديميات إضافية في ليون ونانسي ومتزومرسيليا وتولوز وبوردو وكلبرمنت

فراند وبووديجون وريمس . وفضلا عن جائزة رومه السنوية وضعت
ثنتا عشرة مسابقة وجائزة ، بعثت في دنيا الفن حركة دائبة واهتياجاً
شديداً ، وفي بعض الأحيان كان الملك أو غيره من رعاة الفن ، يواسون
من لم يفوزوا في هذه المسابقات بشراء بعض لوحاتهم أو منحهم بعض المال
الذي يكفل لهم الإقامة لبعض الوقت في إيطاليا .

وعرض الرسامون لوحاتهم في الشوارع ، وفي بعض الأعياد الدينية
كانوا يثبتونها في الستائر التي تتدلى من نوافذ الأتقياء في الطرق التي يمر بها
الموكب الديني . ورغبة في تعويق ما بدا للفنانين المعترف بهم أنه نهج غير
ملائم ، استأنفت الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة في ١٧٣٧ وبعد انقطاع
ثلاث وثلاثين سنة ، إقامة المعرض العام للرسم والنحت المعاصرين في
« القاعة المربعة » في متحف اللوفر . وهذا المعرض السنوي أو الذي كان
يقام كل عامين بعد ١٧٥١ أصبح في أواخر أغسطس وطوال سبتمبر حدثاً
مثيراً في الحياة الفنية والاجتماعية في باريس ، وفي دنيا الأدب ، وجعل
الصراع بين المحافظين في الأكاديمية والمتمردين داخلها أو خارجها ، من
الفن معركة تنافس معارك الحديث عن الجنس بل معارك الحرب الحقيقية
في أحاديث الناس في العاصمة . واحتقر أنصار الخطوط البسيطة المحتشمة
غير المبالغ في رخرقتها ، والتهديب الذي يعاون على الإصلاح — كما كانوا
هم أنفسهم موضع احتقار — أنصار اللون والتجريب والابتكار والحرية .
وأصبح النقد الفني عملاً ناجحاً . وكانت « تأملات في فن الرسم » للكونت
دى كابوس تقرأ في إسهاب على الملاء في الأكاديمية . وروى جريم أنباء
المعارض لقراء رسائله . وتخلي ديدرون عن هجومه على المسيحية ليصبح
واحدًا من أشد النقاد الفنيين معارضة في ذلك العصر . وأثار الحفارون على
الخشب والمعادن مثل جاك لي بلون ولورنت كارز الهياج بنشر نسخ مطبوعة
من الأعمال المشهورة وتزيين الكتب بالصور ، وإنتاج روائع من عملهم
هم أنفسهم . وكان لي بلون أول من بدأ الحفر بالألوان في ١٧٢٠ .

ولم يكسب الفنانون قط من قبل . اللهم إلا في مجال الفنون الدينية ،

مثل هذا الجمهور المتحمس ، أو مثل هذه الرعاية على نطاق واسع . ويأت الرسام الآن يوجه نشاطه إلى العالم بأسره .

١ - في حجرة الانتظار .

ارتفع عدد كبير من الرسامين إلى قمة المجد في تلك الحقبة ، حتى أنه ليشق علينا هنا مجرد ذكرهم ، وسوف نعرض في تفصيل أكثر لبوشيه وشاردان ولاتور . ولكن هناك من قد يزعجهم إغفالنا ذكرهم .

فهناك الرسام المبرز جان فرنسوا دي تروى ، ولكنه كئنت تعوزه الحيوية ، وكان رسمياً إلى درجة لا يصلح معها أن يكون عظيماً . وأحببه الجميع ، ووافق إلى حد كبير على أن يستخدم ملامح وجهه وكأنها ملامح وجه السيد المسيح « آلام المسيح في البستان »^(٩) ، ووجد في إغراء السيدات لذة أكثر منها في رسمهن ، وترك وراءه كثيراً من القلوب الكسيرة المحطمة والأعمال المشوهة ، وزخرف فرنسواه لميويين (ويجب ألا تخلط بينه وبين المثال جان بابتست) عقد قاعة هركيول في قصر فرساي بنحو ١٤٢ شكلاً ضخماً ، ونقل إلى تلميذه بوشيه فن إحلال اللون الوردى الذى تؤثره مدام دي بمبادور محل اللون الأسمر المائل للحمرة في لوحات رامبرانت واستبق شارل أنطوان كويل ، وهو ابن وحفيد لرسامين ، شاردان في رسم مشاهد الحياة اليومية وأحداثها ، وقد التقينا به رساماً للوصى ، وفي ١٧٤٧ أصبح الرسام الأول للملك لويس الخامس عشر .

وقد سر فردريك الأكبر باقتناء لوحته « سيدة أمام المرأة » لقصر سان سوسى ، ولا يزال اللوفر يعرض لوحته « الحب والأميرة فاتنة الجمال التى أحبها كيوييد » من نسيج الجوبلان المنقوش ، وهى تركيب نفيس من طبيعة بشرية وقماش .

وحظى جان مارك ناتير بشعبية ورواج في رسم الأشخاص لأنه عرف ، عن طريق الوضعة (كيف يكون وضع المرء أمام الرسام) واللون وحركة الضوء ، كيف يخلص المجالسين أمامه من العيوب أو التشوهات التى أصابتهن بفعل الوراثة أو أحداث الحياة ، حتى أن كل السيدات اللاتى

رسمهن ، فيما عدا واحدة ، سررن حين وجدن أنفسهن في لوحاته ، فائنات مغريات كما اعتقدن دائماً في أنفسهن . ولوحته « مدام دي بمبادور » معلقة في فرساي ، بشعرها الجميل الملون بلون خفيف ، وعينها الوديعتين اللتين لا تكادان تكشفان عن لهفتها على السلطان والسيطرة وتنافس الملوك والملكات على الظفر بالفنان ناتيير . فقد رسم ماري لركزنسكا سيدة برجوازية تشرع في القيام بنزعة في الريف ^(١٠) وأنصف كل الانصاف جمال أدليد ^(١١) ابنة الملكة . وعند ما زار بطرس الأكبر باريس رسم ناتيير لوحته له ولزوجته القيصرية ، ودعاه بطرس للانتقال إلى روسيا فأبى ، فما كان من القيصر إلا أن حمل اللوحته دون أن ينقده أجراً . وأحضر جاك أندريه أفيد المولود ، الفلاندرز بعض لوحات فلمنكية واقعية تصور الناس كما هم ، ولا بد أن ميرابو الأكبر جزع عندما رأى نفسه كما رآه أفيد فصوره ^(١٢) . ولكنها على أية حال من أعظم لوحات هذا القرن .

وعلى كل هؤلاء السادة الجالسين في حجرة الانتظار — حتى على بوشيه وشاردان — نجد جريم وديدرو يؤثران كارل فانلو ، وهو سليل أسرة كبيرة من الرسامين تحمل اسم فانلو ، نعرف منهم تسعة بأسمائهم . ولد في نيس ١٧٠٥ . واصطحبه معه رفيقه الرسام جان بابتست إلى رومه حيث درس بالازميل والفرشاة معا . وفي باريس فاز بجائزة رومه ١٧٢٤ ، ثم قضى في إيطاليا فصلاً دراسياً آخر ، عاد بعده إلى فرنسا وأرضى الأكاديمية وأغضب بوشيه ، باتباعه كل القواعد الأكاديمية . وحيث أنه أفرغ كل جهده وقضى كل وقته في الاشتغال بفنه ، ولم يدخر منه شيئاً ليتعلم القراءة والكتابة والعادات القويمة والحديث المهذب ، فإن مدام بمبادور نفرت منه في شيء من الاشمئزاز ^(١٣) بأنه « وحش مزعج » ومع ذلك عهدت إليه برسم (مناقشة إسبانية) . ولفترة وجيزة ارتضى مزاج العصر . ورسم سيدات متشحات بأردية ملتصقة بأجسامهن ، ولكنه سرعان ما ركن إلى الرزانة والهدوء في حياة أسرية نموذجية ، فخورا بزوجه البارعة المصقولة ولوعا بابنته كارولين . وفي ١٧٥٣ اشترك مع بوشيه في زخرفة قاعة المجلس

الرائعة في قصر فونتنبلو ، وبلغ درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أنه عندما اتخذ مقعده في الكوميدي فرانسيز ، بعد مرض عضال كاد يودي بحياته ، نهض الحاضر رن وحيوه وصفقوا له مظهرين بهذه الملاقة الوثيقة بين الفن والأدب في هذا العصر الذي تميز بثقافة عالية .

وسجل جان بابتست أودرى رحلات الصيد الملكية في أعمال النقش والرسم على القماش . واختارته الملكة معلما لها . وكانت تتولاها الدهشة والعجب حين ترقبه وهو يعمل . وزودت بعض قطعه المنقوشة نساجي القماش بتوجيهات ونماذج ممتازة يهتدون بها في عملهم ، وسرعان ما عين أودرى مديرا للمصنع الملكي في بوفيه ، فلم يجد هناك إلا الفوضى والتدهور ، فأعاد تنظيم العمل في حزم وشدة ، وأثارهم العمال بحماسة ، وصمم لهم سلسلة من قطع النسيج المزدان بالرسوم ، موضحا بصور الحيوانات المبهجة قصص لافونتين الخرافية . وهناك أيضا وضع الرسم التمهيدى للمجموعة الأنخادة من النساء والوحوش المعلقة في اللوفر ، في « ديانا دي بورتير » . وتملكت النساجين في الجوبلان الغيرة من السجاح الذي أصابه مصنع بوفيه ، فاقنعوا الملك بنقل أودرى إلى المصنع القديم ، وهناك أفنى نفسه في صراع مرير لحمل النساجين على قبول الألوان التي وضعها . وفي الوقت نفسه أسهم في كل من بوفيه وباريس في تدريب المواهب والقدرات المتشعبة لدى أكثر فناني منتصف القرن في فرنسا امتيازاً وتألقاً ، وأكثر من نال منهم تعنيفاً قاسياً .

٢ — بوشيه : ١٧٠٣ — ١٧٧٠ .

استمع إلى ديدرو وهو يتأمل في لوحات بوشيه العارية : أية ألوان ، وأية تشكيلة ، وأية وفرة في المواد والأفكار ! إن هذا الرجل توفر لديه كل شيء إلا الصديق . إن انحطاط الذوق واللون . وأسلوب التركيب ، والشخصية والتعبير ، كل هذا تبع خطوة بخطوة انحلال الخلق وماذا عسى هذا الرجل أن يرسم إلا ما تصوره في خياله ؟ وماذا يمكن أن يتخيل رجل يقضى حياته برفقة نساء المدينة ؟ إن هذا الرجل

لا يمسك بفرشاته إلا ليبرز الأرداف والصدور . إنه لا يدرك ما هو الجمال فإن الكياسة والأمانة والبراءة والبساطة أصبحت كلها غريبة عليه . إنه لم ير الطبيعة لحظة واحدة قط ، وعلى الأقل الطبيعة التي تدخل البهجة على نفسى ، وعلى نفسك ، مثل طفل كريم المولد ، أو امرأة ذات وجدان حى . إنه مجرد من الذوق والواقع إنه فى تلك اللحظة بعينها ، عين الرسام الأول للملك (١٧٦٥) (١٤) .

ويمحتمل ألا يكون بوشيه قد اطلع على هذا النقد قط لأنه كان موجهاً إلى قراء جريم الأجانب . فلنلق نحن نظرة على الفنان دون نية مبيتة للحقد عليه أو الإساءة إليه .

كان بوشيه ابناً صامياً من أبناء باريس . وكان أبوه يشتغل بوضع التصاميم ، يملك محلاً بالقرب من الأوفر ، ولقن ابنه فرنسوا مبادئ الرسم والنحت ، وإذا أظهر الفتى استعداداً وموهبة فقد تتلمذ على النقاش لورنت كارز ثم على الرسام فرنسوا اليموين . وحيث اشتغل برسم المشاهد للابرا ، فإنه اجتمع هناك بنفر من الممثلات وبنات الفرقة الموسيقية . وانغمس فى مبادئ عهد الوصاية ، بقدر ما أتاحت له إمكاناته (١٥) ويروى لنا إنه وقع مرة فى حب رومانتيكى مع بائعة فاكهة جميلة اسمها روزيت ، وبدا له أنه قد تجسدت فيها البساطة والطهارة معا ، فاتخذ منها نموذجاً للوحة لمريم العذراء ، أفرغ فيها كل ما تبقى له من تفوى طفولته وصباه . ولكنه ، وهو لما يكمل بعد هذه اللوحة انزلق إلى اتصال جنسى غير شرعى ، وحين حاول أن يكملها أفلت منه الوحي والإلهام ، كما أفلت منه روزيت . ولم يسترجم قط لحظات هذا الخيال الرقيق اللطيف (١٦) .

وتطورت مهارته ونمت بسرعة تحت ارشاد ليموين . وفى هذا الرسم تعلم شيئاً من نزعة كوريجيو إلى الأشكال النسوية ذات التقاطيع الكلاسيكية والركة الناعمة . وفى قصر لكسمبرج درس اللوحات الزيتية المتألقة على القماش التى كان روينز قد حول فيها الحياة للمارى مديتشى إلى ملحمة من اللون « وعظمة الثياب » . وفى ١٧٢٣ ، وهو فى سن العشرين فاز بجائزة رومه

التي أهلته للاقامة الكاملة في باريس لمدة ثلاثة سنوات ، مع راتب قدره ٣٠٠ جنيه ، ثم أربع سنوات في رومه . ولنا لنحصل على صورة حياة الطالب في عهد الوصاية إذا علمنا أن رفاق الفائز بهذه الجائزة حملوه على الأكتاف وطاقوا به حول ميدان اللوفر .

وفي ١٧٢٧ رافق كارل فانلو إلى إيطاليا . ويقول مدير الأكاديمية الملكية الفرنسية في رومه وجد « للشاب الصغير المدعو بوشيه جحراً صغيراً في غرفة ، وأسكنه فيه . وأخشى ألا يزيد حقيقة عن جحر ، ولكنه على الأقل سيقم تحت السقف^(١٧) . ولكن لم يكن لزاماً على الشاب المتواضع ، كما وصفه المدير ، دوماً أن ينام في هذا الحجر ، لأنه وجد كثيراً من المضاجع ترحب به في رومه . ولأنه لمن علائم تغير الذوق إنه لم يبدأ ولعاً بأعمال رافاييل أو ميكلائيلو ، ولكنه عقد أواصر الصداقة مع تيبولو (رسام فينيسي ١٦٩٦ - ١٧٧٠) .

ولما عاد إلى باريس (١٧٣١) استمر يوقد الشمعة من طرفيها (يمسك بالعصا من وسطها) ، ونادراً ما كان يقنع بشيء إلا المعرفة المباشرة بنماذجه ، ومع ذلك وجد فسحة من الوقت ليرسم بعض لوحات رائعة مثل « اغتصاب يوروبا » في الأساطير اليونانية (أميرة فينيقية أحبها زيوس واختطفها) وهي من بين عروضه التي لا تحصى لشكل المرأة . ونخيل إليه في ١٧٣٣ أنه وقع على فينوس نفسها في نموذجه جين بوزو ، وعلى الرغم من أنه أحس « بأن الزواج لا يلتئم معه »^(١٨) فإنه اتخذ منها زوجة ، ولم يرع عهد الزوجية إلا قليلاً . وكالت له هي بنفس الكيل . ومن المحتمل أنها جلست أمامه ليرسم لوحة « رينوو آرميد^(١٩) » التي كسبت له العضوية الكاملة في أكاديمية الفنون الجميلة (١٧٣٤) . وحينذاك عهد إليه لويس الخامس عشر برسم مناظر سارة في حجرة نوم الملكة التي كانت لا تزال تتمتع بحبه ، وعند إعادة افتتاح المعرض ١٧٣٧ اتسعت شهرة الفنان وكثر رعاة فنه . ولم يذق بعد ذلك طعم الفاقة ، ولم يعد له منافس .

وتخصص بوشيه في رسم « العاريات » وحتى زواجه لم يكن قد تراث

طويلا إلا نادرا مع امرأة واحده ليكشف شيئا أكثر من بشرتها . ولكنه كان قد وجد أن ذلك المظهر الخارجى ممتع بلا حدود ، وبدا أنه عقد العزم على رسمه من كل الأركان والزوايا ، وفى كل الأشكال والأوضاع ، من الشعر الأشقر الحريرى الناعم إلى الأقدام العارية التى لم تنتعل قط . وكان بوشيه هو الروكوكو قلبا وقالباً .

ولكنه كان أكثر من ذلك . وعلى الرغم من أن النقاد المتأخرين عابوا عمله من الناحية الفنية ، فإنه كان بالفعل فناناً حاذقاً فى التأليف واللون والخط ، على أنه فى بعض الأحيان تعجل فى العمل ، ولم يعط الفن حقه رغبة فى سرعة الحصول على الأجر ، وهلل كثير من المعاصرين إعجاباً بروح التأثيرية الثورية فى لوحاته وخصوبة خياله والرشاقة البسيطة فى خطوطه . وقال ديدرو الذى ناصبه العداء ، « لم يعرف أحد قدر ما عرف بوشيه ، فن الضوء والظل^(٢٠) وكاد أى فرع من الرسم والتصوير ألا يروغ من مهارته . إن هؤلاء الذين لا يعرفون منا إلا بعض لوحاته الزيتية وقطعه المصورة على القماش ليددهشون إذ يعلمون أن « شعبية بوشيه ترجع إلى رسوماته قدر ما ترجع إلى لوحاته الزيتية^(٢١) . وكانت رسوماته مادة ثمينة طيلة حياته ، وتنافس فى الحصول عليها مشاهير جامعى الرسومات . وكانت تشتري لتستخدم مساند أو حوامل ، وتعلق فى حجرات النوم والجلوس على الجدران ، وكانت من عجائب الاقتصاد — نقرة فى الخلد تعبر عنها نقطة أو بقعة صغيرة وبسمة يطبعها خط ، وكل بريق وحفيف التنورات الحريرية ينبثق فى إعجاز من قطعة من الطباشير . ومن الحق أنه ليس من أجل الثروة وحدها ، ولكن بفضل العبقرية والخيال المتفجرين فيه ، يضيئان عينيه ويقودان يديه ، أكب بوشيه على العمل عشر ساعات يومياً فى رسمه ، تاركاً بصماته على كل شيء يلمسه تقريباً . وفضلاً عن ألف لوحة ، رسم بوشيه المراوح وبيض النعام والحرف والرصائع والستائر والأثاث والمركبات ومناظر المسرح وجدران وسقوف المسارح . وقصدت كل باريس النشيطة لترى الزخرفة التى أعدها خلفية (لباليه نوفير : الأعياد

الصينية « ١٧٥٤ . ولم يكن به ميل شديد إلى المناظر الطبيعية ، لأنه كان سفير أفرووديت إلهة الحب والجمال إلى اللوفر ، ومع ذلك احتفظ بشخصياته البشرية في الغابات والحقول ، بجوار المياه الفوارة والاطلال الظليلة وتحت السحب البيضاء في السماء الزرقاء ، وشمس دافئة تغرى بحرارة الدم وتطريها . وربما ظن المرء أن مشاهد الحياة اليومية لا تلائمها ، ومع ذلك رسم لوحة « منظر أسرة » ، أبرز - وكأنما أراد أن يحرر نفسه من عبودية الجمال - فناء المزرعة وحظيرة الماشية وبرج الحمام ، وعربة اليد ، والأنقاض في الفناء الخلفي ، والحمير ترواح تحت أحمال من الأوعية والآنية التي تحدث قعقة . واستكمالا لذخيرته أصبح أعظم مصمم لرسوم النسيج في هذا القرن .

وفي ١٧٣٦ دعاه أودرى إلى مدينة بوفيه ليضع تصميمات للنساجين هناك حيث بدأ بأربعة عشر رسما لمناظر قروية إيطالية (٢٢) . وقد لاقت هذه الرسوم نجاحاً كبيراً إلى حد أنها نسجت اثنتا عشرة مرة على الأقل قبل وفاته . ثم انتقل إلى موضوع أكثر نموذجية « قصة الأميرة الفاتنة » - خمس استار تعلق على الجدران ، شكلتها مدام بوشيه ، وهي من التحف الرائعة في فن القرن الثامن عشر . وتوج أعماله بست قطع من النسيج المزدان بالرسوم والنقوش أطلق عليها « الحياة الريفية الكريمة » (٢٣) إحداها وهي « صائد الطير » تمثل حبيبين فاتنين من أروع ما أخرج من الحرير والصوف . وشكا النقاد من أنه بسبب أودرى وبوشيه أصبح النسيج المزدان بالنقوش أقرب شها باللوحات الزيتية ، وأنه فقد خصائصه المميزة . ولم يأبه لويس الخامس عشر بهذا كثيراً ، لأنه عندما توفي أودرى (١٧٥٥) رقى بوشيه إلى رئيس مصانع الجوبلان .

وفي الوقت نفسه حظى الفنان المنتصر الظافر برعاية بمبادور المتقدمة حماسة وغيره . فزخرف لها قصر « المنظر الجميل » وصمم أثاثه . وللمسرح الذي سعت به إلى الترفيه والتسرية عن الملك رسم المناظر وابتكر الملابس ورسم لها عدة لوحات آية في الجمال الأخاذ والركة يحار الناظرون إليها في الحكم عليها . وإن الاتهام بأن بوشيه لم يصل قط إلى ما وراء الجسد قد

سقط الآن وأخرس ، فإنه لم يهين لنا إن نرى كثيراً من مفاتن جسد العشيقة قدر ما هيا لنا أن نلمس مناقب الذكاء والركة التي حبيتها إلى الملك ، والاهتمام بالثقافة الذي جعل منها معبودة الفلاسفة ، والذوق الفني النسوى الرفيع في الثياب الذي أضفى في كل يوم فتنة جديدة على مفاتن الجسد العانية . ويفضل هذه اللوحات ولوحة . الرحلة — لاتور « استطاعت بمبادور تذكير الملك في هدوء بالجمال الذي ولى والفتنة الأرق التي بقيت . وربما استعملت بمبادور كذلك لوحات بوشيه الحسية الشهوانية في ارضاء رغبة الملك الجنسية القوية . ولا عجب إذن في أنها جعلت من برشيه صديقاً أثيراً لديها ، ووفرت له جناحاً في اللوفر ، وتلقت عنه درساً في النقش ، وبحثت معه مشروعاتها في زخرفة قصورها ، والارتقاء بالفنون . ورسم لها (١٧٥٣) لوحتين من أعظم لوحاته الشروق والغروب « (٢٤) وفي كلتا اللوحتين ، بطبيعة الحال ، كانت الأشكال البشرية تفوق الشمس بهاء وبريقاً .

وعمر بوشيه بعد بمبادور ، وبعد الحرب الفاجعة مع إنجلترا وفردريك الأكبر ، وظلت أحواله في ازدهار إلى سن السابعة والستين حيث وافته المنيّة . وتسكّاثر عليه التكليف بعمل اللوحات ، وأصبح ثرياً ، ولكن لم تقل حماسه وغيرته في العمل عن ذي قبل ، وطهر ثروته بالبذل والسخاء . وكان عريداً محسناً خيراً ، لا يكل ولا يمل من الفسق والدعارة ولكنه دائماً أبداً مرح ودود ، « لطيف كريم غير متعيز ، ينأى بنفسه عن الأحقاد الدنيئة به مناعة ضد التلهف الحقيق على كسب المال » (٢٥) وكان متعجلاً في عمله إلى حد لم يبلغ معه قمة الامتياز . وأطلق لخياله عنان الحرية إلى درجة لم يلمس معها جوانب الحقيقة والواقع . وأبلغ رينولدز أنه ليس في حاجة إلى نماذج ، وأنه يؤثر الرسم من الذاكرة ، ولكن ذاكرته جاءت بأشكال مثالية . ولما لم يصوب له الواقع ذاكرته ، فإنه بات مهملًا في رسمه مبالغاً في ألوانه . واتهمه جريم وديدروو وآخرون بأنه أخطأ فحسب الظرف واللفظ جمالا ، وأنه هبط بجلال الفن إلى مجرد

زخرفة سطحية ذات مظهر خداع ، وبأنه افسد أخلاق العصر باعلاء قيمة مفاتن الجسد . وعاب عليه ديدرو واستنكر ابتساماته المتكلفة وتصنعه . . . وشامات الجمال ، واللون الأحمر على الحدود . . . ونساءه العابثات ، ورجاله الفاسقين الشهوانيين وأولاد باخوس وسلينوس غير الشرعيين (إلهما الخمر والعربة في الأساطير اليونانية) (٢٦) ومات بوشيه وهو يعمل في مرسمه تاركاً على الحامل لوحة لم يكملها « تزين فينوس » وكأنما يتحدى بها ديدرو . وعندما سمع ديدرو بموت الفنان أحس بالندم وقال « لقد أسأت إلى بوشيه كثيراً بكلامي عنه ، وإني لأكف الآن عن الحديث عنه . (٢٧) ولنكتف نحن بهذا القدر ».

٣ - شاردان : ١٦٩٩ - ١٧٧٩

كم اختلف عالم بوشيه عن دنيا شاردان - أى تباين بينهما في مفاهيم الجمال وفي الخلق وفي الذكاء ! كانت هنا تقريبا حرب طبقية ، ثورة الطبقة المتوسطة ضد الابيقورية المسرفة المبذرة عند رجال المال والأرستقراطية والحاشية . ولدجان مابتست سيمفون شاردان برجوازيًا ، وظل برجوازيًا قانعًا ، وصور الحياة البرجوازية في اخلاص بالغ . وكان أبوه معلم نجارة ذا مكانه عالية في نقابته ، يمتلك داراً في شارع السين على الضفة اليسرى من النهر ، ولما كان يظن أن ابنه جان سيخلقه في مهنته ، فإنه لم يعن بتعليمه في المدرسة قدر عنايته بتدريبه على الأعمال اليدوية . وأسف شاردان على ما فاتته من تعليم وعلى ضآلة ما حصل منه ، ولكن هذا منعه من ارتياد مجالات الفن القديمة ، فولى وجهه وقرشاته شطر الأشياء التي حوله في المصنع والبيت . وسرعان ما أحب الرسم وتلهف على التصوير ، وسمح له والده بالالتحاق بمدرسة بيرجاك كيز ، ثم بتسجيل اسمه رساماً في البلاط الملكي .

ولم يكن الشاب سعيداً هناك ، فإن النماذج التقليدية التي طلب إليه أن ينسخ عنها بدت له بعيدة بشكل مخيف عن الحياة التي عرفها وألفها . وعندما طلب إليه جراح صديق لوالده أن يعد له لافتة تعلن عن مهنة الحلاق الجراح ، وتبرز أدواتها ، فإن جان - وربما تذكر عند ذاك شعار الرسام

اتو لجرسانت - رسم لافتة ضخمة تمثل رجلا جرح في مباررة ، يقوم على العناية به جراح ومساعدته ، ومن حسن التدبير أضاف إلى هذا سقاء وشرطيا وبعضا من حراس الليل ، ومركبة ، وامرأة تحقق النظر من نافذتها ، وحشدا من المتفرجين يحملون من فوق الرؤوس - كل أولئك في منظر رائع عن الصخب والايماآت والاثارة . وغضب الجراح ورأى أن يلقي باللافتة عرض الحائط ، ولكنها جذبت انتباه المارة ونالت استحسانهم إلى حد كبير إلى درجة أن الجراح استبقاها على بابه ، ولم نسمع بعد ذلك شيئا عن شاردان ، حتى كان عام ١٧٢٨ ، حين حظيت باطراء خاص ، لوحته « السمكة » ولوحته « الخوان » (البوفيه) - طبق فضى فيه فاكهة - في معرض في الهواء الطلق في ميدان الدوفين . ودعاه بعض أعضاء الأكاديمية ليطلب الانضمام إلى عضويتها . ودبر أن يعرض بعض من لوحاته هناك غفلا من اسمه ، فأعلن من رأوها أنها تحف رائعة ، ونسبوها إلى فلمنج ، ثم اعترف شاردان بأنه صاحبها ، فاستنكروا هذه الخدعة ، ولكنه على أية حال فاز بعضوية الأكاديمية (١٧٢٨) .

وفي ١٧٣١ خطب مرجريت سنكتار التي وعده أبواها بصداق كبير ، ولكن في فترة الخطوبة منى الوالدان بنحسائر جسيمة وفارقا الحياة ، تاركين مرجريت لا تملك شروى نفير ، وتزوجها شاردان على الرغم من ذلك ، وهيا لهما أبوه مسكنا في الطابق الثالث من منزل كان قد اشتراه حديثا على ناصية شارع دى فور وشارع البرنسيس . وهناك أقام الفنان مرسمه الذى كان أيضا مطبخه ، فقد اختار الآن بصفة نهائية أن يرسم الحياة الهادئة ومشاهد الحياة اليومية . وأصبحت الخضر والفاكهة والسمك والخبز واللحم كل الأشياء التى تبعثرت في أنحاء الغرفة ، نماذج لفرشاته تارة ، وصنوف قائمة طعامه تارة أخرى .

وافتن شاردان بالأشكال والألوان المتغيرة في الأشياء العادية ، ورأى فيها خصائص في البيئة والتركيب والضوء قلما تلمحظها العين الغافلة . فإن جانبي التفاحة أو نخديها كانا بالنسبة له يحملان طابعا ررماتيكيا مثل تورد

وجنتى عذراء ، وبريق السكين فوق مفرش المائدة الأخضر تحداه أن يمسك به فى حركته السريعة ، ويحاول تثبيته فى فنه . وأبرز هذه الأشياء الصغيرة البسيطة فى أمانة وتبصر ، وبراعة فنية فى اللون والمناسيب والضوء والظل ، مما لم يتيسر إلا لقلة من الفنانين أن يبلغوه . وإننا لننظر إلى هذه الأشياء الطبيعية الميتة ، ونحس بأنها حية وإننا لم نرها رؤية صادقة قط من قبل ، وأننا لم نتحقق قط من تعقيد أشكالها وتفرد ما . ومن الفروق الدقيقة بين ظلال ألوانها ، ولم يجد الشعر فقط فى إناء من الأزهار أو عنقود من العنب . بل فى مرجل قديم محطم ، وفى جوزة ، وفى قشرة برتقالة . وفى فتات كسرة خبز جاف . فى هذه كلها شعر دائماً كما كان الفلمنكيون والهولنديون قد عرفوا من قبل ، ولكن من فى فرنسا بوشيه وبمبادور خامره يوماً شعور بوجود هذا الشعر . وكان جمال هذه الأشياء بطبيعة الحال فى عين الرأى أو المشاهد أو بالأحرى فى نفسه . إن شعور شاردان القوى وبصيرته النافذة — وفقره — كل أولئك هو الذى جعل من مخزن حفظ الأطعمة قصيدة غنائية ، ومن قائمة الطعام ملحمة شعرية .

وكل إنسان يعرف هذه القصة — أو الاسطورة ؟ — كيف انساق شاردان إلى رسم الأشكال البشرية . إنه سمع ذات يوم صديقه أفيد يرفض ٤٠٠ جنيه أجراً لرسم لوحة لأحد الأشخاص ، فعجب شاردان أشد العجب ، وهو المعتاد على الأجور الضئيلة ، لهذا الرفض . فما كان جواب أفيد إلا أن قال « هل تظن أن رسم إنسان سهل مثل رسم مرقق التوابل (الصلصة) . (٢٨) . وكانت سخيرية لاذعة . ولكن مفيدة . إن شاردان كان قد ضيق مجال موضوعاته تضيقاً شديداً ، وسرعان ما كان يمكنه أن يشبع رغبات زبائنه وعملائه فى الأطباق وألوان الطعام ، وعقد العزم على رسم الأشخاص . وكشف فى نفسه عن عبقرية فى رسم الأشخاص فى رقة وتعاطف ، وكان هو الذى هباً لهذه العبقرية أن تحمد . وقبل التحدى من فوره . ورسم لوحة لصديقه أفيد نفسه ، « المتفاخر » (٢٩) . وأتبعها بلوحة أحسن منها « دار لعب الورق » . ولكن هنا أيضاً كان التفوق والامتياز

في الملابس لا في الوجوه . وفي لوحة « الطفل والحدووف (النحلة) »
خطا شاردان خطواته الثانية : اليدان يشعتان بعض الشيء ، ولكن الوجه
ينبئ عن عقل سليم . ووجد هذا الاعتناق الرقيق منقذا في رسمه للبنات ،
كما هو الحال في التحفتين الرائعتين اللتين تضمهما مجموعة روتشيلد :
« بنت تلعب تنس الريشة » ، وأخرى « تتسلى بتناول غذائها » .

إن شاردان لم ير في النساء الاغراء الباسم الذي أثار بوشيه ، بل رأى
فضائل وخصائص الزوجية والأمومة التي هي عماد الدولة ، وهي التي تقودها
إلى طريق الخلاص . ومع شاردان دخلت سيدات الطبقة المتوسطة مجال
الفن الفرنسي ، وحصلت على حقها فيه . إن هذا الفنان عرفها وأحبها في
كل ما تقوم به من خدمات جليلة أسرة : احضار الطعام من السوق ،
سحب الماء ، تقشير السلجم ، لف الصوف ، العناية بالمريض ، تحذير
التلميذ من إهمال واجبه أو الهرب منه ، أو كما أبرز شاردان في أشهر لوحاته
« الخير والبركة » (٣٠) الامساك عن الطعام حتى تكف صغرى البنات ،
ويداها الصغيرتان مضمومتان ، عن الصراخ والبكاء ويشيع في وجهها
ابتسام الرضا ، ورأى المرأة دائماً في ملابس البيت ، غير متبرجة ، في
حركة دائبة ، تخدم زوجها وأولادها من الفجر وصلاة الصباح إلى أن يأووا
جميعاً في أمان إلى فراشهم ويتدثروا . وإننا لنرى من خلال لوحات شاردان
باريس وهي أكثر حكمة وأكبر عقلاً من الحاشية ، لا تزال متعلقة
بالأخلاقيات القديمة والعقيدة الدينية التي وفرت لها عوناً روحياً . وهذا هو
أعظم فن نفعا وصحة في كل تاريخ الفن .

إن هذه الصور التي يهمل لها العالم الآن لم تلق إلا رواجا محدوداً جداً
آنذاك ، ولم تأت للفنان إلا بفرنكات معدودة تقيم أوده في بساطة قاعة .
ولم يساوم مع عملاءه . وباع اللوحات بأى ثمن عرضوه عليه تقريباً . ولما
كان يعمل في بظ وكد وجد ، فإنه انهك نفسه في فقر نسبي ، على حين أن
بوشيه استنفذ جهده في يسر ورخاء . ولما توفيت زوجته الأولى بعد أربعة
أعوام فقط من الزواج ، آل مسكنه إلى حالة شديدة من الفوضى وسوء

النظام . وكأنه مسكن طالب ، ألح عليه أصدقائه أن يتزوج ثانية ، ولو ليحظى بيد امرأة رشيقة وسيدة تعيد النظام إلى بيته . وتردد تسع سنين ثم تزوج الأرملة مرجريت بوجيه . وهو في بساطة زواج مصلحة . وجاءت له مرجريت بصدّاق متوسط ، يشمل بيتا تملكه (١٣ شارع البرنيس) ، فانتقل إليه . حيث وضعت خاتمة فقره وعوزه ، وكانت سيدة فاضلة وزوجة شديدة التدقيق . وتعلم هو أن يحبها شاكرًا ممتنًا .

وزيادة في معونته من الناحية المالية خصص له الملك (١٧٥٢) راتبًا قدره ٥٠٠ جنيه ، وعينته الأكاديمية (١٧٥٤) أمينًا للصندوق فيها ، وسرعان ما عهدت إليه بترتيب اللوحات المقدمة إليها في قاعات العرض فيها ، ولكنه لم يكن يصلح لهذه المهمة مطلقًا ، ولكن زوجته ساعدته فيها . وفي ١٧٥٦ أقنع صديق نقاش — هو شارل نيقولا كوشان الثاني — ماريني بأن يخصص لشاردان غرفة مريحة في اللوفر . وهذا هو كوشان نفسه الذي كان تواقًا إلى إبعاد شاردان عن تكرار صور المطبخ ، فحصل له على تكليف برسم ثلاث لوحات ، لتوضع (فوق الباب) لقصر ماريني . فأخرج شاردان في جد واجتهاد (١٧٦٥) « خصائص الفن » وخصائص الموسيقى (٣٢) ثم حصل على تكليف آخر برسم لوحتين شبيهتين لقصر مدام دي بمبادور « المنظر الجميل » . ولسوء الحظ لم يدفع المبلغ الموعود للوحات الخمس حتى عام ١٧٧١ .

وفي نفس الوقت كان الفنان تتقدم سنه ويفقد مهارته . ففي ١٧٦٧ نرى ديدرو الذي كان قد رحب بعمله وأثنى عليه بوصفه « روح الطبيعة والحقيقة » يقول في أسى وأسف « إن شاردان رسام ممتاز لمشاهد الحياة اليومية ، ولكنه يذوى ويذبل » (٣٣) . وكانت لوحات لاتور المرسومة « بالبستل » تأخذ بمجامع الأبواب في باريس . وفي نعمة المنافسة أخذ شاردان نفسه الطباشير والورق وأدهش لاتور حين أبدع لوحتين بالبستل لشخصه . وهما من أعظم الإنتاج جاذبية وروعة واتقانًا وكمالًا في اللوفر . إحداها تمثله في قلنسوة قديمة ضيقة مزدوجة العقد على رأسه ، والعوينات

(النظارة) في أعلى انفه ، ورباط عنق مربوط بأحكام حول عنقه . وأبرزت الأخرى نفس الزى ونفس الوجه مملوءاً بالدهشة والشخصية ، بالإضافة إلى قناع يظلل عينيه اللتين يشكو فيهما ألماً . وأشهر من هاتين ، لوحة البستل التي أبدعها لزوجته الثانية ، وهي آنذاك في الثامنة والستين : وجه كريم جميل ، أخرجه بمهارة متسمة بالحب . وتلك هي اللوحة التي يقع عليها اختيارنا لتكون تحفة شاردان ورائعته .

وكانت خاتمة مظفرة لحياة فلة شريفة كريمة . ولسنا في حاجة إلى تصوير شاردان رجلاً بريئاً من زلات البشر ، فالحق أنه هو نفسه أيضاً ، وقد وخزته أشواك الحياة وأساءت إليه الأحقاد ، كان في مقدوره أن يقاوم بالانفجار في الغضب وفي قارص الكلام ، ولكنه لما فارق الحياة في ١٧٧٩ ، فإن أحداً في دنيا الفن الباريسي الحاسدة الحاقدة المفترية ، لم يجد كلمة سوء عدائية يقولها فيه . بل إن نظام الحكم المنهار نفسه بدا أنه تحقق من أن شاردان قد كشف بأسلوب فني لم يزه فيه أحد في زمانه ، عن فرنسا ، التي هي فرنسا الحقيقية التي لا تزال سليمة بارثة من السقام ، تلك الدنيا المستترة ، دنيا الكد الخالص والولاء للأسرة ، مما يمكن أن يبقى ويعمر — ويساعد فرنسا على البقاء — بعد قرن من الفوضى والثورة . وكما قال ديدرو « كان شاردان أعظم ساحر لدينا » (٣٣) .

٤ — لاتور — ١٧٠٤ — ١٧٨٨

إن نزعات الذوق المتقلبة لا تقدم اليوم لإكليل الغار في فن الرسم الفرنسي في القرن الثامن عشر ، إلى يوشيه أو إلى شاردان ، بل تقدمه إلى موريس كانتان دي لاتور .

وهو أكثر الشخصيات الثلاث إمتاعاً وتشويقاً ، لأنه مزج رذائله وفضائله باستهتار شيطاني ، وساق العالم المرتعد بأسره إلى زاوية ، وطلب كما فعل ديوجنيس ، إلى ملك أن يبتعد عن طريقه . وكان نزاعاً إلى جمع المال في جشع شديد ، مغروراً وقحاً متغطرساً ، عدواً لدوداً وصديقاً متقلباً عميقاً مزهواً مثل رجل عجوز يخنى سني عمره أو يفاخر بها ، وكان أميناً

صريحاً ، بخيلاً ، ومحسناً مسرفاً وساذجاً أنيساً ، وطنياً ملتبهاً حماسة وغيره ،
يحتقر الألقاب ، ومن ثم رفض لقب النبالة الذى عرضه عليه الملك .
ولكن هذا كله لا يتصل بالموضوع ، فإنه كان أعظم رسام فى عصره ،
وأعظم مصور بالبستل فى تاريخ فرنسا .

وجلس لويس الخامس عشر يوماً إلى لاتور ليرسمه ، فاستاء الملك
وجرحت كبرياؤه لكثرة ما ردد الفنان من عبارات المديح والثناء على
الأجانب ، وقال له « ظننت أنك فرنسى » . فأجاب لاتور « لا بامولاي ،
أنا من سانت كاتنان فى بيكاردى »^(٣٤) (مقاطعة فى شمال فرنسا كانت يوماً
جزءاً من الفلاندرز) . انه ولد هناك لأب موسيقار موسر ، أراد له أن
يكون مهندساً ، ولكن الولد آثر أن يكون رساماً ، فأنبه الوالد على ذلك ،
وهرب موريس وهو فى الخامسة عشرة إلى باريس ثم ريمس ثم كبراي ،
يرسم اللوحات هنا وهناك ، وفى كبراي دعاه أحد الدبلوماسيين الإنجليز
إلى لندن ضيفاً عليه فيها . وذهب إليها موريس ، وهنا جمع مالا وقضى
وقتا سعيداً مستمتعاً بالحياة ، وعاد إلى باريس وتظاهر بأنه رسام إنجليزى .
وكانت روزاليا كارييرا فى باريس فى عام ١٧٢١ وكان وجهاء القوم ،
إبتداء من الموصى إلى أحدث محدثى الثراء ، يفتشون عن لوحاتها المرسومة
بالبستل . ووجد لاتور أن مثل هذه الرسوم بالأقلام الملونة تلتئم مع مزاجه
القلق ، أكثر من الزيت الذى يحتاج إلى جهد وجلد . وقضى عدة سنين
يحاول ويجرب ويخطئ ، حتى تعلم أن يحقق وينجز بالطباشير ظلالاً ودقة
فى اللون والتعبير مما لم يتسن لأحد من رسامى الأشخاص فى زمانه أن
يباريه فيها .

وعندما عرض بعض لوحاته فى معرض ١٧٣٧ بدأ رسامو الزيت
يوجسون خيفة من منافسة أقلام البستل لهم . وكانت لوحاته الثلاث المرسومة
بالبستل حديث معرض ١٧٤٠ . وكانت لوحته رئيس مدينة ريو فى رداء
الحاكم الأسود وعباءته الحمراء « هى التى فازت بالجائزة فى معرض ١٧٤١ .
أما لوحته التى رسمها للسفير التركى فقد تكاثرت عليها الجمهور المعجب فى

١٧٤٢ . وسرعان ما طالبت دنيا الأناقة التي تهفو دوماً إلى كل ما هو مستحدث ، بالتحول إلى الطباشير ، وأصبح صدام لاتور مع الملك حدثاً تاريخياً . ذلك أن الفنان بدأ بالاعتراض على الحجرة إلى اختبرت ليجلس الملك فيها أمامه ليرسمه ، لأن الضوء كان ينفذ إليها من كل جانب ، قائلاً « ماذا تتوقع مني أن أفعل في هذه المشكلة ؟ » فأجاب الملك « لقد اخترت هذه الحجرة المنعزلة خصيصاً ، حتى لا يعكر صفونا أحد » . فرد عليه لاتور بقوله « لم أكن يا سيدي أعلم أنك لست سيداً في دارك » . وفي مناسبة أخرى عبر الفنان عن أسفه لأن فرنسا لا تملك أسطولا ضخماً ، فاعترض الملك في خبث « فما بال فرنيه الذي صور مناظر البحر يعجج بالسفن (٣٥) » ولما علم لاتور أن الدوفين أبلغ أنباء مضللة كاذبة عن مسألة معينة ، ابتدريه في رفق « وهكذا ترى كيف أنه من السهل على اناس أمثالكم أن يقعوا في حبال المخادعين المخاتلين » (٣٦) .

وعلى الرغم من صراحته اللاذعة للمزعجة . منحته الأكاديمية عضويتها الكاملة ١٧٤٦ — التي هي بمثابة شهادة امتياز وتفوق . ولكن في ١٧٤٩ ، نتيجة سعى حثيث من الوسامين بالزيت ، قررت الأكاديمية ألا تقبل مزيداً من رسوم البستل . وفي ١٧٥٣ شكى أحد مصوري اللوحات الزيتية « من أن دي لاتور ارتقى برسم البستل إلى درجة قد تثير النفور من اللوحات الزيتية » ورد لاتوركيد الشاكي في نحره بالخوافز والروائع .

وكان له منافس في البستل ، هو جان بابتيست برونو الذي كان يؤثره ليموين وأودري وغيرهما من الأكاديميين على دي لاتور ، فطلب هذا إلى برونو أن يرسمه (لاتور شخصياً) فقبل برونو وأخرج له تحفة رائعة ، وأجزل له دي لاتور الأجر ، ولكنه رسم بعد ذلك نفسه في لوحة من أعظم اللوحات الذاتية المعروفة روعة وإبرازاً للشخصية والذات ودبر مع شاردان أن تعرض اللوحتان كلتاهما جنباً إلى جنب في معرض ١٧٥١ . وأجمع كل الذين شاهداهما أن اللوحة الذاتية تفضل لوحة برونو ، ولا تزال اللوحة الذاتية التي رسمها لاتور لنفسه تبتسم ابتسامة النصر في متحف اللوفر .

وهناك أيضا اللوحة التي تحدى بها بوشيه وهى لوحة البستل الوحيدة التي عرضها ١٧٥٥ . وأفلتت الفرصة منه تقريبا . فحين وجهت إليه الدعوة ليرسم أشهر سيدة في المملكة أجاب « أرجو أن تتفضلوا ببلاغ مدام دى بمبادور أننى لا أخرج لأرسم » . وكانت تلك طريقته فى جلب الحظ والمال ، مثل ايقاع الفريسة فى الشرك ، بالتراجع ، وتوسل إليه أصدقاؤه أن يقبل . فأرسل كتابا يبدئ بأنه سيحضر ، ولكن سريطة ألا يقطع عليه أحد سير العمل . ولما وصل نزع وقاء حدائه ، وخلع الحذاء ، ونزع شعره المستعار عن رأسه ورقبته (ياقته) وغطى رأسه بقلنسوة حريرية ، ثم بدأ يرسم . وفجأة فتح الباب ودخل الملك . فاحتج لاتور قائلا : لقد وعدتني يا سيدتي أن يظل الباب مغلقا « فضحك الملك ورجاه أن يستأنف عمله ، ولكنه رفض » يستحيل على أن أطيع جلالكم . سأعود عندما تكون السيدة وحدها . . . لا أحب أن يقاطعني أحد . فانسحب الملك ، وأكمل الفنان الجلسة ، ومن أشهر صورتين لمدام دى بمبادور ، نجد أن اللوحة التي رسمها لاتور أعمق من تلك التي أنتجها بوشيه ، وأقل اشراقا فى اللون ، واتقاناً فى اللمسات الأخيرة والتفاصيل ، ولكنها أكثر نضجا من حيث التعبير وابرار الشخصية . ولا ريب أن لاتور رسم المركزية ، بايحاء منها ، باعتبارها راعية للفن والموسيقى والأدب والفلسفة ، وعلى أريكة قريبة منها قيثارة ، وفى يدها بعض صفحات موسيقية ، وعلى المنضدة كرة أرضية ، وحقيبة أوراق من نفش يديها ، وقصة فولتير « هنرياد » وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » والمجلد الرابع من موسوعة ديدرو .

وعندما فرغ لاتور من اللوحة طلب عليها أجرا قدره ٤٨ ألفا من الجنيهات . وعلى الرغم من تبذيرها واسرافها فانها رأت أن المبلغ المطلوب مبالغ فيه بعض الشيء ، وأرسلت إليه ٢٤ ألف جنيه ذهبيا . وفكر لاتور فى رد المبلغ . فسأله شاردان إذا كان يعرف ثمن اللوحات الموجودة فى فوتردام ، بما فيها روائع برون ولى سير ، وأجاب لاتور سلما ، وقدر شاردان جملة تكاليفها بمبلغ ١٢ ألف جنيه . وأعاد لاتور النظر فى تقديره

وقبل المبلغ الذى أرسلته بمبادور (٢٤ ألفا) . إنه ، بصفة عامة كان يطالب بالأجر تبعا لثروة الجالسين أمامه ، فإذا اعترضوا ردهم خائبين ، وربما كان هناك بعض استثناءات لفولتير وروسو ودالمبرت ، حيث أعجب بالفلاسفة من كل قلبه ، وأقر صراحة بتجرده من الإيمان الدينى .

وربما كانت أجوره المرتفعة سبباً فى اشتداد الطلب عليه من جميع الأنحاء . وعن طريقه عرفنا الشخصيات القيادية فى عصره ، وأصبح فقه فى الرسم بالبستل ، فأبدع لوحات جميلة رائعة للملكة ولولى العهد الصغير ، والدوفين المتظاهر بالرزانة والاحتشام^(٣٨) ، ولا كامارجو راقصة الباليه الأولى ، وحاول أن يرسم لروسو لوحة يبدو فيها لطيفاً عاقلاً حكماً^(٣٩) ، وفى أحد أعماله البالغة الروعة رسم موريس دى ساكس القائد الوسيم المنتصر على الجيوش والسيدات^(٤٠) ، وأبرز فى لوحة رسمها لصديقه الرسام جان رستوت شعلة النشاط ونضارة الحياة فى عينيه^(٤١) . ولبس الخنز والمخرمات والشعر المستعار استعداداً لصورة ذاتية معلقة الآن فى اميان . وعلى الرغم من عاداته الخشنة ونزواته غير المشروعة ، وحالاته النفسية المتقلبة التى لا ضابط لها ، فقد كان موضع الترحيب فى قصور الأرسقراطية ، فى ندوة مسيو دى لا بوبلنير فى باسى ، وفى صالون مدام جيوفرين . وكان يرتبط بأواصر الصداقة بمشاهير كتاب عصره ، بل حتى بالرسامين والمثاليين الذين نظروا إلى نجاحه بعيون حاسدة - فانلو ، شاردان ، جريز ، بيجال ، باجو . ومنحه الملك معاشاً إضافياً ومسكناً فى اللوفر . ولا بد أن الرجل كان . فوق كل شيء ، محبوباً .

ولم يتزوج لاتور قط . ولكنه لم يتنقل كثيراً بين أحضان السيدات كما فعل بوشيه وكان له عشيقة ، هى الأنسة فل Mlle Fel التى ساعد غناؤها على تجاح أوبرا روسو « عراف القرية » . وتضايق منها جريم لأنها لم تبادله الحب ، ولكنها أقبلت على لاتور من كل قلبها . وذكر هو لها بالعرفان والشكر كل ما وفرت له من أسباب الراحة والتسلية حتى إنه ظل يشرب نخبها وهو فى الثمانين من عمره . وكان فى إخلاصها له شيء من العزاء

والسلاوى حين تقدمت به السن فتصلبت أصابعه وغشى بصره . ودفع ثمن
الرخاء والرغد الذى نعم به وهو فى ذروة المجد ، بما لقى من إذلال طال
أمدّه فى سنى شيخوخته واضمحلال صحته . إنه عمر بعد أن تلاشت عبقريته .
وسمع النقاد يتحدثون عنها ، وكأنما أدركها الفناء .

وعند ما قارب الثمانين ترك مسكنه فى اللوفر ، ليعيش فى الهواء الطلق
فى أوتى Auteuil . وأخيرا عاد إلى مسقط رأسه . واستقبلت سانت كانتان
ابنها السخى المبذر بطلقات المدافع ودق النواقيس والفتافات الشعبية . وعمر
فى هذه البلدة الهادئة أربع سنوات أخرى وذبل عقله النشيط إلى مس خفيف
غير مؤذ من الجنون ، فأصبح يتمم بشيء من فلسفة وحيدة الوجود
(الله والطبيعة شيء واحد ، والسكون المادى الإنسان مظاهر للذات الإلهية) ،
ويعبد الله والشمس معا ، ويحلم بالثورة مؤملا فى قيامها . وفازق الحياة
قبل قيامها بعام واحد . وقبل أبدي خدمه وهو فى النزع الأخير .

الفصل العاشر

نشاط الذهن

١ - صناعة الكلام

الآن أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الثانية لكل متعلم ومثقف في أوروبا ، وواسطة الاتصال والتفاهم المعترف بها في الدبلوماسية العالمية ، وكان فردريك الأكبر يستخدمها بانتظام ، اللهم إلا في التحدث إلى قواته . وألف جيبون أول كتاب له باللغة الفرنسية ، واتجه تفكيره لبعض الوقت إلى أن يكتب بها مؤلفه المعروف « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » . وفي ١٧٨٤ أعلنت الأكاديمية الألمانية عن مسابقة ذات جائزة لمن يكتب أحسن موضوع يوضح أسباب هذا التفوق والتبريز ، ونشرت مطبوعاتها بالفرنسية . وكانت الأسباب الرئيسية لهذا التفوق هو المنزلة السياسية السامية لفرنسا في عهد لويس الرابع عشر ونشر القوات الفرنسية للغتهم في الأراضي الوطيدة وألمانيا والنمسا وإسبانيا ، وعلو مكانة الأدب الفرنسي في القارة ، بشكل لا نزاع فيه (وقد يكون لإنجلترا تحفظات على هذا) ، وشعبية المجتمع الباريسي بوصفه مدرسة للدراسات الثقافية والنشاط الاجتماعي ، تنهل منها النخبة الممتازة في أوروبا ، ثم الرغبة في إحلال لغة أحدث وأكثر مرونة محل اللغة اللاتينية في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وقيام الأكاديمية الفرنسية بتنقية اللغة وتقسيمها عن طريق قاموسها ، ولم تصل قط لغة وطنية أخرى ما بلغته الفرنسية من دقة وتنوع ، ومن قوة وسحر في العبارة ، ورشاقة ووضوح في الأسلوب . وكان ثمة بعض الخسارة في هذا الانتصار : ذلك أن النثر الفرنسي ضحى بالصراحة البريئة عند مونتاني والحيوية الدافقة القاسية الصادرة عن القلب عند رابليه . وأصاب الشعر الفرنسي الوهن والضعف في سجن القواعد التي وضعها بوالو ،

وانزلت الأكاديمية نفسها — حتى أيقظها ديكلوس بعد انتخابه ١٧٤٦ — إلى شكليات غامضة وضالّة مبعثها الجبن والحذر .

وكانت حرية الفكر والكلام النسبية في عهد الوصاية الخطير قد شجعت على مضاعفة عدد المؤلفين والناشرين والمكبات . واندس من يطبعون وينشرون ويبيعون الكتب في كل مكان ، حتى على الرغم من أنه يتقدم القرن ، أصبحت هذه التجارة خامسة ، وكان في باريس وحدها منهم ٣٦٠ كلهم تقريباً فقراء معدمون . وانتشرت المكتبات في كثير من المدن ، وكان في بعضها حجرات للمطالعة مفتوحة للجمهور ، نظير رسم دخول ضئيل (٤٠ سو) وقل أن كان التأليف مهنة كافية لكسب القوت ، ولذلك كانت تكمل عادة بعمل آخر ، فكان كريبيون الأكبر كاتباً لدى موثق عقود ، وكان روسو ينسخ الموسيقى . واستطاع نفر قليل من مشاهير الكتاب أن يبيعوا إنتاجهم لقاء ثمن عال . ولما أعسر موريفو بسبب انهيار نظام لو ، استطاع أن يصلح ماليته ويسترد ثروته برواياته ومسرحيته « ماريان » ، وقبض روسو ، وهو عادة فقير ، خمسة آلاف جنيه عن كتابه « اميل » . وكان حق الطبع القانوني الوحيد هو الترخيص الملكي بالنشر وكان في هذا حماية للمؤلف من السطو على كتابه في فرنسا ، ولكن ليس من السطو عليه وطبعه خارجها ، وكان هذا الترخيص يمنح لمن يكفل المراقبون الرسميون نخلو كتابه مما يسئ إلى الكنيسة أو الدولة . وكان يمكن للأفكار الجديدة أن تتخطى هذه العقبة باخفاء مادة الكتاب أو الهرطقة في أسلوب مقنع . فإذا لم تنجح هذه الخدعة ، فقد يعمد المؤلفين إلى إرسال المخطوط إلى امستردام أو جنيف ، أو أية مدينة أجنبية أخرى ، ليطبع هناك بالفرنسية ويوزع في الخارج ، ويتداول سرا في فرنسا .

وأدى اتساع الطبقة الوسطى وانتشار التعليم وتجمع المفكرين في باريس إلى خلق جمهور متلهف على الكتب ، ونهضت مجموعة كبيرة من المؤلفين لتلبية هذا المطلب وإشباع هذه الرغبة . وأثاؤ ضعف الدولة في عهد لويس

الخامس عشر وانهيار الإيمان الديني ، المناقشات الشفوية والخطية في المسائل السياسية والفلسفية . وإذ كرهت الأرستقراطية تلك الملكية التي حدثت من سلطتها ، كما كرهت الكنيسة التي كانت تساند الملكية ، فإنها استمعت بآذان صاغية ذات مصلحة إلى نقد الحكومة والعقيدة كليهما ، وانضمت الطبقة المتوسطة العليا إلى الأرستقراطية في اصغائها لهذا النقد ، أملا في تغيير يحقق لها المساواة الاجتماعية مع طبقة النبلاء .

وفي هذا الجو الجديد حقق المؤلفون والكتاب مكانة قلما تيسرت لهم قبل القرن الثامن عشر أو بعده . وقوبلوا بالترحيب في الصالونات حيث تحدثوا وأبدوا آراءهم بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان . واستقبلوا في قصور ذوى الألقاب ما داموا لم يجرحوا كبرياءهم أو يسيئوا إليهم . وكان أصحاب المال يستضيفونهم ويكرمون وفادتهم ، وفي بعض الأحيان يسكنونهم في قصورهم ، مثل ما فعل بوبلينير ، وأصبحوا برغم فقرهم قوة في الدولة . قال ديكلوس في ١٧٥١ « إن امبراطورية رجال الفكر ، من بين كل الامبراطوريات ، أوسعها امتدادا ، دون أن تكون مرئية . إن أصحاب السلطة يأمررون ، ولكن رجال الفكر يحكمون . وعلى المدى البعيد . . . إن عاجلا أو آجلا ، سيتغلب الرأي العام على أى شكل من أشكال الاستبداد والحكم المطلق أو يغلبه »^(١) (وفي ١٧٥١ لم يكن قد تم التوصل بعد إلى الأسلوب الذي يتحقق به تشكيل الرأي العام تشكيلا محكما بالمال أو عن طريق الحكومة) .

وإذا رحب جمهور متزايد بالكتاب الفرنسيين ، وحفزهم مئات المتنافسين اليقظين ، وحررهم ضعف العقيدة ، واستحثهم زهو الطباعة وخيالاتها ، فإنهم دفعوا إلى المطبعة بسيل من الرسائل والنشرات والأبحاث والنقد اللاذع والمقالات والمذكرات ، والتاريخ والقصص والمسرحيات والقصائد والأبحاث الدينية والفلسفية ، والكتابات الإباحية الداعرة والأدب المكشوب ، مما حطم كل اغلال الرقابة وقيودها ، واكتسح كل مقاومة ، وغير عقل فرنسا وعقيدتها وحكومتها بل إلى حد ما عقل العالم وعقيدته

وحكوماته . ولم يحدث قط ان وجد في الأدب من قبل مثل هذا الذكاء الحاد أو المزاج الرقيق أو هذا التهريج الماجن أو هذا السخف المهلك ، وتصدعت كل القواعد التقليدية في الكنيسة والدولة تحت ضغط الهجمات التي شنتها تلك الأقلام الحادة ، المسمومة أحيانا ، المغمورة أو المجهولة عادة .

إن الرسائل الخاصة نفسها أصبحت قنأاً شائعاً . فما من سيدة أو رجل إلا نقح رسائله وأعاد كتابتها وصقلها وتأنق فيها أملاً في أن يطالعها أكثر من الشخص الذي أرسلت إليه فتتألق أمام العيون وتكون متعة لقارئها ، كذلك نجحوا أحيانا في أن تكون رسائلهم « كتابات ممتازة » أي قطعاً من الأدب . وبسبب حبهم للحديث والمناقشة فإنهم تحدثوا على الورق إلى الأصدقاء أو الأعداء الغائبين عنهم ، بشكل طبيعي وكأنما يخاطبونهم وجهاً لوجه ، وبكل الحماسة والحيوية اللتين تدور بهما أحاديثهم حول المائدة في الصالونات . ولم تكن تلك الرسائل تتضمن مجرد توافه الأخبار الشخصية ، بل كانت في معظم الأحوال نقاشاً في السياسة والأدب والفن ، وكانت في بعض الأحيان نثراً - لغة المجتمع - يزخر بالسجع الذي كثيراً ما يأتي عفواً الخاطر في الفرنسية ، مع أكبر الأمل في إطراء القارئ لها ، وهكذا كان فولتير يدخل السرور على قلوب أصدقائه بسلسلة القصائد التي يبعث بها إليهم ، مما كانت تفيض به قريحته الوقادة وفنه الرشيق .

وآذن عصر الخطابة بزوال ، لأن فرنسا القرن الثامن عشر خشيت أن يتولاها السأم والضجر حتى لو استمعت إلى بوسويه آخر (أسقف وخطيب واعظ في القرن السابع عشر) . ولكن الخطابة ستعود مع قيام الثورة . وكانت كتابة « المذكرات » لا تزال سائدة ، لأنها باعتبارها رسائل إلى الأعداب والأجيال القادمة . احتفظت بشيء من سحر المكاتبات وفتنتها . وفي نهاية الحقبة ، في ١٧٥٥ وصلت إلى المطبعة مذكرات البارونة مدام دي ستال دي لوني التي كانت قد فارقت الحياة ١٧٥٠ ، وقد أعادت هذه المذكرات إلى الأذهان ذكريات عهد الوصاية وأمسيات دي سكو . وهنا كما يقول جريم ، كانت سيدة نافست فولتير نفسه بامتيازها وبراعتها في النثر (٢) .

٢ - المسرح

تفوقت المسارح على الصالونات من حيث المكانة التي احتلتها في باريس ، وما حظيت به من حب وإقبال بين الباريسيين . ويقول فولتير لما رمونتيل : « إن المسرح أعظم مهنة سحرا وفتنة ، ففيه يكسب المرء بين عشية وضحاها جاها ومالا ، وإن رواية واحدة ناجحة تأتي لصاحبها بالثروة والشهرة »^(٣) . وكانت هناك في الأقاليم مسارح لا بأس بها ، وكان ثمة تمثيل مسرحي خاص في بيوت الأغنياء ، بعض المسرحيات أمام الملك والخاصية في فرساي . ولكن التحمس للروايات في باريس بلغ حد الجنون والحمى والجدل والشجار أو الابتهاج والسرور . واحتفظت « الكويمدي فرنسيز » في « المسرح الفرنسي » بأعلى الدرجات في الموضوع والأداء ، ولكن الجماهير الفقيرة كانت تقصد إلى « مسرح الإيطاليين » ومسرح « الأوبرا كوميك » . .

وثألفت كل هذه المسارح ، ودار الأوبرا في « الباليه رويال » من قطاعات فسيحة بها عدة صفوف من المقصورات والمقاعد للقلة التي يفوح منها شذا العطر ، أما جمهور المشاهدين الأقل تبرجا وإثراء فكانوا يقفون تحت الشرفات الداخلية ، (على الأرض) التي نسميها خطأ . « الأوركستر » ولم توضع فيها مقاعد حتى جاءت الثورة . وكان نحو ١٥٠ من المتحمسين المتأنقين الذين يدفعون أجراً أكبر ، يجلسون على خشبة المسرح ، يحيطون بالممثلين من ثلاثة جوانب . وقد استنكر فولتير هذه العادة ، لأن هذا كان يعوق الممثلين ويفسد المنظر . « لما كانت معظم رواياتنا لا تعدو أن تكون حوارا طويلا ، فإن التمثيل المسرحي لا يكون له وجود ، أو إذ وجد بدا سخيفاً^(٤) وتساءل كيف يتسنى لممثل مسرحي أن يمثل على مثل هذا المسرح مشهد بروتس ثم أنطوني وهما يخطبان في أهل رومه بعد قتل قيصر ؟ وكيف يمكن « للروح » المسكين في هملت أن يسترق النظر من خلال هذه الهياكل العظيمة المتمتعة بامتياز الجلوس على خشبة المسرح ؟ إنه ليكاد يكون من المتعذر تمثيل أى من روايات شكسبير في مثل هذه الظروف^(٥) وكان لاعتراضات فولتير القوية ، التي أبدى فيها ديدرو وغيره ، أثرها فإذ وافى عام ١٧٥٩ حتى كانت خشبة المسرح في فرنسا قد أخلبت من المتفرجين .

ولبي فولتير نجاحاً أقل في حملاته لتحسين الوضع الديني للممثلين : وكانت مكانتهم الاجتماعية قد تحسنت ، فكانوا يترددون على دور الأرسقراطية ، وفي كثير من الأحيان كانوا يمثلون بناء على طلب الملك . ولكن الكنيسة استمرت في اتهامها للمسرح بأنه مدرسة للفساد والقضائح والأعمال الخزية ، وذهبت إلى أن كل الممثلين بطبيعة الحال محرومون من الكنيسة ، وحرمت دفنهم في الأرض المخصصة للمؤمنين — وهي تشمل كل المقابر في باريس وأشار فولتير إلى هذا التناقض :

إن الممثلين يتقاضون أجوراً من الملك ، في الوقت الذي تحرمهم فيه الكنيسة . ويصدر إليهم أمر الملك بالتمثيل كل مساء ، بينما تحظر عليهم الديانة أن يمثلوا إطلاقاً ، وإذا امتنعوا عن التمثيل زج بهم في السجن (كما حدث عند ما أضرب ممثلو جلالته عن العمل) فإذا مثلوا ألقى بهم (عند موتهم) في البالوعات . إننا نبتهج ونسر بهم ، ونعترض على دفنهم معنا ، وفرحب بهم على موائدنا بينما نغلق أبواب مقابرنا دونهم^(١) .

وكانت أدريين ليكوفريير أعظم الممثلات الفرنسيات في زمانها مثلاً واضحاً لهذه المتناقضات في حياتها ومماتها . إنها ولدت في ١٦٩٢ قرب ريمس وجاءت إلى باريس في العاشرة من عمرها ، وأقامت قرب « المسرح الفرنسي » وكثيراً ما شقت طريقها إليه ، ثم قلدت في البيت الممثلات اللاتي أعجبت بهن وهي واقفة على أرض المسرح تحت الشرفات . وفي سن الرابعة عشرة نظمت فرقة من الهواة قاموا بالتمثيل على مسارح خاصة . وأعطاهما الممثل « لي جراند » دروساً ، وهياً لها مكاناً في فرقة تمثيل في ستراسبورج . وقامت بالتمثيل في الأقاليم لعدة سنوات ، كما فعل موليير ، وانتقلت من دور إلى دور ، ومن قصة غرام إلى أخرى دون ريب . وهفت نفسها إلى الحب ، فلم تصادف إلا الداعرين الفجرة ، وتركها اثنان منها على التعاقب حاملاً ، ورفضاً الزواج منها . وفي سن

الثامنة عشرة وضعت بنتا . وفي الرابعة والعشرين وضعت بنتا أخرى .
وفي ١٧١٥ عادت إلى باريس ، والتقى بها هناك فولتير الشاب ، وكان لها
لبعض الوقت أكثر من صديق^(٧) . وفي ١٧١٧ أصبحت السيدة الأولى
في « المسرح الفرنسي » الذي كان مأواها ومبعث إلهامها في شبابها .

ولم تكن مثل معظم الممثلات الشهيرات بارعة الجمال ، بل كانت
بديئة ، وكانت قسما وجهها غير متناسقة ، ولكنها تميزت برقة تفوق
الوصف في جلستها ووقفها وحركتها وعاداتها ، وموسيقى مغرية في صوتها ،
وبريق من الشرر والإحساس في عينيها السمرأوين ، وتعبير متحرك كريم
في وجهها . وكان كل تصرف منها يعبر عن شخصيتها . ورفضت أن تنبج
الأسلوب الخطابي الذي كان قد أصبح تقليدا سائدا في التمثيل في فرنسا في
المسرح الطويل المستطيل الشكل في المسارح القديمة . وعقدت العزم على أن
تمثل دورها وتنطق بعبارات على خشبة المسرح كما تحدث في الحياة
الواقعية ، اللهم إلا في إخراج الحروف من مخارجها والإبانة في اللفظ ،
ورفع درجة الصوت ، مما هو مطلوب لنقل كلماتها إلى أبعد مكان يوجد
فيه الجمهور . إنها في فترة عملها القصيرة حققت ثورة أو انقلابا في فن
التمثيل المسرحي . وتحقق هذا أيضا في عمق شعورها ، وقدرتها على نقل
انفعالات الحب أو رفته ، وكل العطف أو الرعب في أي مشهد مأساوي .
وتفوقت في الفن الشاق ، فن الاصغاء المعبر اليقظ حين يتكلم الآخرون .

وامتدحها الشيب ، أما الشبان فقد وقعوا في غرامها . وهام بحبها
الشاب شارل أوجسطين دي قريول كونت أرجنتال الذي كان مقدر أن
يصبح « ممولا ومدعما بنقوده » لفولتير ووكيلا له ، وجزعت والدته شارل
لهذا خشية أن يعرض على أدريين الزواج فتقبل ، فأقسمت الأم أن تبعث
بولدها إلى المستعمرات ، وعندما سمعت الممثلة بهذا أرسلت إلى مدام
دي قريول (٢٢ مارس ١٧٢١) تؤكد لها أنه لن تشجع الشاب على
الاتصال بها أو تبادل الرسائل معها : « سأكتب إليه بأي شيء يرضيك .
ولن أراه بعد الآن إذا كنت ترغبين في ذلك . ولكن لا تهدديه بإرساله

إلى أقصى الأرض . وسيعمل كل ما يبعث في قلبك الرضا والارتياح ،
ويضفي عليك الشهرة والمجد ، وما عليك إلا أن توجهي مواهبه وقدراته
وتنمي فضائله لتؤتي ثمارها (٨) .

وكانت آدرين على حق ، فإن دارجنتال فاز بعضوية برلمان باريس ،
وفي سن الخامسة والثمانين ، حين كان يقلب النظر في الأوراق التي تركتها
والدته ، عثر على هذه الرسالة التي لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل .
واستمتعت آدرين بدورها بنشوة الحب كما عانت من الهجران
والصدود . وكان الأمير الشاب موريس السكسوني كثيراً ما يتردد على
المسرح الذي تعمل فيه ، ولم يكن بعد قد انتفخت أوداجه زهوا بانتصاراته ،
ولكنه كان وسيماً عاطفياً خيالياً حتى أنه عندما أقسم على الانخلاص والولاء
لها مدى حياته ظننته فارس أحلامها الذي طال انتظارها له ، وإذا وصل
الأمر بالرجال إلى الوعد بالانخلاص مدى الحياة ، فإنهم يحبون ويموتون
عدة مرات مثل القطط (بسبع أرواح) . ورضيت به عشيقاً (١٧٢١) ،
وعاشا لفترة من الزمن يرشقان كؤوس المحبة والانخلاص إلى حد أن باريس
قارنتهما بقمريات لافونتين الحبيبات . ولكن الجندي الشاب الذي أصبح لتوه
« قائد المعسكر » راوده الحلم بأن يكون ملكاً ، وقد رأيناه يسارع إلى
كورلند (جزء من لتقيا الحالية) طمعا في الحصول على التاج فيها ، وكان
نصف الأموال التي حملها معه من مدخرات آدرين .

فتسلت عن فراقه بتأسيس « صالون » في بيتها . ولم يكن غير ذي عائد
فكرى لها إنها كانت قد تعلمت رشاقة راسين وأفكار مولير ، حتى أصبحت
من نخبة سيدات فرنسا ثقافة وعلماً ، ولم يكن أصدقائها من المعجبين
العابرين . ولكنهم رجال ونساء أحبوا عقلها . فقصد فونتييل وفولتير
ودارجنتال والكونت دي كايوس بانتظام إلى دارها لتناول العشاء ، ووجد
بعض السيدات الأنبيات من ذوات الألقاب والاحساب متعة في الانضمام إلى
هذه الجماعة المتألقة .

وفي ١٧٢٨ عاد الجندي الذي لم يواته الحظ ولم يتحقق أمله إلى باريس .

وكان البعاد قد خفف من لوعة حبه . وتبين أن آدرين كانت تكبره آنذاك بأربعة أعوام حيث كانت في السادسة والثلاثين وعرض كثير من السيدات الثريات أن يشاركته مضجعه ، وكان الدم الملكي يجري في عروق إحداهن مثله تقريبا ، وهي لويزدى لورين دوقه بويون حفيذة بطل بولنده النبيل جان سويسكى ، وكانت تختال في جرأة أمام موريس في مقصورتها في المسرح الفرنسى ، إلى حد أن آدرين ولت وجهها شطر هذه المقصورة ، حين كانت تلقى في شيء من التوكيد بعض أبيات غاضبة من رواية راسين « Phedre » « لست واحدة من هؤلاء السيدات الوقحات اللاتي تعلمن ، وهن يلقين ظلالا من الجريمة على مظهر الوثام الهادىء الوادع ، إن يكن صفيقات إلى حد لا يستشعرن معه الخجل من سوء تصرفهن » (٩) .

وفي يولييه ١٧٢٩ أبلغ سيمون بوريه ، القسيس رسام المنمنمات الآنسة ليكفرير أن رسولين مقنعين من إحدى سيدات البلاط عرضا عليه أن يعطى الممثلة بعض أقراص السم لقاء ٦٦٠٠ جنيه إذا قام بالمهمة . فأخطرت آدرين الشرطة بذلك . فقبضوا على القسيس وأجروا معه تحقيقاً دقيقاً . ولكنه صمم على أقواله . وكتبت آدرين إلى مدير الشرطة رسالة رائعة تطلب منه إطلاق سراح القسيس : « إني تحدثت إليه ، وجعلته يتحدث إلى كثير أوقات طويل ، وأجاب دائماً إجابات محكمة ذكية ، ليس لأنى أرغب فى أن يكون ما قال صحيحاً . فإن لدى مزيداً من الأسباب التى تحملنى على أن أتمنى أن يكون مخبولا . آه : أليس إلى الله وحده أتوسل ان يغفر له ؟ ولكن إذا كان بريثا فأرجو أن تفكر يا سيدى إلى أى حد يجدر بى أن أهتم بمصيره . لا تلق بالآ إلى مهنتى أو مولدى وأصلى ، ولكن حاول متفضلاً أن تستشف حقيقة نفسى التى بين جنبي ، وكفى صادقة مخلصه ، وقد كشفت لك عن سريرتها . بجلاء ووضوح فى كتابى هذا (١٠) .

وأمر الدوق دى بويون على أية حال ، على احتجاز القسيس ، ثم أفرج عنه بعد بضعة شهور ، وظل مصرا على أقواله . ولسنا ندرى حتى يومنا هذا مبلغ صدق روايته .

وفي فبراير ١٧٣٠ بدأت الأنسة ليكوفريير تعاني من إسهال يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . وظلت تمثل أدوارها على المسرح ، ولكن في أوائل مارس . حاولها من المسرح مغنى عليها . وفي ١٥ مارس مثلت ، وهي تلتقط آخر أنفاسها « جوكاست » في رواية فولتير « أوديت » وفي يوم ١٧ مارس لزمّت الفراش ، وصارت تنزف نزيفاً مميتاً من أمعائها ، ولم يعد الماريشال يزورها ، ولكن فولتير ودارجنتال فقط هما اللذان سهرّا على العناية بها في هذه الحادثة المفاجعة المذلة ، وفاضت روحها في ٢٠ مارس بين ذراعى فولتير .

وحيث كانت آدرين قد رفضت الشعائر الأخيرة للكنيسة (١١) . فإن القانون الكنسى حرم دفنها في الأرض المخصصة للمؤمنين ، واستأجر أحد الأصدقاء اثنين من حملة المشاعل ليحملا جثمانها في عربة أجرة لدفنه سرا على ضفاف السين ، فيما أصبح فيما بعد شارع بورجون . (في نفس العام ١٧٣٠ دفنت الممثلة الانجليزية آن أولديفيلد باحتفال عام في كنيسة وستمنستر .) وفي ١٧٣٠ نظم فولتير قصيدة (موت الأنسة ليكوفريير يستنكر فيها المعاملة المهينة في دفنها بهذه الطريقة : « تأثرت كل القلوب ، مثل قاي ، بالأسى والفجيعة . وإني لأسمع كل الفنون الذاهلة تولول من حولي ، وهي تذرّف الدمع . ان ملبومين (ربة المأساة) قضت نحبها ، ماذا عساكم تقولون أيها الأعقاب رجال الغد إذا علمتم بهذا الأذى الأليم المدمر الذي ألحقه أناس قساة بلا قلوب بهذه الفنون البائسة التي تخلى عنها أصدقاؤها ؟ لقد حرّموا من الدفن من إذا كانت في اليونان القديمة لأقاموا لها مذبحاً في الهيكل . لقد رأيتم يقصدونها ويزدحجون حولها . إنها لا تكاد تموت متى تصبح محرمة ، لقد سحرت أبواب العالم ، ثم ها أنتم تعاقبونها ، كلا ، لن تكون هذه الضفاف بعد الآن دنسة ، إنها تضم رفائك ، وستكون هذه المقبرة الحزينة معبداً جديداً لنا ، تمجده في ترانيمنا ، وتضفى عليه ظلالك قدسية » .

في ١٨٤٩ أخرج يوجين سكريب وارنست ليجوفيه في باريس مسرحيتهما الناجحة غير الدقيقة .
تماماً « آدرين ليكوفريير » . . . في ١٩٠٣ ألف فرانسكو سيليا أوبرا في نفس الموضوع .

وكان أعظم كاتب مسرحى فى ذلك العصر ، بطبيعة الحال ، فولتير .
وكان له منافسون كثيرون ، من بينهم بروسبر جولتون دى كريبون ،
وهو معمر عجوز كان ينبغى له أن يفارق الحياة منذ أمد طويل . وكان
كريبون قد أنتج فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧١١ روايات ناجحة ثم اقتنع
بالفشل المحتوم لروايته « اجزرسيس » ١٧١٤ ، وهنا كانت نهايته ، وكان
قد انقطع عن التأليف ، وبات يعانى الفقر ، ويجد بعض السلوى فى مسكن
على السطح مع مجموعة لطيفة من عشر كلاب وخمسة عشر قطا وبعض
الغرابيب السود . وفى ١٧٤٥ أنقذته مدام دى بمبادور بمعاش ووظيفة عاطلة
(يقبض راتبا ولا يؤدى عملا) ، واتخذت التدابير الطبع مجموعة أعماله
فى مطبعة الحكومة . وقصد إلى فرساي ليقدم لها الشكر . ولما كانت هى
مريضة ، فقد استقبلته وهى ملازمة الفراش ، قلما انحنى ليقبل يدها دخل
لويس الخامس عشر ، فصاح ابن السبعين « مولاتى ، لقد وقعت الكارثة ،
إن الملك فاجأنا معا » (١٢) . وسر المالك برمضة الذكاء وسرعة البديهة وانضم
إلى بمبادور فى حته على إكمال روايته « كاتيلين وكان قد أهملها وشهدتها
مدام بمبادور والحاشية ، ونال العرض الأول الاستحسان (١٧٤٨) . واهتز
كريبون طوبا من جديد لما أصاب من شهرة ومال . وفى ١٧٥٤ وهو فى
الثمانين أخرج آخر رواياته . وعمر بعد ذلك ثمان سنين ، سعيدا بحيواناته ،
ولم يطب فولتير نفسا بظهور منافس له من بين القبور ، ولكن كان
عليه أيضا أن يواجه فى الملهاة منافسه ماريغو المتعدد الجوانب الشديد الانفعال
إن بيير كارل دى شمبلين دى ماريغو أصبح هجاءا حين رأى بمحض
الصدفة ، حبيبته ذات السبعة عشر ربيعا تطبق عمليا مفاتها المغرية أمام
المرأة . ودق قلبه مؤقتا فقط ، لأن والده كان المدير الثرى لدارسك
النقود فى ريوم ، وكَم من شابه أو غادة تاقت نفسها لتكون زوجة بيير .
وتزوج من أجل الحب ، وأدهش باريس حين عاش حياة جنسية طابعها
الرصابة والاعتدال . وانضم إلى صالون مدام دى تنسان لـ ، وربما تعلم فيه
الدعابة المرحية ، والعبارة الرشيقة والإحساس الرقيق ، وانتقل كل أولئك
إلى رواياته ، وتميزت به مسرحياته .

وأول نجاح إصابة ماريغو هو رواية « آرليكان يصقله الحب » التي عرضت لمدة اثنتا عشرة ليلة متوالية على « مسرح الايطاليين » ١٧٢٠ . وبقدر ما كان يحصل عليه من أجور ، فقد معظم أمواله عند انهيار بنك لو . ويروى إنه اسرد ثروته بقلمه (١٣) ، حيث كتب سلسلة من رواياته الملهاة (السكوميديا) أمتعت باريس بمرحها اللطيف وحبكاتها البارعة ، وأشهرها « لعبة الحب والحظ » . وقد هاجمت اعترام زوجين (أربعة أشخاص ، رجلان وامرأتان) اعتراما متزامنا ، ولكن غير متفق عليه ، أن يختبرا انخلاص الخطيب الذي لم تقع عليه العين بعد ، عن طريق تبادل الزى والشكل بين سيد وخدام وسيدة وخدامة ، في سلسلة من المصادفات السخيفة المضحكة ، مثل منديل ديدمونة (في رواية عطيل) . وسر نساء باريس أكثر مما سر رجالها بالمآزق التي يتورط فيها الحب في هذه الرواية وبما فيها من عاطفة رقيقة . وهنا أيضا كما هو الحال في قصر قرساي ، وفي اللصالونات ، وعند واتو وبوشيه ، تحكمت المرأة ، وكان لها القول الفصل ، وحل تحليل المشاعر محل مشاكل السياسة وبطولات الحرب ، وتخلت الملهاة الرجولية عند مولير عن مكانها أمام الملهاة الانثوية التي سيطرت على المسرح الفرنسي (معترضة الطريق) إلى أيام سكريب وديماس الابن وساردو .

٣ - القصة الفرنسية

إن ماريغو هذا هو نفسه الذي أضفى على القصة في فرنسا شكلا جديدا . وفي ١٧٣١ أصدر الجزء الأول من « حياة ماريان » . وتقبلها القراء قبولا حسنا . واستمر يقدم أجزاء أخرى حتى عام ١٧٤١ ، حتى بلغت أحد عشر جزءا ، ولم يكملها (ولو أنه عمر حتى عام ١٧٦٣) ، لأن هدفه لم يكن أن يقص حكاية بقدر ما كان أن يحلل شخصية ، وبالذات شخصية المرأة ، وبصفة خاصة في الحب . ولم يكن ثمة شيء رائع أخاذ أكثر من المشهد الافتتاحي ، عصابة من اللصوص تسطو على مركبة للبريد والمسافرين ، وتقتل كل من فيها ، باستثناء ماريان التي عاشت لتقص القصة في شيخوختها .

وتحتفظ البطلة والمفروض أنها مؤلفة القصة . بعدم ذكر اسمها ، وهذا عمل كيدى ، إلى النهاية . وتعمل المخطوطة إلى صديق لها مع تحذيره « لا تنس أنك وعدتني ألا تبوح باسمي أبدا ، أنا أود ألا يعرفني أحد إلا أنت . » (١٤)

ولما كان أبوها من بين الضحايا . فقد تولى تربيتها رجل برجوازي محسن كريم . حتى أصبحت بائعة في محل لبيع ملابس النساء . وازدادت فتنة وجمالا إلى حد آثار مسيودى كليمال . وصار يقدم لها هدايا صغيرة ثم هدايا ثمينة ، وأخيرا طلب يدها جراه ما تقدم . ولكنها رفضته . وأعادت إليه هداياه بعد ترددات يصفها ماريغو في ذكاء لطيف . وكان جديرا بنا أن نقول إنها في نفس الوقت كانت قد التقت بابن أخى كليمال . وهو مسيودى فالقيل ، الذى كان أقل من عمه مالا وأصغر سناً . ومهما يكن من أمر فإن فالقيل يترك ماريان معلقة . لما يقرب من ألف صفحة . وينصرف إلى سيدة أخرى . وهنا نختتم قصة ماريغو .

تلك هي القصة النفسية في فرنسا القرن الثامن عشر . التى لم تافسها إلا قصة « اتصالات خطيرة » التى كتبها كودرلوس دي لا كلوس (١٧٨٢) . إنها أعادت إلى الأذهان قصة مدام دي لا فاييت « الأميرة دي كليف (١٦٧٨) » ، ولو إنها تكاد لا تعاد لها في رقة الشعور وجمال الأسلوب ، ولكن بزتها في تحليل الدافع والعاطفة . وهما نجد امرأة . مثل بامبلا عند ريتشارد سن ، تحتفظ بشرفها لأهميته في سوق الزواج . إنها تدرك أنه ليس لدى المرأة إلا قيم هزيلة فانية . لتقدمها تأييدا لأحاديث الزواج للرجل الذى يتجه إلى تعدد الزوجات . وتلك صورة . أكثر نهديا من الصورة التى أخرجها ريتشارد سن . الذى بدأ قصة بامبلا بعد تسع سنين من ما بان وربما تأثر بها . وفي مقابل ذلك نجد أن قصة ريتشارد سن « كلابيسا (١٧٤٧) » ساعدت روسو في « هلواز الجديدة » .

وعكس ماريغو خلق الطبقة المتوسطة القوي الحذب . على حين أروع كربيون الابن بفسق الأرستقراطية وفجورها الطائش . وكانوا يطلقون

عليه كرييون المرح « تميزا له عن أبيه » كرييون المكتتب ، (الذي قال عن ابنه إنه أسوأ إنتاجه الكبير) . نشأ كلود بروسيرجولبوت دي كرييون في باريس في عصر الوصاية الذي رجحت أخلاقه التعليم الجزويتي الذي تلقاه كلود ، ولعدة سنين شارك أباه سكنه فوق السطح وغربانه وكلايه وقططه . وفي ١٧٣٤ وهو في السابعة والعشرين اشتهرت قصته « المنزلق على السطح » . ومن الجائز أن يكون هذا لقب كل أبطاله وعنوان كل كتبه ، لأن الحب فيها — كما قال شامفورت — هو مجرد « ملامسة سطحين »^(١٥) . ووقعت أحداث القصة في اليابان ، ولكنها كانت نقداً لاذعاً أو هجاءاً صريحاً للكنيسة والدولة في فرنسا ، والدوقة دي مين الصغيرة (الفتاة الجميلة) ، إلى حد أن الكاردينال فليرى أبعد الكاتب — كلود كرييون — عن باريس لمدة خمس سنوات .

ولما عاد المؤلف أصدر في ١٧٤٠ اسوأ رواياته سمعة « الأريكة » ، وقد أبعد من أجلها أيضا ولكن لمدة أقصر . ووقعت الأحداث في « أجرا » ولكن الأخلاقيات كانت باريسية . إن السلطان تولاه الضجر والسأم ، ويريد قصصا يسرى عنه . ويتفضل رجل الحاشية الشاب أمانزى ، فيروى كيف أنه تجسد فيما مضى من الزمان على هيئة أريكة ، ويعود بذاكرته إلى بعض الخطايا التي ابتلى بها زنيك الأريكة . وتعاقت أحداث الزنى في تفصيل متزايد . ووجد كرييون متعة بالغة في قصته (Almohid and Mochles) وهما بعد أن أطنيا في التفاخر بعفتها وطهارتهما ، يعترفان بأن أفكارهما غير عفيفة مثل سلوك سائر البشر ، ويخلصان إلى أنه لا يمكن أن يكون في الفعل إثم أكبر منه في التفكير ، ومن ثم فانهما يوثمان بين الفعل والقول . وتلك ، على أية حال ، استثنائية . فان نساء كرييون يتطلبين عادة جزاء (عملا) ماليا عن أقوالهن ، ومن ثم أحصت « أمينا » بعناية ما حصلت عليه من مال ، ولم تستجب لرغبة حبيبها إلا بعد أن تأكدت كل التأكد إنه لم يخطئ في العملية الحسابية .^(١١)

ولقى الكتاب ما كان مقدرا له من نجاح . ووجد قراء في عدة لغات

أسرفت كلها في تصرفات شاذة . واعترف لورنس ستيرن بأنه تأثر بقصص كريبون . وفضلها هوراس وولبول على قصص فيلدنج . وكان مفهوم الرجل الفاضل العفيف توماس جراي عن الجنة والنعم « أن يقرأ إلى الأبد قصصا جديدة من تأليف ماريغو وكريبون » (١٧) . وجاءت من إنجلترا على عجل السيدة هنريتا ستافورد ، وأصبحت خليله كريبون ، وأم ولده ، ثم زوجته ويروون أنه جعل من نفسه زوجا مثاليا لها (١٨) . وفي ١٧٥٢ انضم إلى الكسيس بيرون وشارل كولي في تأسيس « الكاف - الكهف » وهو ناد للموهبين المرحين الذين اشتهروا بالبعد في الوقار والمزاح . وفي ١٧٥٩ عين « بدليل الخلف » رقيباً ملكياً على الأدب . ولما توفي والده في ١٧٦٢ ، بعد أن أبطأ به الموت إلى حد مثير ، ورث ابنه معاشه . « والأمور بخواتيمها » .

وفقدت كتب كريبون شعبيتها قبل وفاته بزمان طويل . ولما كان في الوقت نفسه كان أحد رجال الدين العلماء المتقنين قد كتب قصة لا تزال حية مؤثرة إلى يومنا هذا . وكانت حياة أنطوان فرنسوا بريفوست دى أجزيل . المعروف باسم الراهب بريفوست ، متعددة الألوان مرهقة مثل سير الحياة التي أبدعها قلمه . إنه ولد في أرتوا في ١٦٩٧ ، وتعلم في مدارس اليسوعيين ، ثم أصبح راهباً مبتدئاً في طائفة اليسوعيين (١٧١٣) . وتركهم ليلتحق بالجيش ، وارتقى إلى رتبة ضابط ، ووقع في شرك الحب . ونخاب فيه أمله ونحطم قلبه ، وأصبح راهباً بندكتياً (١٧١٩) ، ثم قسيساً ١٧٢٦ ، وقد يبعث على الدهشة والعجب أن نقول إنه منذ ذلك الوقت اعتمد في حياته كل الاعتماد على قلمه .

وكان بريفوست ، حتى قبل أن يهجر حياة الدير ، قد كتب قصة رومانسية « مذكرات ومغامرات رجل ذى حيثة » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منها ١٧٢٨ في باريس ، وبعد عام قضاه في إنجلترا قصد إلى هولنده ، وفي ١٧٣٠ بدأ ينشر قصة ثانية « الفيلسوف الانجليزى » أو تاريخ مستر كليفلند ، الابن الطبيعى لكروامول « وهى من أوائل القصص التاريخية .

وكتبها في ثمانية مجلدات في السنوات التسع التالية . وفي ١٧٣١ نشر المجلدات الخامس والسادس والسابع من « المذكرات » سألقة الذكر ونشر المجلد السابع على حدة في باريس ١٧٣١ تحت اسم « مغامرات الفارس دى جرييه ودى مانون ليسكو » (تأليف مسيود) . وحظرت الحكومة الفرنسية تداوله ، ومن ثم أقبل عليه الناس اقبالا شديدا متزايدا . ويقال « إنه في باريس لقي رواجاً كبيراً ، وتهافت الناس عليه كما يندفعون إلى النار » (١٩)

وقصة مانون موضوعة في قالب قبسح غير مصقول من التظاهر والإدعاء ، فثمة اثنتا عشرة بغيا في مركبة في طريقهن إلى ميناء الهافر لترحيلهن إلى أمريكا . والمركيز - الرجل ذو الحيشة المجهول ، والمفروض أنه يدون المجلدات السبع من المذكرات ، يأسر قلبه جمال إحدى الفتيات التي وصف وجهها فيما بعد « بأنه يمكن أن يعيد العالم إلى الوثنية » (٢٠) . ويرى كذلك فارس دى جرييه البائس الوحيد الذي يحدق النظر باكيا في خليلته السابقة ، مانون ، ويستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس ولا يستطيع أن يتبعها إلى منفاهما ، وتتحرك مشاعر المركيز ويتأثر تأثرا مزدوجا فيعطى دى جرييه أربعة جنيهات ذهبا ، مكنت الفارس من مصاحبة مانون إلى لويزيانا . ويراه المركيز في كاليه بعد ذلك بعامين ، ويأخذه إلى داره . أما بقية المجلد الصغير فهي رواية دى جرييه لقصة حبه .

وكان شابا نموذجيا كريم المحتد ، مبرزاً في كل شيء في الكلية في اميان ، وكان في عزم أبويه أن يلحقاه بطائفة الفرسان في مالطة . وفي غمرة آمالهما العريضة « جعلاني أضع الصليب » (٢١) . ولكن مانون مرت أماً ودخلت حياتي ، وتغير كل شيء . وكانت آنذاك في الخامسة عشرة وهو في السابعة عشرة ، « ولم تكن قد تنهت بعد إلى الفرق بين الجنسين » • وعجل هو هذا التطور المكبوت على الفور . وتبلغه مانون أنها أرسلت إلى اميان ضد رغبتها لتندمج في سلك الراهبات ، فيعرض عليهما أن يخلصها من هذا ، ويهربان إلى باريس ، وبدا أن اعجابهما المتبادل كان عقداً وميثاقاً كافياً ، وتحللنا من مراسم الكنيسة ، ووجدنا أننا أصبحنا رجلاً

وزوجة ، دون أن تفكر في هذا أو تتنبه له ، ويكشف أخوه أمره ويقبض عليه ويعيده إلى والده الذى يخبره بأن مانون أصبحت بالفعل خليعة للسيد « ب » أحد رجال المصارف . ويرى دى جرييه أن يذهب ليقفل السيد « ب » فيحبس الوالد ابنه ، ويأتى أحد الأصدقاء تيرج ، ويؤكد الزعم بأن مانون خليعة السيد « ب » ويحث دى جرييه على الانتظام فى سلك الكهنوت ، ويلتحق الشاب بمعهد سان سلبيس اللاهوتى ، ويصبح راهبا . وظننت أنى تطهرت تماما من دنس الحب ، ويذهب بعد عامين لحضور إمتحان عام ومناظرة فى السوربون ، فيفاجأ بمانون بين الحاضرين ، وتشق هى طريقها إليه ، وتعترف بخيانتها ، ولكنها تقسم انها لم تقترف الخطيئة مع السيد « ب » إلا لتوفر المال لدى جرييه . ويهربان من جديد .

ويتخذ الحبيبان مسكنا فى ضاحية شبو ، ويعيشان حياة باذخة على مبلغ الستين ألف فرنك الذى حصلت عليه مانون من السيد « ب » . ويأمل دى جرييه بعد فصله من سلك الرهبنة وعودته إلى الفروسية ، أن يحصل من أبيه على الصفح والمال أو أن يرث مال أبيه بعد موته . ويسطو عليهما أحد اللصوص فيسلبهما مالهما . ويجدان أنهما أصبحا معدمين بين عشية وضحاها . وأدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال دون أن يكون بخيلا . . . لقد عرفت مانون . . . ومهما كانت مخلصنة وفيه مغرمة فى وقت الرخاء ، فلا يمكن الاعتماد عليها فى وقت الشدة . إنها اهتمت كثيراً بالمتعة والثروة لتضحى بهما من أجلى ، (٢٢) . وهو يحبها أكثر من حبه للشرف . ويسمح لاختوتها أن يعلموه الغش فى لعب الورق فيكسب بعض المال ، ولكنه يتعرض للسرقه مرة أخرى . وتهجره مانون إلى رجل فاجر عجوز ثرى ، وتركت له رسالة تقول فيها « إني أعمل لأجعل فارس غنيا سعيدا » . وينضم إليها فى مؤامرة لابتزاز المال من هذا الرجل المعجوز ، وينجحان ويختفیان ثم يقبض عليهما ، وتوضع هى فى الملجأ العام باعتبارها بغيا ، ويرسل هو إلى الدير . ولكنه يهرب منه باطلاق النار على حارس البوابة : ويقترض نقودا ويرشو القائمين على الأمر فى الملجأ ليسهلوا لمانون سبيل الهرب ، وتقطع على نفسها عهدا بحبه إلى الأبد .

ولما نفذ رصيدهما من المال ، أجازت لوريث غنى أن يتخذها خليلة ،
ويقبض عليها ثانية ، ويقنع والد جرييه السلطات الرسمية بترحيلها ويحاول
دى جرييه انقاذها في الطريق ، قلما عجز عن ذلك أبحر معها إلى نيو أورليانز ،
وهناك تعلمت أن تحمل مرارة الفقر ، وأن تكون مخلصه كل الانحلاص
لدى جرييه ، ويعودان إلى ممارسة الشعائر الدينية ، ولكن ابن حاكم
المستعمرة يهيم بحبها . ولما كان مانون ودى جرييه قد أهملوا أن يعقدا عقدا
شرعيا بالزواج ، فإن الحاكم مارس حقه في أن يزوجهما من أى فرد في
المستعمرة ، ومن ثم أمرها أن تقبل ابنه زوجها لها . وارى دى جرييه
لابن قتيلا في مبارزة ، ويهرب الحبيبان إلى الفيا في والقفار سيرا على
الأقدام . وبعد مسيرة عدة أميال مرهقة ، تسقط مغشيا عليها وتفارق
الحياة ، « وقضيت يومين وليتين لا تفارق شفثاى وجه عزيزتى مانون
ويديها » . وحفر بيديه جدثا لها ويوارىها التراب ، ويرقد على القبر ليقضى
نحبه هو الآخر . ولكن صديقه الطيب تيرج ، الذى قدم في نفس
الوقت من فرنسا ، يعثر عليه ، ويصحبه ثانية إلى كاليه ، إلى المركز
ليروى حكايته .

وأصبحت « مانون ليسكو » معنا لا ينضب لقصص حب مبللة
بالدموع . فإن أية امرأة ، ولو لم تكن « محطمة القلب » تذرف الدمع
على موت مانون وحزن دى جرييه ، مغفرة لها حيلها المالية ، وله جرائمه
الحسية . وضرب بريفوست على نغمة جديدة حين نسب إلى بطله وبطلته
أخطاء كثيرة إلى هذا الحد ، وجعلها أخطاء حقيقية ، حين كشف عن حب
مانون الطاغى للذة والمتعة ، وقدرة حبها على التطفل والغش والسرقة
والقتل . وهى طراز عتيق للبطله ، وهو بالتأكيد مثال جديد للبطل . وربما
بلغ الكتاب قدرا أكبر من القوة لو أن دى جرييه ترك يموت على
قبر مانون .

وربما روى بريفوست القصة بمثل هذا الاحساس والعاطفة لأنه هو
نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا في دى جرييه . ومن ثم كانت

القصبة سيرة حياته قبل أن تكون حادثا . ولم يكن تافها متطفلا ، ترجم إلى الفرنسية روايات ريتشارد سن الثلاث الضخمة ، وزادت تلك الترجمات من تهافت فرنسا على ريتشارد سن ، وهو تهافت كان له مظهر مختلف عند روسو وديدرو . وترجم كتاب مدلتون « حياة شيشرون » ، وكتاب هيوم « تاريخ إنجلترا » ، وكتب عدة قصص أقل شأنا ، وعدة مجلدات عن « التاريخ العام للرحلات » . وفي امسترا في ١٧٣٣ ، وقع في غرام عشيقه رجل آخر . ولما نمت إليه أن البندكتيين استصدموا أمراً بسجنه ، هرب إلى إنجلترا مصطحبا هذه السيدة معه . وفي لندن كسب عيشه بإعطاء دروس خاصة . وفي ١٥ ديسمبر قبض عليه بتهمة قدمها ضده أحد تلاميذه بأنه زيف ورقة نقدية من ذات الخمسين جنيا — وهي جريمة عقوبتها القانونية الاعدام . وسرعان ما أطلق سراحه لأسباب مجهولة . وعاد إلى فرنسا (١٧٣٤) وانضم من جديد إلى طائفة البندكت . وفي ١٧٥٣ عين في دير سان جورج — دي جن .

وأدى موته بعد عشر سنين من ذلك إلى أسطورة ترونها حفيدته بيف لسانت بيق وكأنها حقيقة ، تلك هي أنه أصيب بالسكتة أثناء سيره في غابات شانتيللي ، وأن طبيبا ظن أنه مات فقام بتشريحه ليفف على سبب الوفاة ، وأن بريفوست كان لا يزال حيا ، ولكن فحص الجثة هو الذي أودى بحياته (٢٣) . هذه القصة مرفوضة اليوم بصفة عامة (٢٤) .

وكان تأثير بريفوست كبيرا . إنه أسهم في تشكيل رواية روسو « هلواز الجديدة » ، وحرك ديدرو الحاد الذهن الرقيق القلب ليكتب مسرحيات باكية عاطفية . كما اتخذ هذا التأثير انجها مثاليا في قصة « بول وفرجينى » للكاتب برناردين دي سانت بيير . وبرز التأثير من جديد في « غادة الكاميليا » لديماس الابن . ولعبت دورا في الحركة الرومانسية ، إلى أن قدم فلوبرت « مدام بوفارى » (١٨٥٧) . ولا تزال مانون تحيا وتموت في الأوبرا .

٤ - حكماء أقل شأنا

ونعود إلى الكلام عن راهب آخر ، وينبغي علينا في هذه المرة أن نوفيه حقه . فقد رأينا كيف أن شارل ايريني كاستل راهب سان بيير ، روع الدبلوماسيين في أوترخت بكتابه « مذكرة في حفظ السلام على الدوام » . (١٧١٢) . وهي التي أسرت لب روسو وكان كلاهما كما رأينا ، يعرض على نادى « أنترسول » خليطا من أفكار واصلاحات تقدمية إلى حد أن الكاردينال فليرى أحس بأنه مضطر إلى اغلاق النادى انقازاً للدولة (١٧٣١) . فلماذا كانت هذه الأفكار ؟

إن شارل هذا ، على غرار كثير من النافرين المتمردين ، قد اكتسب ذهنه حدة ومضاء بفضل التعليم اليسوعى . إنه لم يطل به الوقت لي طرح العقيدة السائدة جانبا ، وعلى الرغم من إنه ظل يعلن اعتناقه الكشلكة ، فإنه ألحق بها أذى ما كرا في « مقالة ضد الإسلام » ، حيث أن ما أورد فيها من حجج - مثل فولتير في كتابه « محمد » - يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية . وواضح أن « تفسيره المادى » للمعجزات المزعومة التي قال بها البروتستانت والمنشقون والمسلمون ، قصد به بالمثل التشكك في المعجزات الكاثوليكية .

وفي ١٧١٧ ثم في ١٧٢٩ أعاد نشر « مشروع السلام الدائم » بعد التوسع فيه . وناشد ملوك أوربا ، ومن بينهم سلطان تركيا ، أن يعقدوا ميثاقا مقدسا يمكن أن يكفل بالتبادل ممتلكاتهم الحالية ، وأن تنبذ الحرب وسيلة لتسوية الخلافات الدولية ، وأن يخضع هذه الخلافات لاتحاد أوربي تكون له قوة فرض قبول القرارات التي يصدرها . وصاغ نموذجا لدستور لهذا الاتحاد ، مع القواعد التي يمكن اتباعها في إجراءات اجتماعات هذا الاتحاد . وحدد الانصببة المالية التي تخصصها كل من الدول الأعضاء للاتحاد ، ولم يكن أحد ليتوقع تنبؤه بأن مؤتمر فيينا ١٨١٥ ، سيشكل ، على هذه الأسس « حلفا مقدسا » للبقاء دوما على النظم الملكية والاقطاعية ، وإخماد الحركات الثورية .

ولم يكن ثمة صعوبات يمكن أن تزعزع ثقة الراهب المرن السريع التكيف ، فأقر . في عبارة دينية الإيمان بالتقدم ، وفي كتابه « ملاحظات على التقدم المستمر في العقل العالمى » (١٧٣٧) أعلن ، قبل كوندوروسيه بزمان طويل ، إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال غير المحدود بفضل قوة العقل في رجال العلم والحكومات . إنه فوق كل شيء قال وهو مستغرق في التفكير والتأمل ، بأن الجنس البشرى وفقا لمراجع موثوقة ، لا يزيد عمره على سبعة أو ثمانية آلاف سنة ، ومن ثم فإنه لا يعدوا أن يكون في مرحلة « طفولة العقل » ، فما الذى لا نتوقعه منه في شبابه النشيط بعد ستة آلاف سنة ، وفي الازدهار الرائع في مرحلة نضج الجنس البشرى بعد مائة ألف عام من الآن ؟ (٢٥) .

إن سان بيير تنبأ بمشكلتنا الحديثة : تلك هي أنه بينما خطت العلوم والمعرفة خطوات واسعة في طريق التقدم ، لم يحدث في مجال الأخلاق أو السياسة تقدم متكافئ مع تلك الخطرات ، إن المعرفة تزود الرذيلة بالوسائل والأدوات بقدر ما تهذب الأخلاق وتعمل على تنويرها . وكيف ننحو بنمو المعرفة نحو تقويم أخلاق الأفراد والأمم ؟ وفي رسالته « مشروع لتحسين أوضاع حكومات الدول والبلوغ بها إلى درجة الكمال » (١٧٣٧) اقترح سان بيير تأسيس « أكاديمية سياسية » تتألف من أعظم الرجال عقلا وحكمة في البلاد ، تكون بمثابة هيئة استشارية للوزراء في الدولة في كل ما يتعلق بالاصلاح الاجتماعى والخلقى . وقدم عدة اقتراحات محددة : تعليم عام تحت إشراف الحكومة (لا الكنيسة) ، تسامح دينى ، زواج رجال الدين ، توحيد القوانين الفرنسية ، قيام الدولة برعاية الصالح العام والنظام الاجتماعى ، وأخيرا زيادة الايرادات القومية عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخول والتركات (٢٦) . وفي ١٧٢٥ أضاف الراهب إلى اللغة الفرنسية لفظة « الإحسان أو عمل الخير » ليميز الروح الإنسانية التي آثرها على الصدقات التي تقترن بفكرة التنازل والتلطف في النظام القديم . ووضع قبل هلفشيوس وبنثام بزمان طويل مبدأ المنفعة : ذلك « أن قيمة أى كتاب

أو قاعدة أو نظام أو عمل عام تقاس بعدد وعظمة الملذات والمتع الفعلية التي تحققها ، وما ينتظر أن تحققها في المستقبل ، لأكبر عدد من الناس (١٧). وبدا معظم الأفكار الأساسية عند الفلاسفة استهلالاً أو مقدمة لسان بيير ، بل للأمل في ملك مستنير . كعامل من عوامل الإصلاح . وكان سان بيير بكل بساطته وسذاجته واطنابه ، أحد الأذهان التي حملت بدور عصر الاستنارة .

ولا بد أن شارل ييتو ديكلوس قد ازدري الراهب سالف الذكر لأنه خيالي وأهم لا يتفق مع ذهن واقعي . ولد في دينان بمقاطعة بريتانى ، واحتفظ حتى النهاية بالشخصية الجادة الحذرة العنيدة التي تميز بها البريتون . وكان ابناً لوالد برجوازي ميسور ووالدة ماتت في السنة الأولى بعد المائة ، فاستطاع أن يقضى شبابه الطائش في باريس في عهد الوصاية . وتلقى تعليمه العالي عند اليسوعيين وبنات الهوى ، وانغمس في حماقات الشباب أيما انغماس . وزاد من حدة ذكائه في المقامى ، ومكنت له شهرته بسرعة البديهة من ارتياد المجتمع والصالونات ، وزاد من شهرته بقصة « تاريخ البارونة دى لوز » (١٧٤١) التي كادت أن تكون اتهاماً لله . إن البارونة تصد كل هجوم على أمانتها الزوجية ، ولكنها تستسلم لحاكم فاسق فاسد ، لتنفذ حياة زوجها المتورط في مؤامرة ضد الملك . وتغتصب البارونة مرتين . وفي سورة غضب جنونى تصرخ « أيها الرب القامى ، كيف استحق كراهيتك لى هل لأن الفضيلة كريهة لديك ؟ » (١٨) .

وعلى الرغم من مغزى هذا الكتاب وما تضمنه من إثارة جنسية انتخب ديكلوس للأكاديمية (١٧٤٦) بفضل نفوذ مدام دى بمبادور . واشترك بحموية ونشاط في أعمالها ، وأعاد تنظيمها ، وربط بينها وبين أدب العصر وفلسفته ربطاً بعث فيها الحياة . وفي ١٧٥١ خلف فولتير في وظيفة مؤرخ لملك وفي ١٧٥٤ سعى لانتخاب دالمبرت لعضوية الأكاديمية ، وفي ١٧٥٥ انتخب سكرتيراً دائماً لها ، وظل الروح المسيطرة عليها حتى وفاته . وكسب الأكاديمية إلى جانب الأفكار المتحررة . ولكنه رثى وأسف لهور دى هولباخ

هلفشيوس وديدرو « إن هذه العصبية من الملحددين الصغار سوف تنتهى باقتيادى إلى كرسى الاعتراف » .

وإنا لنذكره بصفة خاصة من أجل كتابه « نظرات فى الخير والشر فى هذا القرن » (١٧٥٠) وهو يتضمن تحليلاً هادئاً دقيقاً مفصلاً عن الأخلاقيات والشخصية الفرنسية . وكتبه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين ، واستله بوقار حكيم تحرف « لقد عشت ، وأود أن أعيش لا كون ذا نفع لمن سيعيشون » . ويأسف « لأن أعظم الشعوب حضارة ومدنية ليست كذلك أكثرها تمسكاً بالفضيلة » : إن أسعد الفترات هى تلك التى لا تعتبر فيها الفضيلة حسنة أو ميزة ، وإذا بدأ اعتبارها كذلك ، فإن العادات بالفعل تتغير . وإذا أصبحت هدفاً للسخرية فتلك هى آخر مراحل الفساد^(٢٩) .

وفى رأيه أن « أكبر نقيصة فى الرجل الفرنسى ان له على الدوام شخصية شبابية ، ومن ثم فهو فى الغالب أنيس لطيف ، وقلما يكون راسخاً مثزناً ، ويكاد لا يمر بسن النضج ، بل ينتقل من الشباب إلى عجز الشيخوخة فالرجل الفرنسى هو طفل أوربا^(٣٠) — مثلما أن باريس هى ملعبها . ولا بتعاطف ديكلوس كل التعاطف مع عصر العقل الذى يحس أنه دوامة نعصف حوله » . « لست متأكداً من إنى أحسن الظن كثيراً بهذا القرن ، ولكن يبدو لى أن تخمراً معيناً فى العقل يتجه نحو التطور والنمو فى كل مكان^(٣١) » . إننا فى هذه الأيام ننتقد كثيراً فى عنف بالغ التحيز والتحامل وربما قضينا عليهما إلى حد كبير . إن التحيز ضرب من القانون العام السائد بين البشر . . . وفيما يتعلق بهذا الموضوع . لا أملك إلا أن أنحى باللائمة على الكتاب الذين يريدون مهاجمة لخرافة (وقد يكون من البواعث النافعة الجديرة بالثناء إذا تمت المناقشة على أساس

وأعقب هذا فى سنة ١٧٥١ « مذكرات لالقاء الفسوف على النظرات » أما رسالة ديكلوس « مذكرات سرية عن حكم لويس الرابع عشر والخامس عشر لم تنشر إلا فى ١٧٩١ وترجم جزء منها إلى الانجليزية تحت اسم مذكرات سرية عن عهد الوصاية .

فلسفى) . فىقوضون أسس الأخلاق وىضعفون روابط المجتمع . . . والنتىجة المؤسفة لهذا على قرائهم ، هى أن ىصبح الشباب مواطنى سىئىن ومجرمىن مخزىن ، وأن ىنتاب الشقاء الذىن ىتقدم بهم العمر (٣٢) .

وكان جرىم المراسل البارىسى للشخصىيات الأجنبىة وواحداً من كثر ممن استاءوا من هذا التشهى الرقىق بالفلسفة ، الصادر من رل نهل من منابع كثره « إذا كان المرء مجرداً من الشعور فاسد الذوق ، فلىس له أن ىتحدث عن الأخلاق ولا عن الفنون (٣٣) . ولكن جرىم كان ىزاحم دىكلوس فى الظفر بالخطوة للى مدام دى ابىناى ، وإن مذكرات هذه السىدة الرقىة لتصور دىكلوس فظاً مستبداً إذا تمكن ، شدىد التهور إذا غلب على أمره . ولكن جرىم هو الذى أعد هذه المذكرات للنشر . وإذا كان لنا أن نصدق هذه الصفحات العتقة الباكىة فإن مدام ابىناى طردت من بىتها هذا العربىد الخائن . وهام رل الأكادمىة العلامة على وجهه بحثاً عن مضاجع وأراض أخرى ، وأخيراً رحل عن هذا العالم وهو فى السابعة والستىن .

وكان لوك دى كلابىر مركزى دى فوفىنارج أجدر بالحب . وفى سن الثامنة عشرة التحق باللىش ثملا ىحب بلوتارك وبالطموح إلى ارتقاء مدارج المجد فى خدمة الملك . واشترك فى مغامرة المارىشال دى بل أىل المنكوبة فى حملة ىوهىما ١٧٤١ — ١٧٤٣ . وفى الانسحاب المهلك من براغ تجمدت رجلاه ، وحارب فى دتنجن ١٧٤٣ . ولكن اعتلت صحته إلى حد إنه ترك اللىش بعدها . وسعى إلى الحصول على منصب دىلوماسى ، وكاد أن ىظفر بىغىته بفضل مساعده فولتير لولا أن مرض الجدرى شوه وجهه . وبدأ بعده ىضعف ، وانتابه سعال مزمن قتال أفعده عن ممارسة أى عمل .

وأصبحت السكنة مزاءه ، وشغله الشاغل . وكان ىقول « فوق كل شىء ، إن أحسز الأءاء هى أكثرها شىوعا ، فإنك تستطىع أن تشترى ن فولتير مقابل كرون واحد » (٣٤) وحذر من الحكم على الكتب بثقلها ، فإن نخب المؤلفىن قد ىتحدثون أكثر مما ىنبغى وكثر منهم غامضون

إلى حد يبعث السأم والضجر . والوضوح يزين التفكير العميق » (٣٥) .
وكان مؤلفه الذى دفع به إلى المطبعة ١٧٤٦ يقع فى خمس وسبعين صفحة
مقدمة فى التعرف على الروح الإنسانية ، وأعقبه « ٦٠٧ من التأملات
والحكم » فى ١١٥ صفحة . وبعد ذلك بعام واحد ، وفى فندق حقير فى
باريس ، قضى نحبه ، وهو فى الثانية والثلاثين ، وهو يمثل موزار وكيثس
فى الفلسفة الفرنسية .

وقال فوفينارج « إن للفلسفة أنماطها وأشكالها . مثل الملابس والموسيقى
والعمارة » (٣٦) وقبل بضع سنين قليلة من اضمحاء روسو المثالية على الطبيعة
والمساواة ، صور فوفينارج « الطبيعة بأنها صراع وحشى من أجل الغلبة
والسيطرة » ، و« المساواة » على أنها وهم وخداع : السائد بين الملوك ،
وبين الشعوب ، وبين الأفراد ، أن الأقوى يرتب لنفسه حقوقا على
الأضعف ، ونفس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية ،
وهكذا يجرى كل شىء فى الكون بالعنف . وهذا النظام الذى نعيبه بشىء
من شبهة العدل ، هو أعم وأثبت وأهم قانون فى الطبيعة (٣٧) .

إن كل الناس ولدوا غير أحرار و ير مسوين .

ليس حقاً أن المساواة قانون من قوانين الطبيعة . إن الطبيعة لم تجعل
الأشياء متساوية . إن قانونها الأساسى هو الاخضاع والتبعية ومن
ولد ليطيع . فسوف يطيع حتى وهو متربع على العرش (٣٨) .

أما بالنسبة للارادة الحرة ، فهى أيضا أسطورة أو خرافة « فليست
الارادة هى العلة الأولى لأى تصرف أو عمل ، بل إنها المنبع الأخير » .
وإذا أوردنا المثل التقليدى على الارادة الحرة ، وهو أنك تستطيع أن تختار
هذا أو ذلك أ أو ب « بمحض إرادتك » فإن فوفينارج يرد « إنى إذا
اخترت ب فإن هذا بسبب أن الحاجة إلى الاختيار تقفز إلى تفكيرى فى
اللمحظة التى تجول ب بخاطرى فيها (٣٩) . والإيمان بالله أمر لا مفر منه ولا غنى
عنه ، على أية حال . وأحس فوفينارج بأنه عن طريق هذا الإيمان وحده
يمكن أن يكون للحياة وللتاريخ معنى غير الصراع الدائم والهزيمة فى النهاية (٤٠) .

وأبرز معالم فلسفة فوفينارج دفاعه عن العواطف ، ولا ينبغي القضاء عليها لأنها أصل الشخصية والعبقرية وكل قوة التفكير ونشاطه . « الذهن عين النفس المبصرة ، ولكن ليس قوتها ، لأن قوتها تكمن في القلب أى في العواطف . إن أكثر العقول استنارة لا يمدنا بالقوة على العمل والارادة^(٤١) والأفكار العظيمة تنبع من القلب . . . وربما كنا مدينين للعواطف بأعظم منجزات العقل^(٤٢) . . إن العقل والوجدان يستشير كل منهما الآخر ويكمله بالتناوب ، وهذا الذى يستشير أحدهما ويفعل الآخر ، إنما يحرم نفسه في حق وغباء من بعض الموارد التى منحنا إياها من أجل سلوكنا^(٤٣) .

وأقر فوفينارج أن حب الذات عام بين الناس ، ولكنه رفض اعتباره رذيلة ، حيث أنه الضرورة الأولى من ضرورات قانون الطبيعة الأول : حفظ الذات . كما أن الطموح ليس رذيلة ، بل إنه حافز « ان حب المجد والعظمة هو الذى يصنع ما تحرزهُ الأمم من تقدم ونجاح^(٤٤) . ويضيف أن المرء غير أهل للمجد والعظمة إذا لم يع قيمة الوقت^(٤٥) . ومهما يكن من أمر فإن هناك رذائل يجب أن تكبح جماحها القوانين والمبادئ الأخلاقية وإن فن الحكومة ليكن في توجيه هذه الرذائل إلى الخير العام^(٤٦) . وهناك أيضا فضائل حقيقية « إن أرلى أيام الربيع أقل روعة وفتنة من نمو الفضيحة في الشباب^(٤٧) .

وعلى الرغم من تسليم فوفينارج بآراء هوبز ولاروشفوكو ، ومن تجربته للشر في حياته ، فإنه احتفظ بإيمانه بالجنس البشرى . قال صديقه مارمونتل : « إنه عرف الحياة ولم يحقرها . إنه ، وقد كان صديقا للناس ، اعتبر الرذيلة محنة وسوء حظ ، يبذل الناس بهما لا جريئة . وحلت الشفقة في قلبه محل الاحتقار والبغض . . . إنه لم يذل إنسانا قط . . . إن هدوءاً لم يتبدل أنخى آلامه عن أعين أصدقائه . وما كنا في حاجة لاحتمال المحنة ، إلا أن تكون لنا فيه أسوة حسنة ، فلما ونحن نرى رباطة جأشه . ما كنا لنجرؤ على اظهار حزننا وشقائنا أمامه^(٤٨) .

ووصفه فولتير بأنه « أتعس الناس حظا وأكثرهم هدوءاً »^(٤٩) .

إن من أكرم مظاهر الأدب الفرنسى فى القون الثامن عشر . ذلك العطف
السابع والعون الودى اللذين حبا بهما فولتير « نبى العقل » فوفينارج نصير
بسكال و « القلب » . إن الفيلسوف الشاب أعلن عن إعجابه « برجل يشرف
قرننا ، رجل لا يقل عظمة وشهرة عن أسلافه »^(٥٠) . وكتب إليه الرجل
العجوز الأكبر منه سنا فى لحظة من لحظات التواضع : « لو أنك كنت قد
رأيت التور قبل مولدك ببضع سنين ، فلربما اكتسبت كتاباتى قيمة أكبر^(٥١)
إن أفصح قطعة فى مجلدات فولتير المائة هى ما قال فى ثابن فوفينارج عند
تشيع جنازته^(٥٢) .

مونتسكيو ١٦٨٩ - ١٧٥٥

١ - الرسائل الفارسية :

وجد فولتير أنه من العسير عليه أن يحب مونتسكيو لأن مؤلفه « روح
القوانين » (١٧٤٨) اعتبر بصفة عامة أعظم إنتاج عقلى فى هذا العصر .
وظهر الكتاب حين بلغ صاحبه التاسعة والخمسين ، وكان ثمرة خمسين عاما
من التجربة والخبرة ، وأربعين عاما من الدرس والبحث وعشرين عاما
قضاها فى تأليفه .

ولد شارل لويس دى سيكوندا بارون دى لا بريد ودى مونتسكيو ،
فى لا بريد بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتاني ، فى ١٨ يناير ١٦٨٩ .
وكان يفاخر مبتهجا بأنه من سلالة هؤلاء القوط ، وهم الذين بعد أن غزوا
الامبراطورية الرومانية ، « أسسوا الملكيات وأقاموا صرح الحرية هنا
وهناك فى كل مكان »^(٥٣) إنه انتسب على أية حال إلى « نبلاء السلاح
ونبلاء الرداء » كان أبوه كبير القضاة فى جوين ، وكان الصداق التى قدمته
أمه قصر لا بريد وأرضها . وفى ساعة مولده تقدم إلى بوابة القصر سائل
مسكين ، فأدخلوه وأطعموه وجعلوا منه عرابا للطفل (أى أباه فى العباد) .
زعموا منهم بأن شارل لن ينسى الفقراء أبدا^(٥٤) . وتربى طوال السنوات
الثلاث الأولى من عمره بين فلاحي القرية ، وأرسل فى سن الحادية عشرة

إلى مدرسة طائفة الأورأتورين في جويللى على بعد عشرين ميلا من باريس . . ثم عاد إلى بوردو في سن السادسة عشرة ليدرس القانون . وفي سن التاسعة عشرة حصل على درجته العلمية في القانون .

وفي ١٧١٣ مات أبوه ، وكان شارل آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره ، تاركا له ممتلكات واسعة وثروة متوسطة . وكان يتحدث بصراحة عما « يملك من أرض وعن اتباعه » وسوف تراه تمسك بشسدة بالنظام الاقطاعي . وبعد ذلك بسنة دخل برلمان بوردو عضوا وقاضيا . وفي ١٧١٦ أوصى له عمه — الذى كان قد اشترى رئاسة البرلمان — بثروته ومنصبه ، وقد دافع مونتسكيو فيما بعد عن « بيع المناصب » باعتباره « عملا حسنا في الدول الملكية ، لأنه يجعل من واجب ابناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التى قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع النزيهة غير المفروضة وحدها ^(٥٦) . وبينما كان يتولى رئاسة البرلمان قضى معظم وقته في الدرس والبحث ، فأجرى تجارب وقدم أبحاثا في الفيزياء والفسيولوجيا إلى أكاديمية بوردو ، وخطط « تاريخا جيولوجيا للأرض » لم يكتبه قط ولكن المادة التى جمعها له شقت طريقها إلى كتابه « روح القوانين » .

وكان في الثانية والثلاثين حين ملأ أبصار وأسماع باريس في عهد الوصاية بأروع كتبه . إنه أغفل ذكر اسمه على كتابه « الرسائل الفارسية » (١٧٢١) لأنه ضم بين دفتيه قطعا لا يليق صدورها عن قاض . وربما أخذ فكرته عن كتاب جيوفنى مارانا « جاسوس السيد الكبير » (١٦٨٤) الذى نقل فيه جاسوس تركى وهمى للسلطان ، في بذاعة تلفت النظر ، عقائد المسيحيين الفاسدة وسلوكهم في أوربا ، والمفارقات المضحكة أو القاتلة بين ما يعلنون وما يفعلون ، وثمة أسلوب شبيه بهذا في تصوير الحضارة الغربية كما يراها الشرقيون ، استخدمه اديسون في « سبكتاتور » . وكان شارل دفرسنى في « تسليات جادة وهازلة » قد تصور تعليقات أحد أبناء سيام في باريس ، كما أن نيقولا جيودقيل كان قد أبرز العادات الفرنسية كما يراها أحد هنود أمريكا . وكانت ترجمة جالاند لكتاب « الف ليلة وليلة » (١٧٠٤ —

(١٧١٧) قد زادت من شغف الفرنسيين بالحياة الإسلامية ، كذلك فعلت المحاضرات المصورة عن رحلات سيرجون شاردان وجان قافرنيه . كما أنه من مارس إلى يولييه ١٧٢١ لفت السفير التركي أنظار باريس بفتنة زيه وأساليبه الغريبة . من أجل ذلك كله كانت فونسا مستعدة لتلقى « الرسائل الفارسية » . وبيع من هذا الكتاب ثمان طبعات على مدى عام واحد .

وقدم موتسكيو « الرسائل » على أنها مكتوبة بقلم ريكا وأوزبك ، وهما سائحان فارسيان في فرنسا . ومراسليهما في اصفهان . إن هذه الرسائل لم تعرض فقط نقاط الضعف والأهواء والتحيز عند الفرنسيين ، ولكنها كشفت أيضا عن حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية من خلال الكتاب أنفسهم .

وحين يسخر القارئ من هذه العيوب والأخطاء ، فليس أمامه إلا أن يتقبل عن طيب خاطر السخرية من عيوبه وأخطائه هو . وقد مست هذه العيوب والأخطاء مساً رقيقاً . ومن ذا الذي يغضب لهذه الأفكار الساخرة غير المقصودة ، أو الطعنات بسيف مغلف بطريقة مهذبة ؟ وفوق ذلك تضمنت بعض الرسائل أسراراً أو رسائل شخصية سارة من حريم أوزبك في اصفهان . من ذلك أن زاكي أى محظيته ، تكتب لتبلغه بما تعاني من آلام مبرحة لغيابه عنها . كما أن ريكا تصف مفهوم سيدة مسلمة عن اللجنة بأنها مكان يكون فيه لكل سيدة فاضلة مجموعة من الرجال الوسيمين المكتملي الرجولة ، وهنا يطلق موتسكيو لقلمه العنان في سرد التفاصيل في أسلوب الطيش الذي اشتهر به عهد الوصاية .

وكان من غير المستطاع ، اللهم في فترة خلو العرش هذه ، أن تتفادى الهرطقات السياسية والدينية في الرسائل عين الرقيب والمؤاخلة الرسمية . لقد قضى الملك القديم نجه ، والملك الجديد ما زال صبيها ، والوصي رجل متسامح مرح مبتهج . وعند ذاك استطاع موتسكيو أن يجعل الفرنسيين الذين أوردتهم في رسائله يسخرون من حاكم « ساحر » جعل الناس يعتقدون أن الورق نقود (كان نظام لو قد انهار .^(٥٧)) كما استطاع أن يفضح فساد

الحاشية ، وخمول النبلاء المبشرين ومساء إدارة أموال الدولة ، وأن يمتدح جمهوريات اليونان ورومة القديمة ، والجمهوريات الحديثة في هولنده وسويسرا . يقول أوزبك « أن الملكية نظام شاذ غير سوى ، ينزلق إلى حكم استبدادى مطلق »^(٥٨) (انظر فيما بعد رأيا مخالفاً) .

وفي الرسائل من ١١ - ١٤ يوضح أوزبك طبيعة الإنسان ومشكلة الحكم بالتحديث عن سكان الكهوف (التروجلوديون) (*) الذين يتخيلهم عربا انحدروا من التروجلوديين الذين وصفهم هيرودوت^(٥٩) وأرسطو^(٦٠) بأنهم قبائل همجية عاشت في أفريقية (قبل التاريخ) . وكان تروجلوديو أوزبك يكرهون كل تدخل حكوى ، ومن ثم قتلوا كل حاكم مفكر ، وعاشوا في جنة من الحرية التامة « اتركه يعمل » واستغل كل بائع حاجة المستهلك ورفع سعر منتجاته . وإذا اغتصب رجل قوى زوجة رجل ضعيف ، فليس ثمة قانون أو حاكم يلجأ إليه . وأفلت القتل والاغتصاب والسلب والنهب دون عقاب ، اللهم إلا الاقتصاص الخاص بالعنف ، وإذا عانى سكان النجاد من الجفاف تركهم سكان الوهاد يموتون جوعاء ، وإذا عانى هؤلاء من الفيضان تركهم سكان النجاد يهلكون . ومن ثم فنيت القبيلة ، وبقي على قيد الحياة أسرتان بفضل الهجرة ، وتبادلنا العون ، ونشأنا أطفالهما على التمسك بالدين والفضيلة واعتبرت أنهما أسرة واحدة ، واختلطت قطعانها دائماً تقريباً .^(٦١) ولما زاد عددهم وجدوا أن أعرافهم غير كافية - لحكمهم فاختروا ملكاً وخضعوا للقوانين . وانتهى أوزبك إلى أن الحكومة ضرورية ولكنها تعجز عن تأدية مهمتها إذا لم تكن قائمة على الفضيلة في الحاكم والمحكومين . .

وكانت الهرطقات الدينية في الرسائل أكثر ترويعاً وتنفيراً من الهرطقات السياسية . ويرى أوزبك أن الزنوج يتصورون أن الإله أسود وأن الشيطان أبيض . ويوحى (مثل زينوفون) بأنه إذا كانت المثلثات تتحدث عن

(*) قصد بهذه الكلمة في الأصل سكان الكهوف ، أى الذين يحفرون جحوراً ليقيموا فيها . مثل خصومنا السياسيين .

اللاهوت ، فلا بد أن للإله ثلاثة أضلاع وثلاث نقط حادة . ويعجب أوزبك من ساحر آخر يسمى البابا ، يحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزاً وأن الخمر ليس خمرًا . وألف شيء من هذا الطراز .^(٦٢) ويسخر من الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين . وأفرعته محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال ، حيث « يتسبب الدومنيكان في إحراق الناس كما يحرق القش » .^(٦٣) ويسخر من المسابح وثياب الرهبان الفصفضة . وهو يتساءل كم تعمر البلاد الكاثوليكية في منافسة مع الشعوب البروتستانتية ، لأنه يرى أن تحريم الطلاق وعزوبة الراهبات والرهبان سوف يعوقان ازدياد السكان في فرنسا وإيطاليا واسبانيا (قارن إيرلنده في القرن العشرين) ويقرر أوزبك ، على هذا المعدل ، أن الكاثوليكية في أوروبا لن تعمر أكثر من ٥٠٠ سنة أخرى^(٦٤) (*) . أضف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان الحاملين للدين يزعمون أنهم مستعصمون زاهدون يستولون على كل ثروة الدولة تقريباً . إنهم عصابة من البهلاء يأخذون دائماً ولا يعطون أبداً . إنهم باستمرار يكتزون دنوهم لتكون لهم مصدر قوة . وتصاب هذه الثروة بالشلل ، فلا تتداول ولا تستغل في التجارة أو الصناعة أو المصانع ،^(٦٥) ويقلق أوزبك التفكير في أن كفار أوروبا الجهلة الذين يعبدون المسيح بدلا من عبادة الله والإيمان بحمده سيكون مصيرهم النار ، ولكن يراوده بعض الأمل في أنهم في النهاية سيعتنقون الإسلام ويُنقلون^(٦٦) .

وفي تخيل رمزي جليل يتأمل أوزبك في الإلغاء (١٦٨٥) مرسوم هنري الرابع للتسامح المعروف بمرسوم نانت .

أنت تعلم ياميزرا كيف أن بعض وزراء الشاه سليمان (لويس الرابع عشر) دبروا خطة لارغام الأرمن في فارس (الهيجونوت) على مغادرة المملكة أو الدخول في الإسلام (الكثلركة) ، اعتقاداً منهم بأن امبراطوريتنا

(*) ذهب مونتسكيو في ١٧٢١ إلى أن عدد سكان أوروبا لا يكاد يبلغ عشر عدد سكانها في عهد الامبراطورية الرومانية^(٦٥) وأنه آخذ في التناقص ، وأن زنوج أمريكا سرعان ما يهلكون .

ستظل ملوثة مدنسة ما دامت تحتضن هؤلاء الكفار . . . إن اضطهاد مسلمينا الغيورين هؤلاء الكفار عبدة النار اضطهرهم إلى الفرار زرافات إلى الهند الشرقية ، وبذلك حرم فارس من هذا الشعب الجاد النشط . ولم يبق أمام هذا التعصب الأعمى إلا شيء واحد هو تدمير الصناعة ، حتى تنهار لامبراطورية (فرنسا ١٧١٣) ، حاملة معها تلك الديانة التي أرادوا لها النهوض والتقدم .

وإذا كان الحوار النزيه غير المتحيز ممكنا ياميرزا ، فلست متأكدا من أنه من الخير للدولة أن يكون بها عدة ديانات مختلفة . . . والتاريخ زانخر بالحروب الدينية ، ولكن . . . ليس تعدد الديانات هو الذى أدى إلى الحروب ، بل روح التعصب الذى يشجع الديانة التي تعتقد أنها في صعود^(٦٨) .

إن الأفكار التي تضمنتها الرسائل الفارسية تبدو لنا الآن مبتذلة عتيقة . ولكنها كانت للمؤلف حين عبر عنها ، مسألة حياة أو موت ، وعلى الأقل مسألة سجن أو نفي . إنها الآن عتيقة لأننا كسبنا معركة الحرية في التعبير عن الآراء . إن الرسائل الفارسية فتحت الطريق ، لهذا استطاع فولتير بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أن يصدر « رسائل عن الانجليز » ويلقى ضوءا إنجليزيا على حطام فرنسا . وأعلن هذان الكتابان عن عصر الاستنارة . وعمر مونتسكيو وحريته بعد كتابه ، لأنه كان من طبقة النبلاء ، ولأن الوصي على العرش كان متسامحا ، كما ارتفعت بعض أصوات الاستنكار رسط التهليل والإعجاب ، ومع ذلك لم يجرؤ على الإفصاح عن اسمه وهو المؤلف . وذهب دارجنسون الذى انتقد هو نفسه الحكومة فيما بعد إلى أن « هذه تأملات وأفكار يستطيع أن يأتى بها رجل ذكى بسهولة » ، ولكن ينبغي على الرجل الحصيف الحذر ألا يسمح بطبعها » . وأضاف ماريغو الحريص « يجدر أن يضمن الإنسان بمجهوده في مثل هذه الموضوعات » وقال مونتسكيو « عند ما حظيت إلى حد ما بتقدير الجمهور فقدت تقدير الطبقات الرسمية ، وواجهت ألفاً من ألوان الاستخفاف والاستهزاء »^(٦٩)

وعلى الرغم من كل شيء قصد مونتسكيو إلى باريس ليرشف كؤوس

الشهرة في المجتمع وفي الصالونات . وفتحت له الأبواب مدام دي تنسان ومركزة لمبرت ومركيزة ديناند . ولما كان قد ترك زوجته وراءه في لا بريد فلم يكن من العسير أن يقع في شرك الغرام مع سيدات باريس . وتطلع إلى آفاق بعيدة ، فتأقت نفسه إلى ماري آن دي يوربون أخت الدوق دي يوربون الذي أصبح رئيسا للوزارة في ١٧٢٣ . ويروى من أنه ألف من أجلها شعراً منشوراً « معبد الحب » (١٧٢٥) عامراً بنشوة الوجد والهيام ، وخفف من وطأة خلاعة هذا الشعر بادعائه أن القصيدة مترجمة عن اليونانية ، ومن ثم حصل على ترخيص ملكي بطبعها . وبذل المساعي وبخاصة عن طريق مدام دي رى ، لينضم إلى الأكاديمية ، فاعترض الملك بأنه غير مقيم في باريس . فأسرع إلى بوردو وتخلّى عن رياسته لبرلمانها ، وانضم إلى مجمع الأربعين الخالدين (١٧٢٨) .

وفي أبريل قام برحلة استغرقت ثلاثة أعوام زار فيها بعض أجزاء إيطاليا والنمسا والمجر وسويسرا وأراضى الراين وهولنده ، وإنجلترا . التي قضى فيها ثمانية عشر شهراً (نوفمبر ١٧٢٩ - أغسطس ١٧٣١) وهناك عقد أواصر الصداقة مع تشستر فيلد وغيره من وجوه القوم ، واختير عضواً في الجمعية الملكية في لندن ، وانضم إلى البنائين الأحرار (الماسونية) ، واستقبله الملك جورج الثاني والملكة كارولين ، وحضر جلسات البرلمان ، وأولع بما ظنه الدستور البريطاني . وعاد أدراجه إلى فرنسا شديد الإعجاب - مثل فواتير - بالحرية ، ولكن ما لمسه من مشاكل الحكومة زاد من رصانته واثرائه . وآوى إلى لا بريد ، وحول منزله إلى حديقة إنجليزية ، وتفرغ - فيما عدا زيارات طارئة إلى باريس - لأبحاثه وكتابه التي شغلت بقية أيام حياته .

٢ - لماذا سقطت رومة

في ١٧٣٤ أصدر مونتسكيو ، دون توقيع ، ولكن معترف به عند الجمهور ، « نظرات في أسباب عظمة الرومان وسقوطهم » . وكان قد دفع بالمخطوطة إلى عالم يسوعي ، ووافق على حذف ما يمكن أن يثير ريب الكنيسة . ولكن الكتاب لم يجد ، وما كان له أن يجد النجاح الذي صادفته

« الرسائل الفارسية » لأنه لم يتضمن أية بذاءات أو أية أشياء تجافى الاحتشام ، بل كان يعالج موضوعاً قديماً معقداً وكان محافظاً نسياً في سياسته ولاهوته . ولم يستسغ المتطرفون (الراديكاليون) التوكيد على أن يكون الانحطاط الخلقى سبباً للاضمحلال القومى ، ولم يكونوا مستعدين ليقدرُوا عمق التقدير الحكمة الرائعة في عبارات مثل « أن اللذين لم يعودوا يرهبون القوة في مقدورهم أن يظلموا على احترامهم للسلطة » . (٧٠) وتعتبر هذه الرسالة الصغيرة الآن محاولة رائدة في فلسفة التاريخ ، ورائعة من روائع النثر الفرنسى تعيد إلى الأذهان ذكرى بوسويه ولكنها تضيف الروعة إلى الوقار .

إن الموضوع جذب نظر المؤرخ الفيلسوف لأنه انتظم السلسلة الكاملة لحضارة عظيمة من الميلاد إلى الفناء ، وعرض في نظرة شاملة وتفصيل رائع إحدى عمليات التاريخ الأساسية - وهى عملية الفناء أو الانحلال الذى يبدو أنه قدر محتوم أن يعقب كمال التطور في الأفراد والديانات والدول . وكان ثمة اشتباه في أن فرنسا بعد انقضاء القرن العظيم ، قد دخلت في فترة طويلة من الاضمحلال في الامبراطورية والأخلاق والأدب والفن . إن الثالث المندس : فولتير وديدرو وروسو - لم يكن قد بدأ بعد إنهم يتحدون التفوق الفكرى والعقلى في القرن السابع عشر . ولكن جراءة العصر الجديد المتزايدة برزت في حقيقة أن مونتسكيو ، في ايضاحه وشرحه لمجرى التاريخ لم يدرس إلا الأسباب الأرضية ، وطرح جانباً في هدوء اللهم إلا لمحات من الإجلال الطارئ ، العناية الإلهية التى نجدها في كتاب بوسويه « بحث في تاريخ العالم » قد اتجهت بكل الأحداث إلى نتائج محتومة بقضاء هذه العناية الإلهية . ورأى مونتسكيو أن يفتش عن قوانين التاريخ ، مثلما كان نيوتن يبحث عنها في الفضاء : « ليس الحظ هو الذى يحكم العالم ، كما نرى من تاريخ الرومان . . . فتمة أسباب عامة معنوية أو مادية ، تعمل عملها في كل مملكة ، ترفعها أو تحافظ عليها أو تطيح بها ، وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب . وإذا كان ثمة سبب خاص يعينه ، مثل النتيجة الطارئة لمعركة ما هو الذى قضى على دولة ما ، فهناك

سبب هام جعل سقوط هذه الدولة ينتج عن معركة واحدة . وصفوه القول إن الحركة العامة نجر معها كل الأحداث الخاصة غير المتوقعة^(٧١) .

وبناء على هذا اختزل مونتسكيو وهبط بدور الفرد في التاريخ . فالفرد مهما عظمت عبقريته لا يعدو أن يكون أداة « الحركة العامة » . ولا ترجع أهميته إلى قدرته الفائقة بقدر ما ترجع إلى التقائه مصادفة مع ما أسماه هيجل « روح العصر » فلو أن قيصر وبومبي فكرا مثل ما فكر كاتو (سعيًا في الأبقاء على سلطة السناتو الروماني) فربما انتهى آخرون غيرهما إلى نفس أفكارهما . وعند ذاك كانت الجمهورية التي كان مقدراً عليها الفناء لأسباب داخلية ، تنساق إلى الانهيار على أيد أخرى^(٧٢) .

ولكن « القدر » ليس توجيهًا روحياً أو باطنياً ، وليس قوة ميتافيزيقية . انه مجموعة معقدة من عوامل تنتج « الحركة الرئيسية » . والمهمة الأساسية للمؤرخين الفلاسفة ، في رأى مونتسكيو ، هي الكشف عن كل عامل من هذه العوامل وتحليله وتبيان فعاليته وعلاقته . ومن ثم كان سقوط رومة (في نظره) يرجع أولاً إلى التحول من جمهورية توفر لها توزيع السلطات وتوازنها ، إلى امبراطورية تصلح أكثر ما تصلح لحكم بلاد تابعة لها ، ولكنها تركز كل الحكم في مدينة واحدة في يد رجل واحد ، مما يدمر حرية ونشاط المواطنين والأقاليم . ويمر الزمان انضمت أسباب أخرى إلى هذا السبب الرئيسى : انتشار الخنوع والحمول بين الجماهير ، رغبة الفقراء في أن تعولهم الدولة ، ضعف الأخلاق بسبب الثروة والترف والفسق والفجور ، تدفق الغرباء الذين تشكلهم التقاليد الرومانية والذين كانوا مستعدين لبيع أصواتهم لمن يدفع أكبر ثمن ، فساد رجال الإدارة المركزيين والمحليين ، خفض قيمة العملة ، فداحة الضرائب ، هجر المزارع ، استنزاف الحيوية العسكرية بسبب الديانات الجديدة وطول أمد السلم ، وفشل النظام العسكرى وسيطرة الجيش على الحكومة المدنية ، إثارة الجيش تنصيب الأباطرة أو خلعه عن حماسة الحدود من هجمات المتبربرين ومن الجائز أن مونتسكيو — على عكس توكيد بوسويه

على العوامل الخارقة الطبيعية — لم يقدّر كبير وزن لتغيير الديانات ، الذي أكدّه جييون سيبا أساسيا لانتهيار الامبراطورية .

ولكن مونتسكيو كان دوما يعود إلى ما اعتبره العامل الرئيسي في اضمحلال رومه — وهو التحول من الجمهورية إلى الملكية . ذلك أن الرومان غزوا بفضل مبادئهم الجمهورية ، كثيراً من الشعوب ، ولكن في الوقت الذي حققوا فيه هذا ، لم تقو الجمهورية على الصمود ، وتسببت في الاضمحلال مبادئ الحكم الجديد وهي مخالفة لمبادئ الجمهورية (٧٣) . ومهما يكن من شيء فأننا إذا عدنا إلى الفصل السادس لتفحص المبادئ الأساسية أو الوسائل التي قهرت بها الجمهورية الرومانية « كل الشعوب » نجد مجموعة متنوعة غريبة : الخداع ، نقض المعاهدات ، العنف والقوة ، العقوبات الصارمة ، بذر بذور الشقاق بين العدو ليسهل قهره تدريجاً ، (فرق تسد) ، نقل السكان من مكان إلى مكان بالقوة ، تعكير جو الحكومات المناهضة ومحاولة القضاء عليها بتقديم المساعدات للثورات الداخلية ورشوة القائمين بها . وغير ذلك من الاجراءات المألوفة لدى رجال الدولة . واستخدم الرومان حلفاءهم في القضاء على أعدائهم ، وسرعان ما استداروا ليدمروا هؤلاء الحلفاء (٧٤) وواضح — أن مونتسكيو — ناسباً هذا الوصف للمبادئ الجمهورية أو مزدرداً مكيافلملى في جرعة واحدة — اعتبر في الفصل الثامن عشر ، الجمهورية مثلاً أعلى للعظمة ، ورثى الامبراطورية منزلاً بيهيجا للانحلال . ومع ذلك اعترف بفساد السياسة في الجمهورية وبالعظمة السياسية للامبراطورية في ظل « حكمة نرفاء ، ومجد تراجان ، وبسالة هادريان وفضائل الاثنين الانطونيين » (٧٥) وهنا وجه مونتسكيو كلا من جييون ورينان إلى تسمية هذه الحقبة « أكرم وأسعد حقبة في تاريخ الحكومة » . ولدى هؤلاء الملوك الفلاسفة وجد مونتسكيو أيضاً أخلاق الرواقين التي فضلها بصراحة ووضح على الأخلاق المسيحية ، وانتقل إعجاب مونتسكيو بالرومان في عهد الجمهورية إلى الفرنسيين المتحمسين للثورة ، وأسهم في تغيير الحكومة الفرنسية ، والنظم العسكرية والفنون في فرنسا .

ووقع في الكتاب بعض أخطاء في عمل علمي عجل به ضغط الوقت والرغبة في إنجاز مهمة أضخم . فلم يكن مونتسكيو في بعض الأحيان مدققا في استخدام النصوص القديمة . من ذلك ، على سبيل المثال أنه أخذ الفصول التي كتبها ليفي عن « نشأة رومه » على أنها تاريخ ، على حين أن فاللا وجلارونوس وفيكو رفضوا هذه الرواية على أنها أسطورة . ويبخس مونتسكيو من قيمة العوامل الاقتصادية وراء سياسة جراتشي وقيصر ، ولكن في مقابل مواطن الضعف هذه ، فإن نظرة أوسع لا بد أن تحيط ببلاغة الكتاب وقوته وتركيز أسلوبه ، ويعمق التفكير وأصالته ، ومحاولة المؤلف الجريئة في أن يرسم في صورة واحدة ارتفاع وسقوط حضارة كاملة ، ويرتفع بالتاريخ من مجرد سجل للتفاصيل إلى تحليل النظم ومنطق الأحداث . وهنا كان ثمة تحد للمؤرخين ، كان على فولتير وجيبون أن يسعيا لمواجهة ، كما كان هنا تلهف على فلسفة للتاريخ قد يحاول مونتسكيو نفسه ، بعد جيل من الكد والجد أن يتبعه بكتاب « روح القوانين » .

٣ — روح القوانين :

مضت أربعة عشر عاما بين ظهور كتاب « النظرات » وكتاب « روح القوانين » بدأ مونتسكيو أروع أعماله هذا حوالي ١٧٢٩ ، وهو في سن الأربعين . وكان موضوع رومه حصيلة جانبية أو ثانوية اعتراضية . (٧٦) وفي ١٧٤٧ حين بلغ السادسة والخمسين لقي من العمل نصبا وكأن به ميلا إلى تركه ، « كثيرا ما شرعت في هذا الكتاب ، وكثيرا ما طرحته جانبا . وقذفت بالأوراق التي كتبها ألف مرة . » (٧٦) وأهاب بالموزيات ربات الفنون والعلوم أن يرعينه ويساعدنه : « إن الدرب طويل ، ولقد أضناني الأسى والارهاق ، أدخلن على قلبي البهجة والفتنة اللتين تدفعان بي إلى السير في الطريق ، لقد عرقهما يوما ، ولكنهما الآن تخلتا عني أنتن لستن مقدسات مطلقا ، إلا حين تتولين قيادنا ، عن طريق اللذة والسرور ، إلى الحكمة والحق » (٧٧) . ولا بد أن هؤلاء الربات استجبن لندائه ، لأنه واصل العمل . ولما انتهت المهمة في خاتمة المطاف اعترف بتردده واعتداده بنفسه

وزموه : لقد سلكت طريقى نحو الهدف دون إعداد خطة . ولم أعرف أية قاعدة ولا شواذ وما عثرت على الحقيقة إلا لافتقدها ثانية . ولكن عندما وقعت على الأصول والمبادئ ذات مرة واتانى كل ما كنت أفتش عنه ، وفى غضون عشرين عاما ، وجدت أن العمل قد بدأ وخطا خطرات ثم أشرف على الاكتمال ، حتى أنجز . . . وإذا صادف هذا العمل نجاحا ، فأنى سأكون مدينا به لعظمة الموضوع وجلاله . ومهما يكن من أمر ، فلست أظن أنى كنت مفتقرا إلى العبقرية كل الافتقار . ولما رأيت كم من عظماء الرجال فى فرنسا وألمانيا طرخوا هذا الموضوع قبلى ، تملكتنى الحيرة إعجابا بهم ، ولكن لم أفقد شجاعتي ولم يزايلنى الاقدام ، وقلت مع كوريجيو « وأنا أيضا رسام » (٧٨) .

وعرض المخطوطة على هلفشيوس وهبنولت وفونتيل ، ورأى هذا الأخير أن البحث يفتقر إلى طلاوة الأسلوب الفرنسى . (٧٩) وتوسل هلفشيوس إلى المؤلف ألا يسىء إلى سمعته الطيبة بوصفه متحررا بنشر كتاب يتساهل إلى هذا الحد مع كثير من المعتقدات المحافظة المتمسكة بالقديم (٨٠) . وقرر مونتسكيو أن هذه التحذيرات غير ذات موضوع ، وتقدم للطبع . ولما كان يخشى الرقابة الفرنسية فانه أرسل المخطوطة إلى جنيف ، وهناك صدر الكتاب ١٧٤٨ فى مجلدين ، دون ذكر اسمه . وحين كشف رجال الدين الفرنسيون عن هرطقاته شجبوه وصدر أمر الحكومة بمنع تداوله فى فرنسا . وفى ١٧٥٠ تولى ما لشرب - منقذ دائرة المعارف فيما بعد - شئون الرقابة ، رفع الحظر عن الكتاب ، وسرعان ما شق طريقه وصدرت منه اثنتان وعشرون طبعة فى عامين ، وسرعان ما ترجم إلى لغات أوروبا المسيحية .

وكانت العنونات على أيام مونتسكيو توضيحية حقا ، دقيقة غالبا . ولذا سمى كتابه « فى روح القوانين » أو « فى العلاقات التى يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة ، وغيرها » . وكان بحثا فى العلاقات بين القوى المادية والأنماط الاجتماعية ، وفى

العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة . وحاول أن يضع الأساس لما يمكن أن نسميه الآن علم الاجتماع العلمي : « أى - على غرار البحث في العلوم الطبيعية - التمكن من الوصول إلى نتائج محققة يمكن اثباتها ، تلقى الضوء على المجتمع الحاضر ، وإلى تنبؤات مشروطة للمستقل . وكان عسيرا بطبيعة الحال ، على رجل واحد أن يتمه مع قصر العمر ، والأوضاع الحالية للأثنولوجيا (علم الأعراق البشرية) والتشريع والتاريخ .

وبمعنى أدق ، كانت فكرة مونتسكيو أن روح القوانين « - أى أصلها وطبيعتها ونزعتها - إنما يحددها أولا مناخ البلد وقربته ، ثم فسيولوجية الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته . وبدأ بتعريف عريض : إن القوانين بأوسع معانيها وأكثرها تعميما هي العلاقات الضرورية التي تنشأ عن طبيعة الأشياء وواضح أنه أراد أن يأتي « بالقوانين الطبيعية » في العالم المادى ، والاطرادات القياسية في التاريخ ، تحت مفهوم عام واحد . وعلى غرار جروشيوس وبوفندورف وغيرهما ممن سبقوه ، ميز مونتسكيو بين عدة أنواع من القوانين : ١ - القانون الطبيعى ، الذى عرفه بأنه « عقل إنسانى ، بقدر ما يحكم شعوب الأرض بأسرها » ^(٨١) أى « الحقوق الطبيعية » لكل الناس بوصفهم كائنات وهبت عقلا . ٢ - قانون الأمم في علاقاتها بعضها ببعض . ٣ - قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الفرد والدولة . ٤ - القانون المدنى علاقات الأفراد بعضهم ببعض .

وذهب مونتسكيو إلى أنه في الأطوار الأولى للمجتمع البشرى كان العامل الحاسم في القوانين هو التضاريس الأرضية : أهى غابة أم صحراء أم أرض منزرعة ؟ أهى أرض داخلية أم ساحلية ؟ أهى جبال أم سهول ؟ وما هو نوع التربة وطبيعة الغذاء الذى تنتجه ؟ وصفوة القول ان المناخ أول العوامل وبالدرجة الأولى أقوى العوامل في تحديد اقتصاد الشعب وقوانينه (وشخصيته القومية) . (إن بودين في القرن السادس عشر سبق مونتسكيو إلى هذا التوكيد الأول كما تبعه فيه بكل في القرن التاسع عشر) . تأمل على سبيل المثال الفوارق المناخية ، ونتيجة لها الفوارق البشرية ، بين الشمال والجنوب :

إن الناس أكثر نشاطا وحيوية في الأجواء الباردة . . . وهذا التفوق في القوة لا بد أن ينتج آثاراً مختلفة : وعلى سبيل لمثال جرأة أكبر ، أى مزيداً من الشجاعة ، وشعوراً أكبر بالتفوق . أى رغبة أقل في الانتقام ، وشعوراً أكبر بالأمن أى مزيداً من الصراحة وقدر أقل من الارتياح ومن الدهاء السياسى والمكر . لقد شهدت الأوبرا فى إنجلترا وفى إيطاليا حيث رأيت نفس الروايات ونفس الممثلين ، ومع ذلك فإن نفس الموسيقى حدثت آثاراً متباينة فى كل من الأمتين ، فإحداهما فاترة رابطة الجأش ، والثانية نشيطة منتعشة مبهجة . . . وإذا نحن سافرنا إلى الشمال لالتقينا بأناس قلت رذائلهم وكثرت فضائلهم . . . وإذا نحن اقتربنا من الجنوب لتخيلنا أننا نبتعد كل الابتعاد عن حدود الأخلاق ، حيث تؤدي أقوى الانفعالات والأهواء إلى شتى أنواع الجرائم ، حيث يبذل كل إنسان أقصى الجهد ، إذا واثته الظروف ، أن يحقق رغباته الجامحة . . . »

وفى البلاد الحارة نجد الماء الموجود فى الدم يضيع إلى حد كبير بسبب العرق ، ومن ثم يجب تعويضه بسائل مماثل ، وللماء هناك فوائد جمّة ، وقد تعمل المشروبات القوية على تخثير كريات الدم الذى يتبقى بعد تبخر الرطوبة المائية . أما فى البلاد الباردة فالماء المختلط بالدم قليلا ما يفقد بالعرق ، ومن ثم يجدر أن يستفيدوا من المشروبات الروحية التى بدونها قد يتمخثر الدم . . . ومن هنا نجد أن تحريم الشريعة الإسلامية للخمر يلائم بلاد العرب . والقانون الذى حرم على القرطاجيين شرب الخمر قانون مناخى . ومثل هذا القانون لا يصلح للبلاد الباردة حيث يبدو أن المناخ يفرض عليهم لونا من الإدمان على المسكرات بشكل عام . . . وينتشر شرب الخمر على قدر البرودة والرطوبة فى الجو (٨٢) . أو تأمل العلاقة بين المناخ والزواج : إن الإناث فى البلاد الحارة يكن صالحات للزواج فى سن الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . . . ويهرمن فى سن العشرين ، ومن ثم فإن عقلهن لا يقترن بجهاهن . وإذا تطلب الجمال السيطرة والتسلط أفسد العقل هذا المطلب . وإذا تحلين بالعقل تجردن من الجمال . . . ومن ثم ينبغى أن تكون

هؤلاء السيدات في حالة من التبعية ، لأن العقل في الشيخوخة لا يمكن أن يوفر السيطرة التي لم يستطع حتى الشباب والجمال أن يحققها . ولهذا كان طبيعياً إلى أبعد الحدود في هذه البلاد ، إذا لم يكن ثمة قانون يمنع ، أن يترك الرجل زوجة ليتزوج بأخرى وأن يباح تعدد الزوجات .

وفي المناخ المعتدل . حيث تحتفظ النساء بمفاتنهن على أكمل وجه ، وحيث يتأخر بلوغهن سن النضج ، وينجبن في مرحلة متقدمة من الحياة ، نجد أن شيخوخة أزواجهن تتبع شيخوختهن إلى حد ما ، وحيث أنهن كن يتمتعن بقدر أكبر من العقل والمعرفة عند الزواج (أكبر من مثيلتهن في الأقاليم شبه المدارية) ، فإن هذا يستوجب وجود نوع من المساواة بين الجنسين ، وقانون الاقتصار على زوجة واحدة تبعاً لذلك . وهذا هو السبب في أن الإسلام (مع نظام تعدد الزوجات) دخل بسهولة واستقر في آسيا بقدر ما امتد بصعوبة إلى أوروبا ، وأن المسيحية استقرت في أوروبا وتحطمت في آسيا . وقصارى القول ، هذا هو السبب في أن الإسلام أحرز مثل هذا التقدم في الصين ، على حين لم تتقدم المسيحية إلا قليلاً^(٨٣) .

وعند هذه النقطة يتبين مونتنسكيو أنه أحل المناخ محل العناية الإلهية عند بوسويه ، ويسارع فيضيف أكراما للرب ، احتراساً منقداً : إن عقول البشر على أية حال خاضعة لليلة الأسمى ، الله ، الذي يفعل ما يشاء ، وينخضع كل شيء لإرادته . وظن بعض اليسوعيين أن مونتنسكيو قد عراه الحجل .

وسرعان ما تابع تعميماته الطائشة . ففي « الشرق » ، (تركيا وإيران والهند والصين واليابان) يرغم المناخ على حجاب النساء وعزلتهن لأن (الهواء الحار يثير الشهوات) وقد يعرض تعدد الزوجات وأحاد به الزواج على حد سواء للخطر إذا أطلق اختلاط الجنسين كما هو الحال في (بلادنا في الشمال حيث عادات النساء فاضلة بطبيعتها وحيث العواطف هادئة ، وحيث يتسلط الحب على القلب تسلطاً وديعاً سوياً إلى حد أن أقل قدر من الحزم والحكمة يكفي لتوجيهه وقيادته)^(٨٤) . إنها لمتعة أية متعة أن تعيش في مثل هذه

الأجواء التي تبيح الحديث وحيث الجنس اللطيف البالغ للفتنة يبدو أنه يزين المجتمع ، وحيث الزوجات اللاتي تقصر الواحدة منهن نفسها على إسعاد رجل واحد ، ويسهمن في إدخال السرور والبهجة على الجميع ^(٨٥) .

والعادات والأعراف نتائج مباشرة للمناخ أكثر من القوانين ، لأن القوانين ينبغي أن تحاول في بعض الأحيان مقاومة آثار المناخ . وذلك أنه بتقدم الحضارة تتحكم الضوابط الأخلاقية أو للقانونية - وينبغي لها أن تتحكم - في العوامل المناخية ، مثال ذلك عزل المرأة وحجائها في الشرق . ويهدف أحكم المشرعين إلى موازنة (الأسباب الطبيعية) . والعادات والأعراف وظيفة الزمان والمكان ، وليس ثمة عادة أو عرف خطأ أو صواب أو أنه الأفضل في حد ذاته . والعرف . في الجملة خير قانون ، لأنه تكيف طبيعي بين الشخصية والموقف ، ويجدر بنا أن نتأني ونسير بخطى وثيدة في تغيير العادة والعرف . وتأني العادة أن تتبدل بالقانون عادة ^(٨٦) .

وحيث أن الموطن يحدد العادة التي تحدد بدورها الخلق القوي فإن شكل الحكومة لا بد أن يختلف من مكان إلى مكان تبعاً لهذا المركب الثلاثي . وهي تتوقف بصفة عامة على مدى سعة الرقعة الحكومية : فالجمهورية تنسجم مع رقعة صغيرة من الأرض ، يستطيع زعماء المواطنين فيها أن يجتمعوا للتشاور وللتداول أو العمل ، فإذا اتسعت الرقعة تطلبت مزيداً من الحروب ، ونخضت للحكم الملكي . وتتحول الملكية إلى استبدادية إذا حكمت رقعة شاسعة أكثر مما ينبغي لأن السلطة الاستبدادية وحدها هي التي تستطيع المحافظة على خضوع حكام المقاطعات لسلطانها ^(٨٧) . ويجدر أن تركز الملكية على (الشرف) ، أعني أنه يجب تصنيف سكانها في مراتب ، كما يجب أن يكون مواطنوها متحمسين غاية التحمس لألقاب الشرف والأوسمة وتفضيلهم أو إثارةهم بالخطوة . أما الجمهورية فيجدر أن تقوم على نشر (الفضيلة) على أوسع نطاق ، ويعرف مونتسكيو الفضيلة على طريقته الخاصة بأنها (حب الإنسان لبلده - أعني حب المساواة ^(٨٨) .

وقد تكون الجمهورية أرستقراطية أو ديمقراطية تبعاً لطريقة حكمها :
هل يتولاه قسم من المواطنين أو كلهم . ويعجب مونتسكيو بفنيسيا
(البندقية) كجمهورية أرستقراطية . وبعدها الدول القديمة على أنها ديمقراطية
وهو يعلم ولكن يتجاهل أن المواطنين المحررين ليسوا إلا أقلية . ويمتدح
الحكم الذى أقامه وليم بن فى أمريكا . ويمتدح فى حماسة أكبر انشاء المناطق
الشيوعية الدينية التى أسسها اليسوعيون فى باراجواى^(٨٩) . والحق يقال
على أية حال إن الديمقراطية الآمنة الحقة لا بد أن تحقق المساواة الاقتصادية
والسياسية معاً ، وأن تنظم الموارىث والمهور ، وتعمل على فرض الضريبة
التصاعدية على الثروات^(٩٠) . أن خير تلك الديمقراطيات هى التى يعترف
فيها مواطنوها بعجزهم عن تحديد السياسة التى تنهجها بلدهم ، ومن ثم
يقرون السياسة التى يحددها ممثلوهم الذين انتخبوهم . وينبغى على الدولة
الديمقراطية أن تهدف إلى المساواة ولكن يمكن أن تدمرها روح المساواة
المتطرفة ، حين يسعد كل مواطن أن يكون فى مستوى أولئك الذين اختارهم
ليأتمروا بأمرهم . . . وإذا كان هذا هو الوضع فلن تقوم لأفضيلة قائمة فى
الجمهورية . فهنا يكون المواطنون راغبين كل الرغبة فى ممارسة مهام
الحكام الذين لا يعود لهم أى توقيير أو احترام . وهنا يكون الاستخفاف
بمداولات السناتو ، ومن ثم لا يكون هناك احترام لأعضائه ، ولا احترام
لكبر السن ، وإذا انعدم التقدير والاحترام لكبر السن انعدم تبعاً لذلك
الإذعان للوالدين أو الأزواج والامتنال للرؤساء .

وسرعان ما تتفشى هذه الظاهرة . إن الناس إذ يصابون بهذا البلاء
محاولين التستر على فسادهم ، يسعون إلى افساد من وضعوا ثقتهم فيهم . . .
وعندئذ يقتسمون الأموال العامة فيما بينهم ، فإذا استأثروا بإدارة الأمور
بالإضافة إلى تكاسلهم وقراخيمهم ، انصرفوا إلى مزج فقرهم بشيء من
لهو الترف^(٩١) .

وهكذا يقول البارون ، مردداً قول أفلاطون عبر ألفين من السنين :
تنقلب الديمقراطية إلى فوضى . ثم إلى دكتاتورية ، ثم تنهار .

وهناك في مونتسكيو أجزاء كثيرة تجبذ الجمهورية الأرستقراطية ، ولكنه نخشى الاستبدادية التي ذهب إلى إمكان قيامها في الديمقراطية إلى حد أنه كان يريد الصبر عليها أو تحملها إذا كانت هذه الجمهورية تحكم وفقاً لقوانين راسخة . ويعالج أقصر فصول كتابه الحكم المطلق الاستبدادي وهو يتألف من ثلاث مقالات قصيرة : « إذا أراد متوحشو لوزيانا ثماراً قطعوا الشجرة من جذورها ليجمعوا الثمار ، وهذا رمز للحكومة الاستبدادية »^(٩٢) « أى أن الحاكم المستبد يستأصل أعظم الأسرار كفاية ومقدرة ليحمي قوته وسلطانه . وكانت الأمثلة التي أوردها لهذا شرعية بشكل يطمأن إليه ، ولكن كان من الواضح أنه يخشى نزوع ملكية البوربون إلى الاستبداد . حيث كان الكاردينال ريشيليو ولويس الرابع عشر قد دمرا قوة الارستقراطية السياسية . وتحدث عن ريشيليو وكأنه « مأخوذ بحب السلطة المطلقة »^(٩٣) . أنه كره أشد الكراهية بوصف كونه نبيلاً فرنسياً ، أن يهبطوا بمكانة طبقته إلى مجرد أفراد في الحاشية الملكية ، واعتقد أن بعض القوى المتوسطة الخاضعة التابعه ، ضرورة لحكومة صحيحة وكان يعنى بهذه القوى النبلاء مالكي الأرض والحكام الوريثين ، وكان ينتسب إلى كليهما . ومن ثم دافع عن النظام الإقطاعي بتفصيل شديد (١٧٥٣ صفحة) ، موضحاً بوحدة كتابه وتناسقه . إن مونتسكيو هو الوحيد من بين فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر الذي امتدح نظام العصور الوسطى ، واتخذ من لفظة « قوطى » . تعبيراً عن الثناء والاطراء . وفي الصراع الذي استمر طوال حكم لويس الخامس عشر بين الملكية والبرلمانات اتخذ الحكام الذين يعدون للمعركة مصنعاً للحجج والأسانيد في « روح القوانين » .

إن نفور مونتسكيو من الحكومة المطلقة مطية للحكم المطلق أدى به إلى تمييزه حكومة مختلطة : فيها ملكية وأرستقراطية وديموقراطية معاً - ملك ونبلاء وجمعية عامة . ومن هنا كان أشهر آرائه ، نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في الحكومة^(٩٤) . فالسلطة التشريعية تسن

القوانين لكن لا تتولى تنفيذها ، وتتولى السلطة التنفيذية القيام على تنفيذها ولكن لا تسنها . وتقتصر السلطة القضائية على تفسيرها . « وتضم السلطة التشريعية مجلسين ، مجلس يمثل الطبقات العليا ، وآخر يمثل العامة . وهنا يتحدث البارون ثانية .

في مثل هذه الدولة يوجد دائماً أناس يتميزون بحكم مولدهم و ثرواتهم وألقابهم ، فإذا تساوا واخلطوا بعامية الشعب ، فلا يكون لهم إلا صوت واحد مثل الباقين ، فإن الحرية العامة تكون بمثابة استرقاق لهم ، ومن ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم ، وتكون معظم القرارات الشعبية في غير مصلحتهم . ويجدر أن يتناسب نصيبهم مع سائر امتيازاتهم في الدولة ، وهذا يحدث فقط حين يشكلون هيئة في الدولة يكون لها الحق في مقاومة إساءة استعمال الشعب للسلطة في الدولة ، كما يكون للشعب الحق في مقاومة أى اعتداء على حرية الشعب . ومن هنا تكون السلطة التشريعية في أيدي النبلاء وأيدي الذين ينتخبهم الشعب ، على أن يكون لكل هيئة اجتماعاتها ومداويلاتها منفصلة عن الأخرى ، ولكل صلاحيتها وآراؤها (٩٥) .

وتكون كل من الهيئات الثلاث وكل من المجلسين رقيباً بعضهم على بعض ، وبهذه الطريقة المعقدة تلتئم حريات المواطن مع حكمة الحكومة وعدالتها ونشاطها :

وكانت هذه الأفكار عن الحكومة المختلطة قد انحدرت إلى مونتسكيو من دراسته لهارنجتون وألجرونو وسيدني ولوك ، ومن الخبرة التي اكتسبها في إنجلترا . إنه ذهب إلى أنه وجد هناك مثله الأعلى مهما كان منقوصاً ، في ملكية تكبح جماحها ديموقراطية في مجلس العموم ، كما يكبح جماح مجلس العموم الأرستقراطية في مجلس اللوردات . وظن أن المحاكم في إنجلترا هي بمثابة كابح مستقل لجماح البرلمان والملك وامتدح ما كان قد رأى في إنجلترا رقابة نشتستر فيلد وغيره من النبلاء ولكنه مثل فولتير استخدم هذا الشكل المثالي حافزاً لفرنسا . ولا بد أنه عرف أن المحاكم الإنجليزية ليست مستقلة تمام الاستقلال عن البرلمان ، ولكنه ذهب إلى أنه من الخير لفرنسا أن

تفكر في الأخذ بحق المتهمين في انجلترا تحقيق عاجل ، أو إطلاق سراحهم بكفالة ، ومحاكمتهم أمام محلفين من طبقتهم ، مع تحدى الاتهام ، وإعفائهم من التعذيب ، ولكنه رأى كذلك « ألا يدعى النبلاء للمثول أمام المحاكم العادية بل أمام قضاة من نفس طبقتهم في هيئتهم . » إنهم كذلك لهم الحق في محاكمتهم أمام نظرائهم ^(٩٦) .

إن مونتسكيو أصبح محافظاً أكثر فأكثر مع تقدمه في السن . إن روح المحافظة على القديم رسالة والزام في الشيخوخة ، كما أن الراديكالية ، (التطرف) رسالة نافعة في الشباب ، والاعتدال هبة وخدمة في أواسط العمر ، ومن ثم كان لنا دستور في ذهن أمة ، بما فيه من سلطات ذات وقيود وضوابط متبادلة وعرف مونتسكيو الحرية مع كل تمجيد لها بوصفها الهدف الصحيح للحكومة . بأنها « حق كل إنسان في عمل ما تجيزه القوانين فإذا أتى مواطن شيئاً تحرمه القوانين ، فإنه لا يعود يتمتع بالحرية . لأن سائر المواطنين يمكن أن يكون لهم نفس الصلاحية ^(٩٧) . » واتفق مع زميليه جاسكون ومونتاني ، على استنكار الثورات . « إذا ثبت شكل الحكومة واستقر منذ أمد بعيد ، وبلغت الأمور حداً معيناً من الثبات والاستقرار ، فإنه من الحكمة تقريباً أن تترك الأمور كما هي ، لأن الأسباب — هي غالباً معقدة أو غير معروفة — التي هيأت لها الصمود والثبات ، سوف تستمر في الإبقاء عليها (أى على هذه الحكومة ^(٩٨)) .

ورفض فكرة المساواة في الملكية أو السلطة ولكنه فكر ، مثل جرانسى في تركيز ملكية الأرض : « من الأرض التي تكنى لتغذية أمة . . . لا تكاد تحصل عامة الشعب على ما يقوت أسرهم . . . فإن رجال الدين والأمير والمدن وعظماء الرجال وبعض البارزين من المواطنين يصبحون دون أن يحسوا ملاكاً لكل الأرض التي تبقى غير منزرعة . وتهجر الأسرات التي دمرت مزارعها ، والرجل الكادح معدم فقير . وفي هذا الوضع يجسر بالهيئة الحاكمة أن توزع الأرض بين الأسرات المحتاجة وتوفر لها المواد والأدوات اللازمة لإصلاحها وزراعتها ، وينبغي أن يستمر التوزيع ما دام هناك من يتسلمها ^(٩٩) .

واستنكر زراعة الأرض من أجل جباة الضرائب لحساب رجال المال
الخصوصيين ، واستنكر الرق بشدة في حماسة أخلاقية وتهكم لاذع (١٠٠) .
واعترف بالضرورة الطارئة للحرب ، وامتد بمفهوم الدفاع إلى إجازة —
المسارعة إلى الاستيلاء على الأراضي : إن حق الدفاع الطبيعي قد ينطوى
أحياناً بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل
المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام ، وعندئذ
يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير
السلام (١٠١) .

ولكنه استنكر سباق التسلح : ولقد ساد الاضطراب من جديد كل
أوربا ، فأصاب أمراءها وأغرامهم بحشد قوات هائلة ، ولهذا مضاعفاته ،
ويصبح بالضرورة عدواً ، فإنه إذا شرع ملك في زيادة قواته ، فإن الباقيين
بطبيعة الحال يحذون حذوه . ومن ثم لانجنى من هذا إلا الدمار الشامل (١٠٢) .

وعلى الرغم من أنه قدر الروح الوطنية أكبر تقدير إلى حد أنه سوى
بينها وبين الفضيلة ، إلا أنه راوده في بعض الأحيان حلم مبادئ أخلاقية
أرحب أفقاً : « إذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي ولكنه يضر بأسرتي ،
فيلبغى على ألا أقدم عليه . وإذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي . ولكنه
يضر بأسرتي ، وليس لوطني ، فيجدر بي أن أحاول أن أنساه . وإذا رأيت
أن شيئاً ذا فائدة لوطني ، ولكنه يضر بمصلحة أوربا والجنس البشري
فلا بد أن أعتبره جريمة رسمية (١٠٣) » .

إن غاية ما يصبو إليه من مبادئ أخلاقية وديانة خفية هو مذهب
الرواقيين القدامى : « لم توجد قط مبادئ أكثر منها إلتئاماً مع الطبيعة
البشرية ولا أقوم منها لبناء المواطن الصالح . . . وإذا استطعت أن أتخلى
عن المسيحية لحظة لوصفت القضاء على مذهب زينون مؤسس مذهب
الرواقيين محنة من بين المحن التي ابتلى بها الجنس البشري . . . إن هذا
المذهب وحده هو الذي صنع المواطنين . وهو وحده الذي صنع عظماء
الرجال وهو وحده الذي صنع الأباطرة وإذا نحينا جانبا الحقائق التي

كشفت عنها لحظة ، وقتشنا في الطبيعة كلها فإننا لن نجد شيئاً أسمى من الانطونيين ، حتى ولا جوليان نفسه (وهو إطرأ انتزع مني أرجو ألا يجعلني شريكاً في جريمة الردة) .

كلا ، لم يوجد قط منذ عهده أمير أجدر بحكم الجنس البشرى (١٠٤) وواضح أن مونتسكيو حرص في « روح القوانين » على مسألة المسيحية إنه اعترف بوجود الله — فأى حق أقطع من قضاء وقدر أعنى خلق كائنات ذكية (١٠٥) . ولكنه تصور هذا العقل الأسمى كما عبرت عنه قوانين الطبيعة ، وهو لا يتدخل فيها مطلقاً . قال فاجبه « إن الله بالنسبة لمونتسكيو هو روح القوانين (١٠٦) » ، وقبل المعتقدات الخارقة للطبيعة دعامة ضرورية لقانون أخلاقى لا يلتزم مع طبيعة الإنسان . « ومن الخير أن يكون هناك بعض كتب مقدسة لتكون شريعة مثل القرآن عند المسلمين ، وكتب زردشت عند الفرس ، والفيدا عند الهنود ، والكتب القديمة عند الصينيين . إن الشرائع الدينية تكمل القوانين المدنية ، وتحدد مدى السيطرة الاستبدادية (١٠٧) » . وينبغي أن تكون الدولة والكنيسة رقية كل منهما على الأخرى ، كما ينبغي أن تظل كل منهما منفصلة عن الأخرى . وهذا التفريق الكبير بينهما هو أساس هدوء الأمم (١٠٨) . ودافع مونتسكيو عن الدين ضد بيل (١٠٩) . ولكنه أخضعه ، مثل أى شيء آخر لتأثير المناخ والخلق القوي : « إن حكومة معتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحى ، والحكومة المستبدة أصلح للعالم الإسلامى . وإذا اختيرت ديانة تلائم مناخ بلد ما ، تتعارض مع مناخ بلد آخر فإن هذه الديانة لن تقوم في هذا البلد الثانى ، وإذا أدخلت كان مآلها النبذ والرفض (١١٠) والمذهب الكاثولىكى أكثر ما يكون توافقاً مع الملكية ، والبروتستانتية مع الجمهورية وإذا انقسمت المسيحية لسوء الحظ إلى كتلكة وبروتستانتية ، فإن أهل الشمال يعتقدون البروتستانتية ، على حين يذلل أهل الجنوب متمسكين بالكاثوليكية والسبب واضح . فإن أهل الشمال يتمسكون ، وسيظلون يتمسكون إلى الأبد بروح الحرية والاستقلال ، وهذا ما لا يتمتع به أهل الجنوب . فإن الديانة التى لا يكون لها رئيس بارز هي أكثر ملاءمة لهم (١١١) » .

وعلى حين سلم مونتسكيو بمزايا الدين إجمالاً فإننا نراه يسهب في نقده، واستنكر شراء رجال الدين في فرنسا^(١١٢). ودون « أفزع احتجاج على محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال ، لوقف احراق المهرطقين ، وحذرهم من أنه » إذا تجرأ أحد في الأجيال القادمة أن يثبت أن الناس في أوروبا في عصرنا كانوا متحضرين ، فإنه لابد أن يمثل أمام القضاء ليثبت أنهم كانوا متبربرين^(١١٣) » وسخر بوصفه قوطياً محباً لوطنه ، من عصمة البابا من الخطأ وألح في أن تكون الكنيسة خاضعة للسلطة المدنية ، واتخذ بالنسبة للتسامح الديني موقفاً وسطاً : « إذا كان للدولة مطلق الحرية في اعتناق أو نبذ أى دين جديد ، فينبغي أن ترفضه ، فإذا اعتنقته وجب عليها أن تتسامح معه^(١١٤) . ومع كل احترامه للرقيب ظل مونتسكيو عقلانياً » فالعقل هو أكمل وأكرم وأجمل ملكاتنا^(١١٥) . وماذا يقدم عصر العقل شعاراً أفضل من هذا ؟ .

٤ — النتيجة :

ما أسرع ما اعترف الناس « بروح القوانين » حدثاً ضمخاً في الأدب الفرنسي ، ولكن النقاد تلقفوه عن اليمين وعن الشمال . فالجانسونيون واليسوعيون ، وهم على طرفي نقيض عادة ، اتفقوا على مهاجمته على أنه رفض ما كر خبيث للمسيحية . وقالت جريدة « أخبار الكنيسة » وهي لسان حال أتباع جانسن : « إن الجمل المعترضة التي يضعها المؤلف ليقول لنا إنه مسيحي تؤكد لنا توكيداً هزيباً أنه كاثوليكي ، وإن المؤلف ليسخر من سداجتنا إذا حسبناه على غير ما هو عليه » . وختم المحرر حديثه بنداء وجهه إلى السلطات المدنية باتخاذ إجراء ضد الكتاب^(١١٦) . وآتهم اليسوعيون مونتسكيو باتباعه فلسفة سبينوزا وهوبز ، بافتراضه وجود قوانين في التاريخ مثلما هي في العلوم الطبيعية ، ولم يترك مجالاً لحرية الإرادة . ودافع الأب برتويه في صحيفة « تريفيو » اليسوعية عن أن الحق والعدل مطلقان ، وليساً نسبيين تبعاً للمكان والزمان ، وإن القوانين يجب أن تركز على مبادئ عامة من الله . لا على تنوعات المناخ والتربة والعرف والخلق القومي^(١١٧)

ورأى مونتسكيو أنه من الحكمة أن يصدر في ١٧٥٠ « دفاعاً عن روح القوانين » ، تتصل فيه من الحاد والمادية والجبرية ، وأكد من جديد مسيحيته . ولكن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين »

وكان الفلاسفة الناشئون في ذات الوقت مستائين ، حيث اعتبروا روح القوانين كتيباً في المحافظة على القديم ، واستاءوا من ورعه العارض وإعتدال إصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح الميني (١١٨) . وكتب هلفشيوس إلى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعي والمصاعب التي تعترضه (١١٩) . أما فولتير الذي كان يعد كتابه عن فلسفة التاريخ في بحث « في الاعراف » ، فإنه لم يكن متحمساً لعمل مونتسكيو . ولم يكن قد نسي معارضة السيد الرئيس لإنضمامه إلى الأكاديمية بقوله : عار على الأكاديمية أن يكون فولتير عضواً فيها ، وسيكون العار عليه يوماً ما ألا يكون عضواً فيها (١٢٠) .

وتوقف نقد فولتير تحت ضغط الظروف ، وتحول إلى إطراء غير متحمس واعتراض بأن مونتسكيو كان مبالغاً في تأثير المناخ . ولاحظ أن المسيحية نشأت في أرض اليهود الحارة ، وأنها لا تزال مزدهرة في النرويج القارصة البرد ، ورأى أنه من الأرجح أن انجلترا تحولت إلى البروتستانتية لأن آن بولين كانت جميلة ، لا لأن هنري الثامن كان فاتراً (١٢١) . وإذا كانت روح الحرية نشأت — كما ذهب إليه مونتسكيو ، في الأقاليم الجبلية ، فكيف تفسر قيام الجمهورية الهولندية القوية ، أو « حق اعتراض » ، اللوردات البولنديين (وفي القاموس الفلسفي) دون صفحات كثيرة تتضمن أمثلة تدل على أن للمناخ بعض الأثر ، ولكن للحكومة أثراً أكبر منه مائة مرة ولكن للديانة والحكومة معا ، أثراً أكبر من هذا بكثير (١٢٢) . إننا لنسأل الذين يؤمنون بأن المناخ يفعل كل شيء (لم يزعم مونتسكيو هذا) لماذا يقول الإمبراطور جوليان في رسائله إن الذي سره في الباريسيين هو خلقهم الوقور وعاداتهم الصارمة ، ولماذا نرى الباريسيين الآن ، دون أدنى تغيير في المناخ ، أطفالاً لعوبين هازلين ، وهو أمر تعاقبهم عليه الحكومة وتسخر

منهم من أجله ، في نفس الوقت ، كما أنهم هم أنفسهم يسخرون ، في لحظة تالية من سادتهم ويهجونهم هجاء لاذعاً (١٢٣) .

ووجد فولتير الجواب :

إنه الانقباض أو الاكتئاب ، وهو عكس ما يرددونه في كثير من الاستشهادات والحكم والأمثال ، ولكنه دائماً الحقيقة تقريباً . . . « فالناس في المناطق الحارة جبناء مثل العجائز ، أما في المناخ البارد فهم شجعان مثل الشبان » . « إننا مجدر بنا أن نكون على حذر من أن بعض القضايا العامة . تفلت منا ، وما كان في مقدور أحد أن يجعل من سكان لابلند أو الأسكيمو محاربين على حين أن العرب فتحوا في ثمانين عاماً من الأقاليم ما فاق فتوحات الإمبراطورية الرومانية بأسرها (١٢٤) .

ثم يمتدح فولتير « روح القوانين » فيقول : « بعد أن أقنعنا أنفسنا على هذا النحو بأن الأخطاء كثيرة في ، « روح القوانين » . . . وأن هذا العمل ينقصه النهج ، كما تعوزه خطة العمل والنظام ، فقد يليق بنا أن نتساءل ما الذي أضفى عليه هذه القيمة الكبيرة ، وأدى إلى شهرته العظيمة . إنه في المقام الأول مكتوب بذكاء عظيم ، على حين أن من ألفوا في هذا الموضوع كانت كتاباتهم مملة تبعث على السأم والضجر . وعلى هذا الأساس رأت إحدى السيدات (مدام دي ديفان) وهي تتمتع بذكاء مثل ذكاء مونتسكيو أن الكتاب هو « الذكاء في القوانين » ، وهو أصبح تعريف له . وثمة سبب أقوى وهو أن الكتاب يعرض وجهات نظر أو آراء عظيمة ويهاجم الطغيان والخزافة والضرائب الفادحة . . . إن مونتسكيو كاد أن يكون على خلاف مع العلماء لأنه ليس عالماً ، ولكنه كان دائماً على حق تقريباً ضد المتعصبين ومتعهدي الرقيق . أن أوربا مدينة له بالشكر والامتنان على الدوام (١٢٥) .

وأضاف في موضع آخر : « إن الإنسانية كانت قد ضيعت أعمالها المحيطة (من أجل الحرية) واستردها مونتسكيو (١٢٦) .

واتفق النقد المتأخر مع فولتير إلى حد كبير على حين اعترض على

مبالغاته (١٧٧) . حقاً إن أسلوب الكتاب كان ضعيفاً ، مع قليل من المنطق . في ترتيب الكتاب وتسلسل موضوعاته ونسيان للفكرة الأساسية التي تحكم الربط بين أجزائه . وفي تممس مونتسكيو ليكون عالماً ، يجمع الحقائق ويفسرهما ، لم يعد فناً . أنه ضييع الكل في الأجزاء ، بدلا من تنسيق الأجزاء في كل منسق . وكان قد قضى في جمع مادة الكتاب أكثر من نصف عمره ، وكتبه في نحو عشرين عاماً ، وأساء التأليف المتقطع إلى وحدة الكتاب ، وتسرع في الوصول إلى أحكام عامة من أمثلة قليلة ولم يفتش عن أمثلة تنقضها — مثال ذلك أيرلندة الكاثوليكية في الشمال البارد ومن ثم يجب أن تكون بروتستانتية وتخلي من منهجه حين قال : « لقد وضعت المبادئ الأولى ووجدت أن الحالات الخاصة لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة بشكل طبيعي ، وأن تاريخ كل الأمم ليس لإنتاج لهذه المبادئ » فهذا هو خطر تناول التاريخ بفلسفة يثبتها عن طريق هذا التاريخ وعند جمع مادة الكتاب قبل مونتسكيو كل بيانات السائحين دون تحقيق ولا تدقيق ، وفي بعض الأحيان أخذ الخرافات والأساطير على أنها تاريخ ، بل أن ملاحظاته المباشرة كان يمكن أن تكون خاطئة ، ومن ذلك أنه رأى « فصلا بين السلطات » في حكومة إنجلترا على حين أنه كان من الواضح أن السلطة التشريعية هناك كانت تغطي على السلطة التنفيذية .

وإلى جانب هذه الأخطاء لا بد أنه كان للكتاب مزايا أدت إلى الترحيب به وتأثيره . إن فولتير حدد أسلوبه بحق ، على أن الأسلوب أيضاً عانى من شطايا المعلومات لا المعلومات الكاملة المستوفاة . وأولع مونتسكيو بالفصول القصيرة وربما كان هذا وسيلة للتركيز ، مثال ذلك الفصل الذي كتبه عن الحكم الاستبدادي المطلق ، مما أدى إلى التقطع وعدم الترابط مما عوق تدفق الفكرة . وربما كان جزء من عدم استيفاء البحث راجعاً إلى تفاقم ضعف بصره مما اضطره إلى الإملاء بدلا من الكتابة . وعندما كان يتمتع بكامل قوته وحيويته حقق في عبارات قوية واضحة بعضاً من الاشراف والروعة في الرسائل الفارسية . ويروى فولتير أن في « روح القوانين من العبارات الساخرة أكثر مما يليق بكتاب في القانون . يقول

مونتسكو « إن الناس في فينيسيا مقترنون غاية التقدير إلى حد أنه من أجل المؤسسات وحدهن يستطيع الرجال أن يغادروا البيت ومعهم نقود (١٢٨) » . وهذا ، على الرغم من كل شيء ، أسلوب وقدر معتدل هادىء وهو في بعض الأحيان غامض ولكنه يعوض عن حل الألغاز .

وكان مونتسكيو متواضعا كما كان مصيبا في أنه أرجع جزءا من قيمة الكتاب إلى موضوعه وهدفه . أنك لى تعثر على قوانين في القوانين ، وعلى نظام في تنوعها تبعا للمكان والزمان ، ولى تعمل على تنوير الحكام والمصلحين عن طريق دراسة مصادر التشريع وحدوده بالنسبة لطبيعة ومكان الدول والناس - فهذا عمل جليل ضخم تقتضى ضخامته وجلاله الصفح عن الزلات . وأخفق هربرت سينسر في نفس هذا العمل بعد ذلك بمائة وثمانية وأربعين عاما ، وعلى الرغم من عدد كبير من معاونين في البحث ، وبسبب نفس الرغبة في استخلاص أحكام عامة ، ولكن كلنا المحاولين كأننا زيادة في الحكمة . ولكن كتاب مونتسكيو كان أفضل وهناك أناس سبقوه ولم يكن هو البادىء (٥) بالتأليف في هذا الموضوع ، ولكنه جعل بوضع المنهج التاريخى بقوة للدراسة المقارنة للنظم . ولقد سبق نواتير في وضع فلسفة للتاريخ مستقلة عن الأسباب الخارقة للطبيعة وبلغ آفاقا واسعة ونزاهة في الرأى لم يبلغها فولتير . إن بيرك أطلق على مونتسكيو « أعظم عبقرية نورت هذا العصر (١٣٠) » واعتبره بين تين أعقل وأحكم وأكثر الرجال اتزاناً في هذا العصر (١٣١) ورأى هوراس ورلبول أن روح القوانين أحسن كتاب ظهر على الإطلاق (١٣٢) وقد لا يكون هذا صحيحا ولكنه أحسن كتاب ظهر في هذا الجيل .

لقد أنهك هذا الكتاب مؤلفه . وكتب إلى أحد الأصدقاء : أعترف لك أن هذا الكتاب قتلنى . سأخلد إلى الراحة ولن أعمل شيئا بعد الآن (١٣٣)

(٥) أبقراط : الهواء والماء والأماكن . أرسطو : دساتير أثينا . ميكافيللى : المقالات . بودين منهج لتيسير بعض المعلومات التاريخية .

وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث . وكان يقول « الدراسة بالنسبة لى هى خير علاج لكل نخبة أمل فى الحياة . ولم أجد ضيقا إلا فرج من كربته ساعة قضيتها فى القراءة (١٣٤) .

وزار باريس من حين لآخر وسعد بشهرته هناك التى كانت تضارع شهرة فولتير آنذاك (١٧٤٨) . ويقول رينال لقد جذب كتاب روح القوانين انتباه كل الشعب الفرنسى . اثنا نجلده فى مكتبات علمائنا ودارسينا وعلى منضدة زينة سيداتنا وعند كل شبابنا المتألق (١٣٥) ورحبوا بالمؤلف من جديد فى الصالونات واستقبلوه فى البلاط الملكى ، ولكنه قضى معظم الوقت فى لا برىد حيث قنع بأن يكون سيذا عظيما . وسر الانجليز بالكتاب أيما سرور حتى أنهم طلبوا منه أعدادا وفيرة . وفى سنه الأخيرة كاد أن يصاب بالعمى ، وكان يقول « يبدو لى أن الأثر الخفيف من البصر الذى بقى لى ليس إلا فجر اليوم الذى تغلق فيه عينى إلى الأبد (١٣٦) وفى ١٧٥٤ قصد إلى باريس لانهاء إيجار بيته هناك ، ولكنه أثناء تلك الزيارة أصيب بالتهاب رئوى وقضى نحبه فى ١٠ فبراير ١٧٥٥ وهو فى السادسة والستين وتناول الأسرار المقدسة الكاثوليكية . وكان الأديب الوحيد للذى شيع جنازته هو ديدرو وهو من أتباع مذهب اللا أدريه (١٣٧) وذاع صيته وامتد أثره على مر القرون . وكتب جييون : « على مدى الأربعين عاما منذ صدور روح القوانين لم يقبل الناس على قراءة كتاب أو نقده أكثر منه . وليست روح البحث والتحقيق التى أثارها أقل مآثر الكاتب علينا (١٣٨) » وكان جييون وبلاكستون وييرك من بين من أفادوا من روح القوانين وعظمة الرومان واضمحلالهم وعده فودريك الأكبر أحسن كتاب بعد كتاب الامبر ، ورأت كثيرين الكبرى أنه ينبغى أن يكون كتاب الصلوات اليومية لدى الملوك (١٣٩) واقتبست فقرات منه للرجال الذين عينتهم لمراجعة القوانين الروسية . ولم ينقل واضعوا مسودة الدستور الأمريكى عن مونتسكيو نظرية فصل السلطات فحسب بل استبعاد أعضاء الوزارة من الكونجرس كذلك.

وتضمنت كتاباتهم كثيرا من الاقتباسات من الكتاب . وأصبح روح القوانين الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين في الثورة الفرنسية تقريبا ونشأ عن كتاب عظمة الرومان واضمحلالهم بعض أعجابه بالجمهورية عند الرومان . ويقول فاجيه أن كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسكيو^(١٤١) وعلى مدى جيل من الزمان كان مونتسكيو ، لا فولتير ، هو صوت العقل وبطله في فرنسا .

الفصل الحادى عشر

فولتير فى فرنسا

١ - فى باريس : ١٧٢٩ - ١٧٣٤

لدى عودة فولتير من إنجلترا فى أواخر عام ١٧٢٨ أو أوائل عام ١٧٢٩ اتخذ مسكنا مغمورا فى حى سان جرمان - ان لى - على بعد ١١ ميلا إلى الشمال الغربى من باريس ، وحشد أصدقاءه لينشروا أنباء غير رسمية عن إلغاء قرار نفيه من فرنسا ثم من العاصمة ، ونجحوا فى هذا ، بل فى استعادة معاشه الملكى كذلك . وما حل شهر أبريل حتى ظهر فجأة ، وأخذ يجول خلال العاصمة . وفى أحد الاجتماعات سمع أن العالم الرياضى كوندامين حسب أن من يشتري كل أوراق « اليانصيب » التى تصدرها باريس لابد أن يحقق ثراء ، فأسرع فولتير واقترض نقودا من رجال المصارف من أصدقائه ، واشترى كل الأوراق ، فكان ما تنبأ به العالم الرياضى ، ولكن المراقب العام للحسابات رفض الدفع ، فرفع فولتير دعوى أمام القضاة وكسب القضية وتسلم المبلغ (١) وفى أخريات عام ١٧٢٩ قطع ١٥٠ ميلا فى ليلتين ونهار واحد من باريس إلى نانسى ليشتري أسهما فى مشروع دوق اللورين ، وعادت عليه هذه المغامرة بأرباح طائلة . وهكذا أعان فولتير مدير الأعمال المالية فولتير الشاعر الفيلسوف .

ونراه فى ١٧٣٠ مرة أخرى فى باريس مفتونا إلى حد الجنون بالمغامرات والمشروعات . وكان لديه عادة عدة أعمال أدبية قيد الانجاز فى وقت واحد ، يتنقل من واحد إلى الآخر ، ولذة الهوى فى التنقل ، دون أن يضيع وقتا . وكان آنذاك يكتب رسائل عن الانجلىز وتاريخ شارل الثانى عشر « موت الآنسة ليكوفريير » ، والصفحات الأولى فى الغادة العذراء . وذات يوم ١٧٣٠ اقترح عليه زوار الدوق دى ريشيليو وهم (م ١٢ - قصة الحضارة)

يتحدثون عن جان دارك أن يكتب لها تاريخاً ، ولم يكونوا بعد في فرنسا قد اعترفوا بها قديسة حامية لفرنسا . وبدأ للمفكر الحر فولتير أن العناصر الخارقة للطبيعة في أسطورة جان دارك تشد انتباهه إلى معالجة تاريخها معالجة فكاهية . فتحداه ريشيليو أن يحاول ذلك ، وكتب فولتير المقدمة في تلك الليلة ، ولم تكن مراثيته في ليكوفريير قد نشرت بعد ، ولكن صديقه الأخرق نيقولا ثيوريو كان قد قرأها على المساء على أوسع نطاق . وأستأنفت الأصوات اللاهوتية البغيضة طينها المزعج حول رأس فولتير .

وفي ١١ ديسمبر وكانما كان فولتير ظمأنا إلى كسب الأعداء ، أخرج قصته لوسيوس جينيوس بروتوس الذي أطاح طبقاً لرواية ليفي بعرش الملك تاركينيوس وأمسهم في إقامة الجمهورية الرومانية ، وأنكرت المسرحية على الملوك قدسيتهم وعدم جواز انتهاك حرمانهم ، ونادت بحق الشعب في تغير حكاه . وشكا الممثلون من أن الرواية خالية من فكرة الحب ووافقت باريس على أنها بدعة خرقاء سخيفة . وسميت المسرحية بعد عرضها ١٦ مرة . وبعد اثنين وستين عاماً أعيد تمثيلها من جديد ، لأن باريس كانت آنذاك تواقه إلى مشاهدة مقصلة لويس السادس عشر .

وفي نفس الوقت كان فولتير قد حصل على ترخيص ملكي بنشر « تاريخ شارل الثاني عشر ملك السويد » . وهنا كان الموضوع لا يكاد يسيء إلى لويس الخامس عشر أو الكنيسة ، كما يسر الملكة ، لأن الرواية تناولت موقف أبيها ستانسلاس بشكل لائق كريم . وظهرت طبعة من ٢٦٠٠ نسخة في الوقت الذي ألغى فيه الترخيص الملكي دون سابق إنذار ، وصودرت كل النسخ فيما عدا واحدة احتفظ بها فولتير . واحتج فولتير لدى حامل الاختام فأبلغ أنه قد حدث تغير في السياسة الخارجية مما كان لزاماً معه إرضاء غريم شارل الثاني عشر وضحيتته ، وهو أوغسطس « القوى » الذي ما زال ملكاً على بولنده . وقرر فولتير أن يتجاهل أمر الحظر وانتقل متنكراً إلى روان وياشر طبع تاريخه سراً . وفي أكتوبر ١٧٣١ تداوله الناس في حرية مطلقة وأقبلوا على قراءته وكأنه قصص .

وذهب بعض النقاد إلى أنه محشو بالخيال ، وأسماء بعض المؤرخين الواسعي الاطلاع رومانسية « في أسلوب مشرق بارع في السرد القصصى ، ولكنه غير دقيق في التفاصيل^(١) ولكن فولتير كان قد أعد الكتاب على طريقة الباحث المدقق إنه لم يطلع على وثائق الدولة فحسب بل إنه كذلك توقف ليستقى المعلومات من مصادرها الأصلية : الملك السابق ستانلاس ، ماريشال دى ساكس دوقه مالبرو ، بولنجيرونك ، آكل سبار (الذى اشترك فى معركة نارفيا) فونسيكا (طبيب برتغالى كان يعمل فى تركيا أثناء وجود شارل هناك) والبارون فابريس (سكرتير شارل سابقا) . وأكثر من هذا فإن فولتير كان قد أقام فترة مع البارون فون جورتز وزير شارل ذى الحظوة لديه . وربما حول إعدام البارون ١٧١٩ نظر فولتير إلى دراسة أسد الشمال « وفى ١٧٤٠ أشار جوران نورد برج الذى كان قسيس شارل إلى الأخطاء التى وقع فيها فولتير ، وقام فولتير بتصويب هذه الأخطاء فى الطبعات اللاحقة . وكانت هناك أخطاء أخرى وبخاصة فى الوصف التفصيلي للمعارك . وجادل النقاد المتأخرون^(٢) فى أن فولتير بالغ فى تقدير شارل على « إنه الرجل الأكثر استثناء وخرقا للعادة الذى ظهر على الأرض » وجمع فى شخصيته بين أعظم مناقب أسلافه . ولا عيب فيه ولا ينغص عليه حياته إلا أنه جمع بين هذه المناقب فى إفراط زائد^(٣) وربما تخفف الكلمة الأخيرة من حدة النقد ، فقد أوضح فولتير أن شارل جاوز الحد وأفرط فى التحلى بهذه المناقب البطولية حتى أصبحت عيوباً وعددها ، ومنها التبذير والتمور والقسوة وعدم القدرة على المغفرة والصفح . كما أوضح كيف أن أخطاء الملك قد أضرت بالسويد . وانتهى إلى أن شارل « كان رجلاً شاذاً استثنائياً لا رجلاً عظيماً^(٤) » وعلى أية حال لم يكن الكتاب عملاً ثقافياً فحسب ، بل عملاً فنياً كذلك — من حيث التركيب والشكل والحيوية والأسلوب — وسرعان ما أقبل كل المتعلمين فى أوروبا على قراءة شارل الثانى ملك السويد وذاعت شهرة فولتير إلى حد لم يسبق له مثيل .

وأصبح فولتير بعد عودته من روان (٥ أغسطس ١٧٣١) ضيفاً مقبلاً

على الكونتيس دي فونتين مارتل في قصرها بالقرب من « الباليه رويال » ،
وقد وجدت في رفقة سعادة بالغة حتى ظلت تؤويه وتطعمه حتى مايو ١٧٣٣
وترأس في حيوية شديدة ولائم العشاء الأدبية التي كانت تقيمها ، ومثل
المسرحيات وبخاصة مسرحياته هو على مسرحها الخاص . وفي أثناء إقامته
هناك كتب نص « أوبرا شمشون » لرامو — وهو ملحن فرنسي في القرن
الثامن عشر (١٧٣٢) — ومن المحتمل أنه شهد من مقصورة الكونتيس في
« المسرح الفرنسي » سقوط روايته « اريفيل » (١٧٣٢) كما شهد النجاح
الباهر الذي لقيته مأساة زائير (١٣ أغسطس ١٧٣٢) فكتب إلى صديق له :
« ما مثلت رواية بمثل الروعة التي مثلت بها زائير في عرضها الرابع . وكم
وددت لو أنك كنت معي لتشهد أن الجمهور لم يسخط على صديقك ،
وظهرت في المقصورة ، واتجهت كل الأيدي بالتصفيق لي ، فأستحييت
ونخبة نفسي . ولكني أكون مرثياً إذا لم اعترف لك بأنني قد اهتزت
مشاعري وتأثرت كثيراً » (٦) .

وظلت هذه المسرحية أحب مسرحياته إليه حتى النهاية . إنها كلها ليس
لها وجود الآن ، قضى عليها تغير الأذواق والأمزجة والأسلوب ، ولكننا
يجدر بنا أن نبعث أحداها على الأقل من قبرها ، لأنها لعبت جميعاً دوراً
مثيراً كبيراً في حياته . وزائير طفلة مسيحية أسرها المسلمون في صباها في
الحروب الصليبية ، ونشأوا على العقيدة الإسلامية ، وهي لا تعرف إلا
القليل عن فرنسا اللهم إلا أنها مسقط رأسها ، وهي الآن غادة فاتنة في
حريم السلطان أورو زمان في بيت المقدس . وهام بها السلطان وهامت هي
به حباً . وفي مستهل الرواية كانت على وشك أن تصبح زوجة له . وتؤنّبها
أسيرة مسيحية أخرى اسمها فاتما على نسيانها أنها كانت مسيحية . وفي رد
زائير توضيح لأثر الجغرافيا في تحديد العقيدة الدينية : « إن أفكارنا
وعاداتنا وعقيدتنا الدينية إنما تشكلها الأعراف والتقاليد والنزعة القومية
السائدة في أيامنا الأولى . فإذا رأت النور على ضفاف نهر الكنج لعبدت
أوثان الهند . وإذا ولدت في باريس لكنت مسيحية . وأنا الآن مسلمة
سعيدة . إننا لا نعرف إلا ما تلقناه إن أبدى الأبوين اللذين يتوليان تربيتنا

وتعليمنا هي التي تنقش على قلوبنا الغضة تلك الأحرف التي ينقحها الزمن ويصقلها . وتعمل القدرة على تثبيتها عميقة في عقولنا ، ولا يقدر على محوها إلا الله (٧) .

ويصور فولتير أوروزمان رجلاً يتحلى بكل الفضائل بشكل واضح إلا الصبر . إن المسيحيين ليصعقون ويلهلون إذ يرون مسلماً وقوراً مهذباً مثل المسيحيين . وتتولى السلطان الدهشة إذ يرى مسيحية فاضلة ، ويرفض أن يحتفظ بحريم ، ويعد بالاعتصار على زوجة واحدة . ولكن فولتير كان منصفاً لشخصياته المسيحية كذلك ، فهو ينظم أحياناً عامرة في جمال الحياة المسيحية الحقة . وهناك أسير مسيحي آخر هو نير ستام ، وقع في الأسر في طفولته كذلك ، ونشأ مع زائير ، وفك أساره حين تعهد بالرجوع ليفتدي بالمال عشرة من الأسرى ، ويذهب ثم يعود ليدفع مبلغ الفدية المطلوب من ماله الخاص . ويكافئه أوروزمان بإطلاق سراح مائة لا عشرة فقط من المسيحيين . ولكن نير ستام يحزن لأن زائير ولوسنيان لم يكونا من بين من أطلق سراحهم ، ومكان هذا ملك بيت المقدس (١١٨٦ - ١١٨٧) . وتناشد زائير السلطان أوروزمان أن يطلق سراح لوسنيان ، فيجيبها إلى طلبها . إن الملك المعجوز يعتبر زائير في منزلة ابنته ونير ستام في منزلة ابنه . إنها الآن موزعة بين حبا للسلطان الكريم وولائها لأبيها وأخيها وعقيدتهما المسيحية . ويهيب بها لوسنيان أن تتخلى عن السلطان والإسلام معاً : « أو اه يا ابنتي ، فكري في الدم الزكي الذي يجري في عروقك ، دم عشرين ملكاً كلهم مسيحيون مثلي ، دم الأبطال ، دم المدافعين عن العقيدة ، دم الشهداء والقديسين . إنك لا تعرفين مصير أمك ، إنك لا تعرفين أنه في نفس اللحظة التي ولدت فيها ذبحها أوائل المتبربرون الذي تعتقن دينهم البغيض على مرأى مني . إن إخوتك والشهداء الأعزاء بمدون إليك أيديهم من السماء ، يريدون أن يحتضنوا أختاً لهم . آه يا ابنتي ! تذكرهم ! إن الرب الذي نحنث عهده . لفظ النفس الأخير من أجلنا ومن أجل البشر جميعاً . انظري إلى الجبل المقدس الذي قتل عليه مخلصنا ، والمقبرة التي نهض منها ظافراً منتصراً . في كل طريق تمشين فيه مستترين خطوات الرب ، هل

تنكرين حالك ؟ زائر : . . . يا إلهي العظيم . . . تكلم يا أبتاه ماذا
أفعل ؟ لوسنيان : . . . أذهبي عنى العار والحزن بكلمة منك ، وقولى أنى
مسيحية . زائر : إذن يا إلهي ، أنا مسيحية

لوسنيان : أقسمى بأنك ستحفظين هذا السر الخطير .

زائر : أقسم لك على ذلك (٨) .

ولما علم نيرستام بإصرارها على الزواج من أوروزمان ، راوده التفكير
فى قتلها ، ولكن رقى قلبه ، وألجأ فى قبولها التعميد فوافقت ، وبعث إليها
برسالة يحدد فيها مكان وزمان الاحتفال بتعميدها ، وحسب أوروزمان
الذى لم يكن يدرى أن نيرستام أنحوها ، إنها رسالة حب وغرام ، ويفاجئ
زائر فى الموعد المضروب ، ويطلقها . ثم يكتشف أن العشيقين المزعومين
ليسوا إلا أخاً وأختاً ، فينتحر .

إن حبكة الرواية موضوعاً ببراءة ، مبسوطاً بطريقة مسرحية متماسكة
وهى تمثل فى شعر سلس موسيقى . وإننا لنذكر من خلال القطع العاطفية
التي تبدو الآن ثقيلة مبالغاً فيها ، والسبب فى أن باريس أغرمت بزائر
وأوروزمان ، وفى أن الملكة الضالحة الحزينة ذرفت الدموع عند تمثيل
المسرحية للحاشية فى فوتنبلو . وترجمت المسرحية إلى الإنجليزية ومثلت
بسرعة فى إنجلترا وإيطاليا وألمانيا ، ونودى آنذاك بفولتير أعظم شاعر على
قيد الحياة فى فرنسا ، وخلفاً ضاحكاً لكورنى ورأسين . ولكن هذا لم
يرق فى عيني جان بابتيست روسو ، وهو شاعر فرنسى مقيم فى المنفى فى
بروكسل ، فحكم على زائر بأنها « مسرحية تافهة فائرة . . . مزيج كريبه
من التدين والفجور » . فرد عليه فولتير شعراً فى معبد الذوق ، يشهر
فيه بروسو ويمجد مولير .

وبلغ فولتير ذروة المجد وهانى النجوم ، ولكنه لم يكف عن العمل .
ففى شتاء ١٧٣٢ - ١٧٣٣ درس الرياضيات كما درس نيوتن ، مع ضحيته
مستقبلاً مويرتوي Moupertuis ، وأعاد كتابة « ايريفيل Eriphile »
ونقح زائر وشارل الثانى عشر ، وجمع مادة كتابه « قرن لويس الرابع

عشر « ووضع اللامسات الأخيرة على كتابه «رسائل عن الإنجليز» وأخرج مسرحية أخرى (أليد) كما كتب أشياء صغيرة لا تحصى : رسائل ، قصائد مدح ، اقتراحات ، بعض الحكم الساخرة ، بعض أغاني الحب - وكلها تنسم بالظرف في نظم رقيق مصقول . وعندما ماتت مضيفته السخية ، مدام دي فونتين مارتل ، انتقل إلى داره في شارع (لونج بزان) واشتغل بتصدير القمح . ومذ جمع بين التجارة والقصص ، فإنه التقى (١٧٣٢) بالسيدة جبريل اميلي لى تونلييه دي برتيل مركيزة دي شاتيليه ، وارتبطت حياته بحياة السيدة الفذة المغامرة حتى وافاه الأجل المحتوم .

وكانت آنذاك في السادسة والعشرين (وهو في الثامنة والثلاثين) ، وكانت حياتها بالفعل حافلة متعددة الجوانب فهي ابنة البارون دي برتليه ، ولذلك تلقت تعليماً غير عادي . حتى أنها في سن الثانية عشر تعلمت اللاتينية والإيطالية وغنت غناء رخياً ، وعزفت على البيان الصغير ، وبدأت في سن الخامسة عشرة تترجم الإلياذة إلى الفرنسية شعراً ، وأضافت إلى هذا اللغة الإنجليزية ودرست الرياضيات على يدى موبرتوى . وفي التاسعة عشرة تزوجت المركيز فلورنت كلود دي شاتيليه لومونت ، وكان في الثلاثين من العمر . وأنجبت له ثلاثة أطفال . ولكن فيما عدا هذا لم يكن للواحد منهما يرى الآخر إلا لمأماً ، حيث كان هو عادة مشغولاً مع فرقته ، أما هي فبقيت قريبة من الحاشية وقامت بمبالغ طائلة ، وجربت الحب . فلما هجرها عشيقها الأول تناولت سمّاً ، وأنقلوها على كره منها بواسطة عقار مقيء ، واحتملت في رباطة جأش جريبتها من قبل ، هجران عشيق ثان هو الدوق دي ريشيليو ، لأن كل فرنسا عرفت قصة قلبه بين النساء .

والتقى فولتير بالمركيزة على مائدة العشاء فلم ينزعج ، بل سرته قدرتها على التحدث في الرياضيات والفلك والشعر اللاتيني . ولم تكن مفاتها طاغية لا سبيل إلى مقاومة إغرائها ، ولكن سيدات أخريات أسرفن ، في وصفها ، استمع إلى مدام دي دفان وهي تقول : (امرأة ضخمة متحفظة لا أوراك لها ، صدرها هزيل ؛ . . . ذات ذراعين ضخمين ورجلين

كبيرين ، وقدمين ضخمتين ، ورأس صغير جداً ، وقسمات حادة ،
 وأنف محدد وعينين صغيرتين خضراوين تميلان إلى الزرقة . سمراء
البشرة أسنانها رديئة ^(٩) ، واتفقت معها المركيزة دي كريكي فقالت : إنها
عملاقة — ماردة ، ذات قوة جبارة ، وكانت فضلاً عن ذلك آية في القبح
والبشاعة ، وكان جلدها في لون مبشرة جوزة الطيب الداكنة ، إنها تشبه
في جملتها جندياً طويلاً القامة قبيح الصورة . ومع ذلك تحدث فولتير عن
جمالها ^(١٠) . أن سانت لامبرت الوسيم أحبها سرّاً عندما كانت في الثانية
والأربعين . وليس لنا أن نثق في رأى السيدات بعضهن في البعض الآخر .
وقد يتبين من صورها الشخصية أن أميلي كانت طويلة القامة مسترجلة ،
 ذات جبهة مديدة ونظرة متعجرفة ، ولم تكن قسمات وجهها غير جذابة ،
 وقد نشعر بشيء من الاطمئنان إذا علمنا أن (لها صدرّاً شهوانياً ولكنه
راسخ ^(١١)) .

ويمكن أن تكون أميلي قد كان فيها ما يكفي من الرجل ليكمل المرأة
في فولتير . ومهما يكن من أمر فإنها لجأت إلى كل الحيل والوسائل الأنثوية
لتصلح ما أفسد الدهر من جمالها — مستحضرات التجميل والعطور
والمجوهرات والحلى والمخرمات . وسخر فولتير من ولعها بالتزين . ولكنه
أعجب بتحمسها للعلوم والفلسفة . فهنا سيدة استطاعت حتى في غمرة
الصخب والضوضاء في باريس وفرساي أن تنسحب من مائدة القمار ،
 لتدرس نيوتن ولوك ، إنها لم تقرأ نيوتن فحسب بل أنها استوعبته كذلك
وهي التي ترجمت قوانين نيوتن إلى الفرنسية ، ووجد فولتير أنه من اللائق
أن يتخذ من نفس المرأة رفيقة دراسة وعشيقة في وقت معاً . وفي ١٧٣٤
اعتبر نفسه بالفعل الرجل الذي ترتضيه عشيقاً لها : (يا إلهي ! أية لذة ومتعة
أجدها بين ذراعيك كم أنا سعيد بالإعجاب بالمرأة التي أحبها ^(١٢)) !

٢ — رسائل عن الإنجليز

في عامي ١٧٣٣ و ١٧٣٤ نشر فولتير بعد عناء شديد أول إسهامه في
عصر الاستنارة ، وكان عبارة عن ٢٤ رسالة موجهة من إنجلترا إلى تيريو

وترجمت إلى الإنجليزية وصدرت في لندن (١٧٣٣) رسائل متعلقة بالأمة الإنجليزية . ولكن كان في طبع الأصول في فرنسا مغامرة بحرية المؤلف وصاحب المطبعة كليهما . وخفف فولتير من بعض الأجزاء ، وحاول أن يحصل على إذن من الحكومة بطبع البقية ، فرفضوا منحه الترخيص ، وهنا لجأ ثانية إلى نشرها سرّاً في روان . وحذر الناشر جور من تسرب أية نسخة للتداول لبعض الوقت على الأقل ، ولكن في أوائل ١٧٣٤ ، وصلت عدة نسخ إلى باريس تحت عنوان « رسائل فلسفية » . وحصل أحد قراصنة الناشرين على نسخة ، وأصدر منها طبعة كبيرة العدد دون علم فولتير . وفي نفس الوقت كان فولتير ومدام دي شاتيليه قد قصدا إلى قصر مونتجي بالقرب من أوتون على مسافة ١٩٠ ميلا من باريس ليحضرا حفل زفاف ريشيليو .

وبدأ الكتاب بأربع رسائل عن جماعة الكويكرز الإنجليزية ، وأوضح فولتير أن هؤلاء الكويكرز ليس لهم تنظيم كنسى ولا قساوسة ولا أسرار ولا قرابين مقدسة ، ومع ذلك مارسوا الشعائر المسيحية في إخلاص وإيمان أكثر من أى مسيحيين عرفهم . ووصف أوتنيل زيارة قام بها لواحد منهم وقال : « سألت واحداً منهم : سيدى العزيز ، هل عمدوك ؟ فأجاب « لا لم أعمد لا أنا ولا إخوتي » . وصحت في وجهه : عجباً كيف يكون هذا إذن أنتم لستم مسيحيين ! فأجاب في صوت هادىء خفيض يابنى ، لا تقسم ، نحن مسيحيون » ونحن نحاول أن نكون مسيحيين صالحين ، ولكننا لا نرى أن المسيحية مجرد صب ماء بارد مع قليل من الملح على الرأس وعارضته . (يا إلهى ! لا تتحدث بهذا الضلال ! هل نسيت أن يوحنا عمّد المسيح ؟) فرد قائلاً : يا صاحبي ، لا تقسم بعد ذلك ، إن يوحنا عمّد المسيح ولكن المسيح لم يعمّد أحداً . . . ونحن أتباع المسيح لا أتباع يوحنا فقلت له : (واحسرتاه أيها المسكين جزاؤك الحريق في بلاد محاكم التفتيش وسألنى (هل أجروا لك عملية الختان ؟) .

فأجبت (لم يكن لي شرف الختان) .

فقال : (حسناً ، أنت مسيحي دون نختان ، وأنا مسيحي دون تعميد)

وقال الكويكرز إن التعميد مثل الختان من العادات السابقة على المسيحية وقد أبطلها إنجيل السيد المسيح الجديد . ثم استطرد فولتير يتحدث عن الحرب (لن نذهب أبداً إلى الحرب ، لا لأننا نخشى الموت ، بل لأننا لسنا ذئاباً ولا نموراً ، ولا كلاباً نحن رجال مسيحيون . أن إلهنا الذي أمرنا نحب أعداءنا يقينا لا يريد منا أن نعبث البحر لنقتل إخوة لنا ، لمجرد أن السفاحين الذين يرتدون ثياباً في لون الدم وقبعات عالية ترتفع إلى قدمين يجندون المواطنين بينما يحدثون جلبة بائنتين من العصي ممدتين على جسم حمار . وبعد النصر تتألق لندن كلها في الأضواء وتلتهب سماؤها بالألعاب النارية وطلقات المدافع ، على حين نرثى في صمت للمذبحة التي أدت إلى مثل هذا الابتهاج العام^(١٣) .

لقد أوديت فرنسا أيما إبداء ، وكادت أن تدمر نفسها لمحاولتها فرض عقيدة واحدة على جميع الفرنسيين . وأسهب فولتير في وصف التسامح بالنسبة للخلافات الدينية في إنجلترا . « هذه بلد الطوائف . والرجل الإنجليزي ، باعتباره حراً يسلك إلى السماء الطريق الذي يختاره .^(١٤) ووازن فولتير بين أخلاق رجال الدين الإنجليز وأقرانهم الفرنسيين ، وهنا الإنجليز بأنهم ليس لديهم رهبان . إن الإنجليز ليحمدون الله ويشكرونه على أنهم بروتستانت حين يعلمون أن الشبان الفرنسيين المعروفين بفسقهم وفجورهم يرقون إلى مناصب الأساقفة والمطارنة بفعل الدسائس ، ويؤلفون الأغاني الرقيقة وقيمون ولائم العشاء الباذخة كل يوم تقريباً ، ويطلقون على أنفسهم أنهم خلفاء الرسل .^(١٥) وفي الرسالة الثامنة أدار فولتير الخنجر إلى صدر الحكومة في فرنسا : « إن الأمة الإنجليزية وحدها هي التي عرفت كيف تحدد سلطة الملوك بوقوفها في وجههم . . . وأخيراً أقامت هذه الحكومة الرشيدة ، وفيها يتمتع الملك بكل القوة والسلطة في أن يفعل الخير ، على حين تغل يداه عن الإتيان بأي شر أو سوء . (وهنا يردد فولتير عبارة مشهورة مأثورة عن رواية فنيلون « تلياك » . ان إقرار الحرية في إنجلترا تطلب ثمناً غالياً

ولا ريب ، فقد أغرق صنم الحكم الاستبدادي المطلق في بحر من الدماء ، ولكن الإنجليز لا يرون أنهم اشتروا القوانين العادلة الصالحة بثمن باهظ ، فهناك أمم أخرى مرت بمحن وأوقات عصيبة لا تقل عما عاناه الإنجليز ، ولكن الدماء التي أريقَت دفاعاً عن قضية الحرية لم تكن إلا تثبيتاً لعبوديتها^(١٦)

إن حق التحقيق في قانونية حبس التهم في إنجلترا يحرم السجن دون قضية محددة ، ويتطلب محاكمة علنية ، بواسطة المحلفين ، أما في فرنسا فهناك « الأوامر السرية المختومة » . وقبل مونتسكيو بأربعة عشر عاماً ، رأى فولتير « فصل السلطات في الحكومة الإنجليزية وامتدحه وبالغ فيه ، كما رأى تنسيق العمل بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العهوم . وأشار فولتير إلى أنه لا يمكن فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان » « وأنه لا يعفى أحد من ضرائب معينة . . . لأنه نبيل أو كاهن . »^(١٧) وفي إنجلترا يشتغل صغار أبناء النبلاء بالتجارة وبمختلف المهن ، أما في فرنسا فإن التاجر غالباً ما يسمعون يتحدثون عن مهنته في ازدراء واحتقار ، حتى يبلغ به الحق إلى حد الشعور بالخزي والعار من الاشتغال بالتجارة . ولست أدري أيهما أنفع للدولة — نبيل متأنق يعرف بالضبط متى يصحح الملك من نومه أو يأوى إلى فراشه ، ويستشعر العظمة حين يقوم بدور العبد الرقيق . . . أو رجل أعمال (مثل فوكنر مضيف فولتير في لندن ، يثرى وطنه ويصدر الأوامر من مكتبه إلى سورات والقاهرة ، ويسهم في اسعاد العالم بأسره^(١٨)) وأخيراً في قطعة تضمنت برنامجاً لفرنسا ذهب فولتير إلى : « أن الدستور الإنجليزي بلغ قمة التفوق وكان من نتيجة ذلك أن كل الناس استعادوا حقوقهم الطبيعية ، على حين أنهم محرمون منها في سائر الملكيات تقريباً . وهذه الحقوق هي الحرية الكاملة في أشخاصهم وفي ممتلكاتهم : حرية الصحافة حق المحاكمة بناء على نص صريح في القانون ، وحق كل إنسان في اعتناق العقيدة التي يرتضيها دون إزعاج . »^(١٩)

ولا بد أن فولتير عرف أن فريقاً من الناس فقط هم الذين تمتعوا بهذه الحقوق الطبيعية « وأن الحرية الشخصية لم تتحرر من خطر الرقابة الصحفية ،

وينصرفوا إلى دراسة نيوتن . إن حكم الرأي العام في إنجلترا على هذين المفكرين هو أن أولهما كان حالما والثاني حكما . وقدر فولتير أعظم تقدير إضافات ديكارت إلى الهندسة ، ولكنه لم يستغ الدوامات الكونية عند ديكارت . إنه أقر بأن ثمة شيئا وهما غامضا ، أو على الأقل مخدرا في مقالات نيوتن عن الكرونولوجيا القديمة (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تاريخ الأحداث) وسفر الرؤيا ، وأوحى فولتير بشكل لطيف بأن نيوتن كتب هذه المقالات ليعزى البشرية عن تفوقه البالغ عليها ^(٢١) إنه وجد أن نيوتن ما زال عويضا يصعب فهمه ، ولكن اجتماع الرجال البارزين في الحكومة وفي ميدان العلوم لتشجيع جنازته ترك في نفسه أثرا عقد معه العزم على دراسة قوانين نيوتن ، وعلى أن يكون رسول نيوتن إلى فرنسا ، وهنا أيضا غرس فولتير بذور دائرة المعارف وعصر التنوير .

وأخيرا صدم فولتير الفكر الديني في فرنسا بنقد لاذع وجهه إلى آراء بسكال . إنه لم يقصد تضمين هذا في رسائله ، فليس لهذا علاقة بإنجلترا ، ولكنه كان قد أرسله من إنجلترا إلى تير ١٧٢٨ ، فألحقه الناشر اللص بالرسائل باسم الرسالة رقم ٢٥ ، وكانت النتيجة أن الجانسنين - الذين قدسوا بسكال إلى حد العبادة ، وسيطروا على برلمان باريس - ، فاقوا الآن اليسوعيين (الذين لم يحبوا بسكال قط) في استنكار فولتير وشجبه وكان فولتير غير قابل أساساً للاتفاق مع بسكال حيث كان في هذه المرحلة (اللهم إلا في رواياته) عقلانيا متشدداً لم يكن قد وجد بعد مجالا للوجدان في فلسفته . وكان لا يزال شابا ممتلئا حيوية ونشاطا ينعم بالحياة وسط محنة البطولية ، ومن ثم عارض التشاؤم الجزوع الكتيب عند بسكال « ولسوف أتجاسر فأقوم بدور الجنس البشرى ضد هذا المبغض للبشر المهيب » ^(٢٢) ورفض « رهان » بسكال (أى أنه من الأحكم أن نراهن على وجود الله لا العكس) باعتباره عملا صبيانيا يحافى الحشمة والوقار . . . إن اهتمامي بالاعتقاد بشيء ليس برهاناً على أن هذا الشيء موجود ^(٢٣) ولم يعرض بسكال الرهان (على أنه برهان) وسلم بأنه ليس في مقدورنا أن نفسر الكون أو نعرف قدر

وأنه كانت هناك حدود وقيود على حرية الكلام في الدين وفي السياسة ، وأن المنشقين والكاثوليك كانوا مستبعدين من الوظائف العامة . وأنه كان من الميسورة في إنجلترا رشوة القضاة ليتجاهلوا القانون . إن فولتير لم يدون وصفا نزيها لواقع إنجلترا . أنه كان يستخدم إنجلترا سوطا يحرك به الثورة في فرنسا ضد ظلم الدولة أو الكنيسة . أن كون كل هذه الحقوق تقريبا أصبحت الآن قضية مسلما بها في البلدان المتحضرة يفضي على ما أنجزه القرن الثامن عشر روعة وجلالا .

ولا يقل عن هذا أهمية في أثره على الفكر الحديث امتداح فولتير لبيكون ولوك ونيوتن . إنه قال عن بيكون الذي اتهموه وجرحوه ما حكم به بولنجيزوك على مالبرو « إنه رجل بلغ من العظمة حدا لا أستطيع معه أن أتذكر هل كان له أخطاء أم لا » (٢٠) ثم أردف يقول « إن هذا الرجل العظيم بيكون هو أبو الفلسفة التجريبية لا من أجل التجارب التي قام بها ، بل بما وجه من نداءات قوية للهوض بالبحث العلمي . وتلك هي الفكرة التي حدث بديدرو ودالمبرت إلى القول بأن بيكون هو أول من أوحى إليهم بدائرة المعارف التي وضعوها .

وخصص فولتير لجون لوك كل الفصل الثالث عشر تقريبا . إنه لم يجد فيه مجرد علم العقل بدلا من أسطورة النفس ، بل وجد فلسفة كامنة كاملة حتى أنه بارجاعه كل المعرفة إلى الشعور ، حول الفكر الأوربي عن الإلهام الإلهي إلى الخبرة الإنسانية ، باعتبارها المصدر الوحيد للحقيقة وأساسها . ورحب برأى لوك في أنه يمكن تصور إن المادة يمكن تمكينها من التفكير وغصت بهذه العبارة بالذات حلق رجال الرقابة الفرنسية ، وكان لها أثر كبير في الحكم على الكتاب وادانته . ويبدو أنهم تنبأوا فيها بمادية لامتري وديدرو . ورفض فولتير أن يسلم نفسه إلى المادية ، ولكنه عدل عبارة ديكارت « أنا أفكر إذن أنا موجود » إلى « أنا جسم وأنا أفكر ولا شيء غير هذا » .

أشارت الرسالة الرابعة عشرة على الفرنسية ، أن تخلصنا من ديكارت

الإنسان ، ولكنه ارتاب في أننا نستطيع من هذا الجهل أن نستنتج صدق قانون الإيمان المسيحي الذي جاء به الرسل . كما أنه لم يحس في هذا العصر المرح المفعم بالحياة بأى تعاطف مع تطلع بسكال إلى الراحة والدعة ، حيث نادى بأن الإنسان « خلق ليعمل . . . فعدم العمل وعدم الوجود سيان بالنسبة للإنسان »^(٢٤) .

وليست « ملاحظات على أفكار بسكال » أفضل ما كان يمكن أن تجود به قريحة فولتير . إنه لم يكن قد أعدها للنشر ، ولم يكن لديه الفرصة لمراجعتها وتنقيحها . وقضت الأحداث اللاحقة — مثل زلزال لشبونه — على نصارة تفاؤله الفتي . وعلى الرغم من هذا الملحق غير المدروس وغير الجدير بالاعتبار ، فإن « الرسائل الفلسفية » كانت أحد المعالم البارزة في الأدب الفرنسي والفكر الفرنسي . فهنا لأول مرة ظهرت الجمل الموجزة الدقيقة والوضوح المبين والذكاء المرح والتهكم اللاذع ، وأصبح كل هذا منذ الآن طابعا أدبيا مميذا يتجاوز ويتجاهل الحرص على إنكار اسم المؤلف . إن هذا الكتاب ، وكتاب الرسائل الفارسية حددا أسلوب النثر الفرنسي من عهد الوصاية إلى عصر الثورة . وفوق هذا فإنها أحكت حلقة من أقوى الحلقات في الربط بين المفكرين الفرنسيين والإنجليز ، وهي كما قدر بكل « أهم حقيقة إلى حد بعيد في تاريخ القرن الثامن عشر »^(٢٥) إنها كانت بمثابة إعلان حرب ومخطط شن حملة . وقال روسو عن هذه الرسائل إنها قامت بدور كبير في إيقاظ عقله . ولا بد أن آلافا من شباب فرنسا دانوا لها بمثل هذا الفضل . وقال عنها لافاييت أنها صيرته جمهوريا وهو في التاسعة من عمره . ورأى هين « إنه لم يكن لزاما على رقيب المطبوعات أن يصادر هذا الكتاب حيث كان لا بد من قراءته بغير هذا الإجراء »^(٢٦)

وأحست الكنيسة والدولة والملك والبرلمان أنهم لم يعودوا يطبقون صبرا على مثل هذه الجراح الكثيرة في صمت ، فأرسل صاحب المطبعة إلى سجن الباستيل ، وصدر أمر سرى مختوم بالقبض على فولتير أينما وجد . وفي ١١ مايو ١٧٣٤ ظهر أحد رجال الشرطة يحمل أمرا بالقبض عليه . ولكن من

المحتمل أن موبرتوى ودار جنتال كانا قد حلرا فولتير فغادر فرنسا قبل ذلك بخمسة أيام . وبناء على أمر من البرلمان في ١٠ يونيو أحرق كل ما وجد من نسخ الكتاب بيد مأمور التنفيذ العام في فناء قصر العدل باعتباره عملاً شائناً يناهز الدين والأخلاق القومية ويتعارض مع الاحترام الواجب للسلطات العامة .

وقبل معرفة المركيزة دى شاتيليه بوصول فولتير سالما إلى اللورين كتبت إلى صديق لها : « أنا لا أطيق صبراً على مجرد علمي بأنه في السجن وهو في مثل هذه الصحة والعافية وقوة الخيال . وأنا لا أحبذ ذلك مطلقاً » . وأجمعت هذه السيدة والدوقة دى بشيليو وغيرهما من السيدات ذوات المكانة الرفيعة أمرهن على العمل معاً للحصول على عفو عنه . ووافق حامل الاختام على إلغاء أمر القبض إذا أنكر فولتير تأليفه للكتاب . لكن تلك كانت خدعة لأنه علم علم اليقين أن فولتير هو المؤلف . وكان حامل الاختام هذا أحد موظفي الحكومة الذين لطفوا من حدة الرقابة من آخر بالأعضاء عما في الكتاب من مأخذ . ووافق فولتير فوراً على إنكار أنه المؤلف . وهذه كذبة بيضاء من الممكن الصفح عنها بسهولة . فضلاً عن أن الكتاب الذي برئ من تأليفه وزع دون موافقة . وكتب فولتير إلى الدوقة دى ايجوبون :

يقولون إنه يجب على أن أراجع . . . بكل سرور . . . سأعلن أن بسكال على حق دائماً وأن القساوسة مهذبون وديعون منزهون عن الغرض « وإن الرهبان ليسوا متغطرسين ولا منصرفين إلى تدبير الدسائس ، ولا حقراء وأن محاكم التفتيش المقدسة هي انتصار للإنسانية والتسامح » (٢٧) .

والغني أمر القبض على شرط أن يبقى فولتير بعيداً عن باريس . فتقل من قصر إلى قصر قرب حدود المدينة ورحب به النبلاء الذين لم يتمسكوا كثيراً بأهداف الدين ، كما لم يميلوا مطلقاً إلى الحكومة الملكية المركزية المستبدة وتلقى دعوة بالإقامة في بلاط هولشتين مع معاش قدره عشرة آلاف فرنك سنوياً ولكنه رفض (٢٨) وفي يولييه أوى إلى قصر ملام دى شاتيليه في سري

في شمعانيا . وهناك وهو الضيف الذي يتحمل نفقات عشيقته وروجها بدأ
أسعد سني حياته .

٣ - أنشودة الحب في سيرى ١٧٣٤ - ١٧٤٤

سيرى الآن قرية عدد سكانها ٢٥٠ شخصاً في مقاطعة المارن الأهل في
شمال شرق فرنسا على بعد بضعة أميال من اللورين ، وصفتها مدام دنيس
ابنة أخى فولتير ١٧٣٨ بأنها منعزلة موحشة على بعد أربعة فراسخ من
العمران في منطقة لا يرى المرء فيها شيئاً غير الجبال والأرض غير المزروعة (٢٩)
وربما أحبا فولتير لأنها بقعة هادئة حيث يستطيع أن يتفرغ فيها للدراسة
العلوم وكتابة التاريخ والفلسفة ، وتنساه الحكومة الفرنسية . أما إذا لاحقته
فلأنه يستطيع الانطلاق منها هرباً إلى اللورين في ظرف ساعة واحدة .

وكان القصر ظللاً متهدماً من مخلفات القرن الثالث عشر . قلما أقام فيه
آل شاتيليه ولم يكن يصلح للسكنى منذ أمد بعيد ، ولم يهتم المركز باصلاحه ،
أو لم يكن لديه المال لهذا الغرض ، فأقرضه فولتير ٤٠ ألف فرنك بفائدة
قدرها ٥ ٪ للقيام بالاصلاحات اللازمة ولم يطالب المركز قط بسداد هذا
القرض . وأعدت بعض غرف شغلها فولتير ، وأمر ببناء جناح جديد ،
وأشرف على ترميم بقية القصر . وفي نوفمبر وصلت المركيزة ومعها مائتا
حقيبة من الأمتعة ، وعدلت من إصلاحات فولتير بما يتناسب مع ذوقها
الخاص ، وأقامت هناك - وهي التي كانت قضت معظم سني شبابها بين
الحاشية الملكية أو قريباً منها - منصرفة إلى الدراسة مع زوجها وعشيقتها
في وقف معا . وأقام المركز اللطيف معها ومع فولتير بين الحين والحين
حتى ١٧٤٠ ، محتفظاً لنفسه في لباقة بشقة خاصة به وبمواعيد خاصة لتناول
الطعام وحده . وبعد ذلك قضى معظم وقته مع كتيبته . وكانت دهشة فرنسا
وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها باخلاص العشيقين .

وفي ديسمبر عادت مدام شاتيليه إلى باريس وزارت الدوقة رويشيليو
في معتقلها ، وأقنعت الحكومة بإلغاء الأمر باقصاء فولتير عن العاصمة
(٢ مارس ١٧٣٥) فقصده إلى باريس وأقام فيها عدة أسابيع مع خليلته ،

ولكن ماضيه لاحقته . فإن أجزاء من شعره الفاجر كان يتناقلها الناس . ولم ينالك هو نفسه قراءة بعض قطعه القوية على أصدقائه . كما نشر أحد الناشرين اللصوص « رسالة إلى أورانيا » . وكان فولتير قد كتبها قبل ذلك بخمسة عشرة سنة . وقد هاجم فيها المسيحية ، فأنكر أنه مؤلفها بطبيعة الحال ولكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره . ولم يصدق إنكاره أنه المؤلف ، فهرب ثانية إلى اللورين ، ومنها في حيلة وحذر إلى سبرى . وتلقى من الحكومة تأكيدات عن طريق غير مباشر بأنه إذا ظل هناك دون أن يرتكب أية مخالفة أخرى فلن يعكر صفوه أحد . ولحقت به مدام دي شاتيليه مع ابنتها وابنها ومعلمهما ، وكان طفلها الثالث قد مات . وهنا أخيراً بدأ شهر عسل فلسفى .

وكان لكل من الفيلسوفين مجموعة غرف خاصة به على جانبي القصر . وكانت شقة فولتير تتكون من حجرة انتظار ومكتب . مكتبة وحجرة نوم وكسيت الجدران ينسجج من المعمل الأحمر المنقوش ، وازدانت باللوحات التي اقتنى منها فولتير مجموعة ثمينة منها لوحة من رسم تيشيان وعدة لوحات من رسم تنيير . كما كان هناك تماثيل فينوس وكيوبيد وهركيوليز . ولوحة كبيرة لصديقها الجديد الأمير فردريك ولي عهد بروسيا . وعلى حد تعبير مدام جرافيني . كانت النظافة تامة في هذه الحجرات إلى حد « يمكن معه تقبيل الأرض » (٣١) أما جناح المركيزة فكان مختلفاً عن هذا ذوقاً: اللون الأصفر الناتج و اللون الأزرق الباهت مع لوحات من رسم فيرونيز وواتو ، وصورة السقف وإرضيته من الرخام . ومائة من الصناديق والزجاجات الصغيرة والخواتم والمجوهرات وأدوات الزينة متناثرة هنا وهناك في حجرة ملابسها الصغيرة . وبين مجموعتي الغرف كانت هناك قاعة كبيرة أعدت لتكون معملاً للفيزياء والكيمياء . فيها منضخات هواء ومقاييس حرارة وأفران وبوتقات ومنظار مقرب (تلسكوب) ومجهر (ميكروسكوب) ومنشورات وبوصلات وموازين . وكان هناك عدة غرف للزوار ، لم تكن مؤثثة تأثيثاً جيداً . وعلى الرغم من القماش المنقوش على الجدران كانت رياح الغابات

تتسأل إلى القصر من خلال الشقوق والنوافذ والأبواب . وكان لزاما لتدفئة هذا القصر إلى حد مقبول وجود ٣٦ مدفأة تستهلك في اليوم الواحد ستة (كوردات) من الخشب (التكور د = ٢٨ قدما مكعبا من الخشب) . ويمكن أن نتخيل عدد الخدم اللازمين له ، أضف إلى ذلك ميسرجا لأن فولتير كان يحب أن يمثل وبخاصة في رواياته هو وإنه ليؤكد لنا أن المركيزة كانت ممثلة بارعة ، وكان الضيوف والمعلم والخدم يحيطون بشخصيات الرواية ، ويقتوا بالأوبرا ، أحيانا لأن المركيزة (كما يؤكد فولتير مرة أخرى) كان موتها ملائكيا . كما كان هناك عروض لمسرج العرائس وعروض بالفانوس السحري ، قرنها فولتير بتعليقات أغرقت الحاضرين في الضحك .

ولكن اللهو كان طارئا أما العمل فكان نظاما يوميا . وكان العاشقان عادة ، يعملان منفصلين كل في نطاقه ، ولو أنهما تعاونا أحيانا في العمل ، وقلما كان الواحد منهما يرى الآخر في أثناء النهار إلا في وجبة الطعام الرئيسية عند الظهر تقريبا . وكان المركيز يترك المائدة قبل أن يبدأ الحديث . وغالبا ما انسل فولتير أيضا إلى مكتبه تاركا الآخرين يتسامرون . وكان له هناك أدوات مائدته الخاصة به لأنه يتناول طعامه وحده أحيانا . ولما نرى فيه بحق محدثا متممنا بالحوية ، ويمكن أن يكون محط الأنظار ومبعث الحياة في أى اجتماع يشهده ، ولكنه كان يكره الحديث السافه . وكان يقول « هذا الوقت الذى نقضيه في الحديث يزعجنى كثيرا ويجدر بنا ألا نضيع دقيقة واحدة ، إن أكثر ما نضيع هو الوقت »^(٣١) وكان يخرج أحيانا لصيد الغزال حبا في الرياضة .

وجدير بنا ألا ننسى الرفيقين الفيلسوفين على أنهما ملاكان ، فيمكن أن تكون السيدة جافة مستبلة بل قاسية بخيلة بعض الشيء عنيفة مقترنة مع خلصها وكانت تحتج إذا تقدم فولتير أجرا أكبر ، ولم يكن بها استحياء من شيء في جسمها ، فلم تكن تأبه كثيرا بلع ملابسها جميعا أمام مسكرتيهما لو نجشامب ، أو تكليفه بصب الماء الساخن عليها وهى في الحمام . وكانت

تطلع خفية على الرسائل التي يكتبها ضيوفها أو ترد إليهم ، وليس لدينا دليل على هذا إلا شهادة سيدة أخرى^(٣٣) أما فولتير فكان له مئات الأخطاء التي ستكشف في الوقت المناسب . كان شاعراً مزهوا وكان سريع الغضب والتجهم كأنه طفل ، وكثيراً ما هاجم عشيقته وتشاجر معها ، وما كان هذا الشجار على أية حال إلا سحب سيف تؤكد سادة أيامهما ، وسرعان ما كان فولتير يعود إلى هدوئه وابتسامته وابتهاجه . وما كان يمل الحديث عن سعادته وعن حبه لرفيقته بطريقته المأدبة . ونظم لها مائة قصيدة حب قصيرة كل منها تصوير بارع في فن محكم . وكانت إحدى هذه اللوحات الأدبية مع نخاتم من حجر كريم نقشت عليه صورته : « بنقش يبرز هذه القسمات ليقع عليها بصرك . أنظري إليها لتقرى عيناً بها . أما صررتك فهي منقوشة في أعماق قلبي بيد صناع أكثر حذقا وبراعة . »^(٣٤) .

أما هي فقالت لا أطيق فراقه لمدة ساعتين دون أن يحرقني الألم^(٣٥) . ومن بين العشيقين الفيلسوفين كانت هي أكثر انصرافاً إلى العلم وانكباباً عليه منه . ونفذت قانون سيادة المرأة غير المسطور في إخفاء مخطوطة كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » الذي لم يكمل بعد ، ووجهته بشدة إلى دراسة العلوم بوصفها الدراسة الحققة لرجل العصر الحديث . ووصفتها مدام دي جرانيني ، وكانت ضيفاً عليها في ١٧٣٨ ، بأنها أكثر مثابرة على أبحاثها العلمية من فولتير ، حيث كانت تقضي معظم النهار وجزءاً كبيراً من الليل في مكتبها . وفي بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة أو السابعة صباحاً^(٣٦) . وكان موبرتوى يأتي من حين لآخر إلى سبري ليتابع دووسه لها في الرياضيات والفيزياء . وربما كانت هذه الزيارات بالإضافة إلى إهجاب المركيزة السافر بسعة علم موبرتوى ، هي التي أثارت الغيرة في قلب فولتير الشديد الحساسية ، فأدت إلى الملائكة والشجار بينهما في برلين .

وهل كانت دي شاتيليه عالمة باحثة حقاً ، أم أنها اتخذت من العلم ميلاً للأناقة ومجاراة مقتضيات العصر . ورات مدام دي ديفان وبعض سيدات أخريات أن دراستها وأبحاثها كانت مجرد مظهر كاذب ، وزعمت المركيزة

دى كريكي « أن الجبر والهندسة اقتربا بها من حافة الجنون ، على حين أن تحذلقها وكلفها الشديد بموضوع دراستها جعلها لا تحتل . والواقع أن ذهنها تشوش بكل ما تعلمته أو عرفتته^(٣٧) ولكن استمع إلى مدام دى جرافيني وهي تصف لنا جلسة في سيري .

« في هذا الصباح قرأت علينا ربة البيت عملية هندسية لمؤلف إنجليزي حالم وكان الكتاب باللغة اللاتينية ؛ وقرأته علينا بالفرنسية ، وترددت لحظة عند كل عبارة ، وكأني بها تفهم العمليات الهندسية ، ولكن لا ، لأنها ترحمت بسهولة المصطلحات الهندسية والأرقام والألفاظ الغريبة ، ولم تتوقف في شيء . ألا يشير هذا الدهشة حقاً ؟^(٣٨) .

وأكد فولتير لتيريو أن مدام دى شاتيليه كانت تعرف الانجليزية جيداً ، وأنها عرفت كل مؤلفات شيشرون الفلسفية ، وكانت مولعة جداً بالرياضيات والميتافيزيقا^(٣٩) . وذات مرة بزت العالم الفيزيائي وعضو الأكاديمية دى ميربان في مناقشة عن الطاقة الحركية^(٤٠) وقرأت شيشرون وفرجيل في الأصل اللاتيني وأريستو وتاسو بالإيطالية ، ونيوتن بالانجليزية ، وعندما زار الجاروتي سيري تحدثت معه بالإيطالية . وكتبت ولكن لم تنشر كتاباً من ستة مجلدات عن دراسة « سفر التكوين » ، مبنية على أعمال الربوبيين الانجليز عرضت فيه للمتناقضات والأشياء البعيدة الاحتمال والأعمال غير الأخلاقية والأفعال الظالمة في الكتاب المقدس . وكانت رسالتها عن السعادة بحثاً أصيلاً عن أسس السعادة ، حيث رأت أن هذه الأسس هي الصحة والحب والفضيلة والانغماس الذاتي العقلاني ، ثم طلب العلم والمعرفة . وترجمت قوانين نيوتن من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشرف على طبعها كليرو ، ونشرت بعد وفاتها بست سنوات (١٧٥٦) . وألفت عرضاً موجزاً لنظام العالم نشر في ١٧٥٩ وأعلن فولتير ربما من قبيل الشهامة والود ، أنه يفوق كتابه « مبادئ فلسفة نيوتن » (١٧٣٨)^(٤١) وعندما أعلنت أكاديمية العلوم (١٧٣٨) عن جائزة لأحسن بحث عن طبيعة النار وانتشارها ، ودخل فولتير المسابقة كتبت هي مرا البحث وقدمته دون ذكر اسمها ، وكتبته في الليل لتعفيه عن فولتير (حيث أتى في بحثي عارضت كل آرائه تقريباً^(٤٢)) ولم يفز أي منهما بالجائزة التي حصل

أولر . ولمكن الأكاديمية طبعت مقاليلهما ، وامتدح كل منهما مقال الآخر في نشوة الحب العقلي .

ومن أجل موضوعه هو . قام بعدة تجارب بعضها في معمله وبعضها في مسبث في شومون المجاورة ^(٤٣) ودرس فولتير التكلس وكان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف الأوكسجين ^(٤٤) . ونراه في مايو ١٧٣٧ يكتب إلى الراهب موسينو في باريس يطلب إليه كيميائيا للحضور إلى سيري لقاء مائة جنيه سنويا مع الإقامة الكاملة . ولمكن كان على هذا الكيميائي أيضا أن يتلو القداس في أيام الآحاد والعطلات في كنيسة القصر ^(٤٥) . أنه من جانبه آمن الآن بالعلم وحده . وكتب في ١٧٤١ ينبغي أن نعتقد في صحة ما تكشف عنه لنا عيوننا وما تكشف عنه الرياضيات . أما فيما عدا هذا فيجدر أن نكتفى بالقول بأننا لا نعرف ^(٤٦) . فالفلسفة كانت تعنى عنده آنذاك خلاصة العلم :

وبهذا المعنى استخدم فولتير هذا الاصطلاح في مؤلفه « مبادئ فلسفة نيوتن » أملا في الترخيص الملكي بنشره ، ولكنه لم يجب إلى طلبه ، وظهرت منه طبعة في أستر دام (١٧٣٨) دون موافقته . وصدرت طبعته هو هناك في عام ١٧٤١ ، وكانت عبارة عن مجلد ضخم يضم ٤٤٠ صفحة ، نموذجاً رائعاً لما يسميه الفرنسيون «دون تعمد الانتقاض من قدره» تبسيطاً ، أي محاولة لتيسير فهم العويص الصعب منه إلى أكبر حد ممكن . وأضاف المشرف على الطبع عنواناً فرعياً وضع ليكون في معناول الجميع . وغير الراهب ديفوتين هذا العنوان الفرعي في نقد غير ودي إلى « عويص على كل الناس » وعلى النقيض من ذلك امتدح الجميع الكتاب بل أن اليسوعيين قبلوه بقبول حسن في صحيفة تريغو ^(٤٧) . وهنا طردت الجاذبية التكوينية التي كشفها نيوتن دوامات ديكارت من أذهان الفرنسيين . وشمل كتاب فولتير عرضاً لبصريات نيوتن ، وتحقيق من التجارب في معمله الخاص ، وحاول إجراء تجارب أخرى من عندياته ، وحاد عن طريقه قليلاً ، ليؤكد اتساق فلسفة

نيوتن مع الإيمان بالله . وفي نفس الوقت أكد شمولية التمانون في العالم المادى .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يكن لقولتير روح رجل العلم ولا تحديداته وقيل أنه أخفق في أن يكون رجل علم . وينبغى بنا أن نرجح القول بأنه كان شخصا ثريا متعدد الجوانب إلى حد لا يستطيع معه أن ينصرف إلى العلم كل الانصراف بصفة نهائية . أنه استخدم العلم وسيلة لتحرير العقل ، حتى إذا تم له ما أراد انصرف إلى الشعر والمسرحية والفلسفة بأوسع معانيها ، والانهماكات الانسانية في الشئون الأساسية في عصره . يجب أن نهى الطريق في حياتنا لكل أساليب المعرق والوجدان ونفتح أمامها الأبواب لتنفذ إلى نفوسنا ، فإذا لم تبدد هذه شذوذا فإن هناك مكانا فسيحا لكل شيء^(٤٨) وهكذا كتب في ذلك الوقت (١٧٣٤) بحث في الانسان ردد فيه إلى حد كبير آراء بوب في نفس الموضوع ، حتى إلى درجة أجازة فكرة غير قولتيرية كل شيء صواب^(٤٩) . ونظم في هذه السنوات معظم عادة أورليان (جان دارك) . وربما كان هذا انتجاعا لبعض الراحة من عناء نيوتن . وشرح فلسفته في رسالة في الميتافيزيقا . وقد رأى من الحكمة أن يحجم عن نشرها .

وكانت رسالة فذة مثل سائر انتاجه ، وبدأها بأن تخيل نفسه زائرا وافدا من كوكب المشترى إلى كوكب المريخ ، ومن ثم رأى أنه لا يتوقع منه أن يوفق بين أرائه وبين ما جاء به الكتاب المقدس . وحط رحاله بين كفار جنوب أفريقية . وينتهى إلى أن الانسان حيوان أسود الجلد شعره شبيه بالصوف ، ثم ينتقل إلى الهند ليجد أناسا صفر اللون ذوي شعر سبط غير مجعد ، فيستنتج أن الانسان جنس يتألف من عدة أنواع متميزة لا تنحدر كلها من أصل أو سلف واحد^(٥٠) ويحكم من مظاهر النظام في العالم ومن التركيب الهادف ذى المعنى في أعضاء الحيوان بأن هناك ربا ذكيا يصمم أو يركب صور الجميع . ولا يرى دليلا على وجود نفس خالدة غير فانية

في الانسان ، ولكنه يشعر بأن ارادته حرة . وقبل هيوم وآدم سميت بزمن طويل نرى فولتير يستمد روح الأخلاق من التعاطف بين الناس بعضهم مع بعض ، وقبل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل أيضا نرى فولتير يحدد الفضيلة والرذيلة بما هو مفيد وغير ضار بالمجتمع ^(١) وسنعود إلى هذه الرسالة فيما بعد .

وكم اختلفت هذه الرسالة عن الشعر المرح الذي نظمه فولتير في تاريخ جان دارك وأنا إذا فتحنا هذه الملحمة الساخرة اليوم فلا بد لنا أن يقفز إلى ذاكرتنا أن الكلام الفرنسي والأدب الفرنسي كانا أكثر تحمرا آنذاك منهما في النصف الأول من القرن العشرين . راقد رأينا نموذجا في الرسائل الفارسية للحاكم مونتسكيو ، بل أن ديدرو كان أكثر حرية لا في الجواهر المنظومة فحسب ، بل في جاك المؤمن بالقضاء والقدر كذلك . فإذا قورنت جان دارك بهذين الكتابين كما نشرها أخيرا فولتير في ١٧٥٦ ، لوجدناها معتدلة بشكل محمود . ومن المحتمل أن الأصل الذي جرى تداوله سرا كان أقرب إلى أسلوب رابليه ، ودافع كوندرسيه الوقور الرزين عن القصيدة وروى أن ما لشرب وهو أحد كبار موظفي الحكومة الفرنسية حفظها عن ظهر قلب ^(٢) ، ووجد في القسم الحادي والعشرين من القصيدة بعد بحث مجهد ، بعض أبيات معتدلة في فسقها وشهوانيتها يمكن التجاوز عنها مثل الصور الشبيهة بها عند آريوستو ، وقد عوض عنها بقطع كثيرة تقدم وصفا رائعا وسردا بارعا ، وكان فولتير مثل كثير من الفرنسيين في زمانه يرى في جان دارك بتا فلاحا بريئة ساذجة ، وربما كانت ابنة غير شرعية استسلمت للخراقات واعتادت سماع (الأصوات) ، وارتاب في أن فرنسا كان لا بد أن تنقذ من الغزو الانجليزي حتى ولو لم تولد هي قط . وفيه عدا هذا ومع التسامح في بعض الأخطاء التاريخية ، فإنه روى القصة بأمانة مع تلميحها ببعض الدعابة ومال الملك برأسه نحو جان الباسلة التي لا تهاب شيئا ، وقال في صوت مهيب يرهبه الجميع إلا هي وحدها ، أنصتي إلى يا جان ، إذا كنت عذراء حقا فأقسمي اليمين ، فأجابت : مولاي العظيم ،

أصدر أوامرك الآن إلى الأطباء الحكماء الخبيرين بأسرار النساء ونظاراتهم على أنوفهم ، ورجال الدين والصيادلة وكبيرات الممرضات الخبيرات ليجتمعوا على الفور للفصل في الأمر ، فليدققوا النظر ويروا ومن هذا الجواب الحكيم عرف شارل أنها لا بد أنها ملهمة تلقت وحيا ، وأنها تتمتع بنعمة العذوية المقدسة المباركة ، ثم قال الملك حسنا يا ابنة السماء ، ما دمت تعرفين كل شيء فأخبريني ماذا حدث بيني وبين زوجتي في الفراش في الليلة الماضية؟ فتوسل إليك تحدثي بصراحة ، فقالت جان لا لم يحدث شيء . فدهش الملك وركع وصاح بصوت عال : أنها معجزة ، ثم رسم علامة الصليب وانحنى احتراما واجلالا ٥٣ .

وقرأ فولتير على ضيوفه مقطعا أو مقطعين من جان دارك رغبة في تسليتهم ، وليبعث الدفء في أمنيات الشتاء الباردة . وكانت مدام دي شاتيليه تحتفظ بالخطوطة الضخمة في خزانة أمين ، وسمح فولتير في استخفاف وإهمال بتداول بعض الأجزاء بين أصدقائه ونسخ بعضها وتناقلها المجتمع غير المهذب على نطاق أوسع مما كان من الحكمة أن يكون . وكان الخوف من أن تقاضيه الحكومة الفرنسية — لا بسبب فحش القصيدة بل بسبب الهجاء اللاذع في بعض أجزائها للرهبان واليسوعيين والأساقفة والبابوات ومحاكم التفتيش — من بواعث القلق والهموم التي أقضت مضجعه وعكرت عليه صفو حياته .

وكان فولتير أكثر جدية ووقارا في الزير Alzire ، التي بدىء بعرضها بشكل يدعو إلى السعادة والابتهاج على المسرح الفرنسي في ٢٧ يناير ١٧٣٦ . وحققت التاريخ المسرحي بارتداء الممثلين الثياب التي كانت سائدة في الزمان والمكان المحددين لأحداث الرواية — الغزو الأسباني لدولة بيرو وسلبها ونهبها . وبتوسل الفاريت الحاكم الأسباني للبلد المغلوب على أمره إلى المنتصرين أن يضعوا حداً لقسوتهم وجشعهم فيقول « نحن سوط العذاب الذي انصب على هذه الدنيا الجديدة ، نحن عابثون جشعون ظالمون . . . نحن المتبربرون وحدنا هنا أما المتوحشون السذج البسطاء ، ولو أنهم عنيفون

بطبيعتهم . فانهم شجعان بواسل مثلنا ، ولكنهم يفوقوننا في الميل إلى الخير وطيبة النفس ^(٥٤) . وصفت باريس لهذه الرواية لمدة عشرين ليلة متوالية ودفعت ٥٣٦٤٠ جنيهها . وتنازل فولتير عن نصيبه من دخل الرواية للممثلين .

وفي ٨ أغسطس ١٧٣٦ تلقى فولتير أول رسالة من فردريك ملك بروسيا ، ومن هنا بدأت مراسلات مشهورة وصداقة فاجعة . وفي نفس العام نشر قصيدة « الرجل الدنيوى » وكأنما كانت ردأ مسبقاً على رسالة روسو « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥١) أن فولتير ضاق ذرعاً بالخالطين الواهمين الذين يصفون المثالية على الإنسان البدائى غير المتمدن الودود الصاعد « أو يحبذون الرجوع إلى الطبيعة » هرباً من الانفعال وتوتر الأعصاب والنفاق والخداع فى الحياة الحديثة . إنه هو نفسه كان مستريحاً وسط ما يعانى من بلايا ومحن ، ورأى أنه كان لزاماً عليه أن يقول كلمة طيبة فى المدنية انصافاً لها . إنه لم يجد أية فضيلة أو ميزة فى الفقر ، أو أى انسجام بين الجرائم والحب وربما كان البدائيون شيوعيين ، وهذا فقط لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً . وإذا اتسموا بالاعتدال والقصد والرزانة فما ذاك إلا لأنهم لم يكن لديهم خمور ، وأنا من بجانبى أحمد للطبيعة الحكيمة أنها من أجل سعادتي أنجبتني فى هذا العصر الذى يحط من قدره نقادنا الذين تعرفهم الكتابة والانقباض . إن هذا الزمن الدنس ملائم لكل الملاءمة لحياتى فأنا أحب الترف والبدخ بل الحياة الناعمة وكل الملذات والفنون على اختلاف أنواعها ، والنظافة والذوق والزينة والزخرفة وبدا له كل هذا مفضلاً لديه بشكل واضح على جنات عدن « أبى العزيز آدم ، اعترف أنك ومدام حواء كانت لكما أظفار طويلة سوداء بما فيها من أقدار ، وان شعره كما كان أشعث أخبر إلى حد ما وعبنا حاول العلماء أن يعينوا مكان جنة عدن . . . إن جنة الأرض هى التى أعيش فيها أنا الآن .

ولم ترق فى أعين رجال الدين الصورة التى رسمها فولتير لآدم وحواء ، وأصرروا على أن سفر التكوين تاريخ صحيح ، ولم يقرروا فولتير على ما جاء

به عن أظافر آدم وشعر حواء ، وتعالى الأصوات مطالبة بالقبض على
شيطان سبرى الكافر . وحذره الأصدقاء مرة ثانية ، فاعتزم الرحيل .
وفى ٢١ ديسمبر ١٧٣٦ غادر سبرى وامبلى ، قاصدا بروكسل متنكرا فى زى
التاجر ريفول . وسخر المعجبون به هناك من تنكره ومثلوا مسرحية آلزير
تكريماً له . وحذر جان بابتست أهل بروكسل من أن فولتير حاء إليهم
ليبشر بالإلحاد ، فانتقل إلى ليدن حيث احتشدت الجماهير لرؤيته ، ثم إلى
امستردام حيث أشرف على طبع كتابه عن نيوتن ، وساور المركيزة آنذاك
الخوف من أنه لن يعود إليها مطلقاً ، فكتبت إلى دار جنتال : « منذ اسبوعين
فقط كنت أتعذب لعدم رؤيته لمدة ساعتين اثنتين ، وكنت أكتب إليه من
غرفتي إلى غرفته ، ومضى الآن أسبوعان لا أعرف أين هو ولا أعرف
ماذا يفعل . . . أنا فى حالة يرثى لها » . وأخيراً عاد (مارس ١٧٣٧)
وهو يقسم أنه لولا حبه لها لما أقام فى فرنسا التى تلاحقه وتطارده على
هذا النحو .

وفى مايو ١٧٣٩ عاد العشيقان إلى بروكسل حيث استخدم فولتير كل
مواهبه القانونية وغيرها فى قضية تتعلق بملكيات المركيزة . ثم قصد هو
وزوجها إلى باريس حيث قدم فولتير روايتى محمد وميروب إلى مسرح
الكوميدي فرانسيز ، وحيث رأت السيدة شاتيليه فى المطبعة مجلداتها الثلاثة
عن « قوانين الفيزياء » وفى هذه الدروس « تهربت من فولتير ونيوتن
كليهما مؤثرة عناصر الوجود الأولية فى فلسفة لينتز . وفى سبتمبر عادوا
إلى سبرى ، ثم قصصوا بعدها إلى بروكسل لاقامة طويلة ، ومنها فى سبتمبر
١٧٤٠ أسرع فولتير إلى كليف Cleves لأول لقاء له مع فردريك ، وكان
قد أصبح ملكاً ، ورفض أن يدعو إمبلى معه . وفى نوفمبر قطع مسافة
١٥٠ ميلاً مرهقة قاصداً برلين ليقوم بمهمة دبلوماسية للكاردينال فليرى ،
وسنعود إلى تفصيل هذه المهمة فيما بعد . وذهبت إمبلى فى نفس الوقت
إلى فونتنبلو حيث بذلت جهداً كبيراً فى الحصول على إذن لفولتير بالإقامة
فى باريس ، وواضح أن سبرى أصبحت عبئاً لا يطاق . وفى ٢٣ نوفمبر

كتبته إلى دارجنتال : لقد لقيت جزاء منار على كل ما فعلت في فونتنبلو ،
لقد ذلت كل العقبات ، وحصلت لفولتير على حق العودة إلى بلده دون
 قيد أو شرط ، ووفقت بينه وبين الوزارة ، ومهدت الطريق لقبوله في
الأكاديمية ، وصفوة القول أني في ثلاثة أسابيع استطعت أن أعيد إليه
كل ما فقدته في ستة أعوام . فهل تعلم كيف كافاني على مثل هذا الاخلاص
والغيرة ؟ أنه أبلغني في رسالة جافة أنه قصد إلى برلين ، وهو يعلم علم اليقين
أنه يحطم قلبي ويعذبني عذابا لا يوصف ... لقد انتابني الحمى . . . وآمل
أن أفارق الحياة وشيكا ... وهل تصدق أن الفكرة التي تستبد بعقلي حين
أحس بأن الحزن سيقتلني ، هي فكرة الأمل العميق الذي ينتاب فولتير
لموتى ؟ ... أني لا أطيق أن أفكر في أن ذكرى سوف تسبب له يوما الشقاء
والألم ، ويجدر بكل الذين أحبه أن يكفوا عن لومه .

وانتزع فولتير نفسه من جو النفاق الملكي ليلحق بعشيقته ، وفي طريق
عودته بعث إلى فردريك برسالة يوضح فيها وجهة نظره في الموضوع :

« إنني أترك ملكا عظيما بكرم ويشجع فنا أعجب به إلى حد التأليه ،
لألحق بسيدة لا تقرأ شيئا إلا ميتا فزيقا وولف المسيحي (شارح ليبنتز) .
أنى أنتزع نفسي من أعظم حاشية أمتاعا وإيناسا في أوروبا من أجل قضية
قانونية . أنى لم أترك حاشيتك الفاتنة الجديرة بالحب لأتهد واتأوه مثل
أحق معنوه بين يدي امرأة ، ولكن هذه المرأة يا مولاي هجرت من أجل
كل شيء ، مما يتخلى سائر النساء عن أصدقائهن من أجله . أننى أسير فضلها
في كل شيء أن الحب غالبا ما يكون سخيلا مضحكا ، ولكن الصداقة
الخالصة والود الصافي لهما حقوق يرتبط المرء أكثر مما يرتبط بأوامر
الملك (٥٦) .

والتقى ثانية باميل في بروكسل التي أصبحت بلدهما الثاني بسبب طول
الاجراءات في قضيتها . وفي مايو ١٧٤١ شهدا العرض الأول لرواية محمد
في ليل ، ولقيا ترحيبا حماسيا . وعادا إلى بروكسل مزهوين مبتهجين ،
ولكن عكر صفوهما شعور بأن جنوة الغرام قد بدأت تنطفئ . وكان حبها

لا يزال قويا . ولو أن جوهر هذا الحب كان الرغبة في التسلط والسيطرة . ولكن شعلة الحب عند فولتير بدأت تشحول إلى قلمه . وفي يولية ١٧٤١ اعتذر لها عن غيرته التي أخذت تذوى وتذبل : « إذا وددت أن أستمع على الحب فعليك أن تغيدى إلى مسافات من زمان الحبيبين ، أعيدى إلى إذا كان في مقدورك ، فجر الحياة ، وهى فى غسق المساء ، نحن نموت مرتين ، وأنا ألحظ هذا جيدا . إنه موت لا يطاق أن نتوقف عن الحب ونحن جديران به ، أما توقف الحياة نفسها فهو أمر قافه لا قيمة له » .

وفي أغسطس ١٧٤٢ قصدا إلى باريس ليشهدا العرض الأول لرواية « محمد » فى المسرح الفرنسى . وكان فولتير قد سعى للحصول على إذن رسمى من الكاردينال فلبرى بتمثيلها ، فأجابه إلى طلبه . وكان هذا العرض الأول (١٩ أغسطس) الحدث الأدبى لذاك العام ، وشهده كثير من الحكام ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذى اكتظ به المكان . وبدأ أن الجميع راضون عن المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا « هجوما عنيفا على المسيحية » وانضم فريرون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى . وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس بأن هؤلاء النقاد سيثنون إلى قضيتهم ، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية ، وتم هذا بعد العرض الرابع من إقبال شديد على الرواية . وعاد فولتير واميلى أدراجهما إلى بروكسل ، وقد استبد بهما الغضب لخيبة أملهما .

وهل كانت رواية « محمد » هجوما على المسيحية ؟ ليس الأمر إلى هذا الحد . أنها كانت تهاجم التعصب الأعمى والتزمت ولكنها صورت الرسول فى صورة غير ودية ربما أثلجت صدور المسيحيين الأبرياء من التاريخ ومن سوء النية فيه . أنه صور الرسول مخادعا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل أيمانهم فى استئثارهمهم فى القتال ، ويغزو مكة ، بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذى يقاوم هذا الغزو وعندما يتردد سعيد يؤيبه محمد فى عبارات بدت

لبعض المستمعين وكأنها تهريش برجال الدين المسيحيين : فهو يقول :
« وأنت أيضًا تتردد ؟ أنها الشباب الجريء ، إنه لمننا يتنافى مع الدين أن
تتردد ؛ إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الأيمان . بمحمد ، إن عليك
أن تمثل . إن إرادة الله تقضى بذلك . ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد
هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا ، وهو الذى امتثل لصوت الله وأحمد
صبيحات الطبيعة بين جنبيه ، وتخلّى عن ولده العزيز !! أن الله العلى القدير
نفسه هو الذى يطلب إليكم أن تضحوا ، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتال ،
ومن ذا الذى يتجرأ فيتردد في تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال ؟ فاضربوا
إذن فوق الأعناق . أن دم الشيخ زبير ينحولكم النعيم المقيم في الدار
لآخرة ^(٥٨) (*) .

ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذى يتبين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة
أن القاتل ابنه . وهذا بطبيعة الحال هجوم من فولتير على استخدام الدين
ذريعة لسفك الدماء واشعال نار الحرب . وهذا ما قصد إليه فولتير .
وفي رسالة إلى فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت بأسم الدين ، منها
قتل وليم أورانج وهنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا . ولكنه أنكر
أن المسرحية هجوم على الدين ، بل أنها دعوة إلى استمساك المسيحيين
بمبادئ المسيحية الحقة .

وفي سبتمبر ١٧٤٢ واساه الكردينال فليرى بإيفاده إلى فردريك ليحاول
توجيه سياسته إلى الصداقة مع فرنسا . وقصد فولتير مزهوا بدبلوماسيته
لزيرة الملك في آخن . وتبين الملك أهدافه ومراميه ، فرد على حديثه
السياسى شعرا ، وأعاد فولتير إلى باريس مع عشيقته أميلي والمسرحية .
وفي ٢٠ فبراير ١٧٤٣ أخرجت على الكوميدي فرانسيز أعظم رواياته ميروب
حيث لاقت نجاحا أخرس السنة أعدائه بعض الوقت .

(١) أثبتنا هنا ما ورد في الأصل الانجليزي من رواية فولتير . وواضح أنه أبعد
ما يكون عن جوهر الإسلام وتاريخه الصحيح ومشروعية القتال . ولكننا حرصنا على الأمانة
في النقل . (المترجم)

وكانت عدة مسرحيات قد كتبت بالفعل في نفس الموضوع ، منها مسرحية يوريبيدس التي لم يبق منها إلا شذرات قليلة وفي خطاب تمهيدى أقر فولتير بالفضل والعرفان لمركيز فرانكسكو صبيون دى ماني (وهو من فيرونا) الذي كان قد أخرج ميروب في ١٧١٣ . وكانت هذه المسرحيات تتميز بتحويل الاهتمام فيها إلى حب الوالدين لا إلى الحب الجنسي ويروون أن معظم الحاضرين سألت دموعهم في المشهد الأخير . ولأول مرة في تاريخ المسرح الفرنسي تعالت الأصوات تنادى بظهور المؤلف على خشبة المسرح ، وقيل إنه وافق وبذلك أوجد سابقة أسف لها لسنج أشد الأسف . وطبقاً لبعض المصادر الأخرى يقال أن فولتير رفض الظهور على المسرح على الرغم من حث الدوقتين اللتين جلس في مقصورتيهما ، وكل ما فعله أنه نهض واقفاً في مكانه لحظة رداً على التحية^(٥٩) ، وحكم فردريك بأن هذه المأساة من أحسن ما كتب من مسرحيات^(٦٠) . وذهب جييون إلى أن الفصل الأخير بفشارع أى فصل في مسرحيات راسين^(٦١) .

وقال من قيمة نجاح « ميروب » اخفاق فولتير في الفوز بمقعد في الأكاديمية الفرنسية . إنه سعى له سعياً متواصلاً إلى حد أنه أعلن نفسه كاثوليكياً حقاً ومؤلف عدة أبحاث أقرتها الكنيسة^{٦٢} . وأيده اويس الخامس عشر في بداية الأمر ولكن وقف في طريقه وزيره الجديد مورياس الذي احتج بأنه لا يليق أن تشغل نفس شريفة دنسة المقعد الذي خلا بوفاة الكاردينال فليرى . وشغل المقعد أسقف ميربوا . واستحث فردريك فولتير أن يترك البلد الذي لا يلتقى فيه عباقرته سوى هذا القدر الضئيل من التكريم ، ويحضر ليقم معه في بوتسدام . فاعترضت مدام دى شاتيليه وأشارت عليه الحكومة الفرنسية بقبول الدعوى لبعض الوقت والقيام بعملية التجسس في برلين . وهفت نفسه إلى الاشتغال بالسياسة ، فقبل الدعوى وقام ثانية بالرحلة المرهقة راكباً عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، وقضى في هذه المغامرة ستة أسابيع (٣٠ أغسطس - ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) ومرة أخرى سخر فردريك من سياسته وامتدح شعره ، وعاد فولتير إلى امبلي

في بروكسل . وفي أبريل ١٧٤٤ استأنفا مقامهما في سبى محاولين بعث غرامهما الميت إلى الحياة من جديد .

وفي «رسالة السعادة» كانت المركيزة ترى أن الرغبة في المعرفة هي إحدى الرغبات التي تسهم أكبر اسهام في سعادة الإنسان لأنها تجعلنا أقل اعتمادا بعضنا على بعض ومع ذلك تقول عن الحب : « إنه أعظم الأشياء الطبيعية التي هي في متناول أيدينا ، وهي الشيء الوحيد الذي نضحى من أجله بلذة الدرس والتحصيل . والمثل الأعلى في هذا المجال شخصان يفتن الواحد منهما بالآخر إلى حد لا تفتر معه عواطفهما ولا تصاب بالتخمة أبدا ، ولكن لا يمكن لإنسان أن يأمل في مثل هذا التآلف والانسجام بين شخصين ، لأن هذا شيء يفوق حد الكمال . فالقلب الأهل لمثل هذا الحب والنفس الوقية بالحببة إلى هذا الحد يجوز أن تخلق مرة واحدة كل قرن من الزمان (٦٣) .

وفي رسالة مؤثرة تلخصت نجليها عن هذا الأمل :

« قضيت عشرة أعوام سعدت فيها بحب الرجل الذي غزا قلبي . وقضيت هذه الأعوام العشرة في ارتباط وثيق به . . . وعندما انتقص امتداد العمر والمرض من تعلقه بي لم ألحظ هذا إلا بعد مرور فترة طويلة . إلى أحببته لسبيين ، قضيت حياتي كلها معه واستمتع قلبي الواصل بنشوة الحب ، بالإضافة إلى توهمي أنني أيضا جديرة بالحب ، وأفلت من يدي هذا الظرف السعيد (٦٤) .

وماذا حول فولتير من الحب والهيام إلى هذا الوفاء المتقطع ؟ ويبدو أنه كان صادقا في التذرع باعتلال صحته . ولكننا سنجد في بجر عام واحد يتأوه ويتهدد كالمعتوه بين يدي امرأة ، والحق أنه كان قد استنزف جانبا من حياته واهتمامه — مدام دي شاتيليه والعلم . إن العزلة في سبى ربما أورثت السأم والملل بسرعة ذهنا يافعا . ولم تكن نعمة وبركة إلا عند ملاحقة الشرطة له ؛ وعندما كان يدعو العلم إلى التفرغ له ، ولكنه كان آنذاك قد تذوق ثمانية ملذات باريس ومباهجها ، واستمتع بمشاهدة افتتاح

مسرحياته . بل كان يلعب دورا في السياسة القومية ، وأحس بسحر الحاشية ولو من بعيد . وأصبح صديقه المركيز دارجنسون الوزير الأول ، كما أصبح صديقه ومدينه الدوق دي ريشيليو الأمين الأول للملك . وكان لويس قد رقى له ولأن جانبه . وفي ١٧٤٥ كان الدوفين على وشك أن يتزوج من الأميرة الأسبانية مارييا تيريرا رافاييلا ، ولا بد أن تمام احتفالات ضخمه هذا الغرض ، فكلف ريشيليو فولتير بكتابة مسرحية لهذه المناسبة . وكان على رامو أن يكتب الموسيقى ، فيتعاون الملحن والشاعر في العمل معا ، وكان لزاما أن يحضر فولتير إلى باريس ، وفي سبتمبر ١٧٤٤ ودع العاشقان سيرا وانتقلا إلى العاصمة .

٤ - رجل البلاط : ١٧٤٥ - ١٧٥٨

بلغ فولتير آنذاك سن الخمسين وكان لوقت غير قصير يحضر في كل عام مرة . وكتب إلى تيريرو في ١٧٣٥ « من المؤكد أنه ليس أسمى إلا سنوات قليلة أعيشها »^(٦٥) . وكان قد بلغ آنذاك الحادية والأربعين ، وكان أمامه ثلاث وأربعين سنة أخرى ، فكيف تسنى له هذا ؟ عندما انتابته علة خطيرة في شالون في أعالي المارن (١٧٤٨) ، ووصف له أحد الأطباء بعض الأدوية ، قال فولتير ، كما يروي سكرتيره ، إنه لن يتبع شيئا من هذه التعليمات ، لأنه يعرف كيف يعالج نفسه في أيام الصحة والمرض على حد سواء . وسيظل طبيب نفسه كما كان دائما . وفي مثل هذه الأوقات كان فولتير يصوم لبعض الوقت ، ثم يأكل قليلا من الحساء الرقيق والخبز المحمص والشاي الخفيف والشعير والماء . ويستطرد سكرتيره لو نجشامب فيقول : « تلك هي الطريقة التي عالج بها فولتير نفسه فبرىء من سقمة الذي ربما أدى به إلى نتائج خطيرة لو أنه أسلم نفسه إلى أطباء شالون . كان مبدؤه أن صحتنا تتوقف علينا نحن ، وركائزها الثلاث هي القصد في الطعام والشراب وضبط النفس والاعتدال في كل شيء ، والتمرينات الرياضية البسيطة ، ففي كل الأمراض التي لا تكون نتيجة لأحداث خطيرة أو تكون لخلل أساسي في أعضاء الجسم الداخلية ، يكفي أن تساعد الطبيعة التي

تسمى جاهدة في شفافتنا ، وأن نلتزم في الغذاء بنظام دقيق لفترة طويلة إلى حد ما ، فتغذى على السوائل المناسبة والأغذية الخفيفة الأخرى . ورأيت دائما يلتزم بهذه القاعدة طيلة وجودي معه^(٦٦) .

وكان بارعا مثل رجال المصارف في إدارة أمواله واستثمارها . وكان مستوردا وشاعرا ومقاولا وكتبا مسرحيا ورأساليا وفيلسوبا ومقرضا للنقود وصاحب معاش ووارثا . وساعد صديقه دارحنسون على جمع ثروة من تموين الجيش^(٦٧) ، وكان قد ورث جزءا من ثروة أبيه وترك له موت أخيه أرمان (١٧٤٥) دخل بقية أملاك أبيه . وأقرض الدوق ريشيليو ودوق دي فلبار والأمير دي جيزوسيرهم مبالغ كبيرة ، ووجد عناء كبيرا في استرداد الديون ، ولكنه عوض عنها بالأرباح^(٦٨) . وفي ١٧٣٥ كان ريشيليو مدينا له بمبلغ ٤١٧ ر ٤٦ من الجنيهات دفع عنه الدوق أرباحا سنوية قدرها ٤٠٠٠ ر^(٦٩) جنيه « وفي حالة مسيودي بريزي غير الموثوق به كان فولتير يطلب فائدة قدرها ١٠ / ، واستثمر فولتير أكثر أمواله في سندات مدينة باريس التي تدر ربحا قدره ٥ / أو ٦ / ، وكثيرا ما أعطى تعليماته إلى وكيله للالحاح على مدينيه بالسداد : « أنه من الضروري يا صديقي أن تطالب مرة ومرتين وتلح وتراقب وتلحف في الطلب—ولكن لا تعذب المدينين من أجل إيرادى السنوى ومآخراقي^(٧٠) وفي ١٩٧٩ قدر سكرتير فولتير أن دخله السنوى بلغ ٨٠ ألف جنيه^(٧١) . ولم يكن فولتير ينبش الأرض بحثا عن المال ، ولم يكن بخيلا مقترا ، وكثيرا ما منح الأموال وقدم سائر المساعدات لشباب الطلبة ومد يد المعونة قولا أو فعلا إلى فوفينارج ومارمونتيل ولا هارب . وقد رأيناه يتنازل عن عائدات رواياته للممثلين ، وعند ما ضاع عليه أربعون ألف جنيه بسبب افلاس ملتزم عام كان قد أقرضه المبلغ واجه الأمر في هدوء ، ولم يثر أو يغضب . وذكر العبارات التي تعلمها في صغره « أعطانا الله ، وأخذ الله فليتقدس اسم الله » .

ولو أن فولتير أوتي مالا أقل ليستغله ويعنى به ، وكان أكثر بدانة أو أكثر لحما أكثر فوق عظامه ، فلربما كان أقل حساسية وعصبية وأقل نزقا

وانفعالا . وكان كريما حذرا حريصا على مشاعر الناس وحقوقهم . وكان عادة مرحا ودودا طلق المعيا مفعما بالحيوية والنشاط ، وكان أهلا للصدقة الحميمة الوثيقة . وما أسرع ما كان يغتفر أية اساءة لا تخرج كبرياءه ، ولكنه لم يكن يحتمل في صبر أى نقد أو عمل عدائى (وكان يقول أنى أحسد الحيوانات على شيئين ، جهلها بما قد ينتابها من مصائب بما يقال عنها^(٧٢)) وأثار ذكاؤه الحاد حفيظة كثير من الأعداء ، فحمل عليه فريرون وبيرون وديفونتين وهاجموا أراءه في عنف أشد من عنف رجال الدين في مهاجمته . ولسوف نسمع منهم شيئا فشيئا . ورد عليهم فولتير الضربات بمثلها على الرغم من نصيح مدام شاتيليه له بالتزام الصمت ، ووجه إليهم أقذع السباب والشتائم ، وجند أصدقاءه لشن الحملات عليهم . وكم وجدت المركيزه مشقة في منعه من الذهاب إلى باريس ليعنف ديفونتين أو يتحداه ، بل أنه فكر في مناشدة الرقابة أن يحظر نشر ما يكتبه ألد أعدائه . لقد كان في فولتير كل شوائب مناقبة ومزيد من الشوائب .

ووجد فولتير في رامو (الموسيقار) شخصا نزقا مزهوا سريع الغضب مثله . وكان تعاونهما في العمل امتحانا قاسيا لكل منهما : ولكن أخيرا اكتمل نص الأوبرا والموسيقى وقام الممثلون والموسيقيون بعمل تجربة للرواية . و ٢٣ فبراير ١٧٣٥ عرضت « أميرة نافار » - ولقيت ما كان مقدرا لها من نجاح . وبعد ذلك بشهر خصصت لفولتير حجرة في فرساي تقارب ما وصفه في رسائله الخاصة بأنها « أقدر حجرة في فرساي » وتبوأت مركيزة شاتيليه من جديد في الحاشية مكانها الذى كانت قد ضحت به من أجل فولتير . وحصلت آنذاك على الامتياز المذهل وهو الجلوس في حضرة الملكة . وكان في صعود نجم مدام دي بمبادور تدعيم لمركز فولتير فقد تعرف عليها حين كانت مدام دتوال ، وزارها في دارها ، وكتب في مديحها شعرا نافها ، وبناء على الحاج منها عينه الملك (أول ابريل) مؤرخ الملك براثب قدره ألفى جنيه في العام .

وسرعان ما اقتضت الظروف أن يثبت جدارته ووجوده . ذلك أنه في ١١ مايو ١٧٤٥ هزم الفرنسيون الانجليز في فونتنوى فطلب دار جنسون قصيدة

غنائية تخلد هذا الانتصار . ونظم فولتير ٣٥٠ بيتا من الشعر في ثلاثة أيام طبعت خمس طباعات على مدى أسبوعين . وأحب الملك فولتير افترة وجيزة ، وأصبح فولتير شاعر حرب . وزيادة في تخليد ذكرى النصر كلف فولتير ورامو باعداد أوبرا المهرجان . وأبرزت أوبرا « معبد المجد العظيم » أى تراجان - أى لويس الخامس عشر - عائدا من المعركة ظافرا منتصرا ، وخصص لفولتير في تلك الأمسية مكان على مائدة الملك ، وأكلا معا طعاما شهيا ، ولكن فولتير سأل ريشيليو في لهفة : هل تراجان راض ؟ ولكن الملك سمعه مصادفة ورأى أنه وقح جرىء بعض الشيء فلم ينبس إليه ببنت شفه .

وتمثل فولتير بمزيج من الشهرة والانتساب إلى الحاشية الملكية ، فبدأ حملة جديدة للانضمام إلى مجمع الخالدين (الأكاديمية الفرنسية) ولم يأل أى جهد في تحقيق مأربه . وفي ١٧ أغسطس ١٧٤٥ أرسل نسخة من رواية « محمد » إلى البابا بندكت الرابع عشر ، يسأله أن يهديها إليه . وفي ١٩ سبتمبر رد البابا اللطيف : سعدت الليلة الماضية بروايتك « محمد » التي قرأتها بشغف وسرور عظيم . وإنى لأقدر مواهبك أكبر التقدير ، وهذا أمر يعترف به الجميع ... وأنى لأكبر كل الأكار نبلك وإخلاصك ... وإنى هنا أمنحك بركتى الرسولية (٧٣) .

واغتبط فولتير بهذا الوسام أيما اغتباط حتى أنه كتب إلى البابا تقديرا حارا ختمه بقوله : بكل اجلال وتقدير واحترام أقبل قدميك المقدستين (٧٤) وأعلن إلى باريس تمسكه بالمذهب الكاثوليكي وإعجابه باليسوعيين ، وأطنب في مدائح لمدام بمبادور والملك . وتوسلت بمبادور إلى الملك وقبل الملك رجاءها . وأخيرا في ٩ مايو ١٧٤٦ وافقت الأكاديمية على انضمام أمير الشعراء في هذا العصر والكتاب المسرحيين فيه إليها . وزيادة في تكريمه وتدعيم مركزه عين في ٢٢ ديسمبر موظفا في الحاشية الملكية مخصصا للقيام على شئون الملك .

وربما تسنى له في أيام النضج والعيش الرغيد هذه أن يكتب رواية «بابوك أو الدنيا كما هي» وبابوك رجل من سكيزيا (إقليم قديم في جنوب شرق أوروبا وجنوب غربي آسيا) يحول ليرى الدنيا، وبخاصة كيف تسير الأمور في فارس (أي فرنسا) وأصابه الدهول والفرح لما رأى من الحروب والفساد السياسي وشراء الوظائف وجباية الضرائب وثراء رجال الدين. ولكن ترحب به سيدة (مدام دي بمبادور) استماله جمالها وثقافتها وكياستها إلى «المدنية» ويرى بابوك هنا وهناك بعض مظاهر الكرم ونماذج للأمانة. ثم يزور رئيس الوزراء (تذكيرا بالكاردينال فليري) ويجده يعمل جاهدا لانقاذ فارس من الفوضى والهزائم، ويخلص إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة للطبيعة البشرية للتعليم، وأن الدنيا بوضعها الحاضر لا تستحق التدمير بعد، وأن الإصلاح خير من الثورة، أما بالنسبة لشخصه هو على أية حال فإنه سيقلد الحكماء الحقيقيين الذين يعيشون بينهم وبين أنفسهم في عزلة وهدوء^(٧٥). فهل شعر بالوحشة والشوق إلى سيرته فعلا؟

إنه على أية حال لم يكن لائقاً لعمل في البلاط. فإنه بطريقة تعوزها اللباقة إلى حد لا يصدق احتفل بانتصار الفرنسيين في برجن آوب زوم بقصيدة صور فيها الملك لويس الخامس عشر طائراً من ميدان المعركة إلى أحضان بمبادور، وعهد إليهما معا بمهمة الاحتفاظ بالفتوحات واستبد الغضب بالملكة وبأبنائها، واستنكر نصف أفراد البلاط وقاحة الشاعر، وفي الوقت عينه كانت دي شاتيليه قد انغمست في لعب الميسر، وفي ليلة واحدة خسرت ٨٤ ألف فرنك، وأنذرها فولتير بالإنجليزية وهو واقف إلى جوارها بأنها تغش في اللعب. وفهم بعض اللاعبين ذلك واحتجوا وترامت أنباء هذه الصراحة المخزية إلى أفراد الحاشية، فلم تترك للشاعر صديقاً في فرساي أو فونتنبلو، وهرب فولتير وامبلي إلى سكو (١٧٤٧) ليقيم لدى الدوقة دي مين التي ما زالت على قيد الحياة، وهناك بقي لمدة شهرين في جناح منفرد (منعزل) بعيد عن أنظار الناس، وهناك حاول أن ينسى ورطته

ومحنته بالانصراف إلى كتابة بعض القصص الرومانسية المرححة التي ساعدت على أن تجعل منه أعظم المؤلفين شعبية في الأدب الفرنسي . وواضح أنه قرأها ذات يوم على الضيوف المقربين الذين تألفت منهم حاشية الدوقة الخاصة . ومن هنا كان إيجاز هذه القصص وما فيها من هجاء مرح وسخرية لطيفة .

وأطول هذه القصص التي كتبت فيما بين عامي ١٧٤٦ ، ١٧٥٠ هي « زاديغ أو سر القدر » وزاديغ شاب بابل لطيف غني تلقى أحسن تعليم ، عاقل قدر ما يمكن أن يكون الإنسان عاقلا واسع الاطلاع على علوم قدامى الكلدانيين ، فهم أصول ومبادئ الفلسفة الطبيعية ، وعرف من الميتافيزيقا ما يمكن أن يعرف في أي عصر ، أي القليل منها أو لا شيء على الاطلاق^(٧٦) . وكان على وشك أن يزوج من سمينا الجميلة حين هاجمه بعض قطاع الطرق ، وأصابوه بجرح تحول إلى خراج في عينه اليسرى ، واستدعى هرمز الطبيب المشهور من ممفيس وفحص الجرح ، ثم أعلن أن زاديغ لا بد أن يفقد عينه ، ولو أنه في العين اليمنى لأمكن علاجه بسهولة ، ولكن الجروح في العين اليسرى غير قابلة للشفاء . وأعلنت سمينا أنها تنفر نفورا لا سبيل إلى مقاومته من الرجال ذوى العين الواحدة ، ومن ثم هجرت زاديغ وتزوجت من غريمه . وفي ظرف يومين التأم الجرح من تلقاء نفسه وشفيت العين تماما ، ويؤلف الطبيب هرمز كتابا يثبت فيه أن هذا مستحيل ، ويدخل زاديغ السرور على قلب الملك موابدار بنصائحه الغالية ، وعلى قلب الملكة آستارت بنظراته الحانية فتقع في شرك غرامه ، ويهرب زاديغ إلى مدينة نائية . وفي الطريق يرى رجلا يضرب امرأة ، ويستجيب في شجاعة لصرخاتها طلبا للمساعدة ، فيتدخل بينهما ويهاجمه الرجل بعنف ولكنه يرد به قتيلا . وتسبه المرأة بالفاظ جارحة لأنه قتل عشيقها . ويمضى زاديغ في طريقه ويؤخذ ويبيع بيع الرقيق . عندئذ تصور زاديغ « الناس كما هم في حقيقة أمرهم حشرات يفتك بعضها ببعض من أجل قطرة من طين » .

وقص « ممنون الفيلسوف » حكاية رجل اعتنق يوما الفكرة الجنونية بأنه متعقل كل التعقل ولكنه وجد نفسه قاصرا قصورا يائسا عاجزا يواجه مئات الكوارث ، فيقرر أن الأرض مستشفى كبير للأمراض العقلية تقوم الكواكب الأخرى بترحيل المجانين فيها إليه (٧٧) .

أما رحلات سكارمنتادو فهي تطوف بشاب من كريت من بلد إلى بلد حيث يتكشف له في كل يوم مشاهد جديدة من التعصب أو الخداع أو القسوة أو الجهل . ففي فرنسا تجتاح الحروب الدينية المقاطعات ، وفي إنجلترا تحرق الملكة ماري خمسمائة من البروتستانت ، وفي اسبانيا ينشق الشعب في لذة رائحة المهرطقين الذين ألقى بهم في النار ، وفي تركيا ينجو سكارمنتادو من الختان بأعجوبة ، وفي فارس يتورط في الصراع بين طائفتي السنة والشيعة من المسلمين ، وفي الصين يتهمه اليسوعيون بأنه شخصية بارزة من طائفة اللومنيكان ، وأخيرا يعود إلى كريت « ومذ رأيت الآن كل ما هو نادر أو خير أو جميل على الأرض ، فقد وطلدت العزم على ألا أرى في المستقبل شيئا غير بلدي ، وتزوجت وسرعان ما داخلى الشك في خيانة زوجتي ، ولكنى على الرغم من هذا الشك وجدت أن هذه هي أسعد ظروف الحياة (٧٨) » .

وتوسع ميكرو ميجاس في أفكار النسبية التي استخدمها سوفيت في رحلات جليلفر . والسيد ميكروميجاس رجل يصلح للاقامة في نجم الشعري اليمانية ، وطوله ١٢٠ ألف قدم وعرض صدره خمسون ألفا ، وطول أنفه ٦,٣٣٣ قدما . وعند ما بلغ ٦٧٠ عاما من العمر ذهب ليستزيد من التعاليم . وبينما هو يحوم في الفضاء هبط على كوكب زحل فسخر من الأقزام هناك ، حيث بلغ طول الناس هناك ستة آلاف قدم أو نحوها ، وتعجب كيف يتسنى لسكان زحل المعدمين هؤلاء الذين ليس لهم إلا ٧٢ حاسة فقط أن يعرفوا الحقيقة وسأل أحد السكان إلى أي حد من العمر تعيشون ؟ فصاح ساكن زحل واحسرتاه ! قليل جداً منا يعيشون لأكثر من ٥٠٠ دورة حول الشمس (وهي بحسابنا نحن تصل إلى نحو ١٥ ألف سنة) وهكذا ترى أننا بشكل ما نموت في اللحظة التي نولد فيها . . . وما أقل ما نتعلمه

حين ينزل بنا الموت قبل أن نستفيد من خبرتنا^(٧٩) . ويدعو ساكن الشعري
اليمانية ساكن زحل إلى مصاحبته لزيارة كواكب أخرى ، فتتعرأقدامهما
على كوكب الأرض ، وتبتل قدما ساكن الشعري ، ويكاد ساكن زحل
يغرق وهما يسيران فوق البحر المتوسط . فلما وصلا إلى البر رأيا حشودا
من الأهالي صغار الأجسام يتركزون هنا وهناك في احتياج شديد ،
وعندما يتضح لساكن الشعري اليمانية أن مائة ألف من سكان الأرض هؤلاء
يلبسون القبعات وعددا مساويا يضعون العمام ، يقتلون ويطيح بعضهم برؤوس
بعض في صراع (الحروب الصليبية) حول ركاب من التراب (فلسطين)
لا يكاد يعلو على عقبه بصيح ساخطا . مستاءا : أيها الكفار الأوغاد . . .
قلبي يحدثني أن أتقدم بخطوتين أو ثلاثا لأمسح تحت قدمي وكر السفاحين
الحمقى بأمره^(٨٠) .

وكل هذا كان عاما ساراجبيجا ، وكان يمكن أن يمر دون أن يحرك
أحد ساكننا . ولكن فولتير في ١٧٤٨ عكر صفو باريس بنشرة صغيرة
« صوت الحكماء وصوت الشعب » هاجم فيها كنيسة فرنسا في نقطة حساسة ،
تلك هي « أملاك الكنيسة في فرنسا » ، حيث ينمو العقل ويتطور يوما
بعد يوم ، فإن العقل يعلمنا انه يجدر بالكنيسة أن تسهم في نفقات الأمة
بنسبة مواردها ، وأن الهيئة التي نصبت نفسها لتلقي مبادئ العدالة يجدر
بها أن تبدأ بنفسها لتكون قدوة للعدالة ونموذجا لها ورغم أن الأديار تضيع
أقوات الشعب وموارد الأرض في نحول عقيم ، واتهم « الخزافة » بقتل
الحكام واراقة بحور من الدماء في الاضطهادات والحروب ، وذكر الملوك
بأن أحدا من الفلاسفة لم تمتد يده على مليكه ، وإذا اتحد الملوك مع العقل
وجردوا أنفسهم من الخرافة فكم يكون الناس أسعد وأهنا بالآ^(٨١) . وقل
أن أثارت رسالة موجزة مثل هذه العاصفة الهوجاء . ونشرت خمس عشرة
رسالة مضادة للرد على رسالة « صوت الحكماء وصوت الشعب » التي
لم يذكر اسم مؤلفها .

وأثناء إقامة فولتير في فصل الشتاء في سكو سددت مدام دي شاتيليه

ديون القمار ، وهدأت من روع الرابحين . وخففت من استيائهم لما نعتهم به فولتير ، وأعادته إلى باريس حيث أشرف على نشر قصصه الصغيرة ، ووجد من الحكمة على الرغم من المشقة والتعب أن يلبي دعوة ستانلاس لتركز نسكي لزيارة بلاطه في لوفيل - على بعد نحو ١٨ ميلا من نانسي عاصمة اللورين . وبعد رحلة مرهقة وصل الحبيبان إلى لوفيل (١٧٤٨) ولكن بعد أسبوعين وصل كتاب من دارجتال ينبي فيه فولتير بأن ممثلي الكوميدي فرانسيز على استعداد لتجربة روايته سميراميس ، وأنهم في حاجة إليه لمعاونتهم في تفسير أبياتها . وكانت هذه الرواية تعنى الشيء الكثير لديه ، وكانت بمبادور من طيبة نفسها الآثمة قد أعادت إلى المسرح كريبون (الأب) الفقير المعدم وهيأت له سبل النجاح . وكان ماريفو قد نجاسرفا عتبر مسرحيات الشيخ الهرم أعلى مرتبة من مسرحيات فولتير . وكان الشاعر النحيل الجسم قد اعتزم أن يثبت تفوقه بكتابة روايات في نفس الموضوعات التي كان كريبون قد طرقها . ومن ثم أسرع فولتير إلى باريس تاركا امبلي في حرية مهلكة في لوفيل . وفي ٢٩ أغسطس ١٧٤٨ عرضت سميراميس لأول مرة عرضا ناجحا . وبعد العرض الثاني أسرع متنكرا إلى مقهى بروكوب واستمع إلى تعليقات من شهدو المسرحية . وكانت ثمة تعليقات امتدحت الرواية وأطرتها ، تقبها فولتير على أنها من حقه ، وثمة آراء أخرى انتقصت من قدرها وهاجتها . وقد آلمته هذه أيما آلام ، حيث كان عليه أن يحتملها صامتا ، ولكنه استفاد مما وجه إلى المسرحية من نقد ، فنقحها واستمر عرضها طويلا . وهي تعد الآن من أحسن مسرحياته .

وأسرع ثانية في جو سبتمبر العاصف عبر فرنسا إلى لوفيل ، وكاد يموت في الطريق عند شالون ، ولما استحثه فرديك الأكبر على المضي إلى بوتسدام اعتذر بأن المرض أفقده نصف سمعه وعدة أسنان من أسنانه . إلى حد أنه لن يكون إلا مجرد هيكل في برلين . فأجاب « تعال بلا أسنان وبلا أذنين . إذا لم يكن بد من الحضور على هذه الصورة ، ما دام أن هذا الشيء الذي يتعذر تعريفه ، والذي يمكنك من التفكير ، والذي يوحى بكل ما جيل ، سيحضر معك » (٨٢) ولكن فولتير أثر المقام مع امبلي .

٥ - موت الحبيسة

أحب الملك الصالح ستانيسلاس الأدب ، وكان قد قرأ فولتير وأصابته عدوى عصر الاستنارة ، وفي ١٧٤٩ كان الملك بصدد نشر بيانه « الفيلسوف المسيحي » الذي كانت ابنته ملكة فرنسا قد قرأته في استياء حزين . وحذرتة من أن آراءه يشتم منها أنها نابعة من آراء فولتير إلى حد كبير . ولكن الشيخ الهرم استساغ آراء فولتير كما أعجب بذكائه . وكما أنه كان له أيضا محظية (هي المركيزة دي بوفلرز) فإنه لم يجسد تناقضا في أن يتخذ من الشاعر محظيا له في بلاطه . كما عين . فوق ذلك ، زوج اميلي المتحرر الواسع الأفق كبير مديري قصره براتب قدره ألفا كراون سنويا .

وكان ثمة موظف آخر في بلاط ستانيسلاس ، هو المركيز جان فرنسوا دي سانت لامبرت ، قائد الحرس . وكانت مدام دي شاتيليه قد التقت به لأول مرة في ١٧٤٧ . وكان هو في الحادية والثلاثين وهي « في الحادية والأربعين . وكانت تلك سن خطيرة لامرأة لم يعد عشيقها إلا مجرد صديق حميم . وفي ربيع ١٧٤٨ بدأت تكتب للضابط الوسيم رسائل غرام تكاد تنسم بعناية البنات الصغيرات وخلاعتن : « نعال إلى بمجرد أن ترتدي ملابسك » سأطير إليك بعد أن أتناول العشاء . « وأستجاب سانت لامبرت مغازلا مترددا . وذات مرة في أكتوبر فاجأها فولتير في خلوة مظلمة يتبادلان أحاديث الحب والهيام . إن أعظم الفلاسفة هو وحده الذي يتقبل هذه الفعلة المكروء ، الخيانة . في هدوء وتسامح . ولم يتر فولتير لهذا الوضع على الفور . وأنهما في شيء من الهدر والمزاج ، ولكنه أوى إلى غرفته حين عرض سانت لامبرت تسوية الأمر معه - أي يقتله عند الفجر . وقصدت اميلي إلى فولتير في الثانية صباحا ، وأكدت له حبها الخالد ، ولكنها ذكرته في رفق « بأنك لزم من طويل شكوت . . . من قواك أن تنهار . . . فهل بسئ إليك أن يحل أحد أصدقائك محلك ؟ » وعانقته ولاطفته ودلته بأسماء الدلال التي كانت تناديه بها ، فخفت سورة غضبه وقال « آه أنت على حق دائما ياسيدتي . ولكن طالما كان لزاما أن تجري الأمور على هذا النحو فلا

أقل من ألا تجرى تحت سمعى وبصرى ، وفى الليلة التالية قصد سانت لامبرت إلى فولتير واعتذر له عن تحديه . وعانقه فولتير وقال له « أى بنى ، لقد نسيت كل شىء . إني أنا المخطئ ، أنت فى زهرة عمر الشباب والحب والمتعة ، فاستمتع بهذه اللحظات ، فانها قصيرة . إن هذا العاجز المريض مثلى لا يصلح لهذه الملذات » وفى الليلة التالية تناول ثلاثتهم العشاء معا (٨٣) .

واستمر هذا الثلاثى « حتى ديسمبر حين اعتزمت السيدة دى شاتيليه الذهاب إلى سرى لتدبير شؤونها المالية . وصحبها فولتير ، وجدد فردريك دهوته . وكان فولتير يميل الآن إلى تلييتها . ولكن المركيزة فور وصولها إلى سرى أسرت إليه بأنها حامل ، وأنها فى مثل هذه السن وكانت آنذاك فى الثالثة والأربعين ، لا تتوقع أن تعيش بعد الولادة . وكتب فولتير إلى الملك فردريك ألا ينتظر قدومه . كما طلب إلى سانت لامبرت أن يحضر إلى سرى . وهناك اتفق العشاق الثلاثة على خطة لتأمين شرعية الطفل واستحثت السيدة زوجها على القدوم إلى سرى للتعجيل بانجاز بعض المهام . ولم ينزعج الزوج لوجود عاشقين آخرين إلى جانب زوجته يكملان شخصه ، بل سعد كل السعادة حين استقبلوه بالترحيب وأكرموا وفادته . وازدانت المركيزة بأبهى زينة وأزهى حلة ، ولاطفته أعظم ملاطفة . وشرب وشملى حتى كان ما كان (مما لست أذكره) وبعد بضعة أسابيع أبلغته أنها قد ظهرت عليها أعراض الحمل . واحتفنها فى زهو وفرح . وأعلن عن الحادث السعيد المرتقب إلى كل الناس ، وتقدم إليه الجميع بالتهنئة . ولكن فولتير وسانت لامبرت اتفقا على « أن يعد الطفل من بين أعمال مدام شاتيليه المتنوعة » (٨٤) وعاد المركيز (الزوج) وسانت لامبرت إلى عملهما .

وفى فبراير ١٧٤٩ عادت اميلى وفولتير إلى باريس وانصرفت هى إلى ترجمة قوانين نيوتن بمعاونة كليرو . وثمة رسالتان إلى سانت لامبرت (١٨ ، ٢٠ مايو) تكشفان عن شخصيتها : « كلا : إنه ليس فى مقدورى أن أعبر عن تقديسى وحبى لك حب عبادة . لا تلمنى على نيوتن . ويكفينى

عذابي بسببه . وما ضحيت قط بشيء قدر تفصيحني للعقل ببقائي هنا لانجازي . .
أنا استيقظ في التاسعة . وأحيانا في الثامنة صباحا . وأتناول القهوة ، واستأنف
العمل في الرابعة ، وأتوقف عنه في العاشرة . . . وأتجاذب أطراف الحديث
مع فولتير حتى منتصف الليل وهو يتناول معي العشاء . وفي منتصف الليل
أعود إلى العمل في نيوتن واستمر حتى الخامسة صباحا . إنني أنجز هذا الكتاب
من أجل العقل والشرف ولكني أحبك أنت وحدك » (٨٥) .

وفي ١٠ يونيو جدد فردريك بسرعة دعوة فولتير إلى الحضور إلى
بوتسدام ظناً من الملك أن سانت لامبرت قد أعفى فولتير من أية مسئوليات
أخرى يلتزم بها تجاه دي شاتيليه ، فأجاب فولتير « حتى فردريك الأكبر
نفسه لا يستطيع أن يحول بيني وبين القيام بواجب لا يمكن أن يحلني منه
أى شيء . . . لن أتخلى عن سيدة قد تعاجلها المنية في سبتمبر . والأرجح
أن عملية الوضع ستكون خطيرة جداً عليها ، ولكن إذا كتبت لها النجاة ،
فإنني أعدك يا مولاي أى أحضر في أكتوبر وأقدم ولائى لجلالتكم » (٨٦) .

وفي يولييه صعبها إلى لونفيل لتكون تحت رعاية طبية خاصة . إن خوف
الموت أزغجها كل الازعاج — يختطفها الموت في الوقت الذى وجدت فيه
الحب من جديد ، وفي الوقت الذى كانت فيه سنى دراستها وبحبها على وشك
أن تنوج بنشر كتابها . وفي ١٠ سبتمبر أنجبت طفلة . وفي اليوم العاشر من
سبتمبر فارقت الحياة بعد أن عانت كثيراً . واستبد الحزن والأسى بفولتير
فزلت قدمه وهو يغادر غرفتها وسقط على الأرض ، وظل فاقد الوعي
فترة من الوقت . وساعده سانت لامبرت على الافاقة من غشيته . وقال
فولتير عندئذ : « آه يا صديقى أنت الذى قتلها . . . يا إلهى ! ما الذى
أغراك بأن تصل بها إلى هذه الحالة ؟ ! » وبعد ذلك بثلاثة أيام طلب فولتير
من لونجشامب الخاتم الذى خلعه من يد السيدة المتوفاة . وكانت صورته
منقوشة عليه يوما ما وجدده السكرتير في يد لامبرت ، وتعجب فولتير قائلاً :
« هكذا النساء . لقد خلعت صورة ريشيليو من هذا الخاتم ، ثم جاء سانت
لامبرت فطردنى . . . هذا هو نظام الطبيعة . . شخص ينزع مكان آخر .

وهكذا تير الأمور في هذه الدنيا^(٨٧) . ووريت مدام دي شاتيليه التراب في لوتفيل في أزوع مظاهر المهابة والجلال في بلاط ستانسلاس ، وسرعان ما تبعها طفلتها .

وعاد المركيز وفولتير إلى سيري ومن هناك رد على بعض رسائل التعزية التي تلقاها من باريس : « أتم عزائي ، يا ملائكة الرحمة أتم تجعلوني أحب بقية أيامي التعسة . إنني أعترف لكم أن البيت الذي أظلمها على الرغم مما يثير في نفسي من أشجان ، ليس كريها عندي . . . أنا لا أهرب من أى شيء يحدثني عنها ويذكرني بها . إنني أحب سيري . . . والأماكن التي زانتها عزيزة على أنا لم أفقد سيدة ، بل فقدت نصف نفسي . فقدت نفسها خلقت لها نفسي ، فقدت صديقة عشرين عاما ، عرفتني في طفولتها . إن أكثر الآباء عطفًا وحنانًا لا يحب ابنته الوحيدة إلا كما أحبت أنا هذه السيدة . وبودي أن أجد في كل مكان ما يذكرني بها . وأحب أن أتحدث مع زوجها ومع ابنها^(٨٨) .

ومع ذلك أدرك فولتير أنه سيذبل ويذوى إذا هو بقي مترملا في سيري الموحشة المنزلة . وأرسل كتبه وأجهزته العلمية ومجموعته الفنية إلى باريس ، وسافر في أثرها في ٢٥ سبتمبر ١٧٤٩ . وفي ١٢ أكتوبر استقر به المقام في العيصمة ، في قصر واسع الأرجاء في شارع ترافرسبير .

٦ — مدام دنيس

كان من اليسير على فولتير أن يقنع ابنة اخته بالحضور لتكون ربة البيت حيث كانت لفترة من الوقت خليلته .

ولدت ماري لويز ميجنو Mignot (١٧١٢) وهي ابنة كاترين أخت فولتير . وعند ما توفيت كاترين (١٧٢٦) تكفل فولتير برعاية أولادها . وفي ١٧٣٧ . عند ما بلغت ماري السادسة والعشرين ، دفع لها خالها صداقا محترما حيث تزوجت من الكابتن نقولا شارل دنيس ، وكان موظفا صغيراً في الحكومة .

وتوفي الزوج بعد ست سنوات من زواجه . في نفس الوقت الذي انتقل فيه فولتير والمركيزة دي شاتيليه إلى باريس . والتمست الأرملة بعض السلوى والعزاء بين ذراعى فولتير ، ووجد هو بعض الحرارة والدفء بين ذراعيها . وواضح أن حب الحال سرعان ما تحول إلى شيء غير مشروع . وفي رسالة مؤرخة في ٢٣ مارس ١٧٤٥ خاطب فولتير ابنة أخته بقوله « محبوبي ، عزيزتي »^(٨٩) (•) وقد تكون هذه عبارة حب بريئة ؛ ولكن في ديسمبر ، أي قبل عامين من لقاء المركيزة بسانت لامبرت كتب فولتير إلى الأرملة الطروب رسالة يجسدر اقتباسها حرفيا حتى يمكن تصديقها : « أقبلك ألف قبلة . روحى تقبل روحك ، إن قلبي مفتون بك . أقبل كل شيء فيك »^(٩٠) .

وحلفت مدام دنييس بعض الألفاظ تواضعا وتحجلا ، ولكن المفروض أنها أجابت برسالة غرامية ، لأن فولتير كتب لها من فرساي في ٢٧ ديسمبر ١٧٤٥ : « عزيزتي ، تقولين إن كتابي إليك بعث السرور والنشوة حتى في حواسك كلها . وأنا مثلك تماما . فلم أكذب أقرأ العبارات الممتعة التي جاءت في كتابك حتى التهب مشاعري من الأعماق . وأوليت كتابك كل الإجلال الذي أحب أن أوليه لشخصك كله ، سأحبك حتى الممات »^(٩١) . وفي ثلاث رسائل بعث بها إليها في ١٧٤٦ « إني أقبلك ألف قبلة »^(٩٢) . بودى أن أعيش عند قلميك وأموت بين ذراعيك . .^(٩٣) « متى يكون في مقدورى أن أعيش إلى جوارك وينسانى العالم بأسره ؟ »^(٩٤) وفي ٢٧

(•) هذه العبارة والمقتطفات التالية مأخوذة عن رسائل خطية اكتشفها تيودور بسترمان في ١٩٥٧ ، واشترتها مكتبة بيربونت مورجان في نيويورك من أعقاب السيدة دنييس . ونشر الدكتور بسترمان ، مدير معهد ومتحف فولتير ، في دليس في جنيف ، النص الأصلي ، مع ترجمة فرنسية تحت عنوان « رسائل غرامية من فولتير إلى ابنة أخته (باريس ١٩٥٧) » وترجمة انجليزية (لندن ١٩٥٨) . وكل الرسائل ، فيما عدا أربعة من بين ١٤٢ رسالة بخط فولتير ، وبعضها مكتوب بالاطالية التي كالت مدام دنييس ملية بها . وكتبت هذه الرسائل فيما بين عامي ١٧٤٢ - ١٧٤٥ . وثلاث منها مؤرخة على وجه التحديد . ومن ثم لا يمكن أن يكون تسلسلها التاريخي مؤكدا . والتواريخ التي أوردناها هنا هي التي حددها دكتور بسترمان .

يوليه ١٧٤٨ كتب يقول : « سأحضر إلى باريس من أجلك أنت إذا سمحت ظروفى السيئة . وسألقى بنفسى عند قدميك ، وأقبل كل مفاتنك . وفى نفس الوقت أطبع ألف قبلة على كل موضع فى جسمك الذى غمرنى بفيض من اللذة والبهجة » (٩٧) .

فى عمر الرجال ، مثلما هو فى عمر النساء ، فترة خطيرة ، وهى عندهم أطول ، ويرتكبون فيها حماقات لا تصدق . وكان فولتير ألمع شخصية فى القرن الذى عاش فيه ، ولكن لا يجدر بنا أن نعدده من بين المفضلاء الحكماء ، فكثيراً ما اقترف هذه السفخافات والأعمال الطائشة وتردى فى هذه التصرفات المتطرفة ونوبات الغضب الصببانية ، مما سر أعداءه وأزعج أصدقاءه . إنه وضع نفسه تحت رحمة ابنة أخته التى كان واضحاً أنها مغرمة به ، ولكنها أحبت نقوده حباً متزايداً . إننا نجد أنها تستغل سيطرتها عليه لتزيد من ثروتها ، حتى يوم وفاته . إنها لم تكن امرأة رديئة بمقاييس العصر . ولكنها ربما تجاوزت حدود عمرها باتخاذها سلسلة من العشاق — باكولار دارنو ، مارمونتيل ، مركز دى اكسيمين — لتستكمل رعاية خالها . (٩٨) ووصفها مارمونتيل مادحاً فى ١٧٤٧ « إن هذه السيدة مقبولة بكل ما فيها من قبح . إن شخصيتها البسيطة غير المتكلفة تشربث مسحة من شخصية خالها . وكان فيها كثير من ذوقه ومن مرحه وأدبه الجم ، ومن هنا كان السعى إلى الاجتماع بها والتودد إليها » (٩٩) .

وفى يوم وفاة مدام دى شاتيليه كتب فولتير إلى ابنة أخته :

« ابنتى العزيزة ، فقدت اليوم صديقة عشرين عاماً . ولوقت غير قصير — كما تعرفين . لم أكن أنظر إلى مدام دى شاتيليه على أنها امرأة (هكذا) . وأنا واثق أنك ستشاطرينى الحزن الشديد عليها . إنه من المؤسف حقاً أن أراها تفارق الحياة فى مثل هذه الظروف ولمثل هذا السبب ، وأنا لا أنخل عن المركز دى شاتيليه فى هذه المحنة المتبادلة سأحضر من سبرى إلى باريس لأحتضنك بين ذراعى ، والتمس فيك عزائى وأملى الوحيد فى الحياة » (١٠٠) .

وطوال الشهور الثمانية التي قضاهما في العاصمة ، تلقى فولتير من فرردريك الأكبر رسائل كثيرة يستحثه فيها على الحضور ، وكان هو يميل إلى قبول الدعوة . وعرض عليه فرديريك أن يشغل وظيفة كبيرة في البلاط ، مع دار خاصة بالمجان براتب قدره ٥٠٠٠ تالر في العام .^(١٠١) ولكن فولتير الذي كان من رجال المال مثلما كان فيلسوفا ، طلب إلى ملك بروسيا أن يقرضه بعض المال لتسديد نفقات الرحلة : ووافق الملك في تأنيب مكرر ، حيث شبه الشاعر بهوراس الذي رأى من الحكمة أن يمزج النافع بالمقبول^(١٠٢) . وطلب فولتير الاذن بالرحيل من ملك فرنسا ، ووافق لويس على الفور ، قائلا لخلصائه المقرين : « هذا سيزيد من جنون رجل مجنون في بلاط بروسيا وسيخفف من جنون رجل في فرساي^(١٠٣) » . وفي ١٠ يونيو ١٧٥٠ غادر فولتير باريس إلى برلين .

المراجع

CHAPTER VII

1. Sée, H., *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 87.
2. *Ibid.*, 84.
3. Sumner, W. G., *Folkways*, 165.
4. Sée, 104; Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 36.
5. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 107.
6. Ducros, L., *French Society in the 18th Century*, 158, 107; Wolf, A., *History of Science . . . and Philosophy in the 18th Century*, 558.
7. Palmer, R. R., *Catholics and Unbelievers in 18th-Century France*, 13n.
8. Lacroix, P., *Eighteenth Century*, 138.
9. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
10. Lacroix, 138.
11. Ducros, 14; Herbert, S., *Fall of Feudalism in France*, xvii.
12. Taine, *Ancient Regime*, 130.
13. Goodwin, *European Nobility*, 31.
14. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 31.
15. Sée, 61.
16. Taine, *Ancient Regime*, 20, 41.
17. Tocqueville, 34.
18. Taine, 15.
19. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
20. *Ibid.*, 51, Sée, 3.
21. Palmer, R. R., 15; Lacroix, 157.
22. Taine, 42 f.
23. Voltaire, *Works*, XVIa, 261.
24. Martin, H., XV, 439.
25. *Ibid.*, 439-40.
26. Lacroix, 157.
27. *Ibid.*, 169.
28. Taine, 34.
29. *Ibid.*, 119-20.
30. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 10, 15, Montalembert, *Monks of the West*, II, 86.
31. Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 70.
32. Taine, 61, Michelet, *Histoire de France*, V, 288.
33. Martin, H., XV, 441.
34. *Ibid.*, 442.
35. Taine, 63.
36. Lecky, *History of England*, V, 329.
37. Desnoiresterres, VIII, 248.
38. Lacroix, 270.
39. Guizot, *History of France*, V, 48.
40. Sée, 4.
41. Herbert, *Fall of Feudalism*, 56.
42. Taine, 13-14, Ducros, 156-57.
43. Herbert, 37.
44. Sée, 15.
45. Herbert, 4-5.
46. Sée, 28.
47. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 395 (Oct. 10, 1718).
48. Taine, 330.
49. Martin, H., XV, 216.
50. Sée, 38.
51. Voltaire, *Works*, XIXa, 94.
52. *Philosophical Dictionary*, article "Lent."
53. Cobban, *History of Modern France*, 42.
54. Sée, 181.
55. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 193.
56. Mantoux, *Industrial Revolution*, 409.
57. Sée, 165.
58. Taine, 334.
59. Morner, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 28.
60. Parson, II, 184.
61. Lacroix, 228.
62. *Ibid.*, 311.
63. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 124.
64. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 67.
65. Sée, 151-53.
66. Martin, H., XV, 113.
67. *Ibid.*, 305.
68. Sée, 93.
69. Ducros, 160.
70. Toth, *Woman and Rococo in France*, 179.
71. Lacroix, 206.
72. *Ibid.*

73. Goncourts. *Madame de Pompadour*, 5-7.
74. Desnoiresterres. III, 241.
75. Grimm. *Correspondance*, VIII, 131-33, in Buckle, I, 539.
76. Saint-Simon in Lacroix, 302.
77. Lacroix, 199.
78. Ducros, 53.
79. Stryiński. *Eighteenth Century*, 57.
80. Lanfrev. *L'Eglise et les philosophes au XVIII^e siècle*, 129.
81. Michelet. V, 277. Sainte-Beuve. *Portraits of the 18th Century*, I, 445.
82. Voltaire. *Works*, XVIa, 157.
83. Stryiński, 79.
84. *Works*, XVIa, 158.
85. Martin, H., XV, 256n.
86. Stryiński, 85.
87. Desnoiresterres, II, 336.
88. Martin, H., XV, 251.
89. Saint-Simon. *Memoirs*, III, 283.
90. Michelet. V, 248.
91. Martin, H., XV, 116n., Ercole, *Gay Court Life*, 88.
92. Bearne. *Court Painter*, 85.
93. Guizot. *History of France*, V, 78.
94. Goncourts. *Pompadour*, 9.
95. Michelet. V, 325.
96. Ercole, 167.
97. Lewis, D. B. Wyndham. *Four Favorites*, 41.
98. Stryiński, 140-41.
99. *Oxford's Biographical Dictionary*, 833.
100. Brandes, I, 224.
101. Voltaire. *Works*, XVIIb, 224.
102. Carlyle. *Thos. History of Friedrich II*, IV, 438, *Enc Brit.*, IX, 454a.
103. Voltaire, XVIIb, 238, Martin, H., XV, 282, Stryiński, 148.
104. Voltaire, XVIIb, 239.
105. Stryiński, 149.
106. Martin, H., XV, 431n.
107. Lichtenberger in Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 238.
108. Martin, H., XV, 356-58.
109. Lecky. *England*, V, 327.
110. Goncourts. *Pompadour*, 12.
111. Michelet. V, 349.
112. Ercole, 197.
113. Goncourts, 117.
114. Ercole, 203.
115. Lewis. *Four Favorites*, 48.
116. Taine. *Ancient Regime*, 82.
117. Goncourts, 71.
118. *Ibid.*, 348.
119. Sainte-Beuve, I, 450.
120. *Ibid.*, 451.
121. Michelet. V, 354.
122. Martin, H., XV, 416.
123. Goncourts, 131.
124. Lewis, 50.

125. Ercole, 209.
126. Toth, 165.
127. Goncourts, 127.
128. Du Hausset, Mme., *Memoirs of Mme de Pompadour*, 65.
129. Ercole, 220.
130. Goncourts. *Woman of the 18th Century*, 149.

CHAPTER VIII

1. See, *Economic and Social Conditions*, 48 f.
2. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 422.
3. La Fontainerie, *French Liberalism and Education*, 6.
4. Lacroix, 252.
5. *Ibid.*, 151.
6. 242.
7. 244.
8. Desnoiresterres, III, 133.
9. Crèqui, *Souvenirs*, 57, 121.
10. Ducros, *French Society*, 83.
11. Chesterfield, *Letters*, I, 348.
12. Brandes, I, 147.
13. *Ibid.*, 141.
14. Goncourts. *Woman of the 18th Century*, 187.
15. *Ibid.*, 188.
16. Mornet. *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 43.
17. Funck-Brentano, 50.
18. Ducros, 61.
19. Quoted in Funck-Brentano, 60.
20. Taine, *Ancient Regime*, 134.
21. Walpole, *Letters*, I, 309 (Oct. 28, 1752).
22. Toth, 135.
23. Frederick the Great, *Memoirs*, I, 25.
24. D'Argenson, *Mémoires*, in Martin, H., XV, 341.
25. Ducros, 342.
26. Mossner, *Hume*, 91.
27. Kohler, Carl, *History of Costume*, 340.
28. Crèqui, 123.
29. Lacroix, 370.
30. Ducros, 35.
31. *Philosophical Dictionary*, art. "Lent," in *Works*, VIa, 108.
32. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 166.
33. Michelet, V, 189.
34. Ling, P. H., *Music in Western Civilization*, 441.
35. Burney, C., *General History of Music*, II, 965, 969.
36. Grove's *Dictionary of Music and Musicians*, IV, 320d.
37. Burney, II, 970.
38. Diderot, *Le Neveu de Rameau*.
39. Duclos, C., *Considérations sur les mœurs*, 13.

40. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 430.
41. Mme. Vigée-Lebrun, *Mémoires*, I, 156. in Taine, *Ancient Regime*, 141n.
42. Goncourts, *Woman*, 317.
43. Marmontel, *Mémoires*, I, 181.
44. Batiffol, *Great Literary Salons*, 131.
45. Walpole to Gray, Jan 25, 1766.
46. Batiffol, 208.
47. Kavanagh, *Woman in France during the 18th Century*, I, 168.
48. Diderot, "On Women," in *Dialogues*, 196.

CHAPTER IX

1. Faniel, S., *French Art of the 18th Century*, 36.
2. *Ibid.*, 91.
3. Funck-Brentano, 180.
4. Louvre.
5. See the great commode in the Wallace Collection.
6. Dilke, Lady E., *French Architects and Sculptors of the 18th Century*, 77.
7. *Ibid.*, 81.
8. Louvre.
9. Turner and Baker, *Stories of the French Artists*, 181.
10. Dijon Museum.
11. Versailles Museum.
12. Louvre.
13. Bearne, *Court Painter*, 164.
14. Diderot, *Salons*, I, 9, 114-19.
15. Bearne, 13.
16. Turner, 193.
17. Goncourts, *French 18th-Century Painters*, 61.
18. Turner, 197.
19. Louvre.
20. Block, *François Boucher and the Beauvais Tapestries*, 26.
21. Goncourts, *French Painters*, 69. Seven are in the Huntington Library and Gallery at San Marino, Calif.
22. *Ibid.*
23. Wallace Collection.
24. Goncourts, *French Painters*, 91.
25. *Ibid.* 84.
26. Block, 21.
27. Ridder, *Chardin & Goncourts, French Painters*, 117.
28. Louvre.
29. Louvre.
30. Louvre.
31. Goncourts, 141-42. Havens, *Age of Ideas*, 321.
32. Diderot, *Salons*, III, 4.
33. Goncourts, 177n.
34. *Ibid.*
35. *Ibid.*

37. *Ibid.*, 164n.
38. Louvre.
39. St.-Quentin Museum.
40. Dresden.
41. St.-Quentin.

CHAPTER X

1. Duclos, *Considérations*, 217.
2. Grimm, *Correspondance*, III, 73.
3. Parton, I, 509.
4. Voltaire, essay "Ancient and Modern Tragedy," in *Works*, XIXa, 134.
5. "Discourse on Tragedy," in *Works*, XIXb, 181 f.
6. Parton, II, 325.
7. Brandes, I, 72.
8. Edwards, H. S., *Idols of the French Stage*, 83. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 170.
9. Michelet, V, 303.
10. Sainte-Beuve, I, 180.
11. Michelet, V, 304.
12. Mitford, N., *Madame de Pompadour*, 126.
13. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 260.
14. Marivaux, *Vie de Marianne*, 3.
15. Crebillon fils, *Le Sopha*, introd.
16. *Le Sopha*, 65.
17. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 4, 49.
18. Crebillon, *Le Sopha*, introd.
19. Saintsbury, G., introd. to Prévost's *Manon Lescaut*, xliii.
20. *Manon Lescaut*, 220.
21. *Ibid.*, 10.
22. 57.
23. Faguet, E., *Literary History of France*, 489.
24. Saintsbury, introd. to *Manon Lescaut*, ix-211.
25. Burv, J., *History of the Idea of Progress*, 115-16. Martin, K., 280.
26. Lichtenberger, A., *Le Socialisme et la Révolution Française*, 73. Martin, H., XV, 335; Martin, K., 62. Hazard, 197.
27. In Martin, K., 61.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 426-29.
29. Duclos, *Considérations*, 11-12.
30. *Ibid.*, 17, 21.
31. 27.
32. 25.
33. Forth, 38.
34. La Bruvère and Vauvenargues, *Selections*, 189.
35. Vauvenargues *Oeuvres choisies*, cxv.
36. La Bruvère and Vauvenargues, 179.
37. Vauvenargues, CLXXXVII.
38. *Ibid.*, CLXXXII.

39. Crocker, *Age of Crisis*, 138-39.
40. *Ibid.*, 30.
41. Vauvenargues, CLIX.
42. La Bruyère and Vauvenargues, 173.
43. Vauvenargues, CL.
44. *Ibid.*, LVII.
45. CLXXX.
46. CLVII.
47. P. 158.
48. P. 173.
49. *Ibid.*
50. 310.
51. Voltaire, letter of Apr. 4, 1744, in Martin, H., XV, 407n.
52. Voltaire, XIXa, 43.
53. Sorel, A., *Montesquieu*, 125.
54. *Ibid.*, 9.
55. 23.
56. Montesquieu, *Spirit of Laws*, Book V Ch. xix.
57. *Persian Letters*, xxiv.
58. In Sorel, 43.
59. Herodotus, *History*, IV, 183.
60. Aristotle, *Historia animalium*, VIII, 12.
61. *Persian Letters*, VII.
62. Letter XLIV.
63. xxix.
64. cxviii.
65. cxiii.
66. cxviii.
67. xxxv.
68. LXXXVI.
69. Sorel, 49.
70. *Grandeur et décadence des Romains*, introd., vi.
71. *Ibid.*, Ch. xviii.
72. Ch. xii.
73. Ch. xviii.
74. Ch. vi.
75. Ch. xv.
76. Quoted in Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 195.
77. *Spirit of Laws*, preface.
78. *Ibid.*
79. Palache, 35.
80. Martin, K., 151.
81. *Spirit of Laws*, Book I, Ch. III.
82. *Ibid.*, XIV, i-x.
83. XVI, i-iii.
84. *Ibid.*, xi.
85. *Ibid.*
86. XIV, v.
87. VIII, xvi-xix.
88. Explanatory notes prefixed by Montesquieu to the second edition.
89. IV, vi.
90. In Sée, H., *Idées politiques en France au XVIII^e siècle*, 46.
91. *Spirit of Laws*, VIII, ii.
92. V, xiii.
93. V, x.
94. XI, vi.
95. *Ibid.*
96. *Ibid.*
97. XI, iii.
98. *Grandeur et décadence*, Ch. vii.
99. *Spirit of Laws*, XXIII, xxviii.
100. XV, v.
101. X, ii.
102. XIII, xvii.
103. *Pensées diverses*, in Hearnshaw, *Great Thinkers of the Age of Reason*, 116.
104. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 173.
105. *Spirit of Laws*, XXIV, x.
106. I, i.
107. XII, xxix.
108. In Havens, *Age of Ideas*, 121.
109. *Spirit of Laws*, XXIV, ii.
110. *Ibid.*, iii and xxvi.
111. XXIV, v.
112. XXV, v.
113. *Ibid.*, xii.
114. *Ibid.*, x.
115. Quoted in Faguet, 195.
116. Sorel, 166.
117. Pappas, *Berthier's Journal de Trévoux*, 78 f., Martin, K., 153.
118. Sorel, 163.
119. Martin, K., 168.
120. Sorel,
121. Voltaire, XIXa, 238-39.
122. *Philosophical Dictionary*, art. "Climate," in *Works*, IVa, 204-9.
123. *Ibid.*
124. Art. "Laws," in *Works*, VIa, 104.
125. Art. "Laws, Spirit of," in *Works*, VIa, 106-8.
126. Morley, *Life of Voltaire*, 9.
127. Cf. Macaulay, *Critical Essays and Poems*, I, 226, Dunning, *History of Political Theories*, III, 428-31, Flint, *History of the Philosophy of History*, 272-76, Brunetiere, 301, Stephen, L., *English Thought in the 19th Century*, II, 188, Sorel, 139-41.
128. *Spirit of Laws*, VII, iii.
129. Spencer, *Principles of Sociology* (3v., London, 1876-96).
130. Laski, H., *Political Thought in England*, 109.
131. Taine, *Ancient Regime*, 213.
132. Walpole, *Letters*, II, 187 (Jan. 10, 1750).
133. Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 146.
134. Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 116.
135. Havens, *Age of Ideas*, 127.
136. Sorel, 169.
137. Grimm, *Correspondance*, II, 491.
138. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire* (1779 ed.), II, 142.
139. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 91.

140. Sorel, 171.
141. Faguer, *Dix-huitième Siècle*, 188.

CHAPTER XI

1. Desnoiresterres, I, 410.
2. Bain, R. N., in Voltaire, *Charles XII*, introd. xxi.
3. E.g. Buckle, I, 577.
4. Voltaire, *Charles XII*, p. 11.
5. *Ibid.*, 334.
6. Letter of Aug. 15, 1732, in *Works*, XXIa, 216.
7. *Zaire*, I, 1, in *Works*, Xa, 27.
8. *Zaire*, II, iii.
9. Desnoiresterres, II, 2.
10. Créqui, *Souvenirs*, 35.
11. Brandes, I, 256.
12. *Ibid.*, 347.
13. *Letters on the English*, Letter 1, in *Works*, XIXb, 193-98.
14. Letter v.
15. *Ibid.*
16. Letter viii, translation in Havens, *Age of Ideas*, 168.
17. *Ibid.*, 169.
18. Letter x.
19. Letter viii, Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 151.
20. *Works*, XIXb, 29.
21. Brandes, I, 203.
22. Voltaire, XIb, 212.
23. *Ibid.*, 219.
24. 235.
25. Buckle, I, 517.
26. Parson, I, 225.
27. *Ibid.*, 303.
28. 343.
29. Desnoiresterres, II, 139.
30. Parson, I, 384.
31. Desnoiresterres, II, 239.
32. *Ibid.*, III, 113-15.
33. Françoise de Graffigny, *Vie privée de Voltaire et Mme du Châtelet à Cirey* (Paris, 1820), in Brandes, I, 400.
34. Brandes, I, 354.
35. Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 190.
36. Parson, I, 391.
37. Créqui, 35.
38. Parson, I, 389.
39. Wade, Ira, *Voltaire and Mme. du Châtelet*, 14.
40. *Ibid.*
41. 37.
42. Brandes, I, 388.
43. Voltaire, XXIa, 197-201.
44. Desnoiresterres, III, 330.
45. Voltaire, XXIa, 193, 209.
46. Letter of Apr. 15, 1741, in Gay, *Voltaire's Politics*, 26.
47. Brandes, I, 365, Desnoiresterres, II, 53.
48. Voltaire, XXTb, 107.
49. Ia, 299.
50. Voltaire, *Traité de métaphysique* (*Oeuvres complètes*, XLIII), end of Ch. i.
51. *Ibid.*, p. 187.
52. Taine, *Ancient Regime*, 258.
53. *La Pucelle*, Canto II, in *Works*, XXa, 83 f.
54. Voltaire, *Alzire*, I, 1.
55. Brandes, I, 361.
56. Parson, I, 415.
57. Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 474.
58. *Mahomet*, III, vi, in *Works*, VIIlb, 55.
59. Brandes, II, 8.
60. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, p. 101.
61. Gibbon, E., *Journal*, 130.
62. Parson, I, 462.
63. Brandes, I, 405.
64. *Ibid.*
65. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 75.
66. Parson, I, 542-45.
67. Martin, H., XV, 402.
68. Voltaire, XXTb, 98.
69. XXIa, 190, 193.
70. *Ibid.*, 195.
71. Parson, I, 575.
72. *Ibid.*, 352.
73. Voltaire, VIIlb, 12.
74. *Ibid.*, 14.
75. Voltaire, IIa, 282.
76. *Ib.*, 6.
77. *Ib.*, 41.
78. IIa, 63.
79. IIa, 26.
80. IIa, 44-45.
81. Parson, I, 581-82.
82. Voltaire and Frederick, *Letters*, 138, 191.
83. Longchamp in Parson, I, 553 f.
84. Longchamp in Desnoiresterres, III, 246 and Parson, I, 556.
85. Parson, I, 562.
86. Voltaire and Frederick, *Letters*, 197.
87. Desnoiresterres, III, 390.
88. Parson, I, 571.
89. Voltaire-Frederick *Letters*, 33.
90. Voltaire, *Lettres d'amour à sa nièce*, 53.
91. Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 46. Dr. Besterman translates *cazzo* as "prick."
92. *Lettres d'amour*, 57, *Love Letters*, 48.
93. *Lettres d'amour*, 69, *Love Letters*, 54.
94. *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters*, 57.
95. *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters*, 58.
96. *Lettres d'amour*, 146.
97. *Love Letters*, 103.
98. *Lettres d'amour*, 15.
99. Marmontel, *Mémoires*, I, 121.
100. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 303.

01. Nicolson, *Age of Reason*, 110.
02. Voltaire-Frederick *Letters*, 212; Gay, *Voltaire's Politics*, 150
03. Gay, 151.

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 110.
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326, de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 483
3. Taine, *Ancient Régime*, 28
4. See Muhlhausen as described in Spitta *J. S. Bach*, I, 344
5. Lang, *Music in Western Civilization*, 608
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 255 (Nov 21, 1716).
7. Tietze *Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943
9. Desnoëtterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 314.
11. Francke, *History of German Literature*, 123.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 778.
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 30.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 818b.
18. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid.*, 298
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture* II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept. 5, 1748
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec. 17, 1716
25. Dillon, F., *Glass*, 5.
26. Bock, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin
28. Barockmuseum, Vienna.
29. Sirwell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music*, IV, 4.
31. Lang, 450
32. Spitta, *Bach*, II, 46. *Enc. Brit.*, XVII, 896b.

33. Spitta, III, 18
34. Rolland, *Musical Tour*, 84
35. *Ibid.*, 211.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 211n
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 119.
41. E.g. Concerto in D for trumpet, Suite in A Minor for flute, Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158 On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147
46. Lang, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 161-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid.*, 321.
54. Spitta, II, 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323
56. *Ibid.*, 404.
57. 292.
58. Lang, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167
66. Rolland, 71
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231
71. *Ibid.*, 230, Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238.
73. *Ibid.*, 242
74. 294

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV, 171
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 245.
4. Goodwin, 112
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 264. *New Camb Mod History* VII, 402.
6. In 1714-14.
7. 1726-33.

8. 1715-56
9. 1722-32.
10. 1729-32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733.
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; cf. Baedeker, *Austria*, 46.
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, *Lady M.*, I, 238.
16. Burney, *C.*, II, 942.
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 315.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 242.
21. *Ibid.*, 242.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II, 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 188.
25. *Camb. Mod. History*, VI, 110.
26. *Ibid.*, 113.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelmine, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 52, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 112.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid.*, 164.
38. Carlyle, II, 317.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 230.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66-68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51. Dec. 25, 1737.
52. Mar. 28, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Vallari, P., *Life and Times of Niccolò Machiavelli*, II, 201.
56. In Francke, *History of German Literature*, 230.
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 435.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740.
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575.
62. Carlyle, III, 161.
63. *Ibid.*, 163.
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571.
65. Carlyle, III, 175.
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 427.
67. Carlyle, III, 333.
68. *Ibid.*; Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143.
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443.
74. Lutzow, Count von, *Bohemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94.
76. *Ibid.*, 103.
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126.
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70.
80. Coxe, III, 309.
81. Carlyle, V, 36.
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 159.
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5.
85. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313.
87. Carlyle, V, 201.
88. *Ibid.*, III, 260.
89. Carlyle, V, 197, hody repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
91. Carlyle, V, 65.
92. *Ibid.*, VII, 462; Mowat, *Age of Reason*, 101.
93. Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 611.
94. Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n.
96. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid.*, 146.
101. Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XXIa, 213.
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Parton, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752.
106. Parton, II, 59.
107. *Ibid.*, 59-60, Desnoiresterres, IV, 196.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184.
109. Carlyle, V, 182.
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 113.
113. 114. Strachey, *Books and Characters*, 191.
4. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 116.
117. *Ibid.*, 103.
118. Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1753).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 18, 1753, in Lanfrey, *L'Eglise et les philosophes*, 161.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J. *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 17, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 172.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5. Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161.
9. Oechsli, 164.
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11. *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 245.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 261.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 110.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 50.
22. Épinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Épinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 138.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, Musée d'Art et d'Histoire.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 128.

34. Voltaire, *Essai sur les mœurs*, Ch. lxviii.
35. Morley, 184.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254.
38. Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Parton, I, 465.
40. Buckle, I, 580.
41. *Phil. Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64.
42. *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45. *Essai sur les mœurs*, Ch. xx.
46. *Ibid.*, Ch. cxxxix.
47. Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290.
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxcvii.
51. Ch. lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144.
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51.
55. Michelet, V, 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543; Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Locky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1775), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247.
7. Clark, G. N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 16.
10. Smith, P., *Modern Culture*, II, 555.
11. *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14. Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15. Brandes, II, 107.
16. Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Morner, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 258.
19. Cf. *Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351.
21. Faguet, *Literary History of France*, 361.
22. 516.
23. Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f.
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the authors.
27. In Lovejoy, *Essays*, 105.
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6.
30. Maverick, L. A., *China, a Model for Europe*, 126.
31. Fulop-Müller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485.
32. Reichwin, A., *China and Europe*, 124.
33. Voltaire, *Works*, VIIIa, 176.
34. Pinot, V., *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France*, 425.
35. *Ibid.*, 315, 281.
36. Maverick, 242.
37. *Ibid.*, 113.
38. *Philosophical Dictionary*, art. "Glory," in *Works*, Va, 208.
39. *Works*, XVIa, 119; XVIIIb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, xvi.
42. *Enc. Brit.*, XX, 62c.
43. *Ibid.*, 62h.
44. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 37-38.
45. French, S. J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
46. In Wolf, 353.
47. Moore, 44.
48. *Ibid.*, 42.
49. Huxley, T. H., *Science and Education*, 23.
50. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177.
51. Priestley, Jos., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195.
52. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
53. *Essay on the First Principles of Government*, in Huxley, 27.
54. *Ibid.*, in Willey, 197.
55. Schuster, M. Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187.
56. French, S. J., 215.
57. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166.
58. Moore, 49.
59. McKie, *Antoine Lavoisier*, 225.
60. *Ibid.*, 293.
61. 325.
62. 319.
63. 412 f.
64. 404.
65. 407.
66. French, 267.
67. Williams, III, 11.
68. Langer, W. L., *Encyclopedia of World History*, 435.
69. Berry, *Short History of Astronomy*, 325.
70. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec. 30, 1786).
71. Williams, III, 21.
72. *Enc. Brit.*, XI, 520d.
73. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
74. Martin, H., XV, 397.
75. Bell, *Men of Mathematics*, 171.
76. *Ibid.*
77. 172.
78. Laplace, *Système du monde*, V, vi, in Berry, 322.
79. Laplace, *Théorie analytique des probabilités*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 281.
80. Quoted by Cajon in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
81. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
82. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

CHAPTER XVI

1. Buckle, I, 66on.
2. Fuss, N., in Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 522.
3. Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70.
7. Whitehead, A. N., *Science and the Modern World*, 91.
8. Bell, 170.
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185.
12. Whitehead, 90.
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8.
14. Bertrand, *D'Alembert*, 32.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123.
16. Bertrand, 143, 153, 164, Ségur, *Julie de Lespmasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 275.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73.
20. Williams, II, 286.
21. *Ibid.*, 289.
22. 290.
23. 295, Wolf, 232.
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 11.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358.
27. *Ibid.*, 350.

- 69 In Bell, 182.
- 70 Berry, 307.
71. Wolf, 199.
72. Buffon, *Oeuvres*, IX, 455.
- 73 *Ibid.*, 388.
74. XI, 454.
75. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 169.
- 76 Buffon, *Oeuvres*, IX, 454.
- 77 Trittner, *Architects of Ideas*, 66.
78. Gourlie, *Prince of Botanists: Carl Linnaeus*, 3.
79. *Ibid.*, 34.
80. In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
- 81 Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
82. Sainte-Beuve, II, 263.
83. Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16.
- 84 Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 11, 130.
- 85 Beattie, *A Court Painter and his Circle*, 272.
- 86 Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
- 87 Gourlie, 270.
- 88 Wolf, 455.
- 89 *Ibid.*, 456.
- 90 457.
- 91 *Enc Brit*, XVIII 32.
- 92 Locy, 199.
- 93 Wolf, 349.
- 94 *Ibid.*, 450.
- 95 Jardine, Wm., *The Naturalist's Library*, 24.
- 96 *Ibid.*, 321.
- 97 Sainte-Beuve II, 264.
- 98 Osborn 136.
- 99 In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175.
- 100 Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, II, XVI, 37.
- 101 Goncourt, *Madame de Pompadour*, 145.
- 102 Osborn, H. F., *Men of the Old Stone Age* 3.
- 103 Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
- 104 In Smith, P., II, 518.
- 105 In Buffon, *Oeuvres complètes*, I, introd 1211.
106. Rousseau, letter of Nov 4, 1764.
107. Sainte-Beuve, II, 208.
- 108 Buffon, I, introd, 1211.
109. *Ibid.*, XII, 324-30.
110. *Ibid.* 324n.
111. Hazard, 144.
112. Voltaire, letter to Helvetius, Oct. 27, 1740.
113. Sainte-Beuve, II, 254.

- 114 Jardine, 32.
115. *Ibid.*, 29.
116. In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
117. Garrison, F., *History of Medicine*, 334.
118. Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 133.
119. Réaumur, *Mémoires*, in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
120. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
121. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118.
122. Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis* 81.
123. Osborn, 114-15.
124. *Ibid.*, 122.
125. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 147.
126. Turberville, A. S., ed., *Johnson's England*, II, 145.
127. Osborn, 119.
128. *Ibid.*, 145.
129. 146.
130. *Ibid.*
- 131 149.
- 132 Brett, G. S., *History of Psychology* 423.
133. Condillac, *Traité des sensations*, 38.
134. *Ibid.*
135. *Ibid.*, 70.
136. Wolf, 689.

CHAPTER XVII

1. Osler, *Evolution of Modern Medicine*, 187.
2. Sigerist, *Great Doctors*, 135.
- 3 Castiglioni, A., *History of Medicine*, 602.
4. Williams, H. S., *History of Science* IV, 78.
- 5 Garrison, *History of Medicine*, 346.
6. *Ibid.*
- 7 Vartanian, *Diderot and Descartes*, 170.
- 8 Wolf, 263.
- 9 Locy, *Growth of Biology*, 443.
10. Castiglioni, 613.
11. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Good."
12. Garrison, 402.
- 13 Besant, *London*, 180.
14. Himes, *Medical History of Contraception*, 187.
15. *Ibid.*, 191.
- 16 198.
17. Chesterfield, *Letters*, Feb. 5, 1750.
- 18 Voltaire, *Œuvres*, XIXb, 14.
19. Goncourt, *The Woman of the 18th Century*, 11.

۲۰. Sée, *Economic and Social Conditions in France in the 18th Century*, 42.
۲۱. Garrison, 321.
۲۲. Traill, *Social England*, V, 425.
۲۳. Chamousset in Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 272.
۲۴. *Ibid.*
۲۵. Garrison, 400.
۲۶. *Ibid.*
۲۷. Castiglioni, 657.
۲۸. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 179.
۲۹. Ercole, *Gay Court Life*, 421.
۳۰. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
۳۱. Castiglioni, 641.
۳۲. Traill, V, 51.
۳۳. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 308.
۳۴. Halsband, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 111.
۳۵. White, A. D., *Warfare of Science with Theology*, II, 55.
۳۶. *Ibid.*, 57; Garrison, 373.
۳۷. Voltaire, *Works*, XIXb, 20.
۳۸. Garrison, 351.
۳۹. Besant, 377-78.
۴۰. Garrison, 343.
۴۱. *Ibid.*, 110.
۴۲. La Mettrie, *Man a Machine*, dedication.
۴۳. *Phil. Dict.*, art. "Physicians."
۴۴. Ford, Boris, ed., *From Dryden to Johnson*, 211.
۴۵. Havens, *The Age of Ideas*, 345.
۴۶. Garrison, 353; Sigerist, 237.
۴۷. Aldis, *Madame Geoffrin*, 191; Herold, *The Swiss without Halos*, 85.
۴۸. Brandes, *Voltaire*, II, 111.
۴۹. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, III, 200.

